

مفردات اللغة العربية

تأليف
ه. ج. ويلز

ترجمة
عبد العزيز توفيق هادي
مراجعة
محمد سامي نجيب



اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد

شيخ المترجمين - القاهرة



موجز تاريخ العالم

تأليف
ه.ج. ويلز

مراجعة
محمد أمين نجار

ترجمة
عبد العزيز توفيق هادي



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي بالقاهرة

- ٢٠٤ الفصل الرابع والأربعون : عهد عظمة العرب
٢١٠ الفصل السادس والأربعون : الحروب الصليبية وعصر السيادة الباباوية
٢٨٢ الفصل السابع والأربعون : الأمراء المعارضون والصدع الأعظم
٢٣٦ الفصل الثامن والأربعون : فتوح المغول
٢٤١ الفصل التاسع والأربعون : النهضة الفكرية الأوروبية
٢٥٠ الفصل الخمسون : إصلاح الكنيسة اللاتينية
٢٥٤ الفصل الحادى والخمسون : الإمبراطور شارل الخامس
٢٦٢ الفصل الثانى والخمسون : عصر تجارب سياسية وملكيات عظمى وبرلمانات
وجمهوريات بأوربا
٢٧٥ الفصل الثالث والخمسون : إمبراطوريات الأوربيين الجديدة فى آسيا وما
وراء البحار .
٢٨٠ الفصل الرابع والخمسون : حرب استقلال أمريكا
٢٨٦ الفصل الخامس والخمسون : الثورة الفرنسية وعودة الملكية فى فرنسا
٢٩٣ الفصل السادس والخمسون : السلم الأوروبى المقلقل بعد سقوط نابليون
٢٩٨ الفصل السابع والخمسون : نمو العرفان المادى
٣٠٧ الفصل الثامن والخمسون : الانقلاب الصناعى
٣١١ الفصل التاسع والخمسون : تطور الآراء السياسية والاجتماعية المعاصرة
٣٢٣ الفصل الستون : امتداد رقعة الولايات المتحدة
٣٣١ الفصل الحادى والستون : ألمانيا تصبح دولة عظمى
٣٣٤ الفصل الثانى والستون : الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار بفضل
السفن البخارية والسكك الحديدية
٣٤٠ الفصل الثالث والستون : العدوان الأوروبى على آسيا ونهوض اليابان
٣٤٥ الفصل الرابع والستون : الإمبراطورية البريطانية فى ١٩١٤
٣٤٨ الفصل الخامس والستون : عصر التسليح فى أوربا والحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨
٣٥٤ الفصل السادس والستون : النظام الجديد بالروسيا
٣٦٢ الفصل السابع والستون : عصبة الأمم

٣٦٧	الفصل الثامن والستون : إخفاق عصبة الأمم
٣٧٩	الفصل التاسع والستون : الحرب العالمية الثانية
٣٩٣	الفصل السبعون : أزمة التكيف البشرى
٣٧٩	الفصل الحادى والسبعون : من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤ العقل البشرى فى أقصى توتره
٤١٤	جدول تاريخى زمنى
٤٢٨	فهرس أبجدى للكتاب

محتويات الكتاب

صفحة

ز	فهرس الخرائط	
ط	مقدمة المترجم	
م	مقدمة المؤلف	
٣	الفصل الأول	: العالم والفضاء
٦	الفصل الثاني	: العالم والزمان
٩	الفصل الثالث	: بدايات الحياة
١٢	الفصل الرابع	: عصر الأسماك
١٥	الفصل الخامس	: عصر مستنقعات الفحم
١٩	الفصل السادس	: عصر الزواحف
٢١	الفصل السابع	: الطيور الأولى والثدييات الأولى
٢٧	الفصل الثامن	: عصر الثدييات
٣١	الفصل التاسع	: القردة العليا وأشباه الإنسان
٣٦	الفصل العاشر	: الإنسان النياندرتالي والروديسي
٤١	الفصل الحادى عشر	: الإنسان الحقيقى الأول
٤٥	الفصل الثانى عشر	: الفكر البدائى
٤٩	الفصل الثالث عشر	: بدايات الزراعة
٥٤	الفصل الرابع عشر	: حضارات العصر الحجري الحديث البدائية
٦٠	الفصل الخامس عشر	: سومر ومصر فى العصور الأولى ونشأة الكتابة
٦٤	الفصل السادس عشر	: الشعوب المرحلة البدائية
٦٨	الفصل السابع عشر	: أول الشعوب البحرية
٧٣	الفصل الثامن عشر	: مصر وبابل وآشور
٧٩	الفصل التاسع عشر	: الآريون البدائيون

٨٣	الفصل العشرون : الإمبراطورية البابلية الأخيرة وإمبراطورية دارا الأول
٨٩	الفصل الحادى والعشرون : تاريخ اليهود القديم
٩٥	الفصل الثانى والعشرون : كهان وأنبياء فى بلاد اليهودية
٩٩	الفصل الثالث والعشرون : الإغريق
١٠٥	الفصل الرابع والعشرون : الحرب بين الإغريق والفرس
١٠٩	الفصل الخامس والعشرون : بلاد الإغريق إبان مجدها
١١٢	الفصل السادس والعشرون : إمبراطورية الإسكندر الأكبر
١١٦	الفصل السابع والعشرون : متحف الإسكندرية ومكتبتها
١٢١	الفصل الثامن والعشرون : حياة جوتاما بوذا
١٢٦	الفصل التاسع والعشرون : الملك آسوكا
١٢٨	الفصل الثلاثون : كونهوشوس ولاهوتسى
١٣٣	الفصل الحادى والثلاثون : ظهور روما على مسرح التاريخ
١٣٨	الفصل الثانى والثلاثون : بين روما وقرطاجنة
١٤٣	الفصل الثالث والثلاثون : نمو الإمبراطورية الرومانية
١٥٤	الفصل الرابع والثلاثون : بين روما والصين
١٦٠	الفصل الخامس والثلاثون : حياة الرجل العادى فى عهد الإمبراطورية والرومانية القديمة
١٦٦	الفصل السادس والثلاثون : التطورات الدينية فى ظلال الإمبراطورية الرومانية
١٧٢	الفصل السابع والثلاثون : تعاليم يسوع
١٧٧	الفصل الثامن والثلاثون : تطور المسيحية المذهبية
١٨٢	الفصل التاسع والثلاثون : البرابرة يشطرون الإمبراطورية إلى شطرين : شرقى وغربى
١٨٧	الفصل الأربعون : الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية
١٩٢	الفصل الحادى والأربعون : الإمبراطوريتان البيزنطية والسامانية
١٩٧	الفصل الثانى والأربعون : أسرتا « سوى ، وتانج » بالصين
٢٠٠	الفصل الثالث والأربعون : محمد والإسلام

موجز تاريخ العالم

مقدمة المترجم

كان طبيعياً وقد ترجمت «المعالم» أن يتجه الفكر إلى شقيقه «الموجز». ذلك أن «المعالم» ليس سفراً يسجل التاريخ ويدون أحداثه فحسب بل هو قوة دافعة تكاد تجعله من صناعات التاريخ، فهو بما جمع من دعوات ومذاهب وتعاليم من بنات أفكار مؤلفه، يعد من الصور التي تتحول عندها أحداث هذا الكوكب. وبحسب القارىء ما به من تبصرة لمن حجب عنه البصر بأمور الدنيا، وتنوير لمن أحاطت به سدفة الظلمات، بحسبه ما فيه من إحاطة شاملة بأحداث هذا الكوكب الذى عليه نعيش، تعده إقليماً واحداً بل قطراً واحداً، استغفر الله بل قرية واحدة، يجب أن يقوم فيها من التكافل والتعاضد والتعاطف ما يقوم فى كل ريف، ويجب أن يزول منه من أسباب الخلاف والتنافر ما ينبغى أن يزول من الريف السعيد الذى ترفرف عليه ألوية الوثام. وبحسب القارىء أيضاً ما بالكتاب من نظرة عملية بيولوجية إنسانية إلى سكان هذه الدنيا ترجو أن تعمهم المساواة والإخاء والصفاء، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود ولا أسمر ولا استعماري ولا مستعمر ولا استغلالي ولا مستغل، بل الكل فى حظ الحياة سواء. والرزق والثمرات وركاز الأرض وخيراتها قسمة بين الجميع، وقسمة عادلة لا قسمة ضيزى.

كان طبيعياً وقد ترجم المعالم بما حوى من ذم لدول الغرب خاصة بريطانيا وفرنسا ونعى على سوء تدبيرها، وضيق أفق رجالها وقلة درايتهم بطبائع البشر وسوء استغلالهم للموارد البشرية؛ أقول كان طبيعياً أن يتجه الفكر إلى هذا الموجز الذى تجده بين يديك عسى أن يفيد به من لم يقع كتاب المعالم فى يده.

كان هذا الموجز عندي مذكنت طالباً بمدرسة المعلمين، تراودنى نفسى على ترجمته وتأبى ظروفى إلا أن تحول دون ذلك. بل لقد حالت الظروف دون مطالعته كله. وإن ألمت به فى بعض ما تيسر لى من وقت الفراغ إلمامات وصلت بين نفسى وبين مؤلفه العظيم إلى أن حانت الساعة السعيدة التى اتصلت فيها به منذ ١٩٤٠ حين

ترجمت المعالم ، خفالت آراء الكاتب منذ ذلك الوقت من مهجة اللحم والدم ، وإذا
هي قطعة من حياتي الفكرية . وبفضل هذا المؤلف العظيم بات قطعة من حياتي الإيمان
بالمجالس النيابية الدستورية . وجرى في العروق مجرى الدم الإيمان بالحرية الفردية
والحرية العامة ، وذلك فضلا عما كان يخالط الروح بطبيعة الحال من كره الإنجليزى
الذى كان منذ حداثتنا يغتصب السلطان في هذا البلد المسكين ، وفضلا عما لهجت به
النفس المصرية مع المؤلف من حقد على الاستعمار والاستثمار الأجنبي والاستغلال :
استغلال الأجنبي للمصرى واستغلال الغنى للفقير واستغلال الإقطاعى للضعيف .

لا عجب إذن أن تطرب النفس بالعودة إلى هـ . ج . ولز . بعد انقطاع الصلة به
فترة ما بين المعالم والشروع في نقل الموجز ، وزاد من شعور السعادة إحساسى بأنى
أقرب للقارىء منها جديداً إن عز عليه في المعالم ارتياده لعظم سعته ، لقد سهل عليه
في الموجز وروده ، وسرني أنى وجدت آراء الرجل في الكثير من الأخوين مبثوثة
في الصغير ، فعلمت أنى أقدم لقارىء العربية أفكار الرجل نفسها في ثوب موجز أنيق
يستطيع تناوله ما عن له وقت فراغ في ليل أو نهار ، مع يسر المأخذ وقرب
المتناول ، ولا يغرنك قوله في مقدمته إن هذا الكتاب ليس خلاصة للمعالم . إذ الواقع
الذى لا مزية فيه أنه خلاصة له نظر إليها من زاوية جديدة . وإلا ففهم طرب المؤلف
الجليل في الكتابين كليهما بنشوء الحضارات وإشادته بالبدايات التى أثرت في الثقافة
والفكر الإنسانى ؟ وانظر إليه في الكتابين كليهما وهو يدق البشائر فرحاً بالكتابة
وصناعة الورق ، ونشوء العلوم الحديثة على أيدي يونان ، وسمود منار العلم البطلمى
بالإسكندرية ، ورفع العرب لواء الحضارة بين المحيطين . وكم تحزنه الحروب ويشقيه
ما تعود به على الإنسانية من دمار ووقوف بدولاب المدنية عن التقدم ، وإذا أهازيج
النصر تتناقل أنغامها حتى لتردد في الآذان رنات المراثى الفاجعة .

هكذا كان موقف المؤلف في الكتابين من نابليون ومن غليوم ومن هتلر وكل
مضيع لجهود البشرية مبدد لها في أتون الحديد والنار . فإن كان القارىء المصرى
الضيق الوقت يستطيع بهذا الكتاب أن يحصل تلك المعلومات ويؤمن بهذه المثل التى
دعا إليها الإسلام في أوج مجده ألاوهي الحضارة ومسيرة ركب التقدم والحرية ودعت
إليها انتفاضة مصر في عهد ثورتها الفتية عام ١٩٥٢ ، فذلك حسبي وغاية ما أرجو .

فهرس الخرائط

رقم الخريطة	رقم الصفحة	عنوان الخريطة
١	٣٩	خريطة تقريبية لمعالم أوروبا وآسيا الغربية
٢	٥٧	علاقات الأجناس البشرية
٣	٨٥	العلاقة بين الإمبراطورية الميديّة والبابلية الثانية
٤	٨٧	إمبراطورية دارا
٥	٩١	فلسطين
٦	١٤١	امتداد سلطان روما وأحلافها حوالي ١٥٠ ق. م
٧	١٥٧	الإمبراطورية والبرابرة
٨	٢٠٥	اتساع رقعة الدولة الإسلامية في ٢٥ عاما
٩	٢٠٧	الإمبراطورية الإسلامية سنة ٧٥٠ م
١٠	٢١٤	حدود ممتلكات الفرنجة في عهد شارل مارتل
١١	٢١٦	أوروبا عند وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م
١٢	٢٣٧	إمبراطورية جاكيزخان عند وفاته سنة ١٢٢٧
١٣	٢٤٠	الإمبراطورية العثمانية عند وفاة سليمان القانوني ١٥٦٦
١٤	٢٧١	أوروبا الوسطى بعد صلح وستفاليا (١٦٤٨)
١٥	٢٧٧	ممتلكات بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وأمريكا في ١٧٥٠
١٦	٢٨٣	امتداد الاستيطان في أراضي الولايات المتحدة في ١٧٩٠
١٧	٢٩٦	أوروبا بعد مؤتمر فيينا
١٨	٣٣٢	أوروبا من ١٨٤٨ إلى ١٨٧١
١٩	٣٣٨	الإمبراطورية البريطانية سنة ١٨١٥
٢٠	٣٥٠	الإمبراطوريات الأوروبية وراء البحار يناير ١٩١٤

مقدمة المؤلف

الغرض من هذا الموجز لتاريخ العالم أن يقرأ من أوله لآخره قراءة سريعة متتابعة كما لو كان إحدى الروايات . إذ يقدم إلى القارئ بأبسط الطرق وأعمها بياناً بمعارفنا التاريخية الراهنة مجردة من التفاصيل والتعقيدات . كما يراد منه أن يحصل القارئ على تلك الصورة الكلية للتاريخ التي يتكون منها الهيكل الذي لا بد منه عند دراسة حقبة معينة أو تاريخ قطر بالذات . وهو توطئة نافعة تمهد للقارئ الاضطلاع بمطالعة شقيقه الأكثر جلاء واستيفاء الموسوم « Outline of History »^(١) لنفس المؤلف . ومع ذلك فإن الغاية الرئيسية منه هي سد حاجة القارئ العادي الكثير المشاغل ، الذي يضيق وقته عن الانقطاع لدراسة تفصيلية لما في « المعالم » من خرائط ومصورات زمانية ، والذي يرغب في تجديد ما يبقى في مخيلته من صورة زاوية مضمحلة للمغامرة العظمى للجنس البشري .

وليس كتابنا هذا ملخصاً « للمعالم » ولا صورة مركزة لما فيه . ذلك أن كتاب « المعالم » - في حدود الهدف الذي رسم له مركز تركيزاً ليس وراءه زيادة لمستزيد ، وكل ما في الأمر ، أن هذا الكتاب تاريخ أكثر تعمياً أقيم على خطة أخرى وحرر تحريراً جديداً ؟

هـ . جـ . ولز

(١) وقد نقله إلى العربية مترجم هذا الكتاب تحت اسم « معالم تاريخ الإنسانية » ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وفي الكتاب آراء للمؤلف قد تخالف رأينا ولكننا أبقيناها في موضعها عملاً بحرية.
الرأى ومن قبيل ذلك ما جاء بالصفحات ١٧٣ و ١٧٦ عن قصة صلب المسيح فقد.
أبقيناها لأنها تمثل وجهة النظر المسيحية ، أما رأى الإسلام في هذه القصة فمعروف .
لا يحتاج إلى بيان .

وقد ضبطنا الترجمة على آخر طبعة أصدرها المؤلف قبيل وفاته وأضاف إليها فصلاً
عن الحرب العظمى الثانية (أكملنا ما ينقصه من حلقات) وضمنه أمانيه الخالصة للبشرية .
محذراً إياها عواقب أخطائها وموضعاً لها سبيل النجاة ؟

مصر الجديدة في ١٤ يونيه ١٩٥٨ عبد العزيز توفيق جاويز

موجز تاريخ العالم

الفصل الأول

العالم والفضاء

إن قصة عالمنا لا تزال بتراء يعتورها النقص من كل جانب . فإن كل ما كان لدى الناس من معلومات تاريخية قبل زماننا هذا بقرنين ، لم يكن مداه يتجاوز الثلاثة آلاف عام الأخيرة . أما ما حدث في العالم قبل ذلك فكان أسراً تضرب فيه الأساطير والظنون بسهم وفير ، وكان الناس في شطر كبير من العالم المتحضر ، يعتقدون ويلقنون أن العالم قد خلق على حين بغتة في عام ٤٠٠٠ ق.م ، وإن اختلاف الثقافات فيما إذا كان ذلك الخلق قد حدث في خريف تلك السنة أو ربيعها ١١٠٠٠ . وقد قام هذا الوهم الخاطيء العجيب في دقة تحديده على المبالغة في تأويل « العهد القديم » العبراني ، تأويلاً حرفياً أو بالأحرى على افتراضات وتفسيرات لاهوتية رائدها التعسف ، ولقد تخلى معلمو الأديان منذ أمد بعيد عن مثل هذه الأفسكار ، وجمهرة الناس اليوم يرون أن العالم الذي نعيش فيه كان - فيما توحى به جميع الظواهر - موجوداً طوال حقبة هائلة من الزمان ، ربما لم تسكن لها بداية ، ومن البديهي أن تلك الظواهر ربما انطوت على شيء من الخداع والتضليل ، على غرار الهيئة اللانهائية التي تتراءى لنا عن حجرة وضعت بها مرآيا متقابلة في كل من طرفيها . أما القول بأن العالم الذي فيه نعيش لم يخلق إلا منذ ستة أو سبعة آلاف من الأعوام ، فهو فكرة لا يمكن اعتبارها إلا باطلة تماماً .

والأرض ، كما يعرف كل إنسان اليوم ، ذات شكل شبه كروي ، أي أنها كرة مضغوطة قليلاً على نمط البرتقالة ، ذات قطر طوله ثمانية آلاف من الأميال تقريباً . وكان شكلها الكروي معروفاً لدى عدد يسير على الأقل من نجباء الناس ، منذ قرابة ٢٥٠٠ سنة ، ولكن الناس كانوا قبل ذلك الزمن يظنون أنها منبسطة ، كما كانوا يذهبون في شأن علاقاتها بالجو والنجوم والكواكب السيارة مذاهب شتى تبدو اليوم غريبة . ونحن اليوم نعرف أنها تدور حول محورها (الذي هو أقصر من قطرها الاستوائي بأربعة وعشرين ميلاً تقريباً) مرة في كل أربعة وعشرين ساعة ، وأن ذلك هو السبب في تعاقب الليل والنهار ، وأنها تتم دورة كاملة حول الشمس مرة في كل

عام في مدار يضاوى منحرف قليلا ومتغير تغيراً بسيطاً . ويتراوح بعدها عن الشمس ، بين واحد وتسعين مليوناً ونصف المليون من الأميال في أقرب أوضاعها ، وبين أربعة وتسعين مليوناً ونصف المليون من الأميال .

وتدور من حول الأرض كرة أصغر حجماً ، هي القمر ، على مسافة متوسطها ٢٣٩.٠٠٠ ميل . وليست الأرض والقمر السكتتين الوحيدتين اللتين تسبحان حول الشمس . فهناك كذلك من الكواكب السيارة ، عطارد والزهرة ، على بعد ٣٦ ، ٦٧ من ملايين الأميال ؛ وفيما وراء مدار الأرض وبغض النظر عن منطقة من أجرام كثيرة أصغر حجماً ، هي السيارات الصغرى (الكويكبات) Plauetoids ، يوجد المريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون على أبعاد متوسطها ١٤١ ، ٤٨٣ ، ٨٨٦ ، ١٧٨٢ ، ٢٧٩٣ مليون ميل على التعاقب ، ولا شك أن من العسير على الأفهام تصور هذه الأرقام المقدرة بملايين الأميال . وربما يسر الأمر على خيال القارىء تصغير حجم الشمس والكواكب إلى مدى أصغر يكون أدنى إلى التصور .

فإذا نحن على هذا الاعتبار صغرنا الأرض إلى كرة قطرها بوصة واحدة ، وجب أن تكون الشمس كرة كبيرة ذرع قطرها تسعة أقدام وعلى مبعده ٢٣٣ ياردة ، أى ما يقارب خمس ميل تستغرق أربعاً أو خمساً من الدقائق مشياً على الأقدام ، وعند ذلك يكون القمر في حجم حمصة صغيرة على بعد قدمين ونصف من الأرض . ثم يأتى بين الأرض والشمس الكوكبان الداخليان ، عطارد والزهرة ، على بعد ١٢٥ ياردة ، ٢٣٣ ياردة من الشمس . ثم ينهض من حول هذه الأجرام فراغ يمتد حتى يبلغ المريخ وهو وراء الشمس بـ ٤٩٠ ياردة ، والمشتري وهو على ما يدانى الليل ، وقطره قدم واحدة ، ثم يجيء زحل وهو أصغر قليلاً وعلى مسافة ميلين ، فأورانوس على أربعة أميال ، ثم نبتون على ستة أميال . ثم تأتى اللابثية والعدم لولا بعض جزئيات صغيرة وقطع متحركة من البخار الخفيف تمتد إلى آلاف من الأميال ، ويكون أقرب نجم من الأرض على هذا المقياس نفسه على بعد ٥٠.٠٠٠ ميل .

وربما أعانتنا تلك الأرقام على تكوين صورة عن الخواء الذريع الذى يعم الفضاء الذى فيه تتوالى مسرحية الحياة .

ذلك أننا فى كل هذا الخواء الذريع الذى يعم الفضاء لا نعلم يقيناً بوجود الحياة

إلا على سطح أرضنا ، تلك الحياة التي لا تغوص في باطنها لأكثر من ثلاثة أميال من الأربعة الآلاف التي تفصلنا عن مركز كرتنا الأرضية ، كما أنها لا تعلو إلى أكثر من خمسة أميال فوق سطحها . وكل ما بقي بعد ذلك من فضاء لا حد له ولا نهاية يتكون — حسبما يبدو — من خواء وعدم .

وأعمق ما بلغه الغوص في أعماق المحيطات هو خمسة أميال . كما أن أعلى ما سجله الطيران من ارتفاع في أطباق الجو لم يتجاوز الأربعة أميال إلا قليلا . . . حقا إن الإنسان قد صعد في الجو إلى سبعة أميال بالمناطيد ، إلا أنه كابد في سبيل ذلك آلاما ذريعة . . ولا يستطيع طائر أن يرتفع إلى خمسة أميال ، إذ أن صغار الطيور والحشرات التي حملتها الطائرات تفقد وعيها قبل بلوغ ذلك المستوى من الارتفاع .

الفصل الثاني

العالم والزمان

ذهب العلماء في السنوات الخمسين الأخيرة مذاهب شتى وممتعة في تقدير عمر الأرض وأصلها . ولسنا ندعى ههنا أننا سنبدلي بموجز لتلك الآراء ، وذلك لانطوائها على أدق الاعتبارات الرياضية والطبيعية ، والحق أن العلوم الطبيعية والفلكية لا تزال حتى الآن بعيدة عن الاكتمال بعداً يجعل كل ما بذل في مضمارها مجرد افتراضات تخمينية . والانجاء العام للعلماء ينجح كل يوم إلى زيادة العمر المقدر للأرض . وأرجح تقديراتهم الآن أن الأرض كان لها وجود قائم بذاته ككوكب دوار يواصل الدوران حول الشمس لأكثر من بليونين (٢٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) من السنين . وربما كانت المدة أطول من ذلك كثيراً ، ولكنها مدة يعجز الخيال تماماً عن تصورها .

ولعل الشمس والأرض والكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس كانت قبل تلك الفترة السحيقية من وجودها المنفصل دوامة هائلة من المادة المنتشرة في الفضاء . ويكشف لنا المرقب (التلسكوب) في أجزاء مختلفة من السماوات عن غمامات لولبية منيرة من المادة ، هي السدم الحلزونية التي تبدو في دوران مستمر حول مركز . ويظن كثير من علماء الفلك أن الشمس وكواكبها السيارة كانت يوماً أحدث تلك السدم الحلزونية ، وأن مادتها قد تحولت بالتركيز إلى شكلها الحالي ، وتواصل ذلك التحول التركيزي دهوراً هائلة حتى أصبحت الأرض وقمرها مميزين في تلك الحقبة البعيدة من الماضي السحيق ، الذي ترجمناه بالأرقام ، وكانا يدوران آنذاك بسرعة أكبر من سرعتيهما الحالية ، إذ كان بعدهما عن الشمس أقل ؛ لذلك كانا يسبحان حولها بسرعة أشد ، ولعلهما كانا عند ذلك متوهجين أو منصهرين السطح ، وكانت الشمس نفسها شعلة في السماء أكبر كثيراً مما هي عليه الآن .

ولو أننا استطعنا أن نخترق آماد ذلك الزمان السرمدي ، لنرى الأرض في تلك المرحلة المبكرة من تاريخها لشهدنا منظراً أشبه بباطن أتون الصهر ، أو سطح

دافق من اللافا^(١) المنصهرة قبل أن تبرد وتتصلب — منه نبأى مشهد آخر معاصر .
ولن نجد الماء هناك بطبيعة الحال ، إذ أن الماء الموجود قد استحال إلى بخار مستعر في
جو عاصف من الأبخرة الكبريتية والمعدنية . ولعلنا نجد من دون هذه الأبخرة بحراً
متلاطماً من المواد الحجرية المنصهرة . وإن وهج الشمس والقمر لير مارفاً كسهم من
لافح الذهب عبر جو من سحب نارية .

وبتعاقب السنين مليوناً في إثر مليون يأخذ ذلك المشهد الناري البركاني في فقدان
لظاه المتأجج ببطء تدريجي وتنساب أبخرة السماء إلى الأرض مطراً فيقل تركزها في
الجو . وتظهر على سطح ذلك البحر المنصهر كتل عظيمة من زبد الصخور الآخذة في
التصلب ، ثم تهبط دون السطح ليحل محلها كتل أخرى طافية . وتندفع الشمس والقمر
عبر السموات في سرعة متضائلة وقد أخذوا يزدادان بعداً ويصغران حجماً . وعند ذلك
تكون حرارة القمر — نظراً لصغر حجمه — قد بردت بالفعل إلى ما دون التوهج ،
ثم يأخذ على التوالي يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويعكسه إليها في سلسلة متعاقبة
من الكسوف والبدور الكاملة .

وعلى هذا النحو من البطء التدريج في خلال الزمن السرمدي أخذت الأرض تزداد
قرباً من حالها التي نعيش عليها اليوم ، حتى جاء في النهاية عصر بدأ فيه البخار يتكثف
سحباً في الهواء البارد نوعاً ، ثم تساقط أول المطر محدثاً نشيهاً^(٢) على ما تحته من
الصخور الأولى . وتنقضي آلاف لا حصر لها من السنوات يظل أثناءها الجزء الأكبر
من مياه الأرض بحاراً ، ولكن توجد هناك عندئذ سيول من التيارات الساخنة التي
تنساب على الصخور الآخذة في التبلور من تحتها ، كما توجد البرك والبحيرات التي تحمل
تلك التيارات إليها حتاتة الأرض وتلقى فيها بالرواسب .

ولا بد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر إلى مرحلة يستطيع فيها «إنسان»
أن يقف على قدميه فوق الأرض وأن يتأمل ماحوله ويعيش على ظهرها ، ولو أنه قدر لنا
أن نزور الأرض في تلك الزمان لاضطررنا أن نقف على كتل ضخمة من الصخر الشبيه
« باللافا » دون أن نعثر على أي أثر للتربة أو أية بقية للنبات ، في جو مكهر بالزوابع .

(١) اللافا (Lava) هي المادة الذائبة التي تذفها البراكين من فوهاتها .
(٢) النشيش : صوت الغليان ، وذلك لأن المطر عند ما يلتقي بالصخور الساخنة يتبخر على الفور .

وربما تعرضنا آنذاك لعصف رياح حارة عنيفة تفوق أعنف ما نعرف من العواصف الهوجاء ، ولفجأتنا من المطر انهيارات لا تتأني اليوم لأرضنا الأكثر وداعة والأشد بطئا ، ولوجدنا ماء ذلك المطر المنهمر يتدافع حوالينا عكراً بحطام الصخور ويلتقي بعضه ببعض في سيول جارفة تنحت الخوانق العائرة والوديان وهي مندفعة إلى البحار الأولى لتودعها رواسيها .

ولا بد أننا كنا نلمح من خلال السحب شمساً هائلة تتحرك أمام نواظرنا عبر السماء ، كما كنا نشهد في أعقابها حين تمر وفي أعقاب القمر حركة مد يومية قوامها الزلازل والارتفاعات والتقيبات في القشرة الأرضية . ولا بد أن القمر الذي يطل الآن على الأرض بوجه واحد لا يتغير ، كان حينئذ يدور منيراً مرئياً كاشفاً الوجه الذي يداوم الآن ستره .

فلما شاخت الأرض ، وطال اليوم ، وغدت الشمس أبعد مسافة وأهدأ حدة ، وبطؤت سرعة القمر في السماء ، خفت وطأة الأمطار والعواصف ، وتزايد المساء في البحار الأولى وجرى جملة إلى المحيط الذي أصبح منذ ذلك الحين دثاراً لسكوكنا . ومع ذلك فلم تسكن ثمة حياة على الأرض ، فكانت البحار خلوا من الأحياء ، والصخور جرداء قاحلة .

الفصل الثالث

بدايات الحياة

المصدر الذى نستقى منه إلى حد كبير معلوماتنا عن الحياة قبل ابتداء المحافظة على الذكريات والتقاليد الإنسانية الأولى هو الآثار والحفريات التى خلفتها الكائنات الحية فى الصخور الطباقية . ذلك بأن الطفل والإردواز والحجر الجيرى والرملى كلها تحتفظ لنا بالعظام والأصداف والألياف والجذوع والفواكه وآثار الأقدام والخدوش وما إليها ومعها آثار المد والجزر منذ أقدم العصور ، والخدوش التى أحدثتها أقدام الأمطار ، وقد تم لنا جمع التاريخ القديم لحياة الأرض فلذة بعد فلذة بطريق الفحص المضى عن هذا السجل الحجرى . وذلك أمر يعد اليوم من المعلومات العادية ولكن الصخور الطباقية (الرسوبية) لا تترقد طبقة فوق طبقة بنظام دقيق أنيق ؛ بل إنها تغضت والتوت وتبعثرت وتعوجت ثم اختلطت على نحو ما يصيب صحف مكتبة منيت مرارا وتكرارا بالنهب والحريق ، ولذا فلم يتسن تنظيم هذا السجل وقراءته إلا بعد أن استنفدت فى سبيل ذلك أعمار كثيرة تفانى أصحابها فى الإخلاص لذلك العمل . ويقدر المدى الزمانى الكامل الذى يمثله سجل الصخور بـ ١٠٠٠ مليون سنة — ١٠٠٠ مليون سنة .

والجيولوجيون (علماء طبقات الأرض) يسمون أقدم صخور ذلك السجل الصخرى باسم الصخور « الآزوية Azoic » ، أى التى لا يبدو فيها أى أثر للحياة . وتوجد مساحات مترامية من هذه الصخور الآزوية عارية جرداء فى شمال أمريكا ، وهى بدرجة من السمك جعلت الجيولوجيين يقدرون عمرها بما لا يقل عن نصف عمر السجل الجيولوجى بأكمله . وإنى لمكرر على مسامعكم هذه الحقيقة الخطيرة : وهى أن نصف الحقبة الزمنية العظمى التى انقضت منذ أن تمايز اليابس والماء لأول مرة على ظهر الأرض ، لم يخلف لنا أى أثر للحياة ، حقاً لا تزال توجد على تلك الصخور آثار تموجات الماء وخذشات الأمطار ، ولكن ليس بها دلالات ولا آثار لأى كائن حى .

فإذا صعدنا درجات السجل بعد ذلك ، بدت علامات الحياة الماضية وأخذ عددها يتزايد . ويسمى الجيولوجيون هذا العصر من حياة العالم الذى نجد فيه هذه الآثار العابرة باسم الزمن الباليوزوى Palaeozoic السفلى .

وأول الدلالات على وجود الحياة ، الآثار والرفات الباقية لكائنات بسيطة وديئة نسبيا ؛ مثل أصداف أسماك محارية صغيرة وجذوع لحيوانات نباتية^(١) ، وروعس لها تشبه الأزهار وأعشاب بحرية ، وآثار لحركات ديدان البحر والقشريات وبقاياها . وتظهر منذ زمن مبكر جدا مخلوقات معينة تكاد تشبه قمل النبات ، وهى كائنات زاحفة لها قدرة على تكوير نفسها ، كما يفعل قمل النبات ، وتسمى التريلوبييت أى المثلثة الفصوص^(٢) . وبعد ذلك بيضعة ملايين من السنين تظهر أنواع معينة من العقارب البحرية ، وهى كائنات ألين حركة من كل ما شهده العالم من قبل من كائن حى وأكثر كفاية وقدرة .

ولم نلاحظ أية واحدة من هذه المخلوقات بضخامة الحجم وأكبرها صنف من العقارب البحرية كان طوله تسعة أقدام ، وليس هناك أى دليل يشهد على وجود أى نوع من الحياة فى البر نباتية كانت أو حيوانية ، ولا يحتوى هذا الجزء من السجل على أسماك ولا كائنات فقارية . وجميع النباتات والكائنات التى تخلفت لنا بقاياها عن تلك المدة من تاريخ الأرض ، ليست بالضرورة إلا كائنات مياه ضحلة أو مياه المناطق التى يتعاورها المد والجزر . وإذا شئنا أن نجد فى العالم اليوم شبيها لنبات وحيوان الصخور المتكونة فى الزمن الجيولوجى (الباليوزوى) السفلى العتيق ، لوجدناه على أحسن صورة من كل النواحي إلا فى الحجم فى قطرة من الماء نأخذها من بركة صخرية أرحفرة مزبدة آسنة ، تم تنفحصها تحت الميكروسكوب (المجهر) ، فما نجد هناك من القشريات والسماك المحارى الضئيل والحيوانات النباتية والطحالب يكون ذا شبهة أخاذ بتلك الأصناف الأولى الفجيعة . الأكبر حجما التى كانت فى يوم من الأيام أسمى ما بلغتته الحياة على « كوكبنا » الأرض . ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أنه يحتمل أن صخور الزمن الباليوزوى السفلى قد لا تزودنا بشيء ما يمثل أو بدايات الحياة على كوكبنا . فإذا لم يكن للمخلوق عظام

(١) مثل ذلك الإسفنج والمرجان واسمها العلمى المريجيات Zoophytes .

(٢) المثلثة الفصوص Trilobite هى حفريات من العصر الباليوزوى السفلى العتيق لحيوانات

ذات فصوص ثلاث وبدون فقار وهى من فصيلة العناكب Arachnida .

أو أجزاء أخرى صلبة ، وإذا لم يكن مكتسباً بقشرة صدفية أو ذا حجم كبير واف وثقل كاف ليُطبع على الطين آثاراً بارزة للأقدام والدروب المطروقة ، فمن غير المحتمل تخلف آثار حفريّة بعده تدل على وجوده . ويوجد في العالم اليوم مئات الآلاف من أنواع من المخلوقات الصغيرة الهشة الأجسام التي لا يتصور عقل إمكان تركها أى أثر يطوع لجيولوجى الغد العنور عليه . ولعل الماضى السحيق لهذا العالم كان يعج بملايين الملايين من أنواع تلك المخلوقات التي عاشت وتكاثرت وازدهرت ثم بادت من غير أن تترك أدنى أثر لها . وربما كانت مياه البحار والبحيرات الدفيئة الضحلة في ذلك الزمن ، المسمى بالآزوى Azoic ، زاخرة بعينات لا آخر لها من أنواع الكائنات الدنيئة ، شبه الهلامية ، والمجردة من الأصداف والعظام ، وعينات أخرى لا حصر لها من النباتات الرغوية منتشرة فوق الصخور والشواطىء المعرضة للمد والجزر والمغمورة بضياء الشمس . ولم يصل السجل الصخرى للحياة الغابرة بعد إلى درجة الكمال ، مثله في ذلك مثل دفاتر أحد المصارف من حيث عدم وفائها بمحصر كل فرد بالمنطقة المجاورة للمصرف ، ولا يتيسر لأى نوع من الأنواع أن ينطبع على السجل حتى يأخذ في تكوين محارة أو شويكة أو درقة أو جذع متسكس^(١) ، يحفظه على هذه الصورة للمستقبل . على أنه يحدث أحيانا أن يوجد الجرافيت في صخور سابقة في عصرها على تلك التي تحمل آثار الحفريات ، والجرافيت الذى يسمى عادة باسم الرصاص الأسود — صورة من الكربون غير المركب ، ويرى بعض الثقات أنه ربما فصله عن مركباته النشاط الحيوى لسكانات حية مجهولة .

(١) السكس : هو المادة الجيرية التي تتكون منها العظام والمحار .

الفصل الرابع

عصر الأسماك

كان المظنون أيام كان الناس يعتقدون أن العالم لم يدم إلا بضعة آلاف من الأعوام ، أن النباتات والحيوانات بأنواعها المختلفة إنما هي أشياء ثابتة ونهائية ؛ وأنها خلقت جميعاً كما هي عليه الآن تماماً ، وخلق كل قائماً بذاته . ولكن حدث عندما شرع الناس ينقبون في سجل الصخور ويدرسونه أن تزعم هذا الاعتقاد بسبب الاشتباه في أن كثيراً من الأنواع قد تغير وتطور ببطء على مر العصور ، ثم نمت هذه الفكرة بدورها حتى أصبحت اعتقاداً بما يسمى النشوء العضوى والارتقاء ، وهو الاعتقاد بأن كافة ما على الأرض من أنواع الحياة سواء منها الحيوانى والنباتى ، ينحدر بعمليات تغير بطيء ، دائب ، من صورة سلفية غاية فى البساطة للحياة : مادة حية لا شكل لها تقريباً ، كانت موجودة أثناء العصور السحيقة فيما يسمى بالبحار الأزوية .

وقد بما كانت مسألة النشوء والارتقاء العضوى هذه ، مثار مجادلات أليلة كثيرة بين الناس على غرار المسألة المتعلقة بعمر الأرض ، حتى لقد أتى على الناس حين من الدهر كانوا يظنون فيه أن الاعتقاد فى النشوء والارتقاء العضوى Organic Evolntion لا يستقيم — لعله لا نعلمها — وتعاليم المسيحية واليهودية والإسلام الصحيحة . وقد انقضى ذلك الزمان ، وأصبح أشد الناس تمسكاً بالعقائد الكاثوليكية الصحيحة والبروتستانتية واليهودية والإسلامية ، لا يتحرجون من قبول هذا الرأى الأحدث والأشمل القائل بأن لجميع الكائنات الحية أصلاً مشتركاً . إذ لا يلوح أن الحياة نشأت فجأة على ظهر العبراء . بل إن الحياة قد نمت ولا تزال تنمو . انقضت عصور بعد عصور ومرت دهور من الزمان بكل الخيال دون تصور لها ، والحياة تتطور من مجرد هزة فى الصلصال المخضل بمياه المد والجزر إلى مجبوحة الحرية والقوة والإدراك .

تتكون الحياة من أفراد ، وهؤلاء الأفراد أشياء محددة ، فليسوا مثل القطع والكتل ، ولا هم يماثلون البلورات غير المحددة وغير المتحركة المكونة من المادة

غير الحية ، ثم إن لهم خاصيتين مميزتين لا تشاركهم فيهما أية مادة في عالم الجهاد ، ذلك أنهم يستطيعون أن يتمثلوا في أنفسهم مادة أخرى ويحيواونها إلى جزء منهم كما أنهم يستطيعون أن ينتجوا لأنفسهم خلفا : فهم يأكلون وهم يتناسلون وهم يستطيعون أن ينشئوا أفرادا آخر يشبهونهم إلى حد كبير ، وإن اختلفوا عنهم مع ذلك نوعا ما . وإن هناك لمشابهة نوعية وعائلية بين الفرد ونسله ، كما أن هناك فارقا فرديا بين كل والد وكل مولود له ، وهذا صحيح في كل نوع من الأنواع وفي كل مرحلة من مراحل الحياة .

ورجال العلم لا يستطيعون حتى الآن أن يبينوا لنا ما الذى يوجب على النسل أن يشابه والديه وما الذى يوجب عليه أن يختلف عنهما . ولسكن نظراً لأن الذرية يجتمع فيها الشبه والاختلاف في وقت واحد ، فإن من المعقول وإن لم يثبت علمياً أنه إذا تغيرت الظروف التى يعيش فيها النوع ، وجب أن يطرأ على النوع بعض تغيرات مناسبة . ومرد ذلك أن أى جيل من أجيال النوع يجب أن يوجد فيه عدد من الأفراد تهيب لهم فوارقهم الفردية قدرة أكبر على التكيف بالظروف الجديدة التى لا بد للنوع أن يعيش فيها ، (وعدد آخر) فوارقه الفردية تجعل من العسير عليه نوعا ما أن يعيش . والقسم الأول يكون أطول في الجملة عمرا وأكثر نسلا من القسم الثانى ؛ وهكذا يتطور مستوى النوع جيلا بعد آخر في الاتجاه الملائم . وهذه العملية التى يطلق عليها « الانتخاب الطبيعى » ليست نظرية علمية بقدر ما هى نتيجة حتمية لحقائق التوالد والفوارق الفردية . قد تكون هناك عوامل كثيرة تعمل عملها في تبديل النوع أو إبادته أو صيانتته ، دون أن يتنبه العلم إليها إلى اليوم أو يبت فيها برأى ، ومع ذلك فالرجل الذى يتأنى له أن ينكر سريان عملية الاختيار الطبيعى هذه في الحياة منذ بدايتها ، لا بد أن يكون إما جاهلا بالحقائق الأولية للحياة وإما غير أهل للتفكير العادى .

ولكثير من رجال العلم آراء وتأملات ونظر حول البداية الأولى للحياة ، وغالبا ما تكون نظراتهم تلك عظيمة النفع ، ولسكن أحدا منهم لم يصل إلى أية معلومات بآلة محددة ولا فرض علمى يركن إليه عن الصورة التى بدأت بها الحياة . على أن جميع الثقافات يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بالمياه الدفيئة الضحلة القليلة الملوحة والمعرضة لنور الشمس . وأنها امتدت على السواحل حتى بلغت منطقة تعاقب المد والجزر ثم إلى خارج ذلك من المياه المكشوفة .

مكان ذلك العالم الغابر عالم مدوجزر وتيارات قوية ولا بد أن إبادة الأفراد لم تسكن تقف عند حد قذف التيارات لها إلى الشواطئ ثم جفافها هناك ، أو عن طريق دفعها إلى عرض البحر وغرقها فيه في غور لا تصله الشمس ولا الهواء . وكانت الظروف الباكرة تلائم كل تطور يتجه إلى تثبيت الجذور والبقاء ، وتشجع أى اتجاه لتسكوين قشرة خارجية وغلاف يقى الفرد المتخلف على الشاطئ شر الجفاف المفاجئ . ومنذ البداية البعيدة كان أى اتجاه شعورى للذوق يجر الفرد إلى ناحية الطعام ، وأى اتجاه شعورى إلى الضوء يهديه إلى التخلص من الظلمة في أعماق البحر ومجاهله أو إلى التلوى فرارا من التوهج الشديد في الأضغال^(١) الخطرة .

ولعل أول المهارات والدروع الواقية لأجسام الكائنات الحية كانت وقايات لها من الجفاف لا من أعدائها . ولكن لوحظ أن الأسنان والأظافر تظهر في حقبة مبكرة من تاريخ الأرض .

وقد سبق أن ذكرنا حجم العقرب المائية الأولى . وانقضت عصور طويلة ومثل هذه المخلوقات هي صاحبة السيطرة في الحياة . ثم يظهر بعد ذلك في قسم من الصخور الباليوزوية يسمى بالقسم السيلورى Silurian ، (الذى يعتقد كثير من الجيولوجيين اليوم أن عمره ٥٠٠ مليون سنة) طراز جديد من الكائنات مزود بالأعين والأسنان والقدرة على السباحة بشكل قوى لم يسبق له مثيل . ذلك الطراز الجديد أول ما نعرف من الحيوانات ذوات العمود الفقرى ، وهو أقدم « الأسماك » : أول الفقاريات المعروفة .

(١) الأضغال : جم ضغل وهو الماء القليل الغور ،

الفصل الخامس

عصر مستنقعات الفحم

كانت اليابسة أثناء عصر الأسماك هذا خالية من الحياة تماماً كما هو واضح . فإن شوامخ الصخور والأراضي الجبلية المرتفعة الجرداء كانت تسبح في أشعة الشمس ومياه المطر ، أما التربة بمعناها الصحيح فلم تكن موجودة — إذ لم توجد حتى آنذاك أية ديدان أرضية تساعد على تفتيت جزيئات الصخور ونحوها إلى تربة ؛ كما أنه ليس هناك أثر مطلقاً لطحاب أو عشب بحري . وكانت الحياة لا تزال تلازم البحر وحده .

وتناولت هذا العالم الصخري الأجرد عوامل تغيرات عظيمة في المناخ . وأسباب هذه التغيرات المناخية في غاية التعقيد ، كما أنها لا تزال بحاجة إلى من يقدرها التقدير الصحيح . ولعل من أسباب ذلك تغير شكل مدار الأرض ، والتزحزح التدريجي في ميل محور الدوران ، وتغير أشكال القارات بل ربما أيضاً ما ألم بحرارة الشمس من تقلبات ، لعل هذه الأسباب مجتمعة قد تضافرت تارة على غمر مساحات واسعة من سطح الأرض بالبرد والجليد إبان أحقاب طويلة من الزمن وتارة أخرى على نشر مناخ دفيء أو معتدل أمد ملايين من السنين على سطح هذا الكوكب . ويلوح أن تاريخ العالم حافل بفترات الثوران الباطني العظيم ، فترادفت إبان بضع ملايين من السنين عمليات رفع تمخضت عن سلاسل متلاحقة من الثوران البركاني والارتفاعات ، فأعيد بذلك تشكيل الجبال ومعالم القارات على ظهر الكرة الأرضية وبذلك زادت البحار عمقا والجبال ارتفاعا ، وبلغت تطرفات المناخ أقصى الحدود . ثم يعقب تلك الفترات عصور مترامية من الهدوء والتوازن النسبي ، تضافر فيها الصقيع والمطر والأنهار على تفتيت ارتفاعات الجبال ، وحمل مقادير ضخمة من الغرين لئلا أغوار البحار وترفع قاعها فتتسع بذلك رقعتها مع زيادة ضخامة البحر وانتشاره فوق قدر متزايد من اليابسة . وكم من عصر في تاريخ العالم اجتمع فيه « الارتفاع والعمق » أو تجاوز فيه « الانخفاض والاستواء » . ويجب أن يبعد القارىء عن ذهنه كل فكرة توحى بأن سطح الأرض ظل يبرد بإطراد منذ أن تجمدت قشرتها فبعد أن بلغت وقتئذ ذلك القدر الكبير من البرودة ، كفت الحرارة الباطنية عن أن تؤثر في أحوال السطح . وشاهد ذلك أن هناك آثارا لفترات تكاثر أثناءها الثلج

والجليد بوفرة عظمى ، وهى « العصور الجليدية » التى حدثت حتى فى العصر الآزوى نفسه (مع شدة قدمه) . ولم تتمكن الحياة من الانتشار من الماء إلى اليابسة بطريقة فعالة حقاً إلا عند قرب نهاية عصر الأسماك ، فى فترة كثرت فيها البحار والمستنقعات الفسيحة الضحلة . ولا شك أن الأنماط الأولى من الأشكال التى بدأت عندئذ فى الظهور بوفرة كبيرة ظلت تتطور قبل ذلك تطورا نادرا خفياً إبان عشرات ملايين من السنوات ولكن ها قد وافت الآن فرصتها .

ولا شك أن النباتات سبقت الأشكال الحيوانية فى غزوها هذا لليابسة ، ولكن الراجح أن الحيوانات تعقبت خطى النبات فى هجرته . وأول مشكلة وجب على النبات حلها هى مشكلة الحصول على عماد صلب يدعم خويصاته^(١) Fronds التى يدفع بها نحو ضياء الشمس عند ما تنسحب المياه التى يطفو عليها ؛ والمشكلة الثانية هى صعوبة الحصول على الماء — الذى لم يعد آنذاك قريباً فى متناول اليد — من الأرض الموحلة فى أسفل إلى أنسجة النبات . وقد حلت المشكلتان بنشوء الألياف الخشبية التى صلب بها عود النبات وأوصلت الماء إلى أوراقه . وعلى حين بغتة يكتظ سجل الصخور بأضرب حمة من النباتات الخشبية للمستنقعات ، كان الكثير منها ضخيم الحجم ، كالطحالب الشجرية الكبيرة والسراخس الشجرية وأشجار الأمسوخ^(٢) الهائلة وما أشبهها وسأرت زحف هذه النباتات من الماء عصراً بعد عصر أضرب كثيرة من الأشكال الحيوانية ، مثل أم أربعة وأربعين والدود ذو الألف رجل ، وأوائل الحشرات البدائية ، ثم مخلوقات قريبة الشبه بالنوع العتيق المسمى ملك السكبوريا^(٣) Kiug-Crab والعقارب البحرية التى تحولت إلى أقدم العناكب والعقارب الأرضية ، وسرعان ما وجدت حيوانات فقارية .

وكان بعض الحشرات الأولى كبيراً جداً . فهناك رعاشات^(٤) (Dragon Flies) ربما بلغ امتداد جناحيها تسعا وعشرين بوصة .

- (١) الخويصات Fronds وتسمى أيضاً الفروثات هى نباتات بدائية لم يمايز فيها الساق من الورق فهى سيقان ورقية أو متورقة .
 (٢) الأمسوخ هو ما يسمى بنديل الفرس .
 (٣) هو عنكبوت بحرى عجيب له درع على شكل حدوة الحصان وهو آخر من تبقى من فصيلته
 (٤) وتسمى بالسمرمان أيضاً وهى حشرة زاهية الألوان ذات إشعاع شفافة الجناحين .

وقد استطاعت هذه الرتب (orders) والأجناس (genera) الجديدة أن تكيف نفسها بطرق مختلفة لتنفس الهواء . وكانت الحيوانات حتى ذلك الحين تتنفس الهواء الذائب في الماء ، والحق أن ذلك نفسه هو ما لا تزال الحيوانات جميعاً مضطرة أن تفعله . ولكن مملكة الحيوانات كانت قد شرعت عند ذلك أن تتكسب ، بطرائق متنوعة ، القدرة على تزويد نفسها بما يعوزها من رطوبة حيثما دعت الحاجة ، فإن رجلا له رئة جافة تماماً لا منحة له اليوم من الاختناق ؛ إذ لابد لسطوح رئته من أن تكون رطبة لكي ينفذ الهواء من خلالها إلى دمه . والتكيف لتنفس الهواء قوامه في جميع الحالات أحد أمرين : فإما أن يتكون للخياشيم القديمة الطراز غطاء يوقف عملية البخر ، وإما أن تنشأ أنابيب أو مسالك أخرى جديدة للتنفس تندس في صميم الجسم وترطبها إفرازات مائية . ذلك أن الخياشيم القديمة التي كان السمك الذي يعد سلفاً للسلافة الفقارية يتنفس بها كانت غير صالحة للتنفس على البر . وقد حدث في هذا القسم من مملكة الحيوان ، أن مثانة العوم هي التي أصبحت عضواً جديداً متأصلاً للتنفس هو الرئة . والحيوانات المعروفة باسم البرمائيات ، وهي الضفادع وسمندل الماء الحالية ، تبدأ حياتها في الماء ، وتتنفس بالخياشيم ؛ ثم يحدث بعد ذلك أن الرئة تتولى عملية التنفس إذ تتطور على نفس النمط الذي يحل بمثانات العوم عند كثير من الأسماك ، كنمو في الزور شبيه بالسكيس ، فيبرز الحيوان إلى الأرض ، وتضمحل الخياشيم وتختفي شقوق الخياشيم (تختفي جميعاً إلا تنوءاً في شق واحد من شقوق الخياشيم ، يصبح فتحة الأذن وطبقتها) وعندئذ لا يستطيع الحيوان البرمائي أن يعيش إلا في الهواء ، ولكن لابد أن يعود إلى حافة الماء على الأقل ، لكي يبيض بيضه ويلتج نوعه .

وكانت جميع الفقاريات المتنفسة للهواء في هذا العصر عصر المستنقعات والنباتات تنتسب إلى فصيلة البرمائيات . وكلها تقريباً أشكال ذات قربي بسمندل العصر الراهن ، كما كان بعضها يصل إلى حجم ضخم ، حقاً إنها كانت حيوانات برية ، غير أنها حيوانات برية تحتاج إلى أن تعيش في الأماكن الرطبة والمستنقعات وبالقرب منها ، وكانت جميع الأشجار الكبرى في ذلك العصر برمائية هي الأخرى مثل حيوانه تماماً ، ولم يكن شيء منها قد أنتج حتى ذلك الحين ثمراً ولا حباً يمكن أن يقع على الأرض وينبت بدون مساعدة أية رطوبة إلا ما قد يجلبه الندى والمطر . إذ لم يكن أمامها فيما يلوح مفر من أن تسقط أبواغها Spores^(١) في الماء إن قدر لها أن تتوالد .

(١) البوغ : Spore جسم أو (بذرة) مفرد الخلية منتج بغير نشاط جنسي .
(٣ — تاريخ العالم)

ومن أمتع نواحي ذلك العلم الجميل « التشريح المقارن » اهتمامه بتعقب التكييفات المعقدة المدهشة التي حدثت للكائنات الحية وفق ما يستلزمه العيش في الهواء لجميع الكائنات الحية سواء منها الحيوانية أو النباتية ، إنما هي قبل كل شيء كائنات مائية . مثال ذلك أن جميع ما يعلو الأسماك من الحيوانات الفقارية العليا في تصاعدها حتى تشمل الإنسان نفسه ، تمر أثناء تطورها داخل البيضة أو في الرحم قبل الميلاد ، في مرحلة تكون لها فيها شقوق خياشيم تنمحي قبل خروج الجنين .

والعين التي هي في السمكة عارية متصلة بالماء ، يمنعها من الجفاف في الأشكال الحيوانية العليا جفون وغدد تفرز الرطوبة . وتموجات الصوت الخافتة في الهواء تخلق الحاجة إلى طبلة للأذن . وإنك لتلاحظ في كل عضو من أعضاء الجسم تقريبا تعديلات وتكييفات مماثلة لهذه ، فضلا عن توفيقات أخرى مماثلة لمواجهة الهواء وظروفه .

وكان عصر الطبقات الفحمية (Carboniferous) هذا ، أي عصر البرمائيات ، عصر حياة في المستنقعات والبرك ، وعلى الشواطئ المنخفضة في تلك المياه . وكان هذا هو أقصى انتشار بلغته الحياة . فأما التلال والمرتفعات فكانت لا تزال مقفرة تماما من كل حياة ... لقد تعلمت الحياة أن تتنفس الهواء ، ولكن كانت لا تزال متأصلة في الماء موطنها الأول ، وكان عليها أن ترجع إلى الماء لتتوالد وتنتج سلالة نوعها .

الفصل السادس

عصر الزواحف

مرت فترة وفرة الكائنات الحية لعصر تكوين الطبقات الفحمية ، وجاءت في أعقابها دورة مترامية من عصور جفاف وعسرة ويمثلها في سجل الصخور رواسب سميكة من الحجر الرملي وأضرابه ، الحفريات فيها قليلة نسبياً . ذلك أن درجة حرارة العالم كانت تتقلب تقلباً شديداً فتحة آماد طويلة من الزمهرير القارس ، ترتب عليها هلاك تلك الوفرة الشديدة من نباتات المستنقعات فوق مساحات واسعة من الأرض ، حتى إذا غطتها الرواسب الأحدث عهداً ، بدأت فيها عملية الضغط والتعمدن^(١) التي منحت العالم معظم رواسب الفحم في هذا العصر .

ولكن الحياة إنما تتعرض لأسرع التعديلات أثناء فترات التغير ، كما أنها إنما تتلقى أئمن ما تتعلم من دروس إبان الحن والشدائد . حتى إذا ارتدت الأحوال نحو الدفء والرطوبة وجدنا سلسلة جديدة من الأشكال الحيوانية والنباتية قائمة متأصلة . ووجدنا في السجل بقايا حيوانات ققارية تبيض بيضاً ، لا يتمتع عن أبي ذنبيات نحتاج إلى العيش فترة ما في الماء ، بل هو شيء ارتقى في سلم التطور قبل الفقس إلى مرحلة تقارب صورة الفرد التام الناضج من أبناء جنسه قرباً يستطيع الصغير معه أن يعيش في الهواء منذ اللحظة الأولى التي ينفصل فيها ويستقل بوجوده . لقد ذهبت الحياشيم تماماً ، ولم تظهر شقوق الحيشوم إلا كمرحلة من مراحل الجنين .

هذه المخلوقات الجديدة المجردة من مرحلة الذنبيات هي الزواحف . وصحب تطورها تطور الأشجار الحاملة للبذور ، والتي كانت تستطيع أن تنشر بذورها دون حاجة إلى المستنقع أو البحيرة . فكانت هناك آنذاك حزازيات شبيهة بالنخيل وكثير من أشجار المخروطيات الاستوائية ، وإن لم يوجد حتى ذلك الحين نباتات ذات أزهار ولا عشب .

(١) التمدن أو المعدنة أو التغلظ : اكتساب الأشياء غير المعدنية خصائص المعادن .

كان هناك عدد عظيم من السراخس . وتزايد كذلك في ضروب الحشرات وأنواعها . فكانت هناك الخنافس ، وإن لم يكن النحل قد ظهر بعد ولا الفراشات . ولكن لا شك أن الدعامة الأساسية لجميع الأشكال الجوهريّة لحيوانات ونباتات جديدة أرضية ، قد وضعت حقاً أثناء هذه العصور المترامية من العسر والشدة . ولم يكن يعوز هذه الحياة الجديدة على اليابسة إلا شيء واحد هو الظروف الموائمة لازدهارها وانتشارها .

وجاءت تلك الظروف وأخذت قساوة الجو تخف عصرًا بعد عصر ومع كثير من التقلبات . وتكاثفت حركات القشرة الأرضية التي لم تبرح تتعاقب بغير حصر ، وتغيرات مدار الأرض وتقلب زاوية الميل المتبادل بين المدار والمحور زيادة وتقصاناً ، وراحت تعمل جميعها على إيجاد فترة عظيمة من الدفء الواسع النطاق . ويروى العلماء اليوم أن تلك الفترة دامت في مجملها ما يربى على مئتي مليون من الأعوام . وهي تسمى باسم الزمن الميزوزوى ، تفريقاً لها عن الزمنين الآزوى والباليزوى السابقين لها والمتفوقين عليها تماماً في الضخامة (ومجموعهما ألف وأربعمائة مليون سنة) وتمييزاً لها أيضاً عن الزمن السكينوزوى (أى فترة الحياة الجديدة) الذي جاء بين نهايتها وعصرنا الراهن ، كما أنها تسمى أيضاً باسم عصر الزواحف بسبب تسلط هذا الشكل من أشكال الحياة فيها وكثرة أضربه إلى حد يبعث على الدهشة وقد انتهى ذلك العصر منذ حوالى ثمانين مليوناً من السنين .

وأجناس الزواحف قليلة نسبياً في العالم اليوم ، كما أن توزيعها فيه محدود جداً . نعم إنها أكثر تنوعاً من القلة القليلة الباقية من أعضاء رتبة البرمائيات التي كانت صاحبة السلطان في العالم في عصر الرواسب الفحمية . إذ لا يزال لدينا الثعابين والترسة البحرية والسلاحف البرية (Chelonia) والتمساح الأمريكى (Alligator) والتماسيح العادية والسحالي^(١) ، وكلها بلا استثناء مخلوقات تحتاج إلى الدفء على مدار السنة ، فهي لا تستطيع أن تتحمل العرض للبرد ، والراجح أن جميع زواحف الزمن الميزوزوى قد كابدت الأهوال لنفس هذا السبب . كانت حيوانات مما ينمو في البيوت الزجاجية الدافئة ، تعيش بين نبات مما يربى في تلك البيوت الزجاجية نفسها . فلم تسكن تتحمل

(١) السحالي : Lizards دويبة ملساء تمشى مشياً سريعاً ثم تقف وتسمى أيضاً العظاوية والعظامة وجمعها عطاء وعظايا وعظايات (المنجد) .

صقيعا . ولكن العالم كان قد وصل إلى حيوان ونبات الأرض الجافة الحقيقي ، والمختلف تماما عن حيوان ونبات الطين والمستنقعات في العصر السابق من عصور ازدهار الحياة على سطح الأرض .

وكان جميع أنواع الزواحف المعروفة لنا الآن أكثر عدداً في تلك العصور ، فهناك ترسات وسلاحف كبيرة ، وتماسيح ضخمة وكثير من السحالي والثعابين ، ولكن كان هناك عدا ذلك عدد من عائلات من المخلوقات العجيبة التي اختفت الآن تماماً من هذه الأرض . فثم أنواع حمة من كائنات تسمى الدناصير : [العظايا المهولة] . وكان النبات قد شرع في الانتشار حينئذ فوق مافي العالم من المستويات المنخفضة . فتكاثر القصب (البوص) وآجام السرخس وما مائها ؛ وفي هذه الوفرة من الخيرات أخذت جمهرة غفيرة من الزواحف المقتاتة بالأعشاب (Herbivorous) تعيش وترعى ، وأخذ حجمها يتزايد باطراد كلما تقدم الزمن الميزوزوى إلى ذروته ومن هذه الوحوش ما تفوق في حجمه على كل حيوان يرى عاش على ظهر البسطة قبلها ؛ فهي تضارع الحيتان في حجمها فكانت العظاءة مزدوجة العاتق (الديلودوكس كارنيجاي *Diplodocus Carnegii*) مثلاً تمتد أربعة وثمانين قدماً من البوز إلى الذيل ؛ كما أن العظاءة الماردة (الجيجانتوصور) كانت أكبر منها أو تكاد ، إذ كان طولها ، ثمة قدم ، وكان يعيش على هذه الوحوش حشد من العظايا المهولة (الدناصير) آكلة اللحوم (Carnivorous) المتناسبة معها حجماً . وكثير من الكتب تصور أحد أفراد هذا النوع وهو العظاية الجبارة (التي رانصور) وتصفه بأنه قد بلغ الغاية في شناعة الزواحف .

وبينما كانت هذه المخلوقات الضخمة ترعى وتتغقب بعضها بعضاً بين السيقان الورقية (Fronds) والنباتات الدائمة الخضرة للآجام الميزوزوجية ، إذا قبيلة أخرى من الزواحف تطورت أطرافها الأمامية حتى أصبحت تشبه المضرب — ولا وجود لها الآن — تتأثر الحشرات وتتغقب بعضها البعض ، بادئة بالوثب والهبوط ثم طائرة بعد ذلك بين أغصان الغابة وسيقانها الورقية وتلك هي التيروداكتيل (أى ذو الأصبع المجنح) (١) . وهو أول الكائنات الطائرة ذات العمود الفقري ؛ ووجوده يشير إلى فوز جديد أحرزته القوى النامية للحيوانات الفقارية .

(١) وهى إحدى المفريات : زاحفة طائرة لها جمجمة كبيرة كجمجمة الطير وغشاء للطيران يتصل بالأصبع الخامس الطويل .

وفضلاً عن ذلك فإن بعض الزواحف أخذت في العودة إلى مياه البحر . فإن طوائف ثلاث من كائنات كبيرة سباحة ، عادت إلى اجتاع البحر الذى خرجت منه أسلافها ؛ هى عطايا نهر الموز (الموسوصور) وأشباه العطايا (البلسيوصور) وعطايا البحر المندثرة (الإخثيوصور) . وبعض هذه يقارب في حجمه حيتاننا الراهنة ، ويلوح أن الإخثيوصور كان حيواناً تام القدرة على ارتياد البحر ، ولكن البلسيوصور طراز من حيوان لبس له الآن ما يماثله . فحجمه كان بديناً ضخماً له مجاديف عريضة ، مكيفة إما للسبح أو الزحف في المستنقعات أو فوق قاع المياه الضحلة . أما الرأس الصغيرة نسبياً فمنصوبة فوق رقبة كالشعبان هائلة لاتكاد تدانيها رقبة البجعة . والظاهر أن البلسيوصور كان يعوم ويبحث عن الطعام تحت الماء ويغتذى كما تفعل البجعة ، أو يتربص تحت الماء ويختطف ما يمر به من سمك أو بهيمة .

تلك هى أهم أنواع الحياة الموجودة في البر طوال الزمن الميزوزوى . فهى تعتبر — بمقاييسنا البشرية — تقدماً فاق كل شيء سبقها . إذ أنها أنتجت حيوانات برية أكبر حجماً وأوسع انتشاراً وأعظم قوة ونشاطاً ، وأحفل بالحيوية (كما يقول الناس) من أى شيء مشهده العالم قبلها . أما البحار فلم يحدث بها تقدم مماثل لذلك ، بل ظهر تكاثر عظيم لأشكال جديدة من الحياة . فظهرت في البحار الضحلة أضرب هائلة العدد من مخلوقات تشبه أم الحبرذات محار مقسم إلى تجاويف معظمها حلزوني ، وهى العمونى^(١) بأنواعه ، وللعمونى أسلاف قديمة في بحار الزمن الباليوزوى . ولكن هاقد حل الآن عصر مجده . غير أنه انقرض كله ولم يبق منه اليوم أى كائن يمثله ، وأدنى الكائنات شبهها به في الوقت الحاضر هو النوتى اللؤلؤى^(٢) ، الذى يعيش في المياه المدارية ، ثم ظهر بعد ذلك طراز جديد من سمك أكثر نسلاً وأشد تكاثراً وذى قشور أخف وأرق من تلك الأغشية الشبيهة بالدركات والشبيهة بالأسنان . التى كانت منتشرة حتى آنذاك ، فأصبح هو النوع السائد في البحار والأنهار ولا يزال كذلك إلى اليوم .

(١) العمونى Ammonites صدف حفرى منسوب لاله عمون .

(٢) النوتى اللؤلؤى Nautilus صنف من الحيوانات البحرية جميل الصدف .

الفصل السابع

الطيور الأولى والثدييات الأولى

أوضحنا لكم في إيجاز حالة النبات الوفير والزواحف الماشدة التي كانت تمرح في ذلك الصيف العظيم الأول للحياة : أعنى الزمن الميزوزوى . وبينما كانت الدناصير تسود ذلك العصر في مراعى السلفاس وسهول المستنقعات الحارة ، والثيرودا كتيل يملأ سماء الغابات برفرقة أجنحته ، بل وربما يشق الجو أيضاً بصرخاته ونعيقه ، وهو يتعقب الحشرات الطنانة بين الشجيرات والأشجار التي لم تزل بعد مجردة من الزهر ، كانت أشكال حيوانية أخرى أقل أهمية وأدنى في عدد أشكالها ، تعيش على هامش هذه الحياة الوفيرة الزاخرة وتحرز قوى خاصة وتتعلم دروساً معينة من الاحتمال عادت على نوعها بالخير العميم عندما حل أخيراً اليوم الذي شرعت فيه الشمس والأرض تضنان بسماحتهما البسامة .

والظاهر أن مجموعة من قبائل وأجناس الزواحف النطاطة ، وهي مخلوقات صغيرة من طراز الدينوصور ، قد أكرهتها المنافسة وتعقب الأعداء لها على المفاضلة بين أمرين : إما الانقراض أو التكيف وفق الظروف الأكثر برودة فوق التلال العالية أو إلى جوار البحر . وفي هذه القبائل التي ابتليت بالحن تطور طراز جديد من القشور ؛ قشور مطت فأصبحت ذات أشكال تشبه أنابيب الريش ؛ وسرعان ما تفرعت تلك الأنابيب وأصبحت بدايات فجوة للريش . وكانت هذه القشورة الشبيهة بأنابيب الريش ترقد إحداها فوق الأخرى مكونة غلافا حافظاً للحرارة أكثر من أى غلاف للزواحف وجد حتى ذلك الحين . وبذلك أتاحت لها أن تغزو المناطق الأكثر برودة والتي كانت قبل ذلك غير مأهولة . وربما صحت تلك التغيرات زيادة في اهتمام هذه المخلوقات ببيضها فمن الجلى أن معظم الزواحف لاتعنى ببيضها أقل عناية ، بل تتركه لتتولى فقسه الشمس والوقت المناسب والسكن بعض أنواع هذا الفرع الجديد من شجرة الحياة أخذت تكتسب عادة حراسة ببيضها والحفاظة على دفئه بوساطة حرارة أجسامها .

وفضلاً عن هذه التكييفات وفق البرودة، كانت تجرى تكييفات باطنية أخرى جعلت هذه المخلوقات — وهى الطيور البدائية — دفيئة الدم مستغنية عن الاصطلاء والاستدفاء . ويبدو أن أقدم أنواع الطير كافة كانت طيوراً بحرية تعيش على السمك ، وأن أطرافها الأمامية لم تكن أجنحة بل مضارب أو مجاذيف تكاد تشبه ما يوجد في طائر البطريق . (البنجوين) وإذا نظرت إلى طائر الكيوى النيوزيلندى ذلك الطير البدائى المعن فى بدائياته وجدت له ريشاً ذا طراز بسيط جداً ، ورأيت لايطير ولا يبدو عليه أنه ينحدر عن سلف طيار . ذلك أن الريش ظهر فى عملية تطور الطير قبل الأجنحة . ولكن ما كاد الريش يتطور ، حتى أصبح من المحتم أن يؤدى إمكان انتشاره انتشاراً خفيفاً إلى ظهور الجناح ، وإنا لنعرف حفريات لطائر واحد على الأقل كانت له فى فكها أسنان من نوع أسنان الزواحف ، كما كان له ذيل كذيل الزواحف طويل ، ولكن كان له أيضاً جناح طير حق ، ولا مرأ أنه كان يطير ويقوم بشئون نفسه بين التيرودا كتيل فى الزمن الميزوزوى . ومع هذا فالطيور لم تكن بالمتنوعة ولا الوفيرة فى الأزمنة الميزوزوية فلو تهياً لإنسان أن يكر راجعاً إلى قطر ميزوزوى نموذجى ، لسار أياماً كثيرة دون أن يرى شيئاً يسمى بالطير أو يسمع له صوتاً ، وإن رأى كثرة عظيمة من التيرودا كتيل والحشرات بين السيقان الورقية والقصبات .

وتم شئ آخر لعل عينيه لاتقعان على أى أثر له هو الثدييات . والراجع أن الثدييات الأولى كانت موجودة لعدة ملايين من السنين قبل ظهور أول طائر يمكن تسميته بذلك الاسم ، ولكنها كانت من الصغر والضآلة والأنواء بحيث كان من الصعب أن يلحظها المشاهد .

والثدييات الأولى — شأن الطيور الأولى — مخلوقات دفعها المنافسة والمطاردة إلى تجشم حياة حافلة بالشدايد والتكيف مع البرد . وفيها أيضاً اتخذ القشر شكل قصبه الريشة ، ثم تطور إلى غلاف حافظ للحرارة ؛ ثم ألت بها أيضاً بعض تعديلات ، تتمشى فى نفس الاتجاه والنوع وإن اختلفت فى التفاصيل ، وأصبحت على أثرها دفيئة الدم مستغنية عن الاستدفاء والاصطلاء . فبدلاً من الريش طورت الثدييات الشعر ، وبدلاً من حراسة بيضها واحتضانه ، كانت تحتفظ به دافئاً مصوناً باستبقائه داخل أجسامها حتى يقارب النضج . وأصبح معظمها ولوداً بصفة نهائية وأخذ يخرج صغاره إلى الدنيا حية ، وحتى بعد ميلاد صغارها ظلت تمنح إلى الارتباط بها ارتباطاً يقوم على الوقاية والتغذية .

لا تتطور في ظلها ، بل تتوقف ؛ إذ أن أحسن الأنواع تكيفا يكون موجودا بالفعل .
فإذا وافق ظروف جديدة فالطراز العادى هو الذى يقاسى ، والشئ المستحدث هو
الذى ربما أتتحت له فرصة أحسن للبقاء وتوطيد أقدامه إلى حين .

ثم تجيء فترة انقطاع فى سجل الصخور ربما كانت تمثل عدة ملايين من السنوات .
والواقع أن هناك ستارا مسدلا يحجب كل شئ حتى معالم تاريخ الحياة نفسها . فإذا
ارتفع ذلك الستار ثانية إذا بعصر الزواحف قد ولى ، وإذا بالدينصور والبليصور
والإيخثيوصور والثيروداكتيل ، وجميع أجناس الععوى وأنواعها التى لا يحصرها عد
قد اختفت تماماً . لقد بادت جميعا - على أضر بها المدهشة الوفرة - ولم تخلف أى أثر
بعدها . فقد فضى البرد عليها جميعا . ولم يغن عنها شيئا أقصى ما استحدثته بنفسها من
تغيرات لعدم كفايته ؛ فهى لم تصب ظروف البقاء . وذلك لأن العالم مر فى دور من
المناخ المتطرف يتجاوز قوة احتمائها ، ومن ثم حدثت إبادة بطيئة كاملة للحياة الميزوزوية ،
وهنا نشهد أمامنا منظرا جديدا ، إذا استولت على العالم مملكة نباتية جديدة أقوى بأسا
ومملكة حيوانية جديدة أشد قوة .

وإنه لمشهد لا يزال به أثر الزمهرير والجدب ذلك الذى يفتتح به هذا المجلد الجديد
من سفر الحياة . فإن الحزازيات والمخروطيات^(١) الاستوائية حلت محلها إلى حد كبير
أشجار تنفض أوراقها توقيا للهلاك من ثلوج الشتاء ، كما أن نباتات وشجيرات ذات
أزهار قد ظهرت ، وأخذت أنواع متزايدة من الطيور والشديات تستولى على تراث
كثرة عظيمة من الزواحف .

(١) المخروطيات : Conifers قبيلة من النبات من أمثال الصنوبر

الفصل الثاني

عصر الشدييات

كان مطلع الزمن الكاينوزوى الفترة التالية الكبرى من فترات حياة الأرض ، حافلا بالارتفاعات فى القشرة الأرضية والنشاط البركانى الشديد . وذلك هو الأوان الذى دفعت فيه إلى أعلى الكتل الجبلية الشاسعة : الألب والهملايا ، كما رفعت سلاسل جبال روكى والأنديز التى يشبهونها بالعمود الفقرى ، وذلك أيضا هو الأوان الذى ظهرت فيه المعالم الإجمالية لمحيطاتنا وقاراتنا الراهنة ، وفى ذلك الأوان أيضا تتخذ خريطة العالم مسحة مشابهة أولية طفيفة لخريطة أيامنا هذه وتقدر المدة التى تفصل عصرنا وأوائل الزمن الكاينوزوى بما يتراوح بين أربعين وثمانين مليونا من السنين .

كان مناخ العالم صارما قاسيا عند بداية الزمن الكاينوزوى ، ثم أخذ يتدرج إلى الدفء على وجه العموم حتى دخل فى دور جديد من أدوار الوفرة والتماء الغزير ، مالبث أن تحول بعده إلى دور جديد من العسر والإحمال ؛ ومرت الأرض فى سلسلة من الدورات المفرطة البرودة ، هى العصور الجليدية التى يلوح أنها تخرج منها الآن ببطء .

غير أن معارفنا عن أسباب التغيرات المناخية ليست فى الوقت الحاضر من الكفاية بحيث تمكننا أن نتكهن بما يحتمل حدوثه من تقلبات فى الأحوال المناخية التى ينجبها لنا الغد . وربما كنا نسير نحو المزيد من الدفء وضياء الشمس ، أو نلتكس نحو زمهرير عصر جليدى آخر ؛ وربما كان النشاط البركانى ورفع الكتل الجبلية آخذاً فى الزيادة وربما فى النقصان ، فلسنا ندرى عن ذلك شيئا ، إذ يعوزنا القدر الكافى من العلم .

وبابتداء هذه الفترة تظهر الأعشاب بأنواعها ، ويظهر المرعى فى العالم لأول مرة ، وباكتمال تطور النوع الثديى الذى كان مغموراً فيما سلف ، يظهر عدد من

الحيوانات الشائقة الآكلة للشعب ، كما يظهر عدد من أنواع الحيوانات الآكلة للحوم التي تعيش على تلك .

وهذه الثدييات الأولى لم تكن تختلف في البداية فيما يلوح إلا في بضع خصائص مميزة فقط ، عن الزواحف الآكلة للعشب والآكلة للحوم التي ازدهرت قبل ذلك بمصور ودهور ثم بادت من الأرض . وربما زعم مشاهد غير مدقق أن الطبيعة في هذا العصر المديد الثانی من عصر الدفء والوفرة ، الذي شرع يبدأ آنئذ ، إنما كانت فقط تسكرر العصر الأول ، مع قيام الثدييات الآكلة للعشب واللحوم مقابل العاشب واللاحم من الدناصير ، ومع حلول الطير محل التيرودا كتييل وهكذا . على أن هذا إما يكون مقارنة سطحية بحتة . ذلك أن تغير الدنيا لا ينتهى ولا يقف عند حد ، فهو يتقدم تقدماً أبدياً ، والتاريخ لا يعيد نفسه أبداً ، وليس هناك أية متماثلات تتطابق صورها بالضبط تماماً . والفروق بين صورتى الحياة في الزمن الميزوزوى وشقيقه الكاينوزوى أعمق كثيراً من أوجه التشابه .

وأهم هذه الفوارق الجوهرية إنما يقوم في الحياة العقلية للفترتين . وهو ينشأ بالضرورة عن استمرار العلاقة بين الوالد والولد ، تلك العلاقة التي تميز حياة الثدييات (وحياة الطيور بدرجة أقل) عن حياة الزواحف ، والزواحف - باستثناء القليل النادر منها - تترك بيضها يفقس وحده . فالزاحف الصغير لا يعرف والديه أدنى معرفة ، وحياته العقلية - كما هو الواقع - تبدأ وتنتهى بخبراته الخاصة . وربما سمح بوجود أبناء نوعه إلى جواره ، ولكن ليس بينه وبينها أى اتصال ، وهو لا يقلدها أبداً ، ولا يتعلم منها أبداً ، كما أنه غير قادر على القيام بأى جهد مشترك معها . فحياته حياة فرد منعزل . ولكن نشأت مع إرضاع الصغار وتدليلها - وهما من مميزات السلالتين الجديدتين ، الثدييات والطيور - حالة جديدة هي إمكان التعلم بالمحاكاة والتواصل بصيحات التحذير وغيرها من الأعمال الجمعية ، والهيمنة والإرشاد المشترك . لقد ظهر في العالم طراز من الحياة قابل للتعلم .

والمنح عند أقدم ثدييات الزمن الكاينوزوى لا يفوق في الحجم إلا قليلاً منح الدناصير الآكلة للحوم والأكثر نشاطاً ، ولكن كلما قلبنا صفحات السجل متجهين نحو الزمن الحديث ، وجدنا زيادة عامة ثابتة في سعة الفراغ المنح^(١) في كل قبيل وسلالة من

(١) سعة الفراغ هي حجم المنح ومدى اتساع المجموعة من الداخل .

سلالات الحيوانات الشديدة . مثال ذلك ، أننا نلاحظ في مرحلة مبكرة نسبيا وجود وحوش تشبه الكركدن . فإننا نجد في أبكر عهود تلك الفترة مخلوقا هو التيتانوثيروم ؛ الراجع أنه كان شديد الشبه بالكركدن العصري في عاداته وحاجاته ، ولكن فراغ مخه لم يصل إلى عشر ما خلفه الحي .

ويمحتمل أن الثدييات الأولى كانت تفترق عن نسلها بمجرد انتهاء الرضاعة ، ولكن ما كادت القدرة على التفاهم المتبادل تنشأ حتى صارت مزايا الاستمرار في الترابط بين الصغار والكبار عظيمة جدا ، لذا لانبث أن نجد عدداً من أنواع الثدييات التي تتجلى فيها بدايات حياة اجتماعية حقة ، وتعيش مجتمعة في أسراب وقطعان ورعان وهي تلاحظ بعضها بعضا ، وتقلد بعضها بعضا وتتلقى التحذيرات من أعمال الآخرين وصيحاتهم وذلك شيء جديد لم يره العالم من قبل بين الحيوانات الفقارية . ولا شك أن الزواحف والأسماك قد توجد في أسراب وأفواج ؛ ولكن مرد ذلك أنها فقست بكميات وعملت الظروف المتشابهة على استبقائها معا ، أما الترابط في حالة الثدييات الاجتماعية الميالة إلى التجمع فلا ينشأ فقط عن وجود مجموعة من العوامل الخارجية ، بل يدعمه دافع داخلي . وهي ليست مجرد كائنات متشابهة ، وجدت صدفة في نفس الأماكن في نفس الأوقات ، بل هي تحب بعضها بعضا ولذلك فهي تتواجد معا .

والظاهر أن هذا الفارق بين عالم الزواحف وعالم العقول البشرية شيء لانستطيع تجاهله من الناحية العاطفية ، فليس في إمكاننا البتة أن ندرك في أنفسنا تلك الضرورة الملحة الساذجة التي تتحكم في الدوافع الغريزية عند الزواحف من شهوات ومخاوف وكراهية . واسننا بمستطيعين أن نفهمها فيما هي عليه من بساطة ، وذلك لأن جميع دوافعنا معقدة ؛ فدوافعنا موازنات ونتائج وليست مجرد ضرورات ملحة بسيطة . إن الثدييات والطيور تتصف بكبح للنفس واعتبار لحقوق الآخرين ، وتجاوب اجتماعي : أي ضبط للنفس مهما يبلغ انخفاض مرتبته فإنه شبيه بما نحن عليه . ونتيجة لذلك نستطيع أن ننشئ العلاقات مع جميع أنواعها تقريبا . فإذا هي أحست ألما أطلقت الصيحات وأتت بالحركات التي تحرك مشاعرنا . وفي إمكاننا أن نتخذ منها حيوانات منزلية أليفة تفهمنا وتميزنا وتميزها . وفي الإمكان ترويضها حتى تقدر على ضبط نفسها إزاءنا وأن تستأنس وتعلم .

إن ذلك النمو غير الاعتيادي للمخ ، الذى هو أهم حقائق الزمن الكاينوزوى يسجل وجود ارتباط جديد بين الأفراد واعتماد بعضهم على بعض . كما أنه البشير الآذن بتطور الجماعات الإنسانية الذى منحدثك به من فورنا .

وكما انكشف لأبصارنا المزيد من صفحات الزمن الكاينوزوى تزايدت درجة الشابهة بين حيوانه ونباته وبين ما يقطن العالم اليوم من حيوان ونبات . أجل إن الوينتائيرات (Uintatheres) والتيتانوثيرات (Titanotheres) الضخمة القبيحة الشكل قد انقرضت ؛ وهى وحوش ضخمة قبيحة ليس بين أحياء هذا العصر ما يشبهها غير أن جماعات متسلسلة من الأشكال الحيوانية أخذت ترتقى بخطى ثابتة متواصلة من أسلاف بشعة مضحكة حتى تحولت إلى زرافة عالمنا الحاضر وجملة وحصانه وفيلته وظبائه وكلابه وأسوده وبيوره^(١) . أما الحصان فنشوءه وتطوره تقرأ سطورهما واضحة بوجه خاص فى صفحات السجل الجيولوجى . فإن لدينا سلسلة كاملة نوعا ما من أشكال الحصان تبدأ فى بكور الزمن الكاينوزوى بسلف صغير يشبه التايير^(٢) . ثم إن هناك سلسلة أخرى من سلاسل التطور تم اليوم تجميع أجزائها فى شيء من الضبط ، هى سلسلة اللاما والجمال .

(١) البير وجمعه البيور Tiger : ضرب من الأسد مخطط وليس هو النمر كما تسميه العامة

(٢) التايير Tapir أحد الثدييات آكلة العشب يشبه الخنزير موطنه أمريكا الوسطى والجنوبية

..وجزائر الهند الشرقية .

الفصل التاسع

القرود والعلة العلى^(١) وأشباه الإنسان

يقسم علماء الطبيعة الثدييات إلى عدد من الرتب ، ويعملون على رأس هذه رتب الثدييات العلى التى تحتوى على الليمور والقرود والعلة العلى والإنسان . والأصل فى ذلك التصنيف هو وجود أوجه تطابق تشريحية بينها ، ولا دخل فيه لأى صفات عقلية .

والواقع أن من أشق الأمور تبين معالم التاريخ القديم للثدييات العلى فى السجل الجيولوجى . ذلك أنها فى الغالب حيوانات تقطن العابة كالليمور (المهار) أو القردة التى تقيم فى الأماكن الصخرية الجرداء كالبايون (الرباح) . ومن ثم قلما غرق الواحد منها وغطته الرواسب ، كما أن معظمها من أنواع قليلة العدد ، ولذا لا يكثر وجودها بين الحفريات كأسلاف الحصان والجمال وما إليها . ولكننا نعلم أنه حدث فى عهد مبكر من الزمن الكاينوزوى ، أى منذ ما يقارب الأربعين مليوناً من السنين ، أن ظهرت القردة البدائية والمخلوقات شبه الليمورية الأولى ، وكانت أصغر حجماً وأدنى تخصصاً من أخلافها المتأخرة .

وما لبثت أن دنت نهاية الصيف العالى العظيم الذى ساد الدنيا فى الزمن الكاينوزوى الأوسط . وكان مصيره مصير الصيف العظيم الآخرين فى تاريخ الحياة : صيف مستنقعات الفحم ، والصيف الهائل الذى هو عصر الزواحف ، وللمرة الثانية دارت الأرض دورتها واتجهت نحو عصر جليدى . فبرد مناخ العالم ، ثم اعتدل فترة من الزمن ثم تثلج مرة ثانية وكانت أفراس البحر ترتفع فى الماضى الدفىء بين نباتات غضة شبه مدارية ، وكان ببر هائل له ناب مثل السيف هو البر المسيف ، يتصيد فرائسه فى المنطقة التى يذرعها

(١) القردة العلى هى أرقى أنواع القرود التى تنمى الإنسان ولا ذيل لها أو تسكاد .

الصحفيون اليوم ذهاباً وجيئة في شارع فليت بلندن^(١) . ثم جاء عصر مكفهر قارس فعصور أشد برداً وزمهريراً . فأدى ذلك إلى غربلة^(٢) كثير من الأنواع وإبادة كثير غيرها ، وظهر في المشهد خرتيت صوفي مكيف المناخ البارد ، كما ظهر الماموث وهو ابن عم ضخم للفيل ذو صوف غزير ، وظهر ثور المسك القطبي وغزال الرنة .

ثم أخذ وشاح الجليد القطبي ، وأخذ شبسح الموت الثلجي في العصر الجليدي يزحف نحو الجنوب قرناً بعد قرن فامتد في إنجلترا حتى داني منطقة التاميز ، ووصل في أمريكا إلى نهر الأهيو : ثم جاءت آماد أكثر دفئاً ذرعها بضع آلاف من السنين ، ولكن أعقبها ارتكاسات نحو البرد المرير .

ويطلق الجيولوجيون على هذه الأدوار الشتوية اسم العصر الجليدي الأول والثاني والثالث والرابع ، كما يطلقون على ما بينها من فترات اسم العصور « بين الجليدية » ... ونحن إنما نعيش اليوم في عالم لا يزال يئن من آثار الجذب والجراح التي خلفها ذلك الشتاء الرهيب . والعصر الجليدي الأول قد حل بهذه الدنيا منذ ستمائة ألف سنة ؛ على حين بلغ العصر الجليدي الرابع أقصى زمهريره المرير منذ خمسين ألف سنة تقريباً . وفي هذا الشتاء الطويل الشامل ، وبين الثلوج القارسة عاشت على كوكبنا هذا أول الكائنات الشبيهة بالإنسان .

وعندما حل الزمن السكائوزوي الأوسط كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة ، ذات خواص شبه إنسانية كثيرة في الفك وعظام الساق ، ولكننا لانعثر على أية آثار لمخلوقات نستطيع أن ننعتمها بأنها « إنسانية على وجه العموم » إلا عند اقترابنا من هذه الأعصر الجليدية ؛ وليست هذه عظاما بل أدوات . إذ عثر المنقبون في أوروبا ، في رواسب تعود إلى تلك الفترة عمرها يتراوح بين نصف المليون أو المليون من الأعوام ، على ظرائن وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت قصداً بيد مخلوق ذي مهارة يدوية يريد أن يطرق أو يחדش أو يقاتل بالحد المشحوذ .

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى (Eoliths) . وليس في

(١) هوى الصحافة بالعاصمة البريطانية .

(٢) الغربلة : التنقية وإزالة ما لا خير فيه .

أوربا أية عظام ولا أية بقايا أخرى لذلك المخلوق الذي صنع تلك الأشياء ، وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب . ومهما يكن قدر ما يخالفنا من يقين أو شك في شأنه ، فلعله لم يكن إلا قرداً غير إنسانى تماماً ، وإن يكن ذكياً . ولكن حدث أن أحد العلماء عثر في « ترينيل Trinil » بجزيرة جاوة ، وبين ركام يعود إلى ذلك العصر نفسه ، على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع ما من إنسان قردى ، له وعاء مخي (١) أكبر من وعاء أى قرد راق يعيش الآن ، ويلوح أنه كان يسير منتصب القامة ويسمى هذا المخلوق الآن باسم الإنسان القردى المنتصب القامة (*Pithecanthropus erectus*) ، كما أن هذا المقدار الضئيل من عظامه هو كل ما لقيه خيالنا من العون حتى الآن في تصوره لصناع الأدوات الحجرية الأولى .

ثم لا نعثر بعد ذلك في السجل على أى جزء آخر من كائن شبه إنسانى إلا عندما نبليغ زمناً يقارب عمرها ربع مليون سنة . ولكن الأدوات كثيرة ، كما أنها تتحسن تحسناً مطرداً كلما تقدمنا في مطالعة صفحات السجل . فهي لم تعد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة ، بل هي أدوات حسنة المنظر صنعت بمهارة كبيرة فضلاً عن أنها أكبر كثيراً من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق .

ثم ظهرت بعد ذلك في حفرة رملية قرب « هيدلبرج » عظمة فك مفردة شبه إنسانية ، وهي عظمة فك قبيحة الصورة ، مجردة من الدقن تجرداً تاماً ، وهي أثقل كثيراً من أية عظمة فك إنسانية حققة ، ولكنها أضيق ضيقاً يرجع معه أن لسان صاحبها لم يكن ليستطيع أن يتحرك في فمه بالنطق الواضح البين . ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه ، أن هذا المخلوق كان وحشاً ضخماً كالإنسان تقريباً ، ربما كانت له أطراف وأيد ضخمة ، وربما كان جسمه مكسواً بطبقة كثيفة من الشعر ، وهو يسمى باسم إنسان هيدلبرج .

وعندى أن عظمة الفك هذه من أشد الأشياء استثارة لرغبتنا في الاستطلاع ، وكأني بالنظر إليها يشبه النظر إلى الماضى من خلال عدسة معيبة ، والحصول بواسطتها

(١) الوعاء المخي (*Brain Case*) هو الجمجمة ، وتسمى في علم الأحياء بالقحف ، ويسمى اتساعها من الداخل بالفراغ المخي .

على لحمة واحدة مغشاة بحيرة لذلك الخلق ، وهو يدلف متثاقلا خلال البرية الباردة الموحشة ، ويتسلق المرتفعات ليتجنب البير المسيف ، ويرقب الكركدن الصوفى فى العابات . وإذا بالوحش يخفى عن نواظرنا قبل أن يتاح لنا أن نفحصه . ومع ذلك فإن تربة الأرض مملوءة بوفرة بتلك الآلات غير القابلة للبلى التى نحتها ليلتفع بها .

وئمة بقايا أخرى أشد فتنة وغموضا ، وجدت فى « بلتداون » بمقاطعة ساسكس فى طبقة يقدر عمرها بما يتراوح بين مئة ألف ومئة وخمسين ألفا من السنين ، وإن جنح بعض الثقة إلى إرجاع عمر هذه البقايا بالذات إلى زمن أقدم من عظمة فك « هيدلبرج » .

وهذه البقايا هى جزء من جمجمة غليظة شبه إنسانية أكبر كثيرا من جمجمة أية قرودة عليا موجودة فى الوقت الحاضر ، ومعها عظمة فك تشبه عظام الشمبانزى ، ربما كانت تابعة لنفس الخلق وربما لم تكن ، هذا إلى قطعة من عظم الفيل على شكل المضرب ، تتجلى فيها العناية فى الصنع ، وقد ثقب فيها ثقب واضح لاشك فيه . وهناك أيضا عظمة نخذ العزال عليها قطوع وحزوز كالتى توجد على قائم العد^(١) . ثم لا شئ بعد ذلك . فأى نوع من الوحش كان ذلك الخلق الذى كان يجلس ويثقب العظام ؟ ١ .

لقد سماه رجال العلم باسم إنسان الفجر (Eoanthropus) ، وهو يختلف عن فوى قرباه ، فهو مخلوق مختلف جدا عن المخلوق الهيدلبرجى ، وعن أى قرد راق آخر يعيش اليوم ، وليس هناك أى بقايا أخرى تماثل ذلك الكائن . غير أن الحصباء والرواسب التى انقضت عليها مئة ألف سنة فصاعدا تزداد غنى بما يكشف فيها كل يوم من آلاتظران وما شابهه من أحجار . ولم تعد هذه الآلات مجرد « أدوات حجرية أولية » غير مهذبة إذ لا يلبث علماء الآثار (الأركيولوجيون) أن يتبينوا فيها : المسكشط والخاريز ، والسكاكين ، والنبال ، وأحجار القذف والبلط اليدوية ..

(١) قائم العد أو عصا الحساب : Tally ، قطعة من الخشب تخدش فيها خدوش للدلالة على الأرقام .

فنعن إنما ندنو كثيرا من الإنسان . وسنصف لك في الفصل التالى أعجب هذه الأنواع المؤذنة بظهور البشر ، وهم النياندرتاليون ، القوم الذين كانوا تقريبا - وليسوا تماما - أناسا حقيقيين .

ولكن اعل من الخير أن نذكر ههنا بمنتهى الوضوح ، أنه ليس بين رجال العلم من يرى أن أيا من هذين الخليقين : إنسان هيدلبرج ، وإنسان الفجر ، هو السلف المباشر للإنسان العصرى ، وإنما هما - مهما دنت قرابتهما - أشكال تمت إليه بالتقربى .

الفصل العاشر

الإنسان النياندرتالي والروديسي

كان يعيش على الأرض منذ قرابة خمسين أو ستين ألف سنة خلت ، وقبل بلوغ العصر الجليدي الرابع أوجه ، مخلوق بلغ من قوة مشابهته للإنسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضع سنوات مضت بشرية تماما . ولدينا الآن منه جماجم وعظام وكمية ضخمة من الآلات الكبيرة التي كان يصنعها ويستعملها . كان يستطيع أن يوقد النار . وكان يلتجئ إلى الكهوف انقاء للبرد . ولعله كان يجهز الجلود تجهيزا خشنا ثم يرتديها . كان يسرا يستعمل يمانه كما يفعل الناس .

غير أن علماء السلالات البشرية (Ethnologiste) يرون اليوم أن هذه المخلوقات لم تسكن من الإنسان الحلق في شيء . بل هم نوع آخر من نفس الجنس ، ولهم فكاك ثقيلة بارزة وجباه منخفضة جدا وحروف حواجب كبيرة بارزة فوق العينين . ولم يكن إبهامهم مما يتقابل والأصابع كإبهام الإنسان ، وقد خلقت أعناقهم على وضع خاص لا يسمح لهم أن يدفعوا رؤوسهم إلى الوراء وينظروا إلى السماء . ولعلمهم كانوا يمشون في استرخاء ورؤوسهم مدلاة إلى أسفل منحنية إلى الأمام . وعظام فكاكهم العديدة الذقن تماثل فك هيدلبرج ، كما أنها تخالف فكاك الإنسان مخالفة ظاهرة ملحوظة . وبين أسنانهم والأسمان البشرية بون بعيد . فإن أضراسهم أشد تعقيدا من أضراسنا ومن عجب أنها أشد تعقيدا من أسناننا وليست دونها في التعقيد ، إذ ليست لديهم الأسنان الطويلة التي لأضراسنا ؛ وكذلك لم يكن لأشباه الإنسان هؤلاء تلك الأنياب التي للكائن الإنساني العادي . على أن سعة جماجمهم إنسانية تماما ، والسكن المخ أكبر في المؤخرة وأخفص في المقدم من المخ الإنساني . وكان لمقدراتهم وملسكاتهم العقلية ترتيب آخر مغاير . فهم ليسوا أسلافا للسلالة الإنسانية ، إذ يختلفون عن الأرومة الإنسانية من الناحيتين العقلية والجثمانية .

وقد وجدت جماجم وعظام هذا النوع البائد من الإنسان قرب نياندرتال وبضع

أما كن أخرى ، ولذا أطلق على هذا الجنس العجيب من الإنسان الأول اسم إنسان نياندرتال ولعله ظل يقطن أوروبا مئات كثيرة بل آلاف من السنين .

وفي ذلك الأوان كان مناخ عالمنا وجغرافيته مختلفين جدا عما هما عليه في الزمن الحاضر . فكانت أوروبا مثلاً مغطاة بجليد يمتد جنوباً حتى نهر التاميز ، ويتوغل حتى ألمانيا الوسطى والروسيا ؛ ولم يكن هناك مضيق إنجليزي (بحر المانش) يفصل بين بريطانيا وفرنسا ، أما البحر المتوسط والبحر الأحمر فكانا واديين عظيمين ، وربما احتوت أجزاؤهما الأكثر انخفاضاً على مجموعة من البحيرات كما أن بحراً داخلياً عظيماً كان يمتد من البحر الأسود الحالى عبر الروسيا الجنوبية ، ويتوغل إلى آسيا الوسطى وكانت أسبانيا وكل ما لا يغطيه الجليد فعلاً من أجزاء أوروبا - تتكون من مرتفعات جرداء باردة ، مساخها أشد قسوة من مناخ لبرادور ، ولم يكن الإنسان ليوجد المناخ المعتدل إلا حين يصل إلى أفريقية الشمالية .

وكانت تزدحم عبر السهوب الباردة بأوروبا الجنوبية بما حوت من نبات قطبي متناثر ، مخلوقات شديدة التحمل للبرد من أمثال الماموث الصوفى والخرتيت الصوفى والثيران الضخمة وغزلان الرنة ، وكلها ولا مرأى تتعقب النبات نحو الشمال في الربيع ونحو الجنوب في الخريف .

ذلك هو المشهد الذى كان الإنسان النياندرتالى يتجول بين ظهرائيه ، متلقفاً من الغذاء ما كان يستطيع أن يلتقطه من أنواع الصيد الصغير أو الفواكه والثمار والجذور ومن المحتمل أنه كان نباتياً فى معظم أمره يمضغ العساليج والجذور . ذلك أن أسنانه المسطحة المحكمة توحى بغذاء يغلب فيه النبات . ولكننا نرى فى كهوفه أيضاً عظاماً نخاعية طويلة لحيوانات كبيرة ، وقد كسرت لاستخراج ما بداخلها من نخاع ومن البدهى أن أسلحته لم تكن كبيرة الجدوى فى القتال مع الوحوش الضخمة وجهاً لوجه ، ولكن يظن أنه كان يهاجمها بالحراش عند المعابر الصعبة للأشجار ، بل حتى يحتفر لها الحفائر ليوقعها . ويحتمل أنه كان يتعقب القطعان ويفترس أى فرد منها يموت فى القتال ، ولعله قام بدور ابن آوى إزاء الببر المسيف الذى كان لا يزال حياً فى أيامه . ومن الممكن أن هذا المخلوق قد جنح فى أثناء محن العصر الجليدى وشدائده المريرة إلى مهاجمة الحيوانات بعد عصور طويلة من التكيف للنبات .

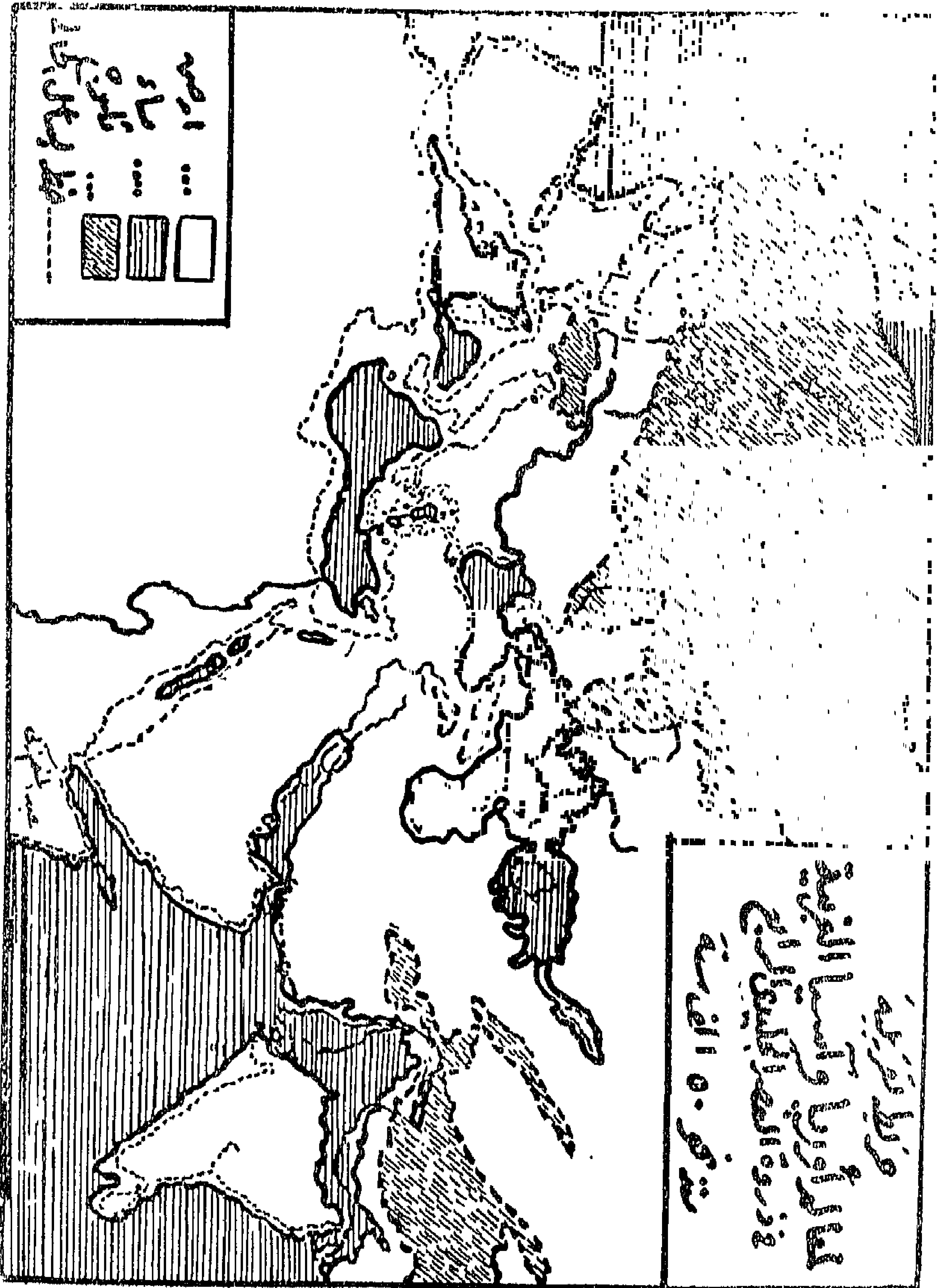
ولسنا نستطيع أن نتخيل هيئة هذا الإنسان النياندرتالى . وأكبر الظن أنه كائن غزير الشعر جداً ذو هيئة غير إنسانية حقاً . بل إننا لفي شك من أنه كان يسير منتصب القامة . ولعله كان يستعمل يديه بالإضافة إلى قدميه لحمل جسمه . والراجح أنه كان يضرب فى الأرض بمفرده أو فى جماعات عائلية صغيرة ، ويدل تركيب فككه على عدم قدرته على الكلام بالصورة التى نفهمها .

وقد ظل هؤلاء النياندرتاليون آلاف السنين وهم أعلى ما شهدت القارة الأوربية من حيوان ؛ ثم حدث منذ حوالى ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف سنة مع تقدم المناخ نحو الدفء قليلاً أن نزح إلى عالم النياندرتاليين من الجنوب جنس من كائنات تمت إليهم بالقرى ، ولكنه أكثر ذكاء وأوسع معرفة ، ثم إنه يتكلم ويتعاون بعضه مع بعض - فطردوا الجنس النياندرتالى من كهوفه ومنتجعاته ، وتصيدوا نفس الطعام الذى كان يأكله ، ولعلهم قد قاتلوا سابقهم هؤلاء البشعين وأعملوا فيهم الفناء . هؤلاء الوافدون من الجنوب أو الشرق (فلسنا نعلم فى الزمن الحاضر بلادهم الأصلية) الذين أبادوا النياندرتاليين آخر الأمر إبادة تامة ، كائنات من نفس دمنا وجنسنا ، وهم الإنسان الأول الحق . وآية ذلك أن جماجمهم (أوعية أمخاخهم) وإبهاماتهم وأعناقهم وأسنانهم هى من الناحية التشريحية نفس ما لدينا . وقد عثر الباحثون فى كهف عند كرومانيون وفى آخر قرب جريمالدى على عدد من الهياكل العظيمة ، هى أقدم ما نعرف إلى اليوم من البقايا البشرية الحقة .

وبذلك يدخل جنسنا فى سجل الصخور وتبدأ قصة البشرية .

فى تلك الأيام أخذ العالم يصبح أشبه بعالمنا وإن بقى المناخ شديداً قاسياً . وقد أخذت ثلجات العصر الجليدى فى التراجع بأوربا ؛ وسرعان ما أخلت غزلان الرنة بفرنسا وأسبانيا مكانها لأسراب عظيمة من الخيول كلما تكاثرت الكلا على السهوب ، وأخذ الماموث يزداد ندرة فى جنوب أوربا حتى تراجع فى النهاية نحو الشمال تراجعا مطلقاً . . .

ولسنا ندرى أين نشأ الإنسان الحقيقى أولاً ، ولكن حدث فى صيف ١٩٢١ ، أن اكتشفت جمجمة بالغة الأهمية مع أجزاء من هيكل عظمى قرب بروكن هل بإفريقيا الجنوبية ، جمجمة يلوح أنها بقية صنف ثالث من الإنسان ، وسط فى خواصه المميزة



(خريطة رقم ١)

بين النياندرتالى والسكان الإنسانى الحق ، ويدل الوعاء الخفى على أن مخه أكبر فى المقدم وأصغر فى المؤخرة من منح النياندرتالى ، كما أن الجمجمة منتصبة فوق العمود الفقرى على شاكلة إنسانية تماماً . وكذلك الأسنان والعظام فإنها إنسانية بحتة ، أما الوجه فالراجع أنه كان شبه قردى له حروف حواجب هائلة مع بروز على امتداد وسط الجمجمة . أجل إن ذلك المخلوق إنسان حق ولكن على وجه التقريب فقط ، لأن له وجهاً نياندرتالياً شبه قردى ، ومن الواضح أن هذا الإنسان الروديسى أوثق شبهاً بالإنسان الحق من الرجل النياندرتالى .

والراجع أن هذه الجمجمة الروديسية ليست إلا الدفعة الثانية من مكتشفات قد تتكون منها فى النهاية قائمة طويلة من أجناس شبه إنسانية عمرت هذه الأرض فى الفترة الزمنية الهائلة الممتدة بين بدايات العصر الجليدى وبين ظهور الإنسان الحق ورثتها جميعاً ، ولعله أيضاً مبيدها جميعاً ، وربما لم تكن الجمجمة الروديسية نفسها مفردة القدم ، إذ أن العلماء لم يصلوا حتى يوم صدور هذا الكتاب إلى قرار دقيق بشأن عمرها المحتمل ، وربما كان هذا المخلوق شبه الإنسانى يعيش فى إفريقيا الجنوبية حتى أزمنة حديثة جداً .

الفصل الحادى عشر

الإنسان الحقيقى الأول

إن أقدم ما يعرفه العلم فى زماننا هذا من العلامات والآثار لبشر لا يتطرق الشك إلى قرابتهم لدوات أنفسنا، عثر عليه فى أوربا الغربية وخاصة فرنسا وأسبانيا. فقد اكتشفت فى كل من هذين القطرين عظام وأسلحة وخدوش على العظام والصخر وقطع من العظم المحفورة ورسوم على جدران الكهوف وعلى سطوح الصخور، ترجع فيما يظن إلى ثلاثين ألف سنة أو أكثر. وأسبانيا هى فى الوقت الحاضر أغنى بقاع العالم بتلك البقايا المتخلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين.

ومن البديهي أن مالدينا فى الوقت الحاضر من مجموعات من تلك الأشياء ليس إلا قطرة من البحر الطامى الذى ينتظر جمعه مستقبلا، يوم يتواجد العدد الكافى من المنقبين للقيام بفحص استقصائى شامل لجميع المصادر الممكنة؛ ويوم يتاح لعلماء الآثار ارتياد بقية أقطار العالم الأخرى التى يحال بينهم اليوم وبين دخولها، فيفحصونها فى شىء من التفصيل. فمن المعلوم أن الشطر الأكبر من إفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراقه البتة حتى اليوم لمشاهد مدرب بهتم بهذه الأمور ويستمتع بحرية الارتياح، وعلى ذلك ينبغى لنا أن نحرص الحرص كله من أن نستنتج أن الإنسان الحق الأول امتازت به أوربا الغربية أو أنه ظهر أولا بتلك المنطقة.

وربما انطوت آسيا أو إفريقيا أو مناطق يغطيها اليوم البحر، على رواسب تحوى بقايا إنسانية حقة أكثر عدداً وأقدم عهداً من أى شىء عثر عليه حتى يومنا هذا. إنى أتسكلم عن آسيا وإفريقيا. ولا أذكر أمريكا، إذ لم يعثر فيها - عدا سن واحدة - على أى شىء يعود إلى الحيوانات العليا، سواء أكانت من القرود العليا أو أشباه الإنسان أو النياندرتاليين، أو الإنسان الأول الحقيقى. ذلك أن هذا التطور الذى تناول الحياة، يلوح أنه شىء اقتصر أمره على العالم القديم وحده تقريباً، والظاهر أن السكائنات الإنسانية

لم تتخذ طريقها إلى القارة الأمريكية لأول مرة فوق البرزخ الأرضى الذى يحترقه الآن مضيق بهرنج ، إلا عند نهاية العصر الحجري القديم .

ويبدو أن السكائنات الإنسانية الحقيقية الأولى التى نعرفها فى أوربا ، كانت تنقسم بالفعل لأحد جنسين على الأقل متميزين تماماً أحدهما عن الآخر ، وكان أحد هذين العنصرين من طراز راق جداً فهو طويل القامة كبير المخ . وهناك جمجمة لإحدى النساء يفوق فراغها الخى فراغ مخ الرجل المتوسط فى هذه الأيام . كما أن أحد هياكل الرجال يتجاوز الستة الأقدام طولاً . أما طراز الأجسام فيشبه طراز الهنود الحمر بأمريكا الشمالية . وقد سُمى هذا الشعب باسم الكرومانى نسبة إلى كهف كرومانيون الذى وجدت فيه أولى بقاياه . كانوا متوحشين ولكنهم متوحشون من طراز راق .

فأما العنصر الثانى الذى عثر على بقاياه فى غار جريمالدى ، فكان عنصراً ذا سمات شبيهة زنجية (نجريرية)^(١) لاشك فيها . وأقرب الأحياء إليه هم شعبا البوشمن والهوتنتوت بجنوب إفريقيا . ولعله مما يثير اهتمامنا أن نجد البشرية منقسمة فعلاً منذ ابتداء قصة الإنسان المعروفة إلى عنصرين رئيسيين اثنين على الأقل ؛ وقد يجمع المرء منا إلى أن يفترض بغير أساس عامى أن العنصر الأول كان على الأرجح أسمر أكثر منه أسود وأنه جاء من الشرق أو الشمال ، وأن الثانى كان أميل إلى السواد منه إلى السمرة ، وأنه جاء من الجنوب الاستوائى .

هؤلاء المتوحشون الذين كانوا يعيشون منذ أربعين ألف سنة بلخ من اتصافهم بالسمات البشرية أنهم كانوا يشقون الودع ليصنعوا منه القلائد ، وينقشون أجسامهم ، ويصنعون التماثيل من الحجر والعظام ، ويخدشون الصور على الصخور والعظام ، ويرسمون على جدران الكهوف الملساء ، وعلى سطوح الصخور التى تعجبهم رسوماً للحيوان وما شابهه ، قد تكون ساذجة ، ولكنها تنم فى الغالب على مقدرة كبيرة .

وقد صنعوا أنواعاً كثيرة من الأدوات ، أصغر حجماً وأدق صنماً مما كان للرجل

(١) النجريرى Negroid هو العنصر الذى يشابه الزنجى فى الشكل والسمات وإن لم يكن زنجياً بحتاً .
(المترجم)

النياندر تالى. وبمتاحفنا الآن مقادير عظيمة من أدواتهم ، وتمائيلهم الصغيرة ، وما خلفوا من صور على الصخور إلى غير ذلك .

وكان أقدم هؤلاء المتوحشين صيادين ، أهم ما يتصيدونه الحصان البرى ، وهو السيسى الصغير الملتصق الذى كان يعيش فى تلك الأزمان . كانوا يتعقبونه فى مسيره وراء المرعى وكذلك كانوا يتتبعون الجاموس البرى «البيزون» . وقد عرفوا الماء ، وث ، فإنهم تركوا لنا صوراً أخاذة رائعة لذلك المخلوق وهناك رسم مبهم إلى حد ما ، يدل على أنهم كانوا يوقعونه فى الحبال ويقتلونه .

وكانوا يصطادون بالحرا ب وبالقذف بالأحجار . ولا يلوح أنهم كانوا يملكون القوس ، وإنما لى شك من أنهم حتى حينذاك قد تعلموا استئناس الحيوان . ولم تكن لديهم كلاب . وهناك صورة محفورة لرأس حصان ورسم أو اثنان كأنى بهما يمثلان حصاناً ملجماً ، وحوله جلد أو وتر مجدول . على أن الخيول الصغيرة فى ذلك العصر وتلك المنطقة لم تكن لتستطيع أن تحمل رجلاً ، ولو فرض أنهم استأنسوا الحصان ، فالراجح أنهم كانوا يقودونه دون أن يركبوه . ومما نشك فيه ولا نرجحه أنهم تعلموا طريقة الاغتذاء بلبن الحيوان وهى شىء غير طبيعى أو يكاد .

وليس يبدو أنهم عرفوا البناء ، وإن جاز أنه كانت لهم خيام من الجلد ، وهم وإن قاموا بصنع دى من الطين فإنهم لم يرتقوا قط إلى مرتبة صنع الفخار . ولما لم تكن لهم أدوات طبخ ، فلا بد أن طبخهم كان بدائياً أو لا وجود له البتة . وما كانوا يعرفون عن الزراعة شيئاً ، ولا شيئاً عن أى نوع من أنواع صنع السلال أو القماش المنسوج . ولولا ما كان لهم من أردية من الجلد أو الفراء ، لجاز لنا أن نقول إنهم من المتوحشين العراة المنقوشى البشرة .

ظل هؤلاء الناس الذين هم أقدم من نعرف من البشر يتصيدون على سهوب أوربا المنبسطة دهرًا لعله مائة قرن ، ثم أخذت تغيرات المناخ تفعل فيهم فعلها وتبدل من أحوالهم . فإن مناخ أوربا أخذ يتحول قرنا بعد قرن ، ويصبح أكثر اعتدالاً ومطراً فتراجع غزال الرنة نحو الشمال والشرق ، وعقبه الجاموس البرى والحصان . وحلت الغابات محل السهوب ، وحل الغزال الأحمر محل الحصان والجاموس البرى ، وظهر فى الأدوات وصفاتها تغير صعب هذا التغير فى استعمالها ، وبات الصيد من الأنهار

والبحيرات ذا أهمية كبرى للإنسان ، وتزايدت الأدوات العظمية الرفيعة . يقول دى مورتليه : « إن الإبر العظمية في هذا العصر أجود كثيراً من المتأخرة عنها في الزمن ، حتى ما كان منها في الأزمنة التاريخية إلى عصر النهضة . فلم يكن للرومان مثلاً إبر يمكن مقارنتها بإبر تلك الحقبة » .

ثم انتقل إلى جنوب أسبانيا منذ حوالي خمسة عشر ألف سنة شعب جديد من آثاره صور رائعة جداً ، رسمها على سطوح الصخور المسكشوفة . هذا الشعب هو الأزيليون (نسبة إلى كهف ماس دازيل Masd' Azil) . وقد عرفوا القوس ؛ ويلوح أنهم كانوا يلبسون أغطية للرأس من الريش ؛ وكانوا يرسمون رسوما مشرقة ، ولكنهم حولوا رسومهم إلى نوع من الرمزية — فالرجل مثلاً يمثل عندهم بخط رأسى من خطين أفقيين أو ثلاثة — وفي ذلك ما فيه من تلويح ببزوغ فكرة الكتابة ، وكثيراً ما تجد بإزاء رسوم تخطيطية تمثل الصيد علامات كالق على قائم العد ، وشم رسم يمثل رجلين يطردان النحل من خليته بالدخان .

هؤلاء القوم هم آخر الأناس الذين نسميهم باليوليثيين أهل العصر الحجري القديم لمجرد أنهم نحتوا الأدوات ، ثم بزغ في أوربا منذ عشرة آلاف أو اثنتى عشرة ألف سنة فجر طريقة جديدة من طرق العيش ، إذ تعلم الإنسان لا أن ينحت الآلات الحجرية فحسب بل أن يصقلها ويشحذها ، كما أنه شرع في الزراعة ، وبذلك أقبلت بداية حضارة العصر الحجري الحديث (النيوليثى) .

وقد يشوق القارىء أن يعلم أنه كان هناك منذ أبل من قرن مضى في صقع ناء من العالم ، هو جزيرة تسمانيا ، عنصر من كائنات بشرية على مستوى من التطور الجثمانى والعقلى أخفض من أى من هذه الأجناس البشرية الأولى التى تركت آثارها في أوربا . لقد قطع هذا الشعب التسمانى عن بقية الجنس البشرى منذ آماذ طويلة بفعل تغيرات جغرافية ، كما قطع عن عوامل التربية والتحسين . ويلوح أنهم انحطوا بدل أن يتطوروا ويرتقوا وعندما اكتشفهم المكتشفون الأوربيون ، وجدوهم يعيشون عيشاً خفيضاً مغتذين بالحمار والصيد الصغير ، ولم تكن لهم مساكن بل منتجعات ، ولا شك أنهم رجال حقيقيون من نفس نوعنا ، ولكن تعوزهم المهارة اليدوية والمواهب الفنية التى كان الإنسان الأول يتحلى بها .

الفصل الثاني عشر

الفكر البدائي

لنطلق الآن لأفكارنا العنان لتجول في عالم الخيال بضع جولات ممتعة ؛ فكيف كان الإنسان الأول يشعر بإنسانيته في تلك الأيام الأولى للمغامرة البشرية ؟ وكيف كان الرجال يفكرون وفيم كانوا يفكرون في تلك الأيام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن سفلت وقبل ابتداء أوان البذار والمحصول ؟ تلك أيام تسبق بزمن مديد كل سجل مكتوب يدون الانطباعات والأفكار الإنسانية ، لذا ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرها في إجابتنا عن هذه الأسئلة .

وغنى عن البيان أن المصادر التي لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقلية البدائية وإعادة تركيب أجزائها معاً ، متنوعة جداً . ففي العصر الحديث يلوح لنا أن علم التحليل النفسي قد ألقى قدراً عظيماً من الضياء على تاريخ الجماعة البشرية البدائية ، بأسلوبه الذي يتفحص الطريقة التي بها تكف الدوافع الأنانية والماطفية في الطفل . أو تعدل أو تغطي بأشياء أخرى ، حتى يتيسر تسكيّفها وفق حاجات الحياة الاجتماعية (١) ؛ وثمة مصدر آخر للاستنتاج داني القطوف ، هو دراسة أفكار وعادات المتوحشين الذين لا يزالون يعيشون في هذا العالم . وهناك أيضاً ضرب من التحفر (٢) والجمود العقلي نجده في الفوكلور (الأدب الشعبي) وفي الخزعبلات والتحيزات غير المقولة العميقة الرسوخ في النفوس والتي لا تزال موجودة بين الشعوب العصرية المتعدنة . ثم إن لنا في تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز وما أشبهها مما يكثر عدداً ويتزايد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقاً له وجديراً بالتسجيل والتثيل .

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب : « مدخل إلى علم النفس الحديث » ترجمة المترجم إن شئت تفصيلاً لنظريات التحليل النفسي .
(٢) التحفر : تحول الشيء إلى حفرة من الحفرات . وهو هنا بمعنى مجازي هو التجرد والتجبر العقلي وبقاء القديم على قدمه (المترجم) .

والراجح أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيراً طريقة تفكير الأطفال أعني أنه كان يفكر في سلسلة من الخيالات . فكان يستدعى إلى مخيلته الصور العقلية للأشياء أو كانت الصور العقلية^(١) تقدم نفسها لعقله ، كما أنه يتصرف حسباً تمليه عليه الانفعالات التي تثيرها تلك الأخيالة . وذلك هو ما يفعله في هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم . ومن الواضح أن التفكير المنظم إنما هو تطور متأخر نسبياً في الخبرة الإنسانية وهو لم يلعب دوراً كبيراً في الحياة الإنسانية إلا في غضون الثلاثة آلاف سنة الأخيرة . بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقاً في هذه الأيام أنفسهم وينظمونها فعلاً ليسوا إلا أقلية ضئيلة من الناس . ولا يزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة .

ومن المحتمل أن أقدم مظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى لقصة الإنسان الحق ، كانت تتكون من مجموعات عائلية صغيرة . وكما أن قطعان ورعائل الثدييات الأولى نشأت عن عائلات ظلت بعضها مع بعض ثم تكاثرت ، فمن المحتمل أيضاً أن القبائل الأولى قد فعلت مثل ذلك . ولكن قبل حدوث ذلك ، كان الأمر يقتضى أن تقيد بصورة ما أنانيات الفرد البدائية . وكان لابد من بسط فكرتي «الخوف من الأب واحترام الأم» حتى تتغلغلا في حياة الكبار ، وكان لابد من تخفيف غيرة الرجل الكهل الطبيعية من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون . وكانت الأم من الناحية الأخرى هي الناصح الطبيعي والحامي الفطري للصغار . وقد تولدت الحياة الاجتماعية الإنسانية عن طريق التفاعل بين الغريزة الفجة التي تدفع الصغار إلى الانفصال وتكوين أزواج من أنفسهم عندما يشبون — وبين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها . وهناك عالم من علماء الأجناس البشرية (Anthropology) أوتى عبقرية عظيمة هو « ج. ب. أتكينسون » راح في كتابه « القانون البدائي » ، يوضح إلى أي حد يمكن نسبة القانون العرفي لدى المتوحشين — (وهو تلك تلك المحظورات « Tabue » التي هي حقيقة بارزة في الحياة القبليية) — إلى ذلك التوفيق العقلي بين حاجات الحيوان البشري البدائي وبين حياة اجتماعية آخذة بأسباب التطور ، وأظهرت الأيام إلى حد كبير صدق تأويله لهذه الأمور المحتملة بفضل جهود علماء التحليل النفسي في الآونة الأخيرة ، ومن الكتاب الميالين إلى إطلاق العنان لتأملاتهم من يريدون منا أن نعتقد بأن احترام

(١) الصور العقلية images : وهي الأخيالة (المترجم) .

الرجل العجوز والخوف منه ، والانفعال العاطفي الذي يحسه المتوحش البدائي إزاء العجائز المسنات اللواتي يتولين حمايته ، (وهي وجدانات تزيدها الأحلام شدة ، ويضاعفها عبث الأوهام والأخيلة) كانت مصدر شطر عظيم من بدايات الديانة البدائية ومن فكرة الأرباب والربات . ومما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة شعور بالرغبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها ، يرجع إلى عودتها إلى الظهور في الأحلام . لذا كان من اليسير الاعتقاد بأنها لم تكن ميتة حقاً وأن كل ما في الأمر أنها نقلت نقلاً وهمياً إلى متناهى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها .

ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته ومخاوفه أكثر إشراقاً وواقعية من أحلام الراشد العصري ، وما كان الرجل البدائي دائماً إلا طفلاً في تفكيره أو يكاد . كما أنه كان أيضاً أدنى إلى الحيوانات ، وكان يتصور أن لها دوافع واستجابات مثل التي له وكان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة ، وأخرى معادية وحيوانات آلهة . ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون في صغره طفلاً واسع الخيال ليدرك من جديد كم كانت الصخور الغريبة الشكل أو السكتل الخشبية أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها ، تبدو لأعين رجال العصر الحجري القديم مهمة وذات مغزى خطر أو منذرة بالثبور أو مظهرة للمودة وكيف كانت الأحلام والأوهام تخلق من الحكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء ، ما كان يصبح مقبولا ومصداقاً عندما يروى . ومن هذه الحكايات ما يكون من الجودة بحيث يتذكر وتعاد روايته ، وإن النساء ليروينها للأطفال وبذلك يؤسسن التقاليد ، ولا يزال معظم واسع الخيال من الأطفال يخترعون إلى يومنا هذا قصصاً طويلة بطلها دمية محبوبة أو حيوان أثير أو كائن خيالي شبه إنساني ، ولعل الرجل البدائي كان يفعل مثل ذلك — مع اختصاصه يميل أقوى كثيراً إلى الاعتقاد بحقيقة بطله ، ومرد ذلك أن أقدم من نعرف من البشر الحقيقيين ، ربما كانوا كائنات ثرثرة تماماً وكانوا يختلفون من هذه الناحية عن النياندرتاليين ويمتازون عليهم فالنياندرتالي ربما كان حيواناً أبكم . وحديث الإنسان البدائي ربما لم يرد بداهة عن مجموعة ضئيلة جداً من الأسماء ، وربما كان يصدر مقتضياً مصحوباً بالحركات والإرشادات والعلامات .

وليس من أصناف المتوحشين من يبلغ من الانحطاط أن يكون لديه نوع من العلم بالعلّة والمعلول ، ولكن الرجل البدائي لم يكن نقاداً في ربطه السبب بالنتيجة ؛ فما أسهل ما كان يربط نتيجة بشيء بعيد تماماً عن سببها . « كأن يقول : « أنت تفعل كذا وكذا

فيحدث كيت وكيت » . فأنت تعطى ثمرة لأحد الأطفال فيموت . وأنت تأكل قلب
عدو مغوار فتصبح قويا . هذان مثالان للربط بين السبب والنتيجة ، وأحدهما حقيقي
والثاني باطل . ونحن نسمى طريقة ربط العلة بالمعلول في عقل المتوحشين باسم
الفتيشة^(١) ولكن الفتيشة إنما هي فقط علم المتوحشين وهي تختلف عن العلم العصري
في كونها لا تقوم على أى أساس من التنظيم أو التحصيل ، فهي لذلك خاطئة في
الأعم الأغلب .

ولم يكن من العسير في الكثير من الحالات ربط السبب بالأثر ، بينما حدث في
أحيان كثيرة أخرى أن الخبرة صححت على الفور الفسكات الخاطئة ، ولكن هناك
مجموعة عظيمة من النتائج ذات أهمية عظيمة للرجل البدائي ، كان يلتمس فيها الأسباب
بإصرار ولجاجة فلا يستكشف إلا تفسيرات خاطئة ، ولكن خطأها ليس من الكفاية
ولا من الوضوح بحيث يستطيع استنباطه . ولشد ما كان يهمه أن يكون الصيد وفيرا
والسمك كثيرا سهل الصيد ، ولا شك أنه طالما جرب آلافا من التعاويذ والرقى والندور
وآمن بها ليحصل على هذه النتائج المرغوبة ، وثمة شاغل عظيم له هو المرض والموت .
وكثيرا ما كانت العدوى تنتشر ، ويموت الناس بها أو تضعف أجسامهم دون سبب ظاهر .
فهذا الأمر أيضاً لابد أنه كان يسبب لعقل الرجل البدائي المتسرع الانفعال كثيرا من
الإجهاد والقلق . وكانت الأحلام أو التخمينات الوهمية تجعله يلوم هذا الرجل أو
الحيوان أو الشيء أو يلتمس منهم المعونة . كانت لديه قابلية الطفل للخوف والدعر .

ولابد أنه حدث في زمن مبكر جدا من تاريخ القبيلة الإنسانية الصغيرة ، أن العقول
الأكبر سنا والأثبت جنانا ، والتي كانت تسهم في المخاوف وتسهم في التخيلات ، ولكنها
أقوى قليلا من العقول الأخر ، قد تصدرت للنصح ووصف الصفات وإصدار الأوامر .
فراحوا يصرحون أن هذا أمر مشؤوم وذلك شيء محتوم ، وأن هذا بشير بخير وذلك
نذير بشر . وكان الخبير بالفتيشة ، وأعنى به الطبيب الساحر هو الكاهن الأول وهو
الذى يقدم النصائح ويفسر الأحلام ، ويحذر ويقوم بالتعازيم الجوفاء التي تجلب الحظ
وتجنب النكبات ، ولم ترق الديانة البدائية إلى ما نسميه الآن باسم الديانة من حيث هي
طقوس وشعائر ، كما أن الكاهن الأول كان يملأ على الناس ما هو في الحقيقة علم عملي تحكمي

(١) الفتيشة وهي اعتقاد المتوحش أن كل شيء مادي تسكنه روح تقوم لمالك الشيء
بالخدمات . (المترجم)

الفصل الثالث عشر

بدايات الزراعة

لا يزال عامنا ببدايات الزراعة والاستقرار في العالم قاصراً جداً ، وإن يكن قد بذل في هذا السبيل إبان الخمسين عاماً الأخيرة شيء كثير من البحث وإعمال الفكر . وكل ما يسعنا قوله في شيء من اليقين في الوقت الحاضر ، أنه حدث في مكان ما قبل مولد المسيح بخمسة عشر ألف عام أو اثني عشر ألفاً ، بينما الشعب الآزيلي يقطن في جنوب إسبانيا وبينما البقية من الصيادين القدامى تنتقل شمالاً وشرقاً ، أن كان هناك في مكان ما بشمال أفريقيا أو غرب آسيا أو بالوادي المتوسط الكبير الذي تغمره الآن مياه البحر المتوسط ، قوم داموا عصراً بعد عصر يستكشفون ويتعلمون شيئين هامين أهمية حيوية كبرى : ذلك أنهم شرعوا في الزراعة وأخذوا يستأنسون الحيوان كما أنهم شرعوا أيضاً يصنعون أدوات من الحجر المصقول بالإضافة إلى الآلات المنحوتة التي ورثوها عن أسلافهم الصيادين . وقد اكتشفوا طريقة صنع السلال والمنسوجات الخشنة النسيج المصنوعة من ألياف النبات ، وشرعوا يصنعون فخاراً بدائياً الصنع .

لقد شرع هؤلاء القوم يتقدمون نحو مرحلة من مراحل الثقافة البشرية ، هي العصر الحجري الحديث (النيوليثي) تمييزاً له من العصر الحجري القديم (الباليوليثي) عصر الكرومانيين والشعب الجرماني والذين والأزيليين ومن إليهم^(١) وما لبث هذا الشعب شعب العصر الحجري الحديث أن انتشر رويداً رويداً في أصقاع العالم الأكثر دفئاً كما أن الفنون التي حذقها ، والنباتات والحيوانات التي تعلم أن يستخدمها ، انتشرت معه عن طريق المحاكاة والتملك ، وبمكن بصورة تكاد تفوق انتشار الشعب نفسه . فلما وافت

(١) ربما لاحظنا أن كلمة « باليوليثي » تطلق على الآلات النياندرتالية بل حتى الأدوات الحجرية Eoliths . ويسمى عصر ما قبل الإنسان « الحجري القديم الأول » أما عصر الإنسان الحق الذي استعمل أحجاراً غير صقيلة فهو « الحجري القديم الثاني » .

سنة ١٠٠٠ ر. ق . م . كان معظم البشرية قد ارتقى إلى مستوى العصر الحجري الحديث .

وعمليات حرث الأرض وبذر الحبوب وجنى المحصول والدرس والطحن ، ربما بدت للعقل العصري خطوات بديهية شديدة الوضوح شأن كروية الأرض سواء بسواء ، وربما تساءل بعض الناس : وما الذى يستطيع الناس عمله إلا هذه الأشياء ؟ وعلى أية صورة أخرى يمكن أن يكون الأمر؟ .. ولكن الرجل البدائي الذى عاش منذ عشرين ألف سنة ، لا يمكن أن تكون أسس التصرف والاستنتاج العقلى التى تبدو لنا اليوم أكيدة جلية ، واضحة لديه على الإطلاق . لقد ظل يتحسس طريقه إلى الممارسة العملية النافعة خلال كثرة عظيمة من المحاولات والأخطاء ، مع الشرود إلى تفصيلات حيالية غريبة لا لزوم لها ، وتأويلات خاطئة عند كل لفظة . كان القمح ينمو برىا فى مكان ما من منطقة البحر المتوسط ؛ وربما تعلم الإنسان كيف يدق حبوبه ، ثم كيف يطحنها قبل أن يتعلم كيف يبذرهما بزمان مديد فكأنه جنى قبل أن يبذر .

ومما هو جدير بالملاحظة حقا أنه مامن صقع من أصقاع العالم وجد فيه بذر وجنى إلا أمكن فيه تعقب آثار ارتباط بدائى قوى بين فكرة البذار وفكرة التضحية بالدم ، سيما التضحية بكائن إنسانى قبل كل شيء . ولا مرأى أن دراسة الأصل فى الخلط بين هذين الشيئين تستهوى كل ذى لب مستطلع ؛ وما على القارىء الذى يهتم بهذه الأبحاث إلا أن يطلب هذا الموضوع مدروسا دراسة وافية فى ذلك السفر الخالد المرسوم بالعصن الذهبى « Golden Bough » الذى ألفه السير ج . ج . فريزر . ويجمل بنا أن نتذكر أن ذلك الخلط بين الأمرين حدث فى العقل البدائى الطفولى الحالم صانع الأساطير ، ولذا فلن نستطيع تفسيره مهما استعملنا من أساليب الفكر والاستنتاج المنطقى .

وكل ما يمكننا قوله أنه يالوح أنه كان من عادة ذلك العالم السحيق قبل اثنى عشر ألفا إلى عشرين ألفا من السنين خلت ، أنه كلما دارت الأيام دورتها وحل أوان البذار على شعوب العصر الحجري الحديث حلت معه تضحية بشرية . ولم تكن التضحية بأى شخص خسيس أو منبوذ ، بل كانت فى العادة تضحية بشاب مختار أو فتاة منتقاة ، وإن كان فى الأغلب الأعم شابا يعامل معاملة تنطوى على الإجلال العميق ، بل حتى على

العبادة إلى لحظة تقديمه قربانا . كان يعد ضربا من ملك إله يقدم قربانا ، كما أن كل تفاصيل فتله أصبحت طقوسا يتولاها الرجال المسنون العارفون ، ويقرها عرف العصور الموروث .

ولا بد أن البدائيين بما لديهم من فكرة ساذجة جداً عن فصول السنة ، كانوا يجدون في البداية صعوبة كبيرة في تحديد أنسب اللحظات للبذر والقربان في موسم البذار ، وهناك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأنه أتى على الإنسان حين مبكر لم تكن لديه فيه أية فكرة عن شيء اسمه السنة . ثم نشأ أول تاريخ حسب الأشهر القمرية ؛ ويرى بعض العلماء أن السنوات التي يذكرها « الآباء » في العهد القديم إنما هي أشهر قمرية ، كما أن التقويم البابلي تتجلى فيه شواهد واضحة تدل على أنهم حاولوا ضبط موسم البذار باحتساب ثلاثة عشر شهراً قمرياً لإتمام الدورة . ولا يزال أثر هذا التقويم القمري باقياً إلى يومنا هذا ، ولولا أن مألوف العادة قد بلد شعورنا ، لدهشنا حقاً من أن الكنيسة المسيحية لا تحتفل بذكرى صلب المسيح وبعثته في الموعد السنوي الصحيح بل في مواعيد تختلف سنة عن أخرى باختلاف أوجه القمر .

وربما جاز لنا أن نشك في أن أحداً من الشعوب الزراعية الأولى قد رقب النجوم . والأرجح أن أول من رقب النجوم هم الرعاة الرحل ، الذين كانوا يجدون فيها وسيلة مناسبة لتوجيههم وجهتهم ، ولكن ما كاد الإنسان يدرك نفعتها في تحديد الفصول ، حتى أصبحت أهميتها للزراعة عظيمة جداً ، ومن ثم ربط قربان موسم البذار بمسير أحد النجوم الكبيرة جنوباً أو شمالاً ، وكان اتخاذ ذلك النجم أسطورة ومعبوداً أمراً لا يحصى منه تقريباً عند الرجل البدائي .

من أجل ذلك أصبح من السهل أن ندرك مبالغ الأهمية التي بلغها في بكور أيام العالم الحجري الحديث ، رجل المعرفة والخبرة ، الرجل الذي كان يعلم علم قربان الدم والنجوم

أما الخوف من النجس والتدنس ، والطرق المستصوبة الموصوفة للتطهر ، فحدث عنها ولا حرج ، كمصدر آخر من مصادر القوة لدوى العلم الغزير من الرجال والنساء . وذلك لأن الأمر لم يخل أبداً من ساحرات عدا السحرة ، ومن كاهنات فضلا عن الكهنة .

والكهنة الأول ليس في الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيقى .
فعلمه على الجملة تجريبي ، كما أنه في الأغلب من صنف رديء ؛ وكان يحتفظ به
سرا مصوناً ، ويغار عليه من الناس عامة ؛ ولكن ذلك لا يغير جوهر الأمر ،
وهو أن وظيفته الأولى هي « المعرفة » وأن استخدامها الأساسي لديه كان
استخدامها عملياً .

ومنذ اثني عشر ألفاً أو خمسة عشر ألفاً من السنين ، وفي جميع أجزاء العالم القديم
الدفيئة والحسنة الرى إلى حد مناسب ، أخذت هذه المجتمعات الإنسانية التي تعيش عيش
العصر الحجري الحديث في الانتشار ، بما حوت من طبقة الكهنة والكاهنات
وتقاليدهم ، وبما لها من حقول مزروعة ، وما حصلت من تطور في القرى والمدن
الصغيرة المسورة . وترادفت العصور عصراً بعد عصر ، وتواصل انتقال الأفكار
وتبادلها بين هذه المجتمعات .

وقد أطلق إليوت سميث وريفرز اسم « الثقافة الهليوليثية » (الشمسية الحجرية)
على ثقافة تلك الشعوب الزراعية الأولى ، وربما لم يكن لفظ « هليوليثى » هذا خير
مصطلح يمكن إطلاقه على هذه الثقافة ، غير أنا مضطرون إلى استعماله حتى يوافقنا رجال
العلم بخير منه .

وهذه الثقافة التي نشأت في مكان ما بإقليم البحر المتوسط ومنطقة آسيا الغربية ،
ظلت تنتشر عصراً بعد عصر ، متجهة شرقاً ومنقلة ، من جزيرة إلى جزيرة
عبر المحيط الهادى حتى وصلت إلى أمريكا نفسها فيما يحتمل ، وامتزجت بطرائق العيش
الشديدة البدائية لدى المهاجرين شبه المغول (Mongoloids) المنحدرين إليها
من الشمال .

وحيثما ذهب الشعب الأسمر صاحب ثقافة العصر الحجري الشمسى (الهليوليثية) ،
أخذ معه كل أو جل طائفة معينة من الأفكار والعادات الغربية . ومنها فكريات يبلغ
من غرابتها أن تحتاج إلى تفسير من الخبراء بالنواحي العقلية . فهم كانوا يقيمون
الأهرام والربى الضخمة ، وينشئون دوائر عظيمة من الأحجار الكبيرة ، ولعل الغرض
منها كان تسهيل الرصد الفلكى الذى ينهض به الكهنة ؛ وعرفوا التحنيط ، واتخذوا
الموميات فحنطوا بعض موتاهم أو جميعهم ، واستعملوا الوشم والختان ، وكانت لديهم
العادة القديمة المسماة بالنفاس الزائف ، التي بمقتضاها يرسلون الوالد إلى الفراش ،

ويلزمونه بالراحة إذا ولد له طفل ، كما كانوا يتخذون من الصليب المعقوف الذائع الصيت رمزاً للحظ .

فإذا نحن أنشأنا خريطة للعالم ورسمنا عليها نقاطا تبين إلى أى مدى تركت هذه العادات المجتمعة آثارها ، وجب علينا أن ننشئ نطاقا يمتد بإزاء سواحل العالم بالمناطق المعتدلة وشبه المدارية . يمتد من ستون هنج وأسبانيا عبر العالم حتى يباغ المكسيك وبيرو . ولـكن شيئا من هذه النقط لن يمر بأفريقيا جنوب خط الاستواء ولا بالقسم الشمالى من أوروبا الوسطى ولا شمال آسيا ؛ فهناك كانت تعيش أجناس بشرية تتطور فى اتجاه آخر مستقل عن هذا تقريبا .

الفصل الرابع عشر

حضارات العصر الحجري الحديث البدائية

كانت جغرافية العالم حوالى عام ١٠.٠٠٠ ق . م . شديدة الشبه فى معالمها العامة بجغرافية العالم اليوم . ومن المحتمل أن الحاجز العظيم ، الذى كان يمتد عبر مضيق جبل طارق ، والذى ظل حتى آنذاك يصد مياه المحيط عن وادى البحر المتوسط ، كان قد تآكل وتصدع فى ذلك الوقت ، وأن البحر المتوسط أصبحت سواحله عند ذلك تطابق إلى حد كبير نفس سواحله الحالية . أما بحر قزوين فلعله كان حينذاك لا يزال أوسع كثيراً مما هو عليه الآن ، وربما كان متصلاً بالبحر الأسود شمال بلاد القوقاز . ومن حول هذا البحر الآسيوى الداخلى الكبير ، كانت الأراضى التى هى الآن سهوب وصحارى جرداء ، خصبة عند ذلك وقابلة للسكنى . فإن ذلك العالم كان على وجه الإجمال عالمًا أكثر مطراً وأشدّ خصباً . كما أن روسيا الأوربية كانت أرض مستنقعات وبحيرات أكثر مما هى عليه الآن ، وربما كان هناك حتى ذلك الحين برزخ من الأرض يمتد بين آسيا وأمريكا مكان مضيق بهرنج .

ولابد أن الأقسام الرئيسية للأجناس البشرية على ما نعهدنا اليوم ، وكانت قد فصلت آنئذ وأصبح من الممكن تمييزها . وانتشرت فى طول المناطق الدفيئة المعتدلة وعرضها وعلى سواحلها فى ذلك العالم الأكثر دفئاً والأكثر غابات فى تلك الأيام الحالية ، شعوب الثقافة الحجرية الشمسية (الهليولثية) السحر البشرية ، أسلاف الغالبية العظمى من السكان الحاليين لعالم البحر المتوسط ، أى أجداد البربر والمصريين وكثير من سكان جنوب وشرق آسيا .

وبديهى أن هذا الجنس الكبير كان ينطوى على عدد من الأنواع . وما الجنس الأيبيرى أى جنس البحر المتوسط أى « الأبيض القاتم » النازل على سواحل المحيط الأطلسى والبحر المتوسط ، وما الشعوب الحامية التى تنطوى على البربر والمصريين ، وما الدرافيديون (سكان الهند الأقدم لونا) ، وعدد من شعوب الهند الشرقية ،

وكثير من لأجناس البولينيزية (١) وشعب الماوورى ، إلا أقسام تتفاوت قيمتها وسط هذه الكتلة العظمى الرئيسية من البشرية . وأنواعها الغربية أشد بياضا من الشرقية . على أن جيلا من الناس يدعوه الكثيرون اليوم باسم الجنس النوردى ، ويقوم فى غابات أوروبا الوسطى والغربية ، وهو أكثر شقرة وله عيون زرقاء أخذ يتميز بنفسه ، ويتفرع عن الكتلة الرئيسية للشعوب السمراء .

وثمة تفريع آخر كان يحدث فى أفاليم آسيا الشمالية الشرقية المنبسطة الأكثر براحا انفصل به فريق من الناس عن هذه البشرية السمراء واتجه إلى تكوين طراز انفسه عيونهم أكثر انحرافا ، وعظام وجناته ناتئة ، وجلده مصفر وشعره أسود شديد الاستقامة وهو الشعوب المغولية . وبقيت فى جنوب إفريقيا وأستراليا وفى جزائر مدارية كثيرة بجنوب آسيا ، بقايا من الشعب شبه الزنجى (النجرىدى) القديم . وقد صارت الأجزاء الوسطى من إفريقيا بالفعل منطقة تخالط بين الأجناس البشرية . إذ يلوح أن جميع الأجناس الملونة التى تقطن بإفريقيا اليوم تسكاد دماؤها جميعا أن تكون خليطا من شعوب الشمال السمراء ومن طبقة أساسية شبه زنجية .

ويجب علينا أن نتذكر أن الأجناس البشرية تستطيع جميعا أن تتخالط وتتوالد بمنتهى الحرية ، وأنها تفرق وتمتزج ، ثم تعود إلى الاتحاد كما يفعل السحاب فى السماء . والأجناس البشرية لا تتفرع كالشجر فروعا لا تلتقى بعد ذلك أبدا . والواقع أن هذا الاختلاط المتكرر للأجناس الذى يحدث عند كل فرصة تسنح أمر ينبغى ألا يغيب عن بالنا ألبتة ، فإذا فعلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضلال والتحيز القاسية . والناس ينجحون إلى استعمال كلمة مثل « جنس » بصورة فضفاضة يتجلى فيها إطلاق القول على عواهنه ، ويبنون عليها أشد أنواع التعليمات مخالفة للعقل والمنطق . هم يتحدثون عن جنس « بريطانى » أو عن جنس « أوروبى » : ولكن الأمم الأوربية كلها تقريبا خلأط مضطربة من عناصر سمراء وأخرى بيضاء قائمة وبيضاء ومغولية .

وكانت حقبة التطور الإنسانى المسماة بالعصر الحجرى الحديث (النيوليثى) هى التى

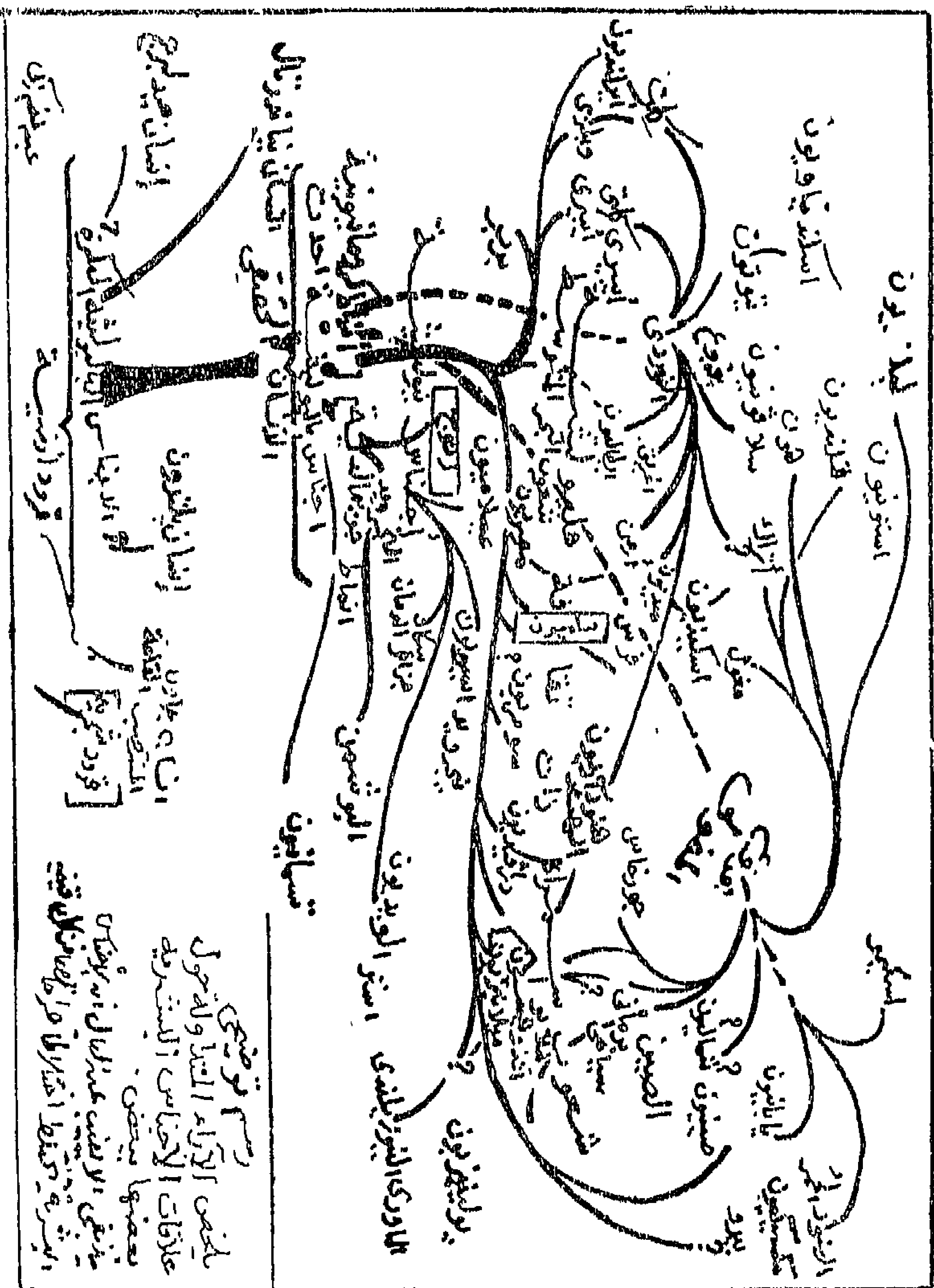
(١) بولينزيا : مجموعة جزائر بالمحيط الهادى الجنوبى حول خط طول ١٨٠ وأشهرها هاوى وفيجى وساموان .

اتخذت فيها شعوب من الجنس المغولي طريقها لأول مرة إلى أمريكا . وواضح أنهم بلغوها بطريق مضيق بهرج ثم انشعروا جنوبا فوجدوا في الشمال الكاريبو وهو غزال الرنة الأمريكي ، وفي الجنوب أسرابا كبيرة من الجاموس البري (البizon). فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية كان لا يزال يعبش بها حيوان الجلييتودون وهو نوع ضخم من الأرمادلو ، والميجاثريوم وهو طراز من حيوان الرسيف^(١) بشع قبيح الشكل يبلغ ارتفاعه ارتفاع الفيل والراجح أنهم أبادوا الحيوان الثاني وكان عاجزا قليلا الخيلة على ضخامته.

ولم يرتق الشطر الأعظم من هذه القبائل الأمريكية ألبتة عن مستوى حياة الصيد الترحلية للعصر الحجري الحديث، فهم لم يكتشفوا الحديد أبداً، وكان رأس مافي حوزتهم من المعادن الذهب والنحاس الموجودين في بلادهم . أما المكسيك ويوقطان وبيرو ، فكانت ظروفها توأم الزراعة المستقرة ، وهناك نشأت قرابة ١٠٠٠ ق . م . مدنات شائعة جداً ، تناظر مدنات العالم القديم وإن خالفها في الطراز . ذلك أن هذه المجتمعات أظهرت - شأن الحضارة البدائية الأقدم منها كثيراً في العالم القديم - تطوراً عظيماً في القرايين البشرية يتصل بعمليات موسم البذار والحصاد ؛ ولكن على حين أن هذه الأفكار الأساسية قد لطفت في النهاية بالعالم القديم كما سنرى وتعمدت ثم غطت عليها فكريات أخرى، فإنها تطورت بأمريكا وفصلت حتى بلغت درجة عالية جداً من الشدة . وبديهي أن هذه الأفطار الأمريكية المنحضرة كانت بالضرورة أفطاراً متدينة يحكمها الكهنة ؛ وأن قادتهم في الحرب وحكامهم كانوا يخضعون لقواعد صارمة من الشريعة والتطير

وصل هؤلاء الكهان بعلم الفلك إلى مستوى رفيع من الضبط والدقة . فمعرفةهم بالسنين وحسابها كانت خيراً من معرفة البابليين الذين سينحدثك عنهم من فورنا . وكان لهم في يوقطان نوع من الكتابة ، هو كتابة المايا Maya ، وهي من أعجب ما نقل التاريخ من الكتابات وأشدّها إحكاماً . وقد عرفنا بقدر ما استطعنا حله من رموزها أنها كانت تستعمل بوجه خاص في تسجيل التقاويم المضبوطة المعقدة التي كان الكهنة يبددون فيها ذكاءهم . وبلغ الفن في حضارة المايا ذروة مجده حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ ق . م .

(١) الرسيف Sloth : أحد أنواع كثيرة من الثدييات الشجرية الطويلة الشعر البطيئة الحركة يوجد في غابات أمريكا الجنوبية ويسمى أيضاً حيوان الكسلان .



(۱) جہانگیر

وفن النحت عند هذا الشعب يذهل المشاهد العصري بقوة تشكيله العظيمة وجماله المتزاحم كما يحيره بغرابته المضحكة وبسمة جنونية من التعقيد والتزام التقاليد التي تخرج بالضرورة عن المجال الفكري لذلك المشاهد .

وليس في العالم القديم شيء يماثله تماما . وأدنى الأشياء شبهاً إليه - وهو شبه بعيد - يوجد في الطراز القديم المهجور من النحات الهندية . فالريش ينتسج مع كل موضع منه ، والشعابين تنفتل فيه في الداخل والخارج وكثير من كتابات المايا تشبه صنفاء عينا من الرسوم المتقنة التي يصنعها المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية بأوروبا . أكثر مما تشبه أي شيء آخر في العالم القديم . فكأن عقل المايا قد تطور في اتجاه جديد يختلف عن الانحياز العقلي للعالم القديم ، وكأنما تناول أفكاره التواء مغاير وكأنه من ثم ليس ألبتة مترننا إذا هو قيس بمعايير العالم القديم .

والواقع أن هذا الربط بين الحضارات الأمريكية المنحرفة وبين القول بوجود الانحراف العقلي العام ، يدعمه تسلط فكرة سفك الدماء البشرية على عقولهم تسلطا غير عادي . والمدنية المكسيكية بوجه خاص كانت تريق الدماء أنهارا ؛ فكانت تقدم في كل عام آلاف الضحايا البشرية وكان شق صدور الضحايا وهم أحياء ، واستخراج القلب وهو لا يزال ينبض أهم ما يشغل عقول وحياة هذه الكهانات الغريبة . فمحور الحياة العامة والحفلات القومية إنما هو هذا العمل الرهيب في غرابته .

أما الحياة العادية لعامة الناس في هذه المجتمعات فهي قوية الشبه بالحياة العادية لأي مجتمع همجي آخر من الفلاحين . وقد برعوا في صناعة الفخار والنسيج والأصباغ ، ثم إن كتابة المايا لم تحفر فقط على الحجر بل كانت تكتب وترقش على الجلود وما أشبهها . وتضم دور المتاحف في أوروبا وأمريكا كثيرا من المخطوطات الماياوية المحيرة التي لم يحل من معمياتها في الوقت الحاضر عدا التواريخ إلا الشيء القليل . ونشأت في بيرو بدايات لكتابة مشابهة لهذه ، ولكن حلت محلها طريقة للتدوين بوساطة عقد تعقد في الخيوط وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة كهذه من الكتابة بالخيوط كوسيلة لمساعدة الذاكرة .

والعالم القديم قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة ، أي قبل ذلك العهد بثلاثة أو أربعة آلاف سنة ، كان ينطوي على حضارات بدائية تختلف عن هذه المدنيات الأمريكية . وهي

حضارات تدور حول أحد المعابد ، ولها قدر عظيم من التضحية بالدماء ، وكهانة شديدة العكوف على الفلك . ولكن الحضارات البدائية في العالم القديم كانت تتفاعل بعضها مع بعض ويتجه تطورها نحو ظروف عالمنا الراهن وأحواله على حين أن هذه الحضارات البدائية لم تتجاوز في أمربكا تلك المرحلة البدائية أبداً إذ كانت كل منها تعيش في عالمها الصغير الخاص بها وحدها . فالمكسيك ظلت فيما يبدو لا تعرف إلا القليل عن بيرو أو لا شيء ألبتة ، حتى هبط الأوريون أمريكا . حتى إن أهالي المكسيك لم يعرفوا البطاطس الذي كان المادة الغذائية الرئيسية في بيرو .

ظلت هذه الشعوب عصرا بعد عصر تعيش وتعجب من أمر أربابها وتقرب القرابين وتموت . وارتقى الفن الماياوى إلى مستويات عالية من الجمال الزخرفى . وكان الأفراد يعشقون والقبائل تتقاتل . ولم يبرح القحط يعقب الوفرة ، والوباء يتبع الصحة ، على حين واصل الكهان قرونا عديدة إتقان تقويمهم وإحكام طقوس التضحية ، دون أن يحرزوا فى الاتجاهات الأخرى إلا تقدما يسيرا .

الفصل الخامس عشر

سومر ومصر في العصور الأولى ونشأة الكتابة

لا مرأ أن العالم القديم مسرح أرحب أفقا وأكثر تنوعا من الجديد . فقد قامت به فعلا منذ حوالي ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ ق . م مجتمعات شبه ممدنة كادت تبلغ مستوى بيرو . وقد ظهرت تلك المجتمعات في أقاليم خصبة متنوعة من آسيا كما ظهرت في وادي النيل . وفي ذلك الوقت كان شمال إيران والتركستان الغربية وجنوب بلاد العرب أخصب مما هي عليه الآن ، إذ توجد بتلك الأقطار آثار تشهد بوجود مجتمعات في عصور باكرة جداً . ولكن مصر والمنطقة الدنيا من أرض الجزيرة هما القطران الوحيدان اللذان تظهر بهما لأول مرة المدن والمعابد والرى المنتظم ودلائل تنظيم اجتماعي يعلو عن مستوى المدينة القروية المعجبة البعثة ، وفي تلك الأيام كان الفرات والدجلة يفيضان في الخليج الفارسي بصبيين منفصلين ، وبني السومريون أوائل مدنها على الأرض المحصورة بينهما . وحوالي ذلك العهد تقريباً - وذلك لأن التاريخ لا يزال على شيء من الإبهام - كان تاريخ مصر العظيم قد أخذ يبرز .

ويظهر أن هؤلاء السومريين كانوا شعباً أسمر له أنوف ناتئة . وكانوا يستعملون نوعاً من الكتابة حلت رموزه ، فلفتهم الآن معروفة . وقد اكتشفوا البرونز وأقاموا معابد كبيرة كالأبراج من الطوب الجفف في الشمس . وطبن تلك البلاد ناعم جداً ، ومنه اتخذوا ألواحاً يكتبون عليها ، لذا بقيت كتاباتهم محفوظة إلى اليوم . وقد ملكوا الماشية والأغنام والماعز والحير ولكن الحصان كان يعوزهم . وكانوا يقاتلون راجلين في تشكيل متراص ، وهم يحملون الحراب وتروسا من الجلد . وصنعوا ثيابهم من الصوف كما كانوا يخلقون رءوسهم .

ويلوح أن كل مدينة سومرية كانت على وجه العموم دولة مستقلة لها رب خاص وكهنة خصوصيون . وقد يحدث أحياناً أن تسود إحدى المدن باقي زميلاتها ، وتفرض الجزية على السكان . وقد عثر في نيبور على كتابة سحيقة القدم جداً تذكر اسم

« إمبراطورية » مدينة إريتش السومرية ، وهى أول ماذكر التاريخ من إمبراطوريات ، وكان إلهها وملكها الكاهن يدعيان أن سلطانهما يمتد من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر .

وكانت الكتابة فى البداية مجرد طريقة مختزلة من التدوين التصويرى . كما أنها شئ سحيق إذ أن الإنسان كان قد أخذ يكتب قبل العصر الحجرى الحديث نفسه بأزمان سحيقة . والصور الأزيلية الصخرية التى أشرنا إليها آنفا تظهر بداية تلك العملة . فإن كثيراً منها تسجل أحداث صيد وحملات حربية ، والأشكال الإنسانية فى معظمها مرسومة رسوما واضحة . على أن المصور لم يكن يهتم فى بعضها بالرأس والأطراف ؛ بل يكتفى بتصوير الإنسان بخط رأسى وخط آخر أفقى أو انحنى .

وكان من أيسر الأمور الانتقال من هذا التدوين بالتصوير إلى كتابة تقليدية مركزة بالصور . ومالبثت خدشات الحروف فى كتابة سومر التى كانت تكتب على الطين بعود أن أصبحت من البعد نما تمثله من صور بحيث لم يعد فى الإمكان تمييزها ، أما مصر التى كان الناس يكتبون فيها على الجدران ، وعلى شقائق من نبات البردى (وهو أول ما عرف من أنواع الورق) . فقد بقيت فيها المشابهة بين الحروف وبين الصور التى نقلت عنها تلك الحروف . والكتابة السومرية تسمى بالكتابة المسماة أو الإسفينية أى المشابهة للمسار أو الإسفين ، وذلك لأن الأقلام الخشبية التى كانت تستعمل فى سومر ، كانت تحدث خدوشا على شكل الوتد أو الإسفين .

وتمت خطوة هامة صوب الكتابة عندما استعملت الصور للدلالة على الشئ الذى تمثله بل على شئ مشابه له ولا يزال هذا الأمر يحدث إلى اليوم فى ألفاظ أسماء الصور (Redus^(١)) ، وهى لعبة يحبها الأطفال . وإنا لنرسم معسكرا به خيام وجرس ، فينتهج الأطفال حين يخمنون أن هذا يرمز إلى الاسم الاسكوتلندى (Campbell^(٢) كامبل) . واللغة السومرية مكونة من مقاطع متراسة ، تكاد تماثل بعض لغات الهنود الحمر المعاصرة

(١) ألفاظ أسماء الصور : تمثيل ملغز لأحد الأسماء بصور فيها تورية تمثل أجزاء من الكلمة (المترجم) .

(٢) هنا يجمع الأطفال الإنجليز بين كلمتي مخيم Camp وجرس Bell فتنتج لفظة : Campbell (المترجم) .

وقد استجابت في يسر لهذه الطريقة المقطعية في كتابة الكلمات المعبرة عن أفكار لا يستطيع نقلها بطريق الصور مباشرة . ومرت بالكتابة المصرية تطورات موازية لهذه . وحدث فيما بعد عندما تهيأ لشعوب أجنبية تتكون لغاتها من مقاطع بدرجة أقل ، أن يتعلموا هذه الكتابة بالصور ويستخدموها . أنهم مضوا بتلك التعديلات والتبسيطات الأخرى التي تطورت في النهاية حتى أصبحت كتابة أبجدية ، وجميع ما ظهر في العالم بعد ذلك من أبجديات حقة ، مشتق من خليط من الكتابة السومرية السامرية والكتابة المصرية الهيروغليفية (كتابة الكهان) . وحدث بعد ذلك في الصين أن تطورت كتابة بالصور متواضع عليها ، ولكن لم يحدث قط ببلاد الصين أنها وصلت إلى المرحلة الأبجدية

وكان اختراع الكتابة ذا أهمية كبيرة جداً في تطور الجماعات الإنسانية . فكان من أثره أن سجلت الاتفاقات والقوانين والوصايا . وهي التي هيأت السبيل لنمو دول أكبر من دول المدن القديمة . وجعلت في الإمكان قيام وعى تاريخي متواصل . وبها أصبح في إمكان أمر السكاهن أو الملك أو خاتمهما أن يذهبا إلى أماكن بعيدة عن بصره وصوته وأن يبقيا بعد موته . ولعل مما يشوقك أن تلاحظ أن الأختام كانت تستعمل بكثرة في بلاد سومر القديمة . وأن الملك أو النبيل أو التاجر يتخذ خاتماً كثيراً ما يكون محفورا حفرا فنيا جميلا ، وإنه ليطبعه على أية وثيقة طينية يريد أن يصدق عليها . فكم اقتربت الحضارة من الطباعة منذ ستة آلاف سنة ! ثم يجفف الطين بعد ذلك ويغدو مستديماً . ذلك أن القارئ ينبغي له أن يتذكر أن أرض الجزيرة إبان المآل عديد له من السنين ، كانت الرسائل فيها والسجلات والحسابات ، تكتب جميعاً على ألواح غير قابلة للبلى نسبياً . وإلى هذه الحقيقة ندين بثروة عظيمة من المعارف المسترجعة من بطون الثرى .

ومنذ زمان مسحيق جدا كان البرونز والنحاس والذهب والفضة معادن معروفة في مصر وسومر جميعاً ، فضلا عن الحديد المستخرج من النيازك بوصفه مادة نادرة ثمينة . ولسنا نشك ألبتة في مدة تشابه الحياة اليومية بمصر وسومر أول أقطار العالم القديم ظهوراً على مسرح التاريخ . عدا ما تفردتا به من وجود الحمير والماشية في الشوارع ، فلا بد أن الحياة بهما لم تكن تختلف كثيراً عن الحياة بمدن المايا بأمریکا بعد ذلك بثلاثة أو أربعة آلاف سنة . وكان معظم الناس يقضون أوقاتهم زمن السلم في الرى والزراعة لا ينقطعون عنهما إلا أيام الحفلات الدينية . لم تكن لديهم نقود ولا كانت بهم حاجة إليها

إذ أنهم كانوا يديرون تجاراتهم الصغيرة العارضة بالمقايضة ، واستخدم الأمراء والحكام الذين يملكون دون سواهم الممتلكات الكثيرة قضباناً من الذهب والفضة والأحجار الثمينة في أية صفقة تجارية طارئة يتمونها . وكان المعبد متسلطاً على حياة الناس ؛ والمعبد في سومر بناء كبير شامخ يصعد منه إلى سطح يرصدون منه النجوم ، وهو في مصر بناء ضخم ليس به إلا طابق أرضى فقط ، وفي سومر كان الكاهن الحاكم أعظم الكائنات وأقوىها . فأما مصر فكان فيها فرد يرفع فوق الكهنة ؛ وهو التجسيد الحى الممثل لرب البلاد الأعلى ، وهو فرعون الملك الرب .

وفي تلك الأيام لم تكن تحدث في العالم إلا تغيرات قليلة ، فالناس يقضون أيامهم كداحين في ضياء الشمس ملتزمين لتقاليدهم القديمة وقل أن هبط البلاد أجنبي أو غريب ، فمن اغترب منهم لم يذق للراحة طعماً ، وكان الكاهن يدبر شؤون الحياة وفق قواعد صحيحة القدم ، ويرصد النجوم ارتقاباً لوقت البذار ويدرس النذر التى تتمخض عنها القرايين ويثول ما تجيء به الأحلام من تحذيرات وكان الناس يعملون ويعشقون ويموتون غير محرومين من أفوايق السعادة ، ناسين ما كان لجنسهم من ماض متوحش وغير عابئين بما يمكنه لهم المستقبل . وكان الحاكم في بعض الأحيان رحباً مترقفاً .

شأن بيدى الثانى الذى ظل يحكم مصر تسعين عاماً ، وكان طموحاً في أحيان أخرى يأخذ أبناء الشعب جنوداً ويرسلهم على دول المدن المجاورة ليقاتلوا وينهبوا ، أو كان يسومهم العناء والكدح في إقامة المباني العظيمة . كذلك كان خوفه وخفره ومنقرع الدين بنوا تلك النواويس الجبارة : أهرام الجيزة . وأعظم هذه الأهرام يبلغ ارتفاعه ٥٠٠ قدماً ووزن ما به من حجر ٠٠٠ ٨٨٣ رطل . وقد جلب هذا الحجر كله بطريق النيل في الزوارق ، ودفعته إلى موضعه قوة العضلات الإنسانية بوجه خاص . ولا بد أن تشييده قد أنهك قوة مصر أكثر من أية حرب عظمى .

الفصل التاسع عشر

الشعوب المترحلة البدائية

لم يكن استقرار الناس إلى حياة الزراعة وتكوين دول المدن إبان القرون المحصورة بين ٦٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ق . م ، قاصراً على أرض الجزيرة ووادي النيل وحدها ، فحينما أتاحت للناس إمكانيات للرى ومورد للطعام ثابت على مدار السنة كانوا يتبدلون حياة الاستقرار بصعوبات الصيد والتجوال وعدم ثباتهما . وشرع شعب يسمى بالآشوريين يؤسس المدن في أعالي دجلة ؛ وكانت هناك في وديان آسيا الصغرى وعلى شواطئ البحر المتوسط وجزائره ، مجتمعات صغيرة أخذت تكبر وتسير في طريقها إلى المدنية . ومن الجائز أن تطورات مماثلة لهذه في الحياة الإنسانية كانت تحدث أيضاً بالمناطق الموائمة لها من بلاد الهند والصين . وكان في أجزاء عديدة من أوربا كثرت بها البحيرات التي يعمرها السمك بوفرة ، مجتمعات صغيرة من الناس استقرت منذ أمد بعيد في مساكن بنيت على أعمدة فوق الماء ، كما أخذت تقلل من الاهتمام بالزراعة متبدلة بها القنص وصيد السمك . ولسكن مثل هذا النوع من النوطن لم يكن ممكناً في مناطق العالم القديم التي تكبر عن هذه كثيراً منذ كانت البشرية (وأدوانها وعلمها على ما نعلم من نقص وعجز) لا تستطيع أن ترى جذورها وتثبت أقدامها ، إذ كانت الأرض أخشن وأوعر من أن تسمح بذلك ، أو كانت الغابات كثيفة ، أو كانت التربة قاحلة جدياء أو الفصول متقلبة عديمة الاستقرار .

وكان الناس يحتاجون إن شاءوا الاستقرار في ظلال الحضارات البدائية إلى فيض مستديم من الماء ودفء وشمس ساطعة مشرقة . فإذا لم تنهأ هذه المستلزمات للإنسان ، عاش جوالاً متنقلاً وقضى عمره صياداً يتبع صيده ، وراعياً يتعقب الكلاً الموسمي ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستقر . وربما كان الانتقال من حياة الصيد إلى حياة الرعى تدريجياً جداً ، ولعل الناس انتقلوا من تعقب قطعان الماشية البرية أو الخيول البرية (في آسيا) ، إلى تكوين فكرة عن تملكها ، كما تعلموا أن يحجزوها في بعض الوديان ، وأن يقاتلوا دونها الذئاب والكلاب الضارية والوحوش الكاسرة الأخرى .

ومن ثم فبينما كانت حضارات الزراعة البدائية تنمو بوجه خاص في وديان الأنهار العظمى ، كانت تنمو أيضاً طريقة عيش مغايرة لهذه ، هي حياة الترحل ، وهي حياة تقضى في حركة مستمرة ذهاباً ورجوعاً من مرعى الشتاء إلى مرعى الصيف . وكانت الشعوب المرحلة أصلب على وجه الإجمال عوداً وأشجع فؤاداً من الزراع ؛ وهم أقل إنتاجاً للأولاد وأقل عدداً ، ولم تكن لهم معابد مستديمة ولا كهانات شديدة التنظيم ؛ وهم أقل أدوات وأجهزة ؛ ولكن لا ينبغي للقارىء أن يستنتج من ذلك أن طريقة عيشهم كانت بالضرورة أدنى تطوراً . فإن هذه الحياة الحرة كانت من أوجه عديدة حياة أوفى وأكمل من حياة عازق الأرض . فكان الفرد منهم أكثر اعتماداً على نفسه ؛ وأكثر استقلالاً . وكان القائد لديهم أكثر أهمية منه في المجتمعات الأخرى ؛ والطبيب الساحر أقل أهمية فيما يحتمل .

ولا شك في أن نظرة المرحل إلى الحياة أرحب مجالاً ، تتحركه فوق متسعات مترامية من الأرض . وهو لا يفتأ يمس حدود هذه الأرض المستعمرة وتلك ، وقد ألف رؤية الوجوه الغريبة . ولم يكن له مفر من أن يدبر الخطط في سبيل المرعى وأن يتفاهم في شأنه مع القبائل المنافسة ؛ ومعرفة بالمعادن تفضل معرفة الشعوب التي تقطن أرض الحراث ، وذلك لأنه كان يسير فوق الممرات الجبلية ويختزق المناطق الصخرية . ولعل علمه بالصناعات المعدنية كان أكبر من علم الزراع . إذ يحتمل أن صهر البرونز بل والحديد أيضاً على أرجح التقديرات - كان من المكتشفات التي وصل إليها المرحل . وآية ذلك أن طائفة من أقدم الأدوات المصنوعة من الحديد المستخرج من خامه قد وجدت في أوروبا الغربية على بعد عظيم من المدينيات الأولى .

كان للمستقرين من الناحية الأخرى منسوجاتهم ونفارهم كما أنهم كانوا يصنعون كثيراً من الأشياء المرغوبة . وبينما كان مذهباً الحياة هذان : الزراعة والترحل يتمايزان أحدهما عن الآخر ، لم يكن بد من أن يحصل بينهما قدر معين من النهب والاتجار . ولا شك في أنه كان من الأمور المألوفة في بلاد سومر بوجه خاص بما يكتنف جانبها من صحراوات وأراض موسمية المناخ ، أن يخيم المرحلون بالقرب من الحقول المزروعة وأن يتجروا ويسرقوا وربما اتخذوا صناعة المعادن حرفة لهم ، كما يفعل الأشجار (النور) إلى يومنا هذا (ولسكنهم لم يكونوا ليسرقوا الدجاج كالأشجار ، لأن الدجاجة المنزلية - وهي في الأصل دجاجة أحراش هندية - لم يستأنسها الإنسان إلا حوالي ١٠٠٠ ق . م) ، وإنهم (٦ - تاريخ العالم)

ليجتلبون للزراع الأحجار الكريمة والمصنوعات المعدنية والجلدية ، فإن كانوا صيادين جلبوا معهم الفراء . وإنهم ليحصلون مقابلها على الفخار والخرز والزجاج والשיاب ، وما إليها من أشياء مصنوعة .

وكانت هناك ثلاث مناطق رئيسية وثلاثة أصناف رئيسية من التجوال والاستقرار غير التام في تلك الأيام السحيقة التي قامت فيها الحضارات الأولى بسومر ومصر القديمة . فهناك في الغابات النائية بأوروبا ، كانت تقيم الشعوب النوردية الشقراء المسكونة من قناصين ورعاة ، وهم جنس خسيس القدر ، ولم تزل الحضارات البدائية إلا النزر اليسير جدا من ذلك الجنس قبل ١٥١١ ق . م . وكانت تقيم في السهوب الفصية من آسيا الشرقية ، قبائل مغولية متنوعة ، هي الشعوب الهونية . وهي تستأنس الحصان ، وتكون في نفسها عادة الحركة الموسمية الفسيحة المجال بين مواضع ضرب خيامها صيفاً وشتاء . ومن المحتمل أن الشعوب النوردية والهونية كانت لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مستنقعات روسيا ، كما يفصلها بحر قزوين الذي كان في ذلك الزمان أعظم رقعة . ذلك أن قدرا عظيما من روسيا كان حينذاك مكونا من مستنقعات وبحيرات .

أما صحراوات سوريا وبلاد العرب ، التي كان جذبها وجفافها آخذا عند ذلك في الزيادة ، فإن قبائل من شعب أبيض قائم أو أسمر ، هي القبائل السامية ، كانت تدفع فيها قطعانا من الغنم والمعز والحمر من مرعى إلى مرعى . وهؤلاء الرعاة الساميون (ومعهم قوم لهم سمة نيجريدية قوية وموطنهم جنوب إيران، هم العيلاميون) — أول الرحل الذين اتصلا وثيقا بالحضارات الأولى جاءوا متجربين ومغيرين ، حتى إذا ظهر فيهم في النهاية قادة أجرا جنانا ، أصبحوا غزاة فاتحين .

وفي قريب من ٢٧٥٠ ق . م . ، كان قائد سامي عظيم هو « سرجون » قد فتح بلاد سومر بأكملها ، وأصبح سيدا للعالم كله من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط . كان همجيا أميا وتعلم شعبه الأكاديون الكتابة السومرية ، واتخذوا السومرية لغة للموظفين والعلماء . وبعد قرنين من الزمان انحطت الإمبراطورية التي أسسها ، حتى إذا وقعت البلاد في قبضة العيلاميين ، جاء شعب سامي جديد ، هو العبوريون ، فوطد بالتدريج دعائم حكمه في سومر . فاتخذوا من بابل عاصمة لهم — وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعلى النهر — وأنشأوا إمبراطورية تسمى الإمبراطورية البابلية الأولى . وقد رفع من شأنها وشد من تماسكها ملك عظيم اسمه حمورابي (حوالي ٢١٠٠ ق . م .) وهو الذي سن أول مجموعة من القوانين يعرفها التاريخ اليوم .

أما وادى النيل الضيق فإن موقعه جعله أقل من أرض الجزيرة تعرضاً لغزوات
الرحل ، ولكن حدث حوالى عهد حمورابى أن نجح الساميون فى غزو مصر وأقاموا
أسرة جديدة من الفراعنة ، هم ملوك الهكسوس أو الرعاة ، الذين دام ملكهم قروناً
عديدة . ولم يندمج هؤلاء الغزاة الساميون قط بالمصريين ، وذلك لأن الشعب كان
ينظر إليهم على الدوام نظرة العداء بوصف كونهم أجانب وبرايرة . وأخيراً طردتهم
من البلاد ثورة شعبية حوالى ١٦٠٠ ق . م .

على أن الساميين كانوا قد استقروا فى بلاد سومر إلى الأبد ، وتمثل الجنس
بعضهما بعضاً ، وأصبحت الإمبراطورية البابلية سامية فى لغاتها وسماتها .

الفصل السابع عشر

أول الشعوب البحرية

لابد أن أقدم القوارب والسفن. أخذت تستعمل منذ خمسة وعشرين ألفاً أو ثلاثين ألفاً من الأعوام . ولعل الإنسان كان يتحرك على السطوح المائية بمساعدة كتلة من الخشب أو قرية منفوخة ، في زمن لا يقل عن بدايات العصر الحجري الحديث . وكان زورق من السلال مغطى بالجلد مقلّط الفتحات يستخدم في مصر وسومر منذ مستهل معرفتنا بهذين القطرين ، ولا تزال تلك الزوارق مستعملة هناك ، كما أنها لا تزال تستخدم حتى الساعة في إيرلندة وويلز وألاسكا ، حيث لا تبرح زوارق من جلد الفقمة تستخدم لعبور مضيق بهرنج ، فلما تحسنت آلات الإنسان وأدواته ظهرت الكتلة الخشبية المجوفة ، وجاء بناء الزوارق ثم السفن كل بدوره في تعاقب طبيعي .

وربما كانت أسطورة فلك نوح استبقاء لذكرى مغامرة في بناء السفن ، مثلما أن قصة الطوفان الذائعة الصيت بين شعوب العالم ، ربما كانت ذكرى قديمة متوارثة عن غمر حوض البحر المتوسط بالمياه .

وكانت السفن تبحر البحر الأحمر قبل بناء الأهرام بزمن مديد ، كما كانت ثمة سفن على البحر المتوسط والخليج الفارسي منذ عام ٧٠٠٠ ق . م . والأغلب أن هذه السفن كانت ملسكا للصيادين ، ولكن بعضها كانت فعلاً سفناً للتجارة والقرصنة . ذلك أنا نفترض بغاية الاطمئنان عرفانا منا بالطبيعة البشرية ، أن البحارة الأول كانوا ينهبون حيث يستطيعون ؛ ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك .

وكانت البحار التي تغامر فيها هذه السفن الأولى بحارا داخلية تهب عليها الرياح في اندفاعات فجائية ، أو تنقطع في الغالب انقطاعا تاما أياما برمتها . لذلك لم تتقدم الملاحة ولم تتجاوز مرحلة الاستعمال الإضافي ، ولم تتطور سفينة الملاحة الحسنة العدة الماخرة المحيط إلا في السنوات الأربعمئة الأخيرة ، وسفن العالم القديم إنما هي بالضرورة

سفن تجديف تلازم الشاطئ ، وتلوذ بالرفأ عند أول بارقة للجو العاصف . حتى إذا تطورت الزوارق فأصبحت مراكب كبيرة ، أفضى ذلك إلى نشوء الحاجة إلى أسرى الحرب ليكونوا أرقاء للسفن .

سبق أن أشرنا إلى ظهور الساميين بمنطقة سوريا وبلاد العرب على صورة متجولين ورحل ، وذكرنا كيف غزوا سومر وأقاموا الإمبراطورية الأكادية أولاً ثم البابلية الأولى . ونزعت هذه الشعوب نفسها في الغرب إلى البحر . لذلك أقاموا مجموعة من المرافئ على امتداد الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، كانت أهمها صور وصيدا ؛ فلم يأت عهد حمورابي في بابل حتى كانوا قد انتشروا في طول حوض البحر المتوسط وأخذوا يتجرون ويتجولون ويستعمرون .

هؤلاء الساميون البحريون يسمون بالفينيقيين . استقروا إلى حد كبير بأسبانيا بعد أن دفعوا إلى الداخل السكان القدامى من شعب الباسك الإيبيري ، وأرسلوا بطريق جبل طارق حملات لازمت الساحل ؛ كما أنهم أقاموا المستعمرات على شاطئ إفريقيا الشمالى . وسنزيدك -- فيما بعد -- بيانا عن قرطاجنة إحدى تلك المدن الفينيقية .

على أن الفيلقيين لم يكونوا أول شعب يجرى السفن على صفحة البحر المتوسط . إذ كانت هناك آنفا سلسلة من المدن والبلاد تفتشر على جزائر ذلك البحر وشواطئه وتنسب إلى جنس أو أجناس تلوح كأنما ترتبط برابطة الرحم واللغة بالباسك غربا والبربر والمصريين جنوبا ، وهى الشعوب الإيجية .

وينبغى أن لا نخلط بين هذه الشعوب وبين الإغريق ، الذين يدخلون مسرحنا بعد ذلك بكثير ؛ فإنهم أقدم من الإغريق عهداً ، وإن كانت لهم مدن في بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، منها مثلاً : ميسيناى ، وطروادة ؛ كما كان لهم في كنوسوس بجزيرة كريت مستقر عريض الرغد عظيم الثراء .

ولم تظهر لنا جهود علماء الآثار القائمين بالحفائر مدى انتشار الشعوب الإيجية وتكشف لنا عن حضارتها إلا فى الخمسين سنة الأخيرة . ذلك أن آثار كنوسوس ارتدت ارتداداً بالغاً ، ومن بين الطالع أنه لم تبين فى موضعها مدينة كانت من السكبر

بحيث تدمر أطلالها ، ومن ثم فهي المصدر الرئيسى لمعلوماتنا عن تلك الحضارة التى كاد النسيان يريم عليها .

وتاريخ كنوسوس يعادل فى قدمه تاريخ مصر ؛ وكانت التجارة بين القطرين ناشطة عبر البحر حوالى ٤٠٠٠ ق . م وبلغت الحضارة الكريتية أوج العظمة حوالى ٢٥٠٠ ق . م أى بين عهد سرجون الأول وحمورابى .

لم تكن كنوسوس مدينة قدر ما كانت قصرآ عظيما للعاهل الكرىقى وشعبه ، بل إنها لم تكن محصنة ، فلم تحصن إلا فيما بعد عندما قويت شوكة الفينيقيين ، وعندما انحدر إليها فى البحر من الشمال صنف جديد من القراصنة أشد فظاعة ، هو الإغريق .

والعاهل عندهم يلقب بالمينوس Minos ، شأن العاهل المصرى الملقب بالفرعون ؛ وكان يدير شئون دولته من قصر مزود بالماء الجارى ، وبه الحمامات وما أشبهها من وسائل الترف التى لا نعرف لها نظيراً فى أى طلل آخر من الأطلال القديمة . وهناك كان يقيم حفلات وأعياداً عظيمة . وكان لديهم مصارعة ثيران تشابه مشابهة فريدة مصارعة الثيران التى لا تزال باقية فى أسبانيا ؛ والمشاركة قائمة فى الحالين فى كل شئ حتى فى ثياب مصارعى الثيران ؛ وئمة حفلات لألعاب الجباز . أما ثياب النساء عندهم فهي عصرية الروح بشكل يلفت النظر ؛ فإنهن كن يرتدين المشداب والأثواب ذات الأهداب المدلاة ، والكثير مما أنتجه هؤلاء الكريتيون من الفخار والمنسوجات وفن النحت والتصوير والجواهر والعاج والمعادن والتطعيم بالصدف وغيره جميل جمالا مذهشاً . وللقوم طريقة للسكن به لا تزال تنتظر من يحل رموزها .

وقد دامت هذه الحياة السعيدة المشرقة المهدنة ما يقارب العشرين قرناً . فلو استعرضت كنوسوس وبابل حوالى ٢٠٠٠ ق . م لوجدتهما تعجبان بأناس مثقفين يتمتعون بوسائل الراحة ويميشون فى الراجح حياة دعة ومسرة . وهم يقيمون الحفلات والأعياد الدينية ، ولديهم عبيد المنازل الذين يقومون على خدمتهم والعبيد الصناع الذين يدرون عليهم الربح فسكن كانت الحياة فى كنوسوس تبدو لعين هؤلاء الناس آمنة مطمئنة ، ومن فوقها الشمس بضيائها الباهر ومن حولها لجج البحر الزرقاء المترامية ؛ ومن

البديهي أن مصر كانت تبدو في تلك الأيام قطراً متدهوراً ، وهي تحت حكم ملوكها
الرعاة نطف الهمج ، وإذا كنا ممن يهتمون بالسياسة ، لم نفتنا أن نلاحظ كم كانت
الشعوب السامية تنتشر في كل مكان : فهي تحكم مصر وتحكم بابل القضية ، وتبنى
نينوى بأعلى الدجلة ، وتبحر غرباً حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وينشئ
مستعمراتها على تلك السواحل النائية .

ولا شك في أنه كان في كنوسوس بعض العقول المفكرة المحبة للاستطلاع ، إذ
تحدثت أساطير الإغريق فيما بعد عن صانع كريت حاذق اسمه دايدالوس ، حاول أن
ينشئ ضرباً ما من آلة للطيران اعلمها طائرة شرعية ، ولكنها سقطت وهوت
إلى البحر .

ومن الشائق أن ندرس بعض أوجه الشبه والخلاف بين الحياة في كنوسوس
والحياة عندنا . فإن الحديد كان يعد عند أى سرى من الكريتيين يعيش في ٢٥٠٠
ق . م معدناً نادراً يسقط من السماء كما كان شيئاً طريفاً أكثر منه نافعاً — إذ لم
يكن الناس يعرفون حتى آنذاك إلا حديد النيازك ، ولم يكن أحد قد استخلص الحديد
بعد من خامه المعروف . وعندى أنه لا وجه للموازنة بين هذه الحال وبين حالتنا
العصرية التي يدخل الحديد في كل مرفق من مرافقها . ومن جهة أخرى يكون الحصان
حيواناً أسطورياً تماماً لدى سراة كريت ، فهو عندهم صنف من الحمار الراقى يعيش في
الأراضي الشمالية الباردة الواقعة وراء البحر الأسود بمسافات شاسعة . وبديهي أن أهم
موطن للحضارة لدى السرى الكريتي كان المنطقة الإيجية وآسيا الصغرى ، حيث كان
الليديون والكاريون والطرواديون يعيشون عيشاً كعيشه وربما يتكلمون لغات كالغته .
وكان ثمة فينيقيون وإيجيون يستقرون في أسبانيا وشمال إفريقيا ، ولكن تلك
الأقطار كانت تترأى لعين خياله بلاداً سحيقة البعد . وكانت إيطاليا لاتزال أرضاً
موحشة تعطيها الغابات الكثيفة ، إذ لم يكن الإترسك (التوسكان) ذوو البشرة
السمراء قد انتقلوا إليها بعد من آسيا الصغرى . ولعله حدث ذات يوم أن هبط ذلك
السرى الكريتي إلى الميناء ورأى أسيراً استرعى انتباهه بشدة شقرته وزرقة عينيه .
ولعل هذا السرى حاول أن يتحدث إليه فلقى الجواب رطانة غير مفهومة . جاء هذا
الخلق من مكان ما وراء البحر الأسود ، وبدا كأنما هو متوحش منحنط الثقافة . ولكنه
كان في الواقع أحد أفراد القبائل الآرية ، وسنحدثك من فورنا بالشئ الكثير عن

جنسه وثقافته ، كما أن الرطانة العجيبة التي تحدث بها هي التي قدر لها أن تتمايز فيما بعد إلى السنسكريتية والفارسية والإغريقية واللاتينية والألمانية والإنجليزية ومعظم لغات العالم الرئيسية .

تلك هي كنوسوس في أوج مجدها : - ذكية مغامرة مشرقة سعيدة . ولكن كارثة نزلت بها قرابة ١٤٠ ق . م ، وأعلمها ذهبت برغدها على حين بغتة ، فدمر قصر مينوس ولم تعمر أطلاله يد ولا أقام به أحد منذ تلك الساعة . ولسنا ندرى كيف حدثت هذه الكارثة . ولكن المحترفين من علماء الآثار يشهدون به أثر النهب والبعثرة وعلامات الحريق . ولكن وجدت كذلك آثار لزلزال عنيف مدمر . وإذن فربما كانت الطبيعة وحدها هي التي دمرت كنوسوس ، وربما أتم الإغريق ما بدأه الزلزال .

الفصل الثامن عشر

مصر وبابل وآشور

لم يخضع المصريون ألبتة برضاء تام لحكم ملوكهم الرعاة الساميين ، ثم قامت حركة وطنية قوية حوالى ١٦٠٠ ق . م ، انتهت بطرد الغاصب الأجنبي من البلاد ، وأعقب ذلك دور انتعاش جديد لمصر ، وهى فترة يطلق عليها علماء الدراسات المصرية القديمة اسم الإمبراطورية الحديثة . فإن مصر التى لم تسكن قبل غزوة الهكسوس قوية التماسك أصبحت آنذاك قطراً متحداً تماماً ؛ وكان لفترة خضوعها لنير الأجنبي وثورتها عليه الفضل فى إذكاء الروح العسكرية بها . فأصبح الفراعنة غزاة فاتحين ، خاصة وقد حصلوا قبل ذلك على حصان القتال وعجلة القتال ، التى جلبها الهكسوس معهم . وسرعان ما بسطت مصر سلطانها فى آسيا حتى نهر الفرات فى عهد تحتمس الثانى وأمنحوتب الثالث (أمينوفيس) .

ونحن الآن مقبلون على مرحلة جديدة من حروب دامت ألف سنة بين حضارتى النيل وأرض الجزيرة اللتين كانتا يوماً منفصلتين إحداهما عن الأخرى تماماً . وكانت لمصر الغلبة أول الأمر . وجاءت الأسر الكبرى وهى الأسر الثامنة عشرة التى من ملوكها تحتمس الثانى وأمنحوتب الثالث والرابع وملكة عظيمة هى حتاتسو ، والأسرة التاسعة عشرة ومنها رمسيس الثانى (ويحسبه بعضهم فرعون موسى) الذى حكم سبعة وستين عاماً ، رفعت هاتان الأسرتان شأن مصر إلى مدارج عالية من العزة والرخاء ، وفيما بين ذلك أملت بمصر أدوار التدهور ، إذ غزاها السورليون ثم الإثيوبيون من الجنوب فيما بعد .

وسيطرت بابل على أرض الجزيرة دهرًا ، ثم ارتفع شأؤ الحيثيين بها فسوري دمشق إبان دور عزة قصير الأمد ؛ وجاء أوان غزاه السورليون مصر ، وترجع نجم الآشوريين فى نينوى بين الصعود والأفول ؛ فتارة تكون المدينة مغزوة مهيضة ؛ وتارة يحكم الآشوريون بابل ويغيرون على مصر . . والبراح الذى بين يدينا أضيق من

أن يسمح لنا بأن نحدثك عن غدوات وروحيات جيوش مصر والدول السامية المتنوعة بآسيا الصغرى وسوريا وأرض الجزيرة . وبحسبك أنها كانت آنذاك جيوشاً مزودة بأرتال ضخمة من العجلات الحربية ، ذلك أن الحصان (الذى لم يكن يستخدم إلا فى الحرب وإظهار العظمة) كان قد انتشر فى ذلك الوقت من آسيا الوسطى إلى بلاد المدينت القديمة .

ويظهر على المسرح فى النور الخافت المنبعث من ذلك الزمن السحيق غزاة كبار يظهرون ثم يذهبون ، منهم تشرانا ملك ميتانى ، الذى استولى على نينوى ، ومنهم وتجلات بلسر الأول الذى فتح بابل . وأخيراً أصبح الآشوريون أعظم قوة حربية فى ذلك الأوان . فعزاً تجلات بلسر الثالث بابل فى ٧٤٥ ق . م ، وأسس ما يسميه المؤرخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة . وكان الحديد قد وفد الآن هو أيضاً من الشمال إلى بلاد الحضارة ؛ إذ حصل عليه أولاً الحيثيون أسلاف الأرمن وعندهم أخذ الآشوريون ، كما أن مغتصباً للعرش الآشورى ، اسمه سرجون الثانى مسلحاً به جيوشه ، فكان مملكة آشور أول قطر أخذ بمبدأ الحديد والدم . وزحف سنحريب بن سرجون بجيشه إلى حدود مصر ، ولكنه ارتد عنها لا لهزيمة لحقته من قوة عسكرية بل بسبب وباء الطاعون . وتم لحفيد سنحريب الملك آشور بانديال (الذى يعرف أيضاً فى التاريخ باسمه الإغريقى ساردانابالوس) فتح مصر فعلاً فى ٧٦٠ ق . م . لكن مصر كانت فى ذلك الحين قطراً محتلاً تحكمه أسرة إثيوبية فكل الذى فعله ساردانابالوس هو أن أحل فاتحاً محل آخر .

فلو أتيت لنا مجموعة من الخرائط السياسية لتلك الفترة الطويلة من التاريخ ، الممتدة على تلك القرون العشرة ، لوجدنا مصر تمتد وتتقلص كما تفعل الأمم تحت الميكروسكوب ، ولرأينا هذه الدول السامية المتنوعة من بابليين وآشوريين وحيثيين وسوريين تجيء وتغدو ، وتبتلع إحداها الأخرى ثم تعود فتلفظ إحداها الأخرى مرة ثانية . وإنا لنجد فى غرب آسيا الصغرى دولاً إيجية صغيرة مثل ليديا ، التى كانت عاصمتها سارديس ومثل كارييا . ولكن الذى حدث بعد قرابة ١٢٠٠ ق . م وربما قبلها ، هو أن مجموعة جديدة من الأسماء ظهرت على خريطة العالم العتيق ، هابطة من الشمال الشرقى والشمال الغربى . وما هذه إلا أسماء قبائل همجية معينة ، تتسلح بأسلحة الحديد وتستخدم العجلات التى تجرها الخيل ، وتغير على الحضارات الإيجية والسامية فى مناطق

تخومها الشمالية وتنزل بها النكبات . وكانوا جميعاً يتكلمون ضروباً مختلفة من لسان كان في الأصل لغة واحدة ، هي الآرية .

أخذ الميديون والفرس يهبطون من الشمال الشرقي للبحر الأسود وبحر قزوين . وتخلط سجلات تلك العصور بين هؤلاء وبين الإسكيزيين (الأشقوذيين) والصرمانيين . ومن الشمال الشرقي أو الشمال الغربي انحدر الأرمنيون ، وجاء من شمال غربي ذلك البحر الفاصل وبطريق شبه جزيرة البلقان الكمريون والفريجيون والقبائل الهلينية التي نسميها الآن باسم الإغريق .

كان هؤلاء الآريون مغيرين وسارقين ونهابين للمدن ، سواء في ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب . كانوا جميعاً شعوباً متشابهة ترتبط بوشائج الرحم ، كما كانوا رعاة أشداء نزعوا إلى السلب والنهب . على أنهم لم يكونوا في الشرق إلا سكاناً نازلين على التخوم وجيرانا مغيرين ، ولكنهم استولوا في الغرب على المدن وطردها منها السكان الإيجيين الممدنين . وبلغ الضيق بالشعوب الإيجية أن أخذوا يبحثون عن أوطان جديدة لهم في مناطق تخرج عن منال الآريين . فأخذ بعضهم يحاول السكنى في دلتا النيل لولا أن صدمهم المصريون ؛ وبعضهم وهم الإتروسك يلوح أنهم أبحروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة في براري وسط إيطاليا الكثيف الغابات ؛ وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية ، وأصبحوا فيما بعد الشعب المعروف في التاريخ باسم الفلسطينيين .

سنريدك في فصل تال بيانا عن هؤلاء الآريين الذين دخلوا مشهد الحضارات القديمة بتلك الحشونة البالغة . وسنقتصر هنا على مجرد الإشارة إلى مجمل تلك الحركات والهجرات التي حدثت في منطقة الحضارات القديمة ، والتي بدأت بدوامة التقدم التدريجي المتواصل لهؤلاء الآريين الهجج الهابطين من الغابات والبراري الشمالية بين ١٦٠٠ ، ٦٠٠ ق م .

وسنحدثك أيضاً في فصل تال عن شعب سامي صغير ، هو العبرانيون ، سكان ما وراء سواحل الفينيقيين والفلسطينيين من تلال ، الذين بدأت أهميتهم في الظهور في قريب من نهاية هذه الفترة ، ذلك أنهم أنتجوا « أدبا » أوتي أهمية كبيرة فيما تلا تلك

من عصور التاريخ ، وذلك الأدب هو مجموعة من الكتب والتواريخ والفصائد وكتب الحكمة وأسفار التنبؤات وهو التوراة العبرانية .

ولم يسبب ظهور الآريين أى تغيير جوهرى بأرض الجزيرة [العراق] ومصر إلا بعد ٦٠٠ ق . م . ولا بد أن فرار الإيجيين أمام الإغريق بل حتى تدمير كنوسوس ، قد بدا لكل من سكان مصر وبابل حركة اضطراب نائية جدا . وكانت الأسير الماسكة تذهب وتجيء فى هاتين الدولتين مهاد الحضارة ، على أن الحياة البشرية سارت فى مجراها الرئيسى ، وإن حلت بها ببطء على مر العصور زيادة طفيفة فى التهذيب والتعقيد . وأما مصر فكانت الآثار التى تكدست عن العصور التليدة السابقة قد زادت كثيرا بما أضيف إليها من مبان جديدة فاخرة ، شيدت بوجه خاص فى عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة : وكان عمر الأهرام قد بلغ آنذاك ثلاثة آلاف سنة كما كانت فرجة يتفرج عليها الزوار كما يفعلون الآن تماما ! ويرجع معبدا الكرنك والأقصر الكبيران إلى ذلك الزمان . أما نينوى فإن الآثار الرئيسية بها : المعابد الكبرى والثيران المجنحة ذوات الرؤوس البشرية ، والحفر البارز الذى يمثل الملوك والعجلات وصيد الأسود — من صنع تلك القرون بين ٦٠٠ ق ١٦٠٠ م ، كما أن هذه الفترة تشتمل أيضا على معظم ما بلغته بابل من أبهة وجلال .

ولدينا الآن من أرض الجزيرة ومصر جميعا سجلات عامة كثيرة العدد ، وحسابات لأشغال تجارية وحكايات وقصائد شعرية ومراسلات خاصة . ومنها نعلم أن حياة المومنين وذوى النفوذ فى مدن من أمثال بابل وطيبة المصرية ، تسكد تبلغ من التهذيب والترف مبلغ حياة من يستظلون الرفاهية واليسار فى أيامنا هذه .

كان هؤلاء الناس يعيشون عيشة منظمة حافلة بالمواسم ويقطنون منازل جميلة الشكل أنيقة الأثاث والزخرفة ، ويرتدون ثيابا جزلة الزينة والوشى وجواهر بديعة ؛ وكانت لهم أعياد وحفلات ، فإن شاء الواحد منهم أن يكرم الآخر ويسليه أكرمه بالموسيقى والرقص ، كما يقوم على خدمتهم خدم رفيعو التدريب ، كما كان الأطباء وأطباء الأسنان يعالجونهم . وهم لا يكثر من السفر وإن فعلوا لم يذهبوا بعيدا ، ولسكن النزهة بالزوارق كانت من أسباب المسرة صيفا فى كل من نهري النيل والفرات ، أما دابة الحمل عندهم فهي الحمار ؛ فى حين لم يستخدم الحصان إلا فى العربات الحربية والمناسبات الرسمية دون غيرها . وكان البغل لا يزال شيئا جديدا ، كما أن الجمل لم يكن قد دخل مصر بعد وإن عرفت أرض الجزيرة من قبل . ومن الطبيعى أن الأوعية المصنوعة من

الحديد كانت قليلة ؛ إذ إن النحاس والبرونز ظلّاهما المعدنين المنتشرين . وكانت الرفائع من أنسجة القطن والتيل معروفة هي والصوف . ولكن لم يكن هناك حرير . وعرف الناس الزجاج وأضفوا عليه الألوان الجميلة ، ولكن الأوعية الزجاجية كانت في العادة صغيرة . ولم يكن الزجاج صافيا شفافا كما أنه لم يستخدم في العدسات . وكان الناس يحشون أسنانهم بالذهب وإن لم يضعوا المناظير فوق أنوفهم ! !

وهناك فارق عجيب بين الحياة في طيبة القديمة أو بابل وبينها في العصور الحديثة ، هو غيبة العملة المسكوكة . فالمقايضة هي الأساس في القدر الأعظم من الصفقات التجارية وكانت بابل تسبق مصر من الناحية المالية بأشواط بعيدة . واستعمل الذهب والفضة في التبادل وجعلا في صورة سبائك ؛ وقبل سك النقود بزمان مديد كان هناك أصحاب مصارف ، يذمغون أسماءهم والوزن على هذه الكتل من المعدن النفيس . وكان الناجر أو المسافر يحمل الأحجار الثمينة ليبيعه وينفق منها . وكان معظم الخدم والعمال عبيداً لا يتناولون أجورهم نقدا بل عينا . ولما ظهرت النقود انحط الرق .

ولو أن زائراً من أهل عصرنا زار هاتين المدينتين اللتين أصبحتا تاجا على مفارق العالم القديم ، لافتقد صنفين هامين جداً من أصناف الغذاء ، هما الدجاج والبيض . ولذا فإن الطاهي الفرنسي ما كان يجد مسرة كبيرة في بابل . فإن هذين الصنفين وصلا من الشرق في عصر الإمبراطورية الآشورية الأخيرة تقريباً .

وكذلك الديانة ، فقد ألم بها ككل شيء آخر تهذيب عظيم ، إذ اختفت القرابين البشرية مثلاً منذ أمد بعيد ؛ وحل الحيوان أو الدمى المصنوعة من الخبز محل الضحية . (على أن الفينيقيين وبخاصة سكان قرطاجنة أعظم مستقرانهم في إفريقية ، اتهموا فيما بعد بالتضحية بالكائنات البشرية) . وجرت العادة كلمات رئيس كبير في الأيام الخالية أن يضعى بزوجاته وعبيده وأن تسكر الحراب والقسي عند قبره ، وذلك لكي لا يكون في عالم الأرواح بلا أتباع ولا أسلحة . وبقيت بمصر عن هذا التقليد الرهيب عادة لطيفة هي دفن نماذج صغيرة للبيت والدكان والخدم والماشية مع الميت . وهي نماذج تمدنا اليوم بأروع تمثيل حي لتلك الحياة الوادعة المثقفة لهذا الشعب العتيق قبل ثلاثة آلاف سنة أو تزيد .

هكذا كان العالم القديم قبل انحدار الآريين من غابات الشمال وسهوله . وحدثت بالهند والصين تطورات موازية لهذه . فقد نشأت بالوديان الكبيرة بهذين القطرين

كليهما دول مدن زراعية لشعوب سمراء وأخذت تنمو وتزدهر ، ولكن لا يبدو أنها تقدمت أو اختلفت ببلاد الهند بنفس سرعتها بأرض الجزيرة أو مصر . لذا كانوا أدنى إلى مستوى السومريين أو مرتبة حضارة المايا الأمريكية . أما الصين فتاريخها لا يزال بحاجة إلى علماء لكي تضيف عليه الطابع العصري وتنقيه من كثير مما يشوبه من أساطير . والراجح أن الصين كانت في ذلك الأوان أكثر تقدما من الهند . وقد عاصرت الأسرة الثامنة عشرة بمصر ، أسرة إمبراطورية في الصين ، هي أسرة شانج ، وهم أباطرة كهنة يحكمون إمبراطورية منحلة الروابط من ملوك تابعين . وكان رأس واجبات هؤلاء الأباطرة الأول هو تقديم القرابين الموسمية . ولا تزال هناك إلى اليوم أوان برونزية جميلة ترجع إلى عهد أسرة شانج وفيها من الجمال وجودة الصنعة ما يجعلنا نحس بأنها لم تصل إلى ما بلغته إلا بعد قرون عدة من الحضارة .

الفصل التاسع عشر

الآريون البدائيون

منذ أربعة آلاف سنة ، أى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م ، كانت أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية وآسيا أدفاً مناخاً على الأرجح ، وأكثر مطراً وغابات مما هى الآن . وكانت تتجول فى هذه الأقاليم من الأرض مجموعة من القبائل معظمها من العنصر النوردى الأشقر الأزرق العيون بلغ من اتصالهم بعضهم ببعض أن لغاتهم لم تزد عن مجرد فروع متنوعة من لغة واحدة مشتركة تنتشر من نهر الراين إلى بحر قزوين . ولعلمهم لم يكونوا فى ذلك الوقت شعباً وفير العدد جداً ، ولعل البابليين الذين كان حمورابى يمنحهم آنذاك القوانين لم يحسوا بوجودهم . ولا أحست بهم أرض مصر العريقة آنفاً فى القدم والتثقيف ، والى كانت تذوق فى تلك الأيام لأول مرة مرارة الغزو الأجنبي .

وقدر لهذه الشعوب النوردية أن تلعب دوراً هاماً جداً بالفعل فى تاريخ العالم . كانوا شعوب أحراش أو أراض قطعتم منها الغابات ؛ ولم يملكوا الحصان فى البداية وإن وجدت لديهم الماشية ؛ فإذا هم تجولوا وضعوا خيامهم وبقية متاعهم على عربات خشنة تجرها الثيران ؛ وإذا استقروا زمنا ما فلعلمهم كانوا يصنعون عشوشا من رفيع العصون والطين . وإذا مات واحد من ذوى المسكنة فيهم أحرقوا جثته ؛ ولم يدفنهوه بالمراسم كما كانت الشعوب البيضاء القائمة تفعل ، وكانوا يضعون تراب كبار زعمائهم فى أوان ثم ينشئون حولها رابية مستديرة . وهذه الروابى هى القبور المستديرة التى تنتشر فى جميع أرجاء أوروبا الشمالية ، ولم تكن الشعوب القائمة السابقة لهم تحرق موتاهم ، بل تدفنها فى هيئة جلوس داخل رواب مستطيلة هى « القبور

الطويلة » Long barrows

وكان الآريون ينتجون القمح ، ويحرثون الأرض بالثيران ، ولذكهم لم يكونوا يستقرون إلى جوار محصولاتهم ؛ ذلك أنهم ما يكادون يحصدون حق يرحلون ، وقد ملكوا البرونز ، ثم خصلوا على الحديد حوالى ١٥٠٠ ق . م . ولعلمهم أول من

اكتشف صهر الحديد، ومالبثوا في زمن ما يقارب ذلك الوقت نفسه أويكاد أن حصلوا أيضاً على الحصان - الذى بدأوا باستخدامه فى أغراض الجر دون غيرها ، ولم تتمركز حياتهم الاجتماعية حول معبد كالذى تمركزت حوله شعوب البحر المتوسط الأكثر استقراراً. وكان كبارهم قادة فى ميدان الحرب أكثر منهم كهنه . ونظامهم الاجتماعى أرسقراطى وليس فيه ربوبية للملك، وكانوا منذ مرحلة سحيقة جدا فى تاريخهم يعترفون لعائلات بعينها بالزعامة والنبل .

وهم قوم ذوو فصاحة ولسن وكانوا يعيشون فى تجوالهم البهجة بما يقيمون من حفلات يسرفون فيها فى الشراب ، ويقوم فيها طراز خاص من الرجال هم الشعراء بالغناء والتلاوة . ولم تكن لهم كتابة قبل اتصالهم بالحضارة ، ومن ثم كانت ذاكرة هؤلاء الشعراء سجل أدهم الخالد ، وقد عاد استعمال اللغة المتلوة كوسيلة للتسلية بأكثر الفضل عليها إذ جعلها أداة تعبير جميلة طيبة ممتازة ، كما لاشك فى أنه يعود إليه الفضل، إلى حذما ، فما تلا ذلك من سمو اللغات المشتقة من الآرية ، وراح كل شعب آرى يبلور تاريخه الأسطورى فى تلاوات شعرية ، تختلف أسماؤها باختلاف الشعوب ، فهى تارة تسمى بالملاحم ، وتارة بالساجا ، وأخرى بالفيدا .

والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب تتمركز حول دور زعمائهم . فإن قاعة الرئيس التى يستقر القوم بها حيناً من الزمان ، كثيرا ما كانت بناء خشبياً رحيباً جداً، ولاشك فى أنهم أعدوا بجوارها أكواخاً للقطعان ومباني ريفية فى مواضع منها منتطرة ؛ ولكن هذه القاعة كانت لدى معظم الشعوب الآرية هى المركز العام ، الذى إليه يذهب كل إنسان ليحضر الوليمة ، ويصغى إلى الشعراء ، ويشترك فى الألعاب والمناقشات ، وتحيط بالقاعة حظائر البقر واسطبلات الخيل ، وينام الرئيس وزوجته ومن إليهما على منصة أو شرفة عليا ؛ أما العامة فنومهم فى أى مكان هناك ، كما هو الحال إلى اليوم « بالدورات » الهندية وقد درجت حياة القبيلة على ضرب من الشيوعية قائم على نظام الأبوة فى كل شىء عدا الأسلحة والحلى والآلات وما أشبهها من المحتللكات الشخصية ، وكان الرئيس يملك الماشية وأراضى رعيها من أجل المصلحة العامة ؛ وفى حين أن الغابات والأنهار هى والبرازى لا يسكنها أحد .

ذلك هو أسلوب حياة الشعب الذى كان يتكاثر ويتزايد على أرض البراح الكبير بآوربا الوسطى وآسيا الوسطى الغربية فى أثناء نمو الحضارة العظيمة بأرض الجزيرة والنيل،

ذلك الشعب الذى نجده مضغوط في كل مكان على شعوب الحضارة الحجرية الشمسية (الهليوليثية) في الألف الثانية قبل المسيح ، كانوا ينحدرون إلى فرنسا وبريطانيا وأسبانيا ، ويتقدمون غرباً في موجتين . وتساح أول فوج منهم بلغ بريطانيا وإيرلنده بأسلحة من البرونز . فأبادوا أو أخضعوا الشعب الذى صنع من قبل الآثار الحجرية العظيمة المسماة بكارناك في بريتاني وستون هنج وآفبوري بالجلترا وقد بلغوا إيرلنده واسمهم السكت الجويديليون (Goidelic Celts) . أما الموجة الثانية لشعب وثيق القرى بهؤلاء ، ربما خالطته عناصر من أجناس أخرى ، فهي التى أحضرت الحديد معها إلى بريطانيا العظمى ، وهى تعرف باسم موجة السكت البريتونيين (Brittonic) . وعندهم يشتق أهل مقاطعة ويلز لغتهم .

وأخذت شعوب كلتية ذات رحم بهؤلاء تشق طريقها بالقوة نحو الجنوب في أسبانيا وتتصل إلى بشعب الباسك (الهليوليثى) وحده الذى كان لا يزال يحتل البلاد ، بل والمستعمرات الفينيقية السامية على ساحل البحر أيضاً . كما أن ، سلسلة من القبائل وثيقة الشبه بهذه ، هى الإيطاليون ، شرعت تتقدم في شبه الجزيرة الإيطالية وهى بعد برارى موحشة مكسوة بالغابات ، ولكن لم تسكن لهم الغلبة على طول الخط ، فإن روما تظهر في التاريخ في القرن الثامن ق . م ، مدينة تجارية على نهر التير يسكنها اللاتين الآريون ولكنها تحت حكم نبلاء وملوك من الإترسك (التوسكان) .

فإذا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المجال الآرى ، وجدنا قبائل مماثلة تتقدم هى الأخرى نحو الجنوب . فإن شعوبا آرية تتكلم السنسكريتية انحدرت من خلال المعمرات الغربية إلى أرض شمال الهند قبل ١٠٠٠ ق . م زمن هديد . وهناك اتصلوا بحضارة بدائية سمراء ، هى الحضارة الدرافيدية ، وتعلموا منها الشيء الكثير .

وهناك قبائل أخرى آرية يلوح أنها انتشرت فوق السكتل الجبلية بآسيا الوسطى ، متوغلة شرقاً نحو غلا بعيداً عن المجال الحالى لتلك الشعوب . ولا تزال بلاد التركستان الشرقية قبائل نوردية شقراء الشعور زرقاء العيون ، ولكنها تتكلم الآن بالسن مغولية .

وفما بين بحر قزوين والبحر الأسود غطى الأرمنيون على الحيثيين القدامى . وصبغوه صبغة آرية قبل ١٠٠٠ ق . م ، كما أن الآشوريين والبابليين قد شعروا فعلا بوطأة أجناس همجية جديدة شديدة المراس في القتال على التخوم الشمالية الشرقية ، (٧ — تاريخ العالم)

وهي مجموعة من القبائل لا تبرح أسماء الإسكنديين والميديين والفرس أبرز ما بقي من أسماؤها .

ولكن شبه جزيرة البلقان هي الممر الذي شق فيه أول زحف قوى للقبائل الآرية طريقه إلى صميم حضارة العالم القديم . على أنهم دأبوا قبل ١٠٠٠ ق . م بعدة قرون على الانحدار جنوبا ، وعبور البحر إلى آسيا الصغرى . فجاءت أولا مجموعة من القبائل أبرزها الفريجيون ، ثم جاء على التعاقب الإغريق الأيوليون والأيونيون والدوريون ، فما وافت ١٠٠٠ ق . م ، حتى صارت الحضارة الإيجية القديمة في خبر كان في كل من بلاد اليونان الأصلية ومعظم الجزائر اليونانية ؛ فمحييت من الوجود مدينتا « ميسيناي » و « تيرونز » (Tiryns) ، وكاد النسيان يعفى على « كمنوسوس » .

ونزع الإغريق إلى البحر قبل ١٠٠٠ ق . م ، وذلك بعد أن استقروا في جزيرتي كريت ورودرس ، وشرعوا يؤسسون المستعمرات بصقلية وجنوب إيطاليا ، على منوال المدن التجارية الفينيقية المنتشرة على طول سواحل البحر المتوسط .

فبينما كان « تجلات باسر الثالث » و « سرجون الثاني » و « سارداناپالوس » يحكمون مملكة آشور ويقاثلون بابل وسوريا ومصر ، كانت الشعوب الآرية تتعلم طرائق الحضارة وتستخدمها لأغراضها الخاصة في إيطاليا وبلاد الإغريق وشمال إيران . ولم يلبث التاريخ كله منذ القرن التاسع ق . م فما بعده بستة قرون أن أصبح يدور حول قصة هذه الشعوب الآرية وكيف قويت شوكتها وأخذت بأسباب المغامرة ، وكيف ترامي بها الأمر إلى إخضاع العالم القديم بأسره ، السامى منه والإيجى والمصرى سواء ، لقد كانت الشعوب الآرية من الناحية الشكلية منتصرة بصورة مطلقة ؛ ولكن الصراع الذي نشب بين الأفكار والطرائق الآرية والسامية والمصرية ظل مستمرا بعد انتقال الصولجان إلى يد الآريين بزمن بعيد ، بل الحق إنه كفاح يستمر طيلة ما عقب ذلك من التاريخ ، بل لا يزال مستمرا على شكل ما إلى يومنا هذا .

الفصل العشرون

الإمبراطورية البابلية الأخيرة

والإمبراطورية دارا الأول

لقد أوضحنا من قبل كيف أصبحت مملكة آشور دولة عسكرية عظيمة تحت حكم تجلات بلسر الثالث ، ومغتصب العرش سرجون الثاني . ولم يكن الاسم الأصلي لذلك الرجل هو سرجون ، إذ الواقع أنه اتخذ لنفسه رغبة منه في تملك البابليين المغلوبين بتذكيرهم بالملك سرجون الأول ، المؤسس القديم للإمبراطورية الأكادية ، الذي جاء قبل زمنه بألفي سنة . وعلى الرغم من أن بابل كانت مغلوبة على أمرها ، فإنها كانت تفوق نينوى في الأهمية وعدد السكان ، ولم يكن بد من معاملة رهبها الكبير « بعلم مردوخ » وكهنتها وتجارها أحسن معاملة . فلقد أصبحت أرض الجزيرة في القرن الثامن قبل الميلاد على درجة أرقى كثيراً من تلك الأيام الممجيبة التي كان فيها معنى فتح مدينة هو النهب وإعمال السيف . وصار الفاتحون يحاولون استرضاء المغلوبين وضمهم إلى جانبهم . ودامت الإمبراطورية الآشورية الجديدة قرناً ونصفاً بعد سرجون ، كما أن آشور بانيبال (سارداناپالوس) قد استولى على مصر السفلى على الأقل كما سبق .

ولكن قوة آشور وتماسكها ما لبثت أن اضمحلت . فاستطاعت مصر طرد الغاصب بشىء من الجهد بزعامة فرعونها « أوسمتيك الأول » ، كما حاولت أن تشن حرباً لفتح سوريا بقيادة « نخاو الثاني » وفي ذلك الوقت كانت آشور تكافح أعداء أقرب إلى ربوعها ، فلا تستطيع إزاءهم إلا أضعف المقاومة . ذلك أن شعباً سامياً من الجنوب الشرقى لأرض الجزيرة هو الكلدان ، اتحد ضد نينوى مع الميديين والفرس الآريين الهابطين من الشمال الشرقى ؛ وفي ٦٠٦ ق . م . بالضبط (إذ إننا دخلنا الآن في مرحلة التأريخ المضبوط) استولوا على تلك المدينة .

وتم تقسيم غنائم آشور، وأنشئت في الشمال إمبراطورية ميديّة تحت حكم كياسارس

(سياخار) ضمت إليها نينوى وجعلت عاصمتها إكباتانا . وامتدت حدودها شرقاً إلى تخوم الهند . وإلى الجنوب من هذه ، وفي شكل هلال عظيم ، تأسست إمبراطورية كلدانية جديدة ، هي الإمبراطورية البابلية الثانية ، التي ارتفعت إلى درجة عالية من الثراء والقوة تحت حكم نبوخذنصر العظيم (وهو نبوخذنصر المذكور في التوراة) ، وابتدأت بذلك آخر أيام بابل العظيمة ، بل أعظم أيامها جميعاً ، وظلت الإمبراطوريتان في سلام ردحا من الزمن ، وتزوج سياخار من ابنة نبوخذنصر .

وفي نفس الوقت كان نحاو الثاني يواصل فتوحاته في سوريا دون مقاومة ، فهزم في معركة مجدو سنة ٦٠٨ ق . م يوشع ملك يهودا وقتله . وهي قطر صغير سنحدثك عنه بالمزيد عما قليل ، ثم انطلق إلى نهر الفرات لا ليلتقى بمملكة آشورية منعلة ، بل بدولة بابلية ماضية . وقد قاوم الكلدانيون المصريين وأخذوهم أخذاً قوياً . ودحر نحاو ورد على أعقابهِ إلى مصر ، وانتقلت الحدود البابلية إلى الحدود المصرية القديمة .

وظلت الإمبراطورية البابلية الثانية منذ ٦٠٦ إلى ٥٣٩ ق . م . مزدهرة ازدهاراً غير وطيء ، فلم يدم ازدهارها إلا بقدر ما حافظت على السلم بينها وبين الإمبراطورية الميديّة الأقوى منها بأساً ، والأصلب عوداً في الشمال . وفي غضون تلك السنوات السبعة والستين لم يقتصر الازدهار في المدينة القديمة على الحياة وحدها . بل شمل العلوم أيضاً .

وكانت بابل مسرحاً لنشاط فكري عظيم ، حتى وهي تحت حكم ملوك الآشوريين سيما سارداناपालوس ، وهذا الملك وإن كان آشورياً إلا أنه اصطبغ بالصبغة البابلية تماماً ؛ فإنه أنشأ مكتبة لم تصنع مجلداتها من الورق ، بل من ألواح الطين التي كانت تستعمل في الكتابة بأرض الجزيرة منذ أقدم العصور السومرية . وقد أزيح الستار عن مجموعة كتبه ولعلها أضمن ما في العالم من النخائر التاريخية .

وكان لآخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل ، وهو نابونيداس ، ذوق أدبي أرهف أو يكاد ، فإنه ناصر البحوث التاريخية القديمة وشماها برعايته ، حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولي سرجون الأول العرش ، خلد ذكرى تلك الواقعة بما سطر من نقوش . بيد أن إمبراطوريته كانت تنطوي على كثير من دلائل التفكك ، فحاول أن يبت فيها روح المركزية بأن أحضر إلى بابل عدداً من الآلهة المحليين المختلفين ، وأقام بها المعابد لتلك الآلهة . وقد استعمل الرومان تلك



خريطة رقم (٣)

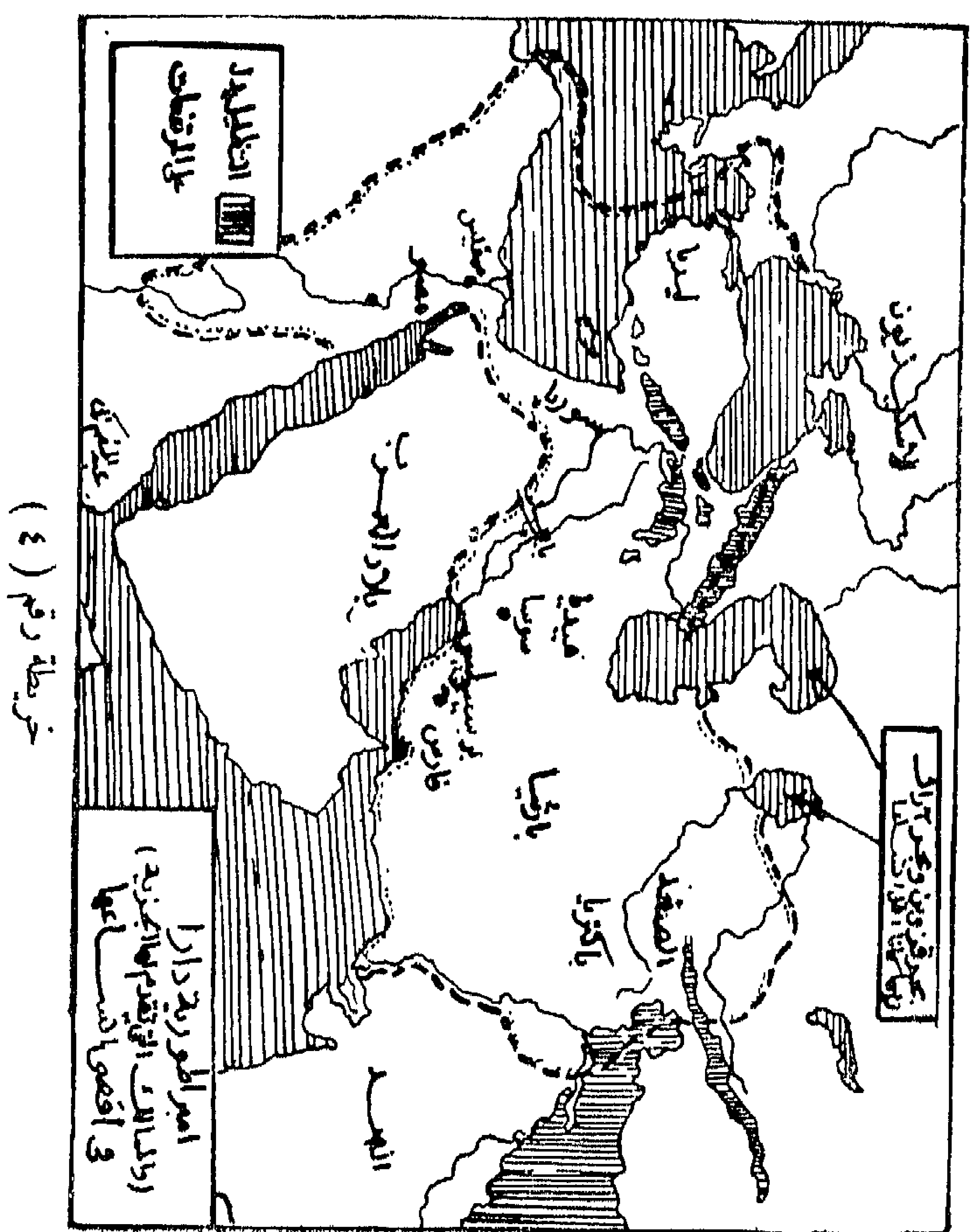
الطريقة بنجاح تام فيما تلا ذلك من الزمان ، ولكنها أثارت في بابل غيرة كهنة بعل مردوخ الأقوياء ، وهو رب البابليين الأكبر. فأخذوا يدبرون الخطط للتخلص من نابونيداس ، والبحث عن بديل له ، ووجدوه في شخص قورش الفارسي ، حاكم الإمبراطورية الميديّة المجاورة . ومن قبل ذلك كان اسم قورش قد برز حين هزم كرويسوس ملك ليديا الثرى في شرق آسيا الصغرى . وزحف الملك على بابل، ودارت المعركة خارج أسوارها ، وفتحت له أبواب المدينة (٥٣٨ ق . م .) فدخلتها جنوده بلا قتال .

وتذكر التوراة أن ولي العهد بيلشاصر بن نابونيداس كان في وليمة عند ما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجدار بأحرف من نار : « منا ، منا ، تقيل ، وفرسين Mene, Mene, Takel, Upharsin » ، وقد أولها النبي دانيال الذي استدعاه الأمير ليقرأ اللغز بأن « منا أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، وتقيل وزنت بالموازين فوجدت ناقصا ، فرسين قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس^(١) » . وربما كان كهنة بعل مردوخ على علم بأمر تلك الكتابة المسطورة على الحائط . وقتل بيلشاصر في تلك الليلة كما تقول التوراة ، وأخذ نابونيداس أسيراً ، وتم احتلال المدينة بهدوء وسلام بحيث استمرت الصلاة لبعل مردوخ دون أى توقف .

وهكذا تم توحيد الإمبراطورية البابلية والميدية . وأخضع قمبيز بن قورش مصر ، ثم جن قمبيز وقتل صدفة ، وخلفه على الفور دارا الميدي الملقب دارا الأول ، وهو ابن هستاسيس أحد كبار مستشارى قورش .

وكانت إمبراطورية دارا الأول الفارسية ، وهى أول الإمبراطوريات الآرية الجديدة في الشرق موطن الحضارات القديمة ، أعظم إمبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الحين إذ كانت تضم آسيا الصغرى بأكملها وسوريا ، وجميع الإمبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة ، ومصر ومناطق القوقاز وقزوين ، وبلاد ميديا وفارس ؛ كما أنها كانت تمتد في بلاد الهند حتى نهر السند وقد أصبح وجود مثل تلك الإمبراطورية في حيز الإمكان عند ذلك في العالم ، بفضل استخدام الحصان والراكب والعربة والطريق المرصوف .

(١) التوراة : دانيال الإصحاح الخامس .



أما قبل ذلك فإن الحمار والثور والجمال (في الصحراء) كانت أسرع وسائل النقل . وأنشأ حكام الفرس طرقاً عظيمة امتدت كالشرايين لربط أجزاء إمبراطوريتهم الجديدة بعضها إلى بعض ، وكانت خيول البريد واقفة على الدوام تنتظر رسول الإمبراطور أو المسافر الذي يحمل إذناً رسمياً بالسفر . وفضلاً عن ذلك فإن العالم كان قد شرع آنذاك في استعمال النقود المسكوكة . التي سهلت التجارة والتعامل تسهيلاً كبيراً . ولكن عاصمة تلك الإمبراطورية الضخمة لم تعد بابل . وانقضت الأيام ولم يجن كهان بعل مردوخ من خيانتهم شيئاً . وأخذت بابل تضمحل وإن بقي لها شيء من أهميتها ، على حين صارت المدن الكبرى في الإمبراطورية الجديدة هي برسيبوليس وإكباتانا . وكانت سوسا هي العاصمة . بينما هجرت نينوى وأخذت تتساقط أطلالها بالية .

الفصل الحادى والعشرون

تاريخ اليهود القديم

والآن نستطيع أن نتحدث عن اليهود ، وهم شعب سامى ، لم يؤتوا فى زمانهم من الأهمية قدر ما تركوا من التأثير فيما عقب ذلك من تاريخ العالم . استقر اليهود فى بلاد يهوذا (Judaea) قبل ١٠٠٠ ق . م . بزمان طويل ؛ وبعد ذلك العهد صارت أورشليم أكبر مدينة لديهم . وتتشابك قصتهم بقصة الإمبراطوريات الكبيرة الواقعة على كل من جانبيهم : مصر إلى الجنوب وتلك الإمبراطوريات المتغيرة فى الشمال ، إمبراطوريات سوريا وآشور وبابل . ولم يكن مفر من أن تصبح بلادهم طريق مرور رئيسى بين تلك الدول ومصر .

وترجع أهميتهم فى العالم إلى كونهم أنتجوا أدباً وتاريخاً عالمياً ومجموعة من القوانين والتواريخ والمزامير وكتب الحكمة والشعر والقصص والكلم السياسية ، وهى التى أصبحت فى النهاية ما يسميه المسيحيون باسم العهد القديم ، وهو التوراة العبرانية . وقد ظهر ذلك الأدب فى التاريخ فى القرن الرابع أو الخامس ق . م .

والراجع أن ذلك الأدب قد جمع شتاته لأول مرة فى بابل ، وقد أسلفنا عليك كيف أن الفرعون نخاو الثانى غزا الإمبراطورية الآشورية ، وآشور تقاتل الميديين والفرس والكلدان قتال حياة أو موت ؛ وبينما كيف اعترضه يوشع ملك يهوذا ، فهزمه نخاو وقتله عند مجدو (٦٠٨ ق . م) . وبذا أصبحت يهوذا دولة تابعة لمصر ، وعندما تمكن نبوخذنصر الكبير الملك الكلدانى الجديد الذى تولى الحكم فى بابل ، من رد نخاو على عقبه إلى مصر ، حاول أن يحكم يهوذا بإقامة ملوك ضعاف يأتمرون بمشيئته فى أورشليم ، ولكن فشلت المحاولة ، فإن الشعب أعمل الذبح فى موظفيه البابليين ، وعند ذلك ضمم الملك أن يمزق تلك الدولة الصغيرة كل ممزق بعد أن ظلت أمداً بعيداً تستفيد من تأليب مصر على الإمبراطورية الشمالية ، فأمر فنهت أورشليم وأحرقت ، وحمل من بقى بها من الناس إلى بابل أسرى .

وهناك أقاموا حتى استولى قورش على بابل (٥٣٨ ق . م .) وعند ذلك جمعهم جميعاً وأعادهم إلى بلادهم ليسكنوها من جديد وليعيدوا بناء أسوار أورشليم ومعبدها .

ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الأوان شعباً متحضراً ولا متحداً . وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة . غير أن تاريخهم نفسه لا يذكر أبته أن الأسفار القديمة من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا في عهد يوشع . ولكن الأسر البابلي مدتهم ووحدهم ، فعادوا إلى بلادهم شديدي اليقظة إلى أديهم ، عادوا شعباً متأجج الوعي الذاتى مشرباً بالنزعات السياسية .

ويلوح أن توراتهم لم تكن تحتوى فى ذلك الوقت إلا على أسفار موسى الخمسة (Pentateuch) ؛ أى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم الذى نعرفه جميعاً . وفضلاً عن ذلك كان لديهم فعلاً - وعلى صورة كتب منفصلة ، - كثير من الكتب الأخرى التى ألحقت منذ ذلك الحين هى وأسفار موسى الخمسة بالتوراة العبرانية الراهنة ، ومنها مثلاً أسفار التورايخ والمزامير والأمثال .

ولو تأملت قصص خلق العالم وآدم وحواء والطوفان ، التى تبدأ بها التوراة ، لوجدتها وثيقة المماثلة لأساطير بابلية تشبهها ؛ والظاهر أنها كانت من المعتقدات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة ، وكذلك قصص موسى وشمشون فإن لها نظائر سومرية وبابلية . ولكن بداية أمر الشعب اليهودى بوجه أخص لا تبدأ حقاً إلا بقصة إبراهيم فما تلاها .

وربما كان إبراهيم يعيش فى نفس الوقت المبكر الذى عاش فيه حمورابى فى بابل ، كان إبراهيم رجلاً بدوياً سامياً تعيش عشيرته فى نظام الأبوة ، وعلى القارىء أن يرجع إلى سفر التكوين بحثاً عن قصة تجولاته وقصص أبنائه وحفدته وكيف أصبحوا أسرى بأرض مصر وكيف جاس خلال أرض كنعان ؛ وتقول رواية التوراة : إن رب أبراهام وعده وأولاده بهذه الأرض البسامية ذات المدن الغنية .

وبعد مقام طويل بمصر وبعد أربعين عاماً من التجول فى البرية بزعامه موسى ، يتزايد أبناء أبراهام فيصبحون شعباً مكوناً من اثني عشر سبطاً ، ويغزون أرض كنعان

من الفيا في العربية في الشرق . ولعلمهم فعلوا ذلك في زمن ما بين ١٦٠٠ ق . م . ١٣٠٠ ق . م . وليس فيما دوتته مصر عن تلك الحقبة أى ذكر لموسى ولا كنعان حتى يزيل ما يكتنف تلك القصة من غموض ، ومهما يكن من أمر فإنهم لم يفتحوا إلا منطقة التلّول الداخلية في أرض الميعاد ولم يزيدوا عليها شيئاً . فإن الساحل في ذلك الأوان لم يكن في أيدي الكنعانيين ، بل في أيدي قوم وافدين من الخارج هم أولئك الشعوب الإيجية الذين يسمون بالفلسطينيين ؛ وقد استطاعت مدنهم غزة وجاث وأشدود وعسقلان ويافا ، أن تصمد لهجوم العبرانيين ؛ وظل أسباط إبراهيم أجيالا عديدة شعباً مغموراً يعيش في منطقة التلال الخلفية مشغولاً بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وذوى قرباهم من القبائل النازلة حولهم وهم المؤابيون وأهل مدين ومن إليهم . وسيجد القارئ في سفر القضاة سجلاً يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة . ذلك أنك تجده في الأغلب سجلاً من النكبات والإخفاقات التي دوت بصراحة .

وكان حكام اليهود خلال أكبر جزء من هذه المدة — لو افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع — قضاة من الكهنة ينتخبهم كبراء الشعب ، ولكنهم عمدوا في النهاية في زمن ما يقارب ١٠٠٠ ق . م . إلى انتخاب ملك هو شاول ، ليكون لهم قائدا في القتال . ولكن قيادة شاول لم تزد كثيرا على قيادة القضاة ، فهلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين في معركة جبل جلبوع ، وأخذت دروعه إلى معبد فينوس الفلسطينية ، ودق جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان .

وكان خلفه داود أكثر توفيقا وفطنة . وبتولى داود أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التي قدر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مر الدهر كله . وهي تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية ، التي يلوح أن ملكها حيرام كان رجلا أوتي نصيباً كبيرا من الذكاء والقدرة على المغامرة . وكان ينبغي أن يكفل للتجارة إلى البحر الأحمر طريقاً آمناً عبر منطقة التلال العبرانية . وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر ، بيد أن مصر كانت في ذلك الزمان في حالة بالغة من الفوضى ؛ ولعل عقبات أخرى قد حالت دون مرور التجارة الفينيقية في تلك الطريق ، ومهما يكن من شيء فإن حيرام أنشأ بينه وبين داود وابنه وخلفه سليمان أوثق العلاقات ، وعند ذلك نشأت برعاية حيرام ، أسوار أورشليم وقصرها ومعبدها ، وفي مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه ، وأخذ سيل جسيم من التجارة

يُشدق خلال أورشليم نحو الشمال والجنوب . وأوتى سليمان من اليسار والأبهة مالم يره شعبه من قبل . حتى لقد بلغ من أمره أن سمح فرعون بتزويج ابنته منه .

بيد أن من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور . فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكاً صغيراً نابغاً يحكم مدينة صغيرة . وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث أنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته ، حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم ونهب معظم ما فيها من كنوز . ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأيام . وهم يقولون إن الكبرياء القومي لدى كتاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها . بيد أنك إذا أنعمت النظر في قصة التوراة وقرأتها بمزيد من العناية لم تجد لها الروعة التي تخيل إليك عند أول قراءة .

فلو أنا استخرجنا من القصة أطوال دعبد سليمان ، لوجدنا أن في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي ، وأما عرباته الألف والأربعمئة فإنها ستكفي عن بعث الإكبار في نفوسنا عندما نعلم من أحد الأطلال الآشورية أن خلفه آحاب (Ahab) أرسل كتيبة من ألفين لتنضم إلى الجيش الآشوري . وواضح مما تقص التوراة أن سليمان بدد ما يملك في المظاهر وأنه أبهظ شعبه بالعمل والضرائب . ولما أن مات انفصل الجزء الشمالي من مملكته عن أورشليم وأصبح مملكة إسرائيل المستقلة . بينما ظلت أورشليم حاضرة يهوذا .

ولم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش إلا أمداً وجيزاً . فمات حيرام ، وانقطع عون صور الذي كانت تقوى به أورشليم . ثم قويت شوكة مصر ثانية . ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرخى تعركهما على التوالي سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب . وهي قصة نكبات وتحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النسكبة القاضية ، هي قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج ، حتى إذا وافت ٧٢١ ق.م سحت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها في ٦٠٤ ق.م ، ماحل بإسرائيل كما أسلفنا ، وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ العبرانيين منذ أيام القضاة فما تلاها موضع الشك والنقد ، ولكنها بوجه الإجمال قصة

واضحة الصديق تتفق مع كل ما علمناه عن طريق أعمال الحفر التي تمت في مصر وآشور وبابل إبان القرن المنصرم .

وهناك في بابل جمع الشعب العبراني تاريخه بعضه إلى بعض وطور تقاليده ونماها . ذلك أن القوم الذين آبوا إلى أورشليم بأمر قورش كانوا شعباً يختلف اختلافاً عظيماً في الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسورا ، فإنهم تعلموا الحضارة .

وظهرت إبان تطورهم الخلق الفريد في بابه طائفة معينة من الرجال لعبت دوراً عظيماً جداً في تاريخهم ، وهي طراز جديد من الرجال ، هم الأنبياء ، الذين يلبيح لنا الآن أن نوجه إليهم اهتمامنا ، ويؤذن ظهور الأنبياء بظهور قوى جديدة جديدة بالملحظة في التطور المطرد للجماعة البشرية .

الفصل الثاني والعشرون

كمكان وأنبياء في بلاد اليهودية

لم يكن سقوط آشور وبابل إلفاتحة سلسلة من النكبات التي كتب للشعوب السامية أن تقاسيها . ومن قبل ذلك كان العالم المنحضر بأكله يلوح في القرن السابع ق . م كأما هو موشك أن يتسلط عليه حكام ساميون . ذلك أنهم كانوا يحكمون الإمبراطورية الآشورية العظمى كما استولوا على مصر ؛ وغلب الساميون على بلاد آشور وبابل وسوريا التي كانت تتكلم لغات متقاربة يمكن فهمها بينهم جميعاً . وكانت تجارة العالم في أيدي الساميين ، فإن صور وصيدا مدينتي الساحل الفينيقي الأصليتين الكبيرتين قد نثرتا المستعمرات التي كبرت في النهاية حتى فاقت أمها حجبا في أسبانيا وصقلية وإفريقيا . ذلك أن قرطاجنة التي أسست قبل ٨٠٠ ق . م ، تزيد عدد سكانها حتى أربى على المليون . وظلت أعظم مدن العالم ردحا من الزمن ، فذهبت سفنها إلى بريطانيا وخرجت إلى عرض المحيط الأطلسي ، ولعلها بلغت جزائر ماديرا ، وقد رأينا من قبل كيف تعاون حيرام مع سليمان على بناء السفن على البحر الأحمر لنقل التجارة العربية وربما الهندية أيضاً ، وحدث في زمن الفرعون نخاو أن حملة فينيقية دارت بسفنها حول قارة إفريقيا .

وكانت الشعوب الآرية لا تزال في ذلك الحين غارقة في الهمجية ، لا يستثنى منها إلا الإغريق الذين جعلوا يعيدون بناء مدينة جديدة على أنقاض تلك التي دمرها ، وكذلك الميديون الذين أصبحوا « ذوى بأس وقوة » في آسيا الوسطى ، كما تصفهم بعض النقوش الآشورية ، ولم يكن أحد يستطيع أن يتكهن في ٨٠٠ ق . م بأن كل أثر لسلطان الساميين سيمحوه غزاة ينطقون بالآرية قبل حلول القرن الثالث ق . م ، وأن الشعوب السامية ستغدو في كل مكان خاضعة أو تابعة أو مشتتة كل مشتت ، ففي كل مكان ، ما عدا صحارى بلاد العرب الشمالية ، حيث استعسك البدو بشدة بطريقة عيش الترحل ، سادت طريقة العيش التي كانت للساميين قبل زحف سرجون الأول والأكاديين لفتح سومر ، بيد أن العرب البدو لم يغزهم ألبتة سادة آريون .

ولم يتأسك من جميع هؤلاء الساميين المتحضرين الذين هزموا وأخضعوا في إبان تلك القرون الخمسة الحافلة بالأحداث ، أقول لم يتأسك منهم ولم يستعسك بتقاليده القديمة إلا شعب واحد فقط ، هو هذا الشعب الصغير ، وأعنى به اليهود الذين أعادهم قورش الفارسي ليشيدوا مدينتهم أورشليم . وقد تيسر لهم ذلك كله ، بفضل جمعهم شتات أديهم ذاك ، وهو التوراة ، أثناء مقامهم في بابل .

والواقع أن اليهود لم يصنعوا التوراة بل إن التوراة هي التي صنعت اليهود . ذلك أن تلك التوراة تنطوى دفتاها على أفكار بعينها ، تخالف أفكار من حولهم من الشعوب ، وهي أفكار شديدة التنبيه للأذهان شديدة الدعم والتثبيت للأنفس ، قدر لهم أن يتعلقوا بها إبان خمسة وعشرين من قرون المحن والمغامرة والاضطهاد .

وأول هذه الأفكار اليهودية وأبرزها ، هي اعتقادهم بأن إلههم خفى مستتر وبغيد ، إله غير مرئي يعيش في معبد لم تصنعه يد ، وهو رب الخير والبر في أرجاء الأرض كافة . أما الشعوب الأخرى قاطبة فلها أرباب قومية تمثلوها أصناما تعيش في معابد . فإذا تحطم الصنم وانهدم المعبد ، ولى الرب على الفور ، ولكن رب اليهود هذا كان فكرة جديدة ، فهو يعيش في السماء ، ساميا متعاليا على الكهنة والقرايين . وكان اليهود يؤمنون بأن إلههم هذا هو إله أبراهام ، قد اصطفاهم له شعباً مختاراً ، ليسترجعوا أورشليم ويجعلوها حاضرة البر في العالم . فهم إذن شعب سما به إلى العلا شعوره بمصيره المشترك . ذلك هو الاعتقاد الذى ملأ جوانب نفوسهم جميعاً يوم عادوا إلى أورشليم بعد الأسر في بابل .

أف عجيب إذن أن تهفو إلى هذه العقيدة الملهمة نفوس كثير من البابايين والسوريين ، ومن إليهم ، ونفوس كثير من الفينيقيين فيما تلا ذلك من الزمان ؟ — وهم أقوام يتحدثون بلسان واحد تقريباً ، ولديهم ما لا حصر له من مشترك العرف والعادات والأذواق والتقاليد ، وأن يحاولوا الإسهام في عضويتها ووعدها ولا سيما بعد أن تمرغوا في مهاوى الهزيمة والدلة ؟ وقد لوحظ أن الفينيقيين اختفوا فجأة من صفحات التاريخ بعد سقوط صور وصيدا وقرطاجنة والمدن الفينيقية الأسبانية ؛ كما ظهرت المجتمعات اليهودية مكانهم وبمثل تلك الطريقة الفجائية عيناها لا في أورشليم وحدها بل وفي أسبانيا ، وإفريقيا ومصر وبلاد العرب ، وفي الشرق حيثما وضع الفينيقيون أقدامهم . وكانت

الرابعة التي تربطهم جميعاً هي التوراة وتلاوة التوراة . ولم تكن أورشليم منذ البداية إلا عاصمتهم الاسمية ؛ أما مدينتهم الحقيقية الجامعة شملهم فهي هذه التوراة « سفر الأسفار » ، وذلك شيء جديد في التاريخ . وهو شيء بذرت بذوره قبل ذلك بزمن مديد ، عندما شرع السومريون والمصريون أن يحولوا كتاباتهم الهيروغليفية ذات الصور إلى كتابة عادية .

كان اليهود شيئاً جديداً في هذه الدنيا ، فإنهم كانوا شعباً بلا ملك ، وما لبثوا أن غدوا بلا معبد (إذ إن أورشليم نفسها — كما سنحدثك — قد قضى عليها في سنة ٨٠٠ بعد الميلاد) ، ولم يكن يجمعهم — على تباين أصولهم ، واختلاف عناصرهم — إلا قوة الكلام المسطور .

لم يدبر أحد هذا الالتئام الفكري بين اليهود ، ولا تنبأ به إنسان ، ولا كان ثمرة جهد كاهن أو سياسي . ولم يظهر في التاريخ بتطور اليهود نوع جديد من المجتمع وحسب ، بل نوع جديد من الإنسان ، وفي أيام سليمان لم يكن يبدو على العبرانيين إلا أنهم سيصبحون شعباً صغيراً يتجمع كأي شعب صغير آخر في ذلك الزمان حول بلاط ومعبد ، تحكمه حصافة الكاهن وتقوده مطامع الملك . ولكن هذا الصنف الجديد من الإنسان الذي نتحدث عنه ، وأعني به « النبي » كان موجوداً آنفاً ، كما يستطيع القارئ أن يتحقق من ذلك بنفسه من التوراة . وتزايد أهمية هؤلاء الأنبياء مع تراحم المصائب على رأس العبرانيين المنقسمين على أنفسهم .

فما هؤلاء الأنبياء ؟ !

إنهم رجال متباينو الأصل إلى أقصى حد . فالنبي حزقيال مثلاً كان من السكينة ، وكان النبي عاموس يلبس رداء الرعاة المصنوع من جلد الماعز ، بيد أنهم يشتركون جميعاً في شيء واحد : هو أنهم لا يدينون بالولاء إلا للرب البر وأنهم يتصلون بالناس مباشرة ، كانوا يظهرون دون ترخيص من ذوى السلطان ودون تكريس مقدس كالكهان . أما طريقة تعبيرهم عما في نفوسهم ، فهي قولهم : « الآن جاءني كلمة الرب » . كانوا يخوضون في السياسة إلى أقصى حد . ولطالما حرصوا الناس على مصر ، « تلك القصبة المشبعة » على حد تعبيرهم ؛ أو على آشور أو بابل ، وقد نعوا على طبقة الكهان تراخيهم ، كما نددوا بآثام الملوك الصارخة . ووجه نفر منهم

(٨ — تاريخ العالم)

عنايته إلى ما قد نسميه اليوم « بالإصلاح الاجتماعى » . فقالوا إن الأغنياء « يستحقون وجوه الفقراء سحقاً » ، كما أن المترفين يستنفدون خبز الأطفال ، وأن الموسرين يصادقون الأجانب ويقلدونهم فى أبهتهم ورذائلهم ؛ وأن هذا بغيض إلى « ياهواه » رب « أبراهام » الذى سينزل سوط عقابه على هذه الأرض .

كانت هذه التنديدات العنيفة تدون وتصح وتدرس . وكانت تذهب حيثما ذهب اليهود ، وحيثما حلوا نشرت بين الناس روحاً دينية جديدة . فباعدت بين الرجل العادى وبين السكاهن والمعبود والبلاط والملك ، ووضعت وجهها لوجه أمام حكم الرب . وتلك هى أهميتهم العليا فى تاريخ البشرية . والأقوال العظيمة التى ينطق بها أشعيا يرتفع بها الصوت النبوى إلى ذروة سامية من رائع التنبؤ ، ويتوقع اتحاد الأرض كلها فى ظل إله واحد ، وهنا تبلغ النبوءات اليهودية أوجها .

ولم يكن كل الأنبياء يتكلمون على هذه الشاكلة ، كما أن القارىء الفطن يجد فى كتب الأنبياء الشئ الكثير من البغضاء ، والشئ الكثير من التحيز والتحامل ، والشئ الكثير مما سيذكره بتلك المادة الشريرة ، ألا وهى المؤلفات التى تسطرها الدعاية فى الزمن الحاضر . ومع ذلك فإن الأنبياء العبرانيين الذين عاشوا حوالى زمن الأسر البابلى هم الذين يؤذنون بظهور قوة جديدة فى العالم ، هى قوة الالتجاء إلى الفرد من الناحية الخلقية ، الالتجاء إلى ضمير البشرية الحرة ضد القرايين الخرافية (الفتيشية^(١)) ومختلف أنواع الولاء الاستعبادى التى ظلت حتى ذلك الحين قيداً يغفل جنسنا البشرى .

(١) الفتيشية : كل شئ ينظر إليه بتوقير لا يقوم على منطق أو عقل . وهى فى الأصل الاعتقاد أن لكل شئ روحاً تنقم وتضر . [المترجم]

الفصل الثالث والعشرون

الإغريق

في نفس الوقت الذي كانت فيه مملكتا إسرائيل ويهوذا المنقسمتان على نفسيهما تسكبدان التدمير ونقل السكان بعد عهد سليمان (الذي حكم على الأرجح حوالي ٩٦٠ قبل الميلاد) وبينما الشعب اليهودي يطور تقاليده وينميها إبان الأسر البابلي ، كانت تنشأ أيضا قوة عظيمة الأثر في العقل الإنساني ، هي التقاليد الإغريقية . وبينما كان الأنبياء العبرانيون يكونون في الناس شعوراً جديداً بوجود مسئولية خلقية مباشرة بينهم وبين رب سمرمدى للعالم كافة يتصف بالعدل والحق ، كان فلاسفة الإغريق يدرسون العقل الإنساني على المغامرة الفكرية بطريقة وروح جديدتين .

والقبائل الإغريقية - كما سبق أن ألمعنا - فرع من الدوحة الناطقة بالآرية ، انحدر إلى المدن والجزائر الإيجية قبل ١٠٠٠ ق . م بيضة قرون . والراجح أنهم كانوا يتحركون نحو الجنوب قبل اليوم الذي راح فيه تحوتمس فرعون مصر يصيد فيلته الأولى وراء إقليم الفرات الذي استولى عليه ؛ ذلك أنه كانت هناك في تلك الأيام أفيال بأرض الجزيرة وأسود في بلاد الإغريق .

ومن الجائز أن إحدى غارات الإغريق هي التي أحرقت كنوسوس ، ولكن لبس بين الأساطير الإغريقية ما يتغنى بمثل هذا النصر ، وإن حوت تلك الأساطير قصصاً تتحدث عن مينوس ، وقصر « اللابيرات » ، وعن مهارة بعض الصانع السكريتيين .

وكان لهؤلاء الإغريق كمعظم الشعوب الآرية مغنون وقصاصون ، وكان غناؤهم وقصصهم من الروابط الاجتماعية الهامة ، وقد نقلوا عن أيام شعبهم الممجبة الأولى ملحمتين عظيمتين :

(أ) الإلياذة : التي تحدثنا كيف أن عصابة من القبائل الإغريقية حاصرت مدينة طروادة بآسيا الصغرى ، واستولت عليها وانتهبتها .

(ب) والأوديسيا : وهى مطولة تروى مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم فى أثناء عودته من طروادة إلى جزيرته .

وقد دونت هاتان الملحمتان فى زمن ما من القرن الثامن أو السابع ق . م ، عندما تعلم الإغريق استعمال الحروف الأبجدية من جيرانهم الأكثر مدنية . ولكن نظن أنهما كانتا موجودتين قبل ذلك بزمن طويل جداً . وكانتا تنسبان فيما سلف إلى شاعر ضئير اسمه « هوميروس » ، زعم الناس أنه هو الذى صاغهما مثلما ألف « ميلتون » قصيدة الفردوس المفقود ، فهل وجد هذا الشاعر حقاً ؟ وهل ألف هاتين الملحمتين ، أم اقتصر أمره على تدوينهما وصقلهما إلى غير ذلك ؟ ..

الواقع أن هذا موضوع يلزم للعلماء أن يعرضوا له بالنقاش . وما نحن بحاجة أن نشغل أنفسنا بمثل هذه المنازعات . وكل ما يهمنا أن اليونانيين ملكوا الملحمتين فى القرن الثامن ق . م ، وأنهما كانتا ملكاً مشاعاً لهما جميعاً رصلة تربط بين قبائلهم المتنوعة ، وتمنحهم شعوراً بالزمالة ضد البرابرة^(١) . ذلك أنهم كانوا مجموعة من شعوب منشابهة تربطهم رابطة اللغة والكلام أولاً ، ثم الكتابة فيما بعد ، ويسهمون كلهم فى مثل العليا مشتركة من الشجاعة والسلوك .

والملاحم تظهر لنا الإغريق فى صورة الشعب الفطرى الذى لا يعرف الحديد ، ولا الكتابة ، والذى لم يسكن المدن بعد ، ويلوح أنهم كانوا يسكنون فى البداية قرى غير مسورة مصنوعة من أكواخ يقيمونها حول قاعات رؤسائهم ، خارج أطلال المدن الإيجية التى دمرها من قبل ، ثم شرعوا يحيطون مدنها بالأسوار ، وينقلون فكرة المعابد عن الشعب الذى غزوه .

وقد ألمعنا آنفاً إلى أن مدن الحضارات البدائية نمت حول مذبح آلهة إحدى

(١) البرابرة اصطلاحاً هم من أعداء اليونانيين من الشعوب [المترجم]

القبائل ، وأن السور بنى حولها فيما بعد ؛ أما مدن الإغريق فالسور فيها سابق على المعبد . كما أنهم شرعوا يتجرون وينشئون المستقرات بكل مكان . فما وافى القرن السابع ق . م حتى كانت مجموعة جديدة من المدن قد نمت في أودية بلاد الإغريق وجزأرها ، ضاربة صفحة النسيان على المدن والحضارة الإيجية التي سبقتها ؛ ومن أهمها أثينا وإسبارطة وكورنثة وطيبة وساموس وميليتوس . وانتشرت المستعمرات الإغريقية على امتداد ساحل البحر الأسود وفي إيطاليا وصقلية . وكان (كعب) الحذاء الإيطالي ومقدمه يسميان ماجنا جريكيا (بلاد اليوتان الكبرى) . كما أن مدينة مرسيليا ليست إلا بلدة إغريقية أسست على أنقاض مستعمرة فينيقية قديمة .

والأقطار المكونة من سهول عظيمة أو التي تكون وسيلة المواصلات الرئيسية فيها أحد الأنهار العظيمة كالفرات أو النيل ، تنزع إلى الاتحاد تحت حكم مشترك . ومن أمثلة ذلك أن مدن مصر وسومر اتحدت كلها تحت نظام حكم واحد . ولكن الشعوب اليونانية كانت موزعة بين الجزائر والوديان الجبلية ؛ إذ من المعلوم أن بلاد الإغريق والجزء الجنوبي من إيطاليا (الما جنا جريكيا) جبلية وعرة ؛ لذا كان الوضع ينزع صوب التفرق لا الاتحاد . وعند ما ظهر اليونان في التاريخ لأول مرة كانوا منقسمين إلى عدد من الدويلات الصغيرة التي لا يبدو عليها أي أثر للائتلاف . وكانوا يتباينون في كل شيء حتى في الجنس . فمن تلك الدويلات ما تألف بصفة أساسية من مواطنين من إحدى القبائل اليونانية الثلاث الأيونية أو الأيولية أو الدورية ؛ ومنها ما كان سكانه خليطا من اليونان ومن سلالات جنس البحر المتوسط السابق لليونان ؛ ومنها ما فيه مواطنون أحرار من اليونان الخالص يتسلطون عليها وعلى سكانها المقهورين المستعبدين شأن « الهيلوطيين » في إسبارطة . ومنها ما صارت فيه العائلات الآرية القديمة المتزعمة ، طبقة أرستقراطية منعزلة ؛ وبعضها كانت تقوم فيه ديموقراطيات تضم جميع المواطنين الآريين ؛ بينما تولى الحكم بعضها الآخر ملوك منتخبون بل حق وراثيون ، على حين كان في بعضها مغتصبون للعرش أو طغاة .

والظروف الجغرافية التي جعلت الدول الإغريقية منقسمة ومختلفة على الدوام فيما بينها ، هي التي عادت عليها أيضاً بصغر الحجم . فإن أعظم دولها حجما أصغر من كثير

من المقاطعات الإنجليزية ، وإنا لفي ريب من أن سكان أية مدينة من مدنها زاد في يوم من الأيام على ثلث المليون . وقل منها من بلغ سكانه الخمسين ألفا . وقد قامت بينهم الاتحادات بدافع المصلحة والتعاطف ، ولكن لم تنشأ أية وحدة وائتلاف . ولما تزايدت التجارة راحت المدن تفتش بين العصبية وتعقد المحالقات ، كما راحت المدن الصغيرة تضع نفسها تحت حماية الكبيرة . ومع ذلك فإن بلاد الإغريق كان يجمعها كلها أمران يجعلان منها مجتمعا ذا شعور مشترك إلى حد ما ، وهما الملاحم وعادة المساهمة كل أربع سنوات في المباريات الرياضية التي كانت تقام في أولمبيا ، على أن هذا لم يحل دون نشوب الحروب والنزاعات ، وإن خفف شيئا مما تقسم به الحرب من وحشية وضراوة ، كما أنه استلزم قيام هدنة تصون حياة المسافرين إلى الألعاب والعائدين منها ، ونما يمضي الوقت شعورهم بأن لهم إرثا مشتركا ، وتزايد عدد الدول المشتركة في الألعاب الأولمبية حتى لم يقتصر الأمر على اليونانيين وحدهم ، بل سمح بدخولها لمبارين من أقطار ذات مشابهة وثيقة باليونان كإبيروس ومقدونيا إلى الشمال .

نمت أهمية المدن الإغريقية واتسعت تجارتها ، وأخذ نوع حضارة القوم يرتقى باطراد في أثناء القرنين السابع والسادس ق . م . وتختلف حياتهم الاجتماعية في كثير من النواحي الشائقة عن الحياة الاجتماعية لحضارات بحر إيجه ووديان الأنهار ، إذ كانت لديهم معابد ضخمة ، بيد أن الكهانة لم تكن تلك الهيئة التقليدية الكبيرة ، التي كانت موجودة في مدن العالم القديم ، والتي كانت مستودع المعرفة كلها ، ومخزن الأفكار ، كان لديهم زعماء وعائلات نبيلة ، ولم يكن لديهم عاهل شبه قدسي يحيط به بلاط محكم التنظيم . والواقع أن نظامهم كان بالأحرى أرسقراطيا لعائلات مترعمة تقف إحداها للأخرى بالمرصاد وتلزمها الجادة . وحتى النظم التي يسمونها بالديموقراطيات لم تكن في الواقع إلا أرسقراطية ، ولكل مواطن حر أن يشترك في الشؤون العامة بنصيب ، ومن حقه حضور جلسات الجمعية إن كان نظام المدينة ديموقراطيا ، ولكن لم يكن كل إنسان مواطنا حرا .

ولم تكن الديموقراطيات اليونانية تماثل ديموقراطياتنا العصرية التي لكل إنسان فيها صوت . فإن كثيرا من تلك الديموقراطيات كانت تحتوى على بضع مئات أو بضع

آلاف من المواطنين الأحرار ، ومن دونهم آلاف كثيرة من الأرقاء والعتقاء ومن إليهم ، لا يستمتعون بأى نصيب فى الشئون العامة .

وعلى وجه العموم كانت مقاليد الأمور ببلاد الإغريق فى يد طائفة من رجال ذوى مكانة . وكان ملوكهم وطغاتهم على السواء مجرد رجال وضعوا على رأس غيرهم من الرجال أو اغتصبوا الزعامة اغتصاباً ؛ ولم يكونوا أشباه آلهة فوق مستوى البشر مثل فرعون ومينوس أو عواهل أرض الجزيرة . ومن ثم فإن الفكر والحكم كانا يحظيان فى ظلال الإغريق بحرية لم يحظيا بها فى أى من المدن القديمة . وذلك أن الإغريق أدخلوا إلى المدينة تلك « الشخصية الفردية » والمبادأة والابتكار الشخصى اللذين ينعم بهما المتجولون الرحل فى أراضى الأحراش الشمالية ، فهم أول « جمهوريين » لهم أهمية فى التاريخ .

وبينما هم ينفضون عن أنفسهم غبار حرب وحشية ضروس دارت بينهم ، يستكشف المشاهد أن شيئاً جديداً أصبح واضحاً فى حياتهم العقلية لأول مرة فى التاريخ . ذلك أنا نلتقى هنا برجال ليسوا من الكهنة ، يطلبون المعرفة ويسجلونها ويفحصون عن أسرار الحياة والوجود ، بطريقة كانت حتى ذلك الحين هى امتياز الكهنة الرفيع . أو تسليمة الملوك التى يزاولونها فى كثير من الادعاء والغطرسة . فإننا نجد فعلاً فى القرن السادس ق . م (بينما كان أشعيا لا يزال يتنبأ فى بابل) رجالاً مثل « طاليس » و « أناكسياندر الملىطى » و « هرقليتوس » من أهل إفيسوس ، وهم قوم ممن نسميهم اليوم باسم السادة السراة ، نجدهم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكى الأريب فى أحوال العالم الذى نعيش فيه ، متسائلين عن ماهيته ، وكنه طبيعته الحقة ، ومن أين جاء ؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصائرهم ؟ . . . ورافضين جميع الإجابات المعدة أو المحفوظة التى لاتصدر عن إعمال فكر ، أو تنطوى على التملص . وسنزيدك عما قليل بياناً عن هذا التساؤل الذى وجهه العقل الإغريقى إلى هذا الكون . وهؤلاء الباحثون الإغريق الذين أخذوا يبرزون ، ويلفتون إليهم الأنظار فى القرن السادس قبل الميلاد ، هم أول الفلاسفة ، أى أول محبى الحكمة فى العالم .

وربما أمكننا أن ننوه بعظم أهمية القرن السادس قبل الميلاد فى تاريخ البشر . ذلك

أن هؤلاء الفلاسفة الإغريق لم يكونوا وحدثهم أول من جد في طلب الأفكار الخالصة
النافذة حول هذا الكون ومركز الإنسان فيه ، على حين راح « أشعيا » يسمو بالتنبؤ
اليهودى إلى أرفع مراتبه ، بل إن « جوتاما بوذا » أيضا — كما سنحدثك فيما بعد —
كان يعلم الناس آنذاك بالهند ، وكذلك « كونهشيوس » ولاوتسى (لاهوتسى)
ببلاد الصين . فكان العقل الإنسانى من أئتنا حتى المحيط الهادى كان فى حركة
ونشاط دائبين .

الفصل الرابع والعشرون

الحرب بين الإغريق والفرس

بينما كان الإغريق في المدن القائمة ببلادهم وجوبى إيطاليا وآسيا الصغرى مقبلين على البحث الفكري الحر ، وبينما كان آخر الأنبياء العبرانيين في بابل وأورشليم يخلقون ضميراً حراً ، استولى شعبان آريان مخاطران : الميديون والفرس ، على زمام حضارة العالم القديم ، وشرعا في تكوين إمبراطورية ضخمة هي الإمبراطورية الفارسية ، التي كانت أوسع رقعة بكثير من أية إمبراطورية رآها العالم حتى ذلك الحين .

ولم تلبث بابل وليديا الثرية ذات الحضارة العريقة أن أضيفتا في عهد قورش إلى أملاك الفرس ، ثم ضمت إليهم مدن الفينيقيين بالشرق وجميع المدن اليونانية بآسيا الصغرى وأخضع قمبيز مصر ، كما لم يلبث دارا الأول الميدي ثالث ملوك الفرس (٥٢١ ق . م) أن وجد نفسه عاهلاً للعالم بأسره حسب اعتقاد الزمان . وصار رسله يجوبون الطرق بمراسيمه على الخيل من الدردنيل إلى السند ، ومن مصر العليا إلى آسيا الوسطى .

أجل ، إن يونان أوروبا وإيطاليا وقرطاجنة وصقلية والمستعمرات الفينيقية بإسبانيا لم تستظل « السلم الفارسي » (١) ؛ بيد أنها كانت تعامل فارس بالاحترام ، ولم يجد الفرس مضايقة جدية إلا من قبائل آبائهم القدماء من الشعوب الآرية القاطنين بجنوب روسيا وآسيا الوسطى ، وهم الأشقوذيون (الإسكنديون) الذين كانوا دائماً الإغارة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية .

وسكان هذه الإمبراطورية الفارسية الكبيرة لم يكونوا جميعاً بطبيعة الحال من الفرس ، فلم يكن هؤلاء إلا الأقلية الصغيرة الفاتحة والحاكمة لهذه المملكة الضخمة .

(١) السلم الفارسي : السلم الذي تقوم بصيانتها دولة فارس بالمناطق التي يرفرف عليها .
[المترجم]

فأما سائر السكان فكانوا على ما هم عليه قبل نزول الفرس بهم بأزمان سحيقة ، وكل ما جد في الأمر هو أن الفارسية أصبحت لغة الحكم والإدارة . وقد ظلت التجارة والمالية ساميتين إلى حد كبير ، وبقيت صور وصيدا كشأتهما في الماضي الميناءان العظيمان على البحر المتوسط ، كما أن السفن السامية ظلت تتمخر عباب البحار . بيد أن كثيراً من هؤلاء التجار ورجال الأعمال الساميين كانوا إذا انتقلوا من مكان إلى آخر وجدوا تاريخاً مشتركاً يجتمع فيه مصالحهم وتعاطفهم ، ويتمثل في التقاليد والكتب المنزلة العبرانية . وثمة جنس جديد كان عدده يزداد بسرعة في تلك الإمبراطورية ، وهو الجنس الإغريق . وتلفت الساميون فاذا باليونان قد صاروا لهم منافسين خطرين على صفحة البحر ، فضلاً عن أن ذكاءهم الفياض البعيد عن الهدوى جعل منهم موظفين نافعين غير متحيزين .

وكان الإسكينيون هم السبب الذي من أجله غزا دارا الأول أوربا . فإنه شاء أن يصل إلى جنوب روسيا موطن الفرسان الإسكينيين . فعبر البوسفور بجيش عظيم اخترق به بلغاريا إلى نهر الدانوب ، ثم عبر ذلك النهر بجسر من الزوارق وأوغل شمالاً ، فلقى جيشه الأهوال . لأنه كان في معظم شأنه قوة راجلة من المشاة ، على حين راح الإسكينيون — وهم من الحيالة — يناوشونه بخيالهم من جميع جوانبه ، فيقطعون عنه المدد ، ويهاكون كل من ضل من جنده ، ولا يدخلون معه في أية معركة فاصلة . واضطر دارا أن يتراجع تراجعاً مزمرياً شائناً .

عاد دارا بشخصه إلى سوس ، ولكنه خلف جيشاً في تراقيا ومقدونيا ، وخضعت مقدونيا لدارا . ولما رأت مدن الإغريق الآسيوية ما حل بالملك من إخفاق شبت فيها الفتن ، وانجذب إغريق أوربا إلى حومة النزاع ، وصمم دارا على إخضاع إغريق أوربا . ولما كان الأسطول الفينيقي رهن إشارته تسنى له بمساعدته أن يخضع الجزر واحدة تلو الأخرى ، حتى انتهى به الأمر في ٤٩٠ ق . م أن قام بهجومه الرئيسي على أثينا . وأقلعت عمارة بحرية عظيمة من موانئ آسيا الصغرى وشرقي البحر المتوسط ، وأنزلت الحملة جنودها عند ماراثون إلى الشمال من أثينا . وهناك لقيهم الأثينيون وهزموهم شراً هزيمة .

وفي تلك اللحظة الحرجة حدث شيء خارق . فقد كانت إسبارطة ألد منافس لأثينا بيلاد الإغريق ، واليوم لجأت أثينا إلى إسبرطة تلتمس العون ، فأرسلت إليها رسولا

عداء سريعاً ، يتوسل إلى الإمبراطيين ألا يدعوا الإغريق يصبحون للبرابرة عبيداً ، وقطع هذا العداء (وهو النموذج المثالي لنظرائه من عدائي ماراثون) أكثر من مائة ميل من أرض وعرة في أقل من يومين . وهب الإمبرطيون لنصرة إخوانهم في سرعة وكرم نفس ، ولكن عندما بلغت القوة الإمبرطية أثينا بعد ثلاثة أيام ، لم تجد شيئاً تعمله إلا أن تشهد مساحة المعركة وجثث جنود دارا المنحدرين . هذا إلى أن الأسطول الفارسي كان قد عاد إلى آسيا . وبذلك انتهى أمر أول هجوم فارسي على بلاد الإغريق .

على أن ما حدث بعد ذلك كان أشد وأبلغ . إذ مات دارا بعد أن بلغته أخبار اندحاره في ماراثون بقليل ، وظل ابنه وخلفه اجزرسييس ، أربع سنوات يجهز جيشاً عظيماً ليسحق به الإغريق . وجمع الذعر كلمة الإغريق إلى حين . إذ لاشك أن العالم لم يشهد من قبل جيشاً في ضخامة جيش اجزرسييس . ولكنه كان جمعاً هائلاً مكوناً من عناصر متنافرة . فعبّر الدردنيل في ٤٨٠ ق . م بجسر من الزوارق ؛ وكلما تقدم الجيش تحرك معه بمحاذاة الساحل أسطول لا يقل عنه تخلفاً يحمل المؤن ، وهناك عند مضيق « ثرموبيلاي » وقفت قوة صغيرة مكونة من ١٤٠٠ رجل بقيادة ليونيداس الإمبرطي تقاوم هذا الجحفل الجرار ، ولم تلبث تلك القوة أن أبيت بأكلها بعد قتال أبدي فيه ما ليس له نظير من البطولة ؛ لقد قتل رجالها عن بكرة أبيهم . على أن الخسائر التي أنزلوها بالفرس كانت فادحة ، وأطبق جيش اجزرسييس على طيبة^(١) وأثينا كسير الروح . وخضعت طيبة وكتبت شروط التسليم . وتخلّى الأثينيون عن مدينتهم فأحرقها العدو .

وبدت بلاد الإغريق كأنما قد أصبحت في قبضة الفاتحين ، ولكن النصر عاد فالفهم رغم كل الظروف المضادة ، وعلى النقيض من كل ما كانوا يتوقعونه . فإن الأسطول الإغريقي أخذ يهاجم الأسطول الفارسي في خليج سلاميس ودمره وإن لم يبلغ ثلث حجمه . ووجد اجزرسييس أنه وجيشه العرمرم قد صاروا محرومين من المؤن ، فخافته شجاعته ؛ وتراجع إلى آسيا بنصف جيشه ، تاركاً النصف الآخر لكي يهزم في بلاتيا (٤٧٩ ق . م) . وفي نفس الوقت كان الإغريق يطاردون بقايا الأسطول الفارسي ويدمرونها عند ميكالي بآسيا الصغرى .

(١) طيبة : مدينة إغريقية - ارجو ألا يخطأ القارئ بينها وبين سميتها العظيمة بصعيد مصر . -
[المترجم]

القد زال كل خطر فارسي . وبانت معظم المدن الإغريقية بآسيا حرة . وقد سطرت هذه الأحداث جميعاً بتفصيل عظيم وفي شيء كثير من الجمال الجذاب في أول كتاب تاريخي مدون ، وهو تاريخ هيرودوت . ولد هيرودوت حوالي ٤٨٤ ق . م في مدينة هاليكارناسوس الأيونية بآسيا الصغرى ، فجعل يزور بابل ومصر المناسا للتفاصيل المضبوطة والمشاهدات الصحيحة . وهوت فارس منذ معركة ميكاى في بحر من الفوضى والحلاف على العرش : فاغتيل اجزرسييس في ٤٦٥ ق . م ، وشبت الثورات في مصر وسوريا وبلاد الميديين ، فقضت على النظام الذى استتب أمداً وجيزاً على يد تلك المملكة الجبارة . وتاريخ هيرودوت يحاول أن يؤكد ضعف فارس ، والواقع أن هذا التاريخ ضرب مما قد نسميه اليوم باسم الدعاية — فهو دعوة لليونانيين إلى الاتحاد والقضاء على فارس ، وإن هيرودوت ليجعل من أرسناجوراس إحدى الشخصيات المذكورة في كتابه داعية يذهب إلى الإسبرطيين بخريطة للعالم المعروف ويقول لهم :

« ليس هؤلاء البرابرة شجعانا في القتال ، وأنتم من جهة أخرى بلغتكم اليوم أقصى المهارة في الحرب .. وليس ثم شعب آخر في العالم يملك ما يملكون ؛ من ذهب وفضة وبرونز وثياب موشاة وحيوان وعبيد ، وربما أحرزتم كل ذلك لأنفسكم إن أردتم بذلك حقاً .. » .

الفصل الخامس والعشرون

بلاد الإغريق إبان مجدها

كان القرن ونصف القرن اللذان أعقبا هزيمة فارس عصر عظمة الحضارة اليونانية وجلالها . أجل إنه شمل بلاد الإغريق تمزق في صراع على السطوة والعزة استيأست فيه كل من أثينا وإسبارطة ودويلات أخرى (وهي حرب البيلوبونيز ٤٣١ - ٤٠٤ م) وأنه حدث في ٣٣٨ ق . م أن أصبح المقدونيون بالفعل سادة لبلاد الإغريق ؛ ومع ذلك فإن الفكر الإغريق وبواعث الخلق والابتكار ودوافع الفن فيهم سمت في تلك الفترة إلى مستويات رفيعة جعلت ما أنجزوه فيها من عظام الأعمال نبراسا تستهدى به البشرية على كثر التاريخ كله .

وكانت أثينا الرأس المفكر والمركز الأساسي لذلك النشاط العقلي . وذلك أن أثينا قضت ثلاثين عاما أو تزيد (٤٦٦ - ٤٢٨ ق . م) تحت سيطرة رجل قوى الشكيمة حر الفكر سمح العقل ، هو بركليس ، الذي نصب نفسه لإعادة بناء المدينة بعد الحريق الذي أنزل بها الفرس . والآثار الجميلة التي لا تزال تملأ أرجاء أثينا إلى اليوم بالمجد والجلال تعود بوجه خاص إلى ذلك الجهد العظيم . والواقع أن بركليس لم يقتصر على إعادة بناء أثينا من الناحية المادية فقط ، بل أعاد بناءها من الناحية الفكرية أيضا . فلم يكتف بركليس بأن يجمع حوله المماريين والمثاليين وحدهم ، بل حشد أيضا الشعراء والمؤلفين الدراميين والفلاسفة والمعلمين . وفي عهده جاء هيرودوت إلى أثينا ليتلو تاريخه على مسامع الناس (٤٣٨ ق . م) كما جاء أناكزاجوراس إليها يحمل بدايات وصف علمي للشمس والنجوم . وفيها نهض إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس الواحد منهم بعد الآخر بالدراما (المسرحية) الإغريقية إلى أعلى ذرا الرفعة والجمال .

وقد دفع بركليس حياة أثينا الذهبية دفعة ظلت حية بعد وفاته ، وذلك رغم أن السلام ببلاد الإغريق كانت تعكره وقتئذ حرب البيلوبونيز ، وأن كفاحا قتالا طويلا على السيادة بالبلاد قد اندلعت شرارته . والحق إنه يابوح أن تلبد الأفق السياسي بالغيوم ظل إلى حين يعمل على شحذ أذهان الناس لا تثبيطها .

وقبل عهد بركليس بزمن طويل كان جو الحرية العجيب الذى تستمتع به النظم الإغريقية يضيف أهمية كبرى على المهارة فى المناقشة والجدال . إذ لم يكن البت فى الأمور حقاً للملك ولا كاهن ، بل كان بيد جمعيات الشعب أو الزعماء . ومن ثم غدت الفصاحة والاقتدار فى الجدل مزايا مرغوبة مطلوبة . ونشأت طبقة من المعلمين ، هم السفسطائيون الذين تعهدوا بإذكاء مواهب الشباب فى هذه الفنون . بيد أن المرء لا يستطيع أن يفكر دون مادة لفكره ، ومن ثم جاءت المعرفة فى أعقاب فنون الكلام . وكان من الطبيعى جداً أن يؤدى نشاط هؤلاء السفسطائية ومنافساتهم إلى وضع الأسلوب فى بوتقة الامتحان القاسى ، هو ومناهج الفكر وصحة الجدل . وعند ما مات بركليس كان شخص يدعى سقراط قد أخذ يبرز كناقذ قدير للجدل الردىء — ولا تنسى أن الشئ الكثير من تعاليم السفسطائية كان جدلاً من النوع الردىء . واجتمعت حول سقراط طائفة من الشبان الأذكياء . وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس (٣٩٩ ق . م) ، فحكم عليه بالموت بالطريقة الكريمة الوقورة التى كانت تتبعها أثينا فى ذلك الزمان ، بأن يتناول فى منزله الخاص وبين أصدقائه جرعة سامة من الشوكران ، بيد أن تكدير عقول الناس ظل قائماً على الرغم من تنفيذ الحكم فيه . وواصل تلاميذه الشبان أداء رسالته .

وكان أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م) من أعظم هؤلاء الشبان ، فشرع من فورهِ يعلم الفلسفة فى حديقة الأكاديمية . وينقسم تعليمه إلى شعبتين رئيسيتين :

(أ) اختبار أسس التفكير الإنسانى ومناهجه .

(ب) البحث فى النظم السياسية .

وهو أول من كتب كتاباً فى اليوتوبيا (الطوبى) ، أى رسم خطة لمجتمع يختلف عن أى مجتمع قائم ويكون أفضل منه ، وذلك أمر يرم عن جرأة ليس لها قبل ذلك من ضريب فى العقل الإنسانى الذى ظل حتى ذلك الحين يقبل التقاليد الاجتماعية والعرف المألوف ولا يكاد يقلب فيهما فكراً أو يبحثهما بسؤال واحد . قال أفلاطون الانسانية بصريح العبارة :

« إن معظم الأدواء الاجتماعية والسياسية التى منها تقاسون إنما هى أمور يسهل

عليكم التصرف فيها ، لو أنكم أوتيتهم الإرادة والشجاعة اللازمتين لتغييرها . فأنتم تستطيعون أن تعيشوا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثرتم أن تقتلوا الأمر تفكيراً وبحثاً وتكتشفوا بالدراسة كنهه ، فأنتم لا تشعرون بما تملكون من قوة » . ولا شك أن ذلك تعليم راق يدعو العقل إلى المخاطرة والمغامرة ، وأنه لم يتغلغل بعد بصورة عامة في فطنة جنسنا البشرى ولا بد لها من تنسبه . ومن أول مؤلفاته كتاب « الجمهورية » وهو كتاب يتخيل قيام حكومة أرستقراطية شيوعية ؛ فأما كتابه الأخير الذى لم يتمه فهو كتاب « القوانين » ، وهو يرسم خطة لتنظيم دولة مثالية (يوتوبية) مماثلة لتلك . وجاء أرسطو الذى كان تلميذاً لأفلاطون فواصل بعد وفاة أستاذه نقد مناهج التفكير وأساليب الحكم وكان يعلم فى الليسيوم . وفد أرسطاليس على أثينا من مدينة اسطاجيرا بمقدونيا ، وكان أبوه طبيباً لبلاط العاهل المقدونى ، وقضى أرسطاليس بعض الزمن معلماً للاسكندر ابن الملك الذى قدر له أن ينجز أعمالاً عظيمة جداً سنتكلم عنها قريباً وقد أدت جهود أرسطو فى مضمار مناهج التفكير وأساليبه إلى رفع علم المنطق إلى مستوى ظل ملازماً له مدة ألف وخمسمائة من السنين أو تزيد ، أى حتى عاد رجال العلم فى العصور الوسطى إلى تناول المسائل العتيقة من جديد ، لم ينشئ أية مدينة فاضلة (يوتوبيا) ، ذلك أن أفلاطون كان يرى أن الإنسان يستطيع أن يتصرف فى مصائره ؛ ولكن أرسطو كان يدرك أن الإنسان لا بد له قبل ذلك من قدر أعظم من المعرفة ، قدر من المعرفة الصحيحة المحققة أعظم كثيراً مما يملك ، ومن ثم شرع أرسطو يجمع تلك المجموعة المنظمة من المعرفة التى نسميها اليوم باسم « العلم » ، فأرسل المستكشفين ليجمعوا له الحقائق ، وهو أبو التاريخ الطبيعى ، وهو المؤسس لعلم السياسة ، وقام تلاميذ فى الليسيوم بفحص دساتير ١٥٨ دولة مختلفة ومقارنتها بعضها ببعض .

فنحن نجد هنا وفى القرن الرابع ق . م قوما ذوى تفكير عصرى أو يكاد ، لقد ولت طرائق الفكر البدائى الشبيهة بطرائق الأطفال والأحلام ، وحل محلها تناول مشكلات الحياة بطريقة منظمة ونقادة ، وهنا أيضاً حمل تماماً كل لجوء إلى الرمزية وكل التخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة والوحوش المعبودة ، كما تلغى جميع المحظورات (التابوهات) والخاوف والقيود ، التى ظلت تكبل حتى آنذاك تفكير الإنسان ، لقد ابتدأ التفكير الحر المضبوط المنظم ، إن الذهن الجديد الناشط غير المكبل بالقيود لهؤلاء الوافدين حديثاً من الغابات الشمالية ، قد ألقى بنفسه فى صميم خفايا المعبد وسمح لضوء النهار بالنفاذ إلى غيابتها .

الفصل السادس والعشرون

إمبراطورية الإسكندر الأكبر

ظلت حرب البيلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق . م وفي نفس الحين كانت مقدونيا تنهض تدريجيا ، وهي قطر يقع إلى الشمال من بلاد الإغريق ويرتبط بها ببعض صلات القربى والمشابهة ، وكان المقدونيون ينطقون بلسان وثيق القرابة باللسان الإغريقى ، وكثيرا ما اشترك المتبارون المقدونيون فى الألعاب الأولمبية ، وفى ٣٥٩ ق . م تولى عرش ذلك القطر الصغير رجل ذو كفايات ومطامع عظيمة جدا هو فيليب المقدونى ، وقد عاش فيليب شطرا من أيامه ببلاد الإغريق ، وكان فيها رهينة ؛ وتلقى تعليما إغريقيا بحتا ، ولعله كان ملما بأراء هيرودوت ، التى طورها ونماها الفيلسوف إيزوقراطيس ، والذى تقول بإمكان اضطلاع بلاد الإغريق — إذا اتحدت كلها — بفتح آسيا .

بدأ فيليب بتوسيع رقعة مملكته وتنظيمها وإعادة تكوين جيشه ، فقد مضت ألف سنة قبل ذلك الأوان ظلت فى أثناءها العجالة التى تقوم بالهجوم ، هى العامل الحاسم فى المعارك ، وذلك عدا الجنود المشاة المتراسة فى القتال ، وكان الفرسان يقاتلون أيضا ولكن بوصفهم سربا من المناوشين يعملون فرادى ودون نظام ، ولكن فيليب جعل جنده المشاة يهاجمون فى كتلة كثيفة متراسة تراصا شديدا ، هى الفيلق المقدونى ، كما درب وجهاء قومه الراكبة (وهم الفرسان أو الرفاق) على القتال فى تشكيلات ، وبذلك اخترع نظام الخيالة .

ومنذ ذلك الحين أصبح هجوم الخيالة أهم الحركات فى معظم معاركه ومعارك ابنه الإسكندر ، فكان الفيلق المقدونى يصد مشاة العدو على حين كانت الخيالة تبحث فرسان العدو فى الجناحين ثم تنثال على جانب مشاته ومؤخرتهم ، وكانت العجلات الحربية تصبح عاجزة بما يلقيه الرماة على خيولها من سهام .

وبهذا الجيش الجديد اخترق فيليب تساليا ومد حدوده إلى بلاد الإغريق ؛ حتى

إذا خاض معركة خيرونيا (٣٣٨ ق . م) مع أثينا وحلفائها ، أصبحت بلاد الإغريق كلها خاضعة له ، وبهذا أخذ حلم هيرودوت يؤتى ثماره في آخر الأمر ، واجتمع مؤتمر من جميع دول المدن الإغريقية فعين فيليب قائداً عاماً لاتحاد مقدوني إغريقى ضد فارس ؛ وفي ٣٣٦ ق . م عبرت فرقة الحرس الأمامى البحر إلى آسيا لتبدأ هذه المغامرة التى طال التفكير فيها ، ولسكن الملك لم يالحق ألبته ذلك الحرس ، لأنه اغتيل ؛ وكان ذلك فيما يعتقد به بعضهم بتحريض من زوجته الملكة أولمبياس أم الإسكندر . وذلك لتوقد نفسها بالنفيرة لأن فيليب تزوج من أخرى .

بيد أن فيليب عنى عناية فائقة بتربية ولده ، فلم يكتف بأن اتخذ من أرسطاليس أعظم فلاسفة عصره معلماً للغلام الصغير ، بل أشرك الصبي أيضاً في آرائه ودربه تدريباً عسكرياً تاماً ، فجعل الإسكندر قائداً للخيالة في معركة خيرونيا آنفة الذكر وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ، وبهذا تسنى لذلك الشاب الذى لم يزد عمره على العشرين ، يوم توليته العرش ، أن يتولى أعباء أبيه على الفور وأن يضطلع بالمغامرة الفارسية بنجاح .

ولكنه قضى سنتين كاملتين في تثبيت أقدامه في مقدونيا وبلاد الإغريق ، قضاها في إخماد ما شب ضده من الثورات ، ثم عبر البحر بجيشه إلى آسيا في ٣٣٤ ق . م وهزم جيشاً فارسياً لا يكبر جيشه كثيراً في معركة جرانيسكوس ، واستولى على عدد من المدن في آسيا الصغرى ؛ لزم الإسكندر ساحل البحر ، وكان من الضروري عليه أن يخضع كل المدن الساحلية كما تقدم في السير وأن يتركها للحاميات ، وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أساطيل صور وصيدا ، وبذا كانت لهم السيادة البحرية . فلو أنه ترك وراءه ميناء معاديا دون حامية تحرسه ، لجاز أن ينزل به الفرس قواتهم للاغارة على مواصلاته وقطع خط رجعتهم . والتقى قرب إسوس (٣٣٣ ق . م) بجمع هائل مخطط تحت قيادة دارا الثالث وهزمه هزيمة ساحقة .

وكان ذلك الجيش الهائل — شأن جيش إجزرسيديس الذى عبر الدردنيل قبل ذلك بقرن ونصف — جمعاً من المجندين غير متناسق ولا مترابط ، بهظه حشد كبير من موظفى البلاط فضلا عن حريم دارا وكثير ممن يتعقبون المعسكرات التماساً للرزق ، وسلمت صيدا للاسكندر ، ولكن صور قاومت بعناد ، وأخيرا فتحت تلك المدينة الكبيرة عنوة وانتهبت ثم دمرت ، وفتحت غزة أيضا عنوة ، وعند قرب نهاية ٣٣٢ ق . م دخل الفاتح مصر واستولى من الفرس على مقاليد حكمها .

وبنى الإسكندر مدينتي الإسكندرونة بالشام ، والإسكندرية بمصر في موقعين يمكن بلوغهما من البر ، وبذا تصبحان غير قادرتين على التمرد عليه . وإلى هذين المرفأين حوالت تجارة المدن الفينيقية . وهنا يختفى من التاريخ على حين بغتة فينيقيو الحوض الغربي للبحر المتوسط — وبنفس الطريقة الفجائية يظهر يهود الإسكندرية والمدن التجارية الأخرى التي شيدها الإسكندر .

وفي ٣٣١ ق . م تقدم الإسكندر من مصر بجيشه إلى بابل ، كما فعل من قبله تحوتمس ورمسيس ونخاو . بيد أنه سار بطريق صور . وعند أرييلا (إربل) بالقرب من أنقاض نينوى التي كانت قد عفى عليها آنذاك الفسيان . التقى بدارا في معركة حاسمة . وبات هجمة العجلات الفارسية بالفشل ، وحمل الخيالة المقدونيون على ذلك الجيش العظيم الخلط حملة بددت شمله ، وأحرز الفيلق بقية النصر . وتقهقر دارا بجيشه . ولم يحاول مقاومة المغير مرة أخرى ، بل فر شمالا إلى إقليم الميديين .

وواصل الإسكندر زحفه على بابل . وكانت لا تزال بلدا ثريا هاما ، ثم إلى سوسا (سوس) وپرسپوليس . وهناك أقام حفلا أديرت فيه الخمر ثم أمر في أعقابه بحرق قصر دارا ملك الملوك .

وما لبث الإسكندر بعد ذلك أن جعل من آسيا الوسطى ميديانا عسكريا لعرض جيشه على الأنظار ، وانطلق به إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الفارسية ، متجهاً باديء الأمر نحو الشمال ، وتعقب الإسكندر دارا ، حتى أدركه عند الفجر وهو يلفظ في عربته آخر أنفاسه ، بعد أن قتله شعبه ، وكان لا يزال على قيد الحياة عند ما وصل إليه جند المقدمة الإغريقية .

وجاء الإسكندر فوجده قد مات ، وسار الإسكندر بمحاذاة بحر قزوين ، وتوغل في جبال التركستان الغربية ثم انحدر إلى بلاد الهند بطريق هيرات (التي أسسها) وكابول وممر خير ، والتحم في معركة عظيمة على نهر السند مع ملك هندي اسمه بوروس ، وهنا التقت الجنود المقدونية بالفيلة لأول مرة ودحرتها ، وانتهى به الأمر إلى أن ابتلى لنفسه سفناً انحدر بها إلى مصب السند ، ثم عاد سيرا على الأقدام بحذاء ساحل بلوخستان ، حتى وصل إلى سوس مرة ثانية في ٣٢٤ ق . م بعد غيبة دامت ست سنوات ، وعند ذلك أخذ يستعد لتنظيم إمبراطوريته العظيمة وشد ما بين أجزائها من روابط ، فحاول أن يفوز بمحبة رعاياه الجدد ، بأن اتخذ ثياب العاهل الفارسي وتاجه ،

فأثار ذلك غيرة قواده المقدونيين الذين لقي منهم شراً كبيراً ، ثم عقد قران كثير من من الضباط المقدونيين بنساء فارسيات وبابليات ؛ وهو ما يسمى « بزواج الشرق والغرب » ، على أنه لم يعمر لينفذ الترابط الذي أعد عدته ، إذ انتابته حمى بعد ولية شراب أقامها في بابل فمات في ٣٢٣ ق . م .

وسرعان ما تمزقت إربا تلك الرقعة الهائلة من الأرض ، وقبض سلوقوس أحد قواده على معظم الإمبراطورية الفارسية من السند إلى إفيسوس ؛ واستولى على مصر قائد آخر هو بطليموس ، كما احتاز مقدونيا قائد آخر اسمه أنتيجوناس ، أما بقية الإمبراطورية فإنها رزحت في غمرات الفوضى وعدم الاستقرار ، وجعلت تنتقل إلى أيدي مجموعة متعاقبة من المغامرين المحليين ، وابتدأت غارات البرابرة من الشمال وأخذت تتسع مجالا وتزداد حدة ، حتى انتهى الأمر كما سنخبرك فيما بعد ، بظهور قوة جديدة هي قوة الجمهورية الرومانية التي جاءت من الغرب وأخذت تخضع الجزء منها تلو الجزء ، إلى أن ربطت بينها جميعاً في إمبراطورية جديدة أطول عمراً .

الفصل السابع والعشرون

متحف الإسكندرية ومكتبتها

كان الإغريق قبل عهد الإسكندر تجارا وفنانيين وموظفين وجنوداً مرتزقة ، ينتشرون في معظم الممتلكات الفارسية . وقد حدث في أثناء المنازعات التي قامت حول العرش بعد وفاة إجزرسييس ، أن فئة من مرتزقة الإغريق عدتها عشرة آلاف جندي لعبت دوراً تحت قيادة أكسينوفون (زينوفون) ، ولهذا القائد كتاب أسماء « تفهقر الآلاف العشرة » وهو من أوائل قصص الحروب التي كتبها قائد في أثناء توليه القيادة — يصف عودتهم من بابل إلى بلاد الإغريق الآسيوية . على أن غزوات الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته القصيرة الأجل بين قواده ، زادت كثيراً من انتشار الإغريق وانغمس وطرائقهم وثقافتهم في أرجاء العالم القديم ؛ فقد وجدت في مواطن نائية كبلاد آسيا الوسطى وشمال غربي الهند آثار تنم عن انتشار هؤلاء الإغريق بتلك الأصقاع . وكان تأثيرهم في تطور الفن الهندي عميقاً .

ظلت أثينا قروناً عديدة محتفظة بتفوقها كمركز للفنون والثقافة ؛ وبقيت مدارسها حية حتى ٥٢٩ م ، أي أنها عاشت ما يقارب الألف سنة ؛ ولكن زعامة النشاط الفكري في العالم ما لبثت أن انتقلت عبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية ، وهي المدينة التجارية الجديدة التي أسسها الإسكندر . وهنا كان القائد المقدوني بطليموس قد أصبح فرعوناً على مصر ، وجعل من حوله بلاطاً لغته الرسمية هي اليونانية . وكان صديقاً حميماً للإسكندر قبل توليه العرش ، كما كان متعمقاً في دراسة آراء أرسطو ، فأخذ يعمل على تنظيم المعرفة والبحث بهمة وإقتدار عظيمين . كما أنه ألف كتاباً عن حملات الإسكندر ، لم يعثر عليه لسوء الحظ .

وكان الإسكندر قد رصد مبالغ هائلة من المال للاتفاق معها على أبحاث أرسطو ، ولكن بطليموس الأول كان أول من حبس على العلم منحا وهبات مستديمة . فأقام

بالإسكندرية مؤسسة هي متحف الإسكندرية الذى خصص بصفة رسمية لربات الفنون Muses ، وانقضى جيلان أو ثلاثة كانت الأبحاث العلمية التى تجرى فى أثناءها بالإسكندرية ممتازة الجودة ، وظهرت هناك مجموعة خارقة من رواد العلم وعلماء الطبيعة ، من ألمع نجومها إقليدس وإراتوستينز الذى قاس حجم الأرض ووصل فى تقدير قطرها إلى نتيجة تقل عن قطرها الحقيقى بخمسين ميلا ، وأبولونيوس الذى ألف فى « القطاعات المخروطية » وهيبارخوس الذى رسم أول خريطة للسماء وصنف أقدم فهرس للنجوم ، وهيرون مخترع أول آلة بخارية ، وجاء أرشيدس من سيراقوزة إلى الإسكندرية ابتغاء الدراسة والبحث وكان دائب الاتصال بالمتحف ، وكان هيروفيلوس من أعظم علماء التشريح لدى الإغريق ويقال إنه مارس تشريح الأحياء .

وانقضى جيل أو ما يقارب ذلك حكم فى أثناءه بطليموس الأول والثانى ، وتأججت فيه المعرفة والاكتشاف بالإسكندرية جذوة لم يقدر للعالم أن يشهد لها ضربا حتى القرن السادس عشر الميلادى ، بيد أن تلك الحركة الفكرية لم تعمّر طويلا ، وربما اجتمعت على اضمحلالها أسباب عدة ، وعلى رأسها فيما يرى المرحوم الأستاذ ماهافى أن المتحف كان كلية ملكية ، وأن فرعون هو الذى يعين جميع أساتذتها ومساعدتهم ويدفع لهم أجورهم ، ولم يك فى ذلك أدنى ضير طالما كان ذلك الفرعون هو بطليموس الأول ، تلميذ أرسطو وصديقه .

ولكن أسرة البطالة تمصرت بمرور الزمن ، ووقعت تحت سلطان كهنة مصر والنظورات الدينية المصرية ، وكفوا عن موالاة ما كان يجرى من عمل ، ولم يلبث إشرافهم عليه أن خنق روح البحث والتقصى خنقا تاما ، لذلك لم ينتج المتحف بعد القرن الأول من نشاطه إلا القليل من الإنتاج الجيد .

ولم يقتصر بطليموس الأول على محاولة تنظيم الكشف عن ينابيع جديدة للمعرفة متوخيا فى ذلك روحا عصرية خالصة ، بل حاول كذلك أن ينشئ مكتبة الإسكندرية لتكون دارا موسوعية تجمع كل كنوز الحكمة . لم تكن المكتبة مجرد مستودع للمكتب ، بل كانت أيضا مؤسسة تتوفر على نسخ الكتب وبيعها ، فقد جرد حشد كبير من النساخ للعمل المتواصل مما أدى إلى مضاعفة إعداد الكتب ونسخها .

وعلى ذلك فإننا نجد فى هذه المؤسسة لأول مرة البداية الأولى المحددة للحركة

الفكرية التي نعيش فيها اليوم ؛ وفيها نجد المعرفة تتجمع وتوزع بطريقة منتظمة . فإنشاء هذا المتحف وهذه المكتبة يعد إيدانا ببدء إحدى الحقب العظيمة في تاريخ العالم . فهي البداية الحققة للتاريخ الحديث .

وكان يعترض طريق البحث العلمي ونشر العلم بين الناس عوائق خطيرة . منها تلك الهوة الاجتماعية السحيقة التي تفصل الفيلسوف — وهو سيد مهذب — عن التاجر والصانع . كان صناع الزجاج والمعادن في تلك الأيام كثيرى العدد ، ولكن لم يكن بينهم وبين المفكرين أى اتصال عقلى . فكان صانع الزجاج يصنع أجمل الخزف والقوارير وغيرها ألوانا ، بيد أنه لم يصنع ألبة قنينة فلورنسية ولا عدسة من العدسات . ولا يبدو أن الزجاج الصافي لقي منه اهتماما . وكان صناع المعادن يصنعون الأسلحة والمجوهرات ولكن أحدا منهم لم يصنع أبداً ميزاناً كيميائياً وفي نفس الوقت الذى أدام فيه الفلاسفة التأمل في ترفع حول الذرات وطبيعة الأشياء ، ولم تكن لهم خبرة عملية بالميناء ولا الأصباغ ولا أشربة توليد الحب إلى غير ذلك . لم يكن الواحد منهم يعنى بالمواد الطبيعية . ولذا فإن الإسكندرية لم تنتج يوم صنعت فرصتها الوجيزة ميكروسكوبا ولا كيمياء . ومع أن هيرون اخترع آلة بخارية ، فإنها لم تستعمل قط في رفع الماء أو في دفع قارب أو في عمل أى شئ نافع . وقل أن وجدت للعلم تطبيقات عملية اللهم إلا في مضمار الطب ، كما أن تقدم العلوم لم يكن يحفز ويحافظ عليه اهتمام القوم بالتطبيقات العملية ولا ما تحمده تلك التطبيقات من هزة في النفوس . لذا لم يكن هناك شئ يدعو إلى الاستمرار في العمل عند ما ولى بطليموس الأول والثانى وزال أثر حبهما للاستطلاع . ولذلك أبضاً دونت مستكشفات المتحف في مخطوطات خفية غامضة ، ولم تصل قط إلى الناس كافة ، حتى بحث حب الاستطلاع العلمى في عصر النهضة .

ولم تنتج المكتبة — من ناحية أخرى — أية تحسينات في صناعة الكتب . ولم يكن ذلك العالم القديم يصنع من عجينة الخرق ورقا له حجوم معروفة . ذلك أن الورق اختراع صينى لم يصل إلى العالم الغربى إلا في القرن التاسع الميلادى . وأما المواد الوحيدة المستعملة في صنع الكتب فهي الرق وسلخات (شقائق) قصب البردى الموصولة حروفها بعضها ببعض . وكانت هذه الشقائق تجعل في صورة ملفات . من أعسر الأمور فتحها ولفها للاطلاع عليها ، كما أنها متعبة جداً لكل باحث شاء الرجوع إليها .

تلك هي الموانع التي حالت دون نشأة الكتاب المطبوع ذي الصفحات . أما الطباعة نفسها فالظاهر أنها كانت معروفة في العالم ، منذ زمن مسحيق لعلة العصر الحجري القديم ؛ فقد وجدت الأختام في بلاد سومر العتيقة ، بيد أنه لم يكن لطبع الكتب أية ثمرة مالم يكثر الورق ، هذا عدا أن الطباعة تنطوى على تقدم لم يكن بد من أن يلقى المقاومة من نقابات العمال رعاية لمصالح النساخين المستخدمين في صناعة النسخ . وكانت الإسكندرية تنتج كتباً وفيرة ولكنها ليست بالرخيصة ، كما أنها لم تنشر المعرفة بتاتا بين سكان العالم القديم إلا في مستوى الطبقة الموسرة ذات النفوذ .

هكذا حدث أن شعلة التقدم الفكري لم تتجاوز قط دائرة ضيقة من الناس المتصلين بمجموعة الفلاسفة الذين جمعهم بطلميوس الأول والثاني . كان مثلها كمثل نور في مصباح معتم يحجب النور دون العالم كافة . وقد تكون الشعلة في الداخل وهاجبة تخطف الأبصار ، ولكنها مع ذلك مستورة لا تراها الأنظار . أما بقية أصقاع العالم فإنها سارت طرائقها القديمة دون أن تدري أنه قد بذرت بذرة المعرفة العلمية التي ستحدث فيه انقلاباً تاماً في يوم من الأيام . وسرعان ما غشيت الدنيا سحابة حالكة من التعصب الديني وغمرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها . ومر على تلك اللحظة من التاريخ ألف سنة من الظلام الدامس ، الذي غطى على البذرة التي بذرها أرسطو . ثم اهتزت وأخذت تنبت . وما هي إلا بضع قرون حتى غدت تلك البذرة دوحة المعرفة الفارعة وسدرة الأفكار الخالصة التي تغير اليوم وجه الحياة البشرية بأجمعها .

لم تكن الإسكندرية هي المركز الوحيد لنشاط اليونان الفكري في القرن الثالث ق . م . فإن بين الحطام المتداعية المتخلفة عن إمبراطورية الإسكندر القصيرة الأمد ، مدناً أخرى كثيرة سطعت فيها حياة فكرية وقادة . فهناك مثلاً مدينة سيراكوزة الإغريقية بصقلية ، التي ازدهر بها الفكر والعلم قرنين ؛ وثمة برجامة (برجاموم) بآسيا الصغرى ، التي كان لها هي أيضاً مكتبة عظيمة . بيد أن هذا العالم الهليني الوقاد الذكاء أصيب آنذاك بغارات أهل الشمال . فإن همجا نورديين جدداً هم « الغاليون » ، كانوا يسرون في نفس الطرق التي اخترقها يوماً ما أسلاف الإغريق والفريجيين والمقدونيين . كانوا يغيرون ويحطمون ويدمرون . وجاء في أعقاب الغاليين شعب فاتح جديد من إيطاليا هو الرومان ، الذين قاموا بالتدريج بإخضاع جميع النصف الغربي من مملكة دارا والإسكندر الهائلة . كانوا قوماً ذوي كفاءة واقتدار ، ولكنهم

محرومون من نعمة الخيال ، فهم يؤثرون القانون والمنفعة على كل من العلم والفن .
ونمة غزاة جدد كانوا ينحدرون من آسيا الوسطى ليدمروا الإمبراطورية السلوقية
ويخضعوها وليقطعوا مرة ثانية ما قام بين العالم الغربي وبلاد الهند من اتصال ، وكان
هؤلاء هم الأشغانيون (البارثيون) ، وهم أرهاط من رماة القسي الراكيين ، فعاملوا
إمبراطورية برسيبوليس وسوس الإغريقية الفارسية في القرن الثالث ق . م نفس المعاملة
التي عاملها بها الميديون والفرس في القرن السابع والسادس . وكان هناك عندئذ أقوام
آخرون من الرحل يأتون هم أيضاً من الشمال الشرقي ، ولم يكونوا قوما شقرا ولا
نورديين ولا ناطقين بالآرية ، بل كانوا ذوي جلود صفراء وشعور سوداء ولهم لغة
منغولية ، على أننا سنزيدك بهم بيانا في فصل تال .

الفصل الثامن والعشرون

حياة جوتاما بوذا

الآن ينبغي لنا أن نرجع بقصتنا ثلاثة قرون إلى الوراء لنحدثك عن معلم عظيم أو شك أن يحدث انقلاباً ثورياً في فكر آسيا بأجمعها ومشاعرها الدينية . ذلك المعلم هو جوتاما بوذا ، الذي كان يعلم تلاميذه في بنارس بالهند في نفس الوقت الذي كان أشعيا يتنبأ فيه بين اليهود في بابل ، والذي كان هيراقليطوس يواصل فيه تأملاته وأبحاثه الفكرية في طبيعة الأشياء بمدينة إفيسوس . كان هؤلاء الناس جميعاً يعيشون في العالم في وقت واحد في القرن السادس ق . م . دون أن يدري أحد منهم بوجود الآخرين .

والحق أن هذا القرن السادس ق . م من أجدد عصور التاريخ بالملاحظة . ففي كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة ، وذلك لأن هذه الحالة تفشت في بلاد الصين أيضاً كما سندلى إليك فيما بعد . وفي كل مكان ، كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الملكيات والكهان والقرايين ويسألون أشد الأسئلة تعمقا ونقاذا . وكأنما الجنس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة .

ولا يزال تاريخ الهند الأول غامضاً جداً . ففي زمن ما لعله يقارب عام ٢٠٠٠ ق . م هبط الهند من الشمال الغربي شعب ناطق بالآرية ، إما في غزوة واحدة وإما في سلسلة متعاقبة من الغزوات ، فاستطاع أن ينشر لغته وتقاليد فوق الشطر الأعظم من شمال الهند . وكان النوع الذي يتحدثون به من اللغة الآرية هو الفرع السنسكريتي . فوجدوا في إقليم السند والكنج شعباً أسمر أرقى حضارة وأضعف إرادة . ولكن لا يلوح أنهم اختلطوا بهذا الشعب بالكثرة التي تخالط بها الإغريق والفرس . فظلوا عنه معزولين . حتى إذا مرت الأيام أصبح ماضي الهند مرثياً للمؤرخ على غشاوة تغشيه ، وإذا بالجموع الهندي مقسم إلى طبقات كثيرة ، (مع عدد متغير من الأقسام الثانوية) ، لاتؤاكل بعضها بعضاً ولا تزوج ولا تختلط اختلاطاً حراً . وإذا بهذا التقسيم الطبقي إلى طبوائف يستعير

أمد التاريخ كله . وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخالف المجتمعات الأوربية والمغولية البسيطة السهلة الزواج ، فهم في الحقيقة مجتمع مجتمعات .

وكان سيداتا جوتاما أحداً أبناء عائلة أرستقراطية تحكم قاطعة صغيرة على منحدرات الهملايا . فتزوج وهو في التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة ، وكان يصطاد ويلهو ويتجول في عالمه المشمس المكون من الحدائق والأحراش وحقول الأرز المغمورة بالمياه ، وفيما هو ينعم بتلك الحياة حل به تدمير عظيم . كان ذلك هو شعور التعاسة الذي يحسه العقل الممتاز الذي يريد أن يعمل . ذلك أنه شعر أن الحياة التي يحياها لم تكن هي الحياة الحقة ، وأنه كان في عطفة — دامت أكثر مما ينبغي .

وتسلل إلى عقل جوتاما إحساس قوى بالمرض والفناء ، وبأن جميع أوان السعادة غير مأمونة وغير مرضية ، وبينما هو على تلك الحال التقى برجل من أولئك الزهاد المتجولين الذين يكثر وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه . كان هؤلاء الناس يتبعون في عيشهم قواعد قاسية ، ويقضون شطرا طويلا من وقتهم في التأمل والحوار الديني ، وكان المفروض أنهم يغفلون وراء أعماق ما في الحياة من حقائق ، واستولت على جوتاما رغبة حارة في احتذاء حذوهم .

وتقول القصة إنه كان يتفكر في هذا الأمر ، عندما بلغه أن زوجته وضعت بـ~~بكر~~ ابنائه . فقال جوتاما « وتلك رابطة أخرى لا مفر من نصمها » .

عاد إلى القرية بين تهاليل أبناء عشيرته ومظاهر ابتهاجهم ، وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات احتفالا بميلاد هذه الصلة الجديدة ، ولكن جوتاما استيقظ في موهن الليل والألم الروحي العظيم يلدع فؤاده ، « وكأنه رجل أبلغ نبأ اشتعال النار في منزله » فصمم على أن يهجر منذ تلك اللحظة حياته السعيدة التي لا هدف لها ، فتسلل إلى باب غرفة زوجته ، فرآها على نور قنديل زيت صغير وهي ترقد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور وبين ذراعها طفله الرضيع ، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويعانقه عنقا . يكون هو الأول والأخير قبل الرحيل ، ولكن خوفه من إيقاظ زوجته منعه من ذلك ، وأخيراً ولى ظهره وخرج إلى ضياء القمر الهندي الساطع وامتنطى جواده وانطلق إلى العالم .

سار في تلك الليلة شقة بعيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضى عشيرته ، وترجل على ضفة نهر رملية . وهناك قطع بسيفه ذوائبه المتهذلة ، وأماط عنه كل حلية وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله . ثم واصل سيره حتى التقى — للوقت — برجل في أسمال وتبادل وإياه الثياب ، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائق الدنيوية أصبح حراً في متابعة بحثه وراء الحكمة . واتجه جنوباً إلى مشوى للنساك والمعلمين يقوم على طنف (١) بين التلال بجبال الفندھيا . وهناك كان يعيش عدد من الحكماء في منطقة من الكهوف ، ويذهبون إلى المدينة طلباً لمستلزماتهم البسيطة ، ويدلون شفويًا بما لديهم من المعرفة لكل من يعنى بالحضور إليهم وأصبح جوتاما ضليعاً بكل علوم ما وراء الطبيعة في عصره . غير أن ذكاءه الوقاد لم يقنع بالجلول التي قدمت إليه .

والعقل الهندي ميال منذ القدم إلى الاعتقاد بأن القوة والمعرفة يمكن الحصول عليهما بالزهادة المفرطة أى بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس ، وهنا وضع جوتاما هذه الأفكار في بوتقة الاختبار ، فانطلق مع خمسة من رفاقه التلاميذ إلى الغابة ، وهناك استسلم للصيام ورهيب التفكيرات ، وطار صيته : « كرتين جرس عظيم معلق في قبة السماوات » ، بيد أن ذلك لم يجتلب له أى شعور بأنه فاز بالحقيقة ، وبينما هو يسير ذات يوم ذهاباً وجيئة ، محاولاً أن يفكر على الرغم مما هو عليه من وهن ، غاب عن وعيه فجأة . حتى إذا أفاق من غشيته ، نجلت أمام ناظره سخافة استخدام هذه الطرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة .

فالتقى الرعب في أفئدة رفاقه بطلبه الطعام العادى ورفضه مواصلة تعذيب نفسه ، ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل لبلوغ أية حقيقة هي العقل الجيد والتغذية في جسم سليم . وكانت مثل تلك الفكرة غريبة غرابة مطلقة على أفكار البلاد والعصر . فهجروه تلاميذه ، وذهبوا إلى بنارس في حالة حزن وقنوط . وأخذ جوتاما يتجول بمفرده . . .

والعقل عندما يصطرح مع مشكلة عظيمة ومعقدة ، فإنه يتقدم في سبيل الفوز خطوة في إثر خطوة ، دون أن يدرك إلا قليلاً قدر المكاسب التي أحرزها ، وإذا هو يدرك نصره

(١) الطنف : ما نتأ من الجبل .

ويحققه على حين بغتة مع إحساس بالاستنارة المفاجئة . وهذا هو ما حدث لجوتاما . فإنه جلس يتناول طعامه في ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار ، وإذا بهذا الشعور بالرؤية الصافية يحل به . فلاح له أنه يروى الحياة نقية واضحة . ويقال إنه جلس طيلة نهاره وليله في تفكير عميق ؛ ثم قام ليبلغ العالم رؤياه .

فذهب إلى بنارس وهناك جد في البحث عن تلاميذه الذين هجروه حتى وجدهم ، وأقنعهم ثانية بتعاليمه الجديدة . فشادوا لأنفسهم في حديقة الغزلان الملكية ببُنارس أكواخا وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة .

وكانت نقطة البداية في تعاليمه هي السؤال الذي وجهه لنفسه كشاب حالفه التوفيق : « لماذا لا أحس بسعادة تامة ؟ » وهو سؤال ينطوى على محاولة تعرف بواطن النفس . وهو سؤال يختلف اختلافا كبيرا في النوع عن حب الاستطلاع الصريح المنطوى على نسيان الذات والموجه نحو العالم الخارجى — حب الاستطلاع الذى كان طاليس وهيراقليطوس يحاولان به تفهم مشكلات الكون ، كما يختلف كثيراً عما يعادل ذلك من نسيان للذات يتجلى في صورة تحمل أعباء الالتزام الخلقى الذى كان أواخر الأنبياء يفرضونه في العقل العبرانى فرضاً .

فالمعلم الهندى لم ينس « النفس » ، بل لقد ركز على النفس اهتمامه وحاول أن يدمرها . وعلم الناس أن كل ما يقاسيه الفرد يعود إلى رغباته الشرهة . فحق يخضع المرء لنهماته الشخصية ، فحياته متاعب ونهايته شجن .

والتلطف على الحياة يتخذ أشكالا رئيسية ثلاثة كلهن شر . فأولها حب الشهوات والشراهة وجميع أنواع الإحساسات الجسدية ، وثانيها الرغبة في الخلود الشخصى والأنانى ، وثالثها التهافت على النجاح الشخصى وحب الدنيا والشح وما إليه . ولا بد من التغلب على أنواع هذه الرغبات التماسا للفرار من محن الحياة وأشجانها — فإذا تم قهرها واختفت النفس تماما ، بلغ المرء مرتبة « النرقانا » أى صفاء النفس وهى أعلى درجات الخير .

تلك خلاصة مذهبه . ولا شك في أنه مذهب خفى جداً وميتافيزيقى ، وهو لا يكاد يدانى في سهولة الفهم وصية الفلسفة الإغريقية التى تدعو الناس أن ينظروا ويعرفوا بلا

خوف وبالطريقة الصائبة ، ولا الوصية العبرانية الآمرة بخوف الله وإتيان البر ، كان تعليمها يعلو كثيراً على فهم تلاميذ جوتاما المتصلين به اتصالاً مباشراً . فلا عجب إذن أنه ما كاد نفوذه الشخصي يزول حتى داخل المذهب الفساد والغلط ، وكان أهل الهند يعتقدون في ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على فترات طويلة وأنها تتجسد في شخص مختار يسمى « البوذا » . وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا ، وأنه خاتم البوذوات ، وإن لم يبق أى دليل على أنه هو نفسه قبل اللقب ولم تؤكد تنقضى على وفاته فترة وجيزة ، حتى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تنتسج من حوله ، فإن من دأب القلب الإنسانى أن يفضل دائماً قصة تملؤه عجباً على جهد خلقى ومعنوى ، ولذا تحول جوتاما إلى أعجوبة مدهشة جداً .

ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جوهرى . فإن كانت « الزفانا » ألى وأدق من أن يتسامح إليها خيال معظم الناس ، وإذا كانت دوافع العقل البشرى إلى نسج الأساطير أقوى من أن تقف فى سبيلها حياة جوتاما وما بها من الحقائق البسيطة ، فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئاً من المقصود مما كان جوتاما يسميه باسم « الطريق ذى الشعب الثمانى » ، وهو الطريق الآرى أو النبيل فى الحياة . وهذا « الطريق » ينطوى على الإصرار على الاستقامة الذهنية ، وعلى الأهداف الصائبة والكلام الصائب وعلى السلوك الصائب والتعيش الشريف . وبفضله تم إنعاش الضمير وظهر اتجاه نحو الأهداف السكرية المنطوية على نسيان الذات .

الفصل التاسع والعشرون

الملك آسوكا

انقضت بضعة أجيال على وفاة جوتاما، ولسكن تلك التعاليم البوذية العالية النبيلة - أول التعاليم البسيطة القائلة بأن أعلى درجات الخير للإنسان هي في إخضاع النفس - لم يكتب لها إلا تقدم قليل نسبيا في العالم . ثم ما لبثت تلك التعاليم أن استوائت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم .

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الإسكندر الأكبر انحدر إلى بلاد الهند وقاتل، أسكنها « بوروس » على ضفاف نهر السند . ويروى مؤرخو الإغريق أن شخصا اسمه شاندر اجوبتا موريا وفد على معسكر الإسكندر وحاول أن يقنعه بأن يتقدم حتى نهر الكنج ويفتح بلاد الهند جميعا ، ولم يستطع الإسكندر أن يفعل ذلك لأن المقدونيين رفضوا أن يسيروا خطوة واحدة في غمرات عالم مجهول ، ثم تمكن شاندر اجوبتا فيما بعد (٣٢١ ق م) من الحصول على عون قبائل عديدة بمنطقة التلال وأن يحقق أحلامه دون مساعدة الإغريق . فأسس إمبراطورية في شمال الهند ، وسرعان ما تسنى له في (٣٠٣ ق م) أن يهاجم ممتلكات سلوقوس الأول بإقليم البنجاب وأن يزيل عن الهند آخر آثار الحكم الإغريقي ، وبسط ابنه رقعة هذه الإمبراطورية الجديدة ، ووجد حفيده « آسوكا » - وهو العاهل الذي نذكره عنه الآن - نفسه في ٢٦٤ ق م حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس .

وكان آسوكا ميالا في البداية إلى اتباع مثال أبيه وجده ، وأن يتم فتح شبه الجزيرة الهندية . فعزا كالينجا (٢٥٥ ق م) ، وهي إقليم على ساحل مدراس الشرقي ، وأوتى النصر في عملياته الحربية ، ولسكن بلغ من اشمزازة من قساوة الحروب وأهوالها أنه تخلى عنها ونبذها فكان بذلك نسيج وحده بين الفاتحين جميعا . وزهدت فيها نفسه تماما ، وتبنى مذهب البوذية السلمي ، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين فتوحا في ميادين الدين .

وكان حكمه الذى دام ثمانية وعشرين عاما من أزهى فترات الهدوء الجميلة فى تاريخ البشرية المضطرب . فقام بحركة عظيمة لحفر الآبار بالهند ، ولزراع الأشجار للتظليل . وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تربي فيها الأعشاب الطبية . وأنشأ وزارة للعناية بأهالى الهند الأصليين وأجناسها الخاضعة . واتخذ العدة اللازمة لتعليم النساء . وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ، وحاول أن يبعثهم على نقد المؤلفات الدينية المتكدسة لديهم نقدا أحسن وأفوى أثرا . ذلك أن المفسد والخزعات سرعان ما تجمعت حول التعاليم النقية البسيطة لذلك المعلم الهندى العظيم . وانطلقت البعوث الدينية من لدن آسوكا إلى كشمير وفارس وسيلان والإسكندرية .

ذاككم هو آسوكا ، أعظم الملوك كافة . كان سابقا لعصره بزمان بعيد جدا . ومن أسف أنه لم يخلف من ورائه أئيرا ولا هيئة من الرجال تواصل جهوده ، لذا لم تسكد تنقضى مائة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى مجيدة فى بلاد الهند التى عبثت بها أيدي التمزق والانحلال ، لقد كانت طائفة السكهان البرهمانية ، وهى أعلى طوائف المجتمع الهندى وأكثرها امتيازات ، مناهضة على الدوام لتعاليم بوذا الصريحة الكريمة . فراحوا يقوضون على التدرج نفوذ البوذية فى البلاد ، واستردت الآلهة القديمة البشعة سلطانتها ، وهى والعقائد الهندوكية التى لا عداد لها . وأصبح نظام الطوائف أشد قوة وأعظم تعقيدا . وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية إحداهما إلى جوار الأخرى ، أخذت البوذية تضمحل ببطء ، وأخذت البرهمانية تحل محلها متخذة عددا كبيرا من الصور والأشكال . بيد أن البوذية انتشرت خارج حدود الهند بعيدا عن سلطان نظام الطوائف - حتى اجتذبت إليها بلاد الصين وسيام وبورما واليابان ، وهى بلاد لا تبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم .

الفصل الثاني

كونفوشيوس ولاهوتسى

بقى علينا الآن أن نحدثك عن رجلين عظيمين آخرين هما كونفوشيوس ولاهوتسى (لاوتسى) ، اللذان كانا يعيشان فى ذلك القرن المدهش الذى ابتدأ به رشد الإنسانية ، وأعنى به القرن السادس ق . م .

ونحن فى كتابنا هذا لم ندل إلى الآن إلا بطرف يسير عن قصة بلاد الصين فى عهودها الأولى . ولا يزال الغموض يغطى إلى اليوم ذلك التاريخ الباكر ، وإنا لنشخص الآن بأبصارنا إلى الباحثين وعلماء الآثار ببلاد الصين الحديثة التى تنشأ الآن نشأة جديدة راجين أن يميظوا اللثام عن ماضيهم بنفس الاستقصاء الذى كشف به اللثام عن ماضى أوروبا إبان القرن الأخير .

نشأت أوائل الحضارات الصينية البدائية فى وديان الأنهار العظيمة منذ زمن سحيق جداً متفرعة عن الثقافة الشمسية الحجرية (الهليوليثية) الأولية . وكما حدث بمصر وسومر ، كانت لتلك الحضارات نفس الخصائص العامة التى اتسمت بها تلك الثقافة ، كما أنها تتركز حول المعابد التى كان الكهنة والملوك الكهان يتولون فيها تقديم القرابين الدموية الموسمية . ولا بد أن الحياة فى هذه المدن كانت شبيهة جداً بالحياة المصرية والسومرية قبل ستة أو سبعة آلاف من السنين ، كما أنها شبيهة جداً بحياة المايا بأمريكا الوسطى قبل ألف عام .

فلئن كانت هناك فعلاً قرابين إنسانية ، فقد حل مكانها من زمن بعيد القرابين الحيوانية قبل تنفس فجر التاريخ . كما أن ضرباً من السكتابة بالصور أخذ يتكون قبل عام ١٠٠٠ ق . م بعهد بعيد .

وكما أن الحضارات البدائية فى أوروبا وآسيا الصغرى كانت فى كفاح مع مترحلة الصحراء ورحل الشمال ، فكذلك نكبت الحضارات الصينية البدائية بتجمعات ضخمة من الشعوب المترحلة الضاربة على حدودها الشمالية . وكان هناك عدد من القبائل المتماثلة

الصين أن تلك البلاد كانت لها هي الأخرى مدن قامت بأدوار كالتى لعبتها ميلتيوس (مليطة) وأثينا وبرجامة ومقدونيا . لذا فإننا سنلزم الإيجاز والغموض فى الوقت الحاضر فى حديثنا عن فترة الانقسام الصينى هذه ، وذلك لأن ما لدينا من المعلومات لا يكفى لصوغ قصة متماسكة الحلقات حسنة التسلسل .

وكما أن بلاد اليونان المنقسمة على نفسها ظهر فيها الفلاسفة ، كما نشأ فى اليهودية المخطمة المأسورة الأنبياء ، كذلك نشأ فى الصين المختلة النظام الفلاسفة والمعلمون فى ذلك الأوان . وفى كل هذه الحالات يلوح أن عدم الاطمئنان والحيرة قد بعثت أحسن العقول إلى العمل الناشط . كان كونفوشيوس رجلاً أرسقراطى الأصل تولى بعض المناصب الهامة بمقاطعة صغيرة اسمها « لو » . وهنا أملت به حالة شديدة المائلة للنزعة العقلية الإغريقية ، فأقام ضرباً من الأكاديمية لاستكشاف الحكمة وتعليمها . وقد أحزنه كثيراً ما يخشى الصين من فوضى وخروج على القانون ، فاخترت لنفسه صورة مثل أعلى لحكومة أحسن وحياة أفضل ، وأخذ يتنقل من ولاية إلى أخرى باحثاً عن أمير يأخذ بفكراته فى التشريع والتعليم وينفذها . واسكنه لم يعثر قط على ذلك الأمير؛ أجل إنه وجد أميراً ، واسكن مؤامرات رجال البلاط قوضت سلطان المعلم عليه وتغلبت فى النهاية على مشروعاته الإصلاحية . ومن الشائق أن نذكر أن الفيلسوف اليونانى أفلاطون كان يبحث هو أيضاً عن أمير بعد ذلك بقرن ونصف ، وأنه اشتغل ردحا من الزمان بمشاورة للطاغية ديونيسيوس الذى كان يحكم سيراقوزه بصقلية .

مات كونفوشيوس محطماً الآمال ، قال : « لم ينهض حاكم ذكى الفؤاد ليتخذنى أستاذاً له ، وها قد حانت منيتى » ، بيد أن تعليمه كان به من الحيوية قدر أعظم مما كان يتصوره إبان سنى شيخوخته وتحطم رجائه ، فصارت تعاليمه ذات أثر عظيم فى تكوين الشعب الصينى ، إذ أصبحت إحدى « التعاليم الثلاثة » — على حد قول الصينيين — والضربان الآخران هما تعليماً بوذا ولاهوتسى .

ويتلخص مذهب كونفوشيوس فى طريقة عيش الرجل النبيل أو الأرسقراطى ، فإنه شغل بسلوك الشخص انشغال جوتاماً بالسلام الراجع إلى نسيان النفس ، والانشغال الإغريق بمعرفة العالم الخارجى ، واليهود بالبر والصلاح ، كانت أعظم المعلمين الكبار اهتماماً بالشئون العامة ، وكان يهتم إلى أقصى حد باضطراب أحوال العالم وتعاساته ، كما أنه كان يريد أن يجعل الناس نبلاء رغبة منه فى إيجاد عالم نبيل ، لذا حاول أن ينظم

السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف ، وأن يدبر القواعد السليمة لكل مناسبة من مناسبات الحياة . وكانت صورة السيد المذهب الذى يهتم بالشئون العامة والذى يكاد يأخذ نفسه بالتأديب الصارم ، هى المثل الأعلى الذى وجدته يتطور فى عالم الصين الشمالية والذى أضفى عليه الهيئة الثابتة الدائمة .

وكان مذهب لاهوتسى أحفل بالتصوف والغموض والتعايل من مذهب كونفوشيوس . وقد شغل لاهوتسى زمنا طويلا منصب أمين المكتبة الإمبراطورية ، والظاهر أنه كان يدعو دعوة الرواقين من حيث عدم الاهتمام بمسرات الدنيا وضروب السلطان فيها ، كما كان يبشر فى الناس بضرورة العودة إلى حياة بسيطة قديمة توهمها خياله ، وقد ترك كتابات أسلوبها شديد الاقتضاب كما أنها غامضة جداً . كان يكتب فى الغاز . وبعد وفاته أفسدت تعاليمه كما أفسد مذهب بوذا من قبله ، وتغشتها الأساطير ، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيداً وخروجاً على المألوف .

وحدث فى الصين مثلما حدث فى الهند بالضبط ، أن نشطت فكرات السحر البدائية ، وتحركت الأساطير البشعة التى ظهرت فى ماضى طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد فى العالم ، ونجحت فى أن تسدل عليه ستاراً سابلًا من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية . وكل من البوذية والتاوية (التى تنسب نفسها إلى حشد كبير إلى لاهوتسى) ، كما نجدهما اليوم ببلاد الصين ، ديانة راهب ومعبد وكاهن وتقريب قرايين ؛ ديانة قديمة الطراز شكلا إن لم تكن كذلك فكراً وموضوعاً كديانات القرايين بسومر القديمة ومصر ؛ على أن مذهب كونفوشيوس لم يلق مثل تلك الإضافات لأنه كان مذهباً محدوداً وواضحاً ومستقيماً المنهج ، كما أن طبيعته لم تكن تسمح له بقبول مثل تلك التشويهات .

وأصبح شمال الصين ، أى جزؤها الذى يخرقه نهر هوانج هو كونفوشيا فى فكره وروحه ، وغدت الصين الجنوبية التى يخرقها نهر اليانج تسي كيانج ، تاوية المذهب والعقيدة . ومنذ تلك الأيام يمكن تتبع آثار الصراع الذى شجر بالصين بين هاتين النزعتين: نزعة الشمال ونزعة الجنوب ، أى بين بيكين ونانكين (فيما عقب ذلك من أيام) ، بين الشمال المستقيم المحافظ صاحب عقلية الموظفين ، وبين الجنوب المتشكك الميال إلى الفنون والتراخي والتجريب .

وبلغت انقسامات الصين في أثناء عصر الفوضى أسوأ مراحلها في القرن السادس ق.م، وبلغ من ضعف أسرة تشاو وحطة شأنها ، أن اضطر لاهوتسى إلى ترك بلاطها التعس وإلى التقاعد .

وتسلطت على البلاد في تلك الأيام ثلاث دول تدين بتبعية اسمية للإمبراطور ، هي « تسى » و « تسئن » وهما دولتان شماليتان ، و « تشوئو » التي كانت دولة عسكرية مiale إلى العدوان في وادى اليانج تسي . وأخيرا كونت تسى حلفا مع تسئن ، وأخضعتا تشوئو وفرصتا في البلاد معاهدة عامة تقضى بالسلام ونزع السلاح . وما لبثت قوة تسئن أن صارت هي الغالبة . وانتهى الأمر في زمان يقارب عهد آسوكا بالهند بأن استولى عاهل تسئن على أوعية القربان التي للإمبراطور أسرة تشاو ، واضطلع بواجباته القربانية . ومدونات التاريخ الصينى تسمى ابنه شى هوانج تى (الذى أصبح ملكا ٢٤٦ ق . م وإمبراطورا في ٢٢٠ ق . م) باسم « الإمبراطور العام الأول » .

وكان شى هوانج تى أسعد حظا من الإسكندر لأنه حكم ستة وثلاثين عاما قضاها ملكا وإمبراطورا ويؤذن حكمه الحافل بالنشاط والاقتدار ببداية حقبة جديدة من الوحدة والرخاء للشعب الصينى . فإنه قاتل الهون المغيرين من الصحارى الشمالية أشد القتال ، كما أنه بدأ ذلك العمل الهائل ، وأعفى به سور الصين العظيم ، ليعد من اعتداءاتهم .

الفصل الحادى والثلاثون

ظهور روما

على مسرح التاريخ

سيلمحظ القارىء تماثلا عاما فى تاريخ هذه الحضارات ، على الرغم مما بينها من التباعد الواقعى الناجم عن الحواجز العظيمة بتخوم الهند الشمالية الغربية والكتل الجبلية بآسيا الوسطى وأقاصى الهند وقد انتشرت الثقافة الشمسية الحجرية (الهليوليثية) أولا وفى مدى آلاف من السنين بجميع وديان الأنهار الدفيئة الخصبة بالعالم القديم ، وأنتجت حول قرابينها التقليدية نظاما قوامه المعبد والسكان والحاكم .

وواضح أن أول من كون تلك الثقافة كانوا دائما هم أولئك الشعوب السمرات الذين قلنا إنهم هم الجنس البشرى المركزى . ثم هبط بأرضها المترحلة من أقاليم الحشائش الموسمية والمهجرات الموسمية ، ففرضوا خصائصهم بل حتى لغتهم أحيانا على الحضارة البدائية . وحدث التفاعل بين الطرفين ؛ فإنهم أخضعوها ونهبوها ، وحفزتهم هى بدورها إلى إحداث تطورات جديدة ، حتى لقد تنوعت الحضارة فصارت هنا شيئا وهناك شيئا آخر .

أما أرض الجزيرة فإن العيلاميين ومن بعدهم الساميين ، وأخيرا النورديين من الميديين والفرس والإغريق هم الذين قدموا بها خنائرا الحفز والتنبية ، وأما منطقة الشعوب الإيجية فالإغريق فيها هم الحافظ المنبه ، وكان الحافظ الذى أنعش الهند هو أصحاب اللسان الآرى ، أما مصر فكان اندماج الغزاة فيها أضعف بسبب شدة ارتباط حضارتها بالكهانة والكهان ؛ أما الصين فكان الهون يغزونها فتحتصمهم ثم يعقبهم هون جدد . وصبغت الصين بالصبغة المغولية كما صبغت بلاد الإغريق وشمال الهند باللون الآرى ، وكما انطبع الطابع السامى ثم الآرى على أرض الجزيرة ، وكان المترحلة يدمرون حيث يحلون تدميرا عظيما ، بيد أنهم كانوا حيث حلوا يدخلون روحا جديدة من البحث الحر والابتداع الخلقى ، راحوا يمتحنون معتقدات العصور السحيقة ؛ فأدخلوا ضوء النهار إلى ظلمات المعبد ، وأقاموا ملوكا لم يكونوا كهنة ولا آلهة بل مجرد زعماء لقرادهم ورفاقهم .

وإنا لنجد في كل مكان إبان القرون التي أعقبت القرن السادس ق . م أن التقاليد العتيقة أصيبت إصابة مميتة ، وأن روحا جديدة من البحث الخلقى والذهنى قد استيقظت ، وهى روح لم يتيسر لأحد بعد ذلك أن يجمعها تماما فى خضم التقدم البشرى العظيم . فالقراءة والكتابة تصيران تحصيليا عاديا سهل المنال لدى الأقلية الحاكمة الموسرة ، ولم تعودا بعد ذلك سرأ يحتفظ بها الكاهن فى حرص واستئثار ، ويزيد إقبال الناس على السفر ويصبح النقل أسهل وأيسر بما تهيأ للناس من خيل وطرق ممهدة . وظهرت العملة المسكوكة فكانت وسيلة جديدة سهلة لتسهيل التجارة .

وسننقل الآن بؤرة اهتمامنا من الصين فى أقصى شرق العالم القديم إلى النصف الغربى من البحر المتوسط . وهنا نجد لزما علينا أن نسجل ظهور مدينة قدر لها أن تلعب فى النهاية دوراً عظيماً فى الشؤون الإنسانية : ألاهى مدينة روما .

لم نحدثك حتى الآن فى قصتنا هذه إلا بالنذر اليسير عن إيطاليا . كانت قبل ١٠٠٠ ق . م أرض جبال وغابات قليلة السكان . وقد زحفت قبائل ناطقة بالآرية فى شبه الجزيرة وأنشأت مدناً وبلدانا صغيرة ، كما أن طرفها الجنوبى كانت تنتثر عليه المستعمرات الإغريقية . ولاتزال الأطلال الفاخرة لمدينة بايستم تحتفظ لنا إلى يومنا هذا بشيء من الأبهة والجلال التى كانت لتلك المؤسسات الإغريقية الباكورة . وكان شعب غير آرى ، لعله من ذوى قربى الشعوب الإيجية ، وأعنى به الإترسك ، وطد قدمه فى الجزء الأوسط من شبه الجزيرة . وقد عكسوا هنا الآية المعتادة بأن أخضعوا لنفوذهم قبائل آرية متنوعة . وعندما تظاهر روما فى ضياء التاريخ ، تكون بلدة تجارية صغيرة واقعة إلى جوار مخاضة على نهر التير ، وسكانها قوم ناطقون بالآرية يحكمهم ملوك من الإترسك ، والتوارينج القديمة تجعل عام ٧٥٣ ق . م بدءا لتأسيس روما ، أى بعد تأسيس قرطاجنة المدينة الفينيقية العظيمة بنصف قرن ، وبعد إقامة أول حفل للألعاب الأولمبية بثلاثة وعشرين عاماً ، ولسكن الحفر فى السوق (الفوروم الرومانى) كشف مع ذلك عن قبور إترسكية ترجع إلى عهد أبعد كثيراً من ٧٥٣ ق . م .

وفى هذا القرن السعيد الحافل بالذكريات ، وهو القرن السادس ق . م ، طرد ملوك الإترسك (٥١٠ ق . م) وأصبحت روما جمهورية أرستقراطية ، بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فىمن عداها من عامة الشعب (البلييان) ،

ولولا ما كانت تنطق به من لسان لاثني ، ما شعر أحد بفارق بينها وبين كثير من الجمهوريات الإغريقية الأرستقراطية .

وظل تاريخ روما الداخلى بضعة قرون وهو قصة كفاح مديد عنيد قام به العامة مطالبين بالحركة ونصيب فى الحكم ولو استعرضنا تاريخ الإغريق لما عسر علينا أن نجد حالات مماثلة لهذا الصراع ، ولوجدنا الإغريق يسمونها الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية . وانتهى الأمر بأن حطم العامة (البليبيان) معظم ما كان للعائلات القديمة من امتيازات ، وتساووا معهم مساواة واقعية . ففقدوا على اعتزال البطارقة القديم وجعلوا من الميسور والمقبول لروما أن توسع « مواطنيتها » بحيث تشمل عدداً متزايداً من « الغرباء » . ذلك أنها ظلت ردحاً من الزمان تسكافح فى الداخل ، على حين كانت تمتد سلطانها فى الخارج .

وشرع الرومان يسيطون ساطانهم فى القرن الخامس ق . م وكانوا حتى ذلك الحين فى حروب دائمة مع الإترسك كانت تنتهى بالإخفاق على وجه العموم ، وكانت هناك على بضعة أميال من روما ، قلعة إترسكية ، هى قلعة فياى ، التى لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها . على أن الإترسك حلت بهم فى ٤٧٤ ق . م نكبة جاثمة ؛ إذ دمر إغريق سيراقوزة بصقلية أسطوهم .

وفى نفس الوقت هبطت عليهم من الشمال موجة من المغيرين النورديين ، هى موجة الغالة . فلما وقع الإترسك بين الرومان والغالة ، سقطت دولتهم واختفوا من التاريخ . واستولى الرومان على فياى . وتقدم الغالة إلى روما وانتهبوا المدينة (٣٩٠ ق . م) . بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا السكابييتول . فإن صياح الأوز كشف عن محاولة الغالة القيام بهجوم ليلى مباغت ، وانتهى الأمر بأن افتدى الرومان أنفسهم وحريتهم بالمال ، وتراجع الغالة إلى شمالى إيطاليا .

ويلوح أن غارة الغالة قد عادت على روما بالقوة لا بالضعف . فإن الرومان غلبوا على الإترسك وتمثلوهم ، ومدوا سلطانهم على كل إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى نابلى . وقد بلغوا هذه البسطة فى السلطان قبيل عام ٣٠٠ ق . م بضع سنوات ، وكانت فتوحهم فى إيطاليا تحدث فى نفس الأيام التى تم فيها نمو قوة فيليب فى مقدونيا وبلاد اليونان ، وغارة الإسكندر الهائلة على مصر وبلاد السند . ولما تمزقت إمبراطورية

الإسكندر ، كان الرومان قد أصبحوا شعباً تملأ شهرته العالم الممدد إلى الشرق من بلادهم .

وكان الغالة ينزلون إلى الشمال من دولة الرومان ؛ على حين تنأثرت إلى الجنوب منهم مستعمرات الإغريق المنشأة بماجنا جريكيا ؛ وأعنى بذلك جزيرة صقلية ومقدم حذاء إيطاليا وكعبها . وكان الغالة شعباً حربياً شديداً المراس ، حافظ الرومان على حدودهم معهم بخط من القلاع والمستعمرات المحصنة . فأما المدن الإغريقية في الجنوب وعلى رأسها تارنتم (وهي مدينة تارانتو الحديثة) وسيراكوزة . فلم تكن تهدد الرومان قدر ما كانت تخافهم وتخشى بأسهم ، وكانت تتلفت من حولها تلتحس ناصراً يعينها على هؤلاء الغزاة الجدد .

وقد سبق أن ذكرنا كيف تمزقت إمبراطورية الإسكندر إرباً عند وفاته وكيف تقسمها قواده ورفاقه . وكان بين هؤلاء المغارين أمير من ذوى قرابة الإسكندر اسمه بيروس ، وطد ملكه في إبيروس ، وهي وراء البحر الإديرياتي قبالة كعب إيطاليا ، وكان يطمع في أن يلعب من « الماجانريكيا » دور فيليب المقدوني معها ، وأن يصبح حامياً وسيداً عاماً لمدينة تارنتم وسيراكوزة وباقي ذلك الجزء من العالم .

وكان لديه جيش كان يعد في زمانه جيشاً عسرياً عظيم الكفاية ؛ كان لديه فيلق من المشاة وكتيبة راكبة من تساليا ، كانت آنذاك تضارع في كفايتها الخيالة المقدونية الأصلية ، وثم خمسة وعشرون فيلًا مقاتلاً ، فغزا إيطاليا وبدشمل الرومان في موقعتين عظيمتين إحداها معركة هراقليا (٢٨٠ ق م) والثانية أوسكولم (٢٧٩ ق م) . ولما تم له دفعهم نحو الشمال وجه اهتمامه إلى إخضاع صقلية .

بيد أن هذا جلب عليه عدواً كان في ذلك الحين أروع جانباً من الرومان ، وهو مدينة قرطاجنة الفينيقية التجارية التي لعلها كانت آنذاك أعظم مدن العالم ، إذ كانت صقلية قريبة من القرطاجيين قرباً لا يستطيعون معه أن يرحبوا بمقدم إسكندر آخر جديد إليها ، كما أن قرطاجنة كانت لا تزال تذكر المصير الذي حل بأمهاصور قبل ذلك بنصف قرن ؛ لذلك أرسلت أسطولا يشجع روما — أو يرغمها — على مواصلة الكفاح ، كما قطعت مواصلات بيروس ، فوجد الرومان يهاجمونه من جديد ، ويحطمون بعنف ساحق هجوماً قام به على معسكرهم في بنفتم بين نابلي وروما .

وعلى حين بغتة وردت إليه أنباء اضطرتة للعودة إلى إبيروس . فإن الغالة أخذوا يغرون من الشمال إلى الجنوب كمعادتهم . ولكنهم لم يكونوا يغرون في هذه المرة على بلاد إيطاليا ؛ إذ كانت التخوم الرومانية القوية التحصين والحراسمة ، أمتنع من أن يستطيعوا لها اختراقا . لذا كانوا يغرون الآن جنوبا مخترقين إليريا (وهى الآن ألبانيا وبلاد الصرب) إلى مقدونيا وإبيروس . وتخلي بيروس عن أطماعه في الفتح وعاد إلى بلاده (٢٧٥ ق . م) بعد أن صده الرومان . وأحرق به في البحر خطر القرطاجيين ، وهدد الغالة بلاده ، على حين خلا الجو لروما فبسطت سلطانها حتى مضيق مسينا .

وكانت تقوم على الجانب الصقلي من المضيق مدينة مسينا الإغريقية ، وسرعان ما وقعت هذه البلدة في قبضة جماعة من القراصنة . وكان القرطاجيون من قبل ذلك سادة صقلية أو يكادون ، كما كانوا حلفاء لسيراقوزة ، فسكان من الطبيعي أن ينهضوا للقضاء على القراصنة (٢٧٠ ق . م) وأن يضعوا في المدينة حامية قرطاجية . ولجأ القراصنة إلى روما يلتمسون العون منها ، وأصغت روما لشكايتهم . وهكذا التقت دولة قرطاجنة التجارية العظيمة من وراء مضيق مسينا بذلك الشعب الفاتح الجديد : الرومان ، وأخذا يتبادلان نظرات العداوة والبغضاء .

الفصل الثاني والثلاثون

بين روما وقرطاجنة

كانت سنة ٢٦٤ هـ السنة التي ابتداء فيها الكفاح العظيم بين روما وقرطاجنة ، وهو الذي يسمى باسم الحروب البونية . وفي تلك السنة كان آسوكا يستهل حكمه في بهار ، وكان شى هوأنجى طفلا صغيرا ، وكان متحف الإسكندرية لا يفتأ ينتج إنتاجا علميا لا بأس به ، كما كان الغالة البرابرة قد حلوا عند ذاك في آسيا الصغرى وأخذوا يفرضون الجزية على برجامة .

وكانت أقطار الأرض المختلفة لاتزال تفصلها بعضها عن بعض مسافات مترامية لا سبيل إلى التغلب عليها ، ولعل بقية الإنسانية لم تكن تسمع إلا الشائعات الغامضة المقتضبة عن ذلك القتال الفتاك الذي دارت رحاه قرنا ونصفا في إسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقيا والبحر المتوسط الغربى ، ذلك القتال الذى نشب بين آخر معقل لقوة الساميين وبين روما الوافد الجديد بين الشعوب الناطقة بالآرية .

وقد تركت تلك الحرب آثارها فى مساءى لاتزال تحرك العالم إلى اليوم . أجل إن روما انتصرت على قرطاجنة ، بيد أن التنافس بين الآرى والسامى كتب له أن يندرج فيما بعد تحت الكفاح الذى نشب بين غير اليهودى واليهودى .

وأخذ ركب التاريخ يقترب الآن من أحداث لاتزال عواقبها وتقاليدها المشوهة تحتفظ فى منازعات اليوم وخصوماته بثالة ضئيلة من حيوية تلفظ آخر أنفاسها ، كما أن لها على تلك المنازعات سلطانا يعود عليها بالتعقيد والاضطراب .

ابتدأت الحرب البونية الأولى فى ٢٦٤ ق . م بسبب قراصنة مسينا ، وتطورت إلى كفاح على امتلاك صقلية بأجمعها عدا ممتلكات ملك سيراقوزه الإغريقى . وكان للقرطاجيين التفوق البحرى فى مبدأ الأمر . فكانت لهم سفائن حربية كبيرة لم

يسمع حق ذلك الحين بمثل حجمها ، وهى الخناصيات أى السفن ذات الصفوف الخمسة من المجاديف والسكبش الضخم^(١) . وكانت أعظم السفن فى معركة سلاميس ، قبل ذلك بقرنين من الزمان ، هى الثلاثات ، وليس لها إلا ثلاثة صفوف . ولكن الرومان نصبوا أنفسهم بهمة خارقة على الرغم من قلة درايتهم بالأمور البحرية - للتفوق على ما ينتجه القرطاجيون من سفن . وكانوا يستخدمون بحارة من الإغريق فى تسير الأساطيل الجديدة التى أنشأوها ، ولكى يعوضوا أنفسهم عما عليه العدو من تفوق فى الملاحاة ، اخترعوا طريقة إمساك سفن الأعداء بالكبايش (بالكلابات) واعتلائها ، فإذا أقبل القرطاجيون لصك مجاديف الرومان بالسكباش أو قطعها ، تعلقت كبايش ضخمة من الحديد بسفنهم ، وتزاحم الجند الرومان إلى ظهورها زرافات . فهزم القرطاجيون فى كل من ميلادى (٢٦٠ ق . م) وإيكونوهادس (٢٥٦ ق . م) هزيمة ساحقة . ثم صدوا الرومان وحالوا بينهم وبين النزول على البر بالقرب من قرطاجنة ، ولكنهم هُزموا هزيمة منكرة قرب بالرمو ، حيث خسروا مائة وأربعة من الفيلة - وأخذها الرومان وجعلوها زينة لموكب نصر عظيم اخترق الفوروم لم تر روما له من قبل نظيرا . ولكن الرومان عادوا بعد ذلك فهزموا مرتين ثم جددوا قوتهم ثانية ، وما لبثوا أن بذلوا آخر ما لديهم من جهد فهزمت آخر قوات قرطاجنة البحرية فى معركة الجزائر الأيجاتية (٢٤١ ق . م) ، ومن ثم طلبت قرطاجنة الصلح . وتخلت للرومان عن صقلية بأكملها فيما عدا ممتلكات هيرون ملك سيراكوزة .

وحافظت كل من روما وقرطاجنة على ذلك الصلح اثنين وعشرين عاما ، إذ كان لسكل منهما من المشكلات الداخلية ما يشغله . فإن الغالة انحدروا جنوبا فى إيطاليا مرة ثانية وهددوا روما - (فحملها الهلع على تقديم القرابين البشرية للآلهة) - ثم دحروا وبدد شملهم فى معركة تيلامون . وعندئذ تقدمت روما قدماً إلى جبال الألب ، بل تجاوزتها ومدت سلطانها جنوبا بحذاء ساحل البحر الإدرى حتى إليريا ، وكادت قرطاجنة الأهوال مما كان بها من ثورات داخلية ومما حدث فى قورسيقة وسردينية^١ من فتن ، على أنها لم تبلغ ما بلغته روما من قدرة على علاج الأمور ، وأخيرا ، استولت روما على الجزيرتين وألحقتهما بها ، وهو عمل عدوانى لا يطاق .

وفى ذلك الأوان كانت إسبانيا حتى نهر إبرو شمالا تابعة لقرطاجنة ، إذ حرم

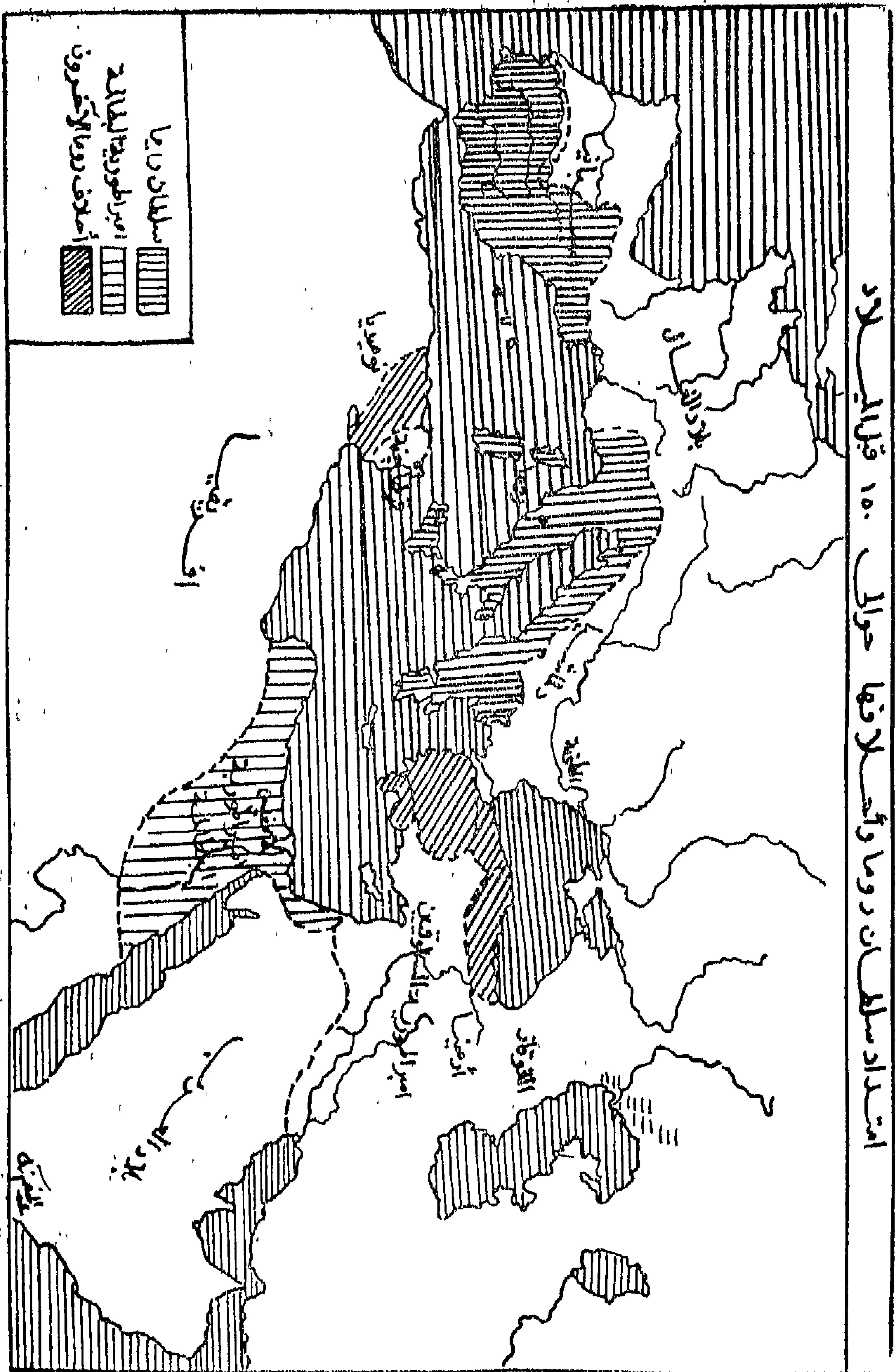
(١) السكبش نموء برأس كبش ناشز من سفينة لإتلاف سفن الأعداء .

عليها الرومان تجاوز ذلك الحد؛ فإذا عبرت قرطاجنة نهر الإبرو عد ذلك عملاً جريئاً معادياً للرومان . وانتهى الأمر بأن أرغمت قرطاجنة في ٢١٨ ق . م إزاء اعتداءات جديدة للرومان ، إلى عبور ذلك النهر فعلاً بقيادة قائد شاب اسمه هانيبال ، وهو قائد من ألمع القواد على مر التاريخ كله . فسير عليها جيشه مخترقاً إسبانيا وعبر جبال الألب إلى إيطاليا ، وهناك أثار الغالة على الرومان ، وواصل الحرب البونية الثانية في إيطاليا نفسها مدة خمسة عشر عاماً . وأنزل بالرومان هزائماً فادحة في معركة بحيرة تراسيميني وكاناي ، ولم يستطع أى جيش روماني طيلة حملته الإيطالية بأكملها أن يقف أمامه دون أن تحقيق به الهزيمة . غير أن الرومان أنزلوا عند مرسليليا جيشاً قطع مواصلاته مع إسبانيا ، وكانت تعوزه أدوات الحصار ومعداته ، كما أنه لم يتمكن أبداً من الاستيلاء على روما . واضطر القرطاجيون آخر الأمر إزاء ثورة قام بها النوميديون في أرض الوطن ، أن يرتدوا للدفاع عن مدينتهم الأصلية بإفريقية ، وهنا عبر جيش روماني البحر إلى إفريقية . ولقى هانيبال أول هزيمة أصابته تحت أسوار المدينة في معركة زاما (٢٠٢ ق . م) على يد سيبيون الإفريقي الأكبر .

وكانت معركة زاما هي خاتمة الحرب البونية الثانية ، واستسلمت قرطاجنة ، وتنازلت لروما عن إسبانيا وعن أسطولها الحربي ، ودفعت لها تعويضاً هائلاً ، ووافقت على تسليم هانيبال للرومان لينتقموا منه ، لولا أن هانيبال نجح من قبضتهم وفر إلى آسيا حيث تَجَرَّع السم ومات عندما أحس أنه موشك أن يقع في قبضة أعدائه الغلاظ الأكباد .

وانقضت ست وخمسون سنة ظلت روما ومدينة قرطاجنة الكسيرة الجناح تستظلان في أثنائها السلام . وراحت روما في نفس الوقت تبسط سلطانها على بلاد الإغريق المضطربة المنقسمة على نفسها ، وتغزو آسيا الصغرى وتهزم أنطيوخوس الثالث الملك السلوقي عند مدينة ماغنيسيا في ليديا ، ثم جاء دور مصر ، وكانت لا تزال تحت حكم البطالمة ، كما جاء دور برجامة ومعظم الولايات الصغيرة بآسيا الصغرى ، فحواتها روما إلى حلفاء لها ، أو « دول محمية » كما قد نسميها اليوم .

وذلك في حين كانت قرطاجنة الذليلة الضعيفة قد أخذت تسترد في ببطء شيئاً من رخائها السالف ، فإثارت ذلك عليها حقد الرومان ومخاوفهم ، فهاجموها (١٤٩ ق . م)



خريطة رقم (٦)

لأسباب تافهة مفتعلة إلى أقصى حد ، فلم يكن منها إلا أن قاومتهم مقاومة عنيدة مريرة وتحملت حصارا طويلا ثم فتحت عنوة (١٤٦ ق . م) ، واستمر القتال - أو قل المذبحة - في الشوارع ستة أيام ، وكان قتالا دمويا بشعاً ، وعند ما سلمت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهالي قرطاجنة البالغ عددهم ربع مليون سوى خمسين ألفا تقريبا ؛ فبيعوا ببيع الرقيق ، وأحرقت المدينة ، ودمرت تدميرا تاما وسير المحراث في أنقاضها المسودة بالحريق ، وبذرت فيها البذور ليكون ذلك شاهدا على محوها رسميا .

وبذلك انتهت الحرب البونية الثالثة ، ولم يبق مستمعا بالحرية من الدول والمدن السامية التي ازدهرت في العالم قبل ذلك بخمسة قرون ، إلا قطر صغير وحيد بقى تحت حكم حكام من أهله . ذلك القطر هو يهوذا (جوديا) التي حررت نفسها قبل ذلك من أيدي السلوقيين ، وكانت تحت حكم الأمراء المكابيين الوطنيين وكانت التوراة قد تمت في ذلك الحين أو كادت ، كما كانت تتطور آنذاك على أيديهم التقاليد المميزة للعالم اليهودي على ما نعرفه اليوم . وكان من الطبيعي أن يلتبس القرطاجيون والفينيقيون وذوو قرباهم من الشعوب المبعثرة في أرجاء العالم رابطة مشتركة بينهم تتمثل في أسنتهم المتقاربة ، وفي هذا الأدب الذي يبعث فيهم الأمل ويملأهم بالشجاعة ، وكانوا لا يزالون إلى حد كبير هم تجار العالم وأصحاب المصارف فيه . ذلك أن العالم السامي لم يذهب من الوجود ، بل غلب عليه عالم آخر .

واستولى الرومان على أورشليم في ٦٥ ق . م التي كانت على الدوام رمزا لليهودية لا مركزها ، وبعد أن تغلبت عليها تصارييف متنوعة من شبه استقلال وثورات ، حاصروها في سنة ٧٠ م ، واستولوا عليها بعد كفاح عنيد ، ودمر الهيكل ، وكان دمارها النهائي بعد ثورة أخرى شبت في ١٣٢ م ، فأما أورشليم التي نعرفها اليوم فهي مدينة أعيد بناؤها برعاية الرومان . وأقيم في مكان الهيكل معبد للرب الروماني « جوبتر » وحرّم على اليهود سكنى المدينة .

الفصل الثالث والثلاثون

نمو الإمبراطورية الرومانية

كانت هذه الدولة الجديدة التي مازالت تعلو حتى تسلطت على العالم الغربي في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، شيئاً آخر يختلف في كثير من النواحي عن أية إمبراطورية من الإمبراطوريات العظمى التي سادت العالم المتمدن حتى ذلك الوقت . لم تكن في مستهل أمرها ملكية ، كما لم تكن من خلق فاتح عظيم بعينه . ولم تكن في الواقع أولى الإمبراطوريات الجمهورية ؛ فقد تسلطت أثينا في عهد بركليس ، على مجموعة من الدول الخليفة والتابعة ، وكانت قرطاجنة يوم أن دخلت حومة كفاحها القتال مع روما سيدة لقورسيقة وسردينية ومراكش والجزائر وتونس ومعظم إسبانيا وصقلية ، بيد أنها كانت أولى الإمبراطوريات الجمهورية التي نجت من الإبادة وواصلت السير في طريقها ، وهي تنشيء التطورات الجديدة .

وكان مركز هذه المنظمة الجديدة يقع إلى الغرب على بعد كبير من مراكز الإمبراطوريات الأقدم منها عهدا ، التي كانت إلى ذلك الحين هي وديان الأنهار بأرض الجزيرة ومصر . وبفضل هذا الموقع الغربي تمكنت روما من أن تدخل إلى حظيرة الحضارة شعباً ومناطق جديدة كل الجدة .

وامتد سلطان روما إلى مراكش وإسبانيا ، وسرعان ما امتد نحو بريطانيا في الشمال الغربي مجتازا ما يسمى اليوم باسم فرنسا وبلجيكا ، وتوغل شمالا بشرق إلى المجر وجنوبي روسيا ، ولسكنها من الناحية الأخرى لم تستطع أبدا أن تحتفظ بمركزها في وسط آسيا أو بلاد فارس لشدة بعدها عن مراكزها الإدارية .

ومن ثم فقد كانت تضم حشودا هائلة من شعوب نورديّة جديدة ناطقة بالآرية ، وسرعان ما ضمت إليها جميع من في العالم من الشعب الإغريقي تقريبا ، وكان اصطباغها بالصبغة الحامية والسامية أضعف كثيرا من أية إمبراطورية سالفه .

ظلت هذه الإمبراطورية الرومانية بضعة قرون دون أن تتردى في مهاوى السوابق والتقاليد الجامدة ، التي مرعان ما ابتلعت في جوفها الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية ، وإنما كانت في كل ذلك الزمان تواصل التطور والارتقاء . ذلك أن حكام الميديين والفرس كانوا يصطبغون تماما بالصباغ البابلي في مدى جيل واحد تقريبا ، فكانوا يتقلدون تاج ملك الملوك ويتقبلون معابد آلهتهم وكهاناتها ؛ فسار الإسكندر وخلفاؤه في نفس ذلك السهل طريق التمثيل ؛ وانخذ ملوك السلوقيين نفس البلاط وطرائق الإدارة التي كانت لنبوخذ نصر وأصبح البطالمة فراعنة وتمصروا تمصرا تاما . فامتصتهم البلاد على نحو ما امتص السومريون غزاتهم الساميين .

أما الرومان فإنهم كانوا يحكمون في مدينتهم الخاصة ، وظلوا بضعة قرون يحافظون على القوانين التي أملتها طبيعتهم الخاصة . والشعب الوحيد الذي كان له عليهم تأثير ذهني عظيم قبل القرن الثاني أو الثالث الميلادي هو أبناء قرابتهم الإغريق الذين يشبهونهم . لذا كانت الإمبراطورية الرومانية في جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بحثة تقريبا . كانت حتى ذلك الأوان طرازا جديدا لا مثيل له في التاريخ كانت جمهورية آرية مترامية الرقعة . ولم ينطبق عليها الطراز القديم القائم على فاتح فرد يحكم مدينة رئيسية تمت حول معبد لرب حصاد . كان للرومان — لا جرم — آلهتهم ومعابدهم ، ولكنها كانت — كآلهة الإغريق — آلهة من أشباه البشر الخلدن أو النبلاء الأقداس . وكان الرومان أيضا يسفكون الدماء قربانا ، بل لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يقدمون البشر قربانا إذا أملت بهم نازلة ، وهي أمور لعلمهم تعلموها من أساتذتهم الإترسك السحر ، ولكن لم يحدث قط حتى يوم تجاوزت روما أوج عظمتها بزمن مديد ، أن قام الكاهن أو المعبد بأي نشاط سياسي كبير في تاريخ الرومان .

كانت الإمبراطورية الرومانية جسما ناميا جديدا لم ترسم لنموه خطة . وثلفت الشعب الروماني وإذا هو يعمل من غير وعي منه تقريبا في تجربة إدارية هائلة ليس في الإمكان أن تنعت بالتجربة الناجحة . إذ إن إمبراطوريتهم ترامت إلى الانهيار التام في النهاية . كما أنها كانت تغير سكانها وأسلوبها تغيرا هائلا من قرن إلى قرن . كان التغير الذي يحدث بها في مائة عام أعظم مما كان يحصل في البنغال أو أرض الجزيرة أو مصر في ألف سنة . كانت دأمة التغير ، ولم تصل قط إلى الثبات على حال .

فشلت التجربة بمعنى ما كما أنها لا تزال — بمعنى ما — ناقصة غير مستكملة ، ولا تزال

أوروبا وأمريكا في يومنا هذا تحمل ألباز السياسة العالمية التي واجهها الشعب الروماني لأول مرة .

ومن الخير أن يتذكر دارس التاريخ التغيرات العظيمة التي ألمت ، لا بالأمور السياسية وحدها ، ولكن بالاجتماعية والأخلاقية التي استمرت طيلة فترة سيادة الرومان . وكثيراً ما يجنح بعض الناس إلى إظهار شيء من المبالغة حين يزعمون أن الحكم الروماني كان شيئاً منقن التكوين وطيد الأركان ، وأنه كان حكماً حازماً وكاملاً ونيلاً وحاسماً . هذا كتاب ماكولي المسمى « أناشيدروما القديمة (Days of Ancient Rome) » S . P . Q . R ^(١) ، لو اطاعت عليه لوجدت فيه كانوا الأمن ، وأفراد أسرة سبيون وبوليوس قيصر ودقلد يانوس وقسطنطين الأكبر ، ومواكب النصر والخطب ومصارعات المجالدين واستشهاد المسيحيين مختلطة بعضها ببعض في صورة تمثل شيئاً سامياً وقاسياً ومهيباً .

ولا بد لك من أن تحلل تلك الصورة وتخلص أجزاءها بعضها من بعض . ذلك أنها قد جمعت اعتباراً من مواضع مختلفة من عملية تغير أعمق من ذلك التغير الذي يفرق بين لندن في عهد وليم الفاتح وعهدنا الراهن .

ورغبة في التيسير نقسم تاريخ روما إلى مراحل أربعة ، ابتدأت المرحلة الأولى منها بنهب الغالة لروما في (٣٩٠ ق . م) ، ودامت حتى نهاية الحرب البونية الأولى في (٢٤٠ ق . م) . وقد يجوز لنا أن نسمى هذه المرحلة باسم مرحلة الجمهورية المتمثلة ^(٢) . ولعلها كانت أروع مراحل التاريخ الروماني وأشدّها تميزاً . ففي أثنائها كانت المنازعات الطويلة الأمد بين البطارقة (الأشراف) والعامّة تقترب من نهايتها ، وزال خطر الإترسك ولم يكن هناك تفاوت عظيم في الثراء . فلاغنى فاحش ولا فقر مدقع ، وكان معظم الناس ينزعون إلى الحرص على المصلحة العامة .

كانت جمهورية ، بجمهورية البوير في جنوب إفريقيا قبل ١٩٠٠ ، أو كالولايات

(١) S . P . Q . R معناها مجلس شيوخ روما وشعبها .

(٢) المتمثلة : التمثل تحويل الشيء إلى مادة مماثلة كالطعام في الجسم . والجمهورية هنا كانت تتمثل غيرها من الشعوب والدول . [المترجم]

الشمالية في الاتحاد الأمريكي بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٠ ؛ هي جمهورية فلاحين أحرار . وكانت روما في مستهل هذه المرحلة دويلة صغيرة لا تسكاد مساحتها تبلغ عشرين ميلا مربعا . وكانت تقاتل ذوى قرباها من الدول القوية الشكيمة المحيطة بها ومحاول الائتلاف وإياها دون تدبيرها . وتدريب شعبها في أثناء قرون الفرقة الأهلية والشحناء على التراضى والتساهل . فإين بعض المدن المهزومة أصبحت رومانية تماما لما نصيب من التصويت في الحكومة ، وأصبح بعضها يحكم نفسه بنفسه مع السماح لأفرادها بالتجار في روما ومصاهرة أهلها ؛ وكانت الحمايات المؤامة من مواطنين يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة تقام عند المراكز الحربية الهامة ، كما أن المستعمرات المنوعة الامتيازات كانت تؤسس بين ظهراني الشعوب المحتلة حديثا . وأنشئت الطرق العظيمة . وكان صبيغ إيطاليا السريع بالصباغ اللاتيني هو النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة ، ففي (٨٩ ق م) أصبح سكان إيطاليا الأحرار جميعا مواطنين لمدينة روما يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة . وأصبحت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها من الناحية الرسمية مدينة مبسطة الرقعة . وفي ٢١٢ م منحت الحقوق الوطنية الكاملة لكل حر في طول الإمبراطورية وعرضها ، أى الحق في أن يعطى صوته في اجتماع مدينة روما إن استطاع إليها وصولا .

وهذا التوسع في بسط حقوق المواطنة على المدن سهلة الضبط وعلى أقاليم بأكملها كان الوسيلة المميزة للتوسع الروماني . وهو الذى قلب الطريقة القديمة رأسا على عقب ، طريقة الفتح وتمثل الفاتحين . وبهذه الطريقة الرومانية كان الفاتح الغازي هو الذى يتمثل المقهور .

ولكن حدث بعد الحرب البونية الأولى وضم صقلية ، أن نشأت ظاهرة أخرى جديدة مع استمرار عملية التمثل القديمة . ذلك أن صقلية مثلا عوملت معاملة فريسة مقهورة . فأعلنوها « مزرعة » للشعب الروماني واستغلت أرضها الحصبة وجهود شعبها المجد في سبيل زيادة ثراء روما . وكان الأشراف وذوو النفوذ من العامة يحصلون على النصيب الأعظم من تلك الثروة . وجلبت الحروب أيضا فيضا متدفقا من الأرقاء . وكان سكان الجمهورية قبل الحرب البونية الأولى يتكئون في معظم حالاتهم من مواطنين أحرار من الفلاحين . وكانت الخدمة العسكرية عملهم الذى يمتازون به وتبعتهم المسئولة منهم . وكانت الديون تركب مزارعهم حين ينخرطون في الخدمة العسكرية العاملة ، فانتشر

في طول البلاد وعرضها نوع من الإنتاج الزراعى الكبير القائم على الرقيق ؛ فإذا عاد الجند إلى ديارهم وجدوا محاصيلهم تنافسها المحصولات التى أنتجها الرقيق بصقلية وبالمزارع الجديدة الضخمة بأرض الوطن . وتغيرت الأيام وبدأت الجمهورية سجاياها . فلم يقتصر الأمر على أن صقلية أصبحت فى قبضة روما ، بل إن الرجل العادى أصبح فى قبضة الدائن الغنى والمنافس الغنى . بذلك دخلت روما فى مرحلتها الثانية ، وهى جمهورية الأغنياء المغامرين .

وظل الجند الرومان المزارعون مائتى سنة يكافحون من أجل الحرية والاشتراك فى حكم دولتهم ؛ بعد أن ظلوا مائة عام ينعمون بامتيازاتهم . ولكن الحرب البونية الأولى بددت قواهم وسلبتهم كل ما كانوا غنموه .

وتبخرت أيضا قيمة امتيازاتهم الانتخابية . وكانت فى الجمهورية الرومانية هيئتان حاكمتان . الأولى منهما والأكثر أهمية هى مجلس الشيوخ (السناتو) . وكان هذا المجلس فى الأصل هيئة من الأشراف ، ثم غدا مكونا من الرجال البارزين من جميع الطبقات ، وكان يدعوهم إلى جلساته فى البداية موظفون ذوو نفوذ وسلطان ، هم القناصل والرقباء ^(١) (Censors) . وإذا هو يصبح كمجلس اللوردات البريطانى ، جمعية تضم كبار أصحاب الأراضى والسياسيين البارزين وكبار رجال الأعمال ومن إليهم . كان أقرب إلى مجلس اللوردات البريطانى منه إلى مجلس الشيوخ الأمريكى وظل ثلاثة قرون بعد الحروب البونية . وهو مركز الفكر الرومانى السياسى وقبلته . وكانت الهيئة الثانية هى الجمعية الشعبية ، التى كان مفروضا أن تضم مواطنى روما جميعا . وكان ذلك ممكنا يوم كانت روما دويلة مساحتها عشرون ميلا مربعا . أما وقد بسطت حقوق روما المدنية إلى ما وراء حدودها ، فقد أصبحت هيئة عقيمة . وأخذت اجتماعاتها التى كان يعلن افتتاحها بالنفخ فى الأبواق من الكابيتول وأسوار المدينة ، تصبح من يوم إلى آخر اجتماعا من المأجورين السياسيين ورعاع المدينة ، ومن قبل كانت الجمعية الشعبية فى القرن الرابع ق . م رادعا قويا تكبح مجلس الشيوخ ، وكانت خير من يمثل مطالب الشعب وحقوقه ، ولكنها استحالَت عند نهاية الحروب البونية إلى طلل دارس لاحول

(١) كان لروما رقبان مهمتهما تحديد الحقوق المدنية للأفراد والحفاظة على الآداب العامة .

له لرقابة شعبية محطمة . فلم يبق هناك أى رادع قانونى فعال يكبح تصرفات كبار الرجال .

ولم يحدث قط أن أدخل فى الجمهورية الرومانية أى شىء من قبل الحكومة التمثيلية النيابية . ولم يفكر أحد ألبتة فى انتخاب مندوبين يمثلون إرادة المواطنين . وهذه مسألة هامة جدا ينبغى للباحث أن يدركها . فلم يحدث قط أن بلغت الجمعية الشعبية مستوى مجلس النواب الأمريكى أو مجلس العموم البريطانى ، كانت من الناحية النظرية هيئة المواطنين مجتمعين ؛ ولكننا من الناحية العملية تعطلت تماما عن أن تكون شيئا يستحق الاعتبار .

ومن ثم فإن المواطن العادى فى الإمبراطورية الرومانية كان فى حالة يرثى لها بعد الحرب البونية الثانية ؛ كان الفقر قد حل به ، إذ ضاعت مزرعته فى الغالب ، وحرمه الرقيق ثمرة الإنتاج المجزى ، كما لم يبق فى يديه أية سلطة سياسية يستطيع بها علاج الموقف ، فلم يبق أمامه من وسائل التعبير الشعبى ككشعب حرم كل صورة من صور التعبير السياسى إلا الاضطراب والعصيان . وقصة القرنين الثانى والأول قبل الميلاد من حيث السياسة الداخلية ، لا تخرج عن قصة حركات ثورية غير مجددة . على أن حجم هذا الكتاب لن يسمح لنا أن نحدثك حديث أنواع كفاح ذلك العصر المعقدة ، ولا حديث المحاولات التى بذلت لتمزيق المزارع الكبرى ورد الأرض للمزارع الحر ، ولا حديث المقترحات التى قدمت لإلغاء الديون جملة أو جزئيا . وجاء التمرد ونشبت الحرب الأهلية وزاد من شقاوة إيطاليا أن الرقيق ثاروا فى ٧٣ ق م ثورة عظيمة بقيادة اسبارتا كوس ، وكان لثورة رقيق إيطاليا شىء من الأثر ، إذ كان فيهم كبار المقاتلين فى حملات المجالدين (١) . وظل اسبارتا كوس صامدا سنتين فى فوهة بركان فيزوف ، الذى كان خامدا فى ذلك الزمن . ثم هزم الثائرون وأخذ العصيان بقسوة جنونية . فصلب سته آلاف من أتباع اسبارتا كوس على جانبي الطريق الآيبانى ، وهو الطريق العظيم الذى يمتد من روما نحو الجنوب (٧١ ق م) .

(١) المجالدون (Gladiators) : المصارعون فى العهد الرومانى ، وكانوا يقاتلون بالسلاح رجالا مثلهم أو وحوشا ضارية . وهى رياضة وحشية كانت تروق الرومان . ومكان هذه المصارعة كان يسمى بالجلتد (Arena) [المترجم]

ولم يدر بخلد الرجل العادى قط أن يقاوم القوى التى كانت تخضعه وتخط من قدره . بيد أن الأغنياء الكبار الذين تغلبوا عليه كانوا حتى بعد أن أنزلوا به الهزيمة يجهزون قوة جديدة فى العالم الرومانى ما لبثت أن تغلبت فى النهاية عليهما جميعاً : هى قوة الجيش .

كان جيش روما قبل الحرب البونية الثانية يتكون من جند المزارعين الأحرار الذين كانوا يسرون إلى المعركة مشاة أو راكبين بحسب مرتبتهم . وكان هذا النوع من القوات نافعا جداً فى الحرب طالما كان ميدانها قريباً ، ولكنه ليس من نوع الجيوش التى تذهب إلى خارج البلاد وتحمل أعباء الحملات الطويلة بصبر وجلد . وفضلا عن ذلك فقد ترتب على تكاثر الرقيق ونمو رقع المزارع الكبرى ، أن تناقص عدد المقاتلة من الفلاحين الأباة الأحرار ، ثم ظهر قائد شعبى هو ماريوس فكان له الفضل فى إدخال عامل جديد . وذلك أن شمال إفريقيا أمسى بعد أن ذهبت ربح الحضارة القرطاجية دولة شبه همجية ، هى مملكة نوميديا . وحدث نزاع بين الدولة الرومانية وبين جوجرثا ملك تلك الدولة ، فسكابدوا أهوالا كثيرة فى التغلب عليه . حتى إذا ثار الشعب غضباً لكرامته اضطر أولو الأمر إلى تعيين ماريوس قنصلا عاما للبلاد ، لينهى الحرب الشائنة . وتم له ذلك بجمعه الجند المأجورين وتدريبهم تدريباً شديداً .

وأحضر جوجرثا إلى روما مكبلا بالسلاسل (١٠٦ ق . م) ، فأما ماريوس فإنه تشبث بمنصبه كقنصل بعد أن انتهت مدته واستمسك به استمساكا غير شرعى تظاهره كتائبه المنشأة حديثاً ، ذلك أن روما لم تكن بها قوة تستطيع صدّه ومقاومته .

وبظهور ماريوس ابتدأ الدور الثالث فى تطور الدولة الرومانية : وهى جمهورية القواد العسكريين ، فالآن ابتدأت مرحلة كان فيها جنود السكتائب المأجورون يقاتلون فى سبيل السيطرة على العالم الرومانى . وثار على ماريوس قائد أرسقراطى هو سلا ، الذى كان يعمل تحت إمرته بإفريقيا . وقام كل منهما بدوره يعمل السيف بشدة فى خصومه السياسيين ، فكان الرجال يحرمون من حماية القانون ويعدمون بالألف ، كما تباع مزارعهم ، وبعد المنافسة الدموية التى اضطرت بين هذين الرجلين وبعد الرعب الذى ملأ النفوس من جراء عصيان اسبارتاكوس ، جاء طور كان فيه لوكولوس

وبومبي الأكبر وكراسوس ويوليوس قيصر أمراء على الجيوش ومتسلطين على مقاليد الشؤون . وقد هزم اسبارتاكوس على يد كراموس . أما لوكولوس فإنه فتح آسيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية ، ثم تقاعد متمتعا بثراء عريض في حين أن كراسوس سار قدما وغزا بلاد فارس ثم هزمه البارثيون (الأشغانيون) وقتلوه . وبعد منافسة طويلة انهزم بومبي أمام يوليوس قيصر (٤٨ ق . م) ثم قتل بمصر تاركاً يوليوس قيصر وحده سيدا على العالم الروماني .

وشخصية يوليوس قيصر شخصية أثارت في الخيال الإنساني هزة أضاعت كل أسباب التماسك بينها وبين قيمتها أو أبعادها الحقيقية ، فلقد أصبح رمزا . وعندى أن أهميته تنحصر بوجه خاص في كونه النذير الذي يؤذن بالانتقال من طور المغامرين العسكريين إلى بداية المرحلة الرابعة للتوسع الروماني : وهي الإمبراطورية الأولى ، ذلك أن حدود الدولة الرومانية كانت تتقدم طوال ذلك الزمن نحو الخارج على الرغم من حدوث أعنف الاضطرابات الاقتصادية والسياسية ، وعلى الرغم من الحروب الأهلية والانحلال الاجتماعي ؛ وما زالت تلك الحدود تزحف نحو الخارج حتى بلغت أقصى حد لها حوالي ١٠٠ ميلادية .

أجل حدث للحدود شيء من الانكماش في أثناء فترات الشك والتخوف التي رانت على البلاد في الحرب البونية ، كما كان هناك هبوط ظاهر في المهمة في المدة التي سبقت إعادة تنظيم الجيش على يد ماريوس ، وكانت ثورة اسبارتاكوس أمارة آذنت بدور ثالث ، وقد شاد يوليوس قيصر صيته الطيب كقائد حربي في بلاد الغالة ، وهي تسمى الآن فرنسا وبلجيكا ، (كانت أهم القبائل التي تسكن ذلك القطر تنتمي إلى نفس الشعب السكاتي الذي كان ينتمي إليه الغالة الذين احتلوا شمال إيطاليا ردحا من الزمن ، والذين أغاروا فيما بعد على آسيا الصغرى واستقروا فيها تحت اسم الغلاطين) . صد قيصر عن بلاد الغالة غارة قام بها الجرمان ، ثم ضم القطر كله إلى الإمبراطورية ، كما أنه عبر مضيق دوفر إلى بريطانيا مرتين (٥٥ و ٥٤ ق . م) ، غير أن فتحه لتلك البلاد لم يدم طويلا ، وفي نفس الوقت كان بومبي الأكبر يحكم الروابط بين أجزاء الفتوحات الرومانية التي بلغت في الشرق بحر قزوين .

وفي ذلك الوقت أي منتصف القرن الأول ق . م ، كان مجلس الشيوخ الروماني

لا يزال هو المركز الأسمى للحكومة الرومانية ، وهو الذى يعين القناصل وغيرهم من الموظفين ، ويمنح السلطات وما شاكل ذلك . وكانت طائفة من رجال السياسة يبرز فيها اسم شيشرون ، تكافح من أجل صيانة التقاليد العظيمة لروما الجمهورية والاحتفاظ لها بالاحترام وهيبة القوانين . بيد أن بواعث المواطنة وروحها كانت قد ولت من إيطاليا منذ ضيع الفلاحون الأحرار وتفرقوا بددا ؛ فقد استعالت البلاد الآن إلى أرض رقيق ورجال عضهم الفقر بنابه حرموا نعمة الفهم والرغبة فى الحرية ، ولم يكن ثمة شيء يناصر هؤلاء الزعماء الجمهوريين بمجلس الشيوخ ، بينما كانت الكتائب تحتشد من وراء المغامرين الكبار الذين كان المجلس يخشى بأسهم ويغنى إخضاعهم ، وكان كراسوس وپومبي وقيصر يتقاسمون فيما بينهم حكم الإمبراطورية متخطين السنين فى ذلك (وهم الحكومة الثلاثية الأولى) وعندما قتل الأشغانيون كراسوس بعيد ذلك بمنطقة كارهاى النائية ، دب الخلاف بين پومبي وقيصر ، فانتصر پومبي للبهادىء الجمهورية ، وصدرت القوانين بمحاكمة قيصر على ما ارتكب من خرق للقانون ، وعلى عدم إطاعته لمراسيم مجلس الشيوخ .

ولم يكن القانون يسمح لأى قائد أن يتجاوز بجندته دائرة حدود قيادته ، وكان الحد الفاصل بين منطقة قيادة قيصر وبين إيطاليا هو نهر الروبيكون [بإقليم توسكانى] . وفى ٤٩ ق ، م عبر قيصر نهر الروبيكون قائلا : « الآن رميت القداح ومبق السيف العذل » ثم زحف بجيشه على پومبي وروما .

وقد جرت عادة روما فى الماضى ، أن تنتخب فى الفترات العسكرية العصبية « دكتاتورا » له سلطات غير محدودة تقريبا ليتولى الحكم فيها فى أثناء الأزمة . وبعد أن قضى قيصر على پومبي عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات أولا ثم مدى الحياة فى (٤٥ ق . م) . والواقع أنه جعل عاهلا للإمبراطورية مدى الحياة ، ثم دارت الأحاديث فى شأن الملكية والملوك ، وهى كلمة بغضت إلى الرومان منذ طرد الإترسك قبل ذلك بخمسة قرون . ورفض قيصر أن يكون ملكا ، بيد أنه اتخذ العرش والصولجان .

وكان قيصر قد واصل زحفه إلى مصر بعد هزيمة پومبي ، وأخذ يطرح كليوباترة

الغرام ، وهى آخر البطالة ، وملسكة مصر الربة ، ويلوح أنها لعبت برأسه تماما ، وعاد قيصر إلى روما حاملا معه فسكرة « الملك المؤله » المصرية . وشاهد ذلك أن تمثاله أقيم فى أحد المعابد وعليه عبارة نصها : « إلى الإله الذى لا يقهر » . ولآخر مرة اندلع من الروح الجمهورية المحتضرة بروما لطيب احتجاج أخير ، وطعن قيصر بالخناجر حتى قضى نجه فى مجلس الشيوخ تحت أقدام تمثال منافسه المصروع پوهي الكبير .

انقضت ثلاث عشرة سنة أخرى استمر فيها هذا الصراع بين الشخصيات الطامحة . وظهرت هيئة ثلاثية أخرى مكونة من لبيدوس ومارك أنطونيو وأوكتافيوس قيصر ، وهو ابن أخى يوليوس قيصر وأخذ أوكتافيوس كعمه الولايات الغربية الأشد فقراً والأقوى شكيمة . والتى كانت تجند منها أحسن الكتائب ، وتمكن فى ٢١ ق . م من هزيمة مارك أنطونيو منافسه الخطر الوحيد فى معركة أكتيوم البحرية ، وبذلك جعل من نفسه السيد الأوحد للعالم الرومانى .

على أن أوكتافيوس كان رجلا من طينة أخرى مخالفة تماما ليوليوس قيصر . فلم يخامرهُ أى حنين طائش لأن يصبح إلها أو ملكا . ولم تكن له ملكة معشوقة يريد أن يهرها بضيائه . فأعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما ، وأبى أن يصبح دكتاتوراً . وغلب الشكر على السناو فأسلم إليه مقابل ذلك جوهر السلطان بدلا من صورته الشككية . أجل لم يلقيه حقا بالملك ، بل أطلق عليه لقب « الأمير » ولغته بـ « أوغسطس » . ثم أصبح لقبه بعد ذلك أوغسطس قيصر أول أباطرة الرومان (٢٧ ق . م إلى ١٤ م) .

وخلفه تييريوس قيصر (١٤ م - ٣٧ م) ، وأعقب هذا آخرون ، هم كاليجولا وكلوديوس ونيرون ، وهكذا حتى جاء تراچان (٩٨ م) ، وهادريان (١١٧ م) ، وأنطونيوس بيوس (١٣٨ م) وماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠ م) ، وهم جميعا أباطرة كتائب ، فالجند هم الذين نصبوهم ، والجند هم الذين قضوا على بعضهم ، وأخذت سلطة مجلس الشيوخ تتقلص شيئا فشيئا وتتوارى من التاريخ الرومانى ، بينما جعل الإمبراطور وموظفوه الإداريون يحلون محله .

عند ذلك كانت حدود الإمبراطورية قد ترامت نحو الخارج إلى أقصى حد لها ،

فضم الشطر الأكبر من بريطانيا إلى الإمبراطورية ، ثم ضمت ترسلفانيا بوصفها مقاطعة جديدة أسميت « دا كيا » وعبر تراجان نهر الفرات .

ومن عجب أن هادريان ساورته فكرة تذكرنا على الفور بما حدث في الطرف الآخر للعالم القديم . فإنه — شأن شئ هو انجح تى — شيد الأسوار ليصمد برابرة الشمال ؛ فبنى أحدها عبر بريطانيا من اليمين إلى اليسار ، ومد الحواجز الدفاعية بين نهري الرين والدانوب ، وتخلّى عن بعض ما استولى عليه تراجان .
فإن توسع الإمبراطورية الرومانية بلغ أقصى مداه .

الفصل الرابع والثلاثون

بين روما والصين

يؤذن القرنان الثاني والأول قبل الميلاد بظهور مرحلة جديدة في تاريخ البشرية . فلم تعد أرض الجزيرة ولا البحر المتوسط الشرقي مركز الاهتمام . أجل لم تزل كل من أرض الجزيرة ومصر على سابق خصوبتها وازدهارها بالسكان ورغدها المتوسط ، بيد أنهما لم تعودا بعد الإقليمين المتسلطين على العالم . إذ إن القوة انتقلت غربا وشرقا ، وآلت سيادة العالم آنذاك إلى إمبراطوريتين عظيمتين : تلك الإمبراطورية الرومانية الجديدة ، وإمبراطورية الصين الحديثة النهوض والبعث .

ومدت روما سلطانها إلى نهر الفرات ، غير أنها لم تستطع ألبتة تجاوز ذلك الحد لفرط بعده عنها . ومن وراء الفرات انتقلت ممتلكات السلوقيين السابقة بالهند وفارس إلى يد عدد من سادة جدد .

أما الصين - التي كانت آنذاك تحت حكم أسرة « هان » التي خلفت أسرة « تسنن » عند وفاة شي هوانجتي - فإن سلطانها انبسط آنذاك إلى التركستان الغربية عبر بلاد التبت وفوق ممرات هضبة البامير الجبلية العالية ، ولكنها بلغت هناك أيضاً حدها الأقصى ، أما ما وراء ذلك فكان سحيق البعد .

وكانت الصين في ذلك الزمان أعظم نظام سياسي في العالم وأحسنه تنظيماً وأكثره تمدناً . كانت من حيث الاتساع وعدد السكان تفوق الإمبراطورية الرومانية وهي في أوج مجدها . من هنا يتبين إذن أن هاتين الدولتين العظيمتين قد أمكن أن تزدهرا في عالم واحد ووقت واحد دون أن تعلم إحداها بوجود الأخرى . ذلك أن وسائل المواصلات في كل من البر والبحر لم تكن قد بلغت بعد من التطور والتنظيم الدرجة الكفيلة بالاحتكاك المباشر بينهما .

على أن التفاعل سم بينهما مع ذلك بطريقة عجيبة جداً ، وكان تأثيرهما عميقاً شديداً

في صير الأقاليم التي تقع بينهما وهي آسيا الوسطى والهند : إذ إن قذرا بعينه من التجارة كان يترقرق في تلك الأقاليم على ظهور الجمال بطريق القوافل عبر بلاد فارس مثلا ، وبالسفن الساحلية بطريق الهند والبحر الأحمر .

وفي ٦٦ ق . م زحفت الجنود الرومانية بقيادة يومي مقتفية خطى الاسكندر الأكبر على الشواطئ الشرقية لبحر قزوين . وفي ١٠٢ م وصلت إلى بحر قزوين حملة عسكرية بقيادة بان تشاو ، وأرسلت مبعوثها ليقدموا لها التقارير عن قوة دولة الرومان . ولسكن قدر أن تمر قرون أخرى كثيرة قبل أن تنهيا للمعلومات المحددة والعلاقات المباشرة أن تربط العالمين العظيمين المتوازيين ، عالمي أوروبا وآسيا الشرقية .

وإلى الشمال من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين كانت تنبسط البراري الهمجية المتبررة . فكانت منطقة ألمانيا الحالية إقليما نكسو الغابات معظمه ، على حين كانت الغابات تتوغل قدما في صميم روسيا ليستوطنها الثور الجبار (الأوروك) ، الذي يقارب حجمه حجم الفيل . ثم كان يمتد بعد ذلك إلى الشمال من الكتل الجبلية الآسيوية العظيمة شريط من الصحراوات والسهوب تجيء بعد الغابات والأراضي المتجمدة . ويقع مثلث منشوريا العظيم في المنبسط الواقع شرقي المرتفعات الآسيوية .

إن أجزاء كبيرة من هذه المناطق تمتد من جنوبي روسيا والتركستان حتى منشوريا كانت ولا تزال مناطق غير ثابتة المناخ إلى درجة خارقة . فقد تغيرت كمية الأمطار تغيرا كبيرا في مدى بضعة قرون . فهي بلاد غادرة تخون الإنسان . تمر عليها سنوات متعاقبة وهي ممتلئة بالحشائش والكلا الذي يقوت^(١) السكان ، ثم تجيء فترة انخفاض في الأمطار ودورة من دورات الجفاف والقمح المهلك .

والجزء الغربي لهذه المنطقة الشمالية الهمجية الممتد من الغابات الألمانية إلى جنوب روسيا والتركستان ومن جوثلنده [بالسويد] إلى جبال الأب هو الأرض الأصلية للشعوب النوردية واللسان الآري . كما أن السهوب الشرقية وصحراء منغوليا هي منبت الشعوب الهونية أو المغولية أو التتارية أو التركية — ذلك أن كل هذه

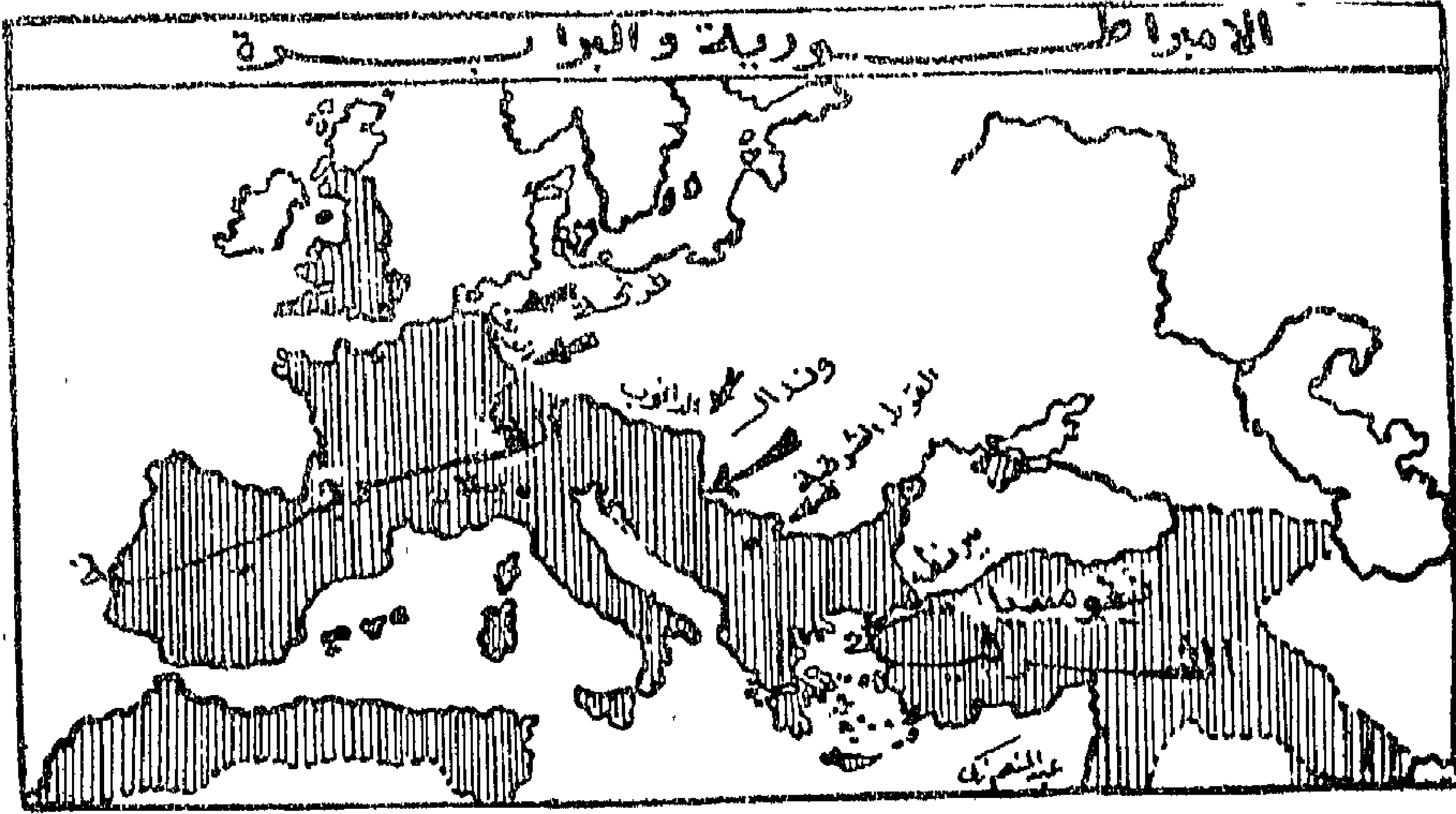
(١) يقوت السكان : يرزقهم ويعطيهم القوت ويعولهم من (قات يقوت قونا)

الشعوب المتعددة كانت متماثلة في اللغة والعنصر وطريقة الحياة . وكما أن الشعوب النوردية كانت تطغى دائماً فيما يظهر على حدودها ، وتضغط جنوباً على الحضارات النامية بأرض الجزيرة وساحل المتوسط ، فكذلك كانت القبائل الهونية ترسل فائضها على صورة جوالين ومترجلين ومغيرين وفانحين في أقاليم الصين المأهولة بالمستقرين . وكانت فترات الوفرة والخيرات بأقاليم الشمال تعنى زيادة عدد من بها من سكان ؛ ولكن إذا حدث نقص في العشب أو حلت نوبة من نوبات طاعون الماشية ، لم يكن مفر من أن يؤدي ذلك إلى دفع رجال القبائل الجياع المقاتلين الأشداء نحو الجنوب .

وجاء زمان اجتمعت فيه في العالم إمبراطوريتان قويتان إلى حد ما تستطيعان صد البرابرة ، بل دفع خط السلام الإمبراطوري إلى الأمام . وظلت إمبراطورية هان تضغط من شمال الصين إلى قلب منغوليا ضغطة قويا لا ينقطع . وكان السكان الصينيون ينطلقون من وراء السور العظيم ، وكان الفلاح الصيني ومعه المحراث والحصان يتقدم في إثر حارس الحدود الإمبراطوري ، فيحرث منابت السكك ويحيط المراعى الشتوية بالسياجات . وكانت الشعوب الهونية تغير على المستقرين وتقتلهم ، بيد أن حملات الصينيين التأديبية كانت لهم بالمرصاد .

ولم يكن للرحيل بد من الاختيار بين أحد أمرين ، فإما الاستقرار في حياة الزراعة ودفع الضرائب للحكومة الصينية ، وإما الرحيل طلباً لمراع صيفية جديدة . وسلك بعضهم الطريق الأول فابتلعتهم بلاد الصين ، وانتقل بعضهم نحو الشمال الشرقي أو نحو الشرق من فوق المعرات الجبلية وانحدروا إلى التركستان الغربية .

وهذا الانتقال غرباً للخيالة المغوليين بدأ يحدث منذ ٢٠٠ ق . م ؛ وكلما حدث ، دفعت القبائل الآرية نحو الغرب ، فيضغط هؤلاء بدورهم على الحدود الرومانية التي هم على استعداد لاختراقها بمجرد ظهور أى عارض من عوارض الضعف . وجاء الأشقانيون (البارثيون ، وهم فيما يظهر شعب أشقوزى تخالطه بعض شوائب مغولية) ونزلوا أرض الفرات عند القرن الأول قبل الميلاد ، فقاتلوا يوهي الكبير في غارته على بلاد الشرق وهزموا كراسوس وقتلوه . وأنزلوا ملوك السلوقيين عن عرش فارس ،



خريطة رقم (٧)

وتبدلوا بهم ملوكا من الأشقانيين ، هي الأسرة الأرشكية (١) .

ولكن جاء زمان كانت فيه أضعف مناطق المقاومة للرحل الجياح لاتقع في الغرب ولا في الشرق ، بل تسير في آسيا الوسطى ، ثم تنحرف جنوباً بشرق عابرة ممر خير إلى بلاد الهند . فالهند هي القطر الذي تلقى حركة الانتقال المغولية إبان هذه القرون التي قويت فيها شوكة الصينيين والرومان . واثالت موجات متكررة من الفانحين والمغيرين خلال إقليم البنجاب حتى وصلت إلى السهول العظيمة تعمل فيها نهياً وتخربيا ، فتمزقت إمبراطورية آسوكا ، وانحدر تاريخ الهند حيناً من الدهر إلى غياهب الظلمات ..

(١) الأسرة الأرشكية : أسرة بارثية ملكية مؤسسها أرشك الذي اقتطم مملكته من دولة السلوقيين في ٢٥٠ ق م ، ودامت حتى قضى عليها في ٢٢٦ ميلادية أردشير مؤسس الدولة الساسانية .

[الترجم]

وجاءت فترة حكمت فيها بشمال الهند باسطة عليها شيئاً من النظام أسرة كوشانية بعينها أسستها قبائل « الهندواشقوذين » Inbo — Scythians وهم جيل من الشعوب المغيرة . وتواصلت هذه الغزوات بضعة قرون . ونسكت الهند دهرًا طويلاً من القرن الخامس الميلادى بالإفثاليين أو الهون البيض ، الذين كانوا يحبون الجزية من الأمراء الصغار ، ويوقعون الرعب في أرجاء البلاد . وكلما أقبل الصيف رحل هؤلاء الإفثاليون إلى التركستان الغربية ليرعوا ماشيتهم ، فإذا جاء الخريف عادوا بطريق المعرات وقذفوا الرعب في قلوب السكان الوادعين .

وحلت بالإمبراطوريتين الرومانية والصينية في القرن الميلادى الثانى نكبة عظيمة ، لعلها أضعفت مقاومتهما جميعاً لضغط البرابرة ، فإنهما أصيبتا بوباء وبيل لا نظير له . ظل ذلك الوباء يتفشى بشدة في بلاد الصين أحد عشر عاماً ، حتى أفسد النظام الاجتماعى أشد الفساد ، فسقطت أسرة هان ، وابتدأ عصر جديد من عصور الانقسام والفوضى ، لم تستطع الصين أن تفيق منه تماماً إلا في القرن السابع الميلادى عند ظهور أسرة تانج العظيمة

وانتشرت العدوى خلال آسيا إلى أوروبا وأخذ الوباء ينتشر في أرجاء الإمبراطورية من ١٦٤ إلى ١٨٠ م . وواضح أنه هز كيائها إلى حد خطير جداً . فإنا نسمع بعد ذلك عن نقص السكان بالولايات الرومانية ، كما نشهد انحلالاً ملحوظاً في قوة الحكومة وكفائتها . ومهما يكن الأمر فإننا نعلم للفور أن التخوم لم تعد منيعة لا يمكن اختراقها ، ونجدها تتداعى في هذا المكان أولاً ، وفي ذاك ثانياً .

وثمة شعب نوردى جديد هو القوط جاء أصلاً من جوثلندة ببلاد السويد . ثم هاجر عبر روسيا إلى منطقة الفولجا وشواطئ البحر الأسود حيث جنح إلى البحر وإلى أعمال القرصنة . ولعلمهم شرعوا عند نهاية القرن الثانى يشعرون بضغط هجوم الهون غرباً عليهم . وفي ٢٤٧ م قاموا بغارة برية عظيمة فعبروا نهر الطونة (الدانوب) وهزموا الإمبراطور ديكْيوس وقتلوه في معركة دارت رحاها فيما يسمى الآن ببلاد الصرب . وفي ٢٣٦ م اخترق الحدود عند نهر الرين الأدنى شعب جرمانى آخر هو

الفرنجية ، كما انهال الألمانى على إقليم الأزاراس . وتمكنت الكتائب العسكرية ببلاد الغال من صد المغيرين عليها ؛ ولكن القوط النازلين بشبه جزيرة البلقان أعادوا الإغارة هناك مرة بعد أخرى . فاختلفت مقاطعة داكيا من التاريخ الرومانى .

لقد دبت برودة الموت فى كبرياء روما وثقتها بنفسها . وفى ٢٧٠ - ٢٧٥ م حصن الإمبراطور أوريليان روما بعد أن ظلت ثلاثة قرون مدينة آمنة مفتوحة .

الفصل الخامس والثلاثون

حياة الرجل العادى

فى عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة

قبل أن نحدثك كيف وقعت هذه الإمبراطورية الرومانية فى مهاوى الفوضى وتمزقت إربا بعد أن تكونت فى القرنين السابقين للميلاد ، وازدهرت فى مجبوحة السلام والطمانينة منذ أيام أوغسطس قيصر مدة قرنين آخرين — يجدر بنا أيضاً أن نوجه بعض عنايتنا إلى حياة الناس العاديين أعنى العامة فى أثناء عصر هذه الدولة العظيمة . لقد وصلنا فى تأريخنا الآن إلى حوالى ألف سنة من زماننا هذا ، كما أن حياة الناس المتحضرين الذين كانوا يعيشون فى ظل من « سلام » روما و « سلام » أسرة هان ، قد أخذت تقترب رويداً رويداً من حياة خلفائهم المتحضرين فى يومنا هذا .

وكان استخدام النقود الصكوكة شائعاً آنذاك فى العالم الغربى ، وأصبح لكثير من الناس خارج عالم الكهانة موارد مستقلة دون أن يكونوا من موظفى الدولة ولا من الكهان ، وبات الناس يمشون فى مناكب الأرض بحرية لم تتسن لهم من قبل أبداً ، وأنشئت الطرق العامة وشيدت الفنادق لنزولهم ؛ فلو قارنت حياتهم بما كانت عليه فى الماضى أى قبل ٥٠٠ ق . م ، لوجدتها أكثر رخاء ويسراً . وقبل ذلك التاريخ كان المتحضرين مقيدين بناحية أو إقليم ، مقيدين بالتقاليد ، يعيشون فى حدود أفق ضيق جداً ، ولم يكن أحد يستطيع الاتجار أو السفر إلا الشعوب الرحل .

يبد أنه لا « السلام » الرومانى ولا « السلام » الصينى لدى أسرة هان كان يعنى أن الحضارة انتشرت انتشاراً منتظماً فى الأقاليم الضخمة الواقعة تحت سيطرتهم . فالقوارق المحلية عظيمة جداً بين إقليم وآخر ، كما أن التناقضات وعدم المساواة فى الثقافة عظيمة أيضاً بين ناحية وأخرى ، كما هو الحال اليوم فى ظلال « السلام » البريطانى بالهند ، وكانت الحاميات والمستعمرات الرومانية تلتصق هنا وهناك فى أرجاء تلك المساحة العظيمة ، وهى تعبد آلهة الرومان وتتكلم بلغتهم ؛ فإن كانت هناك مدن

أو بلدان قبل مجيء الرومان تركت لها إدارة مشئونها عندئذ وإن أخضعت ، وسمح لها فترة على الأقل بعبادة آلهتها بطريقتها الخاصة . ولم تنتشر اللغة اللاتينية ألبتة في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى ومصر والشرق المهلن^(١) عامة مذ كانت الإغريقية هي السائدة هناك ولا سبيل إلى قهرها . وكان شاؤول الطرسوسى الذى أصبح بولس الرسول ، يهوديا ومواطناً رومانياً ، غير أنه كان يتحدث بالإغريقية ويكتب بها دون العبرانية . بل لقد بلغ الأمر أن اليونانية كانت لغة الطبقة الراقية في بلاط يقع خارج الدولة الرومانية تماماً ، هو بلاط الأسرة الأشقانية التى خلعت السلوقيين الإغريق عن عرش فارس . وكذلك صمدت أيضاً اللغة القرطاجية في بعض أصقاع إسبانيا وشمال إفريقية زماناً طويلاً ، على الرغم من تدمير قرطاجنة . فإن مدينة كاشبيلية ، ذلك البلد الذى أوتى الغنى والرخاء قبل أن يسمع الناس باسم الرومان بزمن بعيد ، ظلت تحافظ على معبودتها الربة السامية وتنطق بلسانها السامى مدة أجيال عديدة على الرغم من وجود مستعمرة من محنكة جند الرومان بإقليم إيتاليكا على بضعة أميال منها . وهناك الإمبراطور سبتيميوس سيفيروس (تولى العرش من ١٩٣ - ٢١١) الذى كانت القرطاجية لغته القومية . ثم تعلم اللاتينية فيما بعد كلغة أجنبية ، ويسجل التاريخ أن أخوته لم تتعلم اللاتينية قط ، وأنها كانت تتفاهم في دارها بروما باللغة الفينيقية .

أما المناطق التى لم تكن بها من قبل مدن كبرى ، ولا معابد ، ولا ثقافات ، كبلاد الغالة وبريطانيا وولايات داكيا (وهى الآن رومانيا على وجه التقريب) وپانونيا (وهى الآن بلاد المجر جنوبى الدانوب) ، فإن الإمبراطورية استطاعت على كل حال أن تصبغها بالصباغ اللاتينى . وهى التى مدنت هذه الأقطار لأول مرة ، وأنشأت مدناً كانت اللاتينية فيها هى اللسان الغالب منذ البداية ، وكانت آلهة الرومان تعبد فيها ، كما يتبع بها عرف الرومان وعاداتهم . وما اللغات الرومانية والإيطالية والفرنسية والإسبانية - وكلها مشتقة من اللاتينية - إلا تذكرة لنا بهذا الامتداد للسان والعرف اللاتينى ، وأصبح شمال غربى إفريقية في النهاية ناطقا باللاتينية إلى حد كبير .

(١) المهلن : Hellenized : المطبوع بالطابع المهلينى . [المترجم]
(١٢) — تاريخ العالم

أما مصر وبلاد الإغريق وسائر أجزاء الإمبراطورية الواقعة شرقاً فلم تصطبغ قط بالصباغ اللاتيني ، بل ظلت مصرية وإغريقية روحاً وثقافة . وبلغ الأمر باليونانية أن انتشرت بروما نفسها ، فتعلمها المتعلمون بوصفها لغة علمية القوم ، كما أن أدب اليونان وعلمهم كانا يفضلان على اللاتيني في أرجح الاحتمالات .

وكان من الطبيعي في مثل هذه الإمبراطورية المختلفة أن تكون طرائق أداء الأعمال والأشغال فيها جد مختلطة أيضاً ، كما أن الزراعة كانت إلى حد كبير رأس صناعات العالم المستقر . وقد أسلفنا لك كيف حلت المزارع الكبيرة والعمال الأرقاء محل المزارعين الأشداء الأحرار الذين كانوا هم العمود الفقري للجمهورية الرومانية القديمة . أما العالم اليوناني فكانت أساليب الزراعة فيه متنوعة جداً ، منها الطريقة الأركادية ، التي كان كل مواطن حر يكدح بمقتضاها بيديه ، ومنها خطة إسبرطة ، التي كان من المهانة فيها أن يعمل المرء بيديه ، والتي كان العمل الزراعي فيها تقوم به طبقة خاصة من رقيق الأرض هم الهيلوطيين (Helots) . بيد أن هذه الأمور كانت قد أصبحت في تلك الأيام نفسها قطعة من التاريخ العتيق ، فإن طريقة المزارع الكبيرة و فرق الأرقاء كانت قد انتشرت في معظم أرجاء العالم الهليني . كما أن الأرقاء الزراعيين كانوا أسرى يتكلمون لغات مختلفة كثيرة ، ولا يستطيعون لذلك أن يفهم بعضهم بعضاً ، أو كانوا عبيداً بمولدهم ، لم يكن بينهم تضامن لمقاومة الاضطهاد ، ولا تقاليد لحقوق يتناقلونها ولا معرفة يفيدونها ، ذلك أنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة . ومع أنهم صاروا على مدى الأيام الأغلبية بين سكان البلاد ، فإنهم لم يقوموا ألبتة بحركة ثورية ناجحة . أما ثورة اسبارتاكوس التي اندلعت في القرن الأول ق.م ، فهي ثورة الأرقاء الخصوصيين الذين كانوا يدرّبون لمصارعات المجالدين . وكان عمال الزراعة بإيطاليا في أواخر أيام الجمهورية وأوائل عهد الإمبراطورية يلاقون شراً وإهانات ، فيربطون بالسلاسل ليلا لمنعهم من الهرب أو تحلق نصف رؤوسهم ليصعب الفرار عليهم ، ولم تكن لهم زوجات ، ومن حق سادتهم انتهاك حرمتهم والتنسكيل بهم أو قتلهم . وكان في إمكان السيد أن يبيع عبده ليقاتل الوحوش في المجتهد ، فإذا قتل عبد سيده ، صلب القاتل وجميع من في الدار من عبيد . نعم إن بعض أرجاء بلاد الإغريق وبخاصة أثينا ، لم يكن حظ الرقيق فيها رهيباً إلى هذه الدرجة تماماً ، بيد أنه كان مع ذلك حظاً بغيضاً إلى نفوسهم . ولذا فالغريون والهمج الذين أخذوا يحترقون

خط دفاع الكتاب ، لا يعدون في نظر مثل هؤلاء السكان أعداء بل محررين ومنقذين .

وقد انتشر نظام الرقيق في معظم الصناعات وفي كل نوع من أنواع العمل تستطيع الجماعات عمله . فالعمل بالمناجم وصناعات المعادن والتجدين في السفن ورصف الطرق وعمليات البناء الكبرى تتم في الأغلب على يد الأرقاء . كما أن الرقيق كان يقوم بكل الأعمال المنزلية تقريباً . كان هناك رجال أحرار فقراء ، ورجال عتقاء يعملون في المدن والمناطق الريفية ، إما لحساب أنفسهم وإما مقابل أجر يتناولونه ، ومنهم الصانع الماهر والمشرف على العمال وما شاكل ذلك ، وهم عمال من طبقة جديدة تتلقى الأجور نقداً وتنافس العمال الأرقاء ؛ على أننا نجهل مدى النسبة بينهم وبين عدد السكان عامة . ولعلها كانت تتباين تبايناً بعيداً باختلاف الأماكن والأزمان . وأدخلت على نظام الرق تعديلات حمة ، فها هنا عبد يقيد بالأغلال ليس إلا ثم يدفع بالسياط إلى المزرعة أو المحجر نهاراً ، وهناك العبد الذي وجد سيده أن من المصلحة أن يتركه يزرع قطعة أرضه الصغيرة ، أو يعمل في صنعته ويستمتع بملكية زوجته كالرجل الحر ، على شريطة أن يدفع لسيده مبلغاً مرضياً ثمناً لحرية .

كان هناك عبيد مدربون على حمل السلاح . وقد ابتعثت في روما قبيل بداية الحروب اليونانية في ٢٦٣ ق . م الرياضة الإترسكية ، التي كان العبد الرقيق يضطر فيها إلى القتال لينقذ حياته . وسرعان ما لقيت تلك اللعبة رواجاً كبيراً ، وما لبث كل عظيم من أغنياء الرومان أن احتفظ لنفسه بمحاشيه من المجالدين ، الذين كانوا يقاتلون أحياناً في المجتلد ، والذين كان عملهم الحقيقي هو أن يكونوا حرسه الخاص من (البلطجية) .

وكان هناك أيضاً عبيد علماء . ذلك أن فتوح الجمهورية المتأخرة شملت المدن الراقية التمدن ببلاد الإغريق وشمال إفريقية وآسيا الصغرى ؛ فأمدتها بكثير من الأسرى الواسعى العلم والاطلاع . حتى لقد جرت العادة أن يكون معلم أى فتى روماني من عائلة كريمة عبداً . وإن الرجل الغني ليملك العبد الإغريقي ويتخذُه خازناً لمكتبته ، كما يتخذ الأمراء (السكرتيرين) والعلماء من الأرقاء . وإنه ليحتفظ بشاعره مثلاً يحتفظ بكتبه القادر على أداء الألاعيب اللطيفة . وفي هذا الجو من العبودية تطورت تقاليد النقد

الأدبي والدراسات الأدبية العصرية متسمة بالتدقيق والتخوف والميل إلى الشحناء .
وئمة أقوام ميالون إلى التجارة كانوا يشترون الغلام الذكي ثم يعلمونه لكي يبيعوه عندما
يشب ، وكان العبيد يدرّبون على نسخ الكتب وصياغة الجواهر وغير ذلك مما
لا حصر له من المهن التي تستدعي المهارة .

وقد طرأت على مركز الأرقاء تغيرات جوهرية في أثناء السنوات الأربعمئة التي امتدت
بين أيام الفتح الأول في عهد جمهورية الأغنياء وبين أيام الانحلال التي أعقبت الوباء
العظيم . وتكاثر عدد أسرى الحرب في القرن الثاني ق . م ، وأصبحت الطبائع خشنة
وحشية ؛ ولم يكن للرقائق أية حقوق ، وما من امتهان أو انتهاك يدور بخلد القاريء
إلا كان ينزل على رأس الأرقاء في تلك الأيام . ولكن ظهر بالفعل إبان القرن
الأول الميلادي تحسن ملحوظ في اتجاه الحضارة الرومانية إزاء الرق . ذلك أن الأسرى
قل عددهم لسبب من الأسباب ، كما أن العبيد صاروا أغلى ثمنًا . فبدأ أصحاب الأرقام
يدركون أن الربح والراحة اللذين يجدونهما على يد عبيدهم يزيدان إذا استمتع هؤلاء
بالاحترام الذاتي . هذا إلى أن الشعور الخلقى للمجتمع أخذ يسمو ، وأن شعوراً بالعدالة
أخذ يؤتى ثماره ؛ فإن عقلية الإغريق الراقية كانت تهذب من خشونة الرومانيين .
وضيق الخناق على القساسة ، فلم يعد يجوز للسيد أن يبيع عبده ليقاتل الوحوش ،
ومنح العبد حقوق الملكية فيما كان يسمى باسم الملك الخاص (Peculium) ، وصار
الأرقاء يتناولون أجوراً تشجيعاً لهم وحثاً لهم على العمل ، واعترف القانون بنوع من
الزوجية للعبيد . ومن المعلوم أن كثرة كبيرة من أنواع الزراعة لا تصلح لعمل فرق
العمال ، أو لا تحتاج إليها إلا في مواسم بعينها . فكان العبد في المناطق التي من هذا القبيل
ينقلب للوقت إلى رقيق أرض Serf^(١) ، يدفع للمالك جزءاً من محصوله أو يعمل
عنده في مواسم معينة .

ومتى أيقنا أن هذه الإمبراطورية الرومانية الكبرى الناطقة بالإغريقية في القرنين
الميلاديين الأولين كانت في جوهرها دولة رقيق ، وعرفنا كم كانت الأقلية التي تسعد
في حياتها بشيء من الحرية أو الكبرياء ضئيلة العدد ، وضعنا أصابعنا على بيت الداء في

(١) رقيق الأرض أو مولى الأرض : عبد قابض لنديل يحرق له أرضه ويباع ويشترى مم تلك
الأرض .
[المترجم]

انحلالها وانهارها . فما نسميه باسم الحياة العائلية لم يكن منه لديهم إلا النزر اليسير ، أما العيش المعتدل والفكر والدراسة الناشطة فلا مكان لها إلا في بيوت قليلة ؛ وكانت المدارس والكلليات قليلة ومتباعدة . وأنى لك أن تجد الإدارة الحرة والعقل الحر في أى مكان . أما الطرق العظيمة ، وخرائب البنايات الفخمة ، وتقاليد القانون والسلطان التى خلقتها وأثارت بها دهشة الأجيال التالية ، فيجب ألا تخفى عن أعيننا أن كل أبهتها الظاهرة أقيمت على إرادات مسلوكة وذكاء مكبوت ورغبات كسيحة ومنحرفة . وحتى الأفلية التى كانت تسودها فوق خضم الاستعباد المتلاطم ، ولجات القمع والسخرة ، كانت أرواحها تتقلب على جمر القلق والتعاسة . وفى ذلك الجو القاتل اضمحل الفن والأدب والعلم والفلسفة ، التى هى ثمار العقول الحرة السعيدة .

أجل جرى الشئ الكثير من النقل والمحاكاة ، وتزايد عدد الصناع الفنيين ، وتسكاثرت متحذقة العبيد بين صفوف رجال العلم الأذلاء ، إلا أن الإمبراطورية الرومانية جمعاء لم تنتج فى مدى أربعة قرون شيئاً يمكن موازنته بالنشاط العقلى الجرىء النبيل ، الذى بذلته مدينة أثينا الصغيرة نسبياً فى أثناء قرن عظمتها الوحيد ، ولم تصب أثينا فى ظلال الصولجان الرومانى إلا الانحطاط والتدهور . واضمحل علم الإسكندرية بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل فى تلك الأيام .

الفصل السادس والثلاثون

التطورات الدينية

فى ظلال الإمبراطورية الرومانية

أصيبت روح الإنسان فى عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية اليونانية إبان القرنين الأولين من الحقبة المسيحية بالاضطراب والحبوط ، فرانت القسوة والإكراه على كل ربوعها . كان هناك ، لاجرم ، الكبرياء والتظاهر ، ولكن ليس معها إلا القليل من الشرف ، وإلا القليل من الصفاء ، ومن السعادة الدائمة . وكان البؤساء محتقرين تمسين ، بينما أولو الحظوظ غير مطمئنين ، متلهفون على إشباع الرغبات تلهف المحموم . كانت الحياة تتمركز فى عدد عظيم من المدن حول انفعالات المجتلة المضرجة بالدماء حيث يصطرع الرجال والوحوش ويتعذبون ويذبحون . . . والمدرجات (١) هى أبرز عناصر الخرائب الرومانية . وتمضى الحياة على هذا النهج ، والتفاق الذى يأكل قلوب الناس يتخذ صورة القلق الدينى العميق .

فمنذ اخترقت الحشود الآرية لأول مرة حدود المدينيات العتيقة ، لم يكن مفر من أن تلم التكييفات العظيمة بالأرباب والكهانات القديمة ، أو تذهب من الوجود جملة . وقبل ذلك بمئات الأجيال ظلت الشعوب الزراعية فى المدينيات السمراء تشكل حياتها وأفكارها وفق الحياة المتركة حول المعبد .

وكانت رعاية المراسم ، والخوف من مخالفة القواعد المتبعة والتقاليد والقرايين والخفايا ، تطغى على أذهانهم . وتبدو آلهتهم فظيعة وغير منطقية فى نظر عقولنا

(١) المدرج (Amphitheatre) : مسرح دائرى فى الوسط هو المحتلة تحيط به المقاعد فى صفوف دائرية متصاعدة يملأ بعضها بعضا ، وتشرف على المحتلة . [المترجم]

العصرية ، وذلك لأننا ننتهى إلى عالم غلب عليه الطابع الآرى ، ولكن هذه الآلهة كانت لها عند هذه الشعوب القديمة نفس الإقناع المباشر ونصاعة الإشراف التى تتجلى بها الأشياء حين ترى فى حلم أخاذ . فإذا غزت دولة مدينة دولة أخرى كسومرا أو مصر القديمة ، كان معنى هذا تغير الأرباب أو الربات ، أو تغيير أسمائهم على الأقل ، ولكن شكل العبادة وروحها كانا يظلان سليمين لم يمسسهما سوء . فالتغيير لم يكن يمس هيئتها العامة من بعيد أو قريب ، فكان الصور المرئية فى الحلم كانت تتغير ، ولكن الرؤيا تظل مستمرة . ثم إن الفاتحين الساميين الأولين كانوا من وثيق المشابهة فى روحهم للسومريين بحيث اعتنقوا ديانة حضارة أرض الجزيرة التى أخضعوها ، دون أن يدخلوا على تلك الديانة أى تعديل . والواقع أنه لم يحدث أبداً أن مصر أخضعت إخضاعاً يعرضها لانقلاب دينى . فظلت معابدها ، وهياكلها ، وكهاناتها ، مصرية صميمة فى ظلال حكم البطالة والقيصرية على السواء .

وطالما كانت الفتوحات تحدث بين شعوب ذات عادات اجتماعية ودينية متماثلة ، كان فى الإمكان التغلب بعملية تجميع وتمثل - على ما بين رب هذا المعبد وهذا الإقليم ورب ذاك من تعارض ، فإذا تشابه الربان فى خصائصهما جعلاً شيئاً واحداً . فكان الكهان والناس يقولون إنه فى الحقيقة نفس الرب تحت اسم آخر ، وهذا المزج والصهر بين الأرباب يسمى توحيد الآلهة أو (الثيوكرازيا) ؛ والواقع أن عصر الفتوح العظيمة فى ألف السنة السابقة للميلاد كان عصر توحيد للآلهة ، فإن الآلهة المحليين فى مناطق مترامية كان يحل محلهم - أو بالحرى يبتلعهم - إله عام . حتى إذا ترمى الأمر بأن أعلن الأنبياء العبرانيون فى بابل على الملأ أن للعالم رباً واحداً للصالح والبر ، كانت عقول الناس مهتأة تماماً لتقبل تلك الفكرة .

ولكن كثيراً ما كانت شقة التباين بين الأرباب أشد تباعداً من أن تسمح بتمثل ذلك التمثل ، وعند ذلك كان القوم يجمعونها معاملة متمسكين لذلك أية علاقة مقبولة . ومن وسائلهم فى ذلك تزويجهم الربة الأنثى برب ذكر ، (والعالم الإيجى قبل مجيء الإغريق كان مولعاً بالربات والأمهات) ، ومنها تمثل الرب الحيوان أو الرب النجم بشراً واتخاذ الهيئة الحيوانية أو الظاهرة الفلكية كالثعبان أو النجم حلية أو رمزاً . ومنها أن رب الشعب المقهور يصبح خصماً شريراً يسمى لآلهة الشعب الغالب . وتاريخ اللاهوت

حافل بأمثال هذه التكييفات لوضع الأرباب المحليين والتوفيقات بينها وبين غيرها والتبريرات لها .

وقد حدث الشيء الكثير من هذا التوحيد بين الآلهة في أثناء تطور مصر وانتقالها من حالة دول المدن إلى حالة الدولة الواحدة الموحدة . وكان أعظم الآلهة بوجه الإجمال هو أوزيريس ، وهو إله حصاد قرباني كان المفروض أن فرعون هو الصورة الأرضية التي تجسده . ويمثل أوزيريس في صورة من يموت مراراً وتكراراً ثم يبعث حياً ؛ فكأنه لم يكن وحسب البذرة والمحصول ، بل كان يتحول أيضاً بتوسيع طبيعي للفكرة إلى وسيلة للخلود البشرى . ومن رموزه الجمل (الجعران) المديد الأجنحة ، الذي يدفن بيضه ليعث من جديد ، ومنها أيضاً الشمس المتألقة التي تغرب لتشرق ثانية . ثم تقمص فيما بعد شخصية أيبس العجل المقدس . الذي ترتبط به الربة إيزيس . أما إيزيس فهي أيضاً هاتور ، وهي بقرة ربة ، وهي الهلال ونجمة البحر . ويموت أوزيريس ، وتحمل إيزيس طفلاً هو حورس ، الذي يتمثل أيضاً صقراً معبوداً ، كما أنه هو الفجر وهو الذي يكبر ليصبح أوزيريس مرة أخرى ، وصور إيزيس تمثلها وهي تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع حورس وقد وقفت في وسط الهلال . هذه العلاقات ليست بطبيعة الحال منطقية . غير أن العقل البشرى استحدثها قبل تطور التفكير الجدى المنظم والتماسك بينها أشبه بتماسك أجزاء الأحلام .

ومن دون هذه المجموعة الثلاثية توجد آلهة مصرية أخرى أكثر غموضاً ، وهي آلهة شريرة ، منها أنوبيس الذي له رأس كلب ، والليل الأسود وما مائلهما ، وهي أرباب تلتهم وتغرى وتعادى الإنسان والرب على السواء .

وغنى عن البيان أن كل نظام دينى كان يوفق نفسه آخر الأمر طبق صورة النفس الإنسانية ، ولا شك أن الشعب المصرى استطاع أن يتخذ من هذه الرموز غير المنطقية طرائق يبت فيها صادق عبادته ويلتمس فيها العزاء والسلوى . وكانت الرغبة في الخلود قوية جداً في العقل المصرى ، حتى لقد جعلوها محورا لحياتهم الدينية ؛ فالديانة المصرية ديانة خلود بصورة لم تنهياً لأية ديانة أخرى في أى عصر من العصور . فلما خضعت مصر لفاتها الأجنب ، وولت عن الآلهة المصرية كل أهمية سياسية مرضية ، اشتد بها ذلك الحنين إلى حياة الجزاء في الدار الآخرة .

وبعد الفتح الإغريق ، أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزاً لحياة مصر الدينية بل أصبحت في الحق مركز الحياة الدينية للعالم الهليني كافة . فأقام بطلميوس الأول معبداً عظيماً هو معبد السيرايسوم ، كان يعبد فيه نوع ما من ثالوث من الأرباب ، مكون من سيرايس وإيزيس وحورس ، والأول اسم جديد أطلق على أوزيريس أبيس . ولم يكن الناس يعدونها أرباباً منفصلة ، بل هيئات ثلاثاً لإله واحد ؛ ثم ذهبوا إلى أن سيرايس هو زيوس الإغريقي ، وأنه جوبيتر (أى المشتري) الرومانى وإله الشمس الفارسى ، وانتشرت هذه العبادة حينما بسط النفوذ الهليني ألويته ، حتى لقد بلغ شمال الهند وغرب الصين .

ولا عجب أن تسود فكرة الخلود ، خلود المثوبة والسلوى ، وأن يتلقفها بشوق عالم كانت فيه حياة الناس العاديين فى تعس يحطم كل رجاء . وكان سيرايس يسمى « مخلص النفوس » ، ولو تأملت تراويل ذلك الزمان لوجدتها تقول : « لن نبرح بعد الموت فى ظلال عنايته الربانية » . أما إيزيس فكانت تجتذب إليها كثيراً من الأنفس المتعبدة القانتة . وتمثيلها المقامة فى معابدها كانت تمثلها فى صورة ربة السماء وهى تحمل بين ذراعيها طفلها حورس . وكانت الشموع توقد أمامها ، كما كانت النذور تقدم إليها ، على حين أن الكهان الحليقيين الناذرين أنفسهم للعزوبة كانوا يقومون على خدمة هيكلها .

أفضى قيام الإمبراطورية الرومانية إلى فتح أبواب عالم أوربا الغربية لهذه العقيدة النامية . ومن ثم رسمت معابد سيرايس إيزيس ، وتراويل الكهان والأمل فى حياة الخلود خطى الأعلام الرومانية إلى اسكتلنده وهولنده . على أن منافسى ديانة سيرايس إيزيس كانوا كثيرين . ومن أبرز هؤلاء المنافسين الديانة المثرائية . وهى ديانة ذات أرومة فارسية ، وتتمركز حول خفايا نسيت اليوم ، مدارها ميثرا وهو يضجى بعجل مقدس محب للخير ، وكأنى هنا أرى شيئاً بدائياً جداً وأقدم كثيراً من معتقدات سيرايس إيزيس المعقدة المصطنعة . فنحن هنا نذكر راجعين مباشرة إلى عهد القرابين الدموية لمرحلة العصر الشمسى الحجري من الثقافة البشرية . والعجل المرسوم على الآثار المثرائية ينزف دائماً بغزارة من جرح فى جنبه ، ومن هذا الدم تلبع الحياة الجديدة . وكان من ينقطع لعقيدة ميثرا يستحم فعلاً فى دم العجل الضحية . فإذا حل يوم انخراطه فى العهد دخل تحت سقالة يذبح عليها عجل ليسيل عليه الدم فعلاً .

وكل من هاتين العقيدتين ديانة شخصية : وهو قول يصدق على كثير من العقائد العديدة المتماثلة التي كانت تنشأ ولواء الأرقاء والمواطنين في عهد أباطرة الرومان الأول . وهي شخصية ، لأنها تهدف إلى الخلاص الشخصي والخلود الشخصي . ولم تكن الديانات القديمة شخصية على مثل هذا النحو ، بل كانت اجتماعية . والأصل في الطراز القديم للمعبود أن يكون ربا أو ربة للمدينة أو للدولة أولا ، ولم يكن إلهاً للفرد إلا في المحل الثاني . وكان تقديم القرابين ووظيفة عامة لا خاصة . ذلك أنها تتصل بالحاجات العملية للجماعة في هذا العالم الذي نعيش فيه . ولكن الإغريق ومن ورأهم الرومان قد أبعدوا الديانة عن مجال السياسة . فالديانة قد انسحبت إلى العالم الآخر تقودها التقاليد المصرية .

واستطاعت ديانات الخلود الفردى هذه أن تسلب من الديانات القديمة التابعة للدولة كل ما تحتويه من عزم وعاطفة ، بيد أنها لم تحل محلها فعلا . والمدينة النموذجية في عهد أباطرة الرومان الأول هي التي كانت تحوى عدداً من المعابد المشيدة لعبادة جميع أنواع الآلهة . وربما وجدت بها معبداً لجوبيتر [المشتري] الكابيتولى رب روما العظيم ، وربما وجدت هناك أيضاً معبداً آخر للقيصر المتربع على العرش .

ذلك أن القياصرة تعلموا من الفراعنة أن الألوهية شيء ممكن . وكانت تقام في مثل هذه المعابد عبادات ذات طابع سياسى نخمة المظهر ولكن لا روح فيها ، وهناك كان الناس يدلفون ليقدموا الذبائح ، ويحرقون شيئاً من البخور ليظهروا ولاءهم لقيصر ، ولسكن معبد إيزيس ملكة السماء العزيزة ، هو الذى تهيمو إليه القلوب ، وتسعى أقدام كل فرد من فئواد المتعاب ، ينشد النصيحة وتفريج الكرب ، وربما وجدت آلهة محلية ذات طابع شاذة . فقد ظلت مدينة إشبيلية زمنأ مديداً تعبد « الزهرة » ربة القرطاجيين القديمة . وربما وجدت في هذا الكهف أو المعبد المقام تحت الأرض هيكلاً لثرا ، يقوم على خدمته الجند والأرقاء . وربما وجدت أيضاً بيعة يجتمع فيها اليهود ليقروا توراتهم وليشدوا من اعتقادهم في الرب غير المنظور لهذا العالم بأجمعه . وقد يحدث الخلاف أحيانا مع اليهود من جراء الجانب السياسى من عقيدة الدولة . ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ربهم رب غيور لا يسمح بعبادة الأوثان . وإنهم ليأبون أن يشتركوا في القرابين العامة التي تقدم لقيصر . وإنهم ليرفضون حتى أن يحيا الأعلام الرومانية خشية أن ينطوى ذلك على عبادة الأوثان .

وهناك في بلاد الشرق كان الزهاد موجودين قبل عهد بوذا بزمن مديد ، وهم رجال ونساء انصرفوا عن معظم ملذات الحياة ونبذوا الزواج والملكية ، والتمسوا القوة الروحية والفرار من ويلات الدنيا وهمومها بالتقشف والألم والوحدة . ولعلكم تذكرون أن بوذا نفسه قد اعترض على الإسراف في الزهادة ، ولكن ذلك لم يمنع كثيراً من تلاميذه من أن يعيشوا عيش رهبنة ممن في الشظف . وثمة العقائد الإغريقية الخفية التي كانت لها أنظمة شبيهة بهذه ربما غلت إلى حد التنكيل بالنفس . وظهر الزهد بين المجتمعات اليهودية في يهوذا والإسكندرية في القرن الأول ق . م ، أيضاً ؛ فكانت جماعات من الناس تتخلى عن العالم وتستسلم للتقشفات والتأملات الصوفية . ومن هؤلاء طائفة الإسينيين^(١) . وانصرم القرنان الأول والثاني الميلاديان والعالم كله غارق أويكاد في نزوعه إلى مثل هذا التبرؤ من الحياة ، ممن في نشدانه العام « للخلاص » من محن الزمان . فلقد ولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم ، وولت معه الثقة القديمة في القسيس والمعبد والقانون والعرف .

وفي هذا الجو الذي يعمه الرق والقساوة والخوف والقلق والتبديد والتظاهر بالمظاهر والتهافت على إشباع الملذات ، كان ينتشر في الناس هذا الوباء ، وباء الاشمئزاز الذاتي وعدم الاطمئنان العقلي ، وكان يتفشى فيهم هذا الالتماس الأليم للسلام وإن نالوه مقابل التخلي عن الدنيا والمسكبة الإرادية للآلام . تلك هي الحال التي طالما ملأت السرايوم بالنادمين والباكين واجتلبت المؤمنين إلى ظلمة الكهف ودمائه الدافقة .

(١) الإسينيون (Essenes) هيئة من الزهاد اليهود بفلسطين قبل ظهور المسيحية ، نظموا حياتهم على قواعد تماثل قواعد عيش الرهبنة التي ظهرت فيما بعد ومارسوا طريقة المشاركة في السلم . وقد ذكرهم من المؤرخين فيلون ويوسيفوس وبليني .
[المترجم]

الفصل السابع والثلاثون

تعاليم يسوع

ولد يسوع مسيح النصرانية في يهوذا ، إبان حكم أوغسطس قيصر أول قيصرية روما . وباسمه نشأ دين قدر له أن يصبح الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية بأجمعها .

وعندى أنه من الأوفق بصورة إجمالية أن نباعد بين اللاهوت والتاريخ . فإن شطراً عظيماً من العالم المسيحي يعتقد أن عيسى كان الصورة الجسدية لذلك الإله رب العالم أجمع الذي كان اليهود أول من عرفه . والمؤرخ لا يستطيع - إن هو شاء أن يحتفظ بصفته تلك - أن يقبل ذلك التأويل أو ينكره . كان عيسى يبدو من الناحية المادية في صورة إنسان ، ولذا وجب على المؤرخ أن يتناوله بوصفه إنساناً .

ظهر في يهوذا في أثناء حكم تيريوس قيصر . كان نبياً ، يبشر على طريقة من سبقوه من أنبياء اليهود . كان عمره يناهز الثلاثين ، أما منوال حياته قبل أن يبدأ التبشير برسالاته فذلك أمر نجعله جهلاً تاماً .

فليس لدينا مصدر مباشر للعالم بحياة عيسى وتعاليمه إلا الأناجيل الأربعة . وكلها تجمع على إعطائنا صورة لشخصية قوية التحديد ، لايسع المرء منا إلا أن يقول : « لاشك أن بين أيدينا إنساناً ، وليس في الإمكان أن يكون خبره هذا مفتعلاً » .

ولكنك تكاد تمس ، أنه كما أن شخصية جوتاما بوذا ، قد شوهرها وأخفاها ذلك التمثال الجامد الجالس القرفصاء ، صنم البوذية المتأخرة المذهب ، فكذلك شخصية يسوع النجميلة الدوب المجهدة قد أضربها كثيراً جو تقليدى لايمت إلى الحقيقة بسبب ، فرضه على شخصه في الفن المسيحي الحديث توقيير خاطئ . كان يسوع معلماً معدماً ، يتجول في أرجاء بلاد يهوذا المتربة تحت لفحات الشمس المحرقة ، ويعيش على ما يتلقى

من هبات عارضة من الطعام ، ومع هذا فإن ذلك الفن يمثله على الدوام نظيفاً ممشط الشعر وضياء الحيا نقي الشيا ب منتصب القامة ، وحوله جو هيو لى سا كن لا يتحرك كأنما هو منزلق على أجنحة الأثير . وهذا الأمر وحده هو الذى جعله يبدو شيئاً خيالياً غير حقيقى فى عين كثير من الناس ممن لا يستطيعون أن يميزوا لباب القصة من زخرف الإضافات الزائفة الخرقاء التى ضمها إليها القاتنون الجهلة .

وإذا نحن جردنا هذا السجل من تلك الإضافات العسيرة ، بقينا وجهها لوجه أمام صورة إنسان كامل الإنسانية جدا ، جاد جدا وعاطفى معرض للغضب السريع ، وهو يعلم الناس مبدأ جديداً بسيطاً عميقاً : — هو أبوة الرب المحبة الشاملة وظهور ملكوت السموات . وواضح أنه كان شخصا ذا جاذبية شخصية حادة ، إن جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير العادى ، فإنه كان يجتذب إليه الأتباع ويملا قلوبهم محبة وشجاعة . وكان وجوده يشد من عزم الضعفاء والمرضى ويشفيهم ، ومع ذلك فإنه كان ذا بنية ضعيفة ، وذلك بسبب موته السريع تحت آلام صلبه . إذ يروى أنه أغمى عليه عند ما كلف كما جرت بذلك العادة ، بحمل صليبه إلى مكان التنفيذ . ظل يتجول فى البلاد نحو ثلاث سنوات وهو ينشر مبادئه ، وهبط أورشليم ، واتهم بمحاولة إقامة مملكة عجيبة فى يهوذا فحكم بهذه التهمة ، و صلب مع اثنين من اللصوص . وقبل أن يموت هذان بزمن طويل كان قد أسلم الروح .

ولا شك أن مذهب ملكوت السموات الذى هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد المذاهب الثورية التى حركت الفكر الإنسانى فى جميع العصور . فلا عجب إذن أن فات عالم ذلك الزمان أن يفهم معناها الكامل ، وأن ينكص على عقبيه فزعا من أى فهم — مهما دق — لتحدياتها الهائلة لما يرسخ لدى الناس من عادات ونظم . ذلك أن مذهب ملكوت السموات كما يلو ح أن يسوع كان يعلمه للناس ، لم يكن إلا طلبا جريئاً لا تسامح فيه يطالب بتغيير كامل وتطهير تام لحياة جنسنا المكافح ، تطهير مطلق من الداخل والخارج على السواء .

وعلى القارىء أن يلجأ إلى الأناجيل التماسا للبقية الباقية من تلك الفكرة الهائلة ؛ فكل ما يهمنا فى هذا المقام إنما هو الهزة التى أحدثها اصطدامها بالفكرات المستقرة القديمة .

كان اليهود يؤمنون بأن الله الرب الأحد للعالم الأجمع ، كان رب بر وصلاح ، ولكنهم كانوا يقولون أيضا بأنه رب تاجر ، أتم في شأنهم صفقة مع أبيهم أبراهام ، صفقة رابحة جدا لصالحهم والحق يقال ، يتعهد بها أن يرتفع بهم في النهاية إلى السيادة على الأرض ١١١ . فلا عجب إذن أن يأخذهم الفزع والغضب حين يسمعون يسوع وهو يحطم أمامهم نفيس ضماناتهم . ذلك أنه راح يعلم الناس أن الله ليس صاحب صفقات ، وأن ليس هناك شعب مختار ولا قوم ينالون الحظوة في مملكة السماوات ، وأن الله هو الأب المحب للأحياء أجمعين ، وأنه كالشمس تماما لا يستطيع أن يحبوا أحدا دون غيره بحظوة ، وأن الناس جميعا إخوة — كلهم خاطيء مذنب ، وكلهم ابن محبوب . لذلك الأب الإلهي ، وأن يسوع ليصب في قصة السامري الطيب جام سخريته على ذلك الميل الطبيعي الذي نخضع له جميعا ، وهو تمجيدنا لقومنا والتقليل من نصيب العقائد الأخرى والشعوب الأخرى من البر . ثم إنه في قصة العمال يذبذ ظهريا ادعاء اليهود العنيد في أن لهم على الله حقا معيناً . وعلم الناس أن كل من أخذه الله في الملكوت ، حباه برعاية واحدة لا تفريق فيها ، فالله لا يعرف تمييزا في معاملته لعباده ، إذ لا حد لطيبته وفضله . وهو يتطلب من الجميع قصاراهم كما يتجلى ذلك في أمثلة العملة المدفونة ، وكما تعززه حادثة فلس الأرملة . وليس في ملكوت السماوات امتيازات ، ولا تخفيض مالي ولا معاذير .

ولكن يسوع لم يقتصر فقط على انتهاك وطنية اليهود القبلية الحادة — وهم كما هو معلوم ، شعب ذو ولاء قبلي قوى — بل راح يزيج كل عاطفة قبلية ضيقة ، تنطوي على التحديد في ذلك الفيضان العظيم : فيضان حب الله . إذ لا بد لمملكة السماء بأكملها أن تشمل عائلة أتباعه . والإنجيل يحدثنا أنه « وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجين طالبين أن يكلموه . فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك . فأجاب وقال للقائل له : من هي أمي ومن هم إخوتي ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمي وإخوتي ، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي » (١) .

ولم يكتف يسوع بتوجيه الضربات إلى الوطنية ، وإلى روابط الولاء القبلى باسم أبوة الله الجامعة وأخوة البشر جميعا ، بل كان من الواضح أن تعاليمه كانت تهاجم كل ما يحتويه النظام الاقتصادى من تدرج ، وتنتقص كل ثروة خاصة وكل منفعة شخصية. ذلك أن الناس جميعا ينتمون إلى الملكوت ، وأن ممتلكاتهم جميعا تنتمى إلى الملكوت ، وأن الحياة البرة للناس جميعا ، الحياة البرة الوحيدة ، إنما تقوم فى خدمة إرادة الله بكل ما نملك ، وبكل أفئدتنا . وظل يذم الثروة الخاصة مرة بعد أخرى ، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة .

« وفيما هو خارج إلى الطريق ، ركض واحد وجثا له ، وسأله : أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدعوتنى صالحا ، ليس أحدا صالحا إلا واحد وهو الله . أنت تعرف الوصايا : لا تزن ، لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، لا تسلب ، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له : يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثى . فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال له : يعوزك شىء واحد ، اذهب بع كل مالك واعط الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى حاملا الصليب . فاغتنم على القول ومضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة . فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه : ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ! فتحير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع أيضا وقال لهم : يا بنى ، ما أعسر دخول المتكئين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله (١) » .

وفضلا عن ذلك ، فإن يسوع قد ضاق بما للديانة الرسمية من بر قائم على المساومات ، وذلك بسبب نبوءته الهائلة بذلك الملكوت الذى يتحد فيه الناس جميعا فى ذات الله ، ثم إن شطرا عظيما مما سجل من أحاديثه موجه إلى المبالغة الشديدة فى الأخذ بأصول التقوى وحياة التقى . « ثم سأله الفريسيون والكتبة لماذا لا يسلك تلاميذك حسب تقليد الشيوخ بل يأكلون خبزا بأيديهم غير مغسولة ؟ . فأجاب وقال لهم حسنا تنبأ إشعياء عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب . هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد

(١) إنجيل مرقس الإصحاح العاشر ١٧ — ٢٥ .

عنى بعيدا . وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس . غسل الأباريق والكؤوس وأمورا أخرى كثيرة مثل هذه تفعلون . ثم قال لهم حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم» (١) .

لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة خلقية أو اجتماعية ؛ بل إن هناك عشرات الشواهد التى تدل بجلاء على أن تعاليمه كانت تنطوى على لمسة سياسية من أبسط الأنواع . حقا إنه قال إن مملكته لا تنتمى إلى هذا العالم ، وإن مكانها فى قلوب الرجال وليس عرشا من العروش ؛ ولكن لا يقل عن ذلك وضوحا أنه حيثما قامت مملكته من قلوب الناس ومهما يكن مقدارها فى تلك القلوب ، فإن العالم الخارجى يتجدد ويلم به الانقلاب بنفس النسبة .

ومهما يكن ما فات سامعيه من أقواله الأخرى بسبب عمائتهم أو صممهم ، فمن الجلى أنهم لم يفهم تصميمه على إحداث انقلاب فى العالم . فإن اتجاه المعارضة التى لقيها والظروف التى أحاطت بمحاكمته وإعدامه ، تدل بأجلى بيان على أن معاصريه كانوا يرون فيه صورة من يقترح صراحا ، بل يرون أنه اقترح صراحا — تغيير الحياة الإنسانية بأجمعها وصهرها وتحريرها .

وإذا راعينا ما قاله صراحا ، لم نجد غرابة فى أن يشعر كل غنى وكل موفق رغيد الحال بشعور الرعب من التعاليم الجديدة الغريبة ، ويحس أن عالمه يدور به بسبب هذه التعاليم . ذلك أنه كان يحاول استخراج كل مدخراتهم التى جمعوها عن طريق الخدمة فى المجتمع ليصبه فى خضم حياة ديلية جامعة . كان أشبه الناس بصائد خلقى رهيب يستخرج البشرية من القبور القديمة الوادعة التى كانت تعيش فيها حتى حين ، ولم يكن يجوز أن يحتوى الضياء الوهاج للكوته على ملكية ولا امتياز ولا كبرياء ولا أسبقية . ولم يكن هناك فى الواقع أى حافز ولا مشوبة إلا المحبة . أفعجيب إذن أن تنهر عيون الناس وأن تنخطف أبصارهم وأن يتصايحوا به ؟ حتى لقد بلغ الأمر أن تصايح تلاميذه أنفسهم عند ما لم يقبل أن يفهمهم من باهر الضياء ، أعجيب إذن أن يدرك الكهنة أنه ليس بينهم وبين ذلك الرجل خيار ، فإما أن يهلك هو وإما أن تهلك الكهنة ؟ أعجيب إذن أن

(١) لإنجيل مرقس الإصحاح السابع ٥ — ٩ .

ياجباً الجند الرومان وقد واجههم وأذهلهم ذلك الشيء الذى يخلق فى الأجواء فوق أفهامهم ويهدد جميع أنظمتهم - أقول يلجئون إلى الضحك الضارى يتوارون وراءه ، وأن يتوجوه بتاج من الأشواك وأن يلبسوه اللون الأرجوانى ويتخذوا منه قيصراً هنزوا ! ذلك أن أخذه مأخذ الجسد كان معناه الدخول فى حياة غريبة مزعجة ، والتخلى عن مألوف العادة ، وضبط الغرائز والدوافع ، وتجربة ضرب من سعادة لم تخطر لهم على بال .

الفصل الثامن والثلاثون

تطور المسيحية المذهبية

لو اطلعنا على الأناجيل الأربعة لوجدنا فيها شخصية عيسى وتعاليمه ، ولم نعتز إلا على النزر اليسير من مذاهب الكنيسة المسيحية . على أن الرسائل ، وهى سلسلة من الكتابات سطرها أتباع عيسى المبشرون ، هى التى بسطت فيها الخطوط العريضة للعقيدة المسيحية .

وكان القديس بولس من أعظم من أنشئوا المذهب المسيحى . وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس . وكان اسم بولس فى الأصل شاول ، وكان فى بادئ الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس . أوتى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة ، كما كان شديد الاهتمام والحمية لحركات زمانه الدينية . فتراه على علم عظيم باليهودية والميثرائية وديانة ذلك الزمان التى تعتقها الإسكندرية . فنقل إلى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يأت إلا بالقليل فى توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية ، وأعنى بها فكرة « ملكوت السموات » . ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب ، ولا زعيم اليهود الموعود فقط ، بل إن موته كان تضحية - مثل ممات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة فى أيام الحضارات البدائية - من أجل خلاص البشرية .

وعندما تزدهر الديانات إحداها إلى جوار الأخرى تنزع إلى التقاططقوس بعضها من بعض وغيرها من الخواص الخارجية . مثال ذلك أن البوذية فى بلاد الصين تملك اليوم نفس نوع المعابد والكهان والعرف الذى كان للتاوية ، التى تتبع تعاليم لاهوتسى . ومع ذلك فإن التعاليم الأصلية للبوذية والتاوية متضادة على خط مستقيم تقريباً .

وليس مما يشين المسيحية أو يبعث الشك فى تعاليمها الجوهرية أنها استعارت أشياء شكلية كالقسيس الحليق وتقديم النذور والهياكل والشموع والتراتيل والتماثيل

التي كانت لعقائد مثراس والإسكندرية ، بل تبنت أيضاً حتى عباراتها في عبادتها وأفكارها اللاهوتية ، ذلك أن هذه الديانات كانت جميعاً تزدهر إلى جوار كثير من العقائد القليلة الأهمية ، وكانت كل واحدة منها تلتمس الأنصار ، ولا بد أن المعتنقين لها كانوا ينتقلون باستمرار من إحداها إلى الأخرى ، وربما حظيت إحداها أو الأخرى يوماً بالخطوة لدى الحكومة ، على أن المسيحية كانت موضع الشك أكثر من منافساتها ، وذلك لأن أنصارها كانوا كاليهود يأبون أن يعبدوا القيصر الرب . من أجل ذلك اعتبرت ديناً يدعو إلى التمرد والفتنة ، وذلك فضلاً عن الروح الثورية التي تبثها تعاليم يسوع نفسه .

وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الداهية إلى أن شأن عيسى كشأن « أوزيريس » : كان رباً مات ليبعث حياً ولينح الناس الخلود ، وسرعان ما مزقت المنازعات اللاهوتية المعقدة المجتمع المسيحي كل ممزق ، والعقيدة بعد في طور الانتشار ، فاستعرت الخلافات حول علاقة هذا الرب يسوع « بالله » أبي البشرية . فذهب أتباع آريوس إلى أن عيسى إله ، غير أنه متميز عن الآب وأدنى منه مرتبة . وعلم أتباع سايلليوس^(١) أن يسوعاً لم يكن إلا مجرد أقنوم من أقانيم الآب ، وأن الله هو يسوع والآب في الوقت نفسه ، مثلما يمكن أن يكون الرجل والآ وصانعاً في نفس الوقت ؛ وارتأى الثالوثيون مذهباً أكثر دقة وغموضاً يقول بأن الله واحد وثلاثة في وقت معاً ، وأنه آب وابن وروح قدس .

وانقضى ربح من الزمن لاح فيه أن مذهب آريوس سيفوز بالنصر على منافسيه ، ثم حدثت منازعات ، وثارَت مشاحنات عنيفة ، ونشبت حروب أسفرت عن فوز مبدأ الثالوثيين بالقبول لدى العالم المسيحي بأكمله . ومن الممكن العثور على ذلك المبدأ في أتم صورة في عقيدة القديس اثناسيوس .

ولن ندلى هنا بأي تعقيب على هذه الخصومات ، فهي لا تؤثر في التاريخ أثر تعاليم يسوع الشخصية . إذ يلوح محققاً أن تعاليم عيسى الشخصية تؤذن بطور جديد في حياة جنسنا الخلقي والروحية . فإن إصرارها على أبوة الله الشاملة ، وعلى قيام أخوة ضمنية

بين الناس جميعاً ، وإصرارها على قداسة كل شخصية إنسانية بوصفها معبداً حياً لله ، أمور كتب أن يكون لها أعمق الأثر في كل ما عقب ذلك من حياة البشرية ، من الوجهتين السياسية والاجتماعية . فقد ظهر في العالم بمجيء المسيحية وانتشار تعاليم يسوع احترام جديد لشخصية الإنسان في حد ذاته . أجل ربما صح أن القديس بولس كان يعلم العبيد الطاعة ، كما كان يدفع بذلك بعض نقاد المسيحية المعادين ، ولكن يعدل ذلك في صدقه أن روح تعاليم يسوع بأجمعها ، كما تحفظها لنا الأناجيل ، تناهض إذلال الإنسان الانسان . هذا إلى أن المسيحية عارضت بشكل أوضح انتهاك الكرامة الإنسانية الذي يحدث في مثل مصارعات المجالدين^(١) في المجتهد .

انتشرت تعاليم الديانة المسيحية في كل أرجاء الإمبراطورية الرومانية إبان القرنين اللذين أعقبا ميلاد المسيح ، وأخذت توثق الروابط بين جمهور من المتنصرين لا يبرح يزداد في كل آن ، ونخلق منه مجتمعاً مرتبطاً بأواصر الفكرات والإرادة . واختلف موقف الأباطرة منها ، فمنهم من عاها ، ومنهم من تسامح معها ، وبذلت في كل من القرنين الأول والثاني محاولات للقضاء على هذه العقيدة ، وانتهى الأمر في ٣٠٣ وما عتمها من أعوام بأن أنزل بها الإمبراطور دقلديانوس اضطهاداً عظيماً ، فصودرت أملاك الكنيسة الضخمة وجميع الكتب المقدسة والكتابات الدينية ثم دمرت ، وأهدرت دماء المسيحيين على أنهم خارجون على القانون ، وأعدم كثير منهم .

وتدمير تلك الكتب أمر جدير بالملاحظة بوجه خاص ، فهو يبين كيف عرفت السلطات قدرة الكلام المكتوب على ربط أتباع العقيدة الجديدة معاً ، وكانت « عقائد الكتب » هذه المسيحية واليهودية ، ديانات تعلم الناس ، وكان استمرار بقائها يعتمد إلى حد كبير على قدرة الناس على قراءة أفكارها المذهبية وتفهمها ، ولم تكن الديانات قديمة العهد ترجع مثل هذا الرجوع إلى ذكاء الأفراد ، حتى إذا أقبلت عصور الموضى البربرية التي أخذت ظلماتها تغشى أوربا آنذاك ، كانت الكنيسة المسيحية هي الوسيلة الفعالة في المحافظة على التراث العلمي .

فشل اضطهاد دقلديانوس فشلاً تاماً في القضاء على المجتمع المسيحي النامي ، وكان

(١) المجالدين Gladiators : هو مصارع محترف بروما القديمة يتصارع مع الرجال أو الحيوانات في المجتهد ، وهو الجزء المخصص للمصارعات من المدرج القديم وهو مفروش بالرمل ليصطرع فيه الرجال . [المترجم]

عديم الأثر في كثير من الولايات ، وذلك لأن كتلة السكان وكثيراً من الموظفين كانوا من المسيحيين . ثم صدر في ٣١٧ مرسوم بالتسامح أصدره الإمبراطور جاليريوس الشريك^(١) . وفي ٣٢٤ أصبح قسطنطين الأكبر الحاكم الوحيد للعالم الروماني ، وهو صديق للمسيحية . كما أنه اعتنقها حين عمده وهو على فراش موته . فتخلى عن كل مدعياته في الألوهية ، ووضع شارات المسيحية ورموزها على دروع جنوده وألويتهم ...

ولم تمض بضعة سنوات حتى توطدت قدم المسيحية وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية . أما الأديان المنافسة لها فقد اختفت أو اندمجت في غيرها بسرعة خارقة ، وفي ٣٩٠ أمر ثيودوسيوس الأكبر بتدمير تمثال جوبيتر سراييس بالإسكندرية . ولم يعد هناك كهنة ولا معابد في الإمبراطورية الرومانية إلا كهنة المسيحية ومعابدها ، منذ بداية القرن الخامس الميلادي فصاعداً .

(١) أشركه معه دقلديانوس في الحكم في ٣٠٥ ، وجعله قيصرًا على إيليريا Illyricum والأقاليم الدانوبية . وانفرد بحكم الإمبراطورية الشرقية في ٣٠٥ منه تنازل دقلديانوس [الترجم]

الفصل التاسع والثلاثون

البرابرة يشطرون الإمبراطورية

إلى شطرين : شرقي وغربي

ظلت الإمبراطورية الرومانية تواجه البرابرة طوال القرن الثالث الميلادي ، وهي تضمحل اجتماعياً وتنحل خلقياً . وكان أباطرة تلك الفترة مقاتلة عسكريين مستبدين ، كما أن عاصمة الإمبراطورية راحت تتنقل حسبما تقتضيه ضرورات سياستهم الحربية . فتكون القيادة الإمبراطورية في ميلانو آنأ ، وآنأ آخر فيما يسمى الآن ببلاد الصرب بمدينة سيرميوم أونيش ، أو تسكون بنيقوميديا^(١) إحدى مدن آسيا الصغرى . ذلك أن مدينة روما الواقعة في منتصف شبه الجزيرة الإيطالية كانت من البعد عن مركز النفوذ والسلطان بحيث لاتصلح أن تسكون قسبة ملائمة للإمبراطورية ، ولذا أخذ الاضمحل يدب إليها .

أجل لم يبرح السلام يرفرف على معظم أجزاء الإمبراطورية ، وكان الناس يتنقون في ربوعها دون حاجة إلى حمل سلاح . كما أن الجيوش ظلت معقل القوة ومصدرها الأوحد ؛ ولكن الأباطرة الذين كانوا يعتمدون على كتائبهم ما انفسكوا يزدادون استبداداً ببقية أجزاء الإمبراطورية وتزداد دولتهم في كل آن شهاً بدولة الفرس وغيرهم من ملوك الشرق . حتى لقد بلغ الأمر بدقلديانوس أن اتخذ لنفسه تاجاً ملكياً وارتدى ثياباً شرقية .

وفي إبان ذلك كان أعداء الإمبراطورية يضغطون بشدة على امتداد حدودها بأكلها ، وكانت الحدود تمتد على طول نهري الرين والدواب بوجه التقريب ، فقد

(١) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شاطئ بحر مرمرية ومكانها لازميت العصرية . [المترجم]

تقدم الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية حتى نهر الرين ، واحتل الوندال شمال بلاد المجر ؛ بينما نزل القوط الغربيون فيما كان يسمى آنذاك باسم « داكيا » التي هي رومانيا الحالية . ومن وراء هؤلاء بمجنوب روسيا استقر القوط الشرقيون ، بينما حل من ورأهم الألمان (Alans) بإقليم الفولجا ، وليت الأمر اقتصر على هؤلاء ، فإن الشعوب المغولية كانت تشق آنذاك طريقها شقاً نحو أوروبا . وكان الهون يفرضون الجزية وقتلوا على الألمان والقوط الشرقيين ويدفعونهما غرباً .

أما في آسيا فإن الترخوم الرومانية أخذت تتصدع وتراجع بضغط دولة فارسية فتية ناهضة . وقد قدر لدولة الفرس الجديدة هذه ، التي أقام دعائمها ملوك بني ساسان ، أن تصبح منافساً قوياً محبوباً بالنجاح في جملة الأمر ، وخصماً لدوداً بآسيا للدولة الرومانية إبان القرون الثلاثة التالية .

ولو أن القاريء ألقى نظرة على خريطة أوروبا لأدرك مظاهر ضعف الإمبراطورية . فإن نهر الدانوب يتحول مجراه حتى يصبح على بعد لا يتجاوز مائتي ميل من البحر الأدرياتي بالمنطقة التي يسمونها اليوم باسم أقاليم الصرب والبوسنة . وهناك ينحرف شرقاً محدثاً زاوية قائمة منعكسة .

ولم يكن الرومان يهتمون بالمحافظة على مواصلاتهم البحرية وحسن نظامها ، ولذا كانت هذه السليخة الضيقة من الأرض التي لا تتجاوز المائتي ميل خط مواصلاتهم الوحيد بين شطر إمبراطوريتهم الغربي الناطق باللاتينية وشطرها الشرقي الناطق باليونانية ، وكان ضغط البرابرة أعظم ما يكون في تلك الزاوية القائمة من نهر الدانوب . حتى إذا اخترقوها أصبح انقسام الإمبراطورية إلى شطرين أمراً لا مفر منه .

ولو وجدت مكان الإمبراطورية الرومانية دولة أقوى بأساً لرحفت أمامها واستردت مقاطعة « داكيا » ، ولكن تلك الإمبراطورية كانت تعوزها مثل تلك الشكيمة القوية . .

ومن المحقق أن قسطنطين الأكبر كان عاهلاً شديداً للإخلاص والذكاء ، فصد غارة للقوط جاءت من تلك المناطق البلقانية الحيوية نفسها ، ولكنه لم يملك من القوة العسكرية ما يتيح له أن يدفع الحدود إلى ما وراء الدانوب . كما أنه شديد الانشغال بضعف الإمبراطورية الداخلية وإصلاح عيوبها . فلجأ إلى ما للمسيحية من قوة تماسك

وروح معنوية راجياً أن يبتعث بهما روح الإمبراطورية المتداعية ، كما قرر أن ينشئ لها عاصمة جديدة دائمة مقرها بيزنطة على مضيق البوسفور . وراح يعيد بناء المدينة من جديد ، ويطلق عليها اسماً جديداً هو القسطنطينية تيمناً باسمه ، ولكنه قضى نحبه قبل أن يتم عمله .

وحدثت في آخر أيام هذا العاهل صفقة عجيبة ، فإن القوط ضغطوا على الوندال فلجأ هؤلاء إلى الإمبراطورية يلتمسون قبولهم بها ، فمضوا بعض الأراضي في پانونيا ، التي هي اليوم شطر بلاد المجر الواقع غرب نهر الدانوب ، وأصبح مقاتلتهم في مقابل ذلك فرقة من جند الإمبراطور اسماً . على أن هؤلاء الجند الجدد ظلوا تحت إمرة رؤسائهم الأصليين ، ولذا فشلت روما في هضمهم .

مات قسطنطين وهو مكب على إعادة تنظيم مملكته ، وسرعان ما اخترق القوط الغربيون حدودها وتقدموا حتى أوشكوا أن يبلغوا القسطنطينية ، فهزموا الإمبراطور فالز عند أدرنه ، ثم عقدوا تسوية استقروا بها بمنطقة بلغاريا الحالية مثلما استقر الوندال في پانونيا . وبهذه التسوية صاروا رعايا للإمبراطور بالاسم فقط ، ولكنهم في الواقع غزاة فاتحون .

وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبر (٣٧٩ - ٣٩٥) ، ظلت الإمبراطورية متماسكة من الناحية الشكلية . وكانت جيوش إيطاليا وپانونيا تحت قيادة استيلييكو الوندالي ، بينما كان على رأس جيوش جزيرة البلقان ألياريك وهو من القوط . ولما مات ثيودوسيوس عند نهاية القرن الرابع ترك من ورائه ولدين . فناصر ألياريك أحدهما وهو (أركاديوس) بالقسطنطينية ، وظاهر استيلييكو أخاه الآخر (هونوريوس) بإيطاليا . ومعنى ذلك عبارة أخرى أن ألياريك ومنافسه استيلييكو اقتتلا على الإمبراطورية متخذين من الأميرين العوبة في أيديهما ، وفي غضون ذلك الكفاح ، زحف ألياريك على إيطاليا ، واستولى على روما بعد حصار قصير (٤١٠ م) .

شهد النصف الأول من القرن الخامس وقوع الإمبراطورية بأكملها بين براثن جيوش من اللصوص أو البرابرة . ويكاد يعسر علينا تصور صورة حقة لأحوال العالم إبان تلك الفترة . فالمدن العظيمة التي ازدهرت في ظل الإمبراطورية الأولى بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وشبه جزيرة البلقان لم تزل قائمة عند ذاك ، ولكن الفقر عضها بنابه

وهجرها سكانها وعدت عليها عوادي الاضمحلال . ولا بد أن الحياة بها قد أصبحت سطحية منحطة مفعمة بعدم الاطمئنان إلى المستقبل ، كما أنه لا شك في أن الموظفين المحليين ظلوا يظهرون سلطانهم ويواصلون أعمالهم كل حسب ما أوتى من ضمير ، وذلك باسم الإمبراطور الذي أصبح عندئذ بعيداً أعظم البعد ولا سبيل إلى الوصول إليه . وواصلت الكنائس عملها ولكن على يد قساوسة معظمهم في العادة من الأميين . وقل القراء والقراءة وانتشرت الخرافات واستبدت بالناس المخاوف . ولكن السكتب والتماثيل والصور وما مائلها من إنتاج فني لم تبرح موجودة في كل مكان ، اللهم إلا حيث دمرها الناهبون والمعتدون .

دب الانحلال أيضا في حياة الريف . فزایل الخير وحسن الشكل كل أصقاع ذلك العالم الروماني . فبعض المناطق أحال الحرب والوباء أرضها الزراعية إلى يباب مقفر . وعاث اللصوص في الطرق والغابات فسادا . وتقدم البرابرة إلى تلك المناطق وهي على ذلك الحال ، فلم يلقوا مقاومة تذكر ونصبوا رؤساءهم حكاما عليها ، وأطلقوا عليهم في كثير من الأحيان الألقاب الرومانية الرسمية ، فإنهم كانوا برابرة نصف متحضرين ، منحوا الجهات التي يفتحونها شروطاً معقولة ، فيمتلكون المدن ويحتلّون بأهلها ويتزوجون منهم ويتعلمون اللسان اللاتيني ينطقونه بنبوة خاصة ؛ على أن الجوت والأنجل والسكسون الذين نزلوا بمقاطعة بريطانيا الرومانية كانوا شعوبا زراعيين ، لا حاجة بهم إلى المدن ، ويلوح أنهم طهروا جنوب بريطانيا من كل السكان المصطبغين بالصبغة الرومانية ، واستبدلوا بلغة أولئك السكان لهجاتهم التيوتونية التي أصبحت اللغة الإنجليزية آخر الأمر .

ومن المحال علينا أن نترسم في هذا المجال الضيق حركات جميع أصناف القبائل الجرمانية والسلافية المختلفة وهي تروح وتغدو في هذه الإمبراطورية المختلفة النظام بحثاً عن الأسلاب والغنائم والتماسا لموطن جميل تستقر فيه . على أننا سنتخذ الوندال مثالا نسوقه إليك . فإنهم ظهروا على مسرح التاريخ بألمانيا الشرقية . واستقروا كما أسلفنا في باتونيا . ومنها انتقلوا إلى إسبانيا حوالي ٤٢٥ م مخترقين الولايات التي تقع في طريقهم . فوجدوا بإسبانيا القوط الغربيين الوافدين من جنوب روسيا ، كما وجدوا قبائل ألمانية أخرى نصبت عليها الملوك والأدواق .

وأبحر الوندال من إسبانيا إلى شمال إفريقيا (٤٢٩) بقيادة جنسريك . واستولوا على قرطاجنة (٤٤٩) ، وأنشئوا أسطولا ، وما لبثوا أن أحرزوا السيادة البحرية ثم استولوا على روما وانهبوها (٤٥٥) ، ولما تنهض بعد من كبوتها تماما بعد الذي أصابها من عدوان ونهب على يد أларيك قبل ذلك بنصف قرن ، ثم راح الوندال يسيطون سيادتهم على قورسيقة وصقلية وسردينية ومعظم جزائر البحر المتوسط الغربي . الواقع أنهم أنشئوا دولة بحرية شديدة المائلة في سعتها ورقعتها بإمبراطورية قرطاجنة البحرية قبل ذلك بسبعمئة عام على وجه التقريب . وبلغت دولتهم ذروة رفعتها حوالي ٤٧٧ . ولم يكن الوندال إلا طائفة صغيرة من الغزاة استولت على ذلك الإقليم بأجمعه . ولكن لم ينصرم القرن التالي حتى استردت القسطنطينية جمع أقطار دولتهم تقريبا إبان نهضة مؤقتة في عهد جستنيان الأول .

وليست قصة الوندال إلا مثالا واحداً من المغامرات المائلة . ولكن ها قد أقبلت إلى العالم الأوربي جحافل أبعد ما تكون شهابها بهؤلاء العابثين وأبعث للربع في القلوب : الهون المغوليون أو التتار ، وهم شعب أصفر مليء بالنشاط والاقتدار ، بصورة لم يلتق العالم الغربي بمنزلها قبل ذلك أبداً .

الفصل الأربعون

الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية

ربما جاز لنا أن نعد ظهور هذا الشعب المغولي في أوربا مؤذنا ببداية مرحلة جديدة في تاريخ البشرية . ذلك أن الصلة بين الشعوب المغولية والنوردية لم تكن وثيقة إلى ما قبل الحقبة المسيحية بحوالي قرن من الزمان . أجل إنه حدث في الأراضي المتجمدة البعيدة الواقعة وراء مناطق الغابات ، أن اللابيين (أهل لابلند) وهم شعب مغولي - انتقلوا غربا حتى بلغوا ذلك القطر (لابلند) ، ولكنهم لم يلعبوا أى دور فى مجرى التاريخ الرئيسى . كما أنه حدث أن العالم الغربى ظل آلافا من السنين مسرحا للتفاعلات الأخاذة بين الشعوب الآرية والسامية والشعوب الأصلية الصحراء دون أى تدخل من الشعوب السوداء إلى الجنوب ومن العالم المغولى فى أقصى الشرق ، إلا ما حدث من غزو الأثيوبيين لمصر .

والراجح أن حركة هؤلاء المغول الرحل المتجهة غربا ترجع إلى سببين رئيسيين : أولهما تماسك إمبراطورية الصين الكبرى وارتباط أجزائها واتساع رقعتها شمالا وتزايد عدد سكانها فى أثناء الرخاء الذى أظلم البلاد فى عهد أسرة هان وثانيهما حدوث شىء من التغيرات فى المناخ ، لعله قلة فى المطر جففت المستنقعات وربما أزال الغابات ، أو لعله زيادة فى الأمطار بسطت رقعة الرعى فوق سهوب الصحراء ، أو لعل هاتين العمليتين جميعا تعاورتا على أقاليم مختلفة فتربت عليها على كل حال تسهيل أمر الهجرة غربا .

وثمة سبب ثالث قد يرجع إلى ذلك الأمر نفسه ، وهو الأحوال الاقتصادية المتعسفة فى الإمبراطورية الرومانية وما أصابها من انحلال داخلى وتناقص فى عدد السكان . وذلك أن الأغنياء فى الجمهورية الرومانية المتأخرة ، ومن ورأهم جباة الضرائب للأباطرة العسكريين ، امتصوا كل ما فيها من حيوية . ولعل القارىء قد تجلّت أمامه الآن عوامل ذلك الزحف ووسيلته والفرصة التى تهيأت له . وخلاصة هذا بإيجاز ، هى أن الضغط ظهر فى الشرق وقد نخر الفساد فى الغرب وانفتحت الطريق لمن شاء أن يتقدم .

بلغ الهون الحدود الشرقية لروسيا الأوربية إبان القرن الأول الميلادي ، ولكن ذلك الشعب الذي كانت الفروسية أعظم مظاهر حياته لم يتبوا منزلة السيادة على أقاليم السهوب إلا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . فالقرن الخامس هو قرن عظمة الهون . وأول من بلغ إيطاليا من الهون جماعات من الجند المرتزة كانوا يقبضون أعطيائهم من استيليكو الوندالي صاحب السيادة على هوريوس . ولم يتقض طويلا زمن حتى وقعت في قبضتهم بانونيا عش الوندال الخالي .

ونشأ بين الهون في الربع الثاني من القرن الخامس زعيم حربي عظيم هو أتिला . وللأسف أن كل مالدينا من علم بدولته لا يتجاوز اللوحات المهمة التي لا تشفى غليلا . ومهما تكن الحال ، فإن حكمه لم يقتصر على الهون وحدهم ، بل شمل أيضاً خليطاً من القبائل الجرمانية المتأخرة ، وامتدت دولته عبر السهول المترامية من نهر الرين إلى آسيا الوسطى . وقد تبادل السفراء مع الصين ، وجعل مقر قيادته ومعسكره الرئيسي بسهل الحجر شرقي نهر الدانوب . وهناك زاره مبعوث من القسطنطينية هو بريسكوس ، الذي يقص علينا وصفاً لدولته نعرف منه أن نظام معيشة أولئك المغول كان شديد الشبه بطريقة عيش الآريين البدائيين الذين احتل الهون مكانهم . فالعامة يعيشون في الأكواخ والخيام ، على حين كان الرؤساء يعيشون في قاعات عظيمة من الخشب تحوطها السياجات . وكانوا يقيمون الولائم ويحتسون الشراب ويستمعون لإنشاد الشعراء . فلو بعث أبطال الملاحم الهومرية ، بل حتى رفقاء الإسكندر الأكبر المقدونيون أنفسهم لشعروا وهم في قاعدة أتिला العسكرية بقدر من الإلف وعدم السكفة يفوق في الراجح ما قد يحسونه في بلاط راق متدهور كبلاط الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بن أركاديوس ، الذي كان يحكم آنذاك في القسطنطينية .

ومر حين من الدهر زعم الناس في أثنائه أن الرحل بقيادة الهون وأتिला ، سيلعبون إزاء الحضارة الإغريقية الرومانية بأقطار البحر المتوسط نفس الدور الذي لعبه الإغريق البرابرة نحو الحضارة الإيجية منذ أمد سحيق . وكأنما شرع التاريخ يعيد نفسه في نطاق أوسع . ولكن الهون كانوا أكثر تعلقاً بحياة الترحل من قدماء الإغريق ، الذين يمكن عددهم مربين للماشية ميالين للهجرة أكثر منهم مترجلين . وراح الهون يغيرون وينهبون دون أن يستقروا في مكان .

وظل أتिला بضع سنوات يضغط على ثيودوسيوس ويبيعث في قلبه الرعب ما شاء له

هواه ، وذلك في نفس الوقت الذي انطلقت جيوشه فيه تعيث في البلاد فساداً وتعمل النهب فيها إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ويقدر جيبون عدد ما دمره من المدن في شبه جزيرة البلقان بما لا يقل عن سبعين مدينة دمرت نهائياً ، حتى اضطرت ثيودوسيوس أن يشتري رحيله بدفع الجزية إليه ، كما حاول أن يتخلص منه إلى الأبد بإرسال مبعوثين سرّيين لاغتياله . ثم عاد أتيلّا فوجه التفاته في ٤٥١ إلى حطام نصف الإمبراطورية الناطق باللاتينية فعزّا بلاد الغالة . فلم تنج مدينة واحدة تقريباً في شمال غالة من النهب والسلب . عند ذلك اجتمع عليه الفرنجة والقوط الغربيون والقوات الإمبراطورية ودحروه عند ترويس Troys في معركة ضخمة مترامية الأطراف قتل فيها جمهور غفير من الرجال يتراوح عدده بين مائة وخمسين ألفاً وثلاثمائة ألف . ولم تلبث تلك الهزيمة أن أوقفت تقدمه ببلاد الغالة ، بيد أنها لم تنل كثيراً من موارده العسكرية الهائلة . فإنه دخل إيطاليا في السنة التالية عن طريق فينیشيا^(١) (منطقة البندقية) وأحرق أكويليا وبادوا وانهب ميلانو .

وسارعت جماهير غفيرة من اللاجئين الذين فروا من هذه المدن الإيطالية الشمالية وبخاصة بادوا فلاذت بجزائر بالمستنقعات الواقعة عند رأس البحر الإدرياتي ، وهناك وضعوا أول حجر في دولة مدينة البندقية ، التي كتب لها أن تغدو من أهم المراكز التجارية في العصور الوسطى .

مات أتيلّا في ٤٥٣ موت المفجأة بعد حفل عظيم أقامه ابتهاجا بزواجه من حسناء صغيرة ، فتمزق بموته ذلك الاتحاد القائم على النهب . وعند ذلك اختفى الهون الحقيقيون من التاريخ ، باختلاطهم بمن حولهم من أقوام ينطقون بالآرية ويفوقونهم عدداً . على أن هذه الغارات الهونية الضخمة أتت تقريباً على الدولة الرومانية اللاتينية . فتولى حكم روما بعد موته عشرة أباطرة مختلفين في مدى عشرين عاماً ، أقامهم الوندال وغيرهم من مرتزقة الجند . فإن الوندال جاءوا من قرطاجنة واستولوا على روما في ٤٥٥ ، وانتهى الأمر في ٤٧٦ ، بأن قضى أودواكر كبير الجند البرابرة على شخص يانوني وتولى

(١) فينیشيا : قسم لإقليم قديم بإيطاليا ينقسم إلى :

(أ) فنييتو (البندقية الأصلية) . (ب) وفنييتو تريدينينا .

(ج) وفيتوجوليا .

[المترجم]

مهام الإمبراطورية تحت اسم مهيب هو رومولوس أوغسطسولوس ، وأبلغ بلاط القسطنطينية أنه لم يعد هناك إمبراطور في الغرب ، وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية اللاتينية على هذه الصورة المزرية غير الكريمة . ثم أصبح ثيودوريك القوطي ملكاً على روما في ٤٩٣ .

كان زعماء البرابرة يحكمون عند ذلك جميع أقطار أوروبا الغربية والوسطى متخذين ألقاب الملوك والدوقات ، ومستقلين في الواقع وإن اعترفوا في معظم الحالات بشيء من الولاء الرمزي للإمبراطور . كان هناك مئات بل آلاف من مثل هؤلاء الحكام المغتصبين المستقلين تقريباً . وكانت اللغة اللاتينية لاتزال منتشرة ببلاد الغالة وإسبانيا وإيطاليا وداكيا في صور ولهجات محلية مشوهة ، ولكن عمت بريطانيا والأقاليم الواقعة شرق نهر الرين بعض لغات من المجموعة الألمانية ، كما انتشرت في بوهيميا لغة صقلابية هي التشكية . وأصبحت اللسان الشائع بين الناس . وذلك على حين واصل كبار رجال الدين وثلة صغيرة من بقايا غيرهم من المتعلمين قراءة اللاتينية وكتابتها وقد عمت الفوضى وعدم الطمأنينة كل مكان ولم يعد للممتلكات من واق إلا قوة الساعد . فتكاثرت القلاع وساءت أحوال الطرق . وقد بدأ بظهور القرن السادس عصر انقسام وفرقة ، ران فيه الظلام الفكري على العالم الغربي بأجمعه . فلولا أن قيض الله للعلم اللاتيني رهبان المسيحية ومبشرها لقضى عليه قضاء مبرماً .

فلماذا نمت الإمبراطورية الرومانية ؟ ولماذا اضمحلت ذلك الاضمحلال التام ؟ لاجرم أنها نمت لأن فكرة المواطنة شددت في البداية بنيانها وربطت بين أجزائها . إذ بقي فيها في أيام توسع الجمهورية جميعاً ، بل حتى إبان عهد الإمبراطورية الأولى ، عدد غفير من رجال أفرياء الوعى بالمواطنة الرومانية ، يرون في تلك المواطنة امتيازاً لهم وواجباً والتزاماً عليهم ، ويطعنون إلى حقوقهم في ظل القانون الروماني ، ويبدلون التضحيات باسم روما عن طيب خاطر ، وذاع صيت روما وأصبح رمزاً للعدالة والعظمة والمحافظة على القانون ، حتى تجاوز حدودها كثيراً . على أن ذلك الشعور بالمواطنة أخذ ينخر فيه منذ عهد يرجع إلى زمن الحروب البونية نفسها نمو الثروة والاسترقاق . أجل إن المواطنة نفسها انتشرت حقاً ، ولكن لم ينتشر ما تنطوى عليه من فكرة .

ومهما يكن من شيء ، فإن الإمبراطورية الرومانية لم تسكن إلا دولة بدائية جداً ، لأنها لم تقم بتعليم الناس ، ولم تحاول أن تفسر نفسها وتصرفاتها للجماهير مواطنيها الغفيرة

المتزايدة العدد ، ولم تدعهم إلى التعاون معها فيما تتخذ من قرارات . فلم تقم بها تلك الشبكة الضخمة من المدارس التي تكفل إيجاد التفاهم المشترك بين أجزاء الدولة ، ولا نهض أحد فيها بنشر الأخبار للمحافظة على الجهود الحشدية ودعم النشاط الجماعي . فالغامرون الذين ظلوا يتقاتلون على السلطان منذ أيام ماريوس وسولام يكن لديهم أدنى فكرة عن تكوين رأى عام ودعوته ليبدى رأيه في شؤون الدولة . لقد مات روح المواطنة جوعا ، ولم يدرك إنسان أنه مات . وغير خاف أن الإمبراطوريات والدول وتنظيمات الجماعات الإنسانية إنما هي نتاج نهائى للتفاهم والإرادة . وهذه الإمبراطورية الرومانية لم تبق لها في العالم إرادة . لذا جاءت نهايتها وزالت من الوجود .

ومع أن للدولة الرومانية الناطقة باللاتينية لفظت آخر أنفاسها في القرن الخامس الميلادى ، فإن شيئا آخر تكون في أحشائها قدر له أن يفيد إلى أقصى حد من هيبتها وتقاليدها : وهو النصف الناطق باللاتينية من الكنيسة الكاثوليكية . لقد عاش ذلك النصف الكاثوليكي على حين ماتت الإمبراطورية لأنه كان يلجأ ويعتمد على عقول الناس وإراداتهم ، ولأنه ملك الكتب كما ملك جهازا ضخما من المعلمين والمبشرين يربط بين أجزائه ، وهى أشياء أقوى من أى قانون أو أى جيش . وبينما الإمبراطورية تتدهور على كر القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كانت النصرانية تنتشر في أوروبا وتمد عليها ألويتها الشاملة . حتى لقد غزت البرابرة غزاة الدولة أنفسهم في عقر دراهم ، لم يحمل بطريق روما دون زحف أتيل على المدينة عندما تسامع الناس بانتوائه ذلك ، وبذا فعل مالا تستطيع الجيوش فعله ، حيث رده عن غرضه بالقوة المعنوية البهتة !

كان بطريق أو (بابا) روما يدعى أنه رئيس الكنيسة المسيحية بأكملها ، حتى إذا ولت الإمبراطورية ، ولم يعد هناك أباطرة ، شرع يدعى لنفسه ألقابا ومدعيات مما كان لأولئك الأباطرة ، فانتحل لقب « الحبر الأعظم » Pontifex Maximus وهو لقب كاهن القرايين الأكبر في الدولة الرومانية إبان الوثنية ، وأقدم الألقاب التي كان الأباطرة يحملونها .

الفصل الحادى والأربعون

الإمبراطوريتان البيزنطية الساسانية

امتاز النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية الناطق باليونانية بقدر لا بأس به من التماسك السياسى يفوق كثيراً ما بدأ فى النصف الغربى . وبذلك استطاعت مواجهة كوارث القرن الخامس الميلادى والتغلب عليها ، وهو القرن الذى انحطت فيه بصورة تامة ونهائية دولة الرومان اللاتينية الأصلية . أجل أرهب أتىلا الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى وأخذ يغير على ممتلكاته ويعيث فيها نهباً وفساداً حتى قارب أسوار القسطنطينية نفسها ، إلا أن تلك المدينة ظلت سليمة لم ينل منها أتىلا شيئاً . وكذلك انحدر النوبيون فى النيل وانهبوا مصر العليا ، ولكن مصر السفلى والإسكندرية ظلت تعيش مع ذلك فى قدر لا بأس به من الرغد . وحافظت الدولة على معظم آسيا الصغرى رغم عدوان الفرس الساسانيين .

أما القرن السادس الذى خيمت فى أثنائه على الغرب دياجير الظلام ، فقد شهد فى دول الروم انعاشاً جسيماً . فإن جستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥) كان حاكماً على المهمة عظيم الطموح ، كما أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا ، كانت لا تقل عنه كفاية ، وهى امرأة بدأت حياتها ممثلة . فاسترد جستنيان شمال إفريقية من الوندال ، واستعاد معظم إيطاليا من القوط ، بل استرد جنوب إسبانيا ، ولم يقصر نشاطه على المشروعات العسكرية والبحرية ، بل أسس جامعة وشيد كنيسة القديسة صوفيا الكبرى بالقسطنطينية وجمع القانون الرومانى . ولكنه شاء أن يقضى على أحد المنافسين لجامعته الجديدة ، فأغلق مدارس الفلسفة بأثينا ، بعد أن ظلت تعمل بلا انقطاع منذ أيام أفلاطون ، أعنى ما يقارب ألف سنة من الزمان .

ظلت دولة ساسان منافساً مستديماً للدولة البيزنطية (دولة الروم) منذ القرن الثالث الميلادى . وبسبب تلك المنافسة ساد الاضطراب والدمار الدائم آسيا الصغرى

وسوريا ومصر . وكانت تلك الأقطار لا تزال ترفل في القرن الأول الميلادي في مجبوحيها الحضارة الرفيعة والثراء ووفرة السكان ، على أن استمرار ذهاب الجيوش وغدوها وكثرة المذابح والنهب وضرائب الحرب الباهظة ، لم نزل بها حتى لم يبق منها إلا مدن خربة مهدامة تقوم وسط ريف ليس به من السكان إلا قلة متناثرة من الفلاحين ، ولم ينبج من عملية الإفقار والفوضى المحزنة هذه إلا مصر السفلى التي ظل حالها أقل سوءاً من بقية العالم . كما أن الإسكندرية والقسطنطينية احتفظتا مع ذلك بقسط متضائل من التجارة بين الشرق والغرب .

وفي غضون ذلك لاح للناس أن العلم والفلسفة قد قضيا نحبهما وزايلاهاتين الإمبراطوريتين المتناحرتين المضمحلتين . ومن قبل ذلك راح أواخر فلاسفة أثينا يحتفظون حتى يوم قضى عليهم جستنيان بنصوص الأدب التليد الموروث عن الماضي العظيم ، ويحوظونها بما لا نهاية له من التوقير والاحترام مع قلة الفهم والإدراك . ولكن العالم كانت تعوزه تلك الطبقة من الرجال : من أولئك السادة المهيذنين الأحرار الذين تعودوا في التفكير عادات الجرأة والاستقلال في الرأي - ليواصلوا تقاليد التعبير الصريح والبحث الحر التي تسنها تلك المؤلفات العتيقة . ولا شك أن الفوضى الاجتماعية والسياسية هي المسئول الأول عن انعدام هذه الطبقة من الرجال . على أن هناك أيضاً سبباً آخر هو مرد ما انتاب الذكاء الإنساني من العقم والانتكاس في أثناء ذلك العصر . فقد ران التعصب وعدم التسامح على كل من فارس وبيزنطة . فكانت كل منهما دولة قائمة على الدين ولكن على شاكلة جديدة . شاكلة عاقت إلى حد كبير جميع نواحي النشاط الحر للعقل الإنساني .

وقد كانت أقدم الإمبراطوريات في العالم بطبيعة الحال دولا دينية تتعرج حول عبادة أحد الآلهة أو الملوك الآلهة . وقد اتخذ الإسكندر إلهاً ، وجعل القياصرة أرباباً بحيث أقيمت لهم الهيكل والمعابد . وجعل تقديم البخور امتحاناً وشاهداً على الولاء للدولة الرومان . على أن هذه الديانات الغابرة كانت في جوهرها ديانة عمل وواقع . فهي لم تكن لتغزو العقول . فإذا تقدم إنسان بقربانه وأحصى أمام آلهة ، لم يتلق إرشاداً من أحد ، فهو لا يترك فقط ليفكر في الله على أية شاكلة يهواها ، بل ليقول ما يشاء تقريباً . أما ذلك النوع الجديد من الأديان الذي ظهر عندئذ في العالم ، وخاصة المسيحية ، فإنها تتجه

إلى سويداء النفوس . لم تكن تلك الديانات تكتفى بالمطالبة بمسيرة الرجل لمن حوله في الإيمان بل تشد الاعتقاد الواعي . ومن الطبيعي أن تنشب الخصومات العنيفة بين الناس حول المعنى الدقيق لتلك المعتقدات ، ذلك أن هذه الديانات الجديدة كانت ديانات عقائد .

لقد واجه العالم الآن عهد جديد : عهد العقيدة القويمة ، كما واجهه تصميم شديد على وضع جميع الأعمال بل حتى الكلام والأفكار الباطنية داخل حدود وتعاليم معلومة مفروضة . ذلك أن الأخذ برأى خاطيء ، فضلاً عن نقله إلى سائر الناس لم يعد يعتبر عيباً ذهنياً بل خطأ خلقياً قد يجلب اللعنة على إحدى النفوس ويقضى عليها بالدمار السرمدى .

ومن ثم اتجه كل من أردشير الأول الذى أسس الأسرة الساسانية في القرن الثالث الميلادى ، وقسطنطين الأكبر الذى أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ، إلى الهيئات الدينية ملتصقاً عونها ، وذلك لأنهما وجدا في تلك الهيئات وسيلة جديدة لاستخدام إرادة الناس والهيمنة عليها . لذا لم يكد القرن الرابع يشارف نهايته حتى كانت كل من الدولتين تحرم حرية القول وكل ابتداع ديني . أما في فارس ، فإن أردشير وجد في عقيدة زرادشت الفارسية العتيقة بكل ما حوت من كهنة ومعابد ونار مقدسة تتقد دواماً فوق مذابحها ، أداة مهيأة لما ينشده من عقيدة للدولة . فلم تكد نهاية القرن الثالث تقترب حتى كانت الديانة الزرادشتية تضطهد النصرانية ، كما أن مانى مؤسس « المانوية » وهى عقيدة جديدة ، صلب في ٢٧٧ وبلغ جلوده . وذلك بينما كانت القسطنطينية من الجهة الأخرى تجد في مقاومة الزندقات المسيحية . ذلك أن أفكار العقيدة المانوية أثرت في المسيحية ، ولم يكن بد من محاربتها بأفطع الطرق ؛ وحدث في مقابل ذلك أن تأثرت المبادئ الزرادشتية الخالصة بالفكرات المسيحية . وبذا أصبحت جميع الأفكار متهمة مريية . فليس عجيباً إذن أن يصاب نجم العلم بالأفول التام طوال فترة التمهيب هذه ، والعلم يستلزم قبل كل شيء عقلاً حراً في عمله غير مضطرب في تفكيره .

كانت الحياة البيزنطية في تلك الأيام تدور حول الحرب وأشد أنواع اللاهوت تعصباً وأبشع رذائل البشر المألوفة . وكانت بيزنطة ترى في ذلك شيئاً رائعاً جذاباً ، كما

تراه شيئاً شاعرياً رومانسياً^(١) ؛ وإن كان الواقع يكذب ذلك لحرمان الوضع كله من كل حلاوة أو استنارة . فما تكاد يد بيزنطة أو فارس تخلو من الحرب مع برابرة الشمال حتى تهوى على آسيا الصغرى وسوريا بالخراب في أثناء حروبهما المهلكة المدمرة . ولو فرض جدلاً أن هاتين الدولتين عقدتا أوثق أواصر المحبة والتحالف لما سهل عليهما مع ذلك أن يصدا البرابرة ويستعيدا ما ينبغي لهما من رغد . وفي إبان ذلك ظهر الترك أو التتار لأول مرة في التاريخ متحالفين آنأ مع فارس وآناً آخر مع بيزنطة .

حتى إذا وفى القرن السادس كان الحصان الكبيران هما جستنيان وكسرى أنوشروان ؛ فإذا حلت بداية السابع كان العداء قائماً بين الإمبراطور هرقل وبين كسرى الثانى (٥٨٠) .

وقد استطاع كسرى الثانى فى بداية الأمر ، وحتى أصبح هرقل إمبراطوراً (٦١٠) ، أن يحتاج كل شيء أمامه ، فاستولى على أنطاكية ودمشق وأورشليم وبلغت جيوشه مدينة خلقديونية ، القائمة بآسيا الصغرى قبالة القسطنطينية . ثم فتح مصر فى (٦١٩) . وعندئذ تقدم هرقل ليطعن بجيوشه قلب فارس فى هجوم مضاد كبير ، وشتت قرب نينوى شمل جيش فارسى (٦٢٧) ، وإن احتفظت فارس فى نفس الحين بجيشها فى خلقديونية وفى (٦٦٧) خلع قباد أباه كسرى الثانى وقتله ، وعقد بين الإمبراطوريتين المسكدودتين صلح غير حاسم .

لقد اشتبكت بيزنطة وفارس فى حربهما الأخيرة ، ولكن قل من الناس من كان يحلم آنذاك بتلك العاصفة التى كانت تتجمع فى نفس الحين فوق أراضى الصحراء لتقضى إلى الأبد على ذلك الكفاح المزمع الذى لا هدف له .

وبينما كان هرقل يعيد النظام إلى نصابه فى سوريا ، وصلتته رسالة أحضرت إلى موقع أمامى للحراسة الإمبراطورية عند بصرى فى جنوب دمشق ؛ كانت الرسالة مكتوبة بالعربية إحدى اللغات السامية ، ولا بد أن أحد الترجمة تلاها على مسامع الإمبراطور — إن كانت وصلتته أصلاً — كانت تلك الرسالة واردة من إنسان

(١) الرومانسى : كل شيء خيالى شعراً كان أم فثراً ينطلق وراء حدود الحياة العادية ويسمى أحياناً بالرومانتيكى .
[المترجم]

يسمى محمداً رسول الله ، وهي تدعو الإمبراطور إلى عبادة الله الواحد الأحد وشهادة أن لا إله إلا الله . ولم يسجل لنا التاريخ ما قاله الإمبراطور في تلك الرسالة . وجاءت رسالة مماثلة لهذه إلى قباز في المداثن . فاستاء منها ومزقها ، وأمر الرسول بالانصراف . فلما بلغ محمداً نبأ ذلك قال :

« مزق الله ملكه » .

وقد ظهر أن محمداً الذي أرسل الرسالة كان زعيماً دينياً اتخذ مركز دعوته في « المدينة » إحدى البلدان الصحراوية الصغيرة . وكان يعلم الناس ديانة جديدة تدعوهم إلى عبادة الله الواحد الحق .

الفصل الثاني والأربعون

أسرتا «سوى» ، وتانج ،

بالصين

امتازت القرون الخامس والسادس والسابع والثامن الميلادية بتقدم الشعوب المغولية نحو الغرب . فلم يكن هون أتيل إلا مقدمة لذلك التقدم ، الذى أفضى فى النهاية إلى استقرار شعوب مغولية فى فنلندة واستونيا وبلاد الحجر ، حيث لا يزال أحفادهم يعيشون إلى يومنا هذا ويتكلمون لغات تشبه التركية . والبلغار أيضا شعب تركى الأرومة ، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم لسانا آريا . فإن المغول كانوا يلعبون مع الحضارات المطبوعة بالطابع الآرى فى أوربا وفارس والهند ، نفس الدور الذى لعبه الآريون إزاء المدينيات الإيجية والسامية قبل ذلك ببضعة قرون .

أما فى آسيا الوسطى فإن الشعوب التركية سارت فيما نسميه اليوم باسم التركستان الغربية ، كما أن الدولة الفارسية كانت تستخدم فعلا كثيرا من الموظفين الأتراك والجند المرتزقة الأتراك . وكان الأشقانيون (البارثيون) قد بادوا من التاريخ تماما وامتصهم سكان فارس بوجه عام ، ولذا لم يعد فى تاريخ آسيا الوسطى أى رجل آرين ؛ إذ حلت الشعوب المغولية محلهم . وأصبح الترك سادة على آسيا بالمنطقة الممتدة من بلاد الصين إلى بحر الخزر (قزوين) .

أدى الوباء العظيم نفسه الذى حدث عند نهاية القرن الثانى الميلادى ونجم عنه تمزيق الدولة الرومانية ، إلى إسقاط أسرة « هان » عن عرش الصين . ثم حلت بالصين فترة خيمت عليها فى أثناءها الفرقة والانقسام والتعرض لغارات الهون ، ولم تلبث أن نهضت بعدها منتعشة القوى ، وبصورة أسرع وأكمل مما تنهيا لأوربا فيما بعد : فلم

يكبد يحل القرن السادس الميلادى حتى كانت الصين قد اتحدت تحت أسرة سوى ، ولم تلبث هذه حتى حلت محلها فى عهد هرقل أسرة تانج ، التى يسجل التاريخ لحكمها عهدا عظيما آخر من عهود الرخاء بالصين .

كانت الصين طوال القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية ، أعظم أقطار العالم أمنا وأبعد فى الحضارة باعاً ، ومن قبل ذلك مدت أسرة هان تخومها شمالاً ؛ ثم جاءت أسرتا سوى وتانج فبسطتا ألوية حضارتها جنوباً ، وبذلك شرعت الصين تحصل على الرقعة الفسيحة التى لها اليوم . أجل إن ممتلكاتها كانت آنذاك بآسيا الوسطى أبعد كثيراً مما هى اليوم ، إذ كانت تمتد على طريق القبائل التركية الخاضعة لها ، حتى تبلغ فى النهاية تخوم فارس وبحر قزوين .

وشتان بين الصين الجديدة التى نشأت وقتئذ وبين الصين العتيقة لأسرة هان . فقد ظهرت بها مدرسة أدبية جديدة أعظم قوة من كل ما سبقها ، وحدث فى الشعر نهضة عظيمة ؛ كما أن البوذية أحدثت انقلاباً فى الفكر الفلسفى والدينى ، وحدث تقدم عظيم فى الإنتاج الفنى والمهارة الفنية التطبيقية وفى كل ما يهيج الحياة من نعم ومسررات . فاحتسى الشاى لأول مرة فى التاريخ ، كما صنع الورق ، وبدىء بالطباعة بوساطة الكتل الخشبية . والحق أن ملايين من الناس كانوا يعيشون ببلاد الصين عيشاً جذاباً رقيقاً منظمًا إبان تلك القرون ، التى كان فيها سكان أوروبا وآسيا الغربية الذين تناقص عددهم يعيشون عيشاً زرياً : بين ساكن فى كوخ حقير أو نازل فى مدينة مسورة صغيرة أو متحصن بقلعة لصوص بشعة الصورة . وفى نفس الوقت الذى كانت تغشى فيه عقل الغرب دياجير التعصب اللاهوتى ، كان عقل الصين متفتحا للعلم متسامحاً باحثاً عن المعرفة .

ومن أقدم ملوك أسرة تانج الإمبراطور تاى تسونج الذى ابتدأ حكمه فى (٦٢٧) ، وهى نفس السنة التى انتصر فيها هرقل قرب نينوى . وقد جاءه سفير من قبل هرقل ، الذى ربما كان يبحث عن حليف له فى الجهة الأخرى من بلاد فارس ووفدت عليه من فارس نفسها جماعة من المبشرين المسيحيين (٦٣٥ م) . فسمح لهم أن يشرحوا عقيدتهم أمامه ، وأخذ يدرس ترجمة صينية لكتبهم المنزلة . ثم أعلن أن فى الإمكان قبول هذه الديانة العجيبة ، وأذن بإنشاء كنيسة ودير .

وإلى ذلك العاهل نفسه أقبلت رسل النبي محمد في (٦٢٨) فوصلوا إلى كانتون على ظهر إحدى السفن التجارية ، بعد أن قطعوا الطريق بالبحر على امتداد سواحل الهند ، وأعار نايتسونج لهؤلاء المبعوثين أذنا مصغية كريمة على النقيض مما فعله قباز وهرقل ، ثم أبدى اهتماما بأرائهم الدينية ، وساعدهم في بناء مسجد بمدينة كانتون ، وهو مسجد لا يزال باقيا - فيما يقال - إلى وقتنا هذا ، فهو بذلك أقدم مساجد العالم .

الفصل الثالث والأربعون

محمد والإسلام

لو أن هاويا للتنبؤ في التاريخ استعرض أحوال العالم عند مستهل القرن السابع الميلادي لأمكنه أن يستنتج بحق - أنه لن تنقضي بضعة قرون حتى تقع أوروبا وآسيا بأكملها في قبضة المغول ، ذلك أن أوروبا الغربية حرمت كل شاهد يدل على النظام أو الاتحاد ، كما أن الدلائل كلها كانت تدل على أن دولتي الروم والفرس لن ترجعا حتى تدمر كل منهما الأخرى . وكان الانقسام والخراب يعمل عمله في الهند أيضاً ، وذلك في حين أن الصين كانت آنذاك إمبراطورية مستمرة الاتساع ، ربما فاقت أوروبا جمعاء في عدد السكان ، فضلا عن ميل الشعب التركي الذي أخذ يتسهم غارب القوة بآسيا الوسطى إلى العمل على الوفاق مع الصين.

وما كانت مثل هذه النبوءة عبثاً باطلا بأي حال ، إذ جاء في القرن الثالث عشر أو ان قدر فيه لسيد مغولي أعلى أن يحكم إقليما يمتد من نهر الدانوب إلى المحيط الهادي ، كما كتب للأسرات التركية المالكة أن تحكم الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية جميعاً وتسود مصر ومعظم بلاد الهند .

أما النقطة التي ربما تعرض فيها ذلك المتكهن للخطأ فهي عدم تقديره بالضبط قدرة أوروبا اللاتينية على استرداد قواها ، وتجاهله للقوى الكامنة في الصحراء العربية ، إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لعينه على صورتها التي دامت عليها منذ أزمان سحيقة القدم : حيث كانت مرتعا لقبائل صغيرة متناوشة من الرحل ، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سنة ، لم يفتش شعب سامي في أثنائها إمبراطورية واحدة .

ثم ما لبث نجم البدو أن سطع بياهر الضياء مدة قرن واحد وجيز حافل بالأبهة والفخامة ، مدوا في أثنائه حكمهم ولغتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين ، ومنحوا

العالم ثقافة جديدة ، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم .

أما الرجل الذى أشعل ذلك القبس العربى ، وهو محمد [عليه السلام] فيبدو لأول مرة في التاريخ بمدينة مكة ، حيث تزوج وهو شاب من أرملة ثرية ولم تأت الرسل الختى بلغ الأربعين ؛ لذا لم يتميز قبل ذلك بشىء اللهم إلا ما عرف عنه من أمانة واستقامة ، والظاهر أنه كان يهتم اهتماما بالغا بالبحوث^(١) الدينية . كانت مكة بلدة وثنية في ذلك الزمان تعبد بوجه خاص حجرا أسود في بناء الكعبة ذاع صيته في كل أرجاء الجزيرة العربية ، فأصبح مقصد الحج والحجاج ؛ ولكن البلاد كانت تجوى عدداً ضخماً من اليهود — بل الواقع أن الجزء الجنوبي من بلاد العرب كان يعتنق اليهودية ديناً — كما أن سوريا كانت بها العقائد المسيحية .

وعندما قارب الأربعين من عمره ، أخذ ينزل عليه ناموس النبوة الذى كان لأنبياء العبرانيين قبل عهده بائى عشر قرناً .

فتحدث أولاً إلى زوجته بكلام كثير : — عن الله الواحد الحق ، وعن ثواب الإحسان والمحسنين وعذاب الشر والضلال ، فجمع حوله حلقة صغيرة من المؤمنين ، ثم شرع يعظ الناس فى بلدته ويحضهم على ترك ما يعبدون من أوثان ، فكرهه لذلك قومه وأهل بلدته ، نظراً لأن الحج إلى الكعبة كان أعظم مصدر للخير العميم الذى تحظى به مكة .

ومالبت أن زاد جرأة وأن حدد تعاليمه أكثر ، فأوحى إليه فأعلن أنه خاتم أنبياء الله وأنه بعث ليتم الدين ومكارم الأخلاق . وصرح بأن إبراهيم وعيسى كانا به مبشرين ومنذرين سابقين . وأنه اصطفى ليتم ويكمل الكشف عن إرادة الله .

(١) لم يعرف عنه صلوات الله وسلامه عليه ذلك ، بل المعروف هو نفوره من عبادة الأصنام وعدم سجوده لمنهم قط .

وكالما اشتدت قوة تعاليمه اشتدت وطأة عداوة أبناء بلده له ، حتى تراعى بهم الأمر إلى التآمر به ليقتلوه ؛ ولكنه هاجر مع صديقه الصدوق وتلميذه الأمين أبي بكر إلى بلدة المدينة الموالية التي اعتنقت مبادئه .

ومالبت الخصومة والحرب أن استعرت بين مكة والمدينة ، وانتهت في آخر الأمر بمعاهدة صلح ؛ قبلت مكة بمقتضاها أن تعبد الله الواحد الأحد ، وأن ترضى بمحمد رسولا له ونبياً ، على أن يواصل أتباع العقيدة الجديدة أداء فريضة الحج بمكة .

بذلك وطد محمد — بوحي من ربه — عبادة الرب الواحد الحق بمكة دون أن يضر تجارتها وحجيجها . وعاد إلى مكة في ٦٢٩ سيداً لها مطاع الكلمة ، وإذا هو يرسل في مدى سنة من ذلك التاريخ مبعوثيه إلى هرقل وتايتسونج وقباز وجميع حكام الأرض كافة .

ثم راح النبي عليه الصلاة والسلام ييسط سلطانه على بقية أجزاء الجزيرة العربية في السنوات الأربع الأخيرة قبل وفاته في (٦٣٢) ، وتزوج عدداً من النساء في أثناء سنى شيخوخته .

ويلوح أنه رجل ركبت فيه طباع كثيرة ، منها شدة الشعور الديني القوي والإخلاص . وأوحى إليه من الله كتاب هو القرآن ويحوى كثيراً من التعاليم والشرائع والسنن .

ويحتوى الإسلام الذي فرضه النبي على العرب ديناً ، الشيء الكثير من القوة والإلهام . فمن خصائصه التوحيد الذي لا هوادة فيه ؛ وإيمانه البسيط المتحمس بحكم الله للناس وأبوته الشاملة لهم وخلوه من التعقيدات اللاهوتية .

ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كاهن القرايين ومعبدتها ، فهو عقيدة نبوية تماماً ، بمأمن حصين من كل انزلاق نحو القرايين الدموية .

والقرآن حين يذكر طبيعة الحج إلى مكة بصورة محددة واضحة الشمائر ، إنما يجعلها بمأمن من كل احتمال للنزاع في شأنها ، كما أن النبي اتخذ كل احتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته ، وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن في إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعاً إخوة متساوون تماماً أمام الله ، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم . هذه هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فعالة في الشؤون الإنسانية . ويقول

المؤرخون إن المؤسس الحق للدولة الإسلامية لم يكن محمداً قدر ما هو صديقه ومساعدته أبو بكر . فلئن كان محمد هو العقل المفكر والتصور الملهم للإسلام الأصلي ، فلقد كان أبو بكر ضميره وإرادته ، حتى إذا مات محمد أصبح أبو بكر خليفته ، ثم راح بعقيدة ترحل الجبال ، يعمل ببساطة وعقل راجع على إخضاع العالم كله لأمر الله — ببساطة جيوش يتراوح عددها بين ثلاثة أو أربعة آلاف عربي طبقاً لتلك الرسائل التي كتبها النبي عليه السلام من المدينة في (٦٢٨) إلى جميع ملوك العالم . فهو بحق مؤسس دولة الإسلام .

الفصل الرابع والأربعون

عهد عظمة العرب

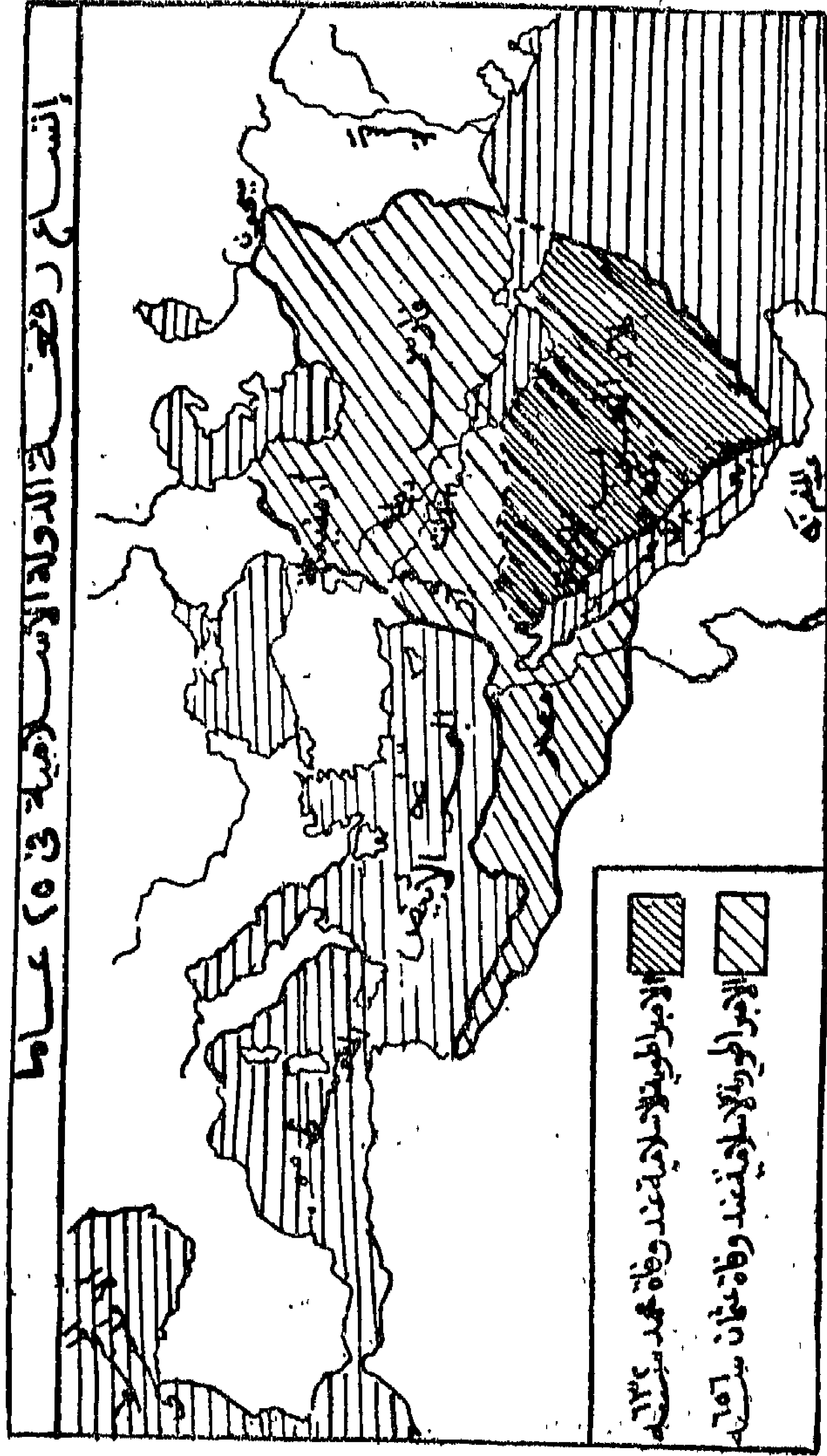
ثم جاءت بعد ذلك أعجب قصص الفتوح التي لم تترك على مسرح تاريخ الجنس البشري . إذ تمزق الجيش البيزنطي في معركة اليرموك (وهو أحد روافد نهر الأردن) في (٦٣٤) ؛ ولم يلبث الإمبراطور هرقل — وقد استنزف داء الاستسقاء قواه كما استنفدت الحرب الفارسية موارده المالية — أن رأى ممتلكاته التي استردها وشيكا في سوريا وهي دمشق وتدمر وأنطاكية والقدس وغيرها ، تتداعى أمام المسلمين دون مقاومة تقريباً . واعتنقت الإسلام نسبة كبيرة من السكان . ثم اتجه المسلمون شرقاً إلى بلاد الفرس الذين وجدوا في رستم قائداً قديراً ؛ فجمعوا له جيشاً عظيماً به قوة من الفيلة ؛ واستمروا يقاتلون العرب ثلاثة أيام عند القادسية (٦٣٧) ثم هزموا في النهاية هزيمة تامة .

وتم بعد ذلك فتح فارس بأجمعها ، وتقدمت الدولة الإسلامية قدماً إلى التركستان الغربية ثم توغلت في الشرق حتى التقت بالصينيين ، وسقطت مصر دون مقاومة تذكر في يد الفاتحين .

واندفع سيل الفتوح على ساحل إفريقية الشمالى حتى بلغ مضيق جبل طارق وتجاوزه إلى بلاد الأندلس في ٧١٠ ، وبلغ الفاتحون جبال البرانس في ٧٢٠ . ولم يلبث تقدم العرب حتى بلغ وسط فرنسا في ٧٣٢ ، ولكنه أوقف هنا إلى الأبد بعد معركة پواتييه^(١) ، ورد على أعقابهم إلى جبال البرانس ثانية . وصار للعرب بفتح مصر أسطول بحرى ، وجاء أوان لاح فيه سقوط القسطنطينية وشيكا ، فهاجموها بحراً مرات عديدة بين ٦٧٢ ، ٧١٨ ، ولكن المدينة العظيمة صمدت أمام هجماتهم .

لم يوهب العرب كفاية سياسية كبيرة ، كما أنهم لم يرزقوا أية خبرة سياسية أبداً ، لذا

(١) هي معركة بلاط الشهداء التي هزم فيها عبد الرحمن الغافقى على يد شارل مارتل الفرنجى



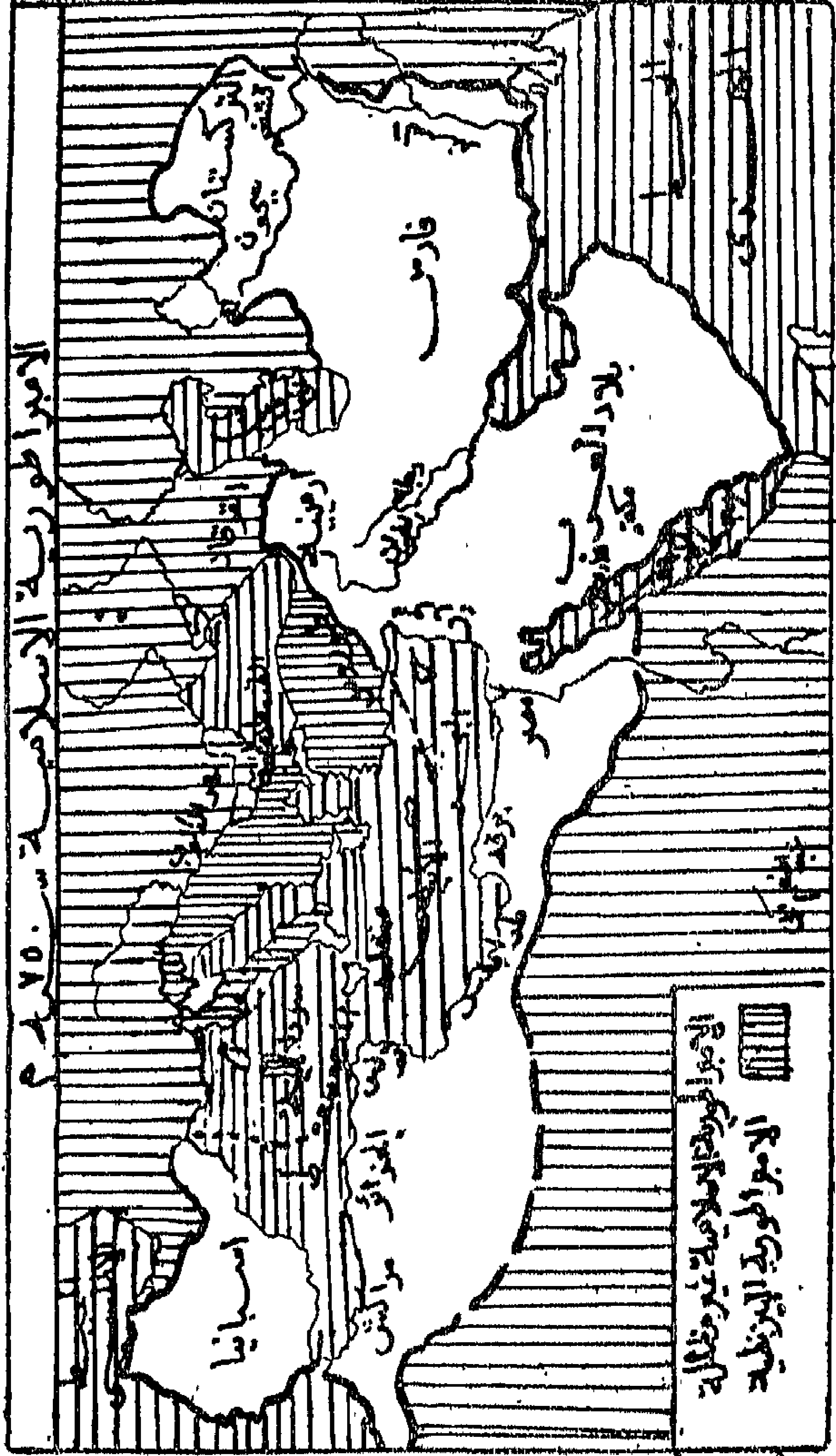
خريطة رقم (٨)

لم يقدر لهذه الإمبراطورية العظيمة التي أصبحت قصبته آنذاك مدينة دمشق ، والتي امتدت رقعتها من إسبانيا إلى الصين ، أن تعيش طويلا . ومنذ البداية نفسها ، قوضت الخلافات المذهبية وحدتها . على أن محور اهتمامنا هنا ليس قصة تفككها السياسى ، بل أثرها فى العقل الإنسانى وفى المصائر العامة لجنسنا البشرى . لقد قذفت المقادير بالكاء العربى فى طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليونانى قبل ذلك بألف سنة خلت . لذا عظمت إلى أقصى حد الاستثارة الفكرية التى أحدثتها وجودهم للعالم أجمع غربى بلاد الصين ، كما اشتد تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة .

وفى فارس اتصل هذا العقل العربى الجديد المتنبه لا بالمبادئ المانوية والزرادشتية والمسيحية وحدها ، بل التقى أيضاً بمؤلفات الإغريق العلمية ، التى لم تكن مكتوبة فقط باللغة اليونانية بل فى ترجمات سريانية كذلك . ثم إنه وجد العلوم اليونانية بمصر أيضاً . كما أنه استكشف فى كل مكان وخاصة ببلاد الأندلس تقليدا يهوديا ناشطا فى نواحي التأمل الفكرى والجدل . والتقى فى وسط آسيا بالبوذية وبما بلغته الحضارة الصينية من ألوان التقدم المادى ؛ فتعلم منها صناعة الورق ، التى يرجع إليها الفضل فى ظهور الكتب المطبوعة . ثم اتصل ذلك العقل أخيرا بالرياضة والفلسفة عند الهنود .

وما هى إلا فترة وجيزة جدا حتى ولى الشعور المتعصب بالكفاية الذاتية الذى ظهر فى أيام العقيدة الأولى . والذى كان يصور القرآن فى صورة الكتاب الوحيد الذى يجوز الأخذ به . فكان العلم يثب على قدميه وثبا فى كل موضع وطئته قدم الفاتح العربى . فلم يحل القرن الثامن الميلادى حتى كانت للدولة منظمات تعليمية تنتشر فى كل أرجاء العالم المستعرب . وحين وفى التاسع إذا بالعلماء فى مدارس قرطبة بالأندلس يتراسلون مع إخوانهم علماء القاهرة وبغداد وبخارى وسمرقند . ويمثل كل من العقليين اليهودى والعربى بعضهما بعضا ، ومرت فترة تعاون فيها الجنسسان الساميان على العمل المتضافر بوساطة اللسان العربى . ثم تمزق شمل العرب وضعفت شوكتهم ، ولكن هذا الارتباط الفكرى بين أصقاع العالم الناطق بالعربية دام بعد ذلك التمزق طويلا . وكان لايزال ينتج فى القرن الثالث عشر نتائج عظيمة جدا .

وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للحقائق الذى بدأ الإغريق لأول مرة ،



خريطة رقم (٩)

عاد سيرته الأولى في ثنايا تلك النهضة المدهشة التي نهضها العالم السامى . فالآن دبّت الحياة في بذرتى أرسطو ومتحف الإسكندرية ، اللتين طال العهد على خجودهما وإهمال الناس لهما ، وإذا هما تنبتان من جديد وتأخذان في الإعمار .

لقد تم للعرب في حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم . فنبذت الأرقام الرومانية القبيحة وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا . واستعملت علامة الصفر لأول مرة .

ولا يخفى أن اسم « الجبر » نفسه لفظ عربى . وكذلك كلمة « كيمياء » . ثم إن أسماء نجوم كنجم الغول والدبران والعواء Bootes تحتفظ بذكرى فتوح العرب في أطباق السماء ، وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحى كافة .

وكان علماء الكيمياء التجريبيون عند العرب يسمون « أصحاب الصنعة » Aldhemists ، ولكنهم ظلوا على جانب كبير من النزعة الممجية من حيث احتفاظهم بطرائقهم وتناجحها في طى السكتان ما وسعهم ذلك ، لأنهم أدركوا منذ البداية الأولى ما قد تعود به عليهم مستكشفاتهم من مزايا هائلة وما قد يترتب لها على الحياة البشرية من عواقب بعيدة الأثر .

ولا شك أنهم وفقوا إلى مستنبطات في المعادن والتطبيق الفنى كثيرة ولها قيمة قصوى ؛ فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والعطور وزجاج العدسات .

ولكنهم كانوا ينشدون غرضين رئيسيين ظلوا ينشدونهما عبثا ، أما أول الغرضين « فحجر الفلاسفة » الذى ابتغوه وسيلة لتحويل العناصر المعدنية بعضها إلى بعض ، وبذلك يحصلون على الهيمنة على صنع الذهب . أما الغرض الثانى فهو إكسير الحياة . وهو ترياق يعيد الشباب ويطيل العمر إلى مالا نهاية ، وعن هؤلاء الكيماويين العرب انتشرت إلى العالم المسيحى التجارب المعقدة المخوفة بالمشقة والصبر ، ذلك أن فتنة أبحاثهم امتدت إلى غيرهم . ولم تصبح جهود هؤلاء الكيماويين تعاونية واجتماعية بدرجة أكبر إلا رويدا رويدا وبالتدرج البطيء للغاية ، فإنهم شعروا بالفائدة التي تعود عليهم من تبادل الأفكار وموازنتها .

وهكذا أصبح أواخر أهل الصنعة أول فلاسفة التجريب على صورة من التدرج البطيء غير المحسوس .

كان قدماء أهل الصنعة ينشدون حجر الفلاسفة الذي يراد له أن يحيل المعادن الدنيئة إلى ذهب ، كما يطلبون إكسيراً للخلود ؛ ولكنهم عثروا على مناهج العلم التجريبي الذي يوشك في خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطاناً لا حد له على العالم كله ، بل وعلى مصائرهم هو نفسه .

الفصل الخامس والأربعون

تطور عالم المسيحية اللاتينية

يجدر بنا أن نلاحظ أن مساحة نصيب الآريين من هذا العالم في القرنين السابع والثامن قد أصبحت متقلصة تقلصاً مفرطاً . وقبل ذلك بألف سنة ، كانت الأجناس الناطقة بالآرية هي صاحبة الغلبة على العالم المتحضر كافة إلى الغرب من بلاد الصين . أما اليوم فقد تقدم المغول حتى بلغوا بلاد المجر ، ولم يبق من آسيا شيء تحت حكم الآريين إلا الممتلكات البيزنطية بآسيا الصغرى ، كما أفلتت من قبضتهم إفريقية كلها وضاعت إسبانيا كلها تقريباً . وقد انكمش العالم الهليني العظيم حتى أصبح بضع ممتلكات قليلة تتمركز حول نواته مدينة القسطنطينية التجارية ، ولم يبق من شيء يخلد ذكرى العالم الروماني سوى اللسان اللاتيني الذي ينطق به قساوسة المسيحية الغربية . وعلى النقيض القوى لقصة الانحطاط هذه ، كانت التقاليد السامية قد انتعشت ثانية ونفضت عنها غبار الدلة والانحطاط بعد ألف سنة من الظلمات الداجية .

على أن حيوية الشعوب الآرية لم تستنفدها الأيام تماماً . فإنهم وإن حصرنا آثذ في منطقة أوربا الوسطى والشمالية الغربية وتمرغوا تمرغاً ذريعاً في حمأة أفكارهم الاجتماعية والسياسية ، فقد شرعوا مع ذلك يبنون بالتدريج وبصفة مستمرة دائمة نظاما اجتماعياً جديداً ويعدون العدة ، بغير وعى منهم ، لاستعادة سلطان أوسع كثيراً مما استمتعوا به في الماضي .

وقد أسلفنا لك كيف أنه حدث في بداية القرن السادس أن أوربا الغربية لم تعد بها على الإطلاق حكومة مركزية . فإن ذلك العالم قد تقاسمته جماعة من الحكام الهلنيين الذين يستقل كل منهم بشئونه بقدر طاquته . وفي ذلك ما فيه من الاضطراب الذي لا يبشر بأي دوام لتلك الحالة ؛ لذا نجم بين ظهراني تلك الفوضى ضرب من التعاون والترابط ، هو النظام الإقطاعي الذي بقيت آثاره في الحياة الأوربية إلى وقتنا هذا . كان هذا النظام الإقطاعي ضرباً من تبلور المجتمع حول « القوة » ، فإن

الرجل الفرد أحس في كل مكان بالخوف وعدم الطمأنينة وبدافع يدفعه إلى مقايضة شيء من حريته بشيء من المعونة والحماية . فالتمس لنفسه رجلاً أقوى منه مشوكة ليكون سيداً له وحامياً ؛ وإليه قدم خدماته العسكرية ودفع المكوس ، وتلقى مقابل ذلك تأكيداً بامتلاكه ماله من ممتلكات ، وكذلك الشأن مع سيده الذي كان يحس الأمان في الخضوع لمولى أعظم منه هو أيضاً . ووجدت المدن كذلك أن من الخير اللأثم لها أن تحصل على حماة إقطاعيين ، كما أن الأديرة وممتلكات الكنيسة ربطت نفسها بروابط مماثلة لهذه . ومن البديهي أن الولاء كان يطلب في كثير من الأحيان قبل أن يقدم تلقائياً ؛ فكان النظام كان ينمو إلى أسفل . ثم ما كان ينمو من أسفل إلى أعلى . وبذلك نشأ ضرب من نظام هرمي يختلف اختلافاً بعيداً بمختلف المناطق ، ويسمح في البداية بقدر عظيم من العنف والحروب الأهلية أو الخاصة ولكنه يتجه باستمرار نحو إقرار النظام ، ونحو عهد جديد يسوده القانون . وما زالت الأهرامات تعلو حتى أصبح بعضها ملكيات وأخوة المعالم . وكانت هناك منذ عهد قديم جداً ، هو بواكير القرن السادس ، مملكة فرنجية تحت حكم مؤسسها كلوفيس وموقعها فرنسا الحالية والأراضي المنخفضة (بلجيكا وهولندا) ، وسرعان ما ظهرت أيضاً ممالك قوطية غربية ولومباردية .

وعند ما عبر المسلمون جبال البرانس في ٧٢٠ وجدوا هذه المملكة الفرنجية تحت الحكم « الواقعي » لشارل مارتل ، ناظر القصر لدى حفيد منحل من سلالة كلوفيس ، — وهناك عند پواتييه (٧٣٢) لقوا على يده هزيمة فاصلة . كان شارل مارتل هذا في الواقع السيد المتحكم في أوروبا في رقعة تمتد شمال جبال الألب ، من جبال البرانس حتى بلاد البحر . وكان يسيطر على العدد الجهم من السادة التابعين الناطقين باللاتينية الفرنسية ، وباللغتين الجرمانيتين العليا والسفلى^(١) . وما لبث ابنه « پيبن » أن قضى على آخر البقية الباقية من أحفاد كلوفيس ، واستولى على مملكتهم وتاجهم . ووجد حفيده شارلمان الذي بدأ حكمه في ٧٦٨ نفسه حاكماً على مملكة بلغت من الاتساع أنه فكر أن يعيد لقب أباطرة الدولة الرومانية الغربية (اللاتينية) ويتلقب به . ففتح شمال إيطاليا وجعل نفسه سيداً على روما .

(١) الجرمانية العليا : هي لغة مرتفعات ألمانيا وجنوبها — والجرمانية السفلى هي لغة السهول الشمالية المنخفضة .
[المترجم]

وعندى أن في مستطاعنا ، ونحن نستعرض قصة أوروبا استعراض التاريخ العالمى الرحيب الأفق ، أقول في مستطاعنا أن نتبين أكثر من مؤرخ قومى بحث ، الأثر الأليم المعوق الذى جلبه على أوروبا إحياء ذلك اللقب الرومانى الإمبراطورى . إذ إن أوروبا نكبت بكفاح حاد ضيق الأفق دار حول هذه السيادة الوهمية ولقبها مدة تزيد على ألف سنة ، استنفدت أثنائها كل طاقاتها . ولو نظرت إلى تلك الفترة كلها لأمكنك تعقب خصومات حامية الوطيس فيها ؛ ولرايتها تتأجج في عقول الأوربيين تأجج الوسواس^(١) في عقل مخبول به مس من الجنون . ومن هذه الدوافع القوية طموح كبار الحكام ، الذين يمثلهم شرلمان (ومعناها شارل الأكبر) — إلى التلقب بلقب قيصر . وكانت مملكة شرلمان تتكون من مجموعة معقدة من دول إقطاعية جرمانية تتراوح في قوة طابعها البربرى . وقد تعلمت معظم هذه الشعوب الجرمانية في غرب نهر الرين أن تنطق بلهجات تلونت باللون اللاتينى ، ولم تلبث في النهاية أن اندمجت فأصبحت اللغة الفرنسية الحديثة . أما إلى الشرق من نهر الرين فإن الشعوب الجرمانية الماثلة في جنسها لتلك التى في غرب النهر لم تفقد لسانها الجرمانى . لذا لم يعد التواصل سهلاً بين طائفتى هؤلاء الغزاة البرابرة ، وسرعان ما حدث الصدع بينهما . وزاد في تيسير الصدع أن عرف الفرنجة كيف يعملون من الطبيعى تقسيم إمبراطورية شرلمان بين أولاده عند موته .

لذا أصبح من الظواهر المألوفة في تاريخ أوروبا منذ أيام شرلمان فما بعدها ، أن يتحول إلى تاريخ لهذا الملك وأسرته أو ذاك ، وهم يكافحون في سبيل رياسة مقلقلة على من عاصروهم في أوروبا من ملوك وأمراء ودوقات وأساقفة ومدن ، في حين أخذ العداء بين العناصر الناطقة بالفرنسية والألمانية — يزداد عمقاً في طوايا تلك الخصومة . وقد جرت العادة بإقامة انتخاب شكلى لكل إمبراطور يتولى العرش ، وكان أقصى ما يتمنى كل منهم أن يكافح حتى يمتلك روما العاصمة البالية ذات الموقع السيئ وأن يحظى بالتتويج فيها .

أما العامل الثانى في الاضطراب السياسى بأوروبا فهو تصميم الكنيسة بروما على ألا تسمح لأى أمير علمانى إلا بابا روما نفسه أن يصبح إمبراطوراً واقعياً . وقد سبق للبأبا

(١) الوسواس : (Obsession) فكرة ملحة تعاود الفرد دائماً تفلون عادة بلون عاطفى قوى ، وغالباً ما تنطوى على دافعى إلى القيام بنوع من التصرف ، وهى حالة عقلية مرضية وتسمى في علم النفس باسم الحواز أو الانحصار . [المترجم]

كما أسلفنا أن اتخذ لقب الحبر الأعظم ؛ وكانت كل الدواعى العملية البهتة تدعوه إلى الاحتفاظ بتلك المدينة المتداعية المتدهورة ؛ ولئن أعوزته الجيوش فلقد كان يملك على الأقل مؤسسة ضخمة للدعاية ، لسانها قساوسته المنتشرون فى كل أصقاع العالم اللاتينى ؛ ولئن قل نصيبه من السلطان على أجسام الرجال ، فلقد ملك يمينه فيما تتصور أخيلتهم مفاتيح الجنات والجحيم ، وكان له من ثم نفوذ كبير على نفوسهم . لذا فالصور التى ترسم أمامنا عن العصور الوسطى بأكملها هى أنه فى الوقت الذى كان أحد الأمراء يداور ويناور ضد زميل له طلبا للمساواة به أولا ، ثم التفوق عليه ثانيا ، ثم التماسا للهدف الأعلى المرموق أخيراً — كان البابا فى روما يداور هو أيضا ويناور لإخضاع الأمراء جميعا لسلطانه بوصفه السيد الأعلى للنصرانية ، يقوم بذلك بجرأة وجسارة أحيانا، وبإعمال المكر والدهاء تارة، أو بخسة وضعف أخرى (وذلك لأن الباباوات كانوا جماعة متعاقبة من الشيوخ لم يزد حكم أحدهم عن سنتين قط) .

بيد أن هذه الخصومات الناشئة بين الأمير وبين الإمبراطور والبابا لم تسكن هى وحدها بأية حال عوامل الاضطراب بأوربا ، فقد كان بالقسطنطينية إمبراطور يتكلم الرومية ويطالب أوربا كلها بالولاء لعرشه ، وعندما حاول شرلمان أن يبتعث الإمبراطورية ، لم يوفق إلى أكثر من ابتعاث القسم اللاتينى منها . فكان من الطبيعى إذن أن ينشأ بسرعة بين إمبراطورية اللاتين وإمبراطورية الروم شعور بالمنافسة . على أن تطور المنافسة بين الكنيسة المسيحية الناطقة بالرومية وبين مثلتها الحديثة الناطقة باللاتينية كان أشد وأسرع . فادعى البابا بروما أنه خليفة القديس بطرس كبير تلاميذ يسوع المسيح وأنه رئيس المجتمع المسيحى فى كل مكان . وبديهي أن إمبراطور القسطنطينية وبطريقها لا ينظران بعين الرضا إلى هذا الادعاء ، ونشب نزاع فى ١٠٥٤ حول نقطة دقيقة فى موضوع الثالوث المقدس ، فكان نقطة الانفجار التى تصدعت معها العلاقة بين الطرفين بعد مجموعة متتالية من الخلافات . فافتقت الكنيسة اللاتينية عن أختها اليونانية وتميزت إحداها عن الأخرى منذ ذلك الحين ، وأسفرت عما تكنه للأخرى من عداوة . وينبغى أن نضيف هذه الخصومة الجديدة إلى غيرها من الخصومات التى ذكرناها فى تعدادنا للنزاعات التى بددت قوى عالم النصرانية اللاتينية فى العصور الوسطى .

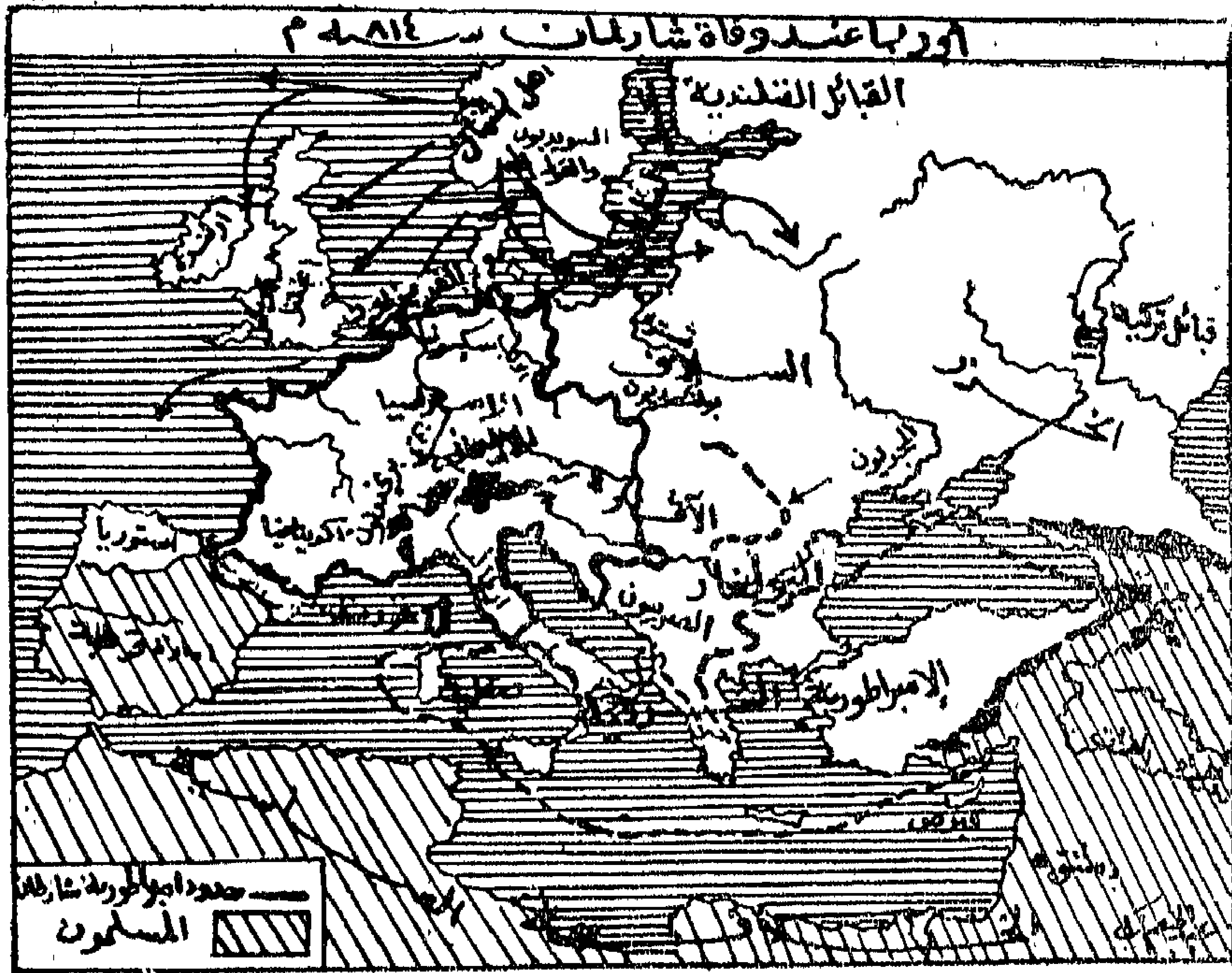
وعلى رأس هذا العالم المسيحى المتفرق الكعبة ، انهالت الضربات من قبضة

السياسى للشعوب البربرية جمعاء ، وهى انقسام أبناء الحاكم والرئيس على أنفسهم . ولعله مما يشير اهتمامك أن تتأمل النتائج التى كانت تترتب على دوام هذا الاتحاد المؤقت الذى قام على يد النورمان . والنورمان شعب أوتى جرأة مدهشة وهمة نادرة . تقدموا بمراكبهم فى البحر طويلا حتى لقد بلغوا إيسلنده وجرينلنده . وهم أول من نزل على أرض أمريكا من الأوربيين . وقد حدث فيما يلى ذلك من عهود التاريخ أن النورمان استردوا صقلية من يد العرب ونهبوا روما . وقد يستهوى ألبابنا تصور تلك الدولة البحرية الشمالية العظيمة التى كانت نواتها مملكة كانوت ، وقد امتدت من أمريكا إلى روسيا .

وإلى الشرق من الجرمان والأوربيين المصطبغين بالصبغة اللاتينية كان ينزل خليط من القبائل السلافية (الصقلية) والشعوب التركية . ومن أبرز هؤلاء المجرىون (الهنغاريون) الذين ظلوا يتقدمون غربا طيلة القرنين الثامن والتاسع . ولقد صدم شرملمان إلى حين ، ولكنهم وطدوا أقدامهم بعد موته فى بلادهم الحالية ، وأخذوا يغيرون كلما جاء الصيف على أقطار أوروبا المستقرة على جارى عادة الهون أسلافهم المشابهين لهم . وقد اخترقوا ألمانيا كلها فى ٩٣٨ حتى وصلوا فرنسا ، وعبروا جبال الألب حتى دخلوا شمال إيطاليا ، ومنها عادوا إلى وطنهم بعد أن عاثوا فى تلك البلاد سرقة وتحريراً وتدميراً .

وأما الضربة الثالثة التى نزلت بأوروبا ، فجاءت من العرب الذين هبوا بهمة قوية من الجنوب يقضون على بقايا الدولة الرومانية . فمدوا سلطانهم على البحر إلى حد كبير ، ولم يكن لهم على صفحته من منافس قوى البأس إلا النورمان : — نورمان الروس الخارجون إليهم من البحر الأسود ونورمان الغرب .

حتى إذا أحاطت هذه الشعوب العدوانية العارمة بشرلمان وبمن خلفه من عواهل طامحين إلى العلا ، وجعلتهم يشعرون أنهم تسكتنفهم قوى لا يفقهون لها معنى وأخطار لا يستطيعون لها تقديراً ، راحوا يضطلعون بمسرحية غير ذات غناء ، هى إعادة الإمبراطورية الغربية إلى الحياة تحت اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولم تزل هذه الفكرة تخامر الحياة السياسية لأوروبا الغربية منذ عهد شرملمان مخامرة حالات التهوس ، على حين كان النصف اليونانى من الدولة الرومانية يضمحل فى الشرق ويندوى حتى لم يبق منه فى النهاية شئ خلا مدينة تجارية فاسدة متدهورة هى القسطنطينية وحولها بضعة أميال من الأراضى المحيطة بها . وبهذا أصبحت قارة أوروبا من الناحية السياسية محافظة متمسكة بالتقاليد العقيمة غير المتعمرة مدة ألف سنة بعد أيام شرملمان .



خريطة رقم (١١)

إن اسم شارلمان يتبدى عظيماً ضخماً على صفحات التاريخ الأوربي ، ولكن قلنا رأى أحد شخصيته جليلة واضحة المعالم . كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن إكباره للعلم كان جسيماً ؛ وكان يميل إلى الاستماع إلى القراءات في أثناء تناوله الطعام ، كما كان شديد الوله بالمجادلات اللاهوتية ؛ وكان كلما ذهب إلى مشتاه في إكس لاشايل أو ماينز جمع حوله طائفة من العلماء ليلتقط الشيء الكثير مما يدور بينهم من حديث ، فإذا حل الصيف انطلق لقتال العرب الأندلسيين مرة ، أو الصقالبة والمجريين أخرى ، أو السكسون وغيرهم من قبائل الجرمان التي لم تبرح على الوثنية . فهل راودته فكرة تولى القيصرية بعد رومولوس أوغسطس قبل استيلائه على شمال إيطاليا ، أم ترى أوحاها إليه البابا ليو الثالث ، الذي كان يتوق إلى فصل الكنيسة اللاتينية عن القسطنطينية ؟ — ذلك ما لا سبيل إلى الوصول إلى رأى حاسم فيه .

لقد جرت في روما مناورات ومداورات من أعجب ما يكون . فالبابا يريد أن يظهر على الملأ أنه هو الذي منح التاج الإمبراطوري للإمبراطور المنتظر الذي لم يكن يريد

ذلك المظهر . ونجح البابا في تتويج ضيفه الغازي على غرة مته بكنيسة القديس بطرس في يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ . ذلك أنه أبرز التاج ووضعه على رأس شيرلمان ، ونادى به قيصرًا وأوغسطوس . وتعالى هتاف الناس . ولم ترض نفس شيرلمان بأي حال عن الطريقة التي تم بها الأمر ، الذي ظلت ذكره تبحر كرامته ، كأنها هزيمة مني بها ؛ كما أنه ترك لابنه أدق التعليمات موصيا إياه ألا يسمح للبابا بتتويجه ؛ وأن يتناول التاج بيديه ويضعه بنفسه فوق رأسه .

وهكذا نرى منذ البداية الأولى لعودة الإمبراطورية ، استهلال النزاع الطويل المديد بين البابا والإمبراطور على السيادة الدنيوية . على أن لويس الورع بن شيرلمان أغفل تعليمات أبيه وخضع للبابا خضوعًا تامًا .

وتمزقت إمبراطورية شيرلمان شرمزق بموت ولده لويس الورع ، واتسعت شقة الصدع بين الفرنجة الناطقين بالفرنسية والفرنجة الناطقين بالجرمانية . وكان الإمبراطور الذي تلاه على العرش هو أوتو ، وهو ابن أمير من أمراء السكسون يدعى هنري الصياد ، وهو الذي انتخبته ملكًا على ألمانيا جمعية من أمراء الجرمان وأساقفتهم في ٩١٩ . وقد زحف أوتو على روما وتوج بها إمبراطورًا في ٩٦٢ . وانقرضت هذه الأسرة السكسونية في أوائل القرن الحادي عشر وحل محلها حكم آخرون من الجرمان ، ولم يحدث قط أن أمراء ونبلاء الإقطاع المقيمين في الغرب والناطقين بلهجات فرنسية متنوعة خضعوا لسلطان هؤلاء الأباطرة الألمان منذ أن انقرضت الأسرة الكارلوفنجية : أعنى أحفاد شيرلمان ، كما لم يحدث قط أن جزءًا من بريطانيا وقع تحت سيادة الدولة الرومانية المقدسة ، وبذلك ظل دوق نورماندى وملك فرنسا ، وعدد من صغار الحكام الإقطاعيين بمنأى منها .

وقد انتقلت مملكة فرنسا في ٩٨٧ من يد الأسرة الكارلوفنجية إلى يدهيو كابت ، الذي كان أحفاده يحكمون فرنسا في القرن الثامن عشر ، ولم يكن ملك فرنسا يحكم أيام هيو كابت إلا منطقة صغيرة نسبيا تحيط بمدينة باريس .

وفي ١٠٦٦ هوجمت إنجلترا من جهتين في وقت واحد تقريبًا ، فغزاها نورمان النرويج بقيادة هارولد هارد رادا ، كما هاجمها من الجنوب النورمان ذوو الطابع

اللاتيفى بقيادة دوق نورماندى . وعند ذلك تقدم هارولد ملك إنجلترا فهزم الغازى
النرويجى فى معركة جسر ستامفورد ، ولكن دوق نورماندى هزمه عند هاستنجز .
وفتح النورمانديون إنجلترا ، وأبعدوها عن كل علاقة بالشئون الإسكندنافية التوتونية
والروسية ، وأحكموا ما بينها وبين الفرنسيين من علاقات وزجوا بها فيما لهم من
منازعات . وظل الإنجليز مشتبكين طوال القرون الأربعة الأخيرة فى المنازعات الدائرة
بين أمراء الإقطاع الفرنسيين ، كما ظلوا تلك المدة الضخمة يبددون قواهم فى ميادين
القتال الفرنسية .

الفصل السادس والأربعون

الحروب الصليبية

وعصر السيادة الباباوية

لعله مما يشير اهتمامنا أن نشير إلى أن شرلمان تبادل الرسائل مع الخليفة هارون الرشيد ، وهو نفس هارون الرشيد الذي تذكره أقاصيص ألف ليلة وليلة . ويسجل التاريخ أن هارون أرسل السفراء من بغداد - التي أصبحت آنذاك عاصمة المسلمين بعد دمشق - يحملون الهدايا والألطف التي منها خيمة فاخرة نفيسة وساعة مائية وأحد الفيلة ومفاتيح النابلس المقدس .

وقد رمى الخليفة من وراء هذه الهدية الأخيرة إلى خطة محكمة التدبير أراد بها تأليب كل من دولة الروم الشرقية وهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحداهما على الأخرى حول المسيحيين في أورشليم ولبن منهما حق حمايتهم .

وتذكرنا هذه الهدايا بأنه في نفس الوقت الذي كانت أوربا تصلى فيه إبان القرن التاسع نار فوضى الحروب وما يصحبها من تدمير ونهب ، كانت تزدهر بمصر وأرض الجزيرة إمبراطورية عربية عظيمة ، أشد حضارة من دول أوربا جميعاً . لقد كان الأدب والعلم لا يزالان عندهم محتفظين بنشاطهما القوي ؛ وازدهرت الفنون لديهم ، كما أنه كان في إمكان العقل البشري أن يتنقل في أبراج التفكير دون أن تعوقه مخاوف أو خزعبلات . وكذلك اشتدت قوة الحياة الفكرية في إسبانيا وشمالي إفريقيا التي أخذت فيها الفوضى السياسية تدب في أوصال الممالك العربية . كان هؤلاء اليهود والعرب يقرأون أرسطو ويتباحثون في آرائه إبان تلك العصور التي رانت فيها الظلمات على أوربا ، لقد أقاموا من أنفسهم حراساً على بذور العلم والفلسفة التي طال إهمالها .

وكانت تنزل إلى الشمال الشرقي من دولة الخليفة مجموعة من القبائل التركية اتجهت

الإسلام ديناً ، واعتنقت العقيدة بصورة أبسط وأعنف كثيراً مما لدى العرب والفرس الناشطين فكراً في الجنوب . لقد أخذ الترك يزدادون قوة وحيوية في أثناء القرن العاشر ، وذلك بينما دب ديب الانقسام والاضمحلال في دولة العرب . وتطورت العلاقات بين الأتراك ودولة الخلافة حتى أصبحت قوية الشبه بعلاقة الميديين بالإمبراطورية البابلية الأخيرة قبل ذلك بأربعة عشر قرناً ، وحدث في القرن الحادى عشر ، أن مجموعة من القبائل التركية ، هى الأتراك السلجوقيون زحمت على أرض الجزيرة وجعلت الخليفة حاكماً بالاسم فقط ، وأداة يسيرونها وفق هواهم ، وأسيرا في أيديهم ، ثم غزوا أرمينية ، وأخذوا بعد ذلك ينزلون الضربات على بقايا الدولة البيزنطية بآسيا الصغرى . فهزم الجيش البيزنطى هزيمة نكراء في ١٠٧١ فى معركة ملازجرد ، وعند ذلك اجتاحت الأتراك البلاد قدما حتى لم يبق للدولة البيزنطية أثر بآسيا . ثم استولوا على قلعة نيقيا المقابلة للقسطنطينية وأخذوا يعدون العدة للاجهاز على المدينة نفسها .

دب الرعب فى قلب الإمبراطور البيزنطى ميشيل السابع ، وكان مشتبكاً فى حرب ضروس مع ثلة من المغامرين النورمان استولت على مدينة دورازو ، ومع شعب تركى شديد الشراسة هوالبشناق (البشمناخ) ، الذين كانوا يغيرون على ضفاف الدانوب ، واضطر الإمبراطور وهو فى محنته أن يلتمس المعونة حيث استطاع أن يجدها ، ومما تجدر ملاحظته هنا أنه لم يلجأ إلى إمبراطور العرب بل التمس العون من بابا روما بوصفه رئيساً للنصرانية اللاتينية ، فكتب إلى البابا جريجورى السابع ، كما كتب خلفه أليكسيوس كومنينوس مستغيثاً بإرباب الثانى .

حدث هذا ولم ينقض على انفصال الكنيستين الرومية واللاتينية ربع قرن ، — والخصومة بين الطرفين لم تزل ذكرها قوية الإشراف فى عقول الناس ، ولا شك أن هذه السكارثة التى أصابت بيزنطة قد تبادت لعين البابا فرصة ثمينة يعيد بها فرض سيادة الكنيسة اللاتينية على اليونان أهل الفرقة والخلاف ، وفضلاً عن ذلك فإن البابا انتهزها فرصة لمعالجة أمرين أزعجا عالم النصرانية اللاتينية أيما إزعاج ، وأول الأمرين هو « عادة الحرب الخاصة » التى كانت تبث الفوضى فى الحياة الاجتماعية ، وثانيهما هى طاقة القتال الفياضة التى يتسم بها سكان السهول الجرمان والنورمان المنتصرون ولا سيما الفرنجة منهم والنورمانديون . وعندئذ شرع المبشرون ورجال الدين يبشرون بحرب مقدسة ، هى حرب الصليب ، أو الحروب الصليبية ، التى يراد أن تشن على الترك مغتصبي بيت المقدس ، كما يبشرون بوجوب قيام الهدنة وإيقاف كل قتال بين المسيحيين جميعاً (١٠٩٥) .

وقد أعلنوا أن الهدف من هذه الحرب هو استرداد القبر المقدس من يد الكفرة .
وراح رجل يدعى بطرس الناسك يجوب الآفاق ويث دعايته في الجماهير بكل من فرنسا
وألمانيا ، وكان يتجول في البلاد في ثوب خشن حافي القدمين وممتطيا حماراً ، وهو يحمل
صليباً ضخماً ويخطب الناس في الشوارع والأسواق والكنائس .

وكان ينعى على الترك ما يرتكبونه ضد الحجاج المسيحيين من قساوات ، ويدكر
الناس بالعار الذي يعود عليهم من بقاء النواوس المقدس في أيدي غير مسيحية ، وعند
ذلك ظهرت ثمار تلك القرون الطويلة من الدعوة المسيحية في استجابة الناس لها .
فإن موجة عظيمة من الحماسة اجتاحت العالم الغربي ، وعند ذلك اكتشفت
النصرانية الغربية نفسها لأول مرة .

كانت مثل تلك الانتفاضة الواسعة الانتشار التي صدرت آنذاك عن عامة الشعب
تحمساً لفكرة واحدة ، شيئاً جديداً لم يمهده له مثيل في تاريخ البشر ، هي شيء ليس له
من ضريب في سابق تاريخ الدولة الرومانية أو الهند أو الصين . ومع ذلك فقد حدثت
في نطاق أضيق حركات مشابهة لهذه بين الشعب اليهودي بعد تحرره من الأسر البابلي ،
كما حدث فيما بعد أن الإسلام أظهر قابلية للشعور الحشدي مماثلة لهذه .

ومن المحقق أن هذه الحركات ارتبطت بالروح الجديدة التي ظهرت في هذا العالم
مع تطور ديانات التعليم والتبشير والمعمدين والمبشرين . فإن أنبياء العبرانيين وعيسى
والحواريين وماني ومحمد ، كانوا جميعاً معلمين يناجون نفوس الناس كأفراد . وكانوا
يواجهون ضمير الشخص بالله رأساً . وقبل ذلك الأوان كان الدين أقرب إلى الفتيشية
والخرعبلات والعلم الزائف منه إلى أن يكون من شئون الضمير البشري ، وكان النوع
القديم من الدين يدور حول المعبد ، والكاهن المتدرج في أسرار العقيدة والقرايين
الرمزية ، كما كان يحكم الرجل العادي بالخوف حتى لسكانه العبد الرقيق . أما ذلك النوع
الجديد من الدين فإنه اتخذ منه إنساناً .

وكان التبشير بالحرب الصليبية الأولى أول دعوة أثارت مشاعر العامة في التاريخ
الأوربي ، وربما كان من المبالغة القول بأنها تؤذن بمولد الديمقراطية الحديثة ، وإن
لم يخالفنا شك في أن الديمقراطية الحديثة تحركت فعلاً في ذلك الزمان ، وسنجدتها

تتخرك من جديد قبل انقضاء زمن طويل ، وتسأل أسئلة اجتماعية ودينية تبحث على الانزعاج الشديد .

وليس من شك في أن هذه الحركة الأولى الديمقراطية انتهت بنهاية ألحمة فاجعة ، فإن حشوداً ضخمة من العامة هي في الواقع جماهير محتشدة أكثر منها جيوشاً ، انطلقت نحو الشرق من فرنسا ومنطقة الرين وأوربا الوسطى ، دون أن تنتظر الحصول على قائديقودها أو معدات تزود بها ، وهي تريد إنقاذ القبر المقدس وتلك هي « الحملة الصليبية الشعبية » . وقد ضل الطريق منها جمهوران عظيمان دخلا بلاد المجر خطأ ، وزعما أن أهل المجر — الذين دخلوا عندئذ في المسيحية وشيكا كانوا من الوثنيين ، فارتكبوا بعض الفظائع ، وهب المجرئون فأعملوا فيهم الذبح جميعاً ، وجاء جمهور عظيم ثالث اختلت عليه الأمور هو أيضاً ، وتبلبل فكره كسابقيه فزحف شرقاً بعد أن أعمل الذبح بشدة في يهود منطقة الرين ، حتى إذا وصل بلاد المجر قضى عليه هناك ، ثم إن جمهورين هائلين آخرين بقيادة بطرس الناسك نفسه بلغا القسطنطينية وعبرا البوسفور حيث هزمهما الأتراك السلجوقيون ، بل ذبحوهما ذبحاً ، وبذا ابتدأت وانتهت أول حركة للشعوب الأوروبية بوصفها حركة شعبية .

وفي السنة التالية (عام ١٠٩٧) عبرت البوسفور القوات المقاتلة الحقة ، وكانت بطبيعة الحال نورمانية في الروح والقيادة ففتحوا نيقية عنوة ، وساروا إلى أنطاكية سالكين تقريباً نفس الطريق الذي سلكه الإسكندر قبل ذلك بأربعة عشر قرناً . وقد أعظمهم حصار أنطاكية سنة ، انطلقوا بعدها لمحاصرة بيت المقدس في يونيو ١٠٩٩ ، وسقطت بيت المقدس بعد شهر من الحصار ، وكانت المذبحة التي دارت بها رهبة فظيعة ، فإن الراكب على جواده كان يصيبه رشاش الدم الذي سال في الشوارع أنهاراً ، وما أرحى ليل الخامس عشر من يولية سدوله حتى كان الصليبيون قد شقوا سبيلهم قتالاً إلى كنيسة القبر المقدس وتغلبوا على كل مقاومة في المدينة ؛ وهناك جثوا للصلاة ملطخين بالدماء ، متعبين مكدودين يكون من فرط السرور .

وسرعان ما اشتعلت من جديد نار العداوة بين اللاتين والروم ، ذلك أن الصليبيين كانوا من أنصار الكنيسة اللاتينية ، ولذا وجد بطريق القدس الرومي (الأرثوذكسي) نفسه وهو في ظل اللاتين المنتصرين في موقف أسوأ من موقفه في ظل الأتراك ؛

واكتشف الصليبيون أنهم وقعوا بين البيزنطيين من ناحية والأتراك من ناحية أخرى وأنهم يقاتلون الطرفين جميعاً . واستردت الإمبراطورية البيزنطية شطرا عظيما من ممتلكاتها بآسيا الصغرى ، كما أن الأمراء اللاتين وجدوا إماراتهم حاجزة^(١) بين الأتراك والروم ، ولم يجدوا في أيديهم سوى بيت المقدس وإمارات صغيرة قليلة ، في سوريا كانت إمارة الرها من أكبرها

على أن قبضتهم حق على هذه الإمارات نفسها كانت قلقة ضعيفة ، ولم تلبث الرها أن سقطت في أيدي المسلمين في ١١٤٤ ، فأفضى ذلك إلى قيام حرب صليبية ثانية فشلت في استخلاص الرها من أيدي العرب ولكنها أنقذت أنطاكية من الوقوع في نفس المصير .

وفي عام ١١٦٩ تجمعت جموع الإسلام حول راية قائد كردى اسمه صلاح الدين الأيوبي ، أصبح حاكما على مصر . فدعا إلى قتال الصليبيين ، واسترد بيت المقدس في ١١٨٧ ، وبذا استفز أوربا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة . ولكنها أخفقت في استرداد بيت المقدس . حتى إذا جردت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) أظهرت الكنيسة اللاتينية عداها الصريح لدولة الروم الشرقية ، ونسى القوم الأتراك تماما ولم يجردوا عليهم حساما ولو من باب التظاهر بالقتال . تحركت تلك الحملة من البندقية واجتاحت القسطنطينية عنوة في ١٢٠٤ .

وكانت زعيمة هذه المغامرة هي مدينة البندقية الثغر التجاري الناهض العظيم ، ولم يلبث معظم سواحل الإمبراطورية البيزنطية وجزائرها أن ألحق بمدينة البندقية . ونصب في القسطنطينية إمبراطور لاتيني هو بالدوين الفلاندرى ، الذى أعلن وحدة الكنيستين اللاتينية واليونانية من جديد . ودام حكم أباطرة اللاتين بالقسطنطينية من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١ ، يوم انتفض العالم اليونانى وتخلص مرة ثانية من تسلط روما عليه .

ومن ثم يكون القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر عصر عظمة البابوية ، مثلما كان الحادى عشر تفوق الأتراك السلجوقيين ، والعاشر عصر النورمان ، وفى هذا

(١) الدولة الحاجزة (Buffer State) : دولة محايدة تقع بين دولتين متعاديتين ويؤدي وجودها إلى التقليل من خطر الحرب بينهما .
[المترجم]

العصر قرب تحقيق الحلم القديم بقيام اتحاد في عالم المسيحية تحت حكم البابا ، وأصبح أدنى إلى الحقيقة الواقعة منه في أى وقت قبل ذلك العصر أو بعده .

وفي إبان تلك القرون ، كان وجود العقيدة المسيحية البسيطة الواضحة من الأمور المقررة الواقعة الواسعة الانتشار في مناطق كبيرة من أوروبا . أجل إن روما نفسها مرت عليها أدوار حالكه مشينة غير كريمة ؛ فقلما جرؤ كاتب على النهوض لتبرير مسلك البابا يوحنا الحادى عشر والبابا يوحنا الثانى عشر في أثناء القرن العاشر . فإنهما كاتا من الكائنات الكريمة البشعة ؛ ولكن المسيحية اللاتينية ظلت وقورة بسيطة جادة في روحها ومعناها ؛ وفي ظلها قضت الأغلبية العظمى من القساوسة ، والرهبان والراهبات عمرها في حياة مثالية رائدها الإخلاص والأمانة . وقامت قوة الكنيسة على كنوز من الثقة التي أوجدتها هذه الشخصيات . ومن أعظم باباوات الماضى « جريجورى الأكبر » وهو جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤ م) وليو الثالث (٧٩٥ - ٨١٦ م) ، الذي دعا شرممان ليكون قيضرا وتوجه على الرغم منه . ونشأ قرب نهاية القرن الحادى عشر ، رجل ذير عظيم ذو سياسة وتدير هو « هلدبراند » ، الذي تسمى فيما بعد باسم البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) ، وهو البابا الذي أثار الحرب الصليبية الأولى . وإلى هذين الرجلين يرجع الفضل في قيام هذه الفترة التي عظم فيها شأن الباباوية والتي تسلط فيها الباباوات على الأباطرة . فكانت للبابا الكلمة العليا من بلغاريا شرقا إلى إيرلندة غربا ، ومن النرويج شمالا إلى صقلية وبيت المقدس جنوبا . وجريجورى السابع هو الذي أرغم الإمبراطور هنرى الرابع على الشخص إلى تائباً منيباً بكانوسا وانتظار العفو منه ثلاثة أيام بلياليها وأقفا في ساحة القلعة ، في ثوب من الخيش وهو حافي القدمين على الثلج . وفي ١١٧٦ رجع الإمبراطور فردريك الثانى الملقب بفردريك بربروسا على ركبتيه بين يدي البابا إسكندر الثالث بالبندقية وأقسم يمين الولاء .

لا جدال أن المصدر الأول للقوة الكبرى التي استعمت بها الكنيسة في القرن الحادى عشر هو إرادة الناس وضمائرهم . على أنها أخفقت في الاحتفاظ بالمكانة الأدبية الى قامت عليها قوتها ونفوذها . حتى إذا أهل القرن الرابع عشر تلفت الناس ، وإذا بقوة البابا قد تبخرت . فما الذي قضى على ثقة العوام الساذجة في عالم المسيحية بالكنيسة بحيث لم يعادوا يستجيبون لأى دعاء منها ولا يخدمون أهدافها ؟ .

إن أول مصدر لمتاعب الكنيسة هو على التحقيق تكديسها للثروة واستكثارها من الأموال . ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة ليس لوجودها نهاية ، وأنه كثيراً ما جنح من لا عقب لهم من الناس إلى حبس ممتلكاتهم على الكنيسة ، كما أن المذنبين التائبين كانوا ينصحون بفعل ذلك ، لذا أصبح ما يقارب ربع الأراضي من ممتلكات الكنيسة في كثير من أقطار أوروبا . ومن البدهيات التي لا جدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال ، وتسامع الناس وتنافلوا في كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن القساوسة لم يكونوا من الأخيار الطيبين ، وأن دأبهم الأول هو اصطياذ المال والتماس التركات

وقد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد البابوية الأجنبية ، فإن أراضيهم التي كان ينبغي أن تمول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكري للملك أو الأمير ، كانت تعول الأديرة والرهبان والراهبات . وزاد الطين بلة أن تلك الأراضي كانت في الواقع الذي لاشك فيه تحت سلطان الأجانب ، وقد نشب الكفاح بين الأمراء والبابوية حول مسألة « التعيينات » أعنى من هو صاحب الحق في تعيين الأساقفة ، وذلك قبل زمن البابا جريجورى السابع نفسه ، فإن ظلت سلطة التعيين بيد البابا دون الملك ، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لضمائر رعاياه بل وحرمانه من شطر جسيم من ممتلكاته ، وذلك لأن رجال الدين كانوا يدعون بأن لهم الحق في الإعفاء من الضرائب ، وكانوا يدفعون ضرائبهم لروما ، وليت الأمر يقتصر على ذلك ، بل إن الكنيسة ادعت أيضاً الحق في جمع مكس قيمته العشر على ممتلكات الرجل العلماني فوق الضرائب التي كان يدفعها لأبيه .

ويكاد تاريخ كل قطر من أقطار المسيحية اللاتينية يتحدث عن حالة كهذه إبان القرن الحادى عشر ، وأعنى بذلك حالة الكفاح بين الملك والبابا حول مسألة التعيينات ، كما أنه يتحدث عن انتصار البابا في ذلك الكفاح بوجه عام ، وذلك أن البابا ادعى القدرة على « حرم » الأمير ، وعلى جعل رعاياه في حل من واجب الولاء والطاعة له ، وعلى الاعتراف بشخص آخر يخلفه ، وادعى كذلك أن من حقه حرم شعب بأكمله ، فتتعطل بذلك كل وظائف الكنيسة وقساوستها ، وذلك فيما عدا مراسم التعميد والتثبيت والتوبة ؛ وعند ذلك لم يكن القساوسة يستطيعون القيام بالصلوات العادية وأداء مراسم الزواج ودفن الموتى . وبهذين السلاحين تمكن باباوات القرن الثانى عشر من كبح

(١٦ — تاريخ العالم)

جماح أقوى الأمراء معارضة وأشدّهم مراساً ، ومن بث الرعب في أشد الشعوب جموحاً ، وكان هذان السلاحان قوة هائلة ، والقوة الهائلة لا يجوز استعمالها إلا في الظروف الاستثنائية البعثة . ولكن الباباوات راحوا يستعملونهما في النهاية بكثرة فلت مضاءهما وأزالت تأثيرهما . ففي الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثاني عشر ، تحرم اسكتلنده وفرنسا وإنجلترا على التوالي . كما أن الباباوات لم يستطيعوا مقاومة شيطان الدعوة إلى القيام بحرب صليبية على الأمراء الذين يخططون - حتى تنهى الأمر إلى أن نخذت روح كل شيء صليبي .

ولو أن كنيسة روما قصرت الكفاح على الأمراء وعينت بالمحافظة على قبضتها على عقول العامة ، لكان من المحتمل أن تحرز سلطاناً دائماً على عالم النصرانية بأكمله ، ولكن مدعيات البابا الكبرى انعكست عند رجال الدين في صورة صلف وكبرياء ، وكان قساوسة الكاثوليكية يستطيعون الزواج قبل القرن الحادى عشر ، وكانت تقوم بينهم وبين من يعيشون حولهم من الناس أواصر وثيقة ، بل كانوا والحق يقال شطراً من الشعب ، ولكن جريجورى السابع حتم عليهم العزوبة ، وبذلك قطع الرابطة القوية التي كانت تصل بين القساوسة والعلمانيين قاصداً من وراء ذلك ربطهم أوثق ارتباط بعجلة روما ، ولكن الواقع أنه شق بين الكنيسة وعامة الناس أخدوداً عميقاً .

وكان للكنيسة محاكمها الخاصة . فهي تحتفظ لنفسها بالحق في نظر القضايا التي يكون القساوسة طرفاً فيها ، بل والرهبان أيضاً والطلبة والصليبيون والأرامل والأيتام وكل من لا معين له ، كما تحتفظ لمحاكمها بجميع المسائل المتعلقة بالوصايا والأنكحة والأيمان وجميع قضايا السحر والزندقة والتجديف ، وكان على العلماني أن يلجأ إلى المحاكم الكنسية إن حدث بينه وبين أحد رجال الدين نزاع ، وذلك كله في حين أن التزامات السلم وأعباء الحرب تقع كلها على كاهله وحده دون القسيس . فليس عجيباً إذن أن تنمو في النفوس العداوة والحسد لرجال الدين في كل أرجاء عالم النصرانية .

ولم تظهر روما من الدلائل ما يدل على أنها تدرك أن قوتها إنما تعتمد على ضلّال الناس ، فكانت تحارب الحماسة الدينية التي كان يجب أن تتخذ منها حليفاً تعتمد عليه ، وكانت تفرض بالقوة صحة المعتقد على صاحب الشك البريء وعلى المارق صاحب الانحراف في الرأي دون تفريق بينهما ، وعندما كانت الكنيسة تتدخل في الشؤون الخلقية ،

كانت تجد الرجل العادى فى صفها ، واسكن لم يكن الحال كذلك حين تتدخل فى الشئون المذهبية ، وعندما أخذ والدو يبشر فى جنوب فرنسا بالعودة إلى منهج يسوع فى بساطة العقيدة والحياة ، دعا إنوسنت الثالث إلى حملة صليبية ضد من اتبعوه ، وأذن لجنده بقمعهم بالنار والسيف وهتك الأعراض وبأشد أنواع القساوات بشاعة . ولما دعا القديس فرنسيس الأسيسى (١١٨١ - ١٢٢٦) إلى محاكاة المسيح وإلى حياة التقشف والفقر والعبادة ، اضطهد أتباعه الرهبان الفرنسيسكان وجلدوا وسجنوا وشتموا ، ثم أحرق أربعة منهم بمرصليا وهم أحياء فى ١٣١٨ ، وذلك فى حين أن جماعة الرهبان الدومينيكيين التى أسسها القديس دومينيك (١١٨٠ - ١٢٢١) والشهيرة بتمسكها العنيف بصحة الاعتقاد المذهبي كانت موضع التعزير القوي من إنوسنت الثالث ، الذى استطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشئ هيئة هى محاكم التفتيش ، بقصد تصيد الزنادقة وإنزال سوط العذاب بكل فكر حر .

وهكذا دمرت الكنيسة بمذعبياتها المبرقة ، وامتيازاتها الأثيمة ، وبعدم تسامحها الخالى من كل حكمة وعقل ، تلك العقيدة الحرة التى للرجل العادى ، والتى هى فى النهاية مصدر سلطانها كله ، ولو اطلعت على قصة تدهورها لماحدثتك بظهور أى عدو كفء لها ناصبها العداء من الخارج ، بل عن الانحلال الذى ينخر فيها من الداخل .

الفصل السابع والأربعون

الأمراء المعارضون والصدع الأعظم

كانت طريقة انتخاب الباباوات من أعظم نقاط الضعف في الكنيسة الكاثوليكية في أثناء كفاحها للوصول إلى رئاسة العالم المسيحي بأكمله .

فلئن أريد للبابوية أن تفوز حقاً بأطباعها الظاهرة وأن تؤسس حكماً واحداً وسلاماً واحداً في كل أرجاء العالم المسيحي ، كان من الواجب الضروري أن تكون قيادتها في أيدٍ قوية حازمة ، وكان من ألزم الضرورات إبان تلك الأيام العظيمة التي سبغت فيها فرصتها ، ألا يتولى منصب الباباوية إلا رجل كفء قادر في عنفوان شبابه ، وأن يعين كل منهم خليفته ، حتى يستطيع أن يتناقش وإياه في سياسة الكنيسة ، وأن تكون كيفية الانتخاب وطرائقه واضحة بيّنة ، محددة غير قابلة للتغيير ولا معرضة لطمع . ولكن شيئاً من هذه الأمور لم يحدث لسوء الحظ ، بل لم يكن الناس يعرفون بوضوح من له الحق في التصويت في انتخاب البابا ، وما إذا كان للامبراطورية البيزنطية أو الرومانية المقدسة صوت في الأمر ، وقد بذل هلدبراند ذلك السياسي المخنك (وهو البابا جريجوري السابع ١٠٧٣ - ١٠٨٥) ، جهداً كبيراً في تنظيم الانتخاب . فقصر الأصوات على الكرادلة الكاثوليك ، كما قصر نصيب الإمبراطور على موافقة شكلية منحه إياها الكنيسة ، بيد أنه لم يتخذ أي عدة لتعيين خلف بالتخصيص ، كما أنه جعل من الممكن أن تؤدي منازعات الكرادلة إلى ترك كرسى الباباوية شاغراً ، الأمر الذي حدث في بعض الحالات حين ترك شاغراً سنة أو أكثر .

هذه الحاجة إلى التحديد الجازم الدقيق لكل شيء تتجلى في تاريخ الباباوية بأكمله حتى القرن السادس عشر . فإن النزاع كان يلبدجو الانتخابات منذ أزمنة سحيقة جداً ، وكثيراً ما أعلن رجلاً أو أكثر أن كلا منهم هو البابا الشرعي ، وهنالك تتعرض الكنيسة لمهانة الاحتكام إلى الإمبراطور أو أي حكم خارجي ليقضى برأيه في النزاع ، وكانت حياة كل بابا عظيم تنتهي بخاتمة تثير التساؤل . وقد ترك الكنيسة بعد موته بغير

رئيس ، وتصبح عاجزة عديمة الأثر كأنها جسد بلا رأس . وربما حل محله منافس هجوز كل همه أن يقضى على جهوده وينتقصها ، وقد يخلفه شيخ ضعيف يترنح على حافة القبر . لم يكن مفر من أن يدعو هذا الضعف الخاص في نظام الباباوية إلى تدخل الأمراء الألمان وملك فرنسا والملوك النورمانديين والفرنسيين الذين تولوا عرش إنجلترا ، كما لم يكن بد من أن يحاولوا جميعاً التأثير في الانتخابات ، وأن يكون لهم في قصر اللاتيران بروما بابا يهتم بمصالحهم ويرعاها ، وكلما زاد البابا قوة وعلا شأنه في الشؤون الأوروبية ، زادت الضرورة إلى تلك التغييرات ، فليس عجباً في مثل تلك الظروف ، أن يكون كثير من الباباوات ضعافاً لا غناء فيهم ، على أن وجه العجب حقاً ، أن كثيراً منهم كانوا رجالاً مشجعاًناً أكفاء .

ومن أشد باباوات هذه الحقبة العظيمة قوة واستثارة لاهتمامنا ، البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) ، الذي كان من حسن حظه أن أصبح بابا قبل أن يبلغ الثامنة والثلاثين ، وكان هو وخلفاؤه يناصبون العداء شخصية تسكاد تبرهم إمتاعاً وأهمية ، هي شخصية الإمبراطور فردريك الثاني ، الذي كان ينعت « أدهوشة العالم » ، وكفاح هذا العاهل ضد روما يعد نقطة تحول في التاريخ ، أجل انتهى الأمر بأن هزمته روما وقضت على أسرته ، بيد أنه غادر كرامة الكنيسة والبابا وهيبتها جريحة جراحاً بلغ من خطورتها أن نغرت^(١) في النهاية وأدت إلى انحلالها .

كان فردريك ابناً للإمبراطور هنري السادس ، وكانت أمه بنت روجر الأول ، ملك صقلية النورمانى ، ورث هذه المملكة في ١١٩٨ عند ما كان طفلاً في الرابعة وقد عين إنوسنت الثالث وصياً عليه ، وكانت صقلية في ذلك الحين حديثة العهد بالغزو النورمانى ؛ وكان بلاط الملك شريعياً أو يكاد حافلاً بعلماء العرب الواسعى الاطلاع ، وقد أسهم بعض هؤلاء في تعليم الملك الصغير ، ولا شك أنهم لقوا بعض العناء في توضيح آرائهم له ، فكون في المسيحية رأياً إسلامياً ، كما كون في الإسلام وجهة نظر مسيحية ، ومن هذه التربية المزدوجة ، خرج الملك بنتيجة تعسة تعد شيئاً شاذاً في عصر الإيمان ، ذاك . هي أن جميع الديانات دجل ، وطالما تسكاهم بلاء حريته في ذلك الموضوع ، ويسجل لنا التاريخ كفره (هرطقاته) وتجديفاته .

(١) نغر : يقال نغر بمعنى فسد كالجرح إذا سال منه الدم والصدید . [المترجم]

ولما أن شب الفتي ألقي نفسه في نزاع مع وصيه ، ذلك أن إنوسنت الثالث كان يغلو فيما يطلبه من الفتي القاصر ، فلما آن لفردريك تولى عرش الإمبراطورية ، تدخل البابا مشرطاً بعض الشروط ، فأصر على أن يعد فردريك بالقضاء بقوة على ما بألمانيا من كفر وزندقة ، وذلك فضلاً عن تخليه عن عرش صقلية وجنوب إيطاليا ، وإلا قوى سلطانه ولم يقدر البابا على كبحه ، وعدا ذلك طلب البابا بإعفاء رجال الدين الألمان من الضرائب ، ووافق فردريك على الشروط دون أن يضرر البر بوعده بأي حال . وفي تلك الأثناء حمل البابا العاهل الفرنسي على شن الحرب على رعاياه بفرنسا ، وهي الحملة الصليبية القاسية الدامية التي شنت على أتباع والدو ، وقد أراد أن يفعل فردريك نفس الفعلة في ألمانيا ، ولكن لما كان فردريك أشد كفراً وزندقة من أي « ورعي »^(١) بسيط من أولئك الذين جلبوا على أنفسهم عداوة البابا ، فمن البديهي أنه كان يعوزه التعمس لأمثال هذه الحملات الصليبية ، وعند ما حرصه إنوسنت على القيام بحملة صليبية على المسلمين واسترداد بيت المقدس ، لم يتردد في المبادرة بالوعد ، كما لم يتردد بالمثل في التباطؤ في التنفيذ .

حتى إذا تم لفردريك الثاني الحصول على التاج الإمبراطوري أقام بصقلية ، التي كان يؤثر الإقامة فيها على المقام في ألمانيا ، ولم يفعل شيئاً للبر بأي وعد من وعوده لإنوسنت الثالث ، الذي مات في ١٢١٦ بعد أن أعياه أمره .

ولم يستطع هونوريوس الثالث الذي خلف إنوسنت ، أن يكون أحسن حظاً مع فردريك من سلفه ، ثم تولى جريجوري التاسع عرش الباباوية (١٢٢٧) وقد صمم تصميماً واضحاً على تسوية الحساب مع ذلك الفتي مهما يكن الثمن ، فأصدر قراراً بحرمانه وحيل بين فردريك الثاني وبين كل ما تستطيع الديانة تقديمه من وسائل العزاء والسوى . ومن العجب أن هذا الإجراء لم يضايق البلاط الصقلي نصف العربي إلا أقل المضايقة . ثم إن البابا وجه إلى الإمبراطور أيضاً خطاباً مفتوحاً يسرد فيه رذائله « التي لا يستطيع إنسان إنكارها » ، وزندقاته وسوء سيرته بوجه عام ، فما كان من فردريك إلا أن

(١) الورعيون : (Pietists) هم أتباع والدو كما هو ظاهر من السياق ، وهم يأخذون أنفسهم بالورع الشديد في أبسط صور المسيحية الأولى . . . [المترجم]

أجابه على تلك الرسالة بوثيقة تنم عن مقدرة شيطانية ، وجهت تلك الرسالة إلى جميع أمراء أوربا ، كما أنها أول بيان واضح عن النزاع بين البابا والأمراء . وفيها أنمى بالطعن القاتل على مطامع البابا الواضحة : أن يكون الحاكم المطلق لأوربا بأكملها ، واقترح قيام اتحاد بين الأمراء ضد ذلك الاغتصاب . ووجه أنظار الأمراء بنوع خاص إلى ما تستمتع به الكنيسة من ثراء .

حق إذا أطلق فردريك هذه القذيفة القاتلة ، صمم على البر بوعده الذى تأخر إنجازه اثنى عشرة سنة بالخروج فى حملة صليبية ، وتلك هى الحملة الصليبية السادسة (١٢٨٨) ، كانت كحملة صليبية تعد مهزلة ، فإن فردريك الثانى ذهب إلى مصر وتقابل مع سلطانها وتباحث وإياه فى الأمور اراح هذان السيدان - وكلاهما ممن انطوت نفسه على التشكك - يتبادلان آراء متجانسة ، وأبرما معاهدة تجارية تعود عليهما بالنفع المشترك ، واتفقا على أن تنتقل بيت المقدس إلى يد فردريك ، ولا شك أن ذلك كان ضربا جديدا من الحرب الصليبية ، فهو حملة صليبية سلاحها المعاهدات والمواثيق ، وهنا لم يهرق دم ولا تطاير له على الفاتح رشاش . ولا حدث « بكاء من فرط السرور » ، ولما كان ذلك الصليبي المدهش رجلا محروما بأمر الكنيسة ، فإنه اضطر أن يقنع بتتويج علماني محض كملك لبيت المقدس ، متناولا التاج من المذبح بيده - وذلك لأن جميع رجال الدين كانوا ملزمين أن يجتنبوه ، ثم عاد إلى إيطاليا بعد ذلك ، وما زال بالجيوش البابوية التى غزت بلاده حتى ردها إلى أراضيها الأصلية ، وأرغم البابا أن يرفع عنه قرار الحرمان ، تلك هى المشاكلة التى استطاع أحد الأمراء أن يعامل بها البابا ، فى القرن الثالث عشر ، دون أن تنفجر آنذاك عاصفة من الغضب الشعبى للانتقام له ، لأن تلك الأيام قد ولت .

ثم عاد جريجورى التاسع فاستأنف فى ١٢٣٩ كفاحه مع فردريك ، وحرمه للمرة الثانية وجدد حملة السباب العلمى ، التى سبق للبابوية أن لاقت منها شرا مستطيرا ، على أن الخصومة تجددت بعد وفاة جريجورى التاسع ، عندما تولى كرسى البابوية إنوسنت الرابع ، ومرة ثانية كتب فردريك ضد الكنيسة خطابا مدمرا من ذلك النوع الذى يضطر الناس إلى تذكره ، وفيه سب كهرياء رجال الدين وقلة تدينهم ، ونسب كل مفسد

الزمان لكبريائهم وثرانهم . واقترح على زملائه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة بصورة عامة ، لمصلحة الكنيسة نفسها ، وهو اقتراح لم يغادر ذاكرة الأمراء الأوربيين بعد ذلك أبدا .

وسنكشف عن الاسترسال في تتبع أخباره في أخريات أيامه ، فإن أحداث حياته الخاصة أقل أهمية بكثير من جوها العام ، ومن الممكن أن نجمع لك شذرات عن حياة بلاطه في صقلية ، كان يعيش عيشة الترف ، كما كان مغرماً بالأشياء الجميلة . وهو يوصف بأنه رجل إباحي . ولكن من الواضح أنه كان رجلاً أوتى درجة عظيمة من حب الاستطلاع النفاذ والرغبة في البحث النافع . وقد جمع في بلاطه الفلاسفة من اليهود والعرب والمسيحيين ، وبذل جهوداً كبيرة لغمر العقل الإيطالي وإروائه بالمؤثرات العربية ، وبفضله نقلت الأرقام العربية والجبر العربي إلى الطلاب المسيحيين ، ومن الفلاسفة الكثيرين المقيمين ببلاطه ميخائيل اسكوت ، الذي ترجم بعض أجزاء من مؤلفات أرسطو ، والتعقيبات التي دونها عليها الفيلسوف العربي العظيم ابن رشد القرطبي . وفي ١٢٢٤ أسس فردريك جامعة نابولي ، كما وسع المدرسة الطبية الكبيرة بجامعة سالرنو وأغدق عليها المال . ثم إنه أسس كذلك حديقة للحيوان . وترك كتاباً في الصيد بوساطة الصقور ، يكشف عن قوة ملاحظة لطباع الطيور ، وهو من أوائل من كتب الشعر بالإيطالية من الإيطاليين . بل الحق إن الشعر الإيطالي ولد في بلاطه . وقديماً أطلق عليه أحد كبار الكتاب ، اسم : « أول العصرين » ، والعبارة تعبر في كفاية تامة عن بعده من الناحية العقلية عن كل تحيز أو تعصب .

وثمة بادرة أخرى أكثر استرعاء الأنظار تدل على تضائل حيوية الباباوية وانهايار الأركان الداعمة لها . ظهرت البادرة عند ما اشتبك الباباوات فور ذلك في نزاع مع ملك فرنسا وقوته النامية . فإن ألمانيا تردت في مهاوى التمزق في أثناء حياة الإمبراطور فردريك الثاني ، كما شرع الملك الفرنسي في أن يلعب دور حامى البابا وظهره ومنافسه وهو الدور الذي كان حتى آنذاك من نصيب أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . وقد راحت جماعة متتالية من الباباوات تفتتح سياسة مناصرة ملوك فرنسا . وكانت نتيجة ذلك أن نصب أمراء فرنسيون على عروش مملكتي صقلية ونابولي ، بمساعدة روما وموافقتها ،

كما أن الملوك الفرنسيين أدركوا أن في الإمكان استرجاع إمبراطورية شرلمان وتولى الحكم فيها . على أنه عندما حدث بعد ذلك أن انتهت فترة خلو العرش الألماني التي أعقبت وفاة فردريك الثاني ، آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن ، وانتخب رودلف الهاابسبرجى أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣) ، ابتدأت سياسة روما في التذبذب بين فرنسا وألمانيا ، وأصبحت تتنقل مع عواطف كل بابا جديد . فأما في الشرق فإن الروم استردوا القسطنطينية في (١٢٦١) من قبضة الأباطرة اللاتين ، وسرعان ما عمد مؤسس الأسرة الرومية الجديدة ميخائيل باليولوجوس ، وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن ، إلى الانفصال عن المجتمع الكنسى الكاثوليكي تماما ، بعد إبداء محاولات غير حقيقية للصلح مع البابا ، وبذلك الانفصال ، وبسقوط الممالك اللاتينية في آسيا ، انتهت عظمة البابا في ربوع الشرق .

وفي ١٢٩٤ تولى بونيفاس الثامن عرش الباباوية . وكان إيطاليا معادياً للفرنسيين ، قوى الشعور بعظيم تقاليد روما ورسالتها . فظل زمانا يدير الأمور بيد مستأجرة . وقد أقام حفلات اليوبيل في ١٣٠٠ . وتقاطرت على روما جماهير غفيرة من الحجاج : « وبلغ من عظم مسيل الذهب إلى خزانة الباباوية ، أن عين مساعدان اثنان بالمجاريف لجمع الهدايا التي وضعت على قبر القديس بطرس »^(١) بيد أن هذا الاحتفال كان نصراً خداعاً . إذ حدث لسوء حظ بونيفاس أن نشب نزاع بينه وبين ملك فرنسا في ١٣٠٢ ، وفي ١٣٠٣ أعد البابا العدة للنطق بقرار حرمان ذلك الملك ولكن غليوم دى نوجاريه فاجأه واعتقله في قصر أسلافه نفسه ببلدة أناجيني . دخل مندوب ملك فرنسا هذا إلى القصر عنوة ، وتقدم إلى حجرة نوم البابا للذعور — إذ إنه وجدته راقداً في فراشه ويده الصليب — وانهاه عليه بالتهديد والإهانة وهب أهل المدينة لإنقاذ البابا بعد يوم أو يومين ، فعاد إلى روما ؛ ولكن قبضت عليه هناك أسرة أورسيني وأخذته من جديد أسيراً ، ولم تنقذ بضعة أسابيع حتى مات ذلك الشيخ مصدوماً وقد زالت عن عينه غشاوة الأمل الكاذب .

لقد غضب سكان أناجيني للاعتداء الأول . وهبوا لتخليص بونيفاس من قبضة نوجاريه ، ولكن أناجيني كانت بلد البابا ومسقط رأسه ، وأهم ما يستلقت النظر هنا

هو أن الملك الفرنسي ، كان في هذه المعاملة الخشنة لرأس المسيحية يعمل مستمتعاً بكامل امتحسان شعبه ، فإنه كان قد دعا مجلساً من طبقات فرنسا الثلاث وهم : (النبلاء والكنيسة والعامّة) وحصل على موافقتهم قبل الإقدام على التصرفات المتطرفة ، ولم يتحرك أحد في إيطاليا وألمانيا وإنجلترا ، ولم يبد من الناس أى مظهر عام لاستهجان هذا التصرف الجريء الخادش لكرامة رأس المسيحية المترجع آنذاك على عرش الخبر الأعظم . ذلك أن الفكرة القائلة بقيام « عالم النصرانية ودولتها » اضمحلت حتى انبثر كل سلطان لها على أذهان الناس .

انقضى القرن الرابع عشر دون أن تفعل البابوية شيئاً لاسترداد سلطانها الأدبي وكان البابا الذى انتخب بعد ذلك ، وهو كليمنت الخامس فرنسياً ، اختاره فيليب ملك فرنسا ، فلم يحضر إلى روما أبداً . بل أقام بلاطه بمدينة أفينيون التى لم تكن تابعة آنذاك لفرنسا ، بل للكرسى البابوى ، وإن وقعت فى الأراضى الفرنسية ، وهناك ظل خلفاؤه حتى ١٣٧٧ ، عندما عاد البابا جريجورى الحادى عشر إلى قصر الفاتيكان فى روما . ولكن جريجورى الحادى عشر لم تلتقل معه بانتقاله إلى روما قلوب الكنيسة جمعاء ، وذلك لأن كثيراً من الكرادلة كانوا من أصل فرنسى ، وقد تأصلت فى أفينيون عاداتهم وعلاقتهم بالناس . حتى إذا مات جريجورى الحادى عشر فى ١٣٧٨ ، وانتخب بدله إيطالى هو إربان السادس ، وأعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون عدم صحة الانتخاب وانتخبوا لمنصب البابوية شخصاً آخر هو البابا المعارض كليمنت السابع ، ويسمى هذا الانقسام بالصدع الأعظم ، على أن الباباوات الأصلاء ظلوا فى روما ، كما ظلت جميع الدول المضادة للفرنسيين موالية لهم ، كالإمبراطور وملك إنجلترا وبلاد المجر وبولندة وشمال أوروبا . أما الباباوات المعارضون ، فقد ظلوا فى أفينيون يظهرون ملك فرنسا وحليفه ملك اسكتلندة وإسبانيا والبرتغال وأمراء ألمان مختلفون . وكان كل بابا يحرم أنصار منافسه ويلعنهم (١٣٧٨ — ١٤١٧) .

أعجيب إذن أن شرع كل إنسان ، فى كل أرجاء أوروبا يفكر فى شئون دينه بنفسه ؟ .

لم تكن هيئتا الرهبان الفرنسيين ولا الدومينيكيين إلا عاملين من بين العوامل الكثيرة الجديدة التى شرعت تنشأ فى المسيحية ، إما لتأييد الكنيسة وإما لتزويقها وهما

أمران يرجع البت فيهما لتقدير الكنيسة . وقد تبنت هاتين الجمعيتين فعلا واستفادت بمخدماتهما ، وإن استخدمت في البداية شيئاً من العنف مع الجماعة الأولى بيد أن هناك عوامل وقوى أخرى كانت أصرح في إظهار العصيان والانتقاد . فقد ظهر ويكليفي (١٣٢٠ - ١٣٨٤) بعد ذلك بقرن ونصف : كان أستاذاً عظيم الاطلاع بأ كسفورد . فشرع يوجه إلى الكنيسة وقد تقدمت به السن طائفة صريحة من الانتقادات لمفاسد رجال الدين وقلة حكمهم ونظم من أتباعه جماعة من فقراء القسوس ، هم الويكليفيون لنشر آرائه في كافة أرجاء إنجلترا ؛ ولكي يحكم الناس بينه وبين الكنيسة ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية . كان أوسع علماً وأكثر اقتداراً من كل من القديسين فرنسيس ودومينيك . وقد كثر بين أفراد الطبقة المثقفة الراقية مؤيدوه ، كما عظم عدد أتباعه بين أفراد الشعب ؛ ومع أن روما ثارت ثائرتها سخطاً عليه ، وأمرت بحبسه ، فإنه مات حراً طليقاً لم تمس حريته بسوء . بيد أن الروح القديمة الشريرة التي كانت تدفع الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاوى الدمار ، لم تطق ترك عظامه هادئة في قبرها . إذ صدر عن مجمع كونستانس ١٤١٥ ، مرسوم يقضى بنهب عظامه وحرقها ، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج في ١٤٢٨ بأمر من البابا مارتن الخامس . وجدير بالذكر أن هذا التدنيس للحرمات لم يكن من عمل متعصب مفرد ، بل كان عملاً رسمياً صدر عن الكنيسة .

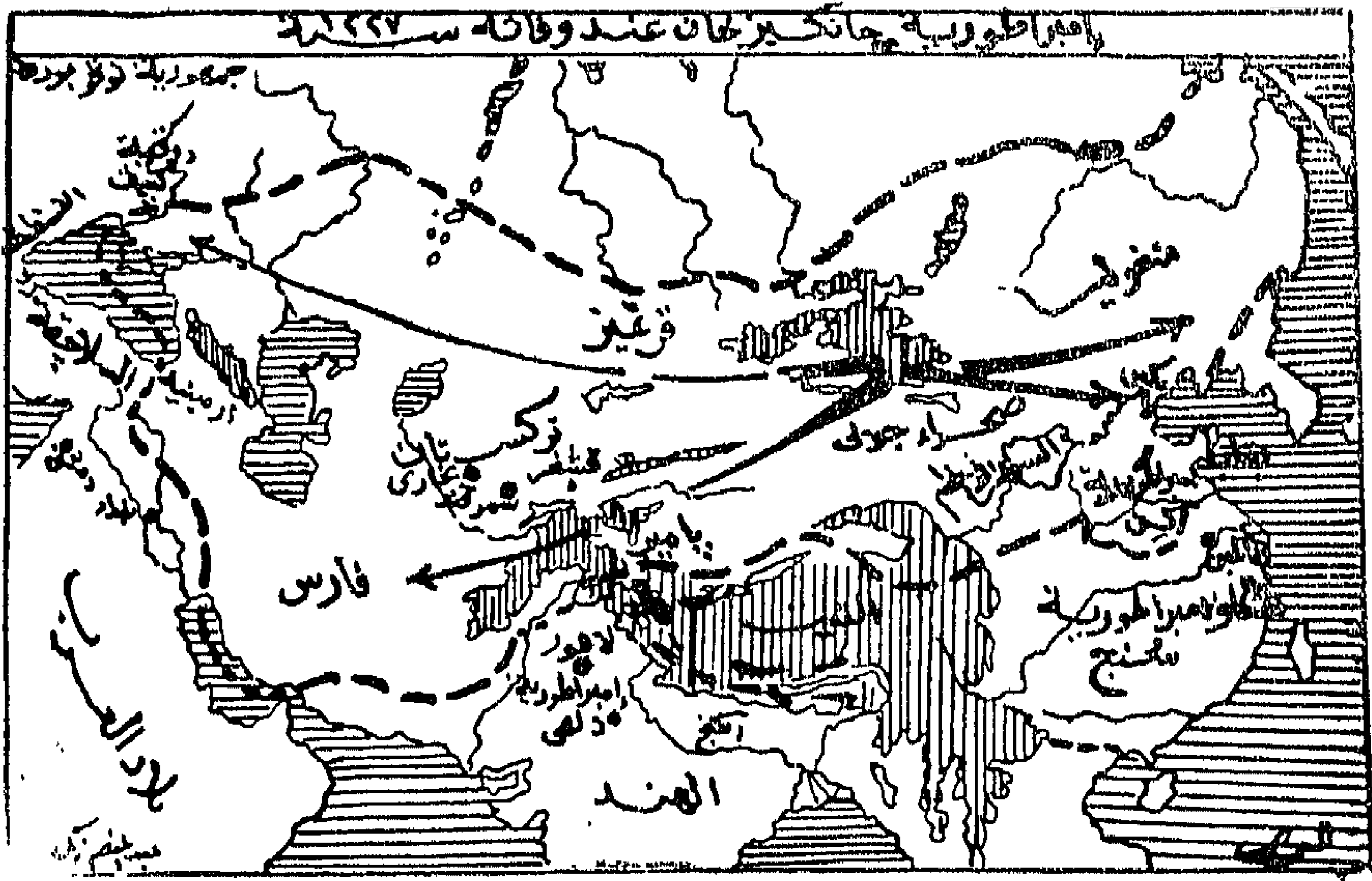
الفصل الثامن والأربعون

فتوح المغول

ولكن في أثناء القرن الثالث عشر وبينما كان هذا الكناح العجيب غير المشعر في سبيل توحيد المسيحية تحت حكم البابا تتواصل أحداثه في أوروبا ، كانت أحداث أخرى أعظم خطراً قائمة على قدم وساق في مسرح آسيا الأفسح مجالا. وإن شعباً تترياً من الإقليم الواقع إلى الشمال من بلاد الصين تسنم فجأة غارب السيادة في الشؤون العالمية ، وأحرز طائفة متعاقبة من الفتوح ليس لها في التاريخ مثيل ، وهذا الشعب هو المغول ، كانوا عند مستهل القرن الثالث عشر ، قبيلة من الفرسان الرحل ، يعيشون على طريقة أسلافهم الهون تقريباً ، فيغتذون بوجه خاص باللحم وابن الأفراس ، ويعيشون في خيام من اللباد . ولقد نقضوا عن أنفسهم نير السيادة الصينية ، وأدخلوا عدداً من القبائل التركية الأخرى في اتحاد عسكري معهم . كان معسكرهم المركزى على نهر الأونون بسيبيريا .

وكانت الصين في ذلك الأوان في حالة انقسام . فإن سلطان أسرة تانج العظيمة قد اضمحل في القرن العاشر الميلادى ، ثم هوت الصين في هوة الانقسام وتحولت إلى ولايات متطاحنة ، حتى استقرت بها في النهاية ثلاث إمبراطوريات رئيسية : هى إمبراطورية كن (Kin) في الشمال وعاصمتها بيكين . وإمبراطورية صنج في الجنوب وعاصمتها نانكين ، وإمبراطورية هسيا (Hsia) في الوسط . وفى ١٢١٤ شن چانكين خان قائد اتحاد المغول ، غارة على إمبراطورية كن واستولى على بيكين (١٢١٤) . ثم تحول بعد ذلك غرباً وفتح التركستان الغربية وفارس وأرمينية وتوغل في الهند حتى لاهور ، وفى جنوب روسيا حتى بلاد المجر وسيليزيا . ومات چانكين خان وقد صار سيداً على إمبراطورية هائلة تمتد من المحيط الهادى إلى نهر الدنيبر .

وأسس خلفه أوجداى خان عاصمة دائمة له في « قره قورم » بمنغوليا وواصل سيرة ذلك الفتاح المدهشة . وقد بلغت جيوشه درجة عالية جداً من الكفاية والنظام ؛ وكان معهم اختراع صينى جديد هو البارود ، كانوا يستخدمونه في مدافع ميدان صغيرة .



خريطة رقمة (١٢)

أتم أوجداى فتح إمبراطورية كن ، ثم دفع بجيوشه قدماً عبر آسيا إلى روسيا (١٢٣٥) ، وهو زحف عظيم يبعث على أعظم الدهشة . فدمرت كييف فى ١٢٤٠ ، وأصبحت روسيا كلها تقريباً تابعة للمغول وعاث المغول فى بولنده نهياً وتدميراً ، ثم أبادوا جيشاً مختلطاً من البولنديين والألمان فى معركة لجنيز بمنطقة سيليزيا الدنيا ١٢٤١ ، والظاهر أن الإمبراطور فردريك الثانى لم يبذل أى جهد لإيقاف تقدم ذلك السيل ، المغولى المنهر .

يقول بيورى فى ملحوظاته على كتاب جييون المسمى اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها : « إن المؤرخين الأوربيين لم يبدأوا إلا فى الآونة الاخيرة فى إدراك أن الانتصارات التى أحرزها الجيش المغولى باجتياحه بولنده واحتلاله بلاد الحرفى ربيع ١٢٤١ ، إنما اكتسبت بالأعمال الحربية المتقنة ، ولا ترجع إلى مجرد التفوق العددي الجارف . بيد أن هذه الحقيقة لم تصبح بعد أمراً معلوماً للجميع ؛ إذ لا يزال منتشرًا بين الناس الرأى الشائع الذى يمثل التثار فى صورة الجيش الوحشي الذى يجتري كل شىء أمامه بقوة السكثرة العددية وحدها ، والذي يجرى بخيوله فى أرجاء أوربا الشرقية دون أية خطة حربية ، مندفعاً على ما يعترضه من عقبات ومتغلباً عليها بمجرد الوزن العددي .

« وكم كان من المدهش تنفيذ الخطط في وقتها المحدد بالضبط وبكفاية فعالة متقنة ، في عمليات حربية تمتد من الفستولا الأدنى إلى ترانسلفانيا . ولقد كانت مثل تلك الحملة تتجاوز تماماً طاقة أى جيش أوربي في ذلك الزمان ، كما أنها كانت فوق ما يحلم به خيال أى قائد أوربي . . لم يكن في أوربا قائد واحد - وفي مقدمتهم فردريك الثاني - لا يعد غمرا (١) قليل الدربة في الخطط الحربية بالقياس إلى سوبوتاي . وما هو جدير بالملاحظة أيضاً ، أن المغول أقدموا على تلك المغامرة وهم على تمام المعرفة بمركز المجر السياسي وبالأحوال الدائرة في بولندة - ذلك أنهم حرصوا مقدماً أن يجمعوا المعلومات الكافية بوساطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم ، وذلك على حين أن المجرين والدول المسيحية الأخرى كانوا كالبرابرة الجهال ، لا يكادون يعرفون شيئاً عن أعدائهم » .

على أن المغول وإن أحرزوا النصر في لجنز إلا أنهم واصلوا تقدمهم غرباً . ذلك أنهم أخذوا يدخلون في أرض تسكسوها الغابات والتلال ، ولا تتناسب وطريقتهم في القتال ، لذلك انحرفوا جنوباً واستعدوا للاستقرار ببلاد المجر ، وأخذوا يعملون الذبح في ذوى قرباهم من المجرين أو يتمثلونهم ، على نحو ما فعله هؤلاء من قبل في الإسكنديين والآفار والهنون الذين اختلطت دماؤهم هناك ، ولعلمهم كانوا ييغرون أن يقوموا من وادى المجر بالإغارة غرباً وجنوباً مثلما فعل المجريون في القرن التاسع والآفار في السابع والثامن والهنون في الخامس ، ولكن أوجدائ خان مات فجأة وترتب على وفاته نزاع على وراثة العرش في ١٢٤٢ ، وعند ذلك أخذت جيوش المغول غير المنهزمة تتراجع نحو الشرق عبر بلاد المجر ورومانيا .

ومن بعدها ركز المغول اهتمامهم على فتوحهم الآسيوية ، فلم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى فتحوا إمبراطورية صنج . وقد خلفه « مانجوخان » في منصب الخان الأكبر في ١٢٥١ ، وعين أخاه قوبلاي خان حاكماً على الصين . وأصبح قوبلاي خان إمبراطور الصين المعترف به في ١٢٨٠ ، وبذلك أسس أسرة يوان التي دامت حتى ١٣٦٧ . وفي نفس الوقت الذي كانت أسرة صنج تلفظ فيه آخر أنفاسها في بلاد الصين ، كان أخ آخر للمانجو هو « هولاكوه » ، يفتح فارس وسوريا . وأظهر المغول في ذلك الزمان

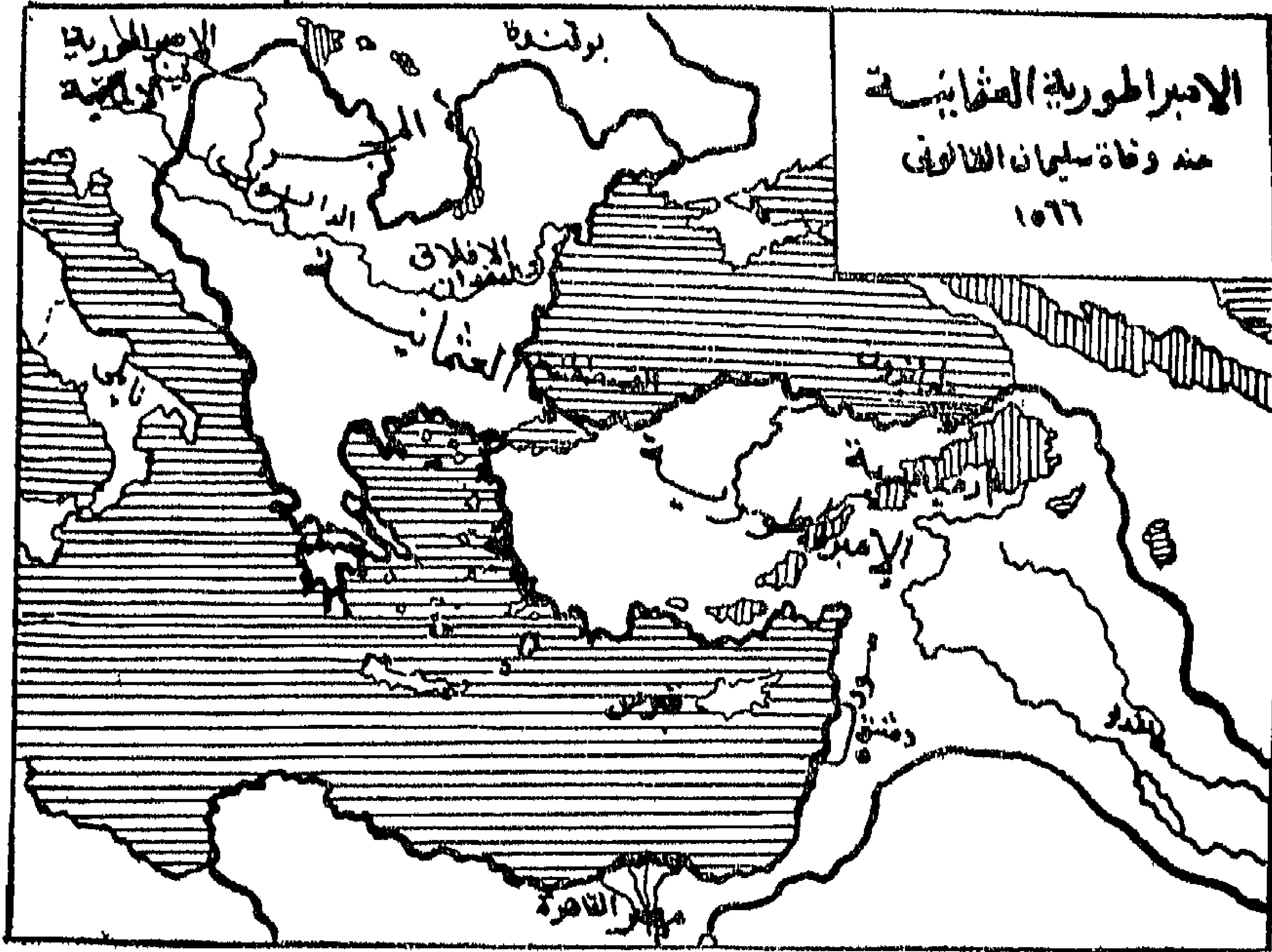
(١) الغمر (بكسر الغين) من لم يجرب الأمور من الرجال . [المترجم]

عداوة مريّة للإسلام ولم يكتفوا بتذبيح سكان بغداد عندما استولوا على تلك المدينة بل شرعوا في تدمير نظام الري السحيق القدم الذي ظل على الدوام يجعل من أرض الجزيرة بلاداً رغيدة أهلة بالسكان منذ أيام سومر القديمة . وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التعسة ياباً من الخرائب والأطلال ، لا تتسع إلا للعدد القليل من السكان . ولم يدخل المغول أرض مصر قط ، فإن سلطان مصر هزم جيشاً لهولاً كوهزيمة تامة بفلسطين ١٢٦٠ .

وانحسر سيل النصر المغولي بعد تلك الكارثة . وانقسمت ممتلكات الخان الأعظم بين عدد من الدول المتفرقة الشمل . فأصبح المغول الشرقيون بوذيي كالصينيين ؛ وأصبح الغربيون منهم مسلمين . ثم نفّض الصينيون عن كواهلهم حكم أسرة يوان في ١٣٦٨ ، وأقاموا أسرة منج القومية التي ازدهرت من ١٢٦٨ إلى ١٦٤٤ . على أن الروس ظلوا تابعين للجموع المغولية في السهوب الجنوبية الشرقية حتى ١٤٨٠ عندما نبذ غراندوق موسكو ولاءه ووضع أساس روسيا الحديثة .

وقد انتعشت قوة المغول أمداً وجيزاً في القرن الرابع عشر في عهد تيمورلنك ، وهو من سلالة جنكيزخان . فوطد ملكه بالتركستان الغربية ، واتخذ لقب الخان الأعظم في ١٣٦٩ ، وفتح البلاد الواقعة بين سوريا ودلهي . ولكن الإمبراطورية التي أسسها انتهت بموته . ومهما يكن من شيء ، فإن حفيداً لذلك الفاتح تيمور وهو مغامر اسمه بابر استطاع في ١٥٠٥ أن يجمع جيشاً مزوداً بالمدافع هبط به على سهول الهند . وما لبث حفيده أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) أن أنم فتوحه ، واتخذت هذه الأسرة المغولية دلهي قصبة لها ، وحكمت معظم بلاد الهند حتى القرن الثامن عشر .

ومن عواقب الاكتساح المغولي الكبير الأول في القرن الثالث عشر خروج قبيلة معينة من الترك سميت بعد ذلك باسم الأتراك العثمانيين من موطنها بالتركستان إلى آسيا الصغرى . بسط هؤلاء الأتراك سلطانهم ووطدوا أركانهم بآسيا الصغرى ، ثم عبروا الدردنيل وأغاروا على مقدونيا وبلاد الصرب وبلغاريا . وانتهى الأمر بأن بقيت القسطنطينية ، قائمة وحدها كأنها جزيرة في بحر من العثمانيين . وفي ١٤٥٣ استولى السلطان العثماني محمد الفاتح على القسطنطينية ، بعد أن هاجمها من الجانب الأوربي بعدد كبير من المدافع . وأحدثت تلك الحادثة هياجاً عظيماً في أوروبا ، وتحديث الناس بحرب صليبية ، ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد ولى .



خريطة رقم (١٣)

ولم ينفذ القرن السادس عشر حتى تم لسلطين آل عثمان فتح بغداد وبلاد المجر ومصر ومعظم إفريقية الشمالية ، كما أن أسطولهم جعلهم سادة البحر المتوسط . وكادوا أن يستولوا على فيينا ، كما أنهم فرضوا الجزية على الإمبراطور . ولم يكن هناك في القرن الخامس عشر إلا شيخان عوضا المسيحية عما أصابها من نقص في الممتلكات . وأول هذين الشيخين ، هو استرجاع موسكو لاستقلالها (١٤٨٠) ، وثانيهما استرداد المسيحيين إسبانيا رويداً رويداً من يد العرب . ففي ١٤٩٢ سقطت غرناطة ، آخر دولة إسلامية في شبه الجزيرة في يد فرديناند ملك أرجونه وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة . ولكن كبرياء الترك لم تنكسر شوكتهم إلا في ١٥٧١ بعد معركة ليبانتو البحرية التي أعادت مياه البحر المتوسط إلى أيدي المسيحيين .

الفصل التاسع والأربعون

النهضة الفكرية للأوروبيين

ظهرت إبان القرن الثاني عشر شواهد كثيرة تشهد بأن الذكاء الأوربي أخذ يسترد شجاعته ويتهز فرصته الموائمة ، ويستعد ليتناول من جديد قصب المغامرات الذهنية الذى حمله أول من بحثوا فى العلم من الإغريق ، ووصولان النظر التأملى الذى تجلى لدى أمثال لوكريشيوس الإيطالى ، ويرجع ذلك الانتعاش لأسباب عديدة معقدة . ولا شك أن من بين الظروف الضرورية الممهدة لذلك الأمر ، القضاء على الحرب الخاصة ، وارتفاع مستوى وسائل الراحة والأمن بعد الحروب الصليبية ، والاستثارة التى أحدثتها تلك الحملات فى عقول الناس بما جلبته إليهم من خيرات . أخذت التجارة تلتعش ، وبدأت المدن تسترد اليسر والأمن ، هذا إلى أن مستوى التعليم شرع يرتفع بين رجال الكنيسة وينتشر بين العلمانيين . وكان القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة مدن نامية ومستقلة أو شبه مستقلة ، نذكر منها على سبيل المثال ، البندقية وفلورنسا وجنوة ولشبونة وباريس وبروج ولندن وأنفرس وهمبورج ونورمبرج ونوفجورود وويسبي وبرجن . وكلها مدائن تجارية يؤمها المسافرون ، وبديهي أنه حيثما اتجر الناس وسافروا تحدثوا وفكروا . وكانت المجادلات الدائرة بين البابا والأمراء ، وما تجلى فى اضطهاد من يتهمون بالكفر من وحشية وشر ظاهرين ، تدفع بالناس إلى الشك فى سلطان الكنيسة وإلى التساؤل والمناقشة فى المسائل الجوهرية .

وقد رأينا كيف كان العرب هم الأصل فى إرجاع أرسطو إلى أوربا ، وكيف أن أميرا مثل فردريك الثانى كان كالحجاز الذى استطاعت من خلاله فلسفة العرب وعلمهم أن يعمل عملهما فى العقل الأوربي الناهض ، على أن اليهود كانوا أعظم أثراً فى تنشيط أفكار الناس . وكان وجود اليهود فى حد ذاته مشار استفسار حول مدعيات الكنيسة . ولا تنس أخيراً أبحاث قدامى الكيمائيين السرية الفاتنة ، وكيف أخذت تنتشر فى كل مكان وتدفع بالرجال إلى معاودة جهودهم فى العلم التجريبي ، بصورة ضئيلة وخفية إلا أنها مشعرة أيضاً .

والحركة التي دبّت في عقول الناس لم تكن قاصرة عند ذاك بأي حال على الأثر على المتعلمين . فإن عقل الرجل العادى تيقظ في هذا العالم ، على مشاكلة ليس لها مثيل في كل ما سلف من أيام الإنسانية . ويلوح أن المسيحية كانت تحمل إلى الناس الخائن الفكرية حيثما انتشرت تعاليمها ، وذلك على الرغم من غباء القسيس وظلم الاضطهاد ، فأنشأت علاقة مباشرة بين ضمير الرجل الفرد وبين رب البر والصلاح ، حتى لقد أصبحت لديه آنذاك إذا لزم الأمر الشجاعة الى تقيض له إصدار حكمه الخاص على الأمير أو الأسقف أو العقيدة .

وأخذت رحي المناقشات والأبحاث الفلسفية تدور من جديد في أوروبا منذ زمن بعيد يرجع إلى القرن الحادى عشر ، كما أن جامعات عظيمة ناهضة أنشئت في باريس وأوكسفورد وبولونيا وغيرها من المراكز العامة . وهناك شرع علماء القرون الوسطى يشيرون من جديد طائفة من المسائل تتصل بقيمة الكلمات ومعناها ويقتلون بها بحثاً ، وكان هذا تمهيداً لا بد منه للتفكير الصافى في أثناء عصر العلوم الذى جاء في أعقاب ذلك . وهناك عالم يعد وحيد عصره لما هو عليه من نبوغ ممتاز ، هو روجر باكون (من قرابة ١٢١٠ إلى قرابة ١٢٩٣) ، وهو راهب فرنسيسكانى من أوكسفورد ، يمكن أن يسمى أبا العلم التجريبي العصري . ولا شك أن اسمه جدير بأن يمجّد ويخلد في كتابنا هذا تمجيذاً لا يسبقه فيه إلا أرسطو وحده .

وكتابات إيمانها هي حملة واحدة قوية على الجهل . فقد أخبر أهل عصره صراحة بأنهم جهلة ، وهو شيء ينطوى على جرأة لا يصدقها عقل ، وربما استطاع إنسان في هذه الأيام أن يخبر عالمه أنه سخيّف قدر ما هو جاد وقور ، وأن جميع أساليبه لا تزال سمجة شبيهة بعبث الأطفال ، وأن كل مذاهبه الاعتقادية فروض طفولية ، دون أن يتعرض لأى أذى جثمانى كبير ؛ بيد أن أناس القرون الوسطى كانوا — حين يخلو وقتهم من المذابح أو من أن تعمل فيهم يد الحاجة أو الأوبئة فتسكا وإبادة — موقنين يقيناً عنيفاً بحكمة معتقداتهم واكتمالها وأنها خاتم المعتقدات جميعاً ، نزاعين إلى الغضب المرير من وضعها موضع البحث والتأمل ، وكانت كتابات روجر باكون أشبه ما تكون بضياء ساطع يخطف الأبصار في ظلمة ليل حالك . وقد مزج هجماته على جهالة عصره بطائفة ثمينة من المقترحات الهادفة إلى زيادة المعرفة . وإنك لتشهد روح أرسطو تبعث حية من جديد حين ترى تهمسه وإصراره على الحاجة إلى التجريب وجمع المعارف . فالنغمة

التي لم يفتأ روجر باكون يرددها ، والتبعة التي رفعها على كواهلها ، هي : « التجريب ، والتجريب » .

يبد أن روجر باكون شنع على أرسطو . ولم يسلك ذلك المسلك مع أرسطو إلا لأن الناس كانوا ، بدلا من أن يواجهوا الحقائق بشجاعة ، يقبعون في بيوتهم مكبين على الترجمات اللاتينية الرديئة التي كانت آنذاك كل ما يستطيع الحصول عليه من مؤلفات الفيلسوف . كتب في لهجته المتطرفة يقول : « لو تركت لي الحرية لأحرقت كتب أرسطو جميعاً ، وذلك لأن دراستها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الضياع وإلى الخطأ وزيادة الجهل » . وهو شعور ربما رده أرسطو نفسه لو قدر له أن يعود إلى عالم لم تكن كتبه تقرأ فيه بل تعبد عبادة — مع أنها مدونة في تلك الترجمات البغيضة كما أوضح لك روجر باكون .

وكان روجر باكون يهيب بالبشرية بملء فيه في كل صفحات كتبه في شيء من التقية دعت إليه ضرورة اصطناع التوفيق بين كتاباته والعقيدة الصحيحة السليمة خشية السجن أو ما هو أسوأ من السجن . « كفوا عن أن تحكمكم المذاهب الاعتقادية والسلطات المتحكمة ، وانظروا إلى عالمكم ! » ولطالما شعر باكون بمصادر أربعة للجهل هي : احترام ذوى السلطان ، والعرف ، وإحساس الجمهور بجهله ، وميولنا غير القابلة للتعلم مع اتصافها بالغرور والكبرياء . « فلو لم تتغلبوا إلا على هذه وحسب ، لانفتحت أمامكم أبواب عالم من القوة » .

« في الإمكان وجود آلات تمخر البحر دون مجدف يحركها . ومن ثم فإن السفن الكبيرة اللاتقة للنهر أو المحيط ، والتي يقودها رجل واحد ، ربما سارت بسرعة أكثر مما لو كانت مليئة بالرجال . وكذلك ، يمكن صنع العربات بحيث يمكن تحريكها دون الاحتياج إلى دواب الجر Gum impeto Inoe Stimabile ، وهي الصورة التي نتصورها للعربات ذات المناجل التي كان القدماء يحاربون فوقها . ثم إن في الإمكان وجود آلات طائرة ، يستطيع الرجل أن يجلس في وسطها ويدير شيئاً تخفق به أجنحة صناعية في الهواء على منوال أجنحة الطير » .

هكذا كان روجر باكون يكتب ، ولكن كان لا بد أن تنقضي ثلاثة قرون أخرى

قبل أن يبدأ الإنسان محاولاته المنظمة في ارتياد خبيثات القوى المجهولة المخزنة ، التي أدرك بوضوح وجودها وراء السياج الذي يحجب الشؤون البشرية .

على أن العالم العربي لم يمنع المسيحية حافزاً يحفز فلاسفتها وكيماويها فقط ، بل أعطاهما الورق أيضاً . ولا إخالنا نبالغ إذا قلنا إن الورق هو الذي جعل في الإمكان انتعاش أوروبا فكرياً .

نشأ الورق أصلاً في الصين ، حيث يرجع استخدامه في الراجح إلى القرن الثاني ق . م . وقد حدث أن هاجم الصينيون العرب المسلمين في سمرقند عام ٧٥١ م ؛ فردوهم على أعقابهم ، وأسروا منهم أسرى كان من بينهم بعض مهرة صناع الورق ، ومنهم تعلم العرب تلك الصنعة . ولا تزال عندنا إلى اليوم مخطوطات مسطرة على ورق عربي مصنوع في القرن التاسع فما بعده . ثم دخلت تلك الصناعة البلاد المسيحية إما بطريق بلاد اليونان وإما بالاستيلاء على مصانع الورق ببلاد الأندلس في أثناء استرداد المسيحيين لإسبانيا ، على أن الإنتاج تدهور في ظل الإسبان المسيحيين تدهوراً محزناً . ولم يتيسر صنع الورق الجيد في أوروبا المسيحية إلا في نهاية القرن الثالث عشر ، وعند ذلك كانت إيطاليا رائدة العالم في هذا المضمار . ولم تبلغ تلك الصناعة ألمانيا إلا في القرن الرابع عشر ، على أنها لم تكثر ويرخص سعر الورق رخصاً يجعل طبع الكتب أمراً ممكناً إلا عند نهاية ذلك القرن . وعند ذلك جاءت الطباعة كنتيجة طبيعية لا بد منها ، ذلك أن الطباعة أبسط الاختراعات وأشدها ظهوراً للعيان ، وعند ذلك دخلت حياة العالم العقلية في طور جديد أقوى كثيراً من كل ما سبقه . وكفت عن أن تكون رشعاً ضئيلاً يتسلل من عقل إلى عقل ، وأصبحت فيضاً غامراً ، اشتركت فيه آلاف من العقول تضاعفت للفور فعدت عشرات آلاف بل مئات الآلاف .

وثمة نتيجة مباشرة للوصول إلى الطباعة ، هي ظهور عدد وفير من نسخ الكتاب المقدس في العالم وتداولها بين الناس . وأخرى هي رخص سعر الكتب المدرسية . وكان انتشار المعرفة بالقراءة سريعاً فلم يزد عدد الكتب في العالم زيادة عظيمة وحسب ، بل إن الكتب التي كانت تطبع آنذاك كانت أوضح لبصر القارئ ، فهي لذلك أسهل عليه فهماً وبدلاً من الإكباب فوق متن كتابة معقدة ، ثم محاولة فهم مدلولها ، أصبح القراء يستطيعون آنذاك أن يهكروا في أثناء القراءة دون أن يعوق

تفكيرهم عائق . وبفضل هذه الزيادة في سهولة القراءة ، تزايد عدد القراء . وكف الكتاب عن أن يكون لعبة مبرقشة شديدة الزخرفة ، أو طلسما ينطوى على سر أحد العلماء ، وشرع الناس في كتابة الكتب ليقرأها عامة الناس ويستمتعوا بمنظرها على السواء ، وأخذوا يكتبون باللغة العادية وليس باللاتينية ، فإذا أقبل القرن الرابع عشر ، بدأ معه التاريخ الحق للأدب الأوربي .

ظلمنا حتى الآن نعالج نصيب العرب في النهضة الأوربية ، فلنتجه الآن إلى تأثير الفتوح المغولية ، فإنها أثارت الخيال الجغرافي لدى الأوربيين إثارة هائلة إذ ظلت آسيا كلها وأوربا الغربية تنعمان ربحاً من الزمان في ظل الخان الأعظم باتصال حر مطلق ؛ فانفتحت كل الطرق إلى حين بين تلك البلاد جميعاً ، وحضر ممثلو الشعوب جميعاً إلى بلاط الخان في قره قورم . وأزيلت إلى حد ما جميع الحواجز التي فصلت بين أوربا وآسيا ، بسبب الخلاف بين المسيحية والإسلام . وعلمت الباباوية آمالاً كباراً على إدخال المغول في المسيحية . وذلك لأن ديانتهم الوحيدة كانت حتى ذلك الحين هي الشامانية^(١) ، وهي ضرب بدائي من الوثنية . فاجتمع في بلاط المغول مبعوثو البابا ، وكهان بوذيون من الهند وفارس . وما أكثر ما يحدثننا التاريخ عن حملات المغول ومذابحهم ، دون أن نسمع القدر الكافي من الحديث عن حبهم للاستطلاع ورغبتهم في العلم .

وقد كان فضل المغول جسيماً وأثرهم في تاريخ العالم عظيماً . لا بوصفهم شعباً ذا أصالة واستحداث ، بل كمنقلة للمعرفة والأساليب . وكل ما أمكننا أن نعلمه عن شخصيات جانكيز أو قوبلاي (الرومانسية) المبهمة ، يرجع إلى تقوية الرأي القائل بأن هؤلاء الرجال كانوا ملوكاً لا يقلون في الفهم والابتكار عن أي من الإسكندر الأكبر ، ذلك الإنسان الزاهي الوهاج والأناني أيضاً ، أو شلمان ذلك اللاهوتي الأحمى الناشط الذي ابتعث أشباح الماضي السياسية .

ومن أمتع هؤلاء الزوار للبلاط المغولي رجل من البندقية اسمه ماركو بولو ، دون قصته فيما بعد في كتاب . ذهب إلى الصين حوالي ١٢٧٢ مع أبيه وعمه ، وكانا قد قاما بتلك الرحلة مرة قبل ذلك ، وكان تأثير هذين الرجلين في نفس الخان الأعظم عظيماً ،

(١) الشامانية : ديانة شمال آسيا وتقوم بوجه خاص على السحر والشعوذة . [المترجم]

وهما أول من شهد من أبناء الشعوب اللاتينية ، فأعادها إلى بلادها التماسا للبحث وطلب المعلمين والعلماء الذين يستطيعون تفسير المسيحية له ، ومن أجل مسائل أوربية متنوعة أثارت حبه للاستطلاع ، فكأن زيارتهما بصحبة ماركو هي الثانية .

بدأ الثلاثة رحلتهم بطريق فلسطين وليس بطريق بلاد القرم ، كما حدث في رحلتهم السابقة ، وكانوا يحملون لوحة من الذهب وأمارات أخرى من الخان الأعظم لبدء أنها سهلت عليهم السفر تسهيلا عظيما ، وطلب منهم الخان الأعظم أن يحضروا شيئا من زيت القنديل الذى يوقد فى بيت المقدس عند النواوس المقدس ؛ لذا ذهبوا إلى هناك أولا ، ثم ساروا بطريق كليسيكية إلى أرمينية ، إذ اضطرهم إلى التوغل شمالا على تلك الشاكلة إغارة سلطان مصر فى ذلك الوقت على ممتلكات المغول . ثم انحدروا بطريق أرض الجزيرة إلى هرمز على الخليج الفارسي ، كأنما يزعمون الرحلة بطريق البحر . والتقوا فى هرمز ببعض تجار الهند . على أنهم لسبب ما لم يقلعوا بالسفن ، بل عرجوا بدل ذلك شمالا محترقين الصحارى الفارسية ، ثم ساروا بطريق بلخ فوق هضبة البامير إلى قشغر ، وبطريق خوتان وبحيرة لب نور إلى وادى نهر هوانج هو ومنه إلى بكين . وهناك فى بكين استقبلهم الخان الأعظم بحفاوة بالغة .

وسر قوبلاى بوجه خاص من ماركو ، الذى كان صغيراً ذكى الفؤاد ، ومن الجلى أنه كان يتقن اللغة التتارية تماما فعين فى أحد المناصب الحكومية وأرسل فى مهام كثيرة وبخاصة فى جنوب الصين الغربى ، والقصة التى يرويها عن وجود متسعات مترامية من الأراضى البسامية الرغيدة ، يقول فيها : « توجد دور الضيافة الممتازة المعدة للمسافرين على طول الطريق » ، ثم يقول « وعرائش كروم بديعة وحداثى وحقول » ويتحدث عن « الأديرة الكثيرة » والرهبان البوذيين ، وصناع الأقمشة من الحرير والذهب ، وأنواع كثيرة من قماش التفتاه الممتاز ، وسلسلة متصلة الحلقات من المدن والبلاد ، إلى غير ذلك مما أثار فى البداية عاصفة من التشكك فى أوربا ، ثم عاد فألهب خيال أوربا بأجمعها ، ونحدث عن بورما وعن جيوشها الكبيرة بما حوت من مئات الأفيال ، وكيف هزم ناشبة^(١) المغول تلك الحيوانات ، كما ذكر فتح المغول لبيجو (pegu) . وتحدث عن اليابان ، وبالع كشيروا فى مقدار ما فى تلك البلاد من الذهب . وظل

(١) الناشب : صاحب المنشاب أى السهام والراعى بها والجمع ناشبة . [المترجم]

ماركو ثلاث سنوات حاكما على مدينة يانج تشو ، ولعله — كأجنبي — لم يلفت أنظار الأهالي الصينيين أكثر من أى تترى آخر : ولعله أرسل كذلك فى بعثة إلى الهند . والسجلات الصينية تذكر شخصاً اسمه پولو ألحق بالمجلس الإمبراطورى فى ١٢٧٧ وهو تأكيدٌ مهم جداً لما تنطوى عليه رواية پولو من مسحة عامة من الصدق .

وأثر نشر رحلات ماركو پولو تأثيراً عميقاً فى الخيال الأوروبى ، فإن الأدب الأوروبى فى القرن الخامس عشر وبخاصة (الرومانس) الأوروبى يتردد فيه صدى الأسماء المذكورة فى قصة ماركو پولو مثل كاثاى (شمال الصين) وكامبولاك (بكين) وماشابههما .

وبعد ذلك بقرنين اطلع على « رحلات ماركو پولو » بحار معين من جنوة هو كريستوفر كولمبس ، الذى تصور خياله الأملعى فكرة الإبحار غرباً إلى بلاد الصين حول العالم . وشاهد ذلك أنه توجد بمدينة أشبيلية نسخة من « رحلات پولو » على هوا مشها بعض ملحوظات بخط كولمبس . وهناك أسباب متعددة دعت الجنوى إلى اتخاذ تلك الوجهة ، ذلك أن القسطنطينية ظلت ، حتى سقوطها بيد الأتراك فى ١٤٥٣ ، سوقاً محايداً للتجارة بين العالم العربى وبلاد الشرق ، وكان الجنويون يتاجرون فيها بحرية تامة . ولكن البنادقة اللاتينيين منافسى جنوة الألداء ، كانوا حلفاء الأتراك وأعوانهم على اليونانيين (الروم) ، فلما احتل الترك المدينة لم يعد للتجارة الجنوبية مجال بها ، وفى تلك الآونة كان الاكتشاف القديم الذى نسيه الناس من زمن بعيد ، والقائل بكروية الأرض قد أخذ يعود بالتدريج إلى مكانته الأولى من عقول الناس . لذا كانت فكرة الذهاب إلى الصين بطريق الغرب فكرة واضحة للعيان إلى حد ما ، وكان يشجع على القيام بها أمران . أولهما ظهور البوصلة البحرية التى اخترعت فى تلك الأثناء ، وبفضلها لم يعد الناس تحب رحمة ليل صافى السماء بآدى النجوم لتحديد الاتجاه الذى يسبحون إليه ، وثانيهما أن النورمان والقطلونيين والجنوبيين والبرتغاليين انطلقوا قبل ذلك فى عرض المحيط الأطلسى ، حتى بلغوا جزائر الكنارى وجزائر ماديرا والأزورس .

ومع ذلك فقد اضطر كولمبس أن يتغلب على صعاب كثيرة قبل أن يتيسر له الحصول على السفن اللازمة لتنفيذ فكرته أو اختبارها فأخذ يتنقل من بلاط ملكى فى أوروبا إلى آخر . حتى استطاع فى النهاية أن يحصل بمدينة غرناطة المنتزعة حديثاً من يد العرب ،

على مناصرة فرديناند وإزابيلا . ورعايتهما لمشروعه . وأن يحترق مجاهل المحيط الخضم بثلاث سفن صغيرة . وسارت السفن شهرين وتسعة أيام طويلة مريرة ، ثم بلغت أرضاً زعم كولمبس أنها بلاد الهند ، ولكنها لم تكن في الحقيقة إلا قارة جديدة لم يقدر العالم القديم وجودها قبل ذلك أبدا .

ثم عاد كولمبس إلى إسبانيا يحمل الذهب والفطن والحيوانات الغريبة واثنين من الهنود المنقوشى البشرة قد بدت عليهما الضراوة مالبث أن عمدهما مسيحيين . وقد أطلق عليهما كولمبس الهنديين لاعتقاده حق يوم وفاته ، أن الأرض التى استكشفها هى بلاد الهند . ولم يدرك الناس إلا بعد انقضاء سنوات عدة أن الذى ضم إلى موارد العالم القديم هو قارة أمريكا الجديدة بأكملها .

وكان للنجاح الذى لقيه كولمبس فضل إثارة روح المغامرة البحرية إلى حد هائل . فدار البرتغاليون فى ١٤٩٧ حول قارة إفريقية إلى بلاد الهند ولم يحل سنة ١٥١٥ حتى كانت للبرتغاليين سفن عند جزيرة جاوة .

وفى ١٥١٩ أفلح ماجلان ، وهو بحار برتغالى يعمل فى خدمة الإسبان ، من مدينة أشبيلية بخمس سفن اتجه بها غرباً ، لم تعد منها إلا واحدة هى فيكتوريا . التى دخلت النهر حتى بلغت أشبيلية فى ١٥٢٢ . وهى أول سفينة دارت حول العالم : وكان عليها واحد وثلاثون بحاراً ، هم البقية الباقية من مائتين وثمانين بدأت بهم الرحلة . أما ماجلان فإنه قتل بجزائر الفلبين .

لقد انبجست على العقل الأوربى أشياء كثيرة ضخمة منها الكتاب الورق المطبوع ، وأدرك الناس من جديد أن هذا العالم المستدير إنما هو شئ فى متناول اليد تماماً ، وانبجست أيضاً صورة جديدة لأقاليم غربية وحيوانات ونباتات غريبة وعادات عجيبة ومستكشفات تمت وراء البحار وفى أطباق السماء وفى أساليب الحياة وموادها ؛ فأقبلت العقول بسرعة على دراسة الآداب الكلاسيكية اليونانية وطبعها بعد أن طال العهد بدفنها ونسيان الناس لها ، فأخذت تداعب أفكار الناس بأحلام أفلاطون وبتقاليد عصر تنفياً ظلال الحرية والكرامة فى أكناف الحكم الجمهورى .

وقديماً أدخلت السيادة الرومانية القانون والنظام لأول مرة إلى ربوع أوربا الغربية

كما أن الكنيسة اللاتينية كانت صاحبة الفضل في نشر لوائهما من جديد بها ؛ على أن حب الاستطلاع والقدرة على الابتكار والخلق كانا يخضعان لتنظيم يحدهما ويقيدهما في عهد روما الوثنية والمسيحية سواء بسواء . لقد أخذ عهد تسلط العقل اللاتيني يقترب عندئذ من نهايته . ذلك أن الأوربيين الآريين أخذوا ينفصلون فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر عن التقاليد اللاتينية بفضل أثر الساميين والمغول المنبه للعقول ، وبفضل العثور من جديد على آداب اليونان الكلاسيكية ؛ انفصلوا عن تلك التقاليد وأخذوا يرقون الطريق ثانية إلى منزلة الصدارة الفكرية والمادية بين البشر جميعاً .

الفصل الخمسون

إصلاح الكنيسة اللاتينية

تأثرت الكنيسة اللاتينية ذاتها تأثراً هائلاً بهذا البعث العقلي . لقد بترت منها أجزاء ولم ينبج الجزء الذي بقى منها من يد التجديد الشامل .

أسلفنا القول كيف أوشكت الكنيسة على تولى الزعامة الاستبدادية للنصرانية بأكلها إبان القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وكيف انضمل بعد ذلك سلطانها على عقول الناس وشئونهم . ووصفنا كيف أدى كبرياؤها واضطهادها للناس ونظامها المركزى إلى تحامل النفوس عليها وانصراف حماسة الشعوب الدينية عنها ، وهى الحماسة التى كانت فيما سلف من الزمان عدتها ودعاتها ، وذكرنا كيف أثمر مكر فردريك الثانى وتشككه ثمارهما على صورة ما تجلى من الأمراء من عصيان لم يبرح يزداد وينمو .

انتشرت تعاليم ويكليف الإنجليزى فى كل أرجاء أوروبا . وحدث فى ١٣٩٨ أن عالماً تشيكياً هو چون هس ، ألقى بجامعة براغ مجموعة من المحاضرات حول تعاليم ويكليف . وسرعان ما انتشرت هذه الآراء حتى تجاوزت الطبقة المتعلمة ، وأثارت حماسة شعبية عظيمة . وتصادف أن انعقد بمدينة كونستانس بين ١٤١٤ ، ١٤١٨ مجلس للكنيسة بكامل هيئتها ليفصل فى الصدع الأعظم . ودعى هس للشول أمام ذلك المجلس بعد أن تلقى وعداً من الإمبراطور بالأمان فى الذهاب والعودة ، ولكن قبض عليه وحوكم بتهمة الإلحاد وأحرق حياً (١٤١٥) . وبدلاً من أن يؤدى ذلك التصرف إلى تهدئة الشعب البوهيمى إذا به يفضى إلى تمرد أتباع هس بملك البلاد ، وإلى نشوب أول حرب من سلسلة متلاحقة من الحروب الدينية كانت فاتحة تمزق عالم النصرانية اللاتينية . وعند ذلك دعا البابا مارتى الخامس إلى حرب صليبية لقمع ذلك العصيان ، وذلك البابا هو الذى انتخب خاصة بمجلس كونستانس ليكون رئيساً للمسيحية يوم أعيد توحيدها .

سيرت على هذا الشعب الصغير الباسل حملات صليبية عدتها خمس ، فبادت جميعاً بالفشل . لقد وجهت الكنيسة على بوهيميا فى القرن الخامس عشر كل متشردى أوروبا

وزعانفها المتعطلين ، مثلما سير الزعانف بالضبط في القرن الثالث عشر على أتباع والدو . بيد أن أهالي بوهيميا التشيك كانوا على النقيض من أتباع والدو يؤمنون بالمقاومة المسلحة . ولم تسكد الحملة الصليبية المسيرة على بوهيميا تسمع قعقة عجلات أتباع هس وأماشيد جنودهم من بعيد ، حتى تبخرت وتسلمات من ميدان القتال ؛ وبلغ من أمرها أنها لم تنتظر قط حتى تقاتل (معركة دومازليس ١٤٣١) . وانهقد بمدينة بال في ١٤٣٦ مجلس جديد للكنيسة عقد صلحاً كيفما اتفق مع أتباع هس ، أزيلت بمقتضاه كثير من الاعتراضات الخاصة على تصرفات الكنيسة وعرفها .

وحدث في القرن الخامس عشر وباء عظيم تولد عنه انهيار النظام الاجتماعي إلى درجة كبيرة في كل أرجاء أوروبا ؛ ولقى العامة من هذا الوباء عنتاوتعايسة شديدة وانتشر بينهم مفرط السخط والتذمر ، كما ثار الفلاحون على أصحاب الأملاك بكل من إنجلترا وفرنسا . وزادت خطورة ثورات الفلاحين هذه في ألمانيا بعد الحرب مع أتباع هس وتقنعت بقناع ديني . وجاءت الطباعة فكانت مؤثراً قويا زاد في ذلك التطور ؛ إذ إنه لما انتصف القرن الخامس عشر كان عمال الطباعة في هولندة ومنطقة الرين يستخدمون حروفا قابلة للحركة والفك . ثم انتشر فن الطباعة في إيطاليا وإنجلترا ، حيث كان كاكستون يعمل في طبع الكتب بوستملستر في ١٤٧٧ .

وكانت النتيجة المباشرة لانتشار الطباعة تضاعف عدد نسخ الكتاب المقدس وانتشاره بين الناس بدرجة عظيمة ، وتيسير سبل ذبوع الجدل بين أفراد الشعب . لقد أصبح العالم الأوربي عالم قراء ، إلى حد ليس لأي مجتمع في الماضي عهد بمثله ؛ ومن سوء حظ الكنيسة أن إرواء عقول الناس عامة ، على هذه الصورة المفاجئة ، بالأفكار التي هي أكثر وضوحاً والمعلومات التي هي أقرب منالا ، حدث في وقت غشيها فيه الارتباك والفرقة ، وأصبحت في موقف لا تستطيع فيه أن تبذل دفاعاً فعال الأثر . وفي يوم كان كثير من الأمراء يبحثون عن وسيلة يضعفون بها قبضتها على الثروة الهائلة التي كانت تدعى امتلاكها في بلادهم .

أما في ألمانيا فإن الحملة على الكنيسة تجمعت حول شخصية راهب سابق يدعى مارتين لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦) ، ظهر بمدينة ويتنبرج عام ١٥١٧ ، مثيراً بعض اعتراضات على أنواع شتى مما تمارسه الكنيسة من عرف ومذاهب تقليدية سلفية ، فراح

في بدء الأمر يتجادل باللغة اللاتينية على طريقة علماء ذلك الزمان . ثم أقبل على السلاح الجديد سلاح الكلام المطبوع ، فاستعمله ونشر بذلك آراءه في كل مكان باللغة الألمانية مخاطباً عامة الناس . وحاولت الكنيسة القضاء عليه كما قضت قبلاً على هس . ولكن المطبعة غيرت أحوال الدنيا ، كما أن لوثر كان له بين أمراء الألمان عدد كبير من الأصدقاء ما بين مظهر صداقته وكاتم لها ، فخالوا بينه وبين ورود ذلك المصير .

ومما يحمل ذكره عن ذلك العصر الذي تكاثرت فيه الأفكار وضعفت فيه العقائد ، أن كثيراً من حكامه كانوا يرون مصلحتهم في قصم عرى الروابط الدينية التي تربط شعوبهم بروما ، فحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم شخصياً رؤساء لعقيدة ذات طابع قومي أقوى . فأخذت كل من إنجلترا واسكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا تنفصل عن المجتمع الديني الكاثوليكي الواحدة بعد الأخرى . ومنذ ذلك الحين لم تعد واحدة منها إلى حظيرته .

وبديهي أن أحداً من هؤلاء الأمراء على اختلاف أجناسهم لم يعن أدنى عناية بحرية رعاياه من الناحية الخلقية أو الذهنية ، وكل مافي الأمر أنهم استخدموا الشكوك الدينية وثورات شعوبهم ذريعة لتقوية أنفسهم ضد روما . على أنهم حاولوا أن يحافظوا على إحكام قبضتهم على الحركة الشعبية التماساً لكبحها ، بمجرد أن تم لهم ذلك الانفصال عن روما ، وإنشاء كنيسة قومية تحت هيمنة التاج . ولكن تعاليم يسوع تنطوي دائماً على حيوية عجيبة ، فهي دعوة مباشرة للبر والصلاح ، وتقديم احترام الذات على كل ولاء وكل خضوع — علمانياً كان ذلك أو دينياً . فلم يحدث مرة أن انفصلت كنيسة واحدة من كنائس الأمراء تلك دون أن ينفصل معها أيضاً عدد من الطوائف الفرعية التي لا تعترف بتدخل أمير ولا بابا بين الرجل وربه . فقد ظهرت في إنجلترا واسكتلندة مثلاً عدة طوائف استمسكت بالكتاب المقدس بشدة ، متخذة منه هادياً الوحيد في الحياة والعقيدة ، ورفضت كل تنظيمات كنيسة الدولة . وقد سمي هؤلاء المخالفون في إنجلترا باسم المنشقين (Non Conformists) ، وقد لعبوا دوراً كبيراً جداً في سياسة تلك البلاد في أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر ، وبلغ من قوة اعتراضهم في إنجلترا على أن يكون رئيس الكنيسة أميراً ، أنهم قطعوا رأس الملك شارل الأول (١٦٤٩) ، ثم أقاموا بها حكومة جمهورية من المنشقين دامت إحدى عشر عاماً حافلة بالرخاء والرخاء .

وانفصال هذا الشطر الكبير من أوربا الشمالية عن عالم المسيحية اللاتينية هو ما يعرف على وجه الإجمال باسم « الإصلاح الديني » . على أن وقع هذه الخسائر الجسيمة ذاتها وشدة قوتها أحدث في الكنيسة الكاثوليكية تغييرات لا تقل في عمقها عنها في أى مكان آخر . فأعيد تنظيم الكنيسة من جديد وتغلغل روح جديد في حياتها ، وكان من أبرز العاملين على هذا البعث الجديد جندي إسباني شاب يدعى أينيجو لويزدى ريكالدى ، وهو الذى يعرف فى العالم باسم القديس إغناطيوس دى ليولا . أصبح ذلك الفتى قسيساً فى (١٥٣٨) بعد أن بدأ أمره بدءاً (رومانسياً) إلى حد ما ، ثم سمح له بأن يؤسس جمعية يسوع ، ومنذ ذلك الحين أصبحت جمعية اليسوعيين من أكبر جماعات التعليم والتبشير التى ظهرت فى العالم . وبلغ نشاطها أن حملت لواء المسيحية إلى بلاد الهند والصين وأمريكا . وكان لها الفضل الأكبر فى إيقاف الانحلال السريع الذى انتاب الكنيسة الكاثوليكية . كما أنها رفعت المستوى العلمى فى كل أرجاء العالم الكاثولىكى ؛ وبفضل منافستها نشطت أوربا البروتستنتية لبذل الجهود الكبيرة فى التعليم محاربة لها . لذا فإن الكنيسة الكاثوليكية القوية الشديدة المراس فى العهد الحاضر ما هى إلا الثمرة الياقة لهذا الانتعاش الجيزوى .

الفصل الحادى والنمسون الإمبراطور شارل الخامس

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مكانة رفيعة الشأن في عهد الإمبراطور شارل الخامس ، الذى كان من أعجب من شهدتهم أوروبا من الملوك . وقد ظل رديحاً من الزمان يبدو لأعين الناس أعظم ملك تولى الملك منذ عهد شرلمان .

على أن عظمته لم تسكن من صنع يديه ، بل هى إلى حد كبير ثمرة جهود جده الإمبراطور مكسميليان (١٤٦٩ — ١٥١٩) . ولا يخفى أن بعض الأسر الملكية تبلغ حظها من السلطان العالمى عن طريق القتال ، وأن بعضها الآخر يبلغه بالمؤامرة والتدبير . أما آل هابسبرج فالتمسوا العظمة العالمية عن طريق المصاهرة والزواج .

وقد ابتدأ مكسميليان حياته عاهلاً للنمسا وإستيريا ولجزء من الأناضول ومناطق أخرى ، وهى ميراثه الأصلى عن آل هابسبرج ؛ فتزوج ملكة الأراضى المنخفضة وبرغنديا (ولا يكاد اسم زوجته يعنينا هنا فى قليل أو كثير) .

على أن معظم برغنديا ما لبث أن أفلت من يده بوفاة زوجته الأولى ، ولكن بقيت له الأراضى المنخفضة . ثم حاول أن يتزوج أميرة بريتانى بفرنسا فلم يوفق ، وتولى عرش الإمبراطورية بعد أبيه فريديريك الثالث عام ١٤٩٣ ، ثم تزوج دوقة ميلانو أوغل تزوج دوقها . وأخيراً زوج ابنه من ابنة فرديناند وإيرايلا الضعيفة العقل وهما نصيرا كولبس اللذان لم يحكما وحسب بلاد إسبانيا الحديثة التوحيدوسردينيا والصقليتين^(١) ، بل حكما أيضاً أمريكا كلها غرب بلاد البرازيل . وهكذا تم لشراكان^(٢) حفيده ميراث معظم القارة الأمريكية ، وقد يتراوح بين ثلث ما لم يقع من أوروبا ونصفها بأيدي الترك . وانتقل إليه ملك الأراضى المنخفضة فى ١٥٠٦ فلما توفى جده فرديناند

(١) ويقصد بهذا جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا .
(٢) شراكان : هو شارل الخامس نفسه [المترجم]

في ١٥١٦ أصبح بالفعل ملكاً على الدولة الإسبانية المترامية نظراً لبلاهة أمه وضعف عقلها ، حتى إذا مات جده مكسميليان في ١٥١٩ ، انتخب عام ١٥٢٠ إمبراطوراً وهو لا يزال في العشرين ، سن نعومة الأظفار نسبياً .

كان شاباً أشقر لا تبدو على وجهه مخايل النجاسة ، فشفتة العليا غليظة وذقنه طويل قبيح . ونظر حوله فإذا عالمه حافل بالشخصيات الفتيّة القوية . فإن عصره كان عصر ملوك شبان أذكىاء ، منهم فرنسيس الأول الذي تولى عرش فرنسا في ١٥١٥ وعمره إحدى وعشرون سنة ، ومنهم هنري الثامن الذي ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ في سن الثامنة عشرة . وهو عصر بابر ببلاد الهند (١٥٢٦ — ١٥٣٠) ، وسليمان القانوني بتركيا (١٥٢٠) ، وكلاهما ملك عظيم مقتدر ، هذا إلى أن البابا ليون العاشر (١٥١٣) كان كذلك رجلاً ممتازاً جداً . وحاول البابا بمعاوضة فرنسيس الأول أن يحول دون انتخاب شرلكان لعرش الإمبراطورية لما خشياه من ترك ذلك القدر الهائل من السلطان في يد رجل واحد . ثم تقدم كل من فرنسيس الأول وهنري الثامن يعرضان نفسيهما على ناخبي الإمبراطور . ولكن انتخاب الأباطرة من آل هابسبرج كان قد أصبح آنذاك تقليداً مديد الأجل وطيد الأركان (منذ ١٢٧٣) ونشطت الرشوة حتى كفلت لشرلكان النجاح في الانتخاب .

ابتدأ الملك الشاب حكمه ألعبوبة فاخرة رفيعة في أيدي وزرائه . ثم شرع بعد ذلك يبرز شخصيته على مهل ويمسك بقيادة الأمور . وما لبث أن بدأ يدرك ما يحيط بمركزه السامي من معقدات حافلة بالأخطار . وأحس أنه وإن كان مركزاً فاخراً فإنه ضعيف مضطرب كذلك .

وأول ما واجهه منذ ساعة توليه الحكم الموقف الذي أوجدته الاضطرابات الناشئة عن دعوة لوثر بألمانيا . وكانت معارضة البابا في انتخابه إمبراطوراً من الأسباب التي دعت إلى الانحياز إلى دعاة الإصلاح الديني . ولكنه نشأ في إسبانيا بلاد الكاثوليكية المتعصبة ، ومن ثم قرر أن يناصب لوثر العداء . ومن هنا بدأ النزاع بينه وبين الأمراء البروتستانت وخاصة منتخب سكسونيا ، وعند ذلك وجد نفسه يواجه صداعاً قد أخذ يتسع ويتهدد بتعزيز الوحدة البابية للمسيحية إلى معسكرين متناحرين . فبذل في سبيل رأب ذلك الصدع جهوداً مضيئة شريفة لم يكتب لها التوفيق . وقام الفلاحون في ألمانيا

بثورة متسعة الأطراف ، اختلطت بالفتن والاضطرابات الدينية والسياسية العامة . ومما زاد الأمر تعقيداً اجتماع هذه الفتن الداخلية على رأس الإمبراطور مع هجمات الأعداء على إمبراطوريته من الشرق والغرب جميعاً . وكان جارشسركان في ناحية الغرب هو فرنسيس الأول منافسه الجريء الطموح . ونازعه من الشرق الأتراك الذين كانوا يتقدمون بلا انقطاع ، والذين استولوا عند ذاك على بلاد المجر ، وتحالفوا مع فرنسيس وأخذوا يطالبون بما لهم على دولة النمسا وممتلكاتها من متأخرات الجزية ، أجل إن أموال إسبانيا وجيوشها كانت رهن إشارة من شارل ، واسكن الحصول على أية مساعدة مالية فعالة من ألمانيا كان من أعسر الأمور . وزادت الأزمات المالية متاعبه الاجتماعية والسياسية تعقيداً . فاضطرته ضائقته إلى الاستدانة التي جلبت عليه الخراب والإفلاس .

على أن شارل وفق على العموم بتحالفه مع هنرى الثامن إلى التغلب على فرنسيس الأول وحلفائه الأتراك . وكان ميدان القتال الرئيسى بينهما هو شمال إيطاليا ؛ أجل إن قيادة الطرفين كانت تنسم بالبلادة والغباء ، كما أن حركات التقدم والتأخر التي كانا يقومان بها اعتمدت قبل كل شيء على وصول الإمدادات . ثم غزا الجيش الألماني فرنسا وأخفق دون الاستيلاء على مرسيليا ، ثم تراجع إلى إيطاليا ، حيث ضاعت ميلانو من يده ، وحوصر بمدينة پافيا . وقد ألقى فرنسيس الأول حول پافيا حصاراً طويلاً بالفشل ، ثم حاصرت قوات ألمانية جديدة وهزمت جيوشه وجرحته وأخذته أسيراً . وعند ذلك انقلب البابا وهنرى الثامن على شركائهما لسانهم دائماً من خوف من زيادة قوته إلى حد مفرط ، وماعتمدت القوات الألمانية المقاتلة في ميلانو بقيادة كونستابل بوربون وقد تأخرت إعطياتها ، أن أرغمت قائدها على الزحف بها على روما ، وهناك فتحوا المدينة عنوة وانهبوها في (١٥٢٧) .

ولجأ البابا إلى قلعة القديس أنجيلو ، على حين واصل المغيرون النهب والقتل في المدينة ، ثم استطاع في النهاية أن يشتري رحيل القوات الألمانية بأن دفع لها أربعمئة ألف بندقي^(١) ، واستمرت هذه الحروب المضطربة عشر سنين لقيت منها أوربا الفقر والإفلاس ، حتى ترمى الأمر في النهاية أن وجد الإمبراطور نفسه مظفراً في إيطاليا ، وما نشب البابا أن توجه في ١٥٣٠ بمدينة بولونيا ، فكان آخر من توج من أباطرة الألمان على هذا النحو .

(١) البندقي (Dueats) هو عملة ذهبية مصدرها البندقية .

وفي نفس ذلك الوقت كان الأتراك يجتاحون بلاد المجر اجتياحاً . بعد أن هزموا ملك المجر وقتلوه في ١٥٢٦ ، ثم استولوا على بودابست وأوشكت فيينا أن تقع في قبضة سليمان القانوني في ١٥٢٩ . واغتم الإمبراطور غمًا عظيمًا لهذا التقدم ، وبذل كل ما في استطاعته لرد الأتراك عن بلاده ، ولكنه لقي أعظم العسر في جمع كلمة أمراء الألمان على الرغم من وجود ذلك العدو القوي العاتي على أبوابهم جميعاً ، وظل فرنسيس الأول عاجزاً عن القتال ردحاً من الزمان ، ثم نهض للحرب مرة ثانية ؛ على أن شارل ما لبث أن تمكن من استمالة منافسه إليه (١٥٣٨) وحمله على التزام جانب المودة إزاءه بعد أن أعمل في جنوب فرنسا يد النهب والتخريب . وعندئذ عقد فرنسيس مع شرلسكان محالفة ضد الترك .

ولسكن الأمراء البروتستنت وهم أمراء الألمان الذين عقدوا العزم على الانفصال عن روما ، كانوا قد كونوا وقتذاك ضد الإمبراطور حلفاً ، هو حلف الشملكلد Schmalkaldic فاضطر شارل أن يوجه همه إلى الكفاح الداخلي الذي أخذت عناصره تتجمع في ألمانيا ، بدلاً من أن يقوم بحملة كبرى ليسترد بلاد المجر من قبضة المسلمين ويضمها إلى حظيرة المسيحية . ولكنه لم يعمر طويلاً ، فلم يشهد لذلك من هذا الكفاح إلا أول حرب نشبت فيه . وقد اتصف ذلك الكفاح بأنه مناوشات دامية خلت من كل حكمة وعقل ، اقتتل فيها الأمراء على السيادة . وكانت تندلع نيرانها أحياناً فتصبح حرباً عنيفة تأني على الحرث والنسل وتجرح وراءها الخراب ، أو تهبط فإذا هي مؤامرات ومؤامرات ديبلوماسية ،

الجرب وتفح إلى مالا نهاية حتى تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر ، وما زالت هذه الديبلوماسية تعمل في أوروبا الوسطى تدميراً وتخريباً مرة في إثر أخرى .

ويلوح أن الإمبراطور لم يدرك قط العوامل الحقيقية التي كانت تعمل عملها في تلك المتاعب التي أخذت تتجمع على رأسه . لقد كان بالنسبة لعصره ومركزه رجلاً فاضلاً إلى أقصى حد ، والظاهر أنه توهم أن الخلافات الدينية التي كانت تمزق أوروبا إلى أشلاء متناحرة إنما هي خلافات دينية حقة ، فأكثر من عقد مجالس الديانة^(١) والمجامع الكنسية محاملاً

وفي مسألة الاعتراف . ودارس التاريخ الألماني مضطر على الرغم منه أن يكبح التماسا لبحث تفاصيل صلح نورمبرج الديني . والتسوية التي أفرها دايت رانسبون و صلح أوجزبرج وما إليها . وهي أمور لا تذكر هنا إلا كتفاصيل لحياة ذلك الإمبراطور الباذخ ، تلك الحياة التعسة الزاخرة بالهموم . والواقع الذي لا شك فيه أن واحدا من هذه الكثرة العديدة من الأمراء والحكام الأوربيين لا يبدو عليه أنه كان يعمل بإخلاص . وما كان الاضطراب الديني الذي عم أرجاء العالم كافة ولا رغبة العامة في الحق والصدق والبر الاجتماعي ، ولا انتشار المعرفة في ذلك ، ما كانت هذه الأشياء جميعا إلا مجرد ذرائع للخلاف والمعاكسة اتخذتها أخيلة الأمراء وديبلوماسيائهم ، مثال ذلك أن هنري الثامن ملك إنجلترا الذي بدأ حياته العملية بتأليف كتاب يندد فيه بالكفر والزندقة ، والذي كافأه البابا بالإنعام عليه بلقب « حامي العقيدة » قد انضم إلى زمرة الأمراء البروتستنت في ١٥٣٠ ، لرغبته في الطلاق من زوجته الأولى إشاراً منه لفتاة صغيرة تسمى آن بولين ، ولأنه شاء أيضا أن ينتهب ثروة الكنيسة الإنجليزية الهائلة ، ومن قبله كانت السويد والدانمرك والنرويج قد انضوت تحت لواء البروتستنتية .

بدأت الحروب الدينية بألمانيا في ١٥٢٦ بعد وفاة مارتن لوثر ببضعة أشهر . ولسنا في حاجة إلى الاهتمام بتفاصيل القتال ، وبحسبك أن تعلم أن الجيش السكسوني البروتستنتي لقي هزيمة منكرة عند لوشاو ، وأن فيليب ، أمير هيس ، آخر وأكبر خصم للإمبراطور قبض عليه وأخذ أسيرا بطريقة تداني نقض العهد ، واشترى رحيل الترك لقاء وعد بدفع جزية سنوية . ثم إن فرنسيس مات في ١٥٤٧ فأراح الإمبراطور راحة عظيمة . لذا حصل شارل في ١٥٤٧ على ضرب من التسوية لأمواره ، وأخذ يبذل قصارى جهده لإقرار سلم في عالم الإسلام فيه . فما وافت سنة ١٥٥٢ حتى اندلع لهيب الحرب في كل أرجاء ألمانيا ، ولم ينج الإمبراطور من الأسر في إينزبروك إلا بمبادرته بالفرار السريع منها ، ثم جاءت معاهدة بساو فأحدثت في سنة ١٥٥٢ هدوءا آخر غير ثابت الأركان .

تلك هي المعالم الموجزة لسياسة الإمبراطورية في مدى اثنين وثلاثين عاما . ولا يفوتنا أن نذكر أن عقل الأوربيين كان متركزا تماما حول فكرة السكفاح من أجل إحراز قصب السيادة في أوربا . وذلك أن أحدا ممن عاشوا في ذلك الزمان - لا الترك منهم ولا الفرنسيون ولا الإنجليز ولا الألمان - لم يحس حتى ذلك الحين بأي اهتمام سياسي بقارة أمريكا العظيمة ، ولم يدرك أي مغزى للطرق البحرية الجديدة المؤدية إلى آسيا . ومع ذلك

فإن أمريكا كانت عند ذلك مسرحاً لأحداث عظيمة ؛ فإن كورتيز انطلق بحفنة من الرجال وفتح باسم إسبانيا إمبراطورية المكسيك النيوليثية^(١) العظيمة ، كما أن بيزارو عبر مضيق بنما (١٥٣٠) ، وأخضع قطراً آخر من أفطار العجايب هو بيرو . ولكن هذه الأحداث لم يكن لها حتى ذلك الحين من معنى في أوروبا إلا تدفق الفضة إلى الخزائن الإسبانية تدفقاً عاد عليها بالنفع الكبير ونبه الأذهان إليها .

ولم يبدأ شارل في إظهار أصالته الذهبية المميزة إلا بعد عقد معاهدة بساو . إذ اعتراه عند ذاك السأم من عظمته كإمبراطور وزالت عن عينه غشاوة الانخداع بها . كما ألم به شعور قوى بأن كل هذه المنافسات الأوربية عبث لا يطاق . ولم تكن بنيته سليمة جداً في أى يوم من أيام حياته إذ كان بفطرتة ميالاً للخمول والكسل ، كما كان يقاسى إمن النقرس أشد الآلام . فتنازل عن عرشه ؛ ونقل كل سلطاته الملكية بألمانيا إلى أخيه فرديناند ، كما عهد بشئون إسبانيا والأراضى المنخفضة لابنه فيليب ثم انسحب يظله جو من الجلال والامتعاض إلى دير بمدينة بوست ، تحيط به أحراش البلوط والقسطل في التلال الواقعة شمال وادى التاجة . وهناك قضى نحبه في ١٥٥٨ .

ولقد أكثر الكتاب من الحديث عن تقاعده هذا بلهجة عاطفية ، وعدوه تخلياً عن العالم من ذلك الجبار المكدود الجليل الذى برم بهذه الدنيا والتمس السلام فى أكناف الله عن طريق العزلة الصارمة ، ولكن انسحابه من الدنيا لم يتميز بعزلة ولا صرامة ، ذلك أنه صحب معه حوالى مائة وخمسين تابعاً ، وكان مقره يحوى كل ما للبلاط من فخامة ملذات مع انتفاء متاعب البلاط ومشاغله ، كما أن فيليب الثانى كان من البر بوالده بحيث كانت كل نصيحة منه إليه أمراً واجب النفاذ .

ولئن فقد شارل مكان كل اهتمام حق بإدارة شئون أوروبا ، فلقد كان مرد ذلك دوافع أخرى مباشرة أكثر . يقول بريسكوت :

« لاتكاد رسالة من الرسائل اليومية المتبادلة بين كويكسادا أو جازتللو ، وبين الوزير المقيم بمدينة بلد الوليد ، إلا تدور بدرجة ماحول طعام الإمبراطور أو مرضه .

إذ يلوح الواحد منهما كأنما يعقب الآخر بصورة طبيعية كأنه تعليق مستمر عليه . ومن النادر أن تكون مثل هذه الموضوعات مدار المراسلات مع مصلحة من مصالح الحكومة . ولا بد أن الوزير كان يجد عسراً كبيراً في الاحتفاظ بوقاره في أثناء تلاوته لرسائل تختلط فيها السياسة والبطنة مثل ذلك الاختلاط العجيب . وتلقى الرسول القادم من بلد الوليد إلى لشبونة أمراً بأن ينحرف عن طريقة السوى ليمر على جارانديلا ، ويحضر للمائدة الملكية ما يلزمها من أغذية . وكان عليه أن يحضر السمك يوم الخميس من كل أسبوع لتقديمه في يوم الصيام الذي يليه . فإن شارل كان يرى أن سمك النقطة الموجود بالمنطقة التي يعيش بها صغيراً جداً ، ولذا رحب أن يرسل إليه من بلد الوليد سمك من نفس النوع أكبر حجماً . وكانت الأسماك بجميع أنواعها تملكه وتعجبه ، وكل شيء يدانى السمك في طبيعته أو عاداته . فتعابن الماء والضفادع وأم الخلول تحتل مكاناً عالياً في قائمة الأطعمة الملكية . كما أن الأسماك المحفوظة ولا سيما الأنشوجة كانت تلقى منه حظوة عظيمة ؛ وكم أسف العاهل لأنه لم يحضر من تلك الأنشوجة قدرًا كبيراً من الأراضي المنخفضة ، وإنه لمولع بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء ... » (١) .

وقد حصل شارل في ١٥٥٤ على مرسوم من البابا يوليوس الثالث يبيح له التحلة من الصوم ويبيح له الإفطار في الصباح الباكر وإن كان على نية تناول الأسرار المقدسة .

أكل وتطبيب ... إن ذلك رجوع إلى الأشياء البدائية الأولى ، لم يتعود ذلك الملك قط القراءة ، واسكنه كان يصغى إلى من يقرأ عليه في أثناء تناوله الطعام جرياً على عادة شرلمان ، ثم يعلق على ما يسمع « بتعليقات حلوة سماوية » — كما عبر عن ذلك أحد الرواة .

وكثيراً ما كان يسلى نفسه باللعب الميكانيكية ، أو بالإصغاء إلى الموسيقى أو العظات الدينية ، أو النظر في مشئون الإمبراطورية التي لم تفتأ تتماطر عليه . وكانت وفاة الإمبراطورة ، التي اشتد بها تعلقه ، سبباً في تحول عقله نحو الدين ، الذي اتخذ عنده صورة التدقيق الشديد والاهتمام بالطقوس ؛ وقد دأب في كل يوم جمعة من أيام

الصوم الكبير على جلد نفسه هو وبقية الرهبان عن طيب خاطر جلدا كان يبلغ من الشدة أن تدعى له جلودهم .

وقد دفعت هذه الرياضات هي والنقرس بشرالكان إلى حال من التعصب كانت اعتبارات السياسة تكبجها حتى تلك الساعة ، فأثار حنقه ظهور التعاليم البروتستنتية بمدينة بلد الوليد القريبة . وكتب يقول : « أبلغ عنى القاضى الأعظم لمحكمة التفتيش أن يكون بمقر عمله هو ورجال مجلسه ، وأن يستأصلوا شأفة الشر قبل أن يستفحل ... »

وإنه ليبدى الشك فيما إذا لم يكن من الأنسب فى حالة مثل هذا الأمر الكريه الاستغناء عن نظام القضاء العادى ، وعدم أخذ المجرمين بأذى شفقة « خشية أن يعطى المجرمون ، إذا عفى عنهم فرصة العود إلى جريماتهم . » ثم يطرى الإمبراطور على سبيل المثال الطريقة التى اتبعها بالأراضى المنخفضة ، « حيث أحرق حيا كل من أصر على عناده ، وقطع رأس كل من سمح له بتقديم التوبة » .

ويكاد انشغاله بالجنائزات يكون رمزاً لمركزه فى التاريخ وكأن ضرباً من الإلهام أوحى إليه أن شيئاً عظيماً بأوروبا قد قضى نحبه ، وأنه بحاجة ماسة إلى من يدفنه ، وأن الحاجة إلى كتابة لفظة « انتهى » ، قد أزفت وزيادة . فلم يقتصر على حضور كل جنازة واقعية تقام فى بوست ، بل كان يقيم صلاة الجنازة على الموتى الغائبين ، وأقام جنازة لزوجته يوم ذكرها السنوية ، ثم أقام فى النهاية جنازته هو : « جللت جدران الكنيسة بالسواد ، لذا لم يكن نور مئات الشموع التى أوقدت كافياً لتبديد مدف الظلام التى رانت على المكان ، وتجمع الرهبان فى ثياب الدير ومعهم حاشية الإمبراطور جميعاً ، وقد ارتدت ثياب الحداد القائمة ، حول نعش ضخم قد جلل هو أيضاً بالسواد ورفع فى وسط الكنيسة ، وعند ذلك أدبت صلاة دفن الموتى ، وتصاعدت الصلوات للروح الراحل بين عويل الرهبان المحزن ، داعية لها بأن تلقى فى الآخرة منازل الأبرار ، وذابت نفوس الأتباع المحزونة دموعاً وأسى ، إذ تصورت لخواطرهم صورة وفاة مولاهم ، أو لعلمهم مستهم الرحمة لهذا المظهر المحزن من مظاهر الضعف . وتغشى شارل برداء أسود وحمل فى يده شمعة موقدة ، وسار بها بين رجال حاشيته ، ليشهد بنفسه جنازته ، وانتهى الحفل الأسيف بوضعه الشمعة بيد القسيس رمزا لتسليمه ، روحه للقوى القاهر » .

توفي الإمبراطور بعد هذا الحفل الساخر بأربعة أشهر . وانطوت بموته العظمة
القصيرة الأجل التي حظيت بها الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فإن دولته تقسمت قبل
موته بين أخيه وابنه . حقا إن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تبرح تكافح الأقدار
إلى أيام نابليون الأول ، ولكنها كانت أشبه بعليل يعاني سكرات الموت . ولا تزال
تقالدها البالية الرميم تسمم الجو السياسى إلى يومنا هذا .

الفصل الثاني والخمسون

عصر تجارب سياسية

وملكيات عظمى وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا

تخطعت الكنيسة اللاتينية ، وهوت الدولة الرومانية المقدسة في دركات الانحلال المفرط ، وأصبح تاريخ أوروبا منذ مستهل القرن السادس عشر عبارة عن قصة شعوب تتلمس في دامن الظلام طريقها بحثاً وراء نوع جديد من أنواع الحكومة ، يطابق الظروف الجديدة التي أخذت تنشأ . وقد ظلت التغيرات في العصور الخوالي وفي آماط طويلة من الزمان تمس الأسر المالكة ، بل حتى الجنس الحاكم واللغة الغالبة دون غيرها . ولكن شكل الحكومة القائم على الملك والمعبود ظل واضح الثبات ، كما أن طريقة العيش العادية ظلت أثبت وأرسخ قدما . على أن تغيرات الأسر المالكة في أوروبا الحديثة هذه ، أي منذ القرن السادس عشر لم تعد لهم أحداً في قليل ولا كثير . وأصبح وجه اهتمام التاريخ منصباً على تلك الأنواع الكثيرة المتزايدة العدد من التجارب التي تجري في حقول التنظيم السياسي والاجتماعي .

والتاريخ السياسي للعالم منذ القرن السادس عشر كان كما أسلفنا جهداً لاشعورياً إلى حد كبير ، أنفقته الإنسانية رغبة منها في تكييف أساليبها السياسية والاجتماعية وفق ظروف جديدة معينة نشأت في العالم منذ ذلك الحين ، وكانت تخالط جهود التكيف حقيقة لا شك فيها ، هي أن الظروف نفسها كانت تتغير بسرعة مطردة الازدياد ، كما أن التكيف ظل يزداد في كل آن توانياً وتخلفاً عن الظروف المتغيرة ، خاصة وأنه كان في الغالب تكييفاً لاشعورياً يحدث في جميع الأحوال تقريباً عن غير رغبة من الناس (ذلك أن الإنسان في جملته يكره التغير الإرادي) . ولذا فإن تاريخ الإنسانية يصبح منذ القرن السادس عشر إلى اليوم قصة نظم سياسية واجتماعية غير صالحة لما خلقت له مثيرة للقلق والكدر ، كما يصبح قصة إدراك الناس على كرهه للحاجة إلى تحديد أوضاع المجتمعات البشرية تحديداً واعياً عملياً لمواجهة الحاجات والإمكانات التي لا عهد لجميع الخبرات السابقة للحياة بها .

فما هذه التغيرات التي اعترت ظروف الحياة البشرية ، والتي أفسدت ذلك الاتزان الذي كان يحيم على الإمبراطورية والكاهن والفلاح والتاجر ، مع إيقاظها بين الفينة والفينة بسبب غزوات البرابرة ، التي عرضت أحوال الناس في العالم القديم لنوع من الموجات المتتابة التي دامت أكثر من مائة قرن ؟ .

لا شك أن هذه التغيرات متنوعة كثيرة الجوانب ، وما ذلك إلا لأن الشؤون الإنسانية معقدة إلى أقصى حد ، ولكن الظاهر أن جميع التغيرات الرئيسية تدور جميعا حول سبب واحد ، هو نمو وامتداد المعرفة بطبيعة الأشياء ، تلك المعرفة التي بدأت أولا وقبل كل شيء بين جماعات صغيرة من الأذكىاء - وانتشرت ببطء في البداية ، ثم بسرعة عظيمة جداً في القرون الخمسة الأخيرة - بين جماعات متكاثرة ونسب متزايدة من مجموع السكان عامة .

على أن حياة الناس تغيرت بدورها تغيراً عظيماً يرجع إلى تغير حدث في روح الحياة الإنسانية . وسار هذا التغير جنباً إلى جنب مع زيادة المعرفة واتساع مداها ، كما أنه متصل بها اتصالاً خفياً دقيقاً . وزاد جنوح الناس إلى النظر بعين النفور وعدم الرضا إلى إقامة حياة الفرد على الرغبات والشهوات الأولية وعلى إشباع تلك الرغبات ، كما زاد ميلهم إلى التماس إقامة العلاقات مع حياة أشمل هي حياة الناس كافة وتقديم الخدمات لها ومشاركتها في كل مشورتها . تلك هي الخصيصة العامة التي تشترك فيها الديانات العظمى جميعا التي انتشرت في كافة أرجاء العالم في أثناء النيف والعشرين قرناً الأخيرة من حياة البشرية سواء في ذلك البوذية والمسيحية والإسلام ، فإنها جعلت هدفها روح الإنسان بطريقة لم تتبعها الديانات القديمة . فهي قوى تختلف تماماً في طبيعتها ومفعولها عن ديانات القربان الدموي الفتيشية القديمة بكاهنها ومعبدتها ، التي عدلتها من ناحية ، وحلت محلها من ناحية أخرى . فأثارت في الفرد بالتدريج الشعور باحترامه لنفسه وشعوره بالمشاركة والمسؤولية في كل الشؤون البشرية العامة مما لم يسبق له مثيل بين أناس الحضارات الخالية .

وكان أول تغيير جسيم ألم بأحوال الحياة السياسية والاجتماعية تبسيط الكتابة في الحضارات القديمة واتساع مدى استخدامها وهو أمر جعل قيام إمبراطوريات أكبر حجماً ونشوء تفاهم سياسي أوسع مجالاً ، شيئاً ميسوراً بل أمراً لا بد منه . وجاءت حركة

التقدم الثانية حين استخدم الحصان ، ومن بعده الجمل كوسيلة للمواصلات ، وحين استعملت المركبة ذات العجلات ، وحين مدت الطرق وزادت الكفاية العسكرية كنتيجة لاستكشاف الحديد الأرضي . ثم حلت في أعقاب ذلك الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن اختراع النقود المسكوكة ، وعن تغير طبيعة الديون والملكية والتجارة نتيجة لظهور هذا التقليد النافع والضار معا ، فزادت الإمبراطوريات سعة ومجالا ، وامت أفكار الناس بالمثل ثموا يواجه هذه الأشياء الجديدة . ثم آن أوان اختفاء الآلهة المحلية ، وجاء بعده عهد إدماج الآلهة (الثيوكرازيا) فعهد تعاليم الديانات العالية الكبرى . وأقبلت أيضا تباشير التاريخ والجغرافيا المعقولة المدونة ، وإدراك الإنسان جهله المطبق لأول مرة ، وأول بحث منظم في سبيل المعرفة .

لقد انقطع إلى حين من الدهر حبل الطريقة العلمية الذي بدأ ببلاد الإغريق والإسكندرية تلك البداية الرائعة . ذلك أن النظام السياسي والاجتماعي لقي أعظم الضرر والعنت من جراء غارات البرابرة الثيوتون ، وزحف الشعوب المغولية نحو الغرب وأدوار الإصلاحات الدينية العنيفة والأوبئة الجائحة . حتى إذا انفضت الحضارة عنها ثانية غبار تلك المرحلة القاسية من الصراع والاضطراب ، إذا بالرق لم يعد أساسا للحياة الاقتصادية ، وإذا بأول مصانع الورق تتخذ من المطبوعات وسيلة جديدة للاحاطة الجماعية وللتعاون الاجتماعي . ولم يلبث البحث عن المعرفة : العملية والعلمية المنظمة ، أن عاد سيرته الأولى بالتدريج وعند المناسبات .

ثم ظهرت ابتداء من القرن السادس عشر فصاعداً مجموعة متزايدة العدد من المستحدثات والمخترعات أثرت فيما بين الناس من تواصل وتفاعل ، وكانت نتاجاً ثانوياً للتفكير المنظم لا مفر منه وكانت كل هذه المستحدثات تنزع إلى توسيع مجال العمل والنشاط وزيادة المنافع أو الأضرار المتبادلة ، وإلى المزيد من التعاون . كما أن سرعة مجيئها لم تزل في ازدياد يوماً في إثر يوم . ولم تكن عقول الناس مهيأة لشيء من ذلك القبيل ، كما أن المؤرخ لا يجد إلى يوم حلول الكارثة الكبرى في أوائل القرن العشرين وتنشيطها للأذهان — إلا أقل القليل يحدثك به عن أية محاولات مصممة بحكمة لمواجهة الظروف الجديدة التي كان يخلقها ذلك التدفق الجديد للمخترعات . وكأني بتاريخ الإنسانية في أثناء القرون الأربعة الأخيرة أشبه شيء بقصة نائم حبيس يتحرك في ثقل وتامل بينما تندلع النيران في السجن الذي يؤويه ويقيده حريته ، دون أن يستيقظ ، بل

تدخل طقطقة النار ودفؤها في أضغاث أحلام عتيقة لا تتناسب والمقام — أشبه بهذا كله منه بحال رجل في يقظة شعورية يحس بالخطر المحقق والفرصة الدنية القطوف .

والتاريخ يسجل قصة المجتمعات لا حياة الأفراد ، لذا لم يكن بد من أن تكون معظم المخترعات التي تظهر في صفحات السجل التاريخي مستحدثات لها أثر فيما بين الناس من مواصلات . وأهم ما ينبغي علينا أن نلاحظ ظهوره من أشياء جديدة في أثناء القرن السادس عشر ظهور الورق المطبوع والسفينة الشراعية القوية القادرة على عبور المحيط والتي تستعمل الاختراع الجديد المسمى بالبوصلة البحرية . أما الاختراع الأول فإنه نشر التعليم وجعله رخيصا بل أحدث فيه انقلابا تاما ، كما عاد بنفس الفوائد على إذاعة الأخبار وعلى المناقشات ، وعلى عمليات النشاط السياسي الجوهرية . وأما الاختراع الثاني فإنه حول الكرة الأرضية إلى قطعة واحدة متماسكة . ولا يقل عن هذين الأمرين في الأهمية زيادة استخدام المدافع والبارود التي نقلها المغول إلى الغرب لأول مرة في القرن الثالث عشر وإدخال النحسينات عليها . وبفضل المدافع والبارود تحطمت الحصانة والمنعة التي حظى بها البارونات داخل قلاعهم ومدنهم المسورة وقضت المدافع على نظام الإقطاع جملة . ولا تنس أن المدافع هي التي أسقطت القسطنطينية بيد الأتراك ، وكذلك تداعت دولتنا المكسيك وبيرو حيال ما أصابهما من رعب من مدافع الإسبان .

وكان القرن السابع عشر مسرحا تطور فيه النشر المنظم للمطبوعات العلمية ، وهو تجديد أقل شأنًا من سابقه ، وإن عاد في النهاية بفوائد أعظم . ومن أبرز رواد هذه الخطوة التقدمية العظيمة السير فرنسيس باكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) ، وهو الذي تسمى فيما بعد باسم لورد فيريولام ، وزير مالية إنجلترا ، كان تلميذا لعالم إنجليزي آخر بل لعالم هو اللسان المعبر عن ذلك الإنجليزي الذي هو الدكتور جلمبرت فيلسوف كولشستر التجريبي (١٥٤٠ - ١٦٠٣) ، وكان باكون الثاني هذا يدعو الناس كسميه الأول إلى الملاحظة والتجريب ، كما أنه اتخذ طريقه القصص اليوتوبي الملهمة المثمرة في كتاب له أسماه « الأطلانطس الجديد » وسيلة يعبر بها عما يحلم به من قيام هيئة عظيمة من العلماء بالأبحاث العلمية .

وسرعان ما نشأت الجمعية الملكية بلندن والجمعية الفلورنسية ، كما نشأت فيما بعد هيئات قومية أخرى لتشجيع الأبحاث العلمية ونشر المعرفة وتبادلها ، لم تصبح هذه

الجميات العلمية الأوربية يناهض فقط تنضح بما لا يقع تحت حصر من الاختراعات ، بل صارت أيضا منبعا للنقد الهدام الذى قضى فى النهاية على ذلك التاريخ اللاهوتى العالمى المضحك الذى تسلط على السكر البشرى وعاقه عن العمل عدة قرون .

ولم يقدر للقرن السابع عشر ولا الثامن عشر أن يشهدا اختراعات بلغت من الأثر العميق فى حياة الناس مبلغ الطباعة والسفينة القادرة على اختراق المحيط ، وإن تجمعت فى أثنائهما المعرفة والطاقة العلمية بصورة قدر لها أن تؤتى ثمارها كاملة فى القرن التاسع عشر . وتواصلت الاستكشافات ووضع الخرائط الجغرافية لأصقاع العالم . فظهرت أشكال تسمانيا وأستراليا وزيلندة الجديدة فى المصورات الجغرافية . وشرع الناس فى بريطانيا العظمى يستخدمون كوك الفحم الحجرى فى صناعة المعادن ، فأدى ذلك إلى رخص ثمن الحديد وإلى إمكان صبه واستخدامه على صورة قطع أكبر حجما مما كان يستطيع إنتاجه قبل ذلك ، حين كان الفحم النباتى هو المستخدم فى صهره . وبذلك بزغ فجر الآلات العصرية الحديثة .

والعلم كأشجار جنة الفردوس ، يحمل الأكام والأزهار والثمار فى نفس الوقت وبلا انقطاع . وابتدأ العلم يؤتى ثماره الحقة منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولعله لن يكف بعد ذلك عن الإثمار . فكان البخار والصلب أول قطرات الغيث ، وتلتهما السكة الحديدية والباخرة الحديدية والكبارى الضخمة والمباني الكبيرة والمساكنات التى لا حد لقوتها تقريبا ، ولاخ أن فى الإمكان سد كل حاجة مادية للإنسان بوفرة وغزارة لم يسبق لهما مثيل ، ثم انفتحت أمام الناس أبواب الكنوز المستورة للعلم الكهربى .

سبق أن شبهنا الحياة السياسية والاقتصادية للإنسان منذ القرن السادس عشر فصاعدا بحالة سجين نائم يرقد غارقا فى أحلامه والسجن يحترق من حوله . وكان الأوربى فى القرن السادس عشر لا يزال مستغرقا فى أحلامه بالإمبراطورية اللاتينية الدائرة ، أى حلمه بإمبراطورية رومانية مقدسة تتحدد كلمتها بزعامة الكنيسة الكاثوليكية ولكن الذى حدث هو أنه كما أن بعض عناصر تكويننا التى لا سلطان لأحد عليها لا تزال تدأب فى بعض الأحيان على إدخال أشد أنواع الأفكار سخفا وتدميرا فى مجرى أحلامنا ، فكذلك اندس فى هذا الحلم الوجه النائم للإمبراطور شارل الخامس ومعدته المتهاففة على الطعام ، على حين كان هنرى الثامن ولوثر يمزقان وحدة العالم الكاثولىكى إربا .

وتحول الحلم في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى ملكية شخصية مستبدة . فلا يكاد تاريخ أوروبا خلال تلك الفترة يحوى إلا قصة تروى بصورة مختلفة ، محاولة بما لتوحيد ملكية من الملكيات ، وجعل سلطان عاهلها استبدادياً مطلقاً وبسط كلمتها على الضعفاء من جيرانها ، أو تقصص على مسامعنا حديث المقاومة الدائمة التي يظهرها أصحاب الأراضي ، كما تحدثنا عندما تزايد التجارة الخارجية والصناعة في الداخل عن مقاومة طبقة التجار والماليين التي تزداد عند ذلك عدداً - تحدثنا عن مقاومة هؤلاء لسكر تدخل للتاج في شئونهم أو فرض يفرضه عليهم ولم يحرز أى من الطرفين نصراً شاملاً أو حاسماً ؛ فقد يفوز الملك هنا بالسكاة العليا ، بينما يتغلب صاحب الأملاك في مكان آخر على العاهل الملك . وثم مكان يكون فيه الملك منار عالمه القومى وقطب رحاه على حين نجد وراء حدوده المتاخمة له تماماً طبقة تجارية قوية الشكيمة تقيم صرح جمهورية وطيدة . ووجود مثل هذا البون البعيد من الاختلاف بين البلاد يبين إلى أى حد كانت الحكومات المتنوعة لتلك الفترة تجريدية بحتة ، أو عارضة أنتجتها الصدفة المحلية .

وهناك شخصية شهيرة جداً في هذه المسرحيات القومية ، هي « وزير الملك » الذى كثيراً ما يكون فى الدول المستمسكة بالعقيدة الكاثوليكية أسقفاً يقف من وراء الملك ، ويخدمه ويتسلط عليه بما يؤديه من خدمات لا يستغنى عنها .

ولا يتسع المقام لتتبع هذه المسرحيات القومية بالتفصيل . وحسبك أن تعلم أن شعب هولندا التجارى تحول إلى المذهب البروتستانتي والجمهورى معاً ، وأزاح عن كاهله حكم فيليب الثانى ملك إسبانيا ، وابن الإمبراطور شارل كان . فأما إنجلترا فهنرى الثامن ووزيره ولزى والملكة إليزابيث ووزيرها بوري ، وضعوا أسس نظام استبدادى حطمته حماقة جيمس الأول . وكانت نتيجة ذلك أن قطعت رأس الملك شارل الأول جزاء له على خيانتة لشعبه (١٦٤٩) ، وفى ذلك تحول جديد لجرى الفكر السياسى بأوروبا . وانقضت بعد ذلك اثنتا عشرة سنة كانت فيها إنجلترا جمهورية (حتى ١٦٦٠) ؛ ثم غدا التاج مزعزع القوى تغلبه كثيراً كلمة البرلمان ، حتى بذل الملك جورج الثالث (١٨٢٠ - ١٨٦٠) جهداً عظيماً وفق فيه إلى حد ما إلى استعادة سلطانه . على أن ملك فرنسا من الناحية الأخرى كان أكثر ملوك أوروبا توفيقاً ونجاحاً فى النهوض بالملكية إلى حد الكمال . فقد رزقه الله وزيرين عظيمين هما ريشليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢)

ومازاران (١٦٠٣ - ١٦٦١) شاداه بتلك البلاد قوة التاج ، وزاد من قوة تأثيرها طول عهد الملك لويس الرابع عشر (الملقب بالعاهل الأعظم ١٦٤٣ - ١٧١٥) وصفاته الاستثنائية الخارقة .

والحق إن لويس الرابع عشر كان الملك المثالي الذي تحتذيه أوروبا كلها . وكان - على ما به من معائب - ملكا ذا اقتدار استثنائي ، كما أن مطامعه كانت أقوى من شهواته الدنيا ، لذا اقتاد بلاده إلى الإفلاس بتورطه في سياسة خارجية مفرطة النشاط مع هيبة وكرامة عظيمة لاتزال تنتزع منا الإعجاب انزاعا . وكانت الرغبة المباشرة التي رانت عليه هي توحيد بلاده وبسط تخومها إلى نهر الرين وجبال البرانس ، وامتصاص الأراضي المنخفضة الإسبانية ، أما فسكرته البعيدة التي هدف إليها فهي أن يصبح ملوك فرنسا خلفاء لشارلمان في دولة رومانية مقدسة يعاد بناؤها . فجعل الرشوة وسيلة لدولته تعتمد عليها أكثر مما تعتمد على الحرب . فكان شارل الثاني ملك إنجلترا يتلقى منه الأموال ، وكذلك معظم نبلاء بولندة الذين سَنصفهم لك من فورنا . لذا يمكن القول إن نقوده أو بالحرى نقود الطبقات الدافعة للضرائب كانت تصل إلى كل مكان . على أن شغله الشاغل كان الأبهة والفخامة . فإن قصره العظيم بفرساي بما حوى من صالونات ودهاليز ومرايا وشرفات ضخمة ونافورات وجنات غناء ومجالات تمرح فيها الأنظار - كان مشار حسد العالم وإعجابه العظيم .

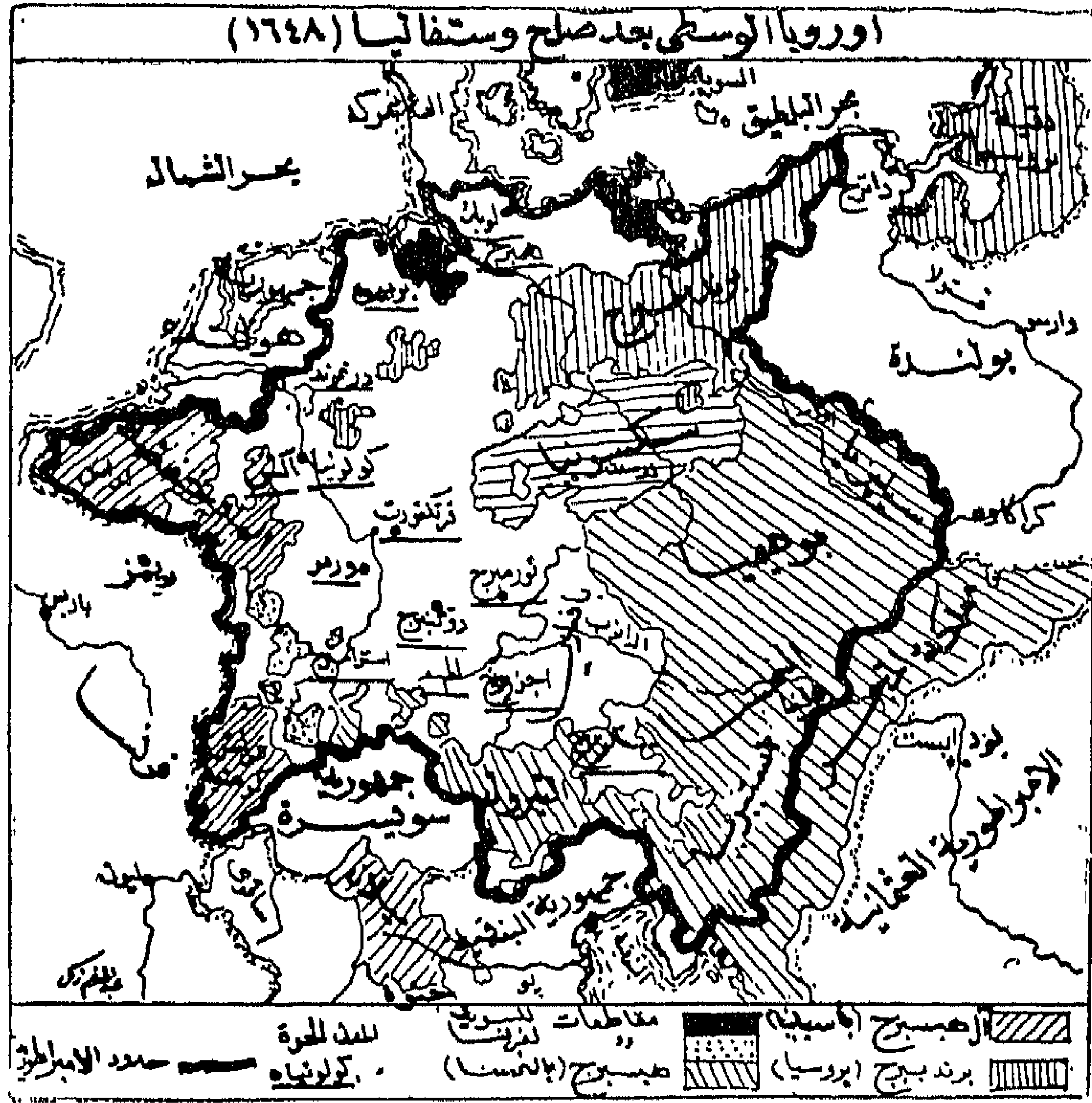
وتبارى من حوله المقلدون . وهب كل ملك أو أمير صغير بأوربا يشيد قصره على نمط قصر فرساي متجاوزا بذلك موارده . ولكن على قدر مايسمح له رعاياه ودائنوه وهب كل النبلاء في كل مكان يعيدون بناء قلاعهم وقصورهم أو يوسعون فيها على مثال الطراز الجديد . وحدثت نهضة عظيمة في صناعة المنسوجات والأثاث الجميلة وازدهرت فنون الكماليات وتحف الترف في كل مكان ، فانتعشت صناعات نحت المرمر والقاشاني وأشغال الخشب المذهب وصياغة المعادن والجلد المضغوط بالرسوم الفنية ، وتكاثر الإنتاج الموسيقي والتصوير الفاخر والطباعة الجميلة والتجليد الأنيق وأبدع الخزف وأعجب الخمر . وبين هذه المرايا الصقيلة والرياش الفاخرة ، كان جنس عجيب من السادة يغدو ويروح على رأسه شعور مستعارة مرتفعة ذرت عليها المساحيق ويرتدى الحرائر والخمرات (الدتلا) ويترنح فوق أحذية ذات كعوب عالية حمراء حافظاً توازنه بعصى مونقة مدهشة ومع هؤلاء سيدات أعجب منهن شأنافوق رءوسهن أبراج من الشعور المعطاة

بالمساحيق ، وعلى أجسامهن مقادير ضخمة منفوشة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك .
ومن بين هؤلاء جميعاً ، وقعت شخصية لويس العظيم ، شمس عالمه المنيرة ، غير شاعر
بالوجوه الهزيلة المتجهمة الحائقة التي ترقبه من تلك الظلمات الدنيا دون أن تنفذ إليها
أشعة شمس .

ظل الشعب الألماني منقسماً على نفسه سياسياً طوال تلك الفترة التي سادتها الملكيات
وعمل التجارب في أنواع الحكومات ، وراح عدد جسيم من بلاطات الدوقات والأمراء
يحاكى كالفردة أبهة فرساي كل حسب درجته . وكانت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ ،
١٦٤٨) وبالا على الألمان ، إذ إنها ظلت جرحاً دائماً ينزف منه نشاطهم واهتمامهم لمدة مائة
عام بعد ذلك ، وهي نزاع مخرب نشب بين الألمان والسويديين والבוهميين على منافع
سياسية منقلبة غير ثابتة . ولا بد للقارىء من خريطة يشهد فيها هذا التوقيع
الجنوبي الذي انتهى به ذلك الصراع ، وهي الخريطة التي تصور لك أوروبا بعد
صلح وستفاليا الذي عقد في ١٦٤٨ وفيها تجد عدداً كبيراً من الإمارات والدوقيات
والدول الحرة وما إلى ذلك ، ومنها ما هو من ناحية جزء من الإمبراطورية كما هو
خارج عنها من ناحية أخرى . وسيلحظ القارىء أن ذراع السويد توغلت كثيراً في
أرض ألمانيا ، وأن فرنسا كانت لا تزال بعيدة عن نهر الرين على الرغم من امتلاكها لقطع
متباعدة من الأرض تقوم كالجزائر وسط ممتلكات الإمبراطور . وأخذت مملكة بروسيا
(التي أصبحت مملكة منذ ١٧٠١) تواصل النهوض إلى مرتبة الصدارة وتشن سلسلة
متصلة الحلقات من الحروب الظافرة الموفقة . وأقام فريدريك الأكبر (١٧٤٠-١٧٨٦)
قصره الفرسانى الطراز عند بوتسدام ، وكانت الفرنسية لغة بلاطه . فهو يتحدث بهار ويقراء
الأدب الفرنسى وينافس الملك الفرنسى في ثقافته .

وفي ١٧١٤ أصبح منتخبا هانوفر ملكاً على إنجلترا ، فزاد فرد آخر في قائمة الملوك
الداخلين في الإمبراطورية من ناحية والمستقلين عنها من ناحية أخرى .

احتفظ الفرع النمساوى من سلالة شارل الخامس باللقب الإمبراطورى ، كما احتفظ
الفرع الإسباني بإسبانيا . ولكن ظهر الآن للمرة الثانية إمبراطور للشرق ، ذلك أن



خريطة رقم (١٤)

غراندوق موسكو ، إيفان الأعظم (١٤٦٢ - ١٥٠٥) ، ادعى بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) أنه الوارث للعرش البيزنطي ، ووضع علامة النسر البيزنطي ذي الرأسين على دروعه وأسلحته . واتخذ حفيده ، إيفان الرابع (إيفان الرهيب) (١٥٣٣ - ١٥٨٤) اللقب الإمبراطوري : قيصر . على أن روسيا كانت تبدو دائماً في أعين الأوربيين قطراً بعيداً آسيوياً حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر . فإن القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥) أدخل روسيا في معترك الشؤون الغربية . فشاد لإمبراطوريته عاصمة جديدة على نهر النيفا ، هي بطرسبرج ، كانت بمثابة نافذة تطل منها روسيا على أوروبا . كما أنه أقام قصره المائل لقصر فرساي قرب بترهوف التي تبعد عن العاصمة ثمانية عشر ميلاً ، مستخدماً في ذلك مهندساً ، مهارياً فرنسياً ، شيد له شرفة

عظيمة ونافورات ومساقط مائية (شلالات) ومعرضا للصور وجنة غناء إلى غير ذلك من مظاهر الملكية العظمى . وصارت الفرنسية لغة البلاط في روسيا مثلما صارت من قبل لغته في بروسيا .

ومن سوء حظ المملكة البولندية أنها كانت تقع ذلك الموقع النفوس بين روسيا وبروسيا والنمسا .

وكانت بولندية دولة سيئة التنظيم من ملاك كبار يحرص كل منهم على عظمتة الفردية حرصاً شديداً حتى لا يطبق أن تقوم بالبلاد إلا ملكية اسمية للملك الذي كانوا ينتخبونه . وكان مصيرها هو التقسيم بين هؤلاء الجيران الثلاثة ، على الرغم مما بذلته فرنسا من الجهود للاحتفاظ بها حليفاً مستقلاً .

وكانت سويسرا في ذلك الأوان مكونة من مجموعة من « السكانتونات الجمهورية » ؛ ثم إن البندقية كانت هي الأخرى جمهورية ؛ على حين أن إيطاليا كمعظم ألمانيا تقسمها دوقات وأمراء صغار . أما البابا فكان يقيم في دولته الباباوية حكماً يحكم الأمراء ، وقد أصبح الآن من شدة الخوف من فقدان طاعة وولاء من بقى مواليا له من الأمراء الكاثوليك بحيث لم يعد يجرؤ على التدخل بينهم وبين رعاياهم أو على تذكر العالم بدولة النصرانية الشاملة .

والحق إنه لم يعد هناك بأوروبا مطلقاً أية فكرة سياسية مشتركة ؛ إذ إنها وقعت تماماً بين برائن الفرقة واستسلمت كلية للخلاف .

وكان كل من هؤلاء الأمراء وتلك الجمهوريات يدبر الحطط الرامية إلى التوسع على حساب غيره . وكان لسكل منهم سياسة خارجية تنطوي على العدوان على جيرانه وعلى التحالف العدواني . ونحن الأوربيين لانزال نعيش في أيامنا هذه في آخر مرحلة من مراحل الدول المتعددة ذات السيادة ، كما أننا لانزال نكابذ الآلام من تلك الكراهيات والعداوات والشكوك التي تولدت عن تلك المرحلة . ولا يلبث تاريخ تلك الفترة أن يفقد كل معنى ويصبح دردشة جوفاء وخوضاً في الأعراض تمجده أذن الناقد العصري الأعمى . فهو يحدثنا تارة كيف أن خليفة هذا الملك أججت تلك الحروب ، وكيف تولدت هذه الحرب الأخرى من غيرة وزير من آخر . وتشور ربح القيل والقال فتزكم أنف الدارس الذكي بأخبار الرشوة والمنافسات وتملأ نفسه شتمنازاً . على أن هناك حقيقة

مائلة ولها دلالتها التي لاتنقطع ، هي أن القراءة والفكر لم تكف مع ذلك عن الانتشار والاتساع ، وأن الاختراعات لم تكف عن التكاثر ، على الرغم من تلك العشرات من الحدود والتخوم التي تفصل بين الدول . وظهر في القرن الثامن عشر أدب عميق في تشكيكه ، نفاذ في نقده لبلاطات ذلك العصر وسياساته . ولو أنك قرأت كتاباً كقصة فولتير المسماة « قنديد » لشهدت فيها بوضوح تعبيراً صريحاً عن حالة لاحد لها من التبرم بوقوع أوروبا في لجة الارتباكات دون توفر أحد على رسم خطة لإنقاذها .

الفصل الثالث والخمسون

إمبراطوريات الأوربيين الجديدة في آسيا وما وراء البحار

وفي نفس الوقت الذي ظلت فيه أوروبا الوسطى مضطربة منقسمة على نفسها على النحو الذي رأيت ، راح سكان غرب أوروبا ، خاصة الهولنديين والإسكندناويين والإسبان والبرتغاليين والبريطانيين يمدون منطقة كفاحهم وراء بحار العالم أجمع . ومن قبل ذلك كانت المطبعة قد دفعت بالأفكار السياسية والأوربية إلى غمرة ثوران شديد كان غير معين في بدايته ، على أن الاختراع العظيم الثاني : السفينة الشراعية التي تحترق المحيطات ، كان يمتد نطاق خبرة الأوربيين بلا هوادة إلى آخر حدود المياه الملحة .

ولاشك أن أول ما أقيم وراء البحار من مستقرات الهولنديين ، النازلين حول الأطلسي الشمالي من الأوربيين لم يكن يهدف إلى الاستعمار ، بل التجارة والتعدين . وكان الإسبان أول من اقتحم الميدان ، فادعوا السيادة على كل هذا العالم الجديد المسمى أمريكا . ومع ذلك فسرعان ما طالب البرتغاليون بنصيبهم في الغنيمة . وعندئذ تولى البابا تقسيم القارة الجديدة بين هذين الشعبين السابقين إلى الارتباد والفتح ، فأعطى البرازيل للبرتغال ، كما أعطى لها كل شيء آخر يقع إلى الشرق من خط يمتد على بعد ٣٧٠ فرسخا غرب جزائر رأس فردي ، كما منح ما بقى بعد ذلك لإسبانيا (١٤٩٤) ، (وكان ذلك من أواخر الأعمال التي قامت بها روما كسيدة للعالم) وفي ذلك الحين نفسه كان البرتغاليون يدفعون بمعتك المغامرة وراء البحار نحو الجنوب والشرق . فلم تحل ١٤٩٧ حتى كان فاسكو دي جاما قد أبحر من لشبونه حول رأس الرجاء الصالح إلى زنجبار ثم انطلق إلى قاليقوط ببلاد الهند . وإذا بالسفن البرتغالية تمخر في ١٥١٥ عباب بحار جاوة وملقا ، وإذا بالبرتغاليين ينشئون المحطات التجارية ويحصنونها على سواحل المحيط الهندي . ولا تزال البرتغال تملك إلى اليوم موزمبيق وجوا وممتلكتين صغيرتين أخريين بالهند وماكاو بالصين وجزءا من جزيرة تيمور .

على أن الشعوب التي استبعدت من أمريكا بحكم التسوية الباباوية لم تعر حقول إسبانيا والبرتغال أدنى اهتمام ، وسرعان ما شرع الإنجليز والدانمركيون والسويديون من ورأهم والهولنديون يدعون الدعاوى في امتلاك أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية ، كما أن صاحب الجلالة ملك فرنسا الكاثوليكي الورع لم يعر تلك التسوية الباباوية من الاهتمام إلا بقدر ما عارها أي أمير بروتستانتي خارج على البابا . وعندئذ امتدت حروب أوروبا إلى مناطق هذه المدعيات والمحتلّسات .

وكان الإنجليز في النهاية أنجح من دخل حلبة هذا السباق على المحتلّسات وراء البحار منذ كان أهل الدانمرك والسويد متورطين إلى أقصى حد في شئون ألمانيا المضطربة المعقدة ، بحيث لم يستطيعوا مواصلة إرسال الحملات الفعالة إلى الخارج . ثم انتهى الأمر بأن تبددت قوة السويد في ميدان القتال على يد ملك فاش جذاب هو جوستاف أدولف « أسد الشمال » البروتستانتي . ومالبث الهولنديون أن ورثوا تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا ، كما أن الهولنديين بدورهم كانوا شديدي القرب من فرنسا وعدوانها بحيث لم يتمكنوا من الصمود في وجه البريطانيين . وكان أهم المتنافسين في بلاد الشرق الأقصى على تكوين الإمبراطوريات هم البريطانيون والهولنديون والفرنسيون كما أن أهمهم بأمريكا هم البريطانيون والفرنسيون والإسبان . ومن حسن حظ البريطانيين أن كانت لهم على أوروبا ميزة عظمى تحميهم منها وهي بحر المانش ، تلك التخوم المائية المسماة « الشعاع الفضي silver streak » . لذا كانوا أقل الناس اشتباكا في شئون الإمبراطورية اللاتينية وتقاليدها .

وقد دأبت فرنسا دائما على المبالغة في الاهتمام بالشئون الأوربية فظلت طوال القرن الثامن عشر بأجمعه تضيع ما يسعها أمامها من فرص التوسع في الشرق والغرب على السواء ، رغبة منها في التسلط على إسبانيا وإيطاليا وعلى تلك الفوضى المجسمة المسماة ألمانيا . ثم إن الخلافات الدينية والسياسية ببريطانيا إبان القرن السابع عشر كانت قد دفعت كثيرا من الإنجليز إلى البحث عن وطن دائم لهم بأمريكا . لذا توطدت بها أقدامهم وتزايد عددهم وتكاثر نسلهم ، الأمر الذي عاد على الإنجليز بميزة كبرى من التفوق العددي في أثناء الكفاح على أمريكا . ولم يلبث الفرنسيون أن خسروا في ١٧٥٦ ، ١٧٦٠ كندا التي سقطت بيد البريطانيين ورجلهم مستعمري أمريكا ، وانقضت بضع سنوات أخرى ، وإذا بالشركة التجارية البريطانية تجد نفسها مهيمنة تماما على جميع من ينزل بأرض

شبه الجزيرة الهندية من فرنسيين وهولنديين وبرتغاليين ، ذلك أن الإمبراطورية المغولية العظيمة التي شاهدها بابر وأكبر وخلفاؤها ، قد نخر فيها الآن سوس الانحلال الشديد ، كما أن قصة استيلاء شركة لندنية للتجارة عليها (هي شركة الهند البريطانية الشرقية) من أعجب ما حوى تاريخ الفتوح كله من حوادث .

ولم تكن شركة الهند الشرقية هذه يوم إنشائها في عهد الملكة إليزابيث لإشركة من مغامري البحار ، واضطرتهم الأحوال خطوة فخطوة إلى إنشاء الجيوش وتسليح السفن ، وعلى حين فجأة وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تقاليد أساسها الربح والمكاسب أنها لا تتعامل فقط في التوابل والأصباغ والشاي والجواهر ، بل وفي إيرادات الأمراء وممتلكاتهم بل حتى في مصائر الهند ومقدراتها ، جاءت لتشتري وتبيع وإذا بها تحصل على غنيمة هائلة ، ولم يكن ثمة أحد يستطيع تحدى إجراءاتها . أفعجيب إذن أن زعماءها وقادتها وموظفيها ، بل حتى كتبها وعامة جنودها ، كانوا يعودون إلى انجلترا محملين بالأسلاب ؟ !

ومن البديهي أن الرجال الذين يعيشون في مثل تلك الظروف ويجدون تحت رحمتهم قطرا عظيما ثريا كالهند ، يمكنهم أن يقرروا ماذا يستطيعون عمله وماذا لا يستطيعون وما يجوز وما لا يجوز ، فالهند في نظرهم أرض عجيبة ذات شمس عجيبة : كما أن سكانها النحاسيين كانوا يبدون شعباً مختلفاً عنهم يخرج تماماً عن مجال عطفهم ، هذا إلى أن معابدها الغامضة تدعو إلى معايير لسلوك غريبة وخيالية . وتحيرت عقول الإنجليز في بلادهم كلما عاد إليهم هؤلاء القادة أو الموظفون ليتراشقوا بالتهمة القذرة الشنيعة بين ابتزاز للأموال وقساوات تقشعر لها الأبدان . وأصدر البرلمان على كلايف قراراً باللوم ، ومالبث أن انتهر في ١٧٧٤ ، ثم حوكم وارن هاستينجس في ١٧٨٨ ، وهو مدير عظيم ثان لبلاد الهند ، ثم أخلى سبيله في ١٧٩٢ . حقا إنه لموقف غريب ليس له من سابقة في تاريخ العالم . ذلك أن البرلمان الإنجليزي ألغى نفسه يحكم من وراء شركة تجارية ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم كثيراً وأكثر سكانا من ممتلكات التاج البريطاني جميعاً . وكانت الكتلة العظمى من الشعب الإنجليزي تعد الهند بلداً قصيا لا يمت إلى الحقيقة بسبب ، ولا يكاد إنسان يستطيع بلوغه ، ينطلق إليه الشبان المغامرون الفقراء ليعودوا بعد سنوات حمة كهولا واسعى الثراء ذوى أخلاق منكسة عنيفة - وعسر على الإنجليز أن يتصوروا طريقة

عيش هؤلاء الملايين التي لاحصر لها من السمر السابحين في ضياء شمس بلاد الشرق .
ذلك أن أخيلتهم أبت عليهم إقامة تلك الصورة . وظلت الهند بناء على ذلك قطرا
« رومانسيا » لا يمت إلى الواقع بأذى سبب ، لذا صار من المستحيل على الإنجليز أن
يقوموا بأي إشراف فعال أو هيمنة مشمرة على تصرفات الشركة .

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا الغربية تتقاتل على هذه الإمبراطوريات
الخيالية وراء البحار مشتبكة بعضها مع بعض على صفحة كل محيط في هذا العالم ،
حدثت بآسيا غزوتان بريتان عظيمتان فإن الصين ألقت عن كواهلها نير المغول في
١٣٦٠ ، وازدهرت الحياة فيها بظل أسرة منج القومية العظيمة حتى ١٦٤٤ ، ثم عاد
شعب المانشو ، وهو شعب مغولي آخر ، وظل سيدا على بلاد الصين حتى ١٩١٢ . وفي
نفس الحين كانت روسيا تتقدم شرقا وتزداد عظمة بين دول العالم .

ولاشك أن نهوض تلك القوة العظيمة المركزية في العالم القديم ، التي لاهى إلى
الشرق تماما ولاهى إلى الغرب تماما له أهمية قصوى هائلة على مصير الإنسانية ، ويعود
الفضل في توسعها ذاك إلى حد كبير إلى ظهور شعب مسيحي بمنطقة السهوب بها ، هو
شعب القوزاق ، الذي أقام من نفسه حاجزا بين الإقطاعيين ببولندة والمجر في الغرب
وبين التتار شرقا ، فالقوزاق هم الشعب الضارى القاطن شرق أوروبا ، وهم يشبهون
من وجوه كثيرة غرب الولايات المتحدة الضارى في منتصف القرن التاسع عشر ، فكل
من أحرق عليه الروسية حتى ضاقت به ذرعا ، سواء أكان من المجرمين أم من الأبرياء
المضطهدين . وفيهم الموالى الثائرون والطوائف الدينية واللصوص المتشردون والقتلة ،
كانوا يلتمسون سهوب الجنوب ملجأ ، وهناك يبدأون حياتهم بدءا جديدا . ويقاثلون من
أجل الحياة والحرية كلا من البولنديين والروسيين والتتار على السواء . ولا يخالجننا
أدنى شك في أن خليط القوزاق كان يساهم فيه لاجئون من التتار شرقا .

ثم أخذ هذا الشعب النازل على التخوم يدخل رويدا رويدا في خدمة القيصر
الروسي العسكرية . على نفس الشاكلة التي تم بها للحكومة البريطانية تحويل عشائر
مرتفعات اسكتلندة إلى جند وفرق ، وعند ذلك منحتهم الحكومة أرضا جديدة بآسيا
حيث أصبحوا سلاحا حادا لها ضد قوة المغول الرحل الداوية المتناقصة ، فحلوا أولا ببلاد
التركستان ثم توغلوا عبر سيبيريا حتى نهر عامور .

ومن العسير تفسير الاضمحلال الذى طرأ على قوة المغول إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . فلم تنقض على أيام چانكيز وتيمورلنك قرنان أو ثلاثة حتى انحدرت آسيا الوسطى من عصرها الذهبى الذى سادت فيه العالم إلى الانحلال والوهن السياسى البالغ . ولعل عوامل من أمثال تغيرات المناخ أو الأوبئة التى لم يسجلها التاريخ أو إصابات من نوع الملاريا أصابت الناس ، قد اجتمعت كلها فأفضت إلى ذلك التدهور الذى ألم بشعوب آسيا الوسطى - والذى يحتمل أن يكون مؤقتا ليس إلا ، إذا قيس بمقياس التاريخ العالمى العام . ويعتقد بعض الثقات أن انتقال التعاليم البوذية إليهم فى بلاد الصين كان بدوره عاملا مهدئا لنفوسهم . ومهما تكن الحال ، فإن التتار المغوليين والشعوب التركية لم يعد لهم فى القرن السادس عشر أى اتجاه إلى الضغط نحو الخارج ، بل كانوا على الضد من ذلك يغزون فى بلادهم ويلزمون بالخضوع أو يدفعون إلى الوراء من جانب كل من روسيا المسيحية فى الغرب والصين فى الشرق .

وانتضى القرن السادس عشر بأكماله والقوزاق ينتشرون شرقا من روسيا الأوربية ويستقرون حيثما وجدوا ما يناسبهم من ظروف زراعية . وكانت حلقات من القلاع والمواقع الحصينة تفصل هؤلاء المستقرين عن جيرانهم كأنها التخوم وتتحرك دائما إلى الأمام وتحمى هذه المستقرات فى الجنوب ، حيث لم يبرح التركمان أقوياء ناشطين ؛ على أن روسيا لم يكن لها مع ذلك أى حدود إلى الشمال الشرقى أبدا حتى بلغت المحيط الهادى نفسه .

الفصل الرابع والخمسون

حرب استقلال أمريكا

هكذا شهد الربع الثالث من القرن الثامن عشر قارة أوربا المنقسمة على نفسها وهي في حالة عجيبة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، كما شهدتها محرومة من كل فكرة سياسية أو دينية جامعة تدعو إلى الوحدة والتآلف ، ولكنها مع ذلك قادرة ولو بصورة مخجلة يسودها النزاع والخلاف ، على التسلط على جميع شواطئ بلاد العالم بفضل الاستشارة الهائلة التي أحدثتها في أخيلة الناس ظهور الكتاب المطبوع والخريطة المطبوعة ، والفرص التي خلقتها السفينة القادرة على عبور المحيط . لقد أصاب أوربا ضرب من حمى المغامرة المفككة التي ليس لها خطة مرسومة ، مغامرة ترجع إلى مزايا مؤقتة وعارضة ، أو تكاد ، هبطت عليهم دون سائر البشر . وبفضل هذه المزايا التي اكتسبوها ، فإن قارة أمريكا الجديدة هذه والحالية إلى حد كبير من السكان امتلأت بصفة رئيسية بأقوام من غرب أوربا . كما حجزت جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلندا لتسكن وطناً معداً لسكان من الأوربيين .

ولم يكن مبعث كولبس إلى أمريكا أو فاسكودى جاما إلى الهند إلا الدافع الأول الدائم للبحارة جميعاً منذ بدء الخليقة ألا وهو التجارة . ولكن على حين حدث في الشرق الآهل آنفا بالسكان والحافل بالمنتجات ، أن الباعث التجارى ظل غالباً متسلطاً وظلت مستقرات الأوربيين به تجارية بحتة ، وكان سكانها (الأوربيون) يرجون دائماً أن يعودوا إلى أوطانهم لإنفاق أموالهم ، فإن الأوربيين في أمريكا ، ألفوا أنفسهم أمام باعث جديد يحملهم على التثبيت بتلك البلاد بحثاً عن الذهب والفضة ، وذلك لأنهم كانوا يتعاملون هناك مع مجتمعات مستوى نشاطها الإنتاجى أخفض كثيراً جداً . ولقد ذهب الأوربيون إلى أمريكا لا بوصفهم تجاراً مسلحين ، بل كباحثين عن المعادن النفيسة ومعدنين ومنقبين عن المنتجات الطبيعية ، ثم عادوا فتحولوا بعد ذلك إلى الزراعة ، وكانوا في المناطق الشمالية يجمعون الفراء ، ثم استلزمت المناجم والمزارع قيام المستقرات (المستوطنات) . فكانت هؤلا الناس إلى إقامة الأوطان الدائمة لأنفسهم

وراء البحار . ثم ترمى الأمر أن أصبح الأوربيون يعبرون البحار بهدف قاطع صريح هو أن يجدوا لأنفسهم أوطاناً جديدة يسكنونها إلى الأبد ، كما حدث في بعض الحالات عند ما هاجرت طائفة من البيوريتان الإنجليز إلى نيو إنجلاند بأمريكا في أوائل القرن السابع عشر فراراً من الاضطهاد الديني ، وكما حدث في القرن الثامن عشر عند ما أرسل أوجليثورب أقواماً استخلصهم من سجون المدينين بإنجلترا إلى ولاية جورجيا ، وكما حدث في نهاية القرن الثامن عشر عند ما أرسل الهولنديون الأيتام إلى رأس الرجاء الصالح . وجاء القرن التاسع عشر وظهرت السفينة البخارية ، فارتفع سيل النازحين الأوربيين إلى أراضي أمريكا وأستراليا الجديدة الخاوية . ولم يزل كذلك بضع عشرات من السنين حتى صار كأنما هو هجرة عظيمة .

وهكذا تضخمت وراء البحار جماعات دائمة من السكان الأوربيين ، وانتقلت الثقافة الأوربية إلى مناطق أوسع كثيراً من تلك التي نشأت وتطورت بها . إن هذه المجتمعات الجديدة التي أحضرت معها مدنية مهيأة من قبل إلى تلك البلاد الجديدة ، تضخمت في الواقع دون أن يدبر خطة تضخمها إنسان أو حتى يدرك وجودها ، ولم تتنبأ السياسة الأوربية بظهورها ، لذا لم تعد أية خطة لمواجهةها أو فكرة لمعاملتها . فظل ساسة أوربا ووزراؤها يعدونها مؤسسات عسكرية في جوهر أمرها ، وموارد إيراد للدولة أو « ممتلكات » — أو « بلادا تدين بالتبعية » ، وذلك بعد أن تأصل في سكانها بزمان طويل إحساسهم الحاد بانفصال حياتهم الاجتماعية عن كل ما عداها . ثم إنهم ظلوا يعاملونهم كشعب ذليل عاجز خاضع للدولة الأم بعد أن انتشر السكان بزمان مديد في داخل البلاد وأصبحوا بعيدين عن طائفة أي عمليات تأديبية فعالة توجه إليهم من البحر .

ذلك أنه يجب ألا يغرب عن بالنا ، أن السفينة الشراعية الماخرة المحيط كانت همزة الوصل بين أجزاء هذه الإمبراطوريات الممتدة وراء البحار إلى أن تقدم الزمن تماماً بالقرن التاسع عشر . أما على البر فإن أسرع وسيلة للمواصلات لم تبحر هي الحصان ، كما لم يزل تماسك النظم السياسية ووحدها في البر محدوداً بما تفرضه عليه مواصلات الحصان من قيود .

وما إن انتهى الربع الثالث من القرن الثامن عشر حتى كان الثلثان الشماليان من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطاني وكانت فرنسا قد تخلت عن أمريكا . وفيما عدا

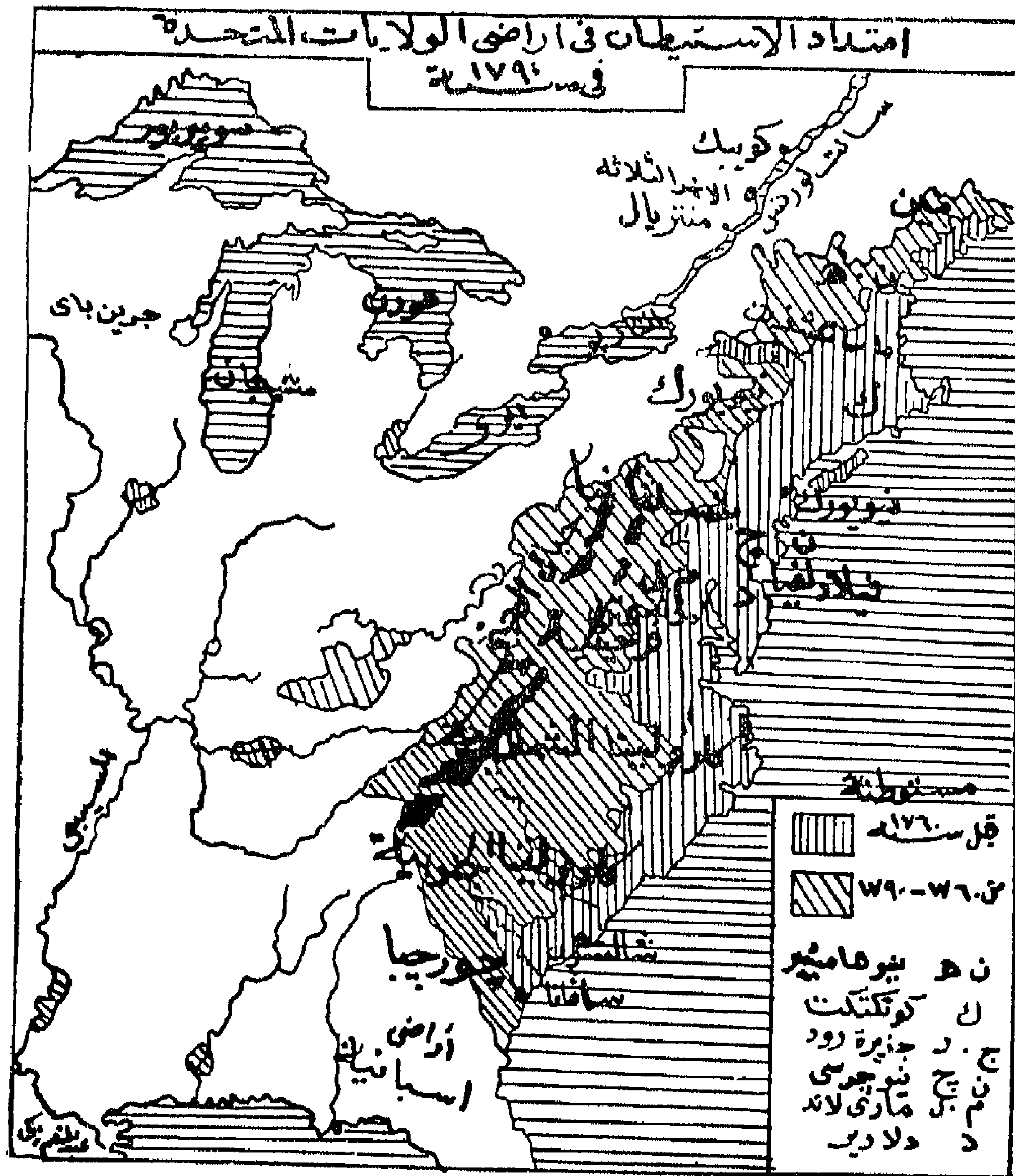
البرازيل التي كانت تابعة للبرتغال ، وجزيرة صغيرة أو جزيرتين ومنطقة ما أو منطقتين في أيدي الفرنسيين أو البريطانيين أو الهولنديين أو الدانمركيين - فإن منطقة فلوريدا ولوزيانا وكاليفورنيا وجميع ما تبقى من أمريكا إلى الجنوب كان تابعا لإسبانيا . وكان سكان المستعمرات البريطانية الواقعة إلى الجنوب من نهر المين وبحيرة أونتاريو أول من أظهر عدم كفاية السفينة الشراعية لربط مجتمعات وراء البحار بعضها مع بعض في نظام سياسي واحد .

كانت هذه المستعمرات البريطانية متباينة في منشئها وصفاتها . فقد قامت بها المستعمرات الفرنسية والسويدية والهولندية فضلا عن البريطانية ، وكان سكان منطقة ماري لاند من السكاتوليك وسكان نيو إنجلاند من متطرفة البروتستانت ، وبينما راح أهل نيو إنجلاند يزرعون أراضيهم ويعيبون امتلاك الرقيق ، فإن البريطانيين من سكان فرجينيا وما وراءها جنوبا كانوا زراعا يستخدمون عددا متضخما من العبيد الزنوج الجلوبين من الخارج . فمثل تلك الولايات لا تقوم بينها وحدة طبيعية مشتركة . وربما كان معنى الانتقال من إحداها إلى الأخرى دفع نفقات رحلة غالية لا تكاد متاعبها تقل عن مشاق عبور الأطلنطي .

غير أن الاتحاد الذي أنكرته على تلك الولايات أصولها المتباينة وظروفها الطبيعية وحالت دون قيامه بين هؤلاء الأمريكيين البريطانيين لم يلبث أن فرضته عليهم فرضاً أنانية الحكومة البريطانية بلندن وغباؤها . ذلك أنهم كانت تفرض عليهم الضرائب دون أن يكون لهم أى صوت ولا رأى في إنفاق تلك الضرائب ، وكان تجارتهم يضعى بها من أجل المصالح البريطانية ، وواصلت الحكومة البريطانية القيام بتجارة الرقيق لأنها تدر الأرباح الوفيرة ، على الرغم من معارضة سكان فرجينيا الذين خشوا أن يغرقهم تيار الشعب البربرى الأسود الذى لا يفتأ يتزايد عدده ، وإن رغب هؤلاء الفرجينيون في الوقت ذاته رغبة أكيدة في امتلاك الرقيق واستخدامهم .

وفي ذلك الوقت نفسه أخذت بريطانيا تتجه صوب نوع جديد من الحكم الملكى يتصف بالقوة والشدة ، وأفضى عناد الملك جورج الثالث (١٧٦٠ - ١٨٢٠) إلى دفع المستعمرات دفعاً إلى القتال مع الحكومة البريطانية .

ومما عجل باندلاع لهيب الصراع ذلك التشريع الذى أثر بالتفضيل مصالح شركة الهند الشرقية بلندن على حساب أرباب السفن الأمريكيين . لذا هاجمت ثلة من الرجال



خريطة رقم (١٦)

تسكرت في زى الهنود الحمر في ١٧٧٣ ثلاث سفن بميناء بوسطن وألقت في الماء بما كانت تحمل من الشاي الذي استورد في ظل القانون الجديد . ولم يبدأ القتال إلا عام ١٧٧٥ عند ما حاولت الحكومة البريطانية أن تعتقل اثنين من زعماء الأمريكيين بمدينة لـكنجستون قرب بوسطن . وأطلق البريطانيون أول طلقات الحرب بمدينة لـكنجستون وتلاحم الجمعان في أول قتال بينهما قرب كونكورد .

هكذا بدأت حرب الاستقلال الأمريكية . وإن ظل المستعمرون الأمريكيون أكثر من سنة كاملة يقفون موقف الإحجام البالغ عن القتال وعدم الرغبة في قطع علاقتهم ببلادهم الأصلية . فلم يصدر مجلس كنجرس Congress ونواب الولايات الشائرة وثيقة « إعلان الاستقلال » إلا بعد منتصف عام ١٧٧٦ ، وعين جورج واشنطن قائدا عاما للجيش الأمريكية ، وكان قد تعلم فنون الحرب في أثناء السككاح الذي نشب مع الفرنسيين شأنه في ذلك شأن كثير من المستوطنين الأمريكيين في ذلك الزمان . وفي عام ١ٷ٧٧ هزم عند مزرعة فريمان قائدا بريطانيا ، هو الجنرال بورجوين واضطره إلى التسليم عند ساراتوجا في أثناء محاولته التقدم من كندا إلى نيويورك . وفي نفس تلك السنة أعلن الفرنسيون والإسبان الحرب على بريطانيا العظمى . فأدى ذلك إلى تعطيل مواصلاتها البحرية تعطيلاً بالغا . ثم طرق جيش بريطاني آخر تحت إمرة الجنرال كورنواليس بشبه جزيرة يوركتاون بفرجينيا واضطر بدوره إلى التسليم دون شرط ١٧٨١ . ثم عقد الصلح بباريس في ١٧٨٣ وبمقتضاه أصبحت المستعمرات الثلاث عشرة الممتدة من المين إلى فرجينيا اتحادا مكوناً من ولايات مستقلة ذات سيادة . وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية في عالم الوجود . وظلت كندا موالية للراية البريطانية .

ظلت هذه الولايات أربع سنوات وليس لها إلا حكومة عامة ضعيفة السلطان تتولى الشؤون بمقتضى بعض مواد لدستور ينص على قيام اتحاد مفكك بينها ، ولاحقاً في أثناء تلك المدة أنه لا مفر لها من الانقسام إلى مجتمعات مستقلة منفصلة بعضها عن بعض . ولكن أمرين أديا إلى إرجاء ذلك الانفصال وهما عدااء البريطانيين لهم وإظهار الفرنسيين شيئاً من الرغبة في الاعتداء عليهم مما جسم أمام نواظرهم الخطر القريب المترتب على الانقسام والفرقة ، وتنبه القوم فوضعوا في ١٧٨٨ دستوراً اعتمدوه للفور ، فقامت بمقتضاه حكومة اتحادية أشد قوة لها رئيس يتمتع بسلطات ضخمة جدا ، وما لبثت حرب ثانية شبت مع البريطانيين في ١٨١٢ ، أن قضت على كل ضعف في الشعور بالوحدة القومية ومع ذلك

فإن رقعة الولايات كانت من الاتساع ، كما أن مصالحها كانت من التفرق والتضارب بحيث إنها لو استمرت تعتمد على وسيلة المواصلات الوحيدة الموجودة آنذاك [وهى الحصان] ، فإن تفرق الاتحاد إلى ولايات منفصلة على غرار الدول الأوروبية وفى مثل اتساعها كان أمرا لا مفر منه بمضى الأيام ، إذ لم يكن لحضور الجلسات بواشنطن من معنى سوى القيام برحلة شاقة طويلة خطيرة لكل عضو بمجلس الشيوخ أو النواب يقيم بالمناطق القاصية ، فضلا عن أن العوائق التى كانت تحول دون نشر تعليم موحد وأدب موحد وفكر موحد كانت مما لا يكاد يستطيع تذليله ، ومع ذلك فقد أخذت تنشأ آنذاك فى العالم قوى قدر لها أن توقف عملية التفرق وقفاً تاماً ، إذ سرعان ما ظهر الزورق البحارى النهري ثم السكة الحديد والتلغراف ، فأخذت الولايات المتحدة من التمزق ، وضمت أهلها المشتتين فى نسيج واحد هو أول الأمم العصرية العظيمة .

وما هى إلا اثنتان وعشرون سنة حتى حذت المستعمرات الإسبانية بأمريكا حذو الثلاث عشرة مستعمرة وقطعت كل علاقة بينها وبين أوروبا . على أنها لم تستطع أن تضم شملها فى اتحاد يجمعها نظراً لشدة توزعها فى أرجاء القارة ، ولانفصالها بعضها عن بعض بسلاسل جبلية عظيمة وصحارى وغابات وإمبراطورية البرازيل البرتغالية . لذا أصبحت تلك المستعمرات مجموعة من الدويلات الجمهورية ، وصارت شديدة الميل فى البداية لإشعال نار الحروب فيما بينها والثورات فى داخلها .

أما البرازيل فإنها سلكت طريقاً آخر إلى ذلك الانفصال الذى لم يكن منه مفر . إذ حدث فى ١٨٠٧ أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون احتلت بلاد البرتغال الأصلية ، وفرت الأسرة المالكة إلى البرازيل ، ومنذ تلك اللحظة إلى يوم أن افترق البلدان ، أمست البرتغال هى التابعة تقريباً للبرازيل وليس العكس . ثم أعلنت البرازيل استقلالها فى ١٨٢٢ كإمبراطورية مستقلة تحت حكم بيدرو الأول ، أحد أبناء ملك البرتغال . ولكن العالم الجديد لم يرمق الملكية مطلقاً بعين الرضا . لذا أرسل إمبراطور البرازيل بهدوء إلى أوروبا على ظهر إحدى السفن فى ١٨٨٩ ، وتساوت الولايات المتحدة البرازيلية بسائر أمريكا الجمهورية .

الفصل الخامس والخمسون

الثورة الفرنسية وعودة الملكية في فرنسا

لم تسكد بريطانيا تفقد المستعمرات الثلاث عشرة بأمريكا حق قبض الله لحركة ثورية عنيفة سياسية واجتماعية قامت في قلب الملكية العظمى نفسها ، أن تذكر أوروبا بصورة أجلى وأوضح كثيرا ، بأن كل ما بالعالم من نظم سياسية شيء وفقى تماما لا دوام له .

سبق أن ذكرنا أن الملكية الفرنسية كانت أنجح الملكيات المستبدة بأوروبا ، وذكرنا أنها كانت مشار حسد عدد جم من البلاطات المتنافسة أو الصغرى ، كما كانت مثالها المحتذى . ولكنها لم تزدهر إلا على أساس من الظلم والطغيان أفضى إلى ما أصابها من انهيار مسرحى هائل . أجل إنها اتصفت بالذكاء والشجاعة والعدوان . ولكنها فرطت في حياة من بها من العامة وكيانهم . وكان رجال الدين والنبلاء بمأمن من الضرائب بسبب القوانين التي تعفيهم والتي تلقى على عواتق الطبقتين الوسطى والدنيا ، وكانت الضرائب تسحق الفلاحين سحقا ، وكان النبلاء يتسلطون على الطبقات الوسطى ويستذلونها .

ولم تلبث تلك الملكية العظمى أن ألغت نفسها مفلسة خاوية الوفاض في ١٧٨٧ ، وإن اضطرت إلى استدعاء ممثلى الطبقات المختلفة بالملكة لتشاورهم في أمر مشكلات نقص الإيرادات وشدة زيادة المصروفات ، واجتمع مجلس طبقات الأمة بفرساي في ١٧٨٩ ، وهو مجلس من النبلاء ورجال الدين والعامة يمثل إلى حد ما الصورة الأولى للبرلمان الإنجليزي ولم يعقد ذلك المجلس منذ ١٦١٠ ، وهى فترة من الزمن كانت تحكم فرنسا في أثنائها ملكية مطلقة . فلما انعقد آنذاك أصبح للناس وسيلة تتحدث عن تدميرهم القوى المديد الأجل وسرعان ما نشبت الخلافات بين الطبقات الثلاث ، بسبب إصرار الطبقة الثالثة وهى العامة على الهيمنة على المجلس . وكانت للعامة الغلبة في هذه المنازعات ، فتحول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية واضحة العزم على إلزام التاج بالنظام ، مثلما ألزم

البرلمان البريطاني التاج البريطاني حدود النظام ، وتهيأ الملك لويس السادس عشر للكفاح واستحضر الجند من الأقاليم ، فثارت عند ذلك باريس وفرنسا .

كان انهيار الملكية المستبدة سريعاً جداً . فهدم سكان باريس سجن الباستيل الجهم القبيح الصورة ، وسرعان ما انتشرت الفتن بكل أرجاء فرنسا . وامتدت أيدي الفلاحين في الشرق والشمال الغربي إلى كثير من قصور النبلاء فأحرقوها ، ومزقت براءات ألقابهم بكل عناية ، كما قتل أصحابها وطردها وشر طرده ، فلم ينقض شهر واحد حتى انهار نظام الأرستقراطية القديم النادر ، واضطر إلى الفرار إلى خارج البلاد كثير من كبار الأمراء ومن رجال البلاط من حزب الملك . وأقيمت بباريس ومعظم المدن الكبيرة الأخرى حكومة مؤقتة للمدينة . وأنشأت حكومات البلديات هذه قوة مسلحة جديدة هي الحرس الوطني ، وهي قوة مسلحة أنشئت أولاً وقبل كل شيء لمقاومة قوات التاج ، ونظرت الجمعية الوطنية حولها ، وإذا هي تستدعي لإيجاد نظام سياسي واجتماعي جديد لعهد جديد .

كان القيام بهذا الأمر مهمة شاقة أرهقت قوة تلك الجمعية ، وهكذا تخلت فرنسا من أهم ما كان يهبطها من مظالم الحكم المطلق المستبد ، وألغت الاعفاء من الضرائب والرق (موالى الأرض) وألقاب الأرستقراطية وامتيازاتها ، وحاولت أن تقيم في باريس صرح ملكية دستورية ، فغادر الملك فرساي وأبتهتها ، وعاش عيشة متواضعة بقصر التويلري بباريس .

ومرت سنتان زعم الناس خلالها أن الجمعية الوطنية ستستمر في كفاحها حتى تنشئ حكومة قوية ذات طابع عصري ، فأنتجت أشياء كثيرة صائبة دامت إلى يومنا هذا وإن كان كثير من إنتاجها مجارياً لم يكن بد من نقضه .

على أن كثيراً مما أنتجت لم يكن له أى أثر ، فراحت الجمعية تصفى قانون العقوبات وتنقيه من الشوائب ، وألغت التعذيب والحبس التعسفي والاضطهاد بسبب الزندقة . وحلت ثمانون مديرية محل ولايات فرنسا القديمة كنورماندى وبرغندي وأمثالهما . وفتح باب الترقية إلى أعلى رتب الجيش لكل طبقات الأمة ، وأنشئ نظام للمحاكم ممتاز وبسيط ، وإن أفسد قيمته كثيراً جعل تعيين القاضى فيها بالانتخاب العام إلى مدة قصيرة من الزمن . فكأن الجمهور قد أصبح بذلك ضرباً من محكمة استئناف نهائية عليها .

كإصدار القضاة كأعضاء الجمعية الوطنية مضطرين إلى أن يتعلموا الجمهور ويسعوا إلى مرضاته واستولت الدولة على ممتلكات الكنيسة الضخمة وتولت إدارتها بنفسها ، وحلت جميع المؤسسات الدينية التي تعمل في غير التعليم أو البر والإحسان ، وأصبح الشعب هو الذي يتحمل مرتبات رجال الدين ولم يكن في ذلك مضرة بالطبقة الدنيا من رجال الدين الفرنسيين ، الذين كثيرا ما صغرت مرتباتهم بصورة فاضحة بالنسبة لكبار رجال الدين الأثرياء . وزيادة على ذلك أصبح تعيين القساوسة والأساقفة بالانتخاب ، وكان ذلك ضربة عنيفة أصابت في الصميم فكرة الكنيسة الكاثوليكية التي تتجه فيها السلطات المركزة في يد البابا والكرادلة من أعلى إلى أسفل . والواقع الذي لا شك فيه أن الجمعية الوطنية شاءت أن تحول بضربة واحدة الكنيسة الفرنسية إلى طريق البروتستنتية من حيث التنظيم إن لم يكن من حيث المذهب . ونشبت المنازعات في كل مكان بين قساوسة الدولة الذين أنشأتهم الجمعية الوطنية وبين رجال الدين الخارجين عليها (الذين أبوا أن يقسموا بيمين الولاء) والذين ظلوا على ولائهم لروما .

وفي ١٧٩١ انتهت على حين بغتة تجربة الملكية الدستورية بفرنسا بما فعله الملك والمملكة حين تآمرا مع أصدقائهما الأرستقراطيين والملكيين في الخارج . وتجمعت الجيوش الأجنبية على الحدود الشرقية ، وانسل الملك والمملكة وأطفالهما في إحدى ليالي شهر يونيو من قصر التويلري فارين للانضمام إلى الأجانب والمنفيين الأرستقراطيين . فقبض عليهم في فارن وأعيدوا إلى باريس ؛ وعندئذ اشتعلت فرنسا كلها بلهب الثورة القومية الجمهورية ، وأعلنت الجمهورية على الفور ، واندلع لهيب الحرب بين الفرنسيين والنمسا وبروسيا ، وحوكم الملك وقطعت رأسه (يناير ١٧٩٣) بتهمة خيانة شعبه ، على نفس الدساق الذي استنته إنجلتره من قبل .

هنا بدأ طور غريب في التاريخ الفرنسي . إذ تأجج لهيب عظيم من الحماسة لفرنسا والجمهورية . وأحس الناس أن لا بد لهم من القضاء على كل تسامح في الداخل وكل صلح مع الأعداء في الخارج ، فكان لا بد في الداخل من استئصال شأفة الملكييين وكل شكل من أشكال عدم الولاء ، وكان لا بد لفرنسا من أن تحمى في الخارج كل حركة ثورية وتقدم لها العون ، ورأت فرنسا أن لا بد لأوروبا بأكملها (بل العالم كله) أن تعتنق النظام الجمهوري ، وتدفق شباب فرنسا إلى جيوش الجمهورية ، وانتشر في طول البلاد وعرضها نشيد جديد عجيب هو المارسلين الذي لا يزال يلهم الدماء في العروق كما تلهمها حميا الكأس . انهارت الجيوش الأجنبية

ورجعت القهقري أمام ذلك النشيد الحماسي والطواير الفرنسية الوثابة من حملة السونكي ومدافعهم التي تديرها حماستهم المتوندة ؛ فلم تكد ١٧٩٢ تقارب نهايتها حتى صارت الجنود الفرنسية بمواضع أبعد كثيراً من كل ما بلغته فتوح لويس الرابع عشر ؛ إذ كانوا يقفون في كل مكان على أرض أجنبية غير فرنسية . فهم يحتلون مدينة بروكسل ، وهم محتاحون مملكة سافوي ، وهم يتقدمون فيشنون الغارة على ماينس Mayence ، وهم قد استولوا على إقليم نهر الشلت من هولندية . وعند ذلك ارتكبت الحكومة الفرنسية حماقة لا تغتفر ، إذ أحرقها طرد ممثلها من إنجلترا عند قتل لويس ، فأعلنت الحرب على إنجلترا . وتلك حماقة لم يكن لها من ضرورة ، وذلك لأن الثورة التي منحت فرنسا جيشاً من المشاة شديد الحماس ومدفعية نابذة مبرأة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من الظروف المعوقة للتقدم ، قد دمرت نظام البحرية الفرنسية ، وكان للانجليز التفوق المطلق في البحر . وإزاء ذلك التحدى والاستهزاز اتحدت كلمة إنجلترا بأكملها ضد فرنسا بعد أن ظهرت بريطانيا حركة ضخمة جداً تدعو إلى التسامح مع الثورة والعطف عليها .

ولا يتسع المقام لذكر تفاصيل القتال الذي نشب بين فرنسا في السنوات القليلة التالية وبين تحالف تكون ضدها من الدول الأوربية وبحسبنا أنها طردت النمساويين إلى الأبد من بلجيكا ، وأنها حولت هولندية إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندي وقد تجمد من حوله الماء في نهر تكسل Texel ، لحفنة من الحياطة الفرنسيين دون أن يطلق قذيفة واحدة من مدافعه . وصدت هجمات الفرنسيين على إيطاليا ردحاً من الزمان ، فلم يتهياً لها تقدم إلا في ١٧٩٦ عند ما عين قائد جديد هو الجنرال نابليون بونابرت لقيادة الجيوش الجمهورية الجائعة المهلهلة الشياب إلى ميادين النصر بإيطاليا ، فاخترق بيدمونت إلى مانتوا وفيرونا . يقول س . ف . أتكينسون (١) :

« إن أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعة حركاتهم . وذلك أن الواقع أن هذه الجيوش المرتجلة ارتجالاً لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يعوق تقدمها . إذ لم يكن لديها خيام لقلة ما لدى الجمهورية من نقود ، ولو وجدت لما كان من الممكن

(١) في مقالته التي نشرها بدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان :

« French Revolutionary Wars » .

(٢٠ — تاريخ العالم)

نقلها لاحتياجها عندئذ إلى عدد هائل من العربات ، التي ربما لزمّت كما كانت في الوقت نفسه غير ضرورية ، وذلك لأن المتاعب التي كانت تدعو إلى فرار الجنود بالجملة من الجندية في الجيوش القديمة المحترفة كان يتحملها بالسرور التام رجال فرنسا في عام ١٧٩٣ — ١٧٩٤ . ولم يكن معقولا أن يستطاع نقل مؤن لجيوش لم يسمع الناس بمثل حجمها حتى ذلك الحين ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون أن يعيشوا على حساب البلاد التي يحلون بها . وهكذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة وتطور كامل للقوة القومية وعسكرة الجنود بلا خيام في العراء ، وعيشهم على حساب الأهالي واعتمادهم على القوة بدلا من المداورات الحذرة والجيوش الصغيرة المحترفة والخيام والأطعمة والجرايات الكاملة والتلاعب والخداع . فالجيوش الأولى تمثل الروح التي تستلزم حسم الأمر فوراً ، والجيوش الثانية تمثل روح المخاطرة بالقليل في سبيل القليل . . . »

وبينما كانت هذه الجيوش الرثة الثياب من المتحمسين تنشد المارسييليز وتقاتل في سبيل فرنسا La France دون أن يتضح لأذهانها تماما ما إذا كانت تنهب البلاد التي تدفقت فيها أو تحررها ، كانت الحماسة الجمهورية بباريس تتلاشى بصورة مزرية بمجدها وكرامتها . ذلك أن الثورة قد أصبحت آنذاك تحت سلطان زعيم شديد التعصب ، هو روبسبير . ومن العسير علينا أن نقضى في هذا الرجل برأى ؛ فإنه كان رجلا ضعيف البنية جباناً بفطرته مغترّاً من هوا بنفسه . ولكنه أوتى ألزم الصفات لبلوغ القوة ، وهي الإيمان . فراح يعمل على إنقاذ الجمهورية على الصورة التي خيلها إليه تصوره ، كما أنه كان يتوهم أنه لا منقذ لها إلا شخصه هو . ومن ثم أصبحت عقيدته الراسخة أن بقاءه في الحكم هو السبيل لإنقاذ الجمهورية . وخيل إليه أن الروح الحية للجمهورية قد نشأت عن تذبذب الملكيين وإعدام الملك ، وتصادف أن قامت بالبلاد بعض الفتن ، شبت إحداها في الغرب بمنطقة لافنديه La Vendée ، حيث ثار الأهالي بزعامه بعض النبلاء ورجال الدين احتجاجا على أخذهم جنوداً في الجيش ، وعلى حرمان رجال الدين المستعسكين بعقيدة السلف الصالح من أملاكهم ، وهبت ثورة أخرى في الجنوب حيث تمردت ليون ومرسيليا ، وسمح أنصار الملكية في طولون لحامية إنجليزية وإسبانية بالنزول برآ . فلم يكن لدى روبسبير فيما يبدو من رد فعل على ذلك إلا مواصلة إعدام أنصار الملكية .

وابتدأت محكمة الثورة عملها ، وابتدأ بذلك سيل منهم من الذبح والتقتيل ، وجاء اختراع المقصلة (الجيلوتين) في أنسب الأوقات لهذه النزعة الدموية . فأعدمت الملكة

بالمقصلة ، وكذلك أعدم معظم خصوم روبسبير بالمقصلة ، وأعدم بالمقصلة أيضاً كل كافر أنكر وجود الكائن الأعلى « الذى اتخذه روبسبير رباً » ؛ وانقضت الأيام يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع ، وهذه الآلة الجهنمية الجديدة تحز الرؤوس بعد الرؤوس وتقول هل من مزيد ! ولا إخال إلا أن حكم روبسبير كان يعيش على الدم ؛ ولا يزال يطالب المزيد منه فالمزيد ، كمدمن الأفيون حين يطلب منه المزيد فالمزيد .

وأخيراً جاء دور روبسبير نفسه فعزل وأعدم بالمقصلة نفسها فى صيف ١٧٩٤ ، وخلفته حكومة إدارة مكونة من خمسة رجال واصلت الحرب الدفاعية فى الخارج وجمعت كلمة فرنسا فى الداخل مدة خمس سنوات . وكان حكمهم أشبه الأشياء بفواصل عجيب وسط أحداث هذا التاريخ الحافل بالتغيرات العنيفة . فتناولوا الأمور كما وجدوها . وفى عهدهم دفعت حماية الدعاية للثورة الجيوش الفرنسية إلى هولنده وبلجيكا وسويسرا وجنوب ألمانيا وشمال إيطاليا . فكان الملوك يطردون فى كل مكان وتقام فى مكانهم الجمهوريات . ولكن حماية الدعاية التى كانت تشعلها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة ، ابتغاء تخفيف الضائقة المالية التى نزلت بالحكومة الفرنسية . وما لبثت حروبهم أن انحطت رويداً رويداً عن مرتبة الحرب المقدسة من أجل الحرية ، وشابهت أكثر فأكثر الحروب العدوانية المعروفة عن العهود القديمة . وكانت تقاليد السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا تريد التخلص منه من مظاهر الملكية العظمى . فأنت ترى تلك التقاليد فى أيام حكومة الإدارة قوية عاتية كأنما لم تكن هناك أية ثورة !

ومن سوء حظ فرنسا والعالم كله ظهور رجل تركزت فيه إلى أقصى حد أنانية الفرنسيين القومية هذه . فلم يكن منه إلا أن وهب تلك الدولة عشر سنوات من المجد ثم ختمها بمذلة الهزيمة النهائية . ولم يكن ذلك الرجل سوى نابليون بونابرت عينه الذى قاد جيوش حكومة الإدارة إلى ساحات النصر بإيطاليا .

ظل هذا الرجل طيلة السنوات الخمس لحكومة الإدارة يعمل لحسابه الخاص ويدبر الخطط لرفع شأن نفسه . وأخذ يرقى بالتدريج إلى منزلة الصدارة والقوة العليا . كان فهمه محدوداً إلى درجة كبيرة ، ولكنه كان صاحب همة عظيمة ، قصداً إلى هدفه بصورة مباشرة لا تساهل فيها ولا هوادة . بدأ حياته نصيراً متطرفاً لمدرسة روبسبير ؛ فهو مدين بترقياته الأولى إلى أنحيازه إليها . ولكنه أنى له أن يدرك حقاً تلك القوى الجديدة التى كانت تعمل عملها فى أوربا ، فإن قصارى تصوراته فى السياسة لم ترتفع به إلا إلى

القيام بمحاولة بالية زائلة لاسترجاع الإمبراطورية الرومانية الغربية ، فحاول أن يدمر البقية الباقية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، قاصداً أن يستبدل بها أخرى مركزها بباريس ، واضطر الإمبراطور في فيينا أن يتخلى عن لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة مكتفياً بلقبه الأصلي كإمبراطور للنمسا فقط . وطلق نابليون زوجته الفرنسية ليتزوج من أميرة نمسوية .

أصبح بالفعل عاهلاً لفرنسا حين عين قنصلاً في ١٧٩٩ ، كما جعل نفسه إمبراطوراً لفرنسا في ١٨٠٤ محاكاة منه لشرلمان مباشرة . وتوجه البابا بباريس ، حيث تناول منه التاج ووضع به نفسه على رأسه كما أوصى شرلمان . وتوج ابنه ملكاً على روما . وانقضت بضع سنين كان نابليون ينتقل في أثناءها من نصر إلى نصر . ففتح معظم إيطاليا وإسبانيا ، ودحر بروسيا والنمسا ، وتسلم على كل أوربا غربي روسيا . ولكنه لم يفز قط بانتزاع منصب السيادة على البحر من يد البريطانيين ، ولقيت أساطيله هزيمة نهائية فاصلة على يد الأميرال نلسن البريطاني في موقعة الطرف الأغر (١٨٠٥) . وثار إسبانيا عليه في ١٨٠٨ ، وراح جيش بريطاني بقيادة ولنجتون يدفع الجيوش الفرنسية يبطء نحو الشمال حتى طردها من شبه جزيرة أيبيريا ، وفي ١٨١١ دب ديبب الحلاف بين نابليون وبين القيصر إسكندر الأول ، ثم غزا روسيا في ١٨١٢ بجيش عظيم محاط عدته (٦٠٠.٠٠٠) ستائة ألف رجل ، وهي حملة هزمها الروس بمعاونة مئة بلادهم القارس ودمروها إلى حد كبير . وعندئذ شقت ألمانيا عصا الطاعة عليه ، وانقلبت السويد عليه . فارتدت الجيوش الفرنسية منهزمة كسيرة الجناح ، واضطر نابليون إلى التنازل عن العرش في فونتينبلو (١٨١٤) . فنفي إلى جزيرة إلبا ، ثم عاد إلى فرنسا لبذل آخر سهم في جعبته في ١٨١٥ ، ولكنه هزم في واترلو على يد جيوش الحلفاء من بريطانيين وبروسيين وبلجيكيين .

لقد تبددت القوى التي أطلقتها الثورة الفرنسية من عقالها وذهبت أدراج الرياح ، والتأم بمدينة فيينا مؤتمر عظيم للحلفاء الظافرين يستهدف أن يعيد جهد المستطاع الظروف التي مزقتها الزوبعة العظيمة كل ممزق . وأسفر المؤتمر عن احتفاظ أوربا مدة تقارب الأربعين عاماً بنوع من السلام الناجم عن تبدد القوى وتشتت الجهد .

الفصل السادس والخمسون

السلم الأوربي المقلقل بعد سقوط نابليون

حال سببان رئيسيان دون استنباب السلم الاجتماعى والدولى خلال هذه الفترة ،
وهذا السبيل لدورة الحروب التى نشبت بين عامى ١٨٥٤ ، ١٨٧١ ، وأول هذين
الأمرين هو ميل البلاطات الملكية صاحبة الشأن إلى إعادة الامتيازات المحجفة
بالشعوب وإلى التدخل فى حرية الفكر والكتابة والتعليم ، وثانيهما هو تلك الحدود
العقيمة المستحيلة التى رسمها سياسة فيينا .

وقد تجلّى فى إسبانيا أولا بأوضح صورة جلية ميل الملكية المتأصل إلى العودة إلى
الأحوال والأوضاع القديمة البائدة ، وإذا هى تعيدها جميعاً حتى محاكم التفتيش نفسها .
ومن قبل ذلك فيما وراء الأطلنطى كانت المستعمرات الإسبانية قد حذت حذو الولايات
المتحدة ، واثارت على نظام الدول العظمى الأوربى ، عند ما نصب نابليون أخاه جوزيف
على عرش إسبانيا فى (١٨٠٨) . وكان الجنرال بوليفار منقذ أمريكا الجنوبية من نير
الأوربيين شأن جورج واشنطن فى الشمال . ولم تستطع إسبانيا أن تقضى على هذه
الثورة ، فطال أمدها بغير تمرة مثلما طال أمد حرب استقلال الولايات المتحدة من
قبل ، حتى اقترحت النمسا فى النهاية تمشياً منها مع روح « المحالفة المقدسة » وجوب
مساعدة ماوك أوربا لإسبانيا فى ذلك الكفاح ، فلقى ذلك الاقتراح معارضة من
بريطانيا ، ولكن الذى قضى نهائياً على اقتراح إرجاع سلطان الملكية ذاك ، هو
التصرف السريع الذى اتخذته مؤنرى رئيس الولايات المتحدة فى ١٨٢٣ حين حذرهما
مغبة ذلك الاسترداد ، فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد كل تدخل من جانب الدول
الأوربية فى نصف الكرة الغربى عملاً عدائياً ، وهكذا نشأ مذهب مونرو ، القاضى
بالألا توجد بأمريكا دولة تابعة لأخرى خارج أمريكا ، وهو الذى أبعد نظام الدول
العظمى عن أمريكا مدة تربو على مائة سنة ، وأتاح لدول أمريكا الإسبانية الجديدة
أن تصوغ مصائرهما على الطريقة التى تريدها لنفسها .

ولكن الملكية الإسبانية وإن فقدت مستعمراتها ، فقد كانت تستطيع على الأقل أن

تفعل ماتشاء في أوربا تحت حماية التضامن الأوربي، لذا تولى جيش فرنسي سحق حركة عصيان شعبية شبت بإسبانيا في ١٨٢٣ . إذ سحقها بتفويض من مؤتمر أوربي، وراحت النمسا في نفس الوقت تقمع ثورة اندلعت في نابلي .

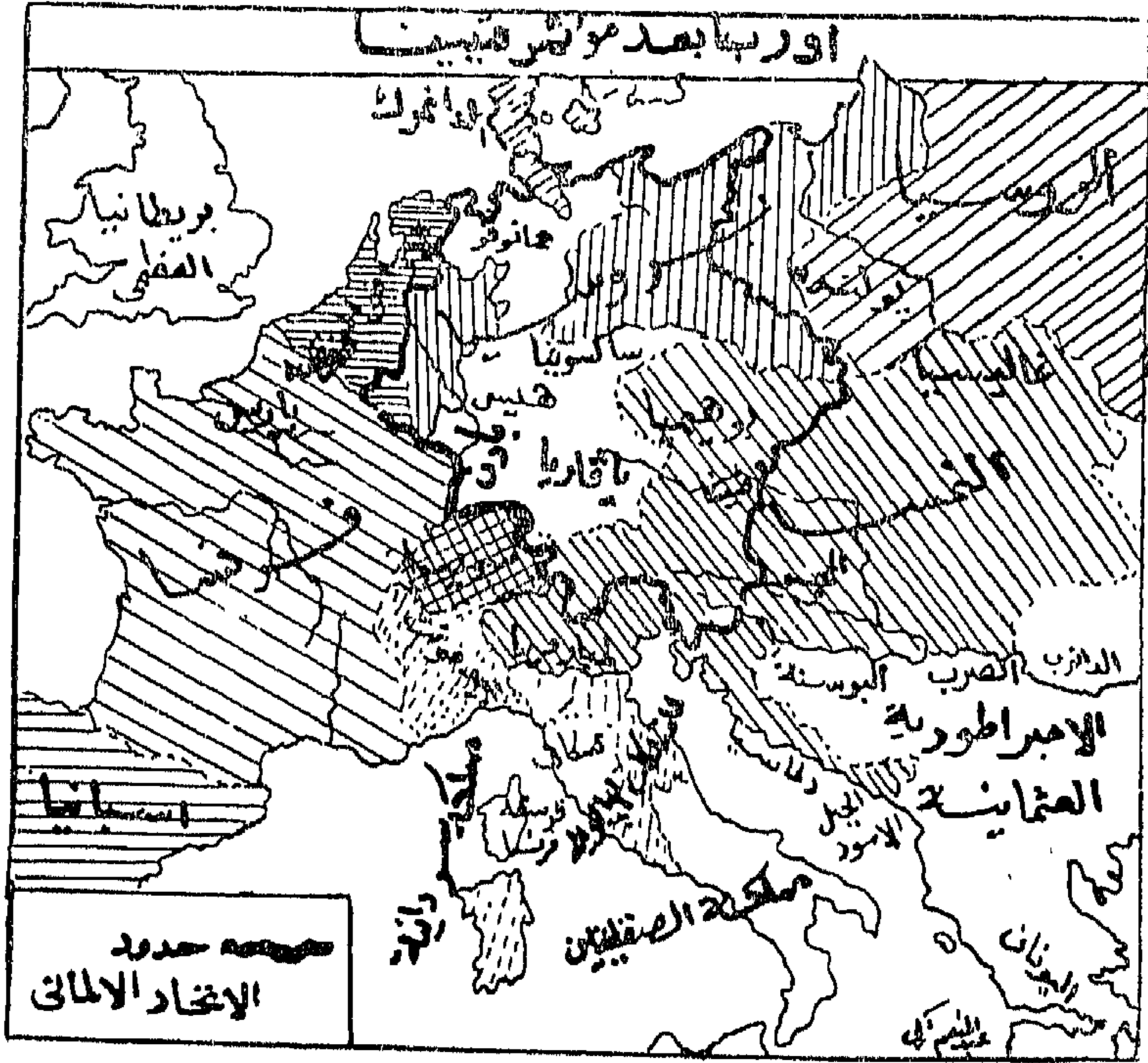
وقد توفي لويس الثامن عشر في ١٨٢٤ وخلفه شارل العاشر . وكرس شارل كل جهوده للقضاء على حرية الصحافة والجامعات ، وإعادة الحكم المطلق إلى نصابه ؛ فأقرت الجمعية اعتماد مبلغ بليون من الفرنكات تعويضاً للنبلاء عما حل بهم في ١٧٨٩ من حرق قصورهم ومصادرة أموالهم . وما لبثت باريس أن ثارت في ١٨٣٠ على ذلك الملك الذي تمثلت فيه كل مظاهر العهد البائد ، وأحلت محله على العرش لويس فيليب بن فيليب دوق أورليان ، أحد النبلاء الذين أعدموا في عهد الإرهاب ، ولم تستطع الملكيات الأخرى بالقارة الأوربية التدخل في هذه الحالة لما شهدته من استحسان بريطانيا الصريح لتلك الثورة ، ولما آتسته من وجود حركة تحرير وتسامح بألمانيا والنمسا . هذا إلى أن فرنسا كانت لاتزال - قبل كل شيء - محتفظة بنظامها الملكي . وقد بقي هذا الرجل لويس فيليب (١٨٣٠ - ١٨٤٨) ثمانية عشر عاما ملكا دستوريا لفرنسا .

تلك هي التقلبات القلقة التي كانت تعبت بقرارات مؤتمر فيينا ، والتي أثارتها من مكنها تصرفات الملكيين الرجعية . فظلت التوترات التي تمخضت عنها التخوم غير المدروسة علميا التي وضعها الديبلوماسيون في فيينا يشتد عودها من آن لآن ، ولكن خطرهما على سلام الإنسانية كافة كان أعظم كثيراً . ذلك أن من أشد الأمور جلبا للمتعاب على رؤوس الحكومات أن تتولى أمور شعوب تتكلم لغات مختلفة وتقرأ بالتبعية آدابا لغوية متباينة وتعتنق أفكاراً عامة متفاوتة ، خاصة إذا زادت المنازعات الدينية من شر هذه الفوارق . وليس هناك إلا شيء واحد يستطيع تبرير ربط شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها ربطاً وثيقاً هو قيام مصلحة مشتركة متبادلة بينهم كحاجات الدفاع المشترك عند السويسريين الجبلين ؛ بل إن سويسرا نفسها يقوم فيها الاستقلال الذاتي المحلي إلى أبعد حد . على أن نظام الكانتونات يكون ألزم وأوجب إذا كانت البلاد قطرا كمدونيا يخلط السكان فيه في رقع صغيرة من القرى والأحياء المتباينة الأجناس . ولو أن القارىء نظر إلى قارة أوربا كما رسمها مؤتمر فيينا ، لشهد بعيني رأسه أن ذلك المؤتمر كان كمن لا يهدف إلا إلى استثارة أشد أنواع الاستياء المحلي في كل ناحية مستها يده .

دمر ذلك المؤتمر جمهورية هولنده بدون مبرر . وكدس في كتلة واحدة كلا من

الهولنديين البروتستانت مع الكاثوليك الناطقين بالفرنسية ، والساكسونيين بالأراضي الإسبانية القديمة (والنسوية أيضاً) ، وأفام منهما مملكة الأراضي المنخفضة . ولم يقتصر على أن يسلم للنمساويين الناطقين بالألمانية ، جمهورية البندقية العريقة ، بل وشمال إيطاليا، كله حتى مدينة ميلانو . ثم جمع مقاطعة سافوى الفرنسية اللغة مع أجزاء من إيطاليا، وأحيا من جديد مملكة سردينيا البائدة . فأما دولة النمسا والمجر وهما من قديم الزمان خليط متفجر من القوميات المتناحرة من الألمان والمجر والتشييكوسلوفاك واليوغوسلاف والرومانيين فضلا عن الإيطاليين الذين ضموا إليهم آنذاك — فقد أصبح الموقف فيها أصعب وأعسر حين أقر المؤتمر ضم الممتلكات التي استقطعتها النمسا من بولندة في ١٧٧٢ ، ١٧٩٥ ، وأقر المؤتمر أيضاً تسليم الشطر الأعظم من الشعب البولندي الحر الكاثوليكي العقيدة الجمهورية النزعة إلى الحكم الأقل حضارة ، حكم قيصر روسيا صاحب العقيدة الأرثوذكسية اليونانية ، غير أن بروسيا البروتستنتية استولت بدورها على نواح هامة من ذلك القطر النمسي . وأقر المؤتمر أيضاً استيلاء القيصر على بلاد الفنلنديين الأجانب عنه تماماً . وربط شعبي السويد والنرويج المختلفين تمام الاختلاف ، بعضهما إلى بعض في ظل عرش واحد وسيلحظ القارىء أن ألمانيا تركت في حالة من الفوضى والارتباك لها خطورتها التامة . فإن كلامنا بروسيا والنمسا كانت داخلة جزئياً في اتحاد ألماني وخارجة جزئياً عنه ، وهو يضم العدد الجهم من الولايات الصغرى ، وأصبح ملك الدانمرك عضواً في الاتحاد الألماني بسبب بضع ممتلكات ناطقة بالألمانية في هولشتين وقعت في حوزته . وألحقت لوكسمبرج بالاتحاد الألماني وإن كان حاكمها ملكاً للأراضي المنخفضة أيضاً ، مع أن كثيراً من شعوبها كانوا يتكلمون الفرنسية .

وهنا أغفل المؤتمرون إغفالا تاما حقيقة واضحة للعيان : هي أن الأقوام الذين ينطقون بالألمانية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الألمانية ، وأن القوم الذين يتحدثون بالإيطالية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الإيطالية والقوم الذي يتحدثون بالبولندية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة البولندية ، سيكونون دون أدنى ريب أسعد حالا وأشد عوناً لباقي البشرية وأقل ضرراً بها إذا هم أداروا شؤونهم الخاصة على الطريقة التي يرتضون وفي حدود لغتهم القومية ، فلا غرابة إذن أن تعلن أغنية من أشد ماذاع في ألمانيا من الأغاني الشعبية في تلك الأيام أنه « حيثما نطق اللسان الألماني ، فتلك أرض الأجداد الألمانية » .



خريطة رقم (١٧)

اقتدت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية بالثورة التي اندلعت بفرنسا ١٨٣٠ ، حيث أعلنت الثورة على ربطها قسرا بالهولنديين في مملكة الأراضي المنخفضة وذعرت الدول من احتمال قيام جمهورية بتلك البلاد أو إلحاقها بفرنسا ، فسارعت بالتدخل لتهديئة ذلك الموقف ، وأعطت بلاد البلجيك ملكا هولوبولدا الأول أمير ساكس كوبرج جوثا ، وحدثت في نفس تلك السنة ١٨٣٠ أيضاً ثورات بإيطاليا وألمانيا لم يكتب لها التوفيق ، كما حدثت ثورة أخرى أشد خطرا بكثير بالمنطقة الروسية من بولندا . وقامت بمدينة وارسو حكومة جمهورية بولندية صمدت هناك سنة كاملة أمام قوات القيصر نيقولا الأول (الذي خلف اسكندر في ١٨٢٥) ، ثم أخذت إخمادا تجلى فيه عظيم العنف والقسوة وحرم النطق باللغة البولندية وجعلت الديانة الأرثوذكسية اليونانية دينارسمياً للدولة بدل الكاثوليكية .

وقد حدث في ١٨٢١ أن شق اليونان عصا الطاعة على الترك ، وظلوا يقاثلونهم حرب الحياة أو الموت ، والحكومات الأوربية واقفة موقف المتفرج . واحتج الأحرار على الجلود الذى يتبدى فى أوربا ؛ وانشال المتطوعون أفواجا من كل بلد أوربي للانضمام إلى العصاة ، وأخيراً اتخذت بريطانيا وفرنسا والروسيا خطوة مشتركة فعالة قدس الإنجليز والفرنسيون ، الأسطول التركى المصرى بمعركة نوارين (١٨٢٧) ، واجتاح القيصر حدود تركيا . وأعلنت معاهدة أدرنه (١٨٢٩) حرية بلاد اليونان واستقلالها ، ولكن لم يسمح لها بأن تستعيد من جديد تقاليدھا الجمهورية العتيقة ، والتمس لليونان ملك ألماني هو الأمير أوتو البافارى ، كما عين لولايات الدانوب (وهى بلاد رومانيا الحالية) حاكم مسيحي ، ونصب آخر على بلاد الصرب (وهى جزء من المنطقة اليوغسلافية) . ومع ذلك لم يكن بد من إراقة الشئ الكثير من الدماء قبل طرد الأتراك نهائياً من تلك الأصقاع .

الفصل السابع والخمسون

نمو العرفان المادى

فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وبينما منازعات الدول والأمراء هذه يهدر هديرها وتزلزل زلازلها فى أوربا ، وبينما الخريطة المرقعة التى أنشأتها معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ تتحول بصورة عجيبة ككتلبات رمل الصحراء إلى خريطة معاهدة فيينا (١٨١٥) المرقعة هى أيضاً ، وبينما السفينة الشراعية تبسط النفوذ الأوروبى على أرجاء العالم قاطبة ، كان يدارج ذلك فى العالم الأوروبى وما اصطبغ بصباغه من بلاد ، نمو مطرد فى المعرفة وتنقية عامة لأفكار الناس وآرائهم المتصلة ، بهذا العالم الذى فيه يعيشون .

تواصل هذا النمو وتلك التنقية بمعزل تام عن الحياة السياسية وإن لم ينتجها فى تلك الحياة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر أية ثمرة أخاذة مباشرة . ثم إنهما لم يؤثرا فى الفكر الشعبى تأثيراً عميقاً فى أثناء تلك الفترة ذلك أن تلك النتائج لم تظهر إلا فيما بعد ، بل لم تظهر إلا وهى على أتم قوتها - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . إن الذى حدث إنما هو عملية جرت بصفة رئيسية بين جدران عالم صغير من رجال موسرين ذوى أرواح حرة مستقلة . ولولا وجود تلك الشخصية التى يسميها الإنجليز « بالسيد » الچنتلمان ، لما بدأت العملية العلمية ببلاد الإغريق قط ، وما أمكن تجديد تلك العملية بأوربا أبداً . ولعبت الجامعات دوراً فى هذا الشأن ، ولكنها لم تقم بالدور الأول الرئيسى ، فى الفكر الفلسفى والعلمى لتلك المدة ، والمتعلم الذى يتلقى الهبات المالية ينجح إلى الجبن والمحافظة على القديم وتعوزه روح الابتكار والمبادأة ويقاوم كل تجديد ، ما لم يحفز به الاحتكاك بالعقول الحرة المستقلة .

وقد ذكرنا من قبل أن الجمعية الملكية تكونت فى ١٦٦٢ ، ولحظنا ما أنجزته فى سبيل تحقيق أحلام باكون فى كتابه الأطالانتس الجديد . وتواصل إبان القرن الثامن عشر الشىء الكثير من تنقية الأفكار العامة عن : - المادة والحركة ، كما تم الشىء

الكثير من التقدم الرياضى ، ونمو منتظم فى استخدام العدسات فى كل من المجهر والمرقب (الميكروسكوب والتلسكوب) وتجديد للهمة المبذولة فى تصنيف التاريخ الطبيعى وتبويبه ، وانتعاش عظيم فى علم التشريح ، وفى تلك الحقبة أيضاً بدأ علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) الذى تسكن به أرسطو وتوقعه ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) ، يبذل جهوده الكبيرة فى تأويل سجل الصخور .

وظهر أثر استخدام طرائق علم الطبيعة فى علم المعادن . وعاد تقدم علم المعادن بالفضل العميم على المخترعات العملية ، حيث يسر معالجة قطع من المعادن وغيرها من المواد أكبر وزناً وأضخم حجماً . وظهرت مكينات ذات معيار جديد وبكثرة لم يسبق لها مثيل ، فأحدثت فى الصناعة انقلاباً هائلاً .

واستطاع تريفيثيك فى ١٨٠٤ أن يكيف آلة جيمس واط البخارية لمستلزمات النقل والحركة ، وبذلك صنع أول قاطرة بخارية . ولم يلبث أول خط حديدى أن افتتح فى ١٨١٦ بين ستوكتن ودارلنجتون ، وإن بلغت سرعة القاطرة « روكت » التى صنعها جورج ستيفنسن أربعة وأربعين ميلاً فى الساعة ، وهى تجر وراءها قطاراً من العربات زنته ثلاثة عشر طناً . وتكاثرت السكك الحديدية منذ ١٨٣٠ . فلم ينتصف القرن حتى كانت شبكة من السكك الحديدية قد انتشرت بكل أرجاء أوروبا (١) .

وهنا حدث تغيير فجائى فى ناحية زعم الناس منذ أمد بعيد أنها ثابتة مستقرة ، هى أقصى سرعة يستطيع النقل على الأرض بلوغها . وقد صار نابليون من فلنا إلى باريس بعد هزيمته فى روسيا فى مدة ٣١٢ ساعة . قطع فيها مايدانى ١٤٠٠ ميل وكانت تحت خدمته كل ما استطاع تقديمه للملك من « يزات » ، فلم تزد سرعته فى المتوسط مع ذلك عن خمسة أميال فى الساعة . وما كان الراكب العادى ليستطيع أن يقوم بتلك الرحلة فى ضعف تلك المدة مهما تعجل . وكانت تلك هى بالتقريب السرعة القصوى نفسها فى السفر بين روما وبلاد الغالة فى القرن الأول الميلادى . ثم ظهر التغير الهائل على حين بغتة . وبفضل السكة الحديدية خفضت مدة هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى مادون ثمان وأربعين ساعة ، ومعنى ذلك أنها خفضت المسافات بأوروبا إلى نحو عشر ما كانت

(١) أنشأت مصر ثانى خط للسكك الحديدية فى العالم بين القاهرة والإسكندرية ١٨٥٢ [المترجم] .

عليه . ويسرت القيام بالأعمال الإدارية وشؤون الحكم في مساحات أكبر عشر مرات من التي كان في الإمكان إدارتها في الماضي على يد إدارة مركزية واحدة . ولم يدرك الناس حتى الآن المغزى التام لتلك الإمكانية ، ذلك أن أوربا تقطع أوصالها حدود ونخوم رسمت في عصر الحصان والطريق ، على أن السكة الحديدية كان لها بأمريكا أثر مباشر فعال . فقد كان معناها بالولايات المتحدة التي تزحف في بطء غربا ، إمكان الاتصال الدائم بواشنطن ، مهما بعد موضع النخوم الجديدة التي تتقدم في كل آن بأرض الفارة ، بل كان معناها هو الوحدة ، التي تصان على نطاق لم يكن يتحقق أبدا لولا القطار .

وكان الزورق البخارى على كل حال سابقا قليلا على القاطرة البخارية في مراحلها الأولى ، فإن زورقا بخاريا هو « شارلوت دنداس » كان يمخرقناة خليج السكلايد Firth of Clyde في ١٨٠٢ ، وكان لأمريكي اسمه فالتون باخرة أسماها كليرمونت بها آلات من صنع بريطانيا ، وتعمل في أعلى نهر المهدسون وراء نيويورك ، وكانت أول باخرة أنزلت إلى البحر أمريكية أيضا هي الفينكس ، التي كانت تنقل بين نيويورك (هوبوكن) وفيلادلفيا ، وكانت أول سفينة شراعية زودت بالبخار (إذ كان بها قلع أيضا) عبرت المحيط الأطلسي (١٨١٩) واسمها السافانا - أمريكية هي الأخرى ، وكل هذه السفن لا تخرج عن زوارق تستخدم العجلة الرافصة (١) ، وليست سفن الرافصات بقادرة على شق عباب البحار الهائجة الأمواج . فإن مجاديف العجلة تتحطم بغاية السهولة ، وعندئذ يصبح المركب ضعيفا عاجزا عن كل حركة ، ثم جاء دور السفينة البخارية ذات الدافعة اللولبية على شيء من البطء . وإذ لم يكن بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن تصبح الدافعة اللولبية وسيلة عملية مشمرة . ولم تستطع حمولة السفينة البخارية البحرية التفوق على حمولة السفينة الشراعية إلا وقد انتصف القرن . ومن بعدها سار التطور في الملاحة البحرية بخطى سريعة ، ولأول مرة في التاريخ أخذ الناس يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التأكد من موعد وصولهم ، فإن عبور الأطلسي الذي كان إلى حين قريب مغامرة غير مأمونة العواقب ، تمتد إلى أسابيع عديدة (ربما وصلت إلى شهور) لم تزل تنقص مدته بفضل زيادة السرعة حتى وصلت في ١٩١٠ ، في حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خمسة أيام ، مع إمكان تحديد ساعة الوصول تقريبا .

THE NEW UNIVERSITY PRESS, LONDON, 1911.

(١) العجلة الرافصة أو الدولاب الدالي : عجلة ضخمة تدفع السفينة بواسطة ألواح مثبتة عموديا على محيطها والألواح تدفع الماء عندما تدار العجلة [المترجم]

وفي الوقت الذي تطور فيه النقل البخاري برا وبحرا ، ونشأت وسيلة أخرى جديدة .
أخذت أضيفت إلى عوامل الاتصال بين الناس كنتيجة لأبحاث فولتا وجالفاني وفاراداي
في مختلف أنواع الظواهر الكهربائية . فظهر التلغراف الكهربائي على مسرح الوجود
في ١٨٣٥ . ومد أول سلك بحري « كابل » برقي تحت البحر في ١٨٥١ بين فرنسا
وانجلترا ، وماهى إلا بضع سنين حتى عم نظام البرق العالم الممدد بأكمله ، وحتى أمست
الأخبار التي كانت إلى حين تنطلق من نقطة إلى نقطة بمنتهى البطء والتللكو تعرف في
كل أرجاء الأرض في وقت واحد تقريباً .

ولامراء أن هذه الاختراعات : القاطرة البخارية والبرق الكهربائي ، تبدت لأخيلة
الناس في منتصف القرن التاسع عشر مخترعات رائعة بل معجزات خارقة ، على
أنهما لم تكونا إلا باكورتين بارزتين قبيحتين في بستان ضخم تتم فيه عملية
أعظم وأوسع كثيراً . فإن المعارف والمهارة الفنية التطبيقية (Technical) أخذت
تنمو وتنهض بسرعة خارقة وإلى درجة خارقة أيضاً بالقياس إلى ما تم قبل ذلك في كل عصر
مضى . وثمة شيء كان يبدو في البداية أقل بروزاً بكثير في حياة الإنسان العادية ولكنه كان
في النهاية أهم كثيراً من أي شيء آخر ، وهو امتداد يد الإنسان وسلطانه على مواد أساسية
منوعة ومكونة لمواد أخرى . مثال ذلك أن معدن الحديد كان يستخلص من خامات الحديد
بوساطة الفحم المصنوع من الخشب ، وتتخذ منه القطع الصغيرة ثم يطرق ويعطى الشكل
المطلوب . فعند ذلك كان الحديد مادة لا يستخدمها إلا صانع فني وعندئذ كانت جودة
الصنف وطريقة المعالجة تعتمد على خبرة وحكمة الحداد الفرد . ولم تكن أعظم كتلة من
الحديد يمكن معالجتها في مثل تلك الظروف ليزيد في أقصى الحالات حجماً (في القرن
السادس عشر) على طنين أو ثلاثة (فمن الطبيعي إذن أن يكون حجم المدافع حديد
أقصى لا يتعداه) وجاء تنور الصهر الهوائي في القرن الثامن عشر وزادت قوته باستعمال
الكوك . على أنك لا تجد ألواح الحديد المسحوبة بين الإسطوانات الضاغطة [الرافيل]
إلا في القرن الثامن عشر (١٧٢٨) ، كما لا توجد أسياخه وقضبانها المسحوبة بين تلك
الإسطوانات نفسها إلا في (١٧٨٣) . كما أن مطرقة نازميث البخارية لم تخترع إلا
أخيراً في ١٨٣٨ .

وقد حرم العالم القديم نعمة استخدام البخار لأنحطاطه في كل ما يتصل باستخراج المعادن
وصناعتها . فلم يكن من المستطاع النهوض بالآلة البخارية ، بل حتى بالمشيخة البدائية ،

إلا بعد ظهور ألواح الحديد . ولو شهدت العين العصرية تلك الآلات الأولى لرات فيها قطعاً من الخردة قبيحة الصورة مستوجبة للارثاء ، ولكنها كانت أقصى ما بلغه علم المعادن آنذاك من تقدم ، ثم جاءت طريقة بسمر متأخرة في ١٨٥٦ ، وما لبثت أن تلتها على الفور (١٨٦٤) طريقة الفرن المفتوح الذي كان في إمكانه صهر الصلب وكل أنواع الحديد وتنقيتها وصيها على مشاكلة ونطاق لم يسمع الناس بمثلهما أبداً ، ولو نظرت اليوم إلى الفرن الكهربى لرأيت أطنانا من الفولاذ المتوهج المبيض من شدة الحرارة وهى تغلى وتهدر غليان اللبى فى إنائه ، وايس فى الإمكان أن تقاس ثمار شىء مما أحرز الإنسان فى الماضى من تقدم ، بما ترى من تحكمه المطلق فى كتل ضخمة من الفولاذ والحديد بل وعلى قوامها وتكوينها . وفى الحق أن السكك الحديدية والآلات القديمة بمختلف أنواعها ، لم تكن إلا الانتصارات الأولى للطرائق الحديثة فى معالجة المعادن . وسرعان ما ظهرت السفن المصنوعة من الحديد والصلب ، كما ظهرت الكبارى الفولاذية الضخمة ، فضلاً عن طريقة جديدة للبناء بالصلب على نطاق هائل جداً ، وأدرك الناس فى وقت متأخر جداً أنهم أنشأوا سككهم الحديدية على قضبان تتجلى فى المسافة بينها الخشية والتخوف ، وأنه كان فى إمكانهم أن يجعلوا أسفارهم أثبت وأفل رجرجة وتعبا وأحفل بالراحة والسرور لو أنهم زادوا كثيراً فى المعايير .

وقبل القرن التاسع عشر لم تكن بالعالم سفن تزيد حمولتها كثيراً على ألفى طن ، أما اليوم فليس هناك أى عجب فى باخرة حمولتها خمسون ألفاً ، ومن الناس من يستخر بهذا النوع من التقدم ويرمونه بأنه تقدم فى الحجم ليس غير ، ولكن تلك السخرية تسمهم بقصور العقل ، ذلك أن السفينة الكبيرة أو البناء الضخم ذا الإطار الفولاذى ليس كما يتوهمون صورة مضخمة من سفينة الماضى الصغيرة أو بنائه الصغير ؛ وإنما هما شىء مختلف عن سابقه فى النوع ، كما أنه أخف حملاً وأقوى بناء ومواده التى تصنع منها أمتن وأنقى ؛ هما شىء لا يقوم على السوابق الموروثة ولا الطرق العملية الفجة غير العلمية ، بل على الحساب الدقيق المعقد . كانت المادة فى المنزل القديم أو السفينة القديمة هى المتسلطة ، إذ لم يكن بد من تحرى مستلزمات المسادة ونوعها والتمشى معها تمشياً أعمى ؛ أما فى الموقف الجديد فقد قبض الإنسان على المادة وأخضعها لإرادته ، وبذل فى تكوينها ما شاء له علمه . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل ، التى استخرجت من المحاجر والمناجم

كيف تمتد إليها يد الإنسان وعلمه بالاستخراج والتشغيل والصهر والصب . وإذا هي
برج رشيق من الفولاذ والبلور ، ويعاود المدينة المزدحمة بأكثر من مئة قدم ١٩

ولم نسق هذه التفاصيل لتقدم الإنسان في دراسة الفولاذ وما ترتب عليها إلا على
سبيل التمهيل . والإيضاح ولو شئنا لقصصنا عليك قصة مماثلة لهذه عن تسلط العلم على
معدنى النحاس والقصدير ، بل وعلى طائفة جمّة من المعادن ، لم تعرف قبل بزوغ فجر
القرن التاسع عشر . ولانذكر منها إلا اثنين فقط هما النيكل والألومنيوم ، وهكذا
لم يحظ الانقلاب الميكانيكى بما بلغه حتى الآن من انتصارات ضخمة ، إلا بفضل هيمنة
الإنسان العظيمة المتزايدة على المادة ، على مختلف أنواع الزجاج ، وعلى الصخور
والجبس والمصيص وما إليها ، وعلى ألوان المواد وتكوينها ، ومع ذلك فما زلنا في هذه
الميادين عند مرحلة الثمار الأولى والتباشير لم نتجاوزها . أجل إن القوة أصبحت ملك
يميننا ، ولكن بقي علينا أن نعلم كيف نستخدم قوتنا تلك ، ثم إن الشيء الكثير
من استخدامنا الأول لمبات العلم السخية هذه كان في البداية سوقيا ، ينطوى على الذوق
القبيح أو الغباء أو الفظاعة ، ولم يكد الفنان والمهندس المنفذ يتجاوزان بعد مرحلة
الابتداء الأولى في الاستفادة بتلك الأنواع التي لا حصر لها ولا نهاية من المواد التي
أصبحت اليوم تحت تصرفهما .

واطرد نمو علم الكهرباء إلى جوار هذا الاتساع الكبير في الإمكانيات الميكانيكية ،
ولم يشرع هذا الحقل من حقول الأبحاث أن يؤتى ثمارا كان لها في عقول الناس أثر
عميق إلا في ثمانينات (١) القرن التاسع عشر ، وإذا بالعلم يفاجأ بالنور الكهربى ،
والجر الكهربى ، كما بدأ يتسرب للأذهان كافة أن في الإمكان نقل القوة ، أى إرسال
قوة يمكن بالإرادة تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة ، عن طريق سلك
من النحاس ، كما ينقل الماء في الأنابيب .

كان البريطانيون والفرنسيون في بادئ الأمرها الشعبان اللذان سبقا غيرها في
مضمار تكاثر المعرفة ذلك ؛ ولكن مانشب الألمان الذين تلقوا درسا في الدلة على يد
نابليون أن أبدوا من الحمية والمثابرة في الأبحاث العلمية ما جعلهم يدركون هؤلاء الرواد
ويسبقونهم ، وكان العلم في بريطانيا إلى حد كبير من ابتكار رجال من الإنجليز
والاسكتلنديين الذين يعملون خارج نطاق اللوزعية والإحاطة المؤلف .

(١) ثمانينات القرن : هى عقده التاسع من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٩

وكانت جامعات بريطانيا في ذلك الحين في حالة تدهور تربوى ، وقد صرفت جل همها في إظهار الحذقة ، والإحاطة بالآداب اللاتينية واليونانية القديمة ، وكذلك شأن التعليم في فرنسا إذ كانت تسوده تقاليد الآداب القديمة على يد مدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت) ، لذا لم يصعب على الألمان أن ينشئوا هيئة من الباحثين ، ربما كانت صغيرة بالقياس إلى ما في الأمر من إمكانيات ، ولكنها ضخمة بالنسبة إلى تلك الفئة الصغيرة من المخترعين والمجربين ببريطانيا وفرنسا وأصحاب البحث التجريبي فيهما . ومع أن هذه الأبحاث والتجارب قد جعلت بريطانيا وفرنسا أقوى دول العالم وأغناها ، فإنها لم تعد على رجال العلم والاختراع بثروة ولا قوة .

فإن رجل العلم المخلص لعمله يعيش بالضرورة في حو من الزهد في الدنيا ؛ فهو من الانشغال بأبحاثه العلمية بحيث لا يجد مجالا لتدبير الخطط في المشروعات لجمع المال عن طريقها . ولذا فسرعان ما يقع استثمار اختراعاته الاقتصادية بغاية السهولة وبطريقة طبيعية جداً في قبضة طراز من الناس أميل إلى اكتناز المال ؛ لذا نرى في تاريخ بلادنا أن كل طبقة جديدة من الأغنياء أبرزها ببريطانيا العظمى كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والفنى كانت تقنع تماما بأن تترك الأوزة التي تبيض لها بيضة الذهب تضوى من الجوع إن لم تبد منها تماما نفس تلك الرغبة الجامحة التي أبداهها علماء الدراسات الكلامية^(١) ورجال الدين ببريطانيا نحو إهانة تلك الأوزة القومية وقتلها . فلقد زعموا أن المكتشفين والمخترعين يظهرون بالطبيعة ليستفيد من ورأهم من يفوقونهم ذكاء .

وكان الألمان من هذه الناحية أكثر تحسكيا للعقل ، فإن علماء الألمان النظريين لم يظهروا نمو العلم الجديد مثل تلك البغضاء العنيفة ، لذا سمحوا له بأن ينمو ويتطور . ثم إن رجل الأعمال وصاحب المصنع لم يستشعر المحور رجل العلم الحديث نفس الاحتقار الذي خامر منافسهما البريطانى . وأدرك هؤلاء الألمان أن المعرفة ربما كانت محصولا يزرع ويستجيب للمخصبات . لذا نزلوا فعلا لرجل العلم عن معين من فرصة الثراء ؛ وكانت ميزانية مصروفاتهم العامة على البحث العلمى أعظم نسبيا ، كما أن جميع ما أنفقوه كان يعود عليهم بموفور الجزاء . وإذا برجل العلم في ألمانيا يجعل لعتة الألمانية في النصف الثانى من القرن

(١) يقصد بالدراسات الكلامية دراسة الفلسفة والعلوم اليونانية واللاتينية وتسمى أحيانا بالفلسفة المدرسانية .

التاسع عشر لغة ضرورية لا يستغنى عنها كل دارس للعلوم يريد أن يظل ملماً بآخر ما أنتجته العقول في ناحية تخصصه وثمة فروع بعينها وبخاصة الكيمياء ، أحرزت فيها ألمانيا تفوقاً عظيماً جداً على جاراتها الغربيات . ولم تظهر آثار الجهود الألمانية إلا باستينات وسبعينات القرن^(١) ، بل بعد الثمانينات ، وظل الألمان من ثم يتفوقون باطراد على بريطانيا وفرنسا في ميادين التقدم الفنى والصناعى .

وجاءت بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلم والاختراع عندما ظهر في ثمانينات القرن طراز جديد من الآلات ، وهى آلات حلت فيها قوة تمدد خليط متفجر ، محل قوة تمدد البخار . وأدخلت الآلات الخفيفة العظيمة الكفاية التى أمكن صنعها بفضل هذا الاختراع إلى السيارات ، وما زال العلم يتطور بها حتى بلغت فى النهاية ذروة من خفة الوزن والكفاية جعلت الطيران — الذى عرف الناس من قديم الزمان أنه شئ ممكن — من الأمور الواقعية المحققة . فإن لانبجلى الأستاذ بمعهد سميثسن بواشنطن صنع فى ١٨٩٧ ، آلة تطير بنجاح ، وإن لم يتسع حجمها لحمل جسم كائن بشرى . ثم أصبحت الطائرة صالحة لحمل الإنسان فى ١٩٠٩ . ظهرت الطائرة بعد أن لاحت فى الأفق فترة توقفت فيها سرعة البشر عن الزيادة بعد إتقان السكك الحديدية والنقل بالسيارات على الطريق العام ، ولكن الطائرة جاءت بتخفيض جديد ملحوظ فى المسافة بين نقطة ما على سطح الأرض ونقطة أخرى ، وفى القرن الثامن عشر كانت المسافة بين لندن وإدنبرة تستغرق ثمانية أيام ، ولكن الذى حدث فى ١٩١٨ أن لجنة النقل الجوى كتبت تقريراً قالت فيه : « إن المسافة من لندن إلى ملبورن ، وهى تعادل نصف محيط الأرض . ربما أمكن أن تقطع فى مدى بضع سنوات فى نفس تلك الأيام الثمانية » .

ولكن ينبغى علينا أن لا نبالغ كثيراً فى تأكيد هذه التخفيضات الباهرة فى المسافات الزمنية الفاصلة بين مكان وآخر . فما هى إلا ناحية واحدة من نواحي توسيع الإمكانيات البشرية توسيعاً أبعد غوراً وأعظم شأنًا . مثال ذلك أن علمى الزراعة والكيمياء الزراعية أحرزا تقدمات مماثلة لهذه تماماً فى أثناء القرن التاسع عشر . وبلغ من سعة علم الناس بتخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أو خمسة أضعاف المحاصيل التى كانوا يحصلون عليها من نفس المساحة من الأرض فى القرن السابع عشر . وحدث تقدم فى علم الطب

(١) وهما العقدان السابع والثامن من القرن .

أشد من هذا خرقاً لكل معتاد مألوف ؛ فزاد متوسط عمر الإنسان ، وزادت كفايته اليومية ، وتناقص ضياع الأرواح بسبب سوء الصحة .

من هذا كله يرى القارئ أن بين أيدينا تغييراً كلياً في الحياة البشرية بلغ من عمقه وشموله أن خلق مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني . ثم هذا الانقلاب الميكانيكي في مدة لاتزيد كثيراً عن قرن . وفي تلك المدة خطا الإنسان في ناحية أحوال حياته المادية خطوة أوسع من تلك التي خطاها في أثناء كل الفترة الطويلة الممتدة بين العصر الحجري القديم وعصر الزراعة ، أو بين أيام پيبي ملك مصر وجورج الثالث . لقد ظهر إلى عالم الوجود إطار مادي هائل أحاط بشئون الإنسان . ولا يخفى أنه يتطلب منا القدر العظيم من إعادة تشكيل مناهجنا وأساليبنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بيد أن عمليات إعادة التشكيل تلك قد تولدت بالضرورة عن تطور الانقلاب الميكانيكي كما أنها لم تتجاوز بعد مراحلها الاستهلاكية الأولى .

الفصل الثامن من الخمسون

الانقلاب الصناعي

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما أسميناه « الانقلاب الميكانيكي » الذي هو شيء جديد تماماً في الخبرة البشرية تولد عن تطور العلم المنظم ونموه ، وهو من ثم خطوة جديدة كاختراع الزراعة أو استكشاف المعادن سواء بسواء ، وبين شيء آخر تختلف مصادره وأصوله تمام الاختلاف . شيء له من قبل سابقة تاريخية قديمة : هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمونه « الانقلاب الصناعي » . سارت كلتا العمليتين جنباً إلى جنب ، بل لقد كانتا تتعاعلان إحداهما مع الأخرى ، ولكنهما كانتا مختلفتين أصلاً وجوهرأ . لم يكن بد أن يظهر انقلاب صناعي من نوع ما ، ولو لم يعرف الناس الفحم أو البخار أو المسكنات ، ولكن لعله كان في تلك الحالة يلزم بدقة أكثر نفس الطريق الذي سلكته التطورات الاجتماعية والمالية التي حدثت في السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية . ولعله كان يكرر على مسامعنا من جديد قصة الزراع الأحرار المجردين من أملاكهم وعصابات العمال والمزارع الضخمة والثروات المالية الطائلة والنظام المالي المدمر للنظام الاجتماعي . وحتى طريقة المصانع نفسها ظهرت في الوجود قبل استحداث القوة واختراع المسكنات . فالمصانع ليست ثمرة الآلة بل ثمرة تقسيم العمل ، فكان العمال المدربون المرهقون بالكدح والعمل يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وعلب السكرتون والأثاث ، ويلونون الخرائط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل حتى الدواليب المائبة في خدمة الصناعة ، وكان بروما في أيام أوغسطس كثير من المصانع . مثال ذلك : أن الكتب الجديدة كانت تملئ على حشود مصفوفة من النساخين في مصانع باعة الكتب . وسيرى كل دارس مدقق يقرأ بإمعان ما كتبه دانيال ديفو وما تحتويه نشرات فيلدنج السياسية ، أن فكرة حشد الفقراء ليعملوا مجتمعين في مؤسسات للحصول على أرزاقهم كانت شيئاً مألوفاً لبريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . بل إن هناك إشارات تشير إلى وجودها في نفس زمن السير توماس مور وكتابه اليوتوبيا ١٥١٦ . لا جرم أنه كان تطوراً اجتماعياً وليس ميكانيكياً .

والواقع أن تاريخ أوروبا الغربية الاجتماعية والاقتصادى ظل حتى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسم من جديد خطى الدولة الرومانية فى القرون الثلاثة السابقة للميلاد .

غير أن تفكك أوروبا سياسياً ، وثوراتها السياسية العنيفة على الملوك ، ومعاندة العامة مضافاً إليها على الأرجح قابلية الذكاء الأوروبى الغربى للأفكار والمخترعات الميكانيكية وجهت الموقف وجهات أخرى جديدة تماماً .

ولا شك أن المفكرات الداعية إلى تكافل الناس وتماسكهم كانت بفضل المسيحية أوسع انتشاراً فى العالم الأوروبى الجديد ، ولم يكن النفوذ السياسى على مثل هذه الدرجة من التركيز ، ومن ثم أقنع كل رجل نشيط حريص على الإثراء عن فكرة الرقيق وعصابات العمال وتحول بفكره مختاراً لقوة الآلة و « المسكنة » .

وغنى عن البيان أن الانقلاب الميكانيكى : عملية الاختراع والاكتشاف الميكانيكية ، كانت شيئاً جديداً فى خبرة الإنسانية بهذه الدنيا ، كما أنها واصلت تطورها غير عابئة بما قد تحدثه من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية وصناعية ، وذلك فى حين أن الانقلاب الصناعى كان ولا يزال ككل الشئون الإنسانية - عرضة لتغيرات تزداد فى كل آن عمقاً وانحرافاً بسبب ما يحدثه الانقلاب الميكانيكى فى ظروف الإنسان وأحواله من التغيرات المتواصلة . والواقع أن الفرق الجوهرى بين تكديس الثروات وإبادة طبقى صغار الزراع وأرباب الأعمال ، وبين مرحلة المالىين الكبار فى أثناء القرون الأخيرة من الجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة المائلة لذلك من تركيز رأس المال فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، الواقع أن ذلك الفرق الجوهرى ينحصر فى الفرق العميق بين نوعى العمل والعمال الذى تولد عن الانقلاب الميكانيكى .

لقد كان الإنسان مصدر القوة المحركة فى العالم القديم . فكان كل شىء يعتمد اعتماداً تاماً على القوة الدافعة والمحركة الصادرة عن سواعد البشر وعضلاتهم : عضلات الجمل والأذلاء من الناس ، ولسنا ننكر أن قد شاركهم فى ذلك إلى حد قليل عضلات بعض الحيوانات التى جاءت فى صورة الثيران وما تجره والحيل وما تحملها ، إلى غير ذلك . فحيثما وجب رفع ثقل من الأثقال كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وحيثما

استلزم الأمر استخراج صخرة من محجر ، كان الرجال هم الذين يقطعونها ، وحيثما
لزم حرث أحد الحقول حرثه الرجال بمساعدة الثيران ، وكان للمركب البخارية نظير
لدى الرومان هو السفينة القديمة بما تحمل على جوانبها من صفوف مجدفين يرهقون إلى
أقصى حد ، لقد كانت نسبة ضخمة من البشر تسخر في عهد الحضارات الأولى في أعمال
الكدح العنيف الآلى البحت ، على أن الآلات المدفوعة بالقوة لم تبشر في البداية بأى
أمل في خلاص المكبودين من ذلك الكدح الآلى الذى لا ذكاء فيه ، فكانت فرق
ضخمة من الرجال تستخدم في تطهير الترع ، وفي شق أنفاق السكك الحديدية وعمل
الجسور على ضفاف الأنهار وما أشبه ذلك وتزايد عدد عمال المناجم زيادة هائلة .
ولكن اتساع مدى الوسائل الميسرة وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك كثيراً ،
وكما تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق الواضح للموقف الجديد يفرض
نفسه بصورة أصرح . فلم يعد البشر يطلبون كمصدر للقوة البحتة دون تمييز . ذلك
أن ما يستطيع الكائن البشرى عمله بصورة آلية كان شيئاً تستطيع الآلة أن تعمله
بدرجة أسرع وأحسن . فلم يعد الأمر يحتاج للكائن البشرى الآن إلا حيث يجب
استخدام العقل والذكاء والاختيار . فقد صارت الكائنات البشرية تطلب الآن
ككائنات بشرية ، أما ذلك الكادح المسخر الذى اعتمدت عليه الحضارات السابقة
جميعاً . ذلك المخلوق الذى عليه الطاعة العمياء ، والذى كان عقله أداة كاسدة لا لزوم
لها ، فقد صار غير ضرورى لصالح البشرية .

وقد انطبق هذا الحال على الصناعات القديمة كالزراعة والتعدين انطباقه على
أحدث العمليات المعدنية ، إذ ظهرت في ميادين الحرث والبذر والحصاد آلات سريعة
لتقوم بعمل عشرات الرجال . كانت المدنية الرومانية مؤسسة على كواهل كائنات
إنسانية زهيدة الأجر ذليلة النفس ؛ أما الحضارة العصرية فيعاد بناؤها على عاتق قوة
ميكانيكية ، رخيصة . وانقضت مائة سنة كانت القوة تزدد في أثنائها في كل يوم رخصاً
والعامل غلاء . فلتئن اضطرت المكنت أن تلتظر داخل المناجم جيلين أو ثلاثة حتى
يحين دورها ، فما ذلك إلا لسبب بسيط ، وهو أن اليد العاملة ظلت رديحاً من الزمان
أرخص من المكنت .

بذلك حدث في حياة الناس انقلاب ذو أهمية قصوى . لقد كان أكبر هم يقض
مضجع الغنى أو الحاكم في المدينيات القديمة هو طريقة الحصول باستمرار على ما يكفيه

من الكادحين الأذلاء . فإذا تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر اتضح للأذكىاء أنه لا مفر للرجل العادى من أن يعلو عن منزلة الكادح الدليل ؛ إذ لم يكن محيص من أن يتعلم - لكى يحصل على الكفاية الصناعية على الأقل . ولم يكن مندوحة من أن يفهم ما يراد منه . لقد ظل التعليم الشعبى يسرى بأوربا سرياً وثيداً بطيئاً منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، على غرار ما كان بآسيا حيثما وطئتها قدم الإسلام ، وذلك لضرورة تفهم المؤمن شيئاً قليلاً من العقيدة التى ستخلصه فى الآخرة ، وتمكينه من قراءة الشىء القليل من كتبه المقدسة التى تنقل إليه عقيدته تلك . وأفضت المجادلات بين المسيحيين بما انطوت عليه من تسابق لكسب الأنصار ، إلى تهيئة الجو لجنى ثمار التعليم الشعبى العام . مثال ذلك : أن منازعات الطوائف الدينية بانجلترا وحاجتها لكسب الأنصار إبان ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر أفضت إلى ظهور مجموعة من منظمات التعليم المتزاخرة على الأطفال ، منها المدارس القومية التابعة للكنيسة ، والمدارس البريطانية التابعة للخارجين عليها ، بل حتى المدارس الكاثوليكية الأولية . وكان النصف الثانى من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع فى التعليم الشعبى فى كل أرجاء العالم المنطبع بالطابع الغربى . ولم يساير هذا التقدم تقدم آخر مماثل له فى تعليم الطبقة العليا - أجل حدث شىء من التقدم لاجرم ولكنه لا يتساوى مع الأول بتاتاً - وهكذا لم تلبث الهوة العظيمة التى كانت تقسم العالم حتى الآن إلى قلة قارئة وجمهرة غير قارئة ، أن باتت لا تزيد عن فارق فى المستوى التربوى لا يكاد يدرك . ومن وراء هذه العملية كلها يكمن الانقلاب الميكانيكى ، غير عابىء فى الظاهر بالأحوال الاجتماعية ، ولكنه يلح بإصرار فى الواقع ودون هوادة على أن يقضى تماماً فى كل أرجاء الأرض على وجود طبقة مطلقة الأمية .

ولم يفهم أحد من عامة الناس بروما أبداً معنى الانقلاب الاقتصادى ولا أدرك كنهه ، فالمواطن الرومانى العادى لم يحس قط بالتغيرات التى يعيش فى كنفها بنفس الوضوح والشمول اللذين نشهدهما نحن بهما . أما الانقلاب الصناعى فكان وهو يدلف فى طريقه قرب نهاية القرن التاسع عشر عملية متكاملة يتزايد وضوح تكاملها كشيء واحد للعامة الذين وقعوا تحت تأثيرها ، وذلك لأنهم أصبحوا يستطيعون آنذاك القراءة والمناقشة والتراسل ، ولأنهم كانوا يتنقلون فى البلاد ، ويشهدون الدنيا كما لم يشهدوها أمثالهم من قبل .

الفصل التاسع والخمسون

تطور الآراء

السياسية والاجتماعية المعاصرة

نمت نظم الحضارات القديمة وعرفها وآراؤها السياسية ، وترعرعت ببطء عصرآ بعد عصر دون أن يرسم إنسان لها خطة أو يتنبأ إنسان لها بشيء ، ولم يحدث إلا في القرن السادس ق . م ، قرن المراهقة العظيم للبشرية ، أن فكر الناس بجلاء في علاقاتهم بعضهم ببعض ، وأن ناقشوا لأول مرة واقترحوا لأول مرة تغيير المعتقدات المستقرة والقوانين السائدة وأساليب الحكومة البشرية القائمة وإعادة تنظيمها .

وقد سبقت الإشارة إلى الفجر الفكري المجيد الذي لاحت تباشيره بأرض يونان ومدينة الإسكندرية ، وكيف تقوضت المدينيات المالكة للرقيق وتلبدت سماؤها بغيوم التعصب الديني واستبداد الحكومات المطلق ، مما عاجل ذلك الفجر فأسدل على ماترقرق فيه من الآمال ظلمة حالكه . ولم يبدأ نور التفكير الجريء . ينفذ من جديد بصورة فعالة خلال ذلك الليل المدامس الذي ران على أوروبا إلا حين أقبل القرنان الخامس عشر والسادس عشر . وقد حاولنا أن نعرض عليك شيئاً يبين فضل تلك الرياح العظيمة التي أثارها حب استطلاع العرب وفتوح المغول في تبديد بعض ما غشى السماء العقلية لأوروبا من الغيوم ، وأول من حظى بالزيادة هو المعرفة المادية بوجه خاص . فكانت أول الثمار التي عادت على الإنسان من استرداد إنسانيته مغنم مادية أحرزها وقوة مادية حصل عليها . ذلك أن علم السياسة البشرية ، وعلم النفس الفردي والاجتماعي ، وعلوم التربية والاقتصاد ليست دقيقة ومعقدة في حد ذاتها فحسب ، بل هي ترتبط ارتباطاً وثيقاً لا انفصام له بالشئ الكثير من النواحي العاطفية . وقد سار التقدم فيها بخطى أبطأ ، كما أنه لقي معارضة عظيمة . والناس يستمعون بهذوء تام إلى

أشد الآراء تبايناً حول النجوم أو الذرات ، ولكن الآراء المتصلة بطرائق العيش عندنا تمس كل فرد حولنا ، وتنعكس عليه .

وكما حدث ببلاد اليونان تماماً حيث سبقت تأملات أفلاطون الجريئة بحث أرسطو الرصين عن الحقيقة ، حدث في أوربا أيضاً أن صبت أول الأبحاث السياسية في المرحلة الجديدة في قالب قصص « اليوتوبيا^(١) » ، التي نقلت مباشرة عن « جمهورية » أفلاطون و « قوانينه » . و « اليوتوبيا » التي ألفها السير توماس مور محاكاة عجيبة لأفلاطون كانت ثمرتها صدور قانون جديد خاص بالفقراء بإنجلترا . على أن اليوتوبيا « النابولية » للفيلسوف كامبانا لا المسماة « مدينة الشمس » كانت أبعد في آفاق الخيال وأقل ثماراً واقعية .

وعند قرب نهاية القرن السابع عشر نلاحظ ظهور قدر ضخم ومتزايد من المؤلفات في العلوم السياسية والاجتماعية . ومن أوائل الأساطين في حلبة هذه الأبحاث جون لوك ، وهو ابن أحد الجمهوريين الإنجليز ، وعالم من علماء أكسفورد ، وجه عنايته في البداية إلى الكيمياء والطب . على أن مقالاته التي كتبها في موضوعات الحكومة والتسامح والتربية تكشف عن عقل شديد الوعي والإدراك لإمكانات البناء الاجتماعي . وظهر في فرنسا شخص يماثل لوك بإنجلترا ، وإن تأخر عنه قليلاً ، هو منتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) ، الذي وضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت عدسة التحليل الدقيق . لقد بلغ من قوة تأثير آرائه في فرنسا أنه خلع ثوب الهيبة السحرية الذي كان يحلل الملكية المطلقة ، وهو يشارك لوك في فضل إماطة كثير من الأفكار الزائفة التي ظلت حتى آنذاك تحول دون بذل المحاولات المتعمدة الواعية لإعادة بناء المجتمع الإنساني .

وكان الجيل الذي جاء بعده في الحلقات الوسطى والمتأخرة من القرن الثامن عشر جريئاً في تأملاته الفكرية في موضوعات التنقية الخلقية والفكرية التي أقام

(١) اليوتوبيا ويسمىها العرب « الطوبى » والفارابي « المدينة الفاضلة » : دولة مثالية تتصف نظمها السياسية والدينية والقضائية والاقتصادية بالكمال المطلق .

صروحها ، وراحت طائفة من أذكاء الكتاب ، هي « الموسوعيون » وكلهم رجل
 ثائر الروح حر النفس متخرج من مدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت) ، راحت
 تضع الخطة لعالم جديد (١٧٦٦) . وإلى جوار الموسوعيين نهض الاقتصاديون أو
 الفيزيوقراطيون ، الذين راحوا يجرون أبحاثا جريئة وفجة في إنتاج الأطعمة والسلع
 وتوزيعها ، ووافق مورلى مؤلف « قانون الطبيعة Code de La Nature » يشيد
 بنظام الملكية الخاصة ، ويقترح تنظيم المجتمع على أسس شيوعية ، فهو البشير الآذن
 بتلك المدرسة الضخمة المختلفة الفرق والمذاهب من المفكرين الحشديين (الجماعيين
 Collectivists) في القرن التاسع عشر ، الذين نطلق عليهم جميعاً ودون تمييز اسم
 الاشتراكيين (Socialists) .

ما هي تلك الاشتراكية ؟ إن للاشتراكية مائة تعريف وتعريف ، كما أن
 للاشتراكيين ألف فرقة وطائفة . والاشتراكية لا تخرج في جوهرها عن نقد لفكرة
 الملكية تحت ضوء المصلحة العامة ، ومنستعرض الآن بإيجاز شديد تاريخ تلك الفكرة
 على مر العصور ، فإنها هي وفكرة الدولية أو الشعوبية (Internationalism^(١))
 هما الفكرتان الرئيسيتان اللتان يدور حولهما الشطر الأعظم من حياتنا السياسية .

وترجع فكرة الملكية إلى ما ركب في الجنس البشرى من غريزة المقاتلة ، فقبل
 أن يكون الإنسان إنساناً حقاً بزمن مديد ، كان جده القرد الأعلى^(٢) يملك الممتلكات ،
 والامتلاك البدائي يقوم في الشيء الذي يقاتل من أجله أحد الحيوانات ، فثمة السكاب
 والعظمة ، والتمر ووجارها والظبي النافر وسربه ؛ وهي أمثلة للملكية الصارخة ،
 ولسنا نتصور أن علم الاجتماع به عبارة أتفه ولا أسخف من قولهم « الشيوعية
 البدائية » ، ذلك أن الرجل العجوز في قبيلة العائلة في أبكر العصور الحجرية القديمة
 كان يصر على امتلاكه لزوجاته وبناته وآلاته وعالمه المرئى المحيط به ، فإذا جاس أى
 رجل آخر خلال عالمه المرئى قاتله ، بل ذبحه إن استطاع .

(١) الدولية مذهب سياسى يدعى أنه قائم على مبدأ الأخوة الشاملة بين الناس ، ولذا ينزع
 إلى التقليل من أثر فوارق المصالح والأخلاق والمثل (أو تجاهلها) التى تقوم بين الأجناس
 والأمم .
 (٢) المؤلف هنا يشير إلى نظرية أصل الإنسان لدارون التى سبق أن أشار إليها في الفصول
 الأولى من الكتاب .
 [المترجم]

ونمت القبيلة على كر العصور كما أجاد التعبير عن ذلك أتكلسن في كتابه « primal Law » ، بفضل تسامح الرجل العجوز بالتدريج إزاء وجود الشبان الذين يصغرونه سنّاً ، وإزاء امتلاكهم للزوجات اللواتي يقتنصونهن من خارج القبيلة ، وإزاء الآلات والحلى التي يصنعونها ، والصيد الذي يتصيدونه ، فكأن المجتمع الإنساني قد نما بسبب التساهل المتبادل حول ممتلكات هذا وممتلكات ذاك ، وهو تساهل اقتضته الضرورة التي تدعو الرجال إلى التكافل لطرد قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرثى المحيط بهم ، فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضى أو أرضك ، فما ذلك إلا لأنه قد وجب أن تكون أرضنا ، ولا شك أن كلا منا كان يفضل لو كانت الأرض أرضه هو ، وليسكن ذلك شيء لا يمكن أن يكون ، ففي تلك الحالة يدمرنا الآخرون ، ولذا فإن الجماعة الإنسانية كانت منذ البداية قائمة على تخفيف حدة الملكية ، والامتلاك عند الوحش المتوحش وعند البدائي شيء أشد حدة مما هو في العالم المتعدين اليوم ، فهو أقوى تأصلاً في غرائزنا منه في عقولنا .

وليس لدائرة الامتلاك لدى المتوحش الطبيعي أو الرجل غير المتعلم في عصرنا هذا أى حدود تحدّها ، فكل ما استطعت أن تقا تل من أجله أمكنك أن تملكه ، سواء أكان ذلك امرأة أم أسيراً تبقى على حياته أم بهيمة تقبض عليها أم طريقاً في غابة أم محجراً أم أى شيء آخر ، فلما اتسع أفق المجتمع ظهر ضرب ما من القانون لكي يحول دون القتال الفتاك ، فأنتج الإنسان بضع وسائل فجّة مرتجلة لتسوية مشكلات الامتلاك ، وبمقتضاها أصبح الرجل يستطيع أن يمتلك أى شيء كان هو أول من صنعه أو أمسكه أو ادعاه لنفسه ، وبات يبدو طبيعياً أن كل مدين لا يستطيع سداد دينه ينبغي أن يصبح مملوكاً لدائنه ، ويعادل هذا في بساطته وسمته الطبيعية زعمهم بأن الرجل ينبغي له بعد أن يدعى امتلاك قطعة من الأرض أن يفرض على كل من شاء استعمالها شيئاً من المال أو العين .

ولم يشرع الإنسان محس أن تلك الملكية غير المحدودة لأى شيء كانت ماثراً للازعاج والمضايقة إلا بغاية البطء والتدرج ، وحين أشرقت عليه تباشير إمكانيات الحياة المنظمة ، فوجد الناس يولدون في عالم يملكه كله الغير أو يدعى ملكيته ، وليت الأمر يقتصر على ذلك وحده ١١ .. فإنهم كانوا يجدون أنفسهم ذاتها مملوكة للغير أو يدعى ملكيتها .

ومن العسير علينا الآن أن نتعقب الكفاحات الاجتماعية التي اندلعت في الحضارة الباكورة ، على أن التاريخ الذي روينا عن الجمهورية الرومانية يظهر لنا فيها مجتمعاً يستيقظ على دوى الديون ، ويتنبه إلى أنها قد تصبح مثار الإزعاج والمضايقة للأمة كافة ، ولذا فقد وجب إلغاؤها ونبذها ، وأن ملكية الأرض بصورة غير محدودة كانت هي الأخرى تنطوى على المضايقة والإزعاج ، ثم إننا نجد أن بابل حددت بشدة في أيامها المتأخرة امتلاك الرقيق : وأخيراً نجد في تعاليم ذلك الثوري العظيم يسوع الناصري من المهجوم والطمع على الملكية ما لم يحدث من قبل . أليس هو القائل « لأن يلج الجمل في سم الخياط أسير من أن يدخل الأغنياء ملكوت السموات . » ويلوح أن أجواء العالم في الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرناً الماضية ابتلأت بالنقد الدائم المتواصل العدى الذى يمكن أن يسمح بامتلاكه من الممتلكات . وبعد يسوع الناصري بتسعة عشر قرناً نجد أجزاء العالم التي مستها تعاليم النصرانية من بعيد أو قريب مقتنعة بأنه لا يجوز للإنسان امتلاك أخيه الإنسان . وثم فكرة أخرى تزلزلت أركانها كثيراً فيما يتعلق بأنواع أخرى من الممتلكات . وهى فكرة أن الإنسان حر يستطيع أن يفعل ما يشاء فيما يملك .

ولكن ذلك العالم الذى نتحدث عنه قرب نهاية القرن الثامن عشر كان لا يزال من حيث تلك المسائل في مرحلة الشك والتساؤل والاستفهام . لم يكن قد حصل على شيء بلغ القدر الكافى من الوضوح ، فضلاً عن أن يبلغ القدر الكافى من الثبات والاستقرار ، لكي يطمئن إليه ويبنى على أساسه . فقد كان من بين ما داخله من البواعث الأولى وقاية الملكية من شرارة الملوك وتبديدهم واستغلال النبلاء المغامرين . لذا كان اندلاع الثورة الفرنسية لغرض رئيسى إلى حد كبير ، هو وقاية الملكية الخاصة من الضرائب . ولكن مبدأ المساواة الذى اعتنقته تلك الثورة جرفها في تياره لجعلها تلتقد الملكية التي نهضت لحمايتها ، فكيف يمكن أن يكون الناس متساوين بينما حشود عظيمة منهم لا يملكون أرضاً يتعيشون منها ، ولا طعاماً يأكلونه ، كما أن الملاك يأبون - بالبداية - أن يطعموهم أو يؤوهم ما لم يعملوا ويكدحوا !! واشتدت لذلك شكوى الفقراء .

ولم يكن لدى إحدى الجماعات السياسية الهامة من جواب لهذا اللغز إلا الشروع في التقسيم . لقد شاءوا أن يبالحوا في الملكية ويقروها ، ولكن كانت هناك أيضاً

جماعة الاشتراكيين البدائيين أو الشيوعيين إن شئت تعبيراً أدق — الذين كانوا يريدون الوصول إلى نفس الهدف عن طريق آخر ، والذين أرادوا إلغاء الملكية الخاصة إلغاء تاماً . فارتأوا أن الدولة (ومفهوم أنها دولة ديمقراطية طبعاً) تمتلك جميع الممتلكات .

لذا فمن المفارقات العجيبة أن رجالاً متنوعين يهدفون إلى الهدف نفسه من الحرية والسعادة يقترحون من ناحية جعل الملكية مطلقة إلى أقصى حد مستطاع ، ويقترحون من ناحية أخرى القضاء عليها قضاء مبرماً ، ولكن ذلك هو ما حدث فعلاً . ومفتاح هذا التناقض العجيب يكمن في أن الامتلاك والملكية ليساً شيئاً واحداً بل مجموعة كبيرة من أشياء مختلفة .

وبتقدم القرن التاسع عشر شرع الناس لأول مرة يدركون أن الملكية ليست شيئاً واحداً ولا بسيطاً ، ولكنها شيء معقد كبير من ملكيات ذات قيم مختلفة وآثار مختلفة ، وأن أشياء (منها على سبيل المثال جسم الإنسان وأدوات الفنان والثياب وفرشة الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصية إلى أقصى حد وبصورة لا سييل إلى حلها أو علاجها ، وأن هناك مجالا عظيماً من الأشياء ، منها مثلاً السكك الحديدية وأنواع مختلفة من المكنات والبيوت والحدائق المزروعة وقوارب النزهة ، وكل منها تحتاج إلى دراسة خاصة جداً لتحديد المدى والقيود التي تدرج بمقتضاها تحت صنف الملكية الخاصة . وإلى أي حد تقع في الملكية العامة ، ومن ثم يجب أن تديرها الدولة وتؤجرها للناس من أجل مصلحة الجماعة . ومن شأن هذه المسائل أن تتحول حين تطبق عملياً إلى ميدان السياسة ، وإلى مجال مشكلة إنشاء النظام الإداري المقتدر للدولة ، وصيانتها والمحافظة عليه . وهي تفتح أبواب مسائل تدخل في صميم علم النفس الاجتماعي ، كما أنها تتفاعل مع أبحاث علم التربية . ولذا فإن نقد الملكية لا يزال عملية اختبار هائلة محتمة أكثر منه علماً له أصول ثابتة . فكان هناك من جهة دعاة مذهب الفردية (Individualists) الذين يطالبون بوقاية بل توسيع حرياتنا الراهنة في التصرف فيما نملك ، وهناك من جهة أخرى أولئك الاشتراكيون الذين يطالبون بتجميع ملكياتنا في كثير من النواحي وبالحد من تصرفاتنا في ممتلكاتنا . ولو نظرت بعين الفاحص إلى الواقع العملي لوجدت

آلاف من درجات الفوارق التي تفصل بين متطرفة الفرديين ، الذين لا يكادون يطيقون فرض ضريبة من أى نوع لتمويل حكومة من الحكومات ، وبين الشيوعيين الذين ينكرون الملكية إنكاراً باتاً .

والاشتراكي العادى فى هذه الايام يمكن أن يطلق عليه اسم الجماعى ، وهو يرضى بقيام قدر جسيم من الملكية الخاصة ، ولكنه يرى أن يوضع أمثال التعليم والنقل والمناجم وامتلاك الأرض ومعظم الإنتاج الكبير للمواد الأساسية وما إلى ذلك من شئون فى يد دولة على مستوى رفيع من التنظيم . والظاهر لنا فعلاً فى هذه الأيام أن كثيراً من الرجال المقولين قد أخذوا يتجهون بالتدريج نحو الأخذ باشتراكية معتدلة تقوم على الدراسة العلمية والخططة المدروسة علمياً . ذلك أن الناس أخذوا يزدادون إدراكاً أن الرجل غير المتعلم لا يتعاون بسهولة ولا بنجاح فى الشئون العظيمة ، وأن كل خطوة تخطى فى سبيل إقامة دولة أكثر تعقيداً وكل « وظيفة » تسحبها الدولة من ذوى الجهود الخاصة (Private Enterprise) لتتولاها بنفسها تقتضى بالضرورة قيام ما يواجهها من التقدم التربوى ، كما تقتضى تنظيم نوع من النقد والضبط والهيمنة ، وذلك فى حين أن كلا من الصحافة الموجودة الآن والوسائل السياسية التى تتبعها الدولة المعاصرة لنا حالياً من الفجاجة والسذاجة بمنزلة كبيرة جداً لاتسع بأى توسيع كبير للمناشط الحشدية .

على أنه جاء حين من الدهر أدت فيه الأزمات التى نشبت بين صاحب العمل والعمال ولاسيما ما كان منها بين صاحب العمل الأناى والعامل المتبرم العنيد ، إلى انتشار نوع الشيوعية الأولى الشديد العنف بكل أرجاء العالم ، وهو النوع الذى يرتبط باسم ماركس . وقد أسس ماركس نظرياته على اعتقاده أن عقول الرجال محدودة تحددها احتياجاتهم ولوازمهم الاقتصادية ، وأن هناك تطاحناً فى المصالح يقوم فى حضارتنا الراهنة بين طبقات الناس الغنية صاحبة العمل وبين الكتلة العاملة .

ومن البديهي أن تقدم التعليم الذى استلزمه الانقلاب الميكانيكى لا بد أن يجعل هذه الغالبية الكبيرة العاملة ذات « وعى طبقي » بل يجعلها تزداد كل يوم صلابة وعنفاً فى خصومتها للأقلية الحاكمة ذات « الوعى الطبقي » هى أيضاً . تبدأ ماركس بأن العمال ذوى الوعى الطبقي سيستولون على السلطة بطريقة ما ، ويفتتحون بذلك حالة اجتماعية

جديدة : ولاشك أن الخصومة والتمرد واحتمال الثورة أمور مفهومة إلى حد كاف ، ولكن ذلك لا يستتبع قيام حالة اجتماعية جديدة أو أى شىء آخر إلا أن يكون ذلك الشىء حدوث عملية تدمر المجتمع .

حاول ماركس أن يجعل الخصومات الطبقة تحمل محل الخصومات القومية ؛ وأنشأ أنصار مذهبه على التعاقب ثلاث منظمات هى الدولية الأولى والثانية والثالثة . ولكن فى الإمكان الوصول أيضاً إلى أهداف تلك « الدولية » وآرائها عن طريق نقطة البداية التى تبدأ عندها آراء مذهب الفردية العصرية . ولقد زاد إدراك الناس كل يوم قوة منذ أيام آدم سميث الكتاب الاقتصادى الإنجليزى العظيم ، كما زاد اقتناعهم أنه لا بد للحصول على أسباب الرخاء فى العالم من قيام التجارة حرة لا يعوقها عائق بأى جزء من أجزائه . وأنصار المذهب الفردى بما يظهرون من عداوة للدولة إنما يعادون أيضاً التعريفات الجمركية والحدود السياسية وكل ما يحد حرية التصرف والحركة من قيود قد تبررها التخوم القومية . ولعله مما يشوقنا أن نشهد مذهبين من مذاهب الفكر يتباعدان فى روحهما ذلك التباعد الشديد ، ويختلفان فى المادة والجوهر ، وأعنى بهما مذهب اشتراكية حرب الطبقات المنسوب لأنصار ماركس ، والفلسفة الفردية الداعية إلى حرية التجارة المنسوبة إلى رجال الأعمال البريطانيين فى عهد الملكة فكتوريا . أقول نشهدهما يتجهان فى النهاية - على الرغم من هذه الفوارق الابتدائية - نحو نفس الدعوة إلى معالجة الشؤون الإنسانية معالجة عالمية شاملة تتجاوز تخوم كل دولة قائمة حالياً وقيودها . ولاشك أن منطق الحقيقة الواقعة ينتصر دائماً على منطق الآراء النظرية ، ذلك أننا بدأنا ندرك أن نظرية الفرديين ونظرية الاشتراكيين ، ولو أن لهما نقط ابتداء متباعدة تباعدا عظيماً فهما جزء من بحث عام : بحث عن أفكار وتأويلات جديدة اجتماعية وسياسية أوسع مدى ، يستطيع الناس أن يحاولوا العمل معاً على أساسها ، بحث ابتداءً ثانياً بأوربا واشتد ساعده فى نفس الوقت الذى اضمحلت فيه ثقة الناس فى فكرتى الدولة الرومانية المقدسة والمسيحية . وفى نفس الوقت الذى وسع فيه عصر الاستكشافات آفاقهم فتجاوز بها عالم البحر المتوسط إلى الدنيا بمسار رحبت .

على أن مواصلة الحديث فى موضوع تفصيل وتطور فكراتنا الاجتماعية والاقتصادية

والسياسية حتى نصل به إلى ما يدور في أيماننا هذه من أبحاث ومناقشات ، يكون معناه إدخال مشكلات جدلية بالغة تخرج تماماً عن مجال هذا الكتاب وأهدافه، ولكننا حين نشهد هذه الأشياء كما نشهدها الآن من وجهة نظر دارس التاريخ العالمى العام الفسيحة الآفاق ، نشعر بأننا مضطرون أن نعترف أن الذى نرى من إعادة صوغ هذه الفكرات التوجيهية فى العقل البشرى لا يزال شيئاً ناقصاً - حتى لنسكاد لاستطيع أن نقدر مدى بعد ذلك الشئ عن الكمال إذ يلوح أن هناك معتقدات معينة قد أخذت تتبلور فعلاً ، كما أنها قوية الأثر اليوم فى الأحداث السياسية والتصرفات العامة ؛ ولكنها يعوزها حتى الآن شئ من الوضوح وشئ من قوة الإقناع حتى تستطيع أن تضطر الناس بصورة محددة ومنظمة إلى إدراكها . ذلك أن تصرفات الناس تتردد كثيراً بين الإبقاء على التقاليد والإقدام على الجديد ، كما أنهم ينحرفون على الجملة إلى الشئ التقليدى ، على أنها الوقورنت بأفكار الناس قبل زماننا هذا بما لا يتجاوز الجيل الواحد على قصر أمده ، لبانت لنا بالفعل تباشير معالم نظام جديد لشئون البشر فى طور التشكل . ولا شك أنها معالم متقطعة تخفى فى هذه النقطة وتلك ، وتغورها التقلبات فى تفاصيلها وصياغة مذهبها ، ومع ذلك فهى لا تبرح تزداد وضوحاً ، كما أن خطوطها الرئيسية لا تفتأ يقل فيها التغير رويداً رويداً .

ذلك أن الناس أخذوا يستبينون على كثر الأيام بشكل أوضح وأنصح ، أن البشرية أخذت تصبح مجتمعاً واحداً من نواح عدة ، وفى مجال رحب ومتزايد من الأمور ، وأن من ألزم الضرورات أن تقوم فى مثل تلك الشئون هيمنة وضبط يشملان العالم طراً . مثال ذلك ، أن الناس يزدادون كل يوم إدراكاً بأن هذا الكوكب كله هو الآن مجتمع اقتصادى واحد ، وأن الاستغلال الصحيح لموارده الطبيعية يتطلب ترجيحها واحداً شاملاً ، وأن القوة الكبرى والمجال الأكبر اللذين خولها الاختراع والمخترعات للجهد البشرى يجعلان الإدارة الجزئية المنكوبة بالمنازعات والمشاحنات فى مثل تلك الشئون أحفل بالأخطار وأشد تبديداً وإتلافاً لتلك الموارد ، ثم إن وسائل الإصلاح المسالية والنقدية تصبح هى أيضاً موضع اهتمام عالمى عام ولا يمكن معالجتها بنجاح إلا على أسس عالمية عامة . وقد اتضح للناس كافة أن الأمراض المعدية وزيادة عدد السكان وهجرتهم من الشئون العالمية أيضاً . أما الحرب فإن تزايد قوة النشاط البشرية ومجالها قد جعلت منها (الحرب) وسيلة لا تتناسب فوائدها مع التدمير

والفساد اللذين يترتبان عليهما ، بل لقد أصبحت عديمة الأثر وإن استعملت كوسيلة سمجة قبيحة لتسوية المشكلات الناشئة بين حكومة وأخرى وشعب وآخر ، هذه الأمور جميعا تجار مطالبة بإقامة وسائل ضبط وسيطرة ذات سلطات أوسع مجالا وأعظم شمولاً مما بلغته أى حكومة قامت إلى اليوم .

ولكن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن السبيل إلى حل هذه المشكلات هو إنشاء حكومة عليا بشكل ما للعالم كله تقوم على الفتح والقوة أو الائتلاف بين الحكومات الموجودة . وقياسا على النظم الموجودة وتمثلا بها ، فكر الناس في إنشاء « برلمان البشرية » وفي (كونجرس) للعالم ، وفي تنصيب رئيس أو إمبراطور للأرض . وبديهي أن يكون رد الفعل الطبيعي الأول للفكرة متجها إلى مثل تلك النتائج ، ولكن مناقشة وتجربة الآراء والمحاولات في مدى خمسين عاما قد أوهنت على الجملة الاعتقاد في الفكرة الأولى الواضحة ، فإن ما اعترض سبيل تلك الدولة الواحدة العالمية من مقاومات كان عظيما جداً . ويبدو أن الفكر يتجه الآن صوب إنشاء عدد من اللجان الخاصة أو المنظمات الخولة سلطة عالمية شاملة من جانب الحكومات القائمة لمعالجة هذه المجموعة أو تلك من الشؤون أو القيام بها ، وهى هيئات تهتم بدراسة تبيد الثروة الطبيعية أو تنميتها ، وبإيجاد التوازن بين ظروف العمال وأحوالهم ، وبالسلام العالمى وبمشكلات العملة والسكان والصحة وما إلى ذلك .

وعندئذ قد يكتشف العالم أن جميع مصالحه العامة تعالج ككل واحد ، على حين يفوته في نفس الوقت أن يدرك أن العالم تقوم فيه حكومة عالمية . ولكن قبل أن يبلغ الناس مثل تلك الدرجة من الوحدة البشرية ، وقبل أن توضع مثل تلك التنظيمات الدولية فوق الشبهات والغيبرات الوطنية الضيقة ، لابد أن يقتنع عقل البشر عامة بفكرة تلك الوحدة الإنسانية . وأن تكون الفكرة المتعلقة بالبشرية كعائلة واحدة ، فكرة تعلم وتفهم للناس كآفة في كل أرجاء العالم بأسره .

وقد عاش روح الديانات العامة العظيمة عشرة قرون أو تزيد مكافئا مناظلا في سبيل صيانة ونشر فكرة تلك الأخوة العالمية العامة ولكن الحقد والغضب والتشكك التى تولدت في الماضى عن المنازعات القبلية والقومية والعنصرية لا تزال تسد السبيل إلى اليوم — بل تسد السبيل تماما وبنجاح تام — أمام انتشار الآراء الروحية والبواعث

السمعة التي تجعل من الرجل منا خادماً للبشرية كلها . إن فكرة الأخوة البشرية تسكفح الآن للاستيلاء على أرواح البشر ، كما كافت بالضبط فكرة المسيحية للاستيلاء على روح أورباني أثناء فترة الارتباك والفوضى التي غشيتها في القرنين السادس والسابع للحقبة المسيحية . ولا بد من أن يتم انتشار مثل تلك الأفكار ونصرها على يد جمهرة ضخمة من المبشرين المخلصين المتواضعين ، وليس في مقدور أى كاتب معاصر أن يدعى العلم بالمدى الذي بلغه اليوم مثل ذلك العمل ولا نوع المحصول الذي يهيئه لنا الآن .

والظاهر أن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية تختلط بالمشكلات الدولية اختلاطاً لا سبيل إلى فصله ، كما أن حل كل مشكلة منها ينحصر في التماس نفس روح الخدمة الإيثارية الذي يستطيع أن يدخل القلب الإنساني ويملاؤه إلهاماً . وإن ارتباط الشعوب وعنادها وأنانيتها لتعكس آثارها بل تنعكس هي نفسها عن ارتباط الفرد من الملاك أو العمال أو عناده أو أنانيته إزاء الصالح العام ، وغلو الأفراد في روح الملكية يماثل ، بل هو جزء لا يتجزأ من الشرارة الجشعة التي تبديها الشعوب والأباطرة . وذلك أنها ثمار الميول الغريزية نفسها ، وتنتج نفس الجهالات والتقاليد . والشيوعية الدولية إنما هي اشتراكية الأمم . وما يستطيع إنسان بحث هذه المشكلات أن يشعر أن علم النفس بلغ الآن القدر الكافي من العمق والقوة أو أن الطرائق والتنظيمات التربوية أخذت حظها الكامل من قوة التخطيط ، بحيث تسكفل إيجاد حل حقيقي ونهائي لهذه الألغاز المعماة المتعلقة باختلاط البشر وتعاونهم . فنحن اليوم من عدم القدرة على إنشاء منظمة عالمية للسلام فعالة الأثر حقاً كسكان العالم في ١٨٢٠ من حيث عجزهم عن إنشاء السكك الحديدية الكهربائية . ولكن تلك الفكرة ليست — على الرغم من كل مالدينا من مقدمات — بعيدة التحقيق ، وما يدرينا فلعلها قريب قرب الأخرى .

وما يستطيع إنسان أن يتجاوز حدود معرفته ، وما يستطيع فكر أن يتجاوز حدود الفكر المعاصر ، كما أن من المحال علينا أن نمحس أو نتنبأ كم من أجيال البشرية سيضطرون إلى خوض أهوال الحروب ومزاولة تبيد الأموال والأنفس ومكابدة الخوف وعدم الطمأنينة والشقاء قبل أن يبرز فجر السلام العظيم الذي يبدو أن التاريخ بأكمله يتجه صوبه ومشير إليه بالبنان ، سلام يعمر القلب وسلام يعم الدنيا ، — أقول يبرز ذلك الفجر فيضع حداً لحياتنا المبددة للقوى والأنفس والخالية من كل هدف ترمى إليه . وبديهي أن ما نقرحه لهذه الأمور من حلول لا تزال غامضة فجيعة يعوزها النضج .

ذلك أن الأهواء تكتنفها والشبهات تعتورها . أجل إن جهدا عظيما يبذل الآن في ناحية الإنشاء والبناء الفكرى ، ولكنه لا يزال ناقصاً . كما أن تصوراتنا للمعنى العام لذلك الأمر تزداد في كل يوم وضوحاً وضبطاً . فهل يحدث ذلك بسرعة أم يبطئ ؟ ذلك ما لا نستطيع الإجابة عنه . ولكنها كلما زادت جلاء زاد مبلغ تأثيرها في عقول الناس وأخيلتهم ، ولعل السبب في قلة تأثيرها الراهنة إنما يرجع إلى حاجتها إلى التأكيد لا إلى افتقارها إلى الصحة الحتمية . ويساء فهمها لأنها تعرض على صور متباينة محيرة . على أن ذلك الحلم الجديد للعالم سيفوز بالقوة الجارفة عندما يحظى بالدقة واليقين . وربما فاز بتلك القوة فوزاً سريعاً . وعندئذ لا بد وأن يؤدي ذلك الفهم الجلى إلى عمل عظيم من إعادة البناء التربوى .

الفصل الستون

امتداد رقعة الولايات المتحدة

كانت أمريكا الشمالية أول إقليم في العالم تجلت فيه أروع وأسرع ثمار المخترعات الحديثة في وسائل النقل . والولايات المتحدة هي الدولة التي تجسدت فيها من الناحية السياسية الأفكار الحرة لأواسط القرن الثامن عشر ، كما تبلورت تلك الأفكار نفسها في دستورها . فإنها استغنت عن كنيسة الدولة وتاجها ، وأبت أن تسمح بوجود الألقاب فيها ، وأظهرت غيرة شديدة في حماية الملكية بوصفها ضرباً من الحرية ، كما أنها قد منحت لكل بالغ ذكر الحق في التصويت وإن اختلفت في البداية الوسائل الدقيقة لتنفيذ ذلك باختلاف الولايات . وكانت طرائق التصويت عندهم فجيجة بصورة بربرية لا مثيل لها ، ولذا فإن حياتها السياسية سرعان ما وقعت في قبضة جماعات حزبية شديدة التنظيم ، ولكن ذلك لم يمنع الشعب الحديث التحرر من إظهار همه ونشاط في الجهد واهتمام بالمسائل العامة تفوق ما بذله أى شعب معاصره .

ثم جاءت الزيادة في سرعة النقل التي أسلفنا الإشارة إليها . ومن العجيب حقاً أن أمريكا التي تدين أكثر من جميع الدول بفضل هذه الزيادة في سرعة النقل كانت أقل الدول إحساساً بها ، ذلك أن الولايات المتحدة تناولت السكك الحديدية والزورق النهري البخاري والتلغراف وما إلى ذلك من مستحدثات كأنما هي جزء طبيعي من نموها ، والواقع أنها لم تكن كذلك . وكل ما حدث ، هو أن هذه الأشياء وصلت في أنسب الأوقات فأثقلت وحدة أمريكا . وكان الزورق النهري البخاري أول واضع الحجر الأساس للولايات المتحدة ، وكانت السكك الحديدية هي الدعامة الثانية لها . فلولا هذين الاختراعين ، لاستحال قيام الولايات المتحدة ، تلك الأمة الضخمة التي تعمر قارة بأكملها . ولولاها لصار انسياح السكان غرباً أبطأ كثيراً ، ولعل انسياحهم هذا لم يكن بمستطيع قط لولاها تجاوز السهول الوسطى العظيمة . فقد استغرق وصول الاستقرار الفعلي من الساحل الشرقي إلى نهر الميسوري حوالي مائتي سنة ، مع أنها مسافة تقل كثيراً عن نصف الطريق بين المحيطين ، وأول ولاية أسست وراء النهر هي ولاية الميسوري

المعتمدة على الزورق البخارى والى قامت فى ١٨٢١ . على أن بقية المسافة إلى المحيط الهادى تمت فى بضع عشرات من السنين .

ولو كان فى متناول أيدينا استخدام السينما لأمتعناك بعرض خريطة لأمرىكا الشمالية عاما بعد عام منذ ١٦٠٠ فما بعدها ، مع وضع نقط صغيرة لتمثيل مئات الناس الذين كانوا بها ، على أن تمثل كل نقطة مائة ، ووضع نجوم لتمثيل المدن التى يبلغ عدد سكانها مائة ألف فأكثر .

وعند ذلك يرى القارىء أن التنيق سيظل مائق عام يزحف ببطء على امتداد المناطق الساحلية والمياه والأنهار الصالحة للملاحة ، وأنه ينتشر بتدرىج أبطأ كثيراً فى ولايتى إنديانا وكنتاكي وغيرهما . ثم يحدث فى زمن ما يقارب ١٨١٠ تغيير مفاجئ ، إذ تنشط الأمور كثيراً فى مجارى الأنهار . وعند ذلك تتسكاثر النقط وتنتشر . وما ذلك إلا لظهور الزورق البخارى . وعندئذ تظهر النقط الأمامية وهى تتقدم سريعاً فوق أراضى كنساس ونبراسكا مبتدئة من عدد من نقط الارتحال على امتداد الأنهار العظيمة .

ثم تظهر سنة ١٨٣٠ الخطوط السوداء الممثلة فى الخرائط للسكك الحديدية ، ومنذ ذلك الحين لا تكتفى النقط الصغيرة السوداء بالزحف البسيط بل تنطلق مهرولة . فإنها تظهر عندئذ على الخريطة بسرعة عظيمة جداً حتى لتكاد تقول إن ضرباً من الرشاشة هو الذى يقذفها على الخريطة ، وعلى حين فجأة تظهر هنا وهناك أول النجوم التى تشير إلى أول المدن العظيمة الحاوية لمائة ألف من السكان ، وإذا هى فى البداية مدينة أو اثنتان لا تلبث أن تصبح عدداً غفيرا من المدن . وكل منها كعقدة فى الشبكة النامية للسكة الحديد .

وقد كان نمو الولايات المتحدة تطورا لا عهد للناس بمثله فى تاريخ هذا العالم ؛ فإنها حدث من نوع جديد . وما كان من الممكن قبل ذلك نشوء مثل هذا المجتمع ، ولو أنه ظهر دون سكك حديدية فلا شك أنه لم يكن محيص من أن يتمزق بددا قبل عصرنا هذا بزمان طويل . فلو لم يوجد التلغراف أو السكة الحديد لأصبحت إدارة كاليفورنيا من مدينة ييكنين أسهل كثيرا منها من واشنطن ، على أن هذا العدد الهائل من سكان الولايات المتحدة الأمريكية لم يتضخم على نحو رهيب خارق وحسب ، بل ظل منسجما

ممتناسقاً ، بل الواقع الذى لا شك فيه أنهم زادوا انسجاماً واتساقاً . فالرجل الذى يسكن سان فرانسيسكو أقرب اليوم إلى رجل نيويورك من ساكن فرجينيا إلى ساكن نيو إنجلند قبل يومنا هذا بقرن من الزمان كما أن عملية التمثيل ماضية في طريقها لا يعوقها عائق . فكيان الولايات المتحدة تنسجه وتحبك أطرافه السكك الحديدية والتلغراف ، فتجعل منه على التدريج مجتمعاً هائلاً موحداً ، يتحدث ويفكر ويتصرف في انسجام تام مع نفسه ، ولن يمضى زمن حتى يؤدي الطيران واجبه من المشاركة في هذه العملية .

إن هذا المجتمع العظيم للولايات المتحدة شيء جديد حقاً لا نظير له في التاريخ . أجل سبقتها في الوجود إمبراطوريات عظيمة بلغ سكانها مائة مليون نسمة ، ولكنها كانت جماعات من شعوب متباينة ، ولم يحدث قط أن ظهر على هذا المقياس قبلها شعب واحد بمفرده ، لهذا فالتاريخ بحاجة إلى مصطلح جديد يعبر عن هذا الشيء الجديد . ذلك أننا نسمى الولايات المتحدة قطراً ، ولكن شتان بين الشيشين ؛ فالفرق بينهما كالفرق بين السيارة والعربة التي يجرها حصان ، لقد أنشأتها عهود متباينة وظروف متباينة ، وهما تقبلان على أعمال الحياة بسرعة مختلفة وتتناولانها بطريقة مختلفة تماماً . فالولايات المتحدة بما ركبت عليه من مدى هائل وإمكانات ، تقف في منتصف الطريق بين دولة أوربية من الطراز القديم وبين ولايات متحدة تشمل العالم أجمع .

على أن الشعب الأمريكى مر وهو في طريقه إلى هذه العظمة والطمأنينة في مرحلة من مراحل النضال العنيف القاسى . ذلك أن الزورق النهري البخارى وسكة الحديد والتلغراف وما إليها من وسائل النقل المريحة ، لم تظهر بالسرعة الكافية لتجنيب البلاد ويلات صراع على المصالح والأفكار نشب بين ولايات الاتحاد الجنوبية والشمالية ، فكانت الولايات الأولى تملك الرقيق ، وكانت الثانية ولايات كل من فيها من الناس حر طليق ، ولم تشمر السكك الحديدية والزورق البخارى في البداية إلا ثمرة واحدة هي زيادة حدة الصراع بين الآراء المختلفة آنفاً التي كان يعتنقها شطرا الولايات المتحدة ، فإذا تزايدت وحدة الشقين نتيجة لوسائل المواصلات الجديدة اشتد بروز هذه المشكلة وإلحاحها : فهل ينبغي أن تسود فكرة الجنوب أو تتغلب روح الشمال ؟ . وكان احتمال تفاهم الطرفين ضعيفاً . ذلك أن الروح الشمالية كانت حرة تدعو إلى تزكية الفردية ، أما الجنوبية فتتجه نحو المزارع الضخمة ونحو تسلط سادة ذرى وعى طبق على جماهير سوداء ذليلة .

وكانت كل منطقة جديدة تنتظم أمورها وتصبح ولاية مع تقدم سيل السكان غرباً ، أى كل جزء يضاف إلى النظام الأمريكى الهائل المتواصل النماء ، يتحول إلى مسرح للصراع بين الفكرتين : فهل ينبغى أن تكون الولاية الجديدة ولاية مواطنين أحرار أم سيسودها نظام المزرعة الكبيرة والعبد المملوك ؟ ؛ لذا فإن جمعية إلغاء الرق الأمريكية راحت منذ ١٨٣٣ لا تقاوم فقط بسط فكرة الرق ونظامه بل تثير الرأى العام فى البلاد كلها لإلغائه إلغاء تاماً ، ولم تلبث المسألة أن تحولت إلى صراع صريح حول موضوع إدخال ولاية تكساس فى الاتحاد . كانت ولاية تكساس فى الأصل جزءاً من جمهورية المكسيك ، ولكن معظم سكانها كانوا مستوطنين أمريكيين نزحوا إليها من الولايات التى تبيع الرق ، فلما انفصلت عن المكسيك وأعلنت استقلالها فى ١٨٣٥ ، ألحقت بالولايات المتحدة فى ١٨٤٤ ، وكان الرق محظوراً بتكساس بمقتضى القانون المكسيكى ، ولكن الجنوب أخذ يطالب آنشد بإباحة الرق بها وضمها إليه ، وفعلت له ما أراد .

وفى ذلك الحين نفسه أخذ نمو الملاحة فى المحيط وتطورها يجلب من أوروبا حشوداً متزايدة من المهاجرين زادت كثيراً فى سكان الولايات الشمالية الزاحفين بمستقراتهم غرباً مما ترتب عليه تحويل مناطق إيوا وويسكونسن ومينيسوتا وأوريجون - وكماها مناطق زراعية شمالية - إلى ولايات ، فأدى ذلك إلى منح الشمال المناوىء للرق فرصة التفوق فى كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، واثارت ثائرة الجنوب الزارع للقطن ، لنمو قوة أنصار حركة إلغاء الرقيق وتهديدهم لمصالحه ، وخشى مغبة هذا التفوق فى الكونجرس ، فشرع يتحدث مطالباً بالانفصال عن الاتحاد ، بل لقد شرع الجنوبيون يحمون بضم المكسيك إليهم فى الجنوب هى وجزائر الهند الغربية ، وبإنشاء دولة عظيمة تبيع الرق وتنفصل عن الشمال وتمد حدودها حتى بنما .

على أن انتخاب أبراهام لنكولن رئيساً للدولة ١٨٦٥ - وهو يدين بمذهب عدم مد حدودها جنوباً - دعا الجنوب إلى الإقدام على الانسلاخ عن الاتحاد ، وأصدرت ولاية كارولينا الجنوبية مرسوماً بالانفصال ، وتأهبت لخوض غمار الحرب . وانضمت إليها بعد ذلك ولايات المسيسيبي وفلوريدا وألاباما وجورجيا ولوزيانا وتكساس ، واجتمع بمدينة منتجمرى بولاية ألاباما مؤتمر انتخب جفرسون دافيز رئيساً لولايات الجنوب المؤتلفة ، واعتمد دستوراً يناصر بوجه خاص نظام الرقيق الزنجى .

وتصادف أن كان أبراهام لنكولن رجلاً يمثل تماماً طراز الشعب الجديد الذي ترسخت أقدامه بعد حرب الاستقلال . قضى أيامه الأولى يعيش في غمرة تيار السكان العام المتجه غرباً . ولد بولاية كنتوكي في ١٨٠٩ ، ثم انتقل إلى إنديانا وهو غلام ، وإلى إلينوا فيما بعد . وكانت الحياة في مجاهل غابات إنديانا في أثناء تلك الأيام خشنة مليئة بشظف العيش ؛ ولم يكن المنزل الذي عاش فيه ، إلا كشكا من الكتل الخشبية يقوم في البرية كما أنه لم يصب من التعليم إلا قسطاً ضئيلاً ومتقطعاً . ولكن أمه علمته القراءة منذ حداثة ومن ثم أصبح قارئاً منموماً واسع الاطلاع . ولما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً ضخم الجثة يهوى المصارعة والعدو . وعمل ردحا من الزمن كاتباً بأحد المتاجر ، ثم فتح متجرًا مع شريك سكير ، فوقع في ربة ديون لم يتيسر له سدادها إلا في مدى خمسة عشر عاماً . وما لبث أن انتخب في ١٨٣٤ عضواً في مجلس النواب عن ولاية إلينوا وهو بعد في الخامسة والعشرين من عمره . وكانت مسألة الرق يتأجج لهيبها بولاية إلينوا بوجه خاص وذلك لأن السناتور دوجلاس الزعيم الكبير لحزب نشر الرق في الكونجرس القومي ، كان عضو مجلس الشيوخ عن تلك المقاطعة . وقد أوتى دوجلاس مقدرة عظيمة ومكانة رفيعة ، وظل لنكولن يضع سنين يحاربه بالخطب والنشرات ، وهو يرقى على الدوام إلى نفس مكانة خصمه القوى المكين الظافر . وبلغ كفاحهما ذروته في حملة الرئاسة الانتخابية في ١٨٦٠ ، حيث انتخب لنكولن رئيساً في ٤ مارس ١٨٦١ ، وقد تم انفصال الولايات الجنوبية عن حكم الحكومة الاتحادية بواشنطن ، وبدأت العمليات الحربية .

قاتلت في هذه الحرب الأهلية الأمريكية جيوش جندت ارتجالاً دون سابق تدريب ، وأخذت تنمو على الدوام بضع عشرات من الألوف إلى مئات الألوف ، حتى تناهى الأمر إلى أن أربت قوات الاتحاد على مليون رجل ، ودارت رحى تلك الحرب فوق منطقة مترامية من الأرض تمتد بين ولاية نيو مكسيكو والمحيط الأطلنطي شرقاً ، وكانت مدينتا واشنطن وريتشموند الهدف الأكبر للطرفين ، ولا يتسع المقام هنا للحديث عن تضاعف المهم في أثناء ذلك الكفاح الرائع الذي كان يتدحرج ذهاباً وجيئة عبر التلال والغابات بولايتي تينسي وفرجينيا وينحدر مع نهر المسيسيبي . كان كفاحاً بددت فيه القوى والثروات وأزهقت فيه الأرواح على نحو رهيب جامع ، فإذا تم هجوم أعقبه على الفور هجوم مضاد ، وإذا دخل نور الأمل إلى القلوب يوماً أعقبته دياجي اليأس ، ثم عاد

الرجاء فأنا نرى ثم خيم اليأس مرة ثانية ؛ فيوما نلوح واشنطن كأنما هي في قبضة ولايات الجنوب المؤتلفة أو تكاد ؛ ويوما تكون جيوش الاتحاد متجهة بخطى حثيثة إلى ريتشموند . وكان جند ولايات الجنوب المؤتلفة يقاتلون تحت إمرة قائد مقتدر عظيم هو الجنرال لي وإن فاقهم الشماليون في العدد والموارد . ولكن قيادة الاتحاد الشمالي كانت أدنى كفاية بكثير ، لذا كان القواد هناك يعزلون ويعين مكانهم آخرون جدد ؛ حتى تم النصر في النهاية تحت قيادة شيرمان وجرانت على جيوش الجنوب المهلهلة الشباب المستنزفة الموارد والدماء . ففي أكتوبر سنة ١٨٦٤ استطاع جيش الشمال بقيادة الجنرال شيرمان اختراق ميسرة الجنوب وتقدم من تنسي إلى الساحل مخترقا جورجيا ، ومارا عبر بلاد الجنوب وفي صميم أقاليمه ، ثم انحرف شمالا خلال ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية ، وأطبق على مؤخرة جيوش الجنوب . وفي الوقت ذاته كان جرانت يشل جيش لي أمام ريتشموند عن كل حركة حتى أطبقت عليه جيوش شيرمان . ولم يلبث لي أن سلم بجيشه في ٩ من أبريل سنة ١٨٦٥ قرب أبوماتاكس كورت هاوس ، ولم ينقض نهر واحد حتى ألقت جميع جيوش الانفصاليين الباقية أسلحتها ، وانتهت دولة الجنوب .

أجهد هذا الكفاح الذي دام أربع سنوات شعب الولايات المتحدة إجهادا ماديا ومعنويا وخلقا هائلا ، ذلك أن مبدأ استقلال الولاية كان عزيزا محببا لدى أنفس كثيرة ، وأن الشمال كان يبدو كأنما يرغم الجنوب في الواقع على إلغاء الرق إرغاما . ولقد بلغ الأمر بالناس في الولايات القائمة على الحدود بين الطرفين ، أن كان الإخوة وأبناء العمومة ؛ بل الآباء وأبناءؤهم ، ينازون إلى شيع متضادة ويجدون أنفسهم يتقاتلون في جيوش متعادلة ، وكان الشمال يحس أن قضيته تقوم على الحق والعدل ، ولكن جماهير غفيرة من الناس لم تكن ترى أن ما يدعو إليه من حق وعدل كان متصفا بالكمال مبرا من العيب أو فوق التجريح والتعدي . ولكن لنكولن لم يساوره أى شك ، فإنه ظل محتفظا بصفاء ذهنه على الرغم من تلك البلبلة الشديدة ، وكان يؤمن بالاتحاد ويقف مدافعا دونه ، وكان يناصر السلام الشامل لأمريكا ، وكان عدوا للرق ، وإن عد الرق مسألة ثانوية ؛ أما هدفه الأول فهو ألا تتعزق وحدة الولايات المتحدة إلى شقين متباينين ومتناحرين .

ولما شرع الكونجرس وقواد الاتحاد يفكرون في أثناء المراحل الأولى للحرب في التسرع في فك رقاب الرقيق اعترض عليهم لنكولن وخفف من غلواء حماسهم . ذلك

أنه كان يرى أن يكون تحرير العبيد على مراحل ومع دفع التعويض اللازم، فلم يتبلور الموقف بحيث يسمح للكونجرس أن يقترح إلغاء الرق إلى الأبد بقانون دستوري للتعويضات إلا في يناير سنة ١٨٦٥، كما أن الولايات لم تعتمد ذلك القانون إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بمدة كافية .

وبينما الحرب تجر ساقها متشاقة في ١٨٦٢، ١٨٦٣، خمدت ثائرة الانفعالات الأولى والحماسات الأولى، وأخذت أمريكا تتعلم كل دروس التبرم بالحرب والاشمئزاز منها . ونظر الرئيس فلم يجد حوله إلا خونة ودعاة هزيمة وقوادا معزولين وسياسيين حزبيين ملتوين، كما لم يجد خلفه إلا شعباً متشككاً متعباً، ولا أمامه إلا قواداً أغبياء وجنوداً مبتئسين، ولسنا نشك أن عزاءه الوحيد في تلك الملة كان شعوره بأن دافيز في ريتشموند لا يمكن أن يكون أسعد منه حالاً . وخرجت الحكومة البريطانية عن السلوك الكريم وسمحت لوكلاء الجنوب بالجملة أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن سريعة للقرصنة في المحيط، وأن يزودوها بالرجال - وأشهرها هي ألاباما - فكانت تتبع سفن الولايات المتحدة وتطاردها في البحار . وذلك على حين راح الجيش الفرنسي بالمكسيك يمرغ في الوحل مذهب مونرو . وتواردت على الرئيس مقترحات قاتلة بإيقاف الحرب، وترك نتائجها لمناقشات تجري فيما بعد، والانقضاء بالولايات المتحدة كلها شمالها وجنوبها على الفرنسيين بالمكسيك، ولكنه أبقى أن يصغى إلى مثل تلك المقترحات ما لم تصبح كلمة الاتحاد وسلطته هي العليا . فقد يجوز أن يقوم الأمريكيون بمثل هذه الأعمال كشعب واحد لا كشعبين منفصلين .

لقد ظل إنكولن يربط الولايات المتحدة بعضها إلى بعض شهوراً طويلة مضنية حفلت بالهزائم والجهد عديم الجدوى وفي مراحل قائمة من الفرقة والانقسام وخور العزيمة، وليس بين أيدينا أية حادثة تدل على أنه تردد يوماً عن هدفه . ومرت عليه فترات لم يكن يجد في أثنائها شيئاً يعمل به، فترات كان يجلس في أثنائها في البيت الأبيض صامتاً لا يتحرك، كأنه تمثال صارم متجهم للعزيمة والتصميم؛ وجاءت عليه أوقات كان يخفف فيها الأعباء عن عقله بالمزاح والفكاهة المكشوفة .

ولقد فاز إنكولن بما اشتبهى، فإن نضال الاتحاد قد تكمل بالظفر . ودخل الرئيس مدينة ريتشموند بعد تسليمها بيوم واحد، وسمع بتسليم الجنرال لي . ثم عاد إلى واشنطن، وألقى آخر خطبة عامة له يوم ١١ من أبريل. وكان مذهبه الذي يدين به هو

الصلح وإعادة تكوين الحكومات الموالية في الولايات المنهزمة ، وذهب في مساء ١٤ من أبريل إلى مسرح فورد بواشنطن ، وبينما هو يجلس ناظرا إلى المسرح ، أطلق الرصاص على مؤخر رأسه ممثل اسمه بوث وجرحه جرحاً قاتلاً ، وكان يحقد عليه لسبب ما ، فتسلل إلى اللوج دون أن يراه أحد . ولكن لسكران كان قد أدى ما عليه ، وتم إنقاذ الاتحاد .

وعند بداية الحرب الأهلية ، لم يكن هناك خط حديدى يمتد إلى ساحل المحيط الهادى ؛ ولكن السكك الحديدية ما لبثت أن انتشرت بعدها بسرعة كأنها نبات سريع النمو ، وإذا هي حتى اليوم تقبض على أراضى الولايات المتحدة الشاسعة المترامية وتضمها بعضها إلى بعض وتنسجها وحدة عقلية ومادية لاسييل إلى حلها . هى أعظم مجتمع حقيقى فى العالم ، حتى يجىء الوقت الذى يتعلم فيه عامة الصين القراءة .

الفصل الحادى وستون

ألمانيا تصبح دولة عظمى

ذكرنا من قبل كيف حدث بعد الهزات العنيفة التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية ومغامرات نابليون أن استتسامت أوروبا من جديد لفترة سلام يسودها القلق والاضطراب وإن شملتها الظروف السياسية التى كانت بها قبل ذلك بخمسين عاما ؛ ولكن فى صورة مجددة إلى درجة ما . ولم تظهر حتى منتصف القرن ، أية نتائج سياسية ملحوظة للوسائل الجديدة فى معالجة الصلب ولا للسكة الحديدية أو الباخرة . على أن التوتر الاجتماعى الناجم عن نمو الصناعة فى المدن سار أشواطا . وظلت فرنسا قطرا بادرى القلق . إذ جاءت بعد ثورة ١٨٣٠ ثورة أخرى فى ١٨٤٨ . ثم تبوأ نابليون الثالث - وهو ابن أخ لنابليون الأول - رئاسة الجمهورية أولا ، وأعلن نفسه إمبراطورا فى ١٨٥٢ .

ثم شرع من فوره فى إعادة تشييد باريس ، وحولها من مدينة جميلة غير صحية من مدن القرن السابع عشر ، إلى المدينة الواسعة الأطراف اللاتينية الطابع الرخامية المبانى التى نشهدها اليوم . وشرع من فوره فى إعادة بناء فرنسا ، وحولها إلى إمبراطورية استعمارية ظاهرها الطابع العصرى المشرق . وأبدى شيئا من الميل إلى بعث روح المنافسة بين الدول الكبرى ، التى ظلت تشغل أوروبا تماما بحروب غير مجددة فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . واتخذ نقولا الأول قيصر روسيا (١٨٢٥ - ١٨٥٦) نفس النزعات العدوانية وأخذ يضغط جنوبا على الإمبراطورية التركية وقد شخص بصره إلى مدينة القسطنطينية .

حتى إذا انتصف القرن ابتدأت فى أوروبا دورة جديدة من الحروب . وكلها فى الغالب حروب غايتها الرفعة وتوازن القوى ؛ فهاجمت إنجلترا وفرنسا ومملكة سردينيا دولة الروس فى بلاد القرم دفاعا عن تركيا ، وتقاتلت على زعامة ألمانيا كل من بروسيا (ومعها إيطاليا كليفة) والنمسا ، وحررت فرنسا شمال إيطاليا من ربقة النمسا وقبضت مقاطعة سافوى ثمناً لذلك التحرير ، ومن ثم أخذت إيطاليا توحد نفسها بالتدريج فى نطاق مملكة واحدة . وعندئذ هجس نصحاء السوء لنابليون الثالث أن يقدم على فتح

ووقع الصالح بمدينة فرنكفورت ، وبه نزلت فرنسا عن مقاطعتي الألزاس واللورين للألمان . كما توحدت ألمانيا كلها عدا النمسا في إمبراطورية ، وأصبح ملك بروسيا ، إمبراطورا لألمانيا ، فزاد عدد القياصرة في أوروبا قيصرا جديدا !

ظلت ألمانيا بعد ذلك ثلاثة وأربعين سنة أقوى دولة في قارة أوروبا . ونشبت حرب بين روسيا وتركيا (١٨٧٧ — ١٨٧٨) ، ولكن الحدود الأوربية ظلت ثابتة بصورة قلقة طوال ثلاثين السنة التالية ، لم يداخلها في أثناءها إلا تعديلات بسيطة بمنطقة البلقان .

الفصل الثاني وستون

الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار

بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية

انتهت خاتمة القرن الثامن عشر بتمزق إمبراطوريات وتحطم أحلام لدعاة التوسع . ذلك أن الرحلة الطويلة المضنية من بريطانيا وإسبانيا إلى مستعمراتهما بأمريكا تحول دون الرواح والعدو الحربين الوطن الأم وبناته المستعمرات ، وهكذا انفصلت المستعمرات عن الدولة وأصبحت مجتمعات جديدة منفصلة متميزة ، لها أفكارها المتميزة ومصالحها بل حتى طرائقها الخاصة في النطق والتعبير . وكانت كلما نمت مزقت أكثر فأكثر رابطتها الواهنة غير الثابتة من السفن التي كانت همزة الوصل بينهما . أجل إن من الجائز أن تتعلق محطات تجارية ضعيفة تقوم في مجاهل البرية (كالتي كانت لفرنسا بكندا) أو مؤسسات تجارية بين ظهرائي مجتمعات غريبة كبيرة (كالتي كانت لبريطانيا ببلاد الهند) تتعلق في سبيل البقاء البحث بالأمة التي أمدتها بالعون ومنحتها مبررو وجودها . ذلك وحده ولا شيء غيره كان فيما يخيل لكثير من مفكرى أوائل القرن التاسع عشر الحد الأقصى للحكم وراء البحار . وما وافق ١٨٢٠ حتى تقلصت إلى أدنى حد الإمبراطوريات الأوربية الكبيرة غير المنتظمة الحدود ، التي كانت تبدو بارزة الضخامة في خرائط منتصف القرن الثامن عشر ، ولم ينبج من هذا المصير إلا الإمبراطورية الروسية التي ظلت تزحف عبر آسيا محتفظة دائماً بضخامتها وأكثر .

وكانت الإمبراطورية البريطانية تتكون في ١٨١٥ من مناطق كندا الساحلية القليلة السكان ونواحيها المحيطة بالأنهار والبحيرات ، وأقاليم داخلية ضخمة من البراري كان كل ما فيها من المستقرات لا يتجاوز حتى ذلك التاريخ محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسون ، فضلا عن ثلث شبه جزيرة الهند ، الذي تحكمه شركة الهند الشرقية ، والمناطق الساحلية عند رأس الرجاء الصالح التي كان يسكنها السود وبعض المستقرين الهولنديين ذوي النفوس المتعردة ، ثم بضع محطات تجارية على ساحل إفريقية الغربية ،

ثم صخرة جبل طارق وجزيرة مالطة وجمايكا ، وممتلكات قليلة صغيرة تقوم على العمال الأرقاء ، بجزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية ، كما كان لها عدا ذلك مستودعان للمجرمين يقومان في آخر أطراف العالم عند خليج يوتاني بأستراليا وجزيرة تسمانيا . أما إسبانيا فاحتفظت بجزيرة كوبا وبضع مستقرات بجزائر الفلبين ، على حين تبقى للبرتغال بقايا ضئيلة مما كانت تدعى ملكيته قديماً .

أما هولندا فكانت لها جزائر وممتلكات متنوعة بجزائر الهند الشرقية ، وبقيت لفرنسا جزيرة أو اثنتان بالهند الغربية وغيانا الفرنسية ، وكأما كان ذلك هو القدر الذي تحتاج إليه الدول الأوروبية ، أو الذي يحتمل ان تحصل عليه من بقية أجزاء هذا العالم . ولم يكن ثم أحد يبدي روح التوسع إلا شركة الهند الشرقية .

وبينما كانت أوروبا مشتبكة في حروب نابليون ، كانت شركة الهند الشرقية تلعب في الهند برياسة جمهرة متعاقبة من المديرين الدور ذاته الذي لعبه بتلك البلاد من قبل التركمان ومن شابههم من غزاة شماليين . فواصلت الشركة أعمالها بعد معاهدة فينا ، من جباية الضرائب وشن الحروب وإرسال السفراء إلى الدول الآسيوية ، كأنما هي دولة شبه مستقلة . ولكنها دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروات إلى بلاد الغرب .

ولا يتسع المقام هنا لتفاصيل الطريقة التي استطاعت بها الشركة البريطانية أن تشق طريقها نحو السيادة ، بأن تكون تارة حليفا لهذه الدولة وتارة أخرى حليفا لتلك ، حتى غدت في النهاية قاهرة الجميع . امتد سلطانها حتى شمال أسام وإقليم السند وأوده ، بمعنى أن خريطة الهند شرعت تتخذ الصورة الإجمالية المألوفة للتلاميذ المدارس عندنا اليوم ، فهي خريطة مكونة من رقع صغيرة من الإمارات الوطنية التي يحيط بها ويضمها بعضها إلى بعض الولايات الكبرى الواقعة تحت الحكم البريطاني المباشر .

وقد ألحقت هذه الإمبراطورية التابعة لشركة الهند الشرقية بالتاج البريطاني في سنة ١٨٥٩ ، بعد تمرد خطير قام به الجند الوطنيون بالهند . وبمقتضى قانون صدر بعنوان « قانون إصلاح حكومة الهند » ، أصبح المدير العام نائبا للملك يمثل العاهل صاحب التاج ، وحل محل الشركة وزير للهند ، مسئول أمام البرلمان البريطاني ، ورغبة في

الوصول بالأمر إلى غايته الطبيعية ، حمل اللورد بيكونزفيلد الملكة فيكتوريا في سنة ١٨٧٧ على المناداة بنفسها إمبراطورة للهند .

والهند وبريطانيا ترتبطان في الوقت الحاضر على هذه الأسس العجيبة الحارقة (١) . ذلك أن الهند لا تزال إمبراطورية « المغولى العظيم » ، ولكن المغولى العظيم قد حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة . فالهند دولة حكم مطلق ليس بها عاهل مطلق . حكمها يجمع بين مساوىء الملكية المطلقة وبين مالموظفين في ظل الديمقراطية من حكم غير مسئول ولا يمت إلى النواحي الشخصية بأية علاقة ، فالهندي الذى له ظلامة لا يجد أمامه عاهلا يلجأ إليه ، فما إمبراطوره إلا رمز من ذهب ، لذا لم يكن أمامه مفر من إذاعة النشرات بالإنجليزية أو الإبقاء على النواب بإلقاء سؤال بمجلس العموم البريطانى . وكلما زاد البرلمان انشغالا بالشئون البريطانية قل ماتلقاه الهند من التفاته ورعايته ، وزاد وقوعها تحت رحمة زمرتها الصغيرة من كبار الموظفين .

وفما عدا الهند لم يتيسر لأية إمبراطورية أوربية الحصول على أى توسع عظيم حتى بلغت المراكب البخارية والسكك الحديدية أقصى أثر فعال لها . وكانت مدرسة كبيرة من المفكرين السياسيين ببريطانيا تميل إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصدرا لضعف الدولة لا قوتها . ونمت المستوطنات الأسترالية ببطء حتى أدى اكتشاف مناجم ثمينة للنحاس في سنة ١٨٤٢ ، وأخرى للذهب في سنة ١٨٥١ إلى إعطائها أهمية جديدة ، كما أن تحسن وسائل النقل جعل الصوف الأسترالى سلعة تجارية قابلة للتصريف المتزايد فى الأسواق الأوربية . هذا إلى أن كندا لم تصب تقدما ملحوظا إلا فى عام ١٨٤٩ إذ كانت تمزق كلمتها الخلافات بين سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، لذا حدثت بهاعدة ثورات خطيرة ، فلم يخفف من متاعبها الداخلية فى النهاية إلا صدور دستور جديد فى سنة ١٨٦٧ أنشأ دومينيون كندا الاتحادى . والسكك الحديدية هى لاجرم صاحبة الفضل فى تغيير مستقبل كندا ، فإنها مكنتها - مثلما مكنت من قبلها الولايات المتحدة - من التوسع غربا ، ومن بيع قمحها وغيره من المنتجات فى أوربا ، كما مكنتها على الرغم من نموها السريع المتراعى من أن تظل مجتمعها واحدا تجمعها اللغة والعاطفة والمصلحة

(١) استقلت الهند فى عام ١٩٤٧ وإن ظلت عضوا فى الكومنولث (أى مجموعة الأمم البريطانية) ثم أعلنت بها الجمهورية [المترجم]

المشركة ، والواقع الذى لا شك فيه أن السكة الحديدية والسفينة التجارية وأسلاك التلغراف البحرى كانت تغير تماما جميع أحوال التطور الاستعماري .

وكانت للإنجليز مستقرات بحزيرة نيوزيلندة قبل ١٨٤٠ ، كما أن شركة لأراضي نيوزيلندة كانت قد تأسست لاستثمار موارد الجزيرة ، ولم تلبث نيوزيلندة أن ألحقت هي أيضا في سنة ١٨٤٠ بالامتلاكات الاستعمارية للتاج البريطانى .

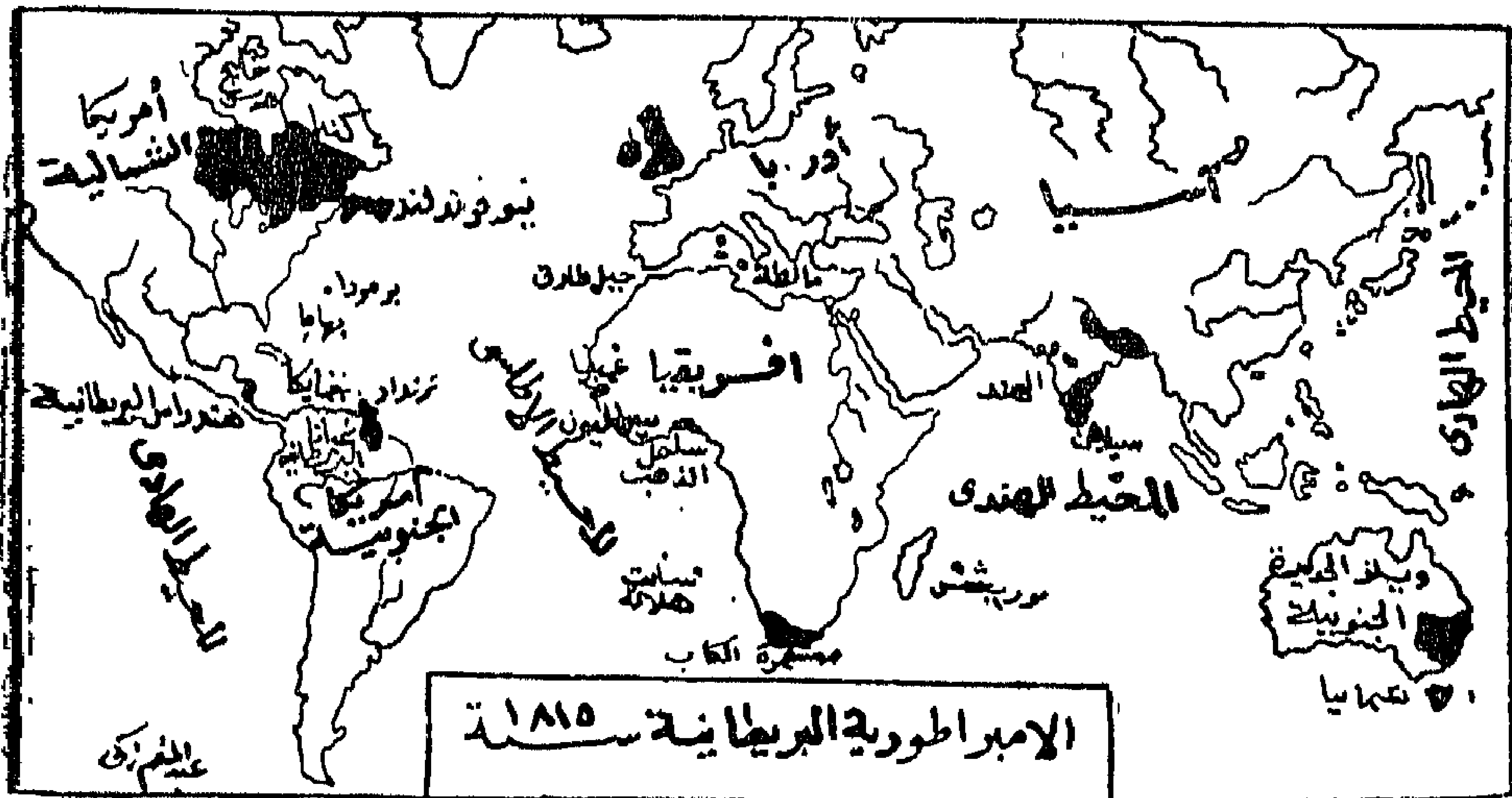
وكانت كندا كما ذكرنا آنفاً أول الممتلكات البريطانية التى استجابت بقوة للإمكانيات الاقتصادية الجديدة التى فتحت أبوابها وسائل النقل الجديدة . وسرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية خاصة منها جمهورية الأرجنتين ، تشعر من حيث تجارة المواشى واللحوم وزراعة البن ، بتزايد قرب السوق الأوربية ، وإلى ذلك الحين كانت أهم السلع التى تجتذب دول أوربا إلى اقتحام المناطق المهمجة غير الآهلة بالسكان ، هي الذهب أو غيره من المعادن أو التوابل والأفاوية أو العاج أو العبيد ، ولكن زيادة السكان بأوربا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذت تجبر الحكومات على البحث في الخارج عن الأغذية الرئيسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على أسس علمية أوجد الحاجة إلى مواد خام جديدة ، كالشعوم والزيوت من جميع الأصناف والمطاط ومواد أخرى كان يغفل شأنها قبل الآن ، وكان جلياً للعيان أن بريطانيا العظمى وهولندة والبرتغال كانت تجنى ثماراً وميزات تجارية عظيمة ومتزايدة بسبب سيطرتها الكبيرة على منتجات الأقاليم الحارة ، ثم شرعت ألمانيا بعد عام ١٨٧١ ومن ورأها على الفور فرنسا وإيطاليا فيما بعد ، تشخص بصرها باحثة عن مناطق للمواد الخام لم يضمها إليه أحد ، أو عن بلاد شرقية يمكن قيام الطابع العصري بها بصورة مثمرة ومربحة .

وهكذا بدأ تسابق وتزاحم جديد عم العالم كله ، ولم ينبج منه إلا أمريكا التى وقف فيها مبدأ مونرو آنذاك حائلاً دون مثل تلك المغامرات الباحثة عن أرض لا تجد من يحميها سياسياً .

وكانت إفريقية أقرب القارات إلى أوربا ، وهى مليئة بالإمكانيات التى يكتنفها الغموض والإبهام . كانت في ١٨٥٠ بلداً تحيط به الأسرار القائمة السوداء ؛ فلم يكن معروفاً من أقطارها ، إلا مصر والأقاليم الساحلية ، ويضيق المقام هنا عن قصة (٢٣ — تاريخ العالم)

المستكشفين والمغامرين المدهشة الذين اخترقوا لأول مرة ظلمات تلك المجاهل الإفريقية، وعن ذكر العملاء السياسيين والمديرين والتجار والمستوطنين ورجال العلم الذين ما لبثوا أن ساروا في إثرهم . وبفضل ارتياد إفريقية رفع اللثام عن أجناس بشرية مدهشة كالأفزام مثلاً ، وعن حيوانات عجيبة كالأوكابي ، وعن فواكه وأزهار وحشرات بديعة ، وأمراض فظيعة ، ومناظر أخاذة للغابات والجبال ، وبحار داخلية هائلة وأنهار عظيمة ومساقط مائية ضخمة : عالم جديد بأسره . بل لقد بلغ الأمر أن اكتشفت (عند زمبابو) بقايا حضارة بائدة لم يسجلها التاريخ ، هي آثار مغامرة اتجهت جنوباً لشعب قديم غير معروف . إلى هذا العالم الجديد وفد الأوربيون ، ووجدوا البندقية به في أيدي تجار الرقيق العرب ، كما وجدوا حياة الزنوج في اضطراب شامل .

وما انقضت خمسون عاماً وحلت سنة ١٩٠٠ حتى كانت إفريقية كلها قد رسمت خريطتها وارتدت مجاهلها وقدرت قيمتها وقسمت بين الدول الأوربية ، ولم يكن أحد في أثناء معركة التسابق والتطاحن هذه بمصلحة السكان الأصليين . أجل إن النخاس العربي لم يتردد من الميدان فقط بل أيد تماماً ، ولكن الجشع والسرقة على المطاط الذي كان محصولاً برياً يجمعه الأهالي قسراً في إقليم الكونغو البلجيكي ، وهو جشع تفاقم شره بسبب الاصطدامات التي نشبت بين الحكام الأوربيين غير ذوي الخبرة وبين الأهالي ، أفضى ذلك كله إلى اقتراف أشنع الفظائع ، ولا تستطيع دولة أوربية واحدة أن تدعى طهارة اليد تماماً من آثام تلك الحقبة .



(خريطة رقم ١٩)

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الوسيلة التي تمكنت بها بريطانيا العظمى من الاستيلاء على مصر في ١٨٨٢ والبقاء فيها على الرغم من أن مصر كانت من الناحية الدولية جزءاً من الإمبراطورية التركية ، ولا كيف أوشك هذا التخاطف على المستعمرات أن يؤدي إلى نشوب الحرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى في ١٨٩٨ ، عندما حاول الكولونيل مارشاند في فاشوده ، أن يستولى على النيل الأعلى في أثناء عبوره أواسط إفريقيا من الساحل الغربي .

ولان يتيسر لنا أيضا أن نحدثك كيف سمحت الحكومة البريطانية أولا للبوير أي المستوطنين الهولنديين بمنطقة نهر الأورانج والترنسفال ، أن ينشئوا جمهوريات مستقلة بمناطق إفريقية داخلية ، ثم عادت فندمت على ما فعلت وضمت جمهوريات الترنسفال في ١٨٧٧ ؛ ولا كيف ناضل بوير الترنسفال في سبيل الحرية حتى فازوا بها بعد معركة تل ماچوبا في ١٨٨١ . وأثيرت حول معركة تل ماچوبا حملة صحفية لجوج جعلتها كالغصّة في حلق الشعب البريطاني أو القرحة في ذاكرته . لذا لم تلبث الحرب أن اندلعت من جديد مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وكانت حربا دامت ثلاث سنين كبدت الشعب البريطاني نفقات طائلة وانتهت بتسليم الجمهوريتين .

على أن فترة خضوعهما لم تدم طويلا . إذ لم يلبث حزب الأحرار البريطاني في ١٩٠٧ بعد سقوط الوزارة الاستعمارية التي قهرتهما ، أن أخذ على عاتقه حل مشكلة جنوب إفريقية ، وأن أصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين ، وأن صارتا بدافع رغبة شريفة عضوين مع مستعمرة الرأس وناثال في اتحاد ضم جميع ولايات جنوب إفريقية بين دفتي جمهورية موحدة تستمتع بالحكم الذاتي في ظل التاج البريطاني .

تم تقسيم إفريقية في ربع قرن . وبقيت هناك ثلاث دول صغيرة نسبيا حافظت على استقلالها . هي ليبيريا وهي مؤسسة لأرقاء الزنوج المحررين أنشئت على ساحل إفريقية الغربي ، ومراكش التي يحكمها سلطان مسلم ، وبلاد الحبشة ، وهي قطر همجي يدين بضرب من النصرانية عتيق عجيب ، وقد نجحت في المحافظة على استقلالها وإتقاده من عادية إيطاليا في معركة عدوه ١٨٩٦ .

الفصل الثالث واستون

العدوان الأوربي على آسيا ونهوض اليابان

لا يمكننا أن نصدق بسهولة أن عدداً ضخماً من الناس قد قبل حقاً هذا التقسيم الأرعن المتسرع لإفريقية بوصفه تسوية دائمة جديدة لشئون هذا العالم ، ولكن الواجب يحتم على المؤرخ أن يسجل أن الناس تقبلوه على ذلك الوصف . لم يكن للعقل الأوربي في القرن التاسع عشر إلا نصيب ضئيل من العلم بالتاريخ ، كما أنه لم يكون لنفسه حتى آنذاك عادة النقد النفاذ . ولا يغرب عن البال أن المزايا المؤقتة البهجة التي أتاحها الانقلاب الميكانيكي لبلاد الغرب للأوربيين دون بقية سكان العالم القديم ، كانت شيئاً يعده كل من يجهل جهلاً مطبقاً أحداثاً كبيرة كفتوح المغول وآيات تشهد بأن الأوربيين يتزعمون البشرية زعامة مستديمة وطيدة الأركان ، فكأنهم لم يشعروا بأن في الإمكان نقل العلم واقتباس ثمراته . وكأنهم لم يدركوا أن الصيني أو الهندي كان يستطيع أن يتناول بيديه مشعل البحث العلمي بنفس مقدرة الفرنسي أو الإنجليزي تماماً ، وكانوا يعتقدون أن للغرب دافعاً فكرياً فطر عليه ، وأن الشرق اجبل على شيء فطري من التكاسل والمحافضة على القديم ، وأن هذه حال تضمن للأوربي السيادة العالمية إلى أبد الأبد .

وكانت عاقبة ذلك التهور الجنوبي أن وزارات الخارجية بمختلف أقطار أوربا لم تكف فقط بالتسابق مع البريطانيين طلباً للمناطق المتأخرة غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل راحت تقطع أقطار آسيا الممدنة الآهلة بالسكان كما لم يكن أولئك الأهليون أيضاً إلا مواد خاماً للاستثمار والاستغلال . ومن البديهي أن استثمار الطبقة البريطانية الحاكمة لبلاد الهند ، ذلك الاستثمار المزروع الأركان في باطنه وواقع حقيقته والفاخر في ظاهره ، وأن ممتلكات الهولنديين المترامية الأطراف الكثيرة الأرباح والثمرات بجزر الهند الشرقية كانت تملأ الدول الكبرى المنافسة لهما بأحلام أبحاد مشابهة لهذه بلاد فارس ، وبالإمبراطورية العثمانية التي شرعت تتفكك ، وبأقاليم أخرى بالهند والصين واليابان .

واستولت ألمانيا في ١٨٩٨ على كياوتشاو بأرض الصين ، فأجابتها بريطانيا على ذلك بالاستيلاء على واى هاى واى . ومالبث الروس أن استولوا في السنة التالية على بورت آرثر . وانبعثت في الصين روح الكراهية للأوربيين . وقاموا بكثير من المذابح أعمالوا فيها أيديهم في الأوربيين وفي الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية ، كما هاجموا في ١٩٠٠ سفارات الدول الأجنبية في بيكين وحاصروها . وأرسلت إلى بيكين حملة تأديبية لدول أوربية مختلفة ، فقامت بإنقاذ السفارات وسرقت قدرا هائلا من الممتلكات الثمينة والتحف . وعند ذلك استولى الروس على منشوريا كما اجتاحت البريطانيون بلاد التبت في ١٩٠٤ .

هنالك ظهرت في ميدان الكفاح بين الدول العظمى قوة جديدة هي اليابان ، ولم تلعب اليابان حتى آنذاك إلا دوراً صغيراً في تاريخنا هذا ؛ ذلك أن حضارتها المنعزلة لم تضرب بسهم كبيراً جداً في الصياغة العامة لمصائر البشرية ؛ فهي قد تلقت الشيء الكثير ولم تعط إلا القليل . والشعب الياباني الحقيقي ينتمي إلى الجنس المغولي . وما حضارتهم وكتاباتهم وتقاليدهم الأدبية والفنية إلا فرع مما للصين — ولكن تاريخهم ممتع « ورومانسى » ؛ فقد تطور بينهم في أثناء القرون الأولى للحقبة المسيحية نظام إقطاع وفروسية ، ولا إخال هجماتهم على كوريا والصين إلا النظير الشرقي لحروب الإنجليز بفرنسا . وقد أرغمت اليابان على الاتصال بأوروبا لأول مرة في القرن السادس عشر ؛ ثم وصل إليها في ١٥٤٢ بعض البرتغاليين قادمين في سفينة صينية ، ثم زلها في ١٥٤٩ مبشر حيزويقي ، هو فرانسيس زافير الذي بدأ يبشر الناس هناك . وقد رحبت اليابان بصلاتها بالأوربيين ردحا من الزمن ، تهيأ للبشرى المسيحية في أثنائه أن يضموا إلى عقيدتهم عدداً كبيراً من الأهالي . وجاء حين من الدهر كان فيه شخص اسمه وليم آدمز مستشاراً لليابانيين وموضع ثقهم أكثر من الأوربيين جميعاً ، فأراهم كيف يصنعون السفن الكبيرة . ومن ثم قام اليابانيون على سفن بنيت في بلادهم برحلات إلى بلاد الهند وبيروت ، ثم نشبت خلافات معقدة بين الدومينيك الإسبان والجزويت البرتغاليين والبروتستنت الإنجليز والهولنديين ، وراح كل منهم يحذر اليابانيين من أطماع الآخرين وخططهم السياسية . وحظى الجزويت يوماً بدور من أدوار الرفعة والعزة ، فأخذوا ينحون في أثنائه على البوذيين بالاضطهاد الغليظ والإهانات الجارحة ، وأخيراً اقتنع اليابانيون أن الأوربيين مصدر تكدير لهم لا مسبيل إلى الصبر عليه ، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص لم تكن إلا ستاراً تستتر وراءه أطماع البابا السياسية وأحلام ملوك إسبانيا

(الذين كانوا يملكون آنفا جزائر الفيليبين) فأنزلوا بالمسيحيين اضطهادا عظيما ، ثم أقفلوا أبواب اليابان في ١٦٣٨ إقفالا تاما في وجه الأوربيين ، فظلت كذلك ما يربو على مائتي سنة . وانقطعت صلة اليابانيين في أثناء هذين القرنين عن بقية أجزاء العالم تماما حتى لكأنهم يعيشون في كوكب آخر غير الأرض ؛ إذ حرم عليهم بناء أية سفينة يكبر حجمها عن حجم زورق الانتقال الساحلي . وحظر على اليابانيين مغادرة البلاد إلى الخارج ، ومنع الأوربيون من دخول البلاد .

ظلت اليابان قرنين كاملين بمعزل عن مجرى التاريخ الرئيسي وواصلت العيش في ظل إقطاع جذاب ، كانت خمسة في المائة من السكان في أثنائها هي الساموراي ، أي المقاتلة ومعهم النبلاء وعائلاتهم ، تحكم بقية السكان حكما جائرا مطلقا لا ضابط له ولا حدود . حدث ذلك كله والعالم الخارجى الضخم يواصل تقدمه ويوسع آفاق آرائه وفلك قواه . فتكاثرت السفن العجيبة الشكل التى تمر بجوار الرؤوس الأرضية اليابانية الممتدة فى البحر ، وكانت بعض السفن تتحطم أحيانا ويجلب نوتيتها إلى الشاطئ ، ثم جاءتهم النذر عن طريق المستوطنة الهولندية القائمة على جزائر ديشما ، وهى همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجى - أن اليابان لم تسكن تساير ركب القوة فى العالم الغربى . وأقبلت فى ١٨٣٧ سفينة دخلت خليج بيدو رافعة علما عجيبا من نجوم وشقق ملونة ، وقد حملت بعض الملاحين اليابانيين الذين التقطتهم والتيار يدفعهم بعيدا فى المحيط الهادى . وعندئذ أطلقت المدافع على السفينة فاضطرت إلى الانسحاب . وسرعان ما عاد هذا العلم إلى الظهور ثانية يرفرف فوق سفن أخرى . منها واحدة جاءت فى ١٨٤٩ للمطالبة بإطلاق سراح ثمانية عشر بحارا تحطمت سفينتهم باليابان . ثم جاءت فى ١٨٥٣ أربع سفن حربية أمريكية بقيادة قائد الأسطول برى Perry ورفضت أن تنسحب ، فألقى القائد مراسيه فى المياه المحرمة على الأجانب ، وأرسل رسله إلى الحاكمين اللذين كانا يشتركان وقتئذ فى حكم اليابان . ثم عاد فى ١٨٥٤ بعشرة سفن ، سفن ضخام مذهلة يدفعها البخار وقد زودت بالمدافع الكبيرة ، وقدم مقترحات تتعلق بالتجارة والاتصال بالخارج ، لم يسع اليابانيين إلا قبولها . ونزل القائد إلى البر يحف به حرس مكون من خمسمائة رجل لى يوقع المعاهدة . ووقفت الجماهير وهى لا تكاد تصدق أعيانها تشهد هؤلاء الزوار الوافدين من العالم الخارجى ، وهم يحترقون شوارع مدينتهم .

وما لبثت روسيا وبريطانيا أن حذا حذو أمريكا . ورأى نبيل عظيم كانت أملاكه تطل على مضيق شيمونوسيكي أن يطلق مدافعه على السفن الأجنبية ، فجاءت

عمارة حربية من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية فدمرت بطارياته. وبددت شمل جنده المقاتلين بالسيوف ، وأخيراً جاء أسطول لهؤلاء الحلفاء في ١٨٦٥ ، فألقى مراسيه خارج كيوتو وفرض على اليابان تعديلاً للمعاهدات اضطرها إلى فتح أبوابها على مصاريحها للعالم .

أذلت هذه الأحداث اليابانيين إلى أقصى حد . فهوا بهمة وذكاء مدهش يعملون على رفع ثقافتهم ونظمهم إلى مستوى الدول الأوروبية . ولم يحدث قط في تاريخ العالم بأسره أن خطا شعب مثل تلك الخطوة المبهولة التي خطتها عند ذلك اليابان : كانت في ١٨٦٦ شعباً يعيش في القرون الوسطى ، ويمثل صورة هزلية خيالية لأشد أنواع نظم الإقطاع « الرومانسي » تطرنا ، على أن شعبها أصبح في ١٨٩٩ مصطبغاً تماماً بالطابع الغربي ، ويعيش على مستوى أرقى الدول الغربية تقدماً ، فبددت تماماً بذلك اقتناع الناس بأن آسيا كانت تتأخر عن أوروبا تأخراً لا مرد له ولا رجاء في إصلاحه . وجعلت كل تقدم أحرزته أوروبا يبدو بالموازنة بطيئاً متواثماً .

ويضيق المقام هنا دون تفاصيل حرب اليابان مع الصين في ١٨٩٤ — ١٨٩٥ . وحسبك أنها دلت على مدى تطبعها بالطابع الغربي . إذ دلت على أن لها جيشاً قادراً ذا نظام غربي ، وأسطولا صغيراً ولكنه سليم . على أن دلالة نهضتها ومعزاهها وإن لقيت التقدير من بريطانيا والولايات المتحدة ، اللتين شرعتا آنفاً تعاملاهما كدولة أوروبية ، إلا أن تلك الدلالة لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المشغلة في البحث عن « هند » جديدة بقارة آسيا . ذلك أن الروسية كانت تتقدم جنوباً خلال منشوريا إلى شبه جزيرة كوريا ، وأن فرنسا قد وطدت أقدامها آنفاً بمنطقة تونسين وأنام ، على حين راحت ألمانيا تتربص كالذئب الجائع باحثة عن مستعمرة لها . واجتمعت الدول الثلاث على منع اليابان من اجتناء أية ثمرة للحرب مع الصين . وكانت منهكة القوى من جراء تلك الحرب ، كما أن الدول الثلاث هددتها بالحرب .

وخضعت اليابان إلى وحين وأخذت تجمع قواها . فلم تنقض عشر سنوات حتى أصبحت على أهبة الاستعداد للحرب مع روسيا ، وهي حرب تؤذن بحقبة جديدة في تاريخ آسيا أي بانتهاء فترة الصاف الأوربي . ولا شك أن الشعب الروسي كان بطبيعة الحال جاهلاً بكل تفاصيل تلك المتاعب التي كانت تدبر له في النصف الآخر من العالم وهو منها براء ، كما أن العقلاء من سياسة روسيا كانوا يعارضون هذه الفتوح والهجمات الحمقاء ، ولكن

القيصر كان يحيط به جمع من المغامرين الماليين ، فيهم الغراندوقات أبناء عمومته . وكانوا قد غرقوا إلى أذقانهم في مقامرتهم التي أزمعوا بها نهب نفائس منشوريا والصين ، فلم يعودوا يطيقون الانسحاب من هذا الميدان ، ولذا أخذت اليابان في نقل جيوشها عبر البحر إلى كوريا ، كما شرعت روسيا في إرسال مئات القطارات المحملة بالفلاحين الروس عبر سكة حديد سيبيريا لكي يموتوا في تلك الميادين الحربية القاصية

وهزم الروس برا وبحرا لسوء قيادتهم وعدم النزاهة في إمداداتهم . وأقلع الأسطول الروسى ببحر البلطيق حول إفريقيا لكي يدمره اليابانيون عن آخره بمضيق تسوشما . وثار العامة في روسيا وقد أغضبهم إلى أقصى حد هذه المذبحة القاصمة التي نزلت بأبنائهم بتلك البلاد القاصية دون مبرر . فاضطر القيصر إلى إنهاء الحرب في ١٩٠٥ . فأعاد إلى اليابان النصف الجنوبى من جزيرة سخالين الذى استولت عليه روسيا في ١٨٧٥ ، وتخلّى عن منشوريا وتنازل عن كوريا لليابان ، لقد أقيمت نهاية اجتياح أوربا لآسيا وأخذت أوربا توقف كل محاولة لها أرادت بها في الماضى عجم عود تلك القارة أو سبر أغوارها .

الفصل الرابع واستون

الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤

ربما جاز لنا أن نلاحظ هنا في شيء من الإيجاز اختلاف طبيعة الأجزاء التي تتكون منها الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ التي أُنحت السفينة البخارية والسكك الحديدية. ضم أجزاءها بعضها إلى بعض. كانت ولا تزال خليطاً سياسياً فريداً في بابه تماماً ؛ إذ لم ير العالم لها من قبل مثيلاً .

ومركز تلك المجموعة كلها وأول دولة فيها هي الجمهورية المتوجة المسماة بالمملكة البريطانية المتحدة ، التي تحتوى أيضاً على إيرلندا (ضد رغبة شطر عظيم من الشعب الإيرلندي^(١)) . وكانت الأغلبية في البرلمان البريطاني المسكون من البرلمانات المتحدة الثلاثة في إنجلترا (وويلز) واستكتلندا وإرلندا ، هي التي تعين رئيس الوزارة ونوعها وسياستها ، وتحدد ذلك بناء على اعتبارات السياسة البريطانية الداخلية ، فهذه الوزارة هي الحكومة العليا الفعالة ، ولها سلطات إعلان الحرب وعقد الصلح في كل أرجاء الإمبراطورية .

ويلى الولايات البريطانية في ترتيب الأهمية السياسية الجمهوريات المتوجة بأستراليا وكندا ونيوفاوندلاند (وهي أقدم الممتلكات البريطانية ١٥٨٣) ونيوزيلندا وجنوب إفريقيا ، وكلها مستقلة فعلاً كما أنها دول تحكم نفسها بنفسها في تحالف مع بريطانيا العظمى ، ولكن يقيم بكل منها ممثل للتاج تعينه الحكومة المترتبة في دست الحكم .

وبعد ذلك تجيء الإمبراطورية الهندية وهي صورة مكبرة لإمبراطورية المغولي الأعظم ، وقد أصبحت الآن بما فيها من ولايات تابعة ومحميات ، تمتد من بلوخستان إلى بورما وتضم كذلك محمية عدن ، وفي تلك الإمبراطورية الضخمة يلعب التاج البريطاني ووزارة الهند (تحت رقابة البرلمان) دور الأسرة التركمانية القديمة .

(١) قد تغيرت هذه الحال الآن بالنسبة لإيرلندا فأعلنت جمهورية مستقلة وأصبح لها برلمان خاص .

ثم تجيء مصر ذات المركز الغامض التي لا تزال إسمياً جزءاً آمن الإمبراطورية التركية ولا تزال تحتفظ بعاهلها الخاص وهو الخديوى ، ولكنها تحت حكم الموظفين البريطانيين ذلك الحكم الذى يكاد يكون استبدادياً .

ثم ولاية السودان المصرى الإنجليزى الذى هو فى حال أشد غموضاً ، والذى يحتله ويديره البريطانيون بالاشتراك مع الحكومة المصرية (الواقعة تحت الهيمنة البريطانية) . ثم إن هناك عدداً من المجتمعات المستعملة بالحكم الذاتى إلى حد ما ، منها ماهو إنجليزى الأصل ومنها ما ليس كذلك ، وفيها المجالس التشريعية المنتخبة والهيئات التنفيذية المعينة بأوامر ومراسيم ، مثل مالطة وجايبكا وجزائر بهاما وبرموده ، وبعد ذلك مستعمرات التاج ، التي قد يقترب فيها حكم الحكومة البريطانية (عن طريق وزارة المستعمرات) من نوع الحكم الاستبدادى المطلق كما هو الشأن فى سيلان وترينيداد وفيجي (التي كان لها مجلس معين) وجبل طارق وسنت هيلانة (التيين لهما حاكم) .

ثم مساحات مترامية من أقاليم مدارية (بوجه خاص) وهى أقاليم لإنتاج المواد الخام ، لها مجتمعات ضعيفة سياسياً ومتأخرة حضارياً ، وكلها تحميات إسمية ، يديرها مندوب سام يعين فوق حكام من الأهالى (شأن باسوتولاند) أو فوق شركة تستمتع بمرسوم ملكى (كما هو الحال فى روديسيا) . وكانت وزارة الخارجية فى بعض الحالات ووزارة المستعمرات فى بعضها الآخر ، ووزارة الهند أحياناً ، هى التي عملت على الحصول على تلك الممتلكات التي تقع تحت هذا الصنف الأخير الذى يعد من حيث المركز أدنى الممتلكات شأننا ونحددنا ، ولكن وزارة المستعمرات أصبحت الآن مسئولة عنها فى معظم الحالات .

لعله قد اتضح الآن مما تقدم أن وزارة واحدة لم تنضم قط على الإمبراطورية البريطانية كلها ولا تفرد لإدراكها عقل واحد ، فهى خليط من أجزاء صغيرة كبرت أو فلذات تراكت بعضها فوق بعض ، خليط يختلف تماماً عن كل شئ يحمل اسم الإمبراطورية قبلاً ، كما أنها أصبحت تضمن قيام سلام وأمن متسعى الرقعة ؛ من أجل ذلك تحملها وناصرها كثير من الشعوب التابعة لها — على الرغم مما أبداه موظفوها من مظالم وعدم كفاية ، وعلى الرغم مما تجلى فى جمهورها بريطانيا نفسها من إهمال وعدم رعاية الأمانة المنوطة بعنقه . والإمبراطورية البريطانية تمتد أملاكها وراء البحار شأن الإمبراطورية

الأثينية ؛ فطرقها طرق بحرية ، كما أن همزة الوصل بين أطرافها هي الأسطول البريطاني ، فإن تماسكها ككل الإمبراطوريات يعتمد كل الاعتماد على وسائل المواصلات ؛ وقد أدى تطور فنون الملاحة وبناء السفن والبواخر بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر إلى إمكان قيام سلم مناسب على يديها هو السلم البريطاني « Pax Britanica » ، كما أن ظهور تطورات جديدة في وسائل النقل الجوي أو البرى السريع ربما أفضت في أية لحظة من اللحظات إلى حرمانها تلك المزية وجعلها غير مناسبة .

الفصل الخامس والستون

عصر التوسع في أوروبا والحرب العظمى

١٩١٤ — ١٩١٨

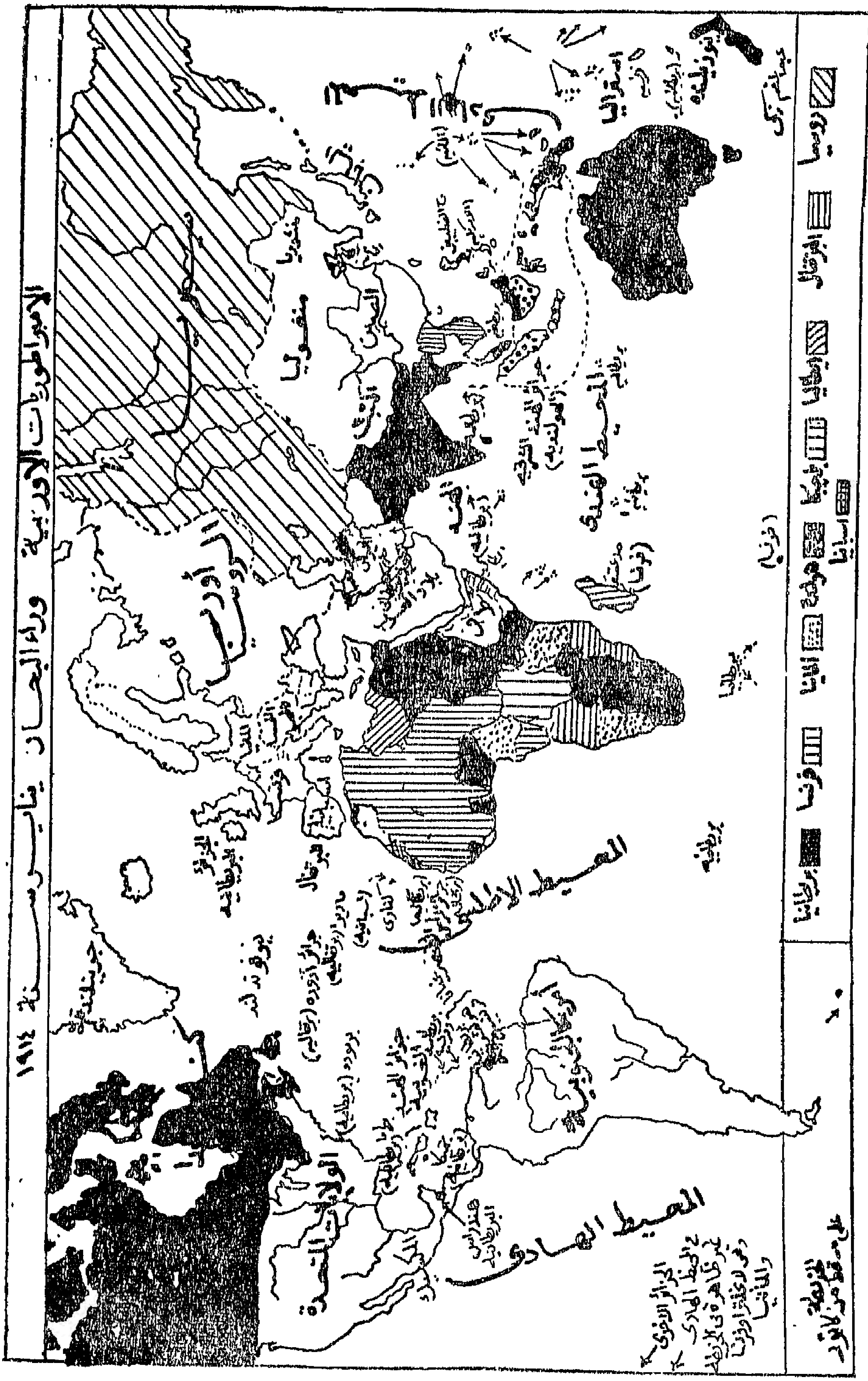
إن تقدم العلوم الطبيعية والمادية الذي تولدت عنه جمهورية أمريكا الهائلة هذه التي تعتمد على الزورق البخاري ومكة الحديد ، وتمخض عن قيام الإمبراطورية البريطانية المقلقة والقائمة على الباخرة ، وامتدادها في كل أرجاء العالم ، قد أفضى إلى قيام نتائج أخرى مختلفة عن هذه تماماً في الأمم المزدهرة بالسكان في قارة أوروبا . ذلك أنها وجدت نفسها محصورة داخل تخوم وضعت في أثناء عصر الحصان والطريق البري ، وأن كل أمل لها في التوسع وراء البحار قد سبقتها إليه بريطانيا العظمى إلى حد كبير . وكانت روسيا هي الوحيدة التي وجدت أمامها سبيلاً إلى التوسع شرقاً ؛ فمدت عبر سيبيريا خطاً حديدياً عظيماً ما زالت به حتى تورطت في القتال مع اليابان ، ثم تقدمت جنوباً بشرق نحو حدود فارس والهند فأزعجت بريطانيا بذلك . أما بقية الدول الأوروبية فكانت في حال من ازدحام السكان متزايدة التفاقم . فاضطروا إلى تنظيم شئونهم على أساس أرحب رغبة منهم في الوصول إلى أقصى ما في الحياة الإنسانية وجهازها من إمكانيات : — وذلك إما بإقامة ضرب من الاتحاد الإرادي وإما بالخضوع لاتحاد تفرضه عليهم دولة أخرى متسلطة . وقد مالت الآراء العصرية في معظم الدول إلى إنشاء تلك الاتحادات الإدارية ، ولكن التقاليد السياسية كانت تدفع بكل قواها قارة أوروبا نحو النوع الثاني من الاتحاد .

كان سقوط إمبراطورية نابليون الثالث ، وتأسيس الإمبراطورية الألمانية الجديدة إشارة وجهت الناس — وهم بين خائف وجل وراج مستبشر — نحو فكرة توحيد أوروبا كلها بزعامة الألمان . وانقضت أربعة وأربعون عاماً من السلم القلق المضطرب كانت سياسة أوروبا في أثناءها تتركز حول ذلك الاحتمال . ولكن فرنسا منافس ألمانيا الدائم على العظمة في أوروبا منذ أيام تقسيم إمبراطورية شرلمان ، حاولت أن تصلح من ضعفها

الطبيعى بعقد محالفة وثيقة مع روسيا ، كما أن ألمانيا ربطت نفسها بأوثق رباط بالإمبراطورية النمساوية (التى زال عنها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ أيام نابليون الأول) كما ربطت نفسها إلى حد أقل بمملكة إيطاليا الحديثة النشوء . وظلت بريطانيا العظمى فى البداية مترددة كعادتها تقدم رجلا فى شئون أوربا وتؤخر أخرى . ولكنها اضطرت بالتدريج إلى الارتباط الوثيق بالفريق الفرنسى الروسى بسبب تضخم الأسطول الألمانى تضخما بادرى العدوان . وقد أفضت أطماع الإمبراطور غليوم الثانى (١٨٨٨ - ١٩١٨) فى العظمة الباذخة إلى اندفاع ألمانيا قبل الأوان فى مغامرات وراء البحار ، انتهت إلى انتظام اليابان والولايات المتحدة مع بريطانيا العظمى فى دائرة أعدائها .

تنافست كل هذه الشعوب فى التسليح . وأخذت نسبة الإنتاج القومى الموجهة إلى صنع المدافع والعتاد الحربى والسفن الحربية وما إليها تتزايد من سنة إلى أخرى . وأخذ ميزان الأمور ينجح مرتعشاً عاماً بعد عام نحو الحرب ، ولكن الحكمة كانت تعود فتقضى بتجنب الحرب ثم انداع لهيبتها آخر الأمر ، فهاجمت ألمانيا والنمسا كلا من فرنسا والروسيا وصربيا ، واخترقت الجيوش الألمانية بلجيكا للوصول إلى فرنسا ، فدخلت بريطانيا الحرب على الفور مناصرة لبلجيكا ، وأدخلت معها حليفها اليابان ، وسرعان ما انضمت تركيا إلى صفوف الألمان . ثم عادت إيطاليا فدخلت الحرب مرة ثانية ضد النمسا فى ١٩١٥ ، وانحازت بلغاريا إلى دول وسط أوربا فى أكتوبر من تلك السنة . ثم اضطرت رومانيا فى ١٩١٦ إلى الدخول فى الحرب ضد الألمان وتلتها الولايات المتحدة والصين فى ١٩١٧ . ويضيق المقام فى هذا الكتاب عن تحديد نصيب كل فريق من اللوم على هذه الكارثة الفظيعة . فليس السؤال الأكثر أهمية هو « لماذا لم يتكهن الناس بنشوب الحرب العظمى ؟ » بل « لماذا لم يحولوا دون ذلك ؟ » ؛ فإن العلم بأن عشرات الملايين من الناس كانوا من شدة الوطنية العمياء أو الغباوة أو بلاهة . الحس بحيث لم يستطيعوا أن يمنعوا تلك الكارثة بخطوة يخطونها نحو الوحدة الأوربية القائمة على أسس صريحة كريمة ، أخطر كثيراً لدى الإنسانية من العلم بأن طائفة قليلة من الناس قد عملت على إشعالها .

والجمال الذى بين أدينا لا يسمح بأى حال بتقصى التفاصيل المعقدة للحرب . على أنه تبين جلياً بعد بضعة شهور أن تقدم العلوم الفنية العصرية قد غير طبيعة الحرب تغييراً



خريطة رقم (٢٥٠)

عميقاً ، ولا شك أن علم الطبيعة يمنح الإنسان القوة والتسلط على الفولاذ والمسافات والأمراض ؛ وإن كان استخدام هذه القوة أو سوء استعمالها يعتمد على فطنة العالم الخلقية والسياسية ، لذا فإن حكومات أوروبا التي كانت تستوحى الإلهام من سياسات عتيقة بالية قوامها الكراهية والشكوك ، وجدت طوع يمينها قوى لا نظير لها تستطيع بها التدمير والمقاومة في وقت واحد ، وأصبحت الحرب شعلة من نار شملت العالم كله وأنت على الأخضر واليابس ، وأنزلت من الخسائر بكل من الظافر والمنهزم ما لا يتناسب ألينة مع قيمة المسائل المتنازع عليها ، وابتدأت الحرب بمرحلة من الاندفاع الهائل من الألمان نحو باريس قابله في الشرق اجتياح الروس لبروسيا الشرقية ، ولكن هذين الهجومين صدا ، ورد المهاجم على عقبه في الحالين ، ثم تطورت قوة الدفاع ؛ فأدخلت التحسينات السريعة على حرب الخنادق ، حتى اضطرت جيوش الفريقين أن تظل ردهاً من الزمن في خنادق تمتد في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها ، دون أن يمكنها القيام بأي تقدم بغير تكبد خسائر فادحة ، وكانت جيوش كل من الطرفين تعد بالملايين ، وقد نظم من ورأهم السكان بكامل عددهم بغية إمداد جبهة القتال بالميرة (الطعام) والذخيرة . فكان كل أنواع النشاط الإنتاجي قد انقطعت تقريباً إلا ما أسهم بنصيب في العمليات الحربية .

وأخذ كل شباب أوروبا ورجالها القادرون على العمل إلى الجيوش أو الأساطيل أو إلى المصانع التي أنشئت آنذاك على الفور لخدمة الجيش والأسطول ، وحلت النساء في الصناعة محل الرجال إلى درجة هائلة ، وأغلب الظن أن أكثر من نصف السكان في الدول الأوروبية المتحاربة قد غيروا أعمالهم ومهنتهم تغييراً تاماً في أثناء ذلك الكفاح المهل . فكانهم نزعوا اجتماعياً من بيئتهم انزاعاً وأنزلوا بيئة أخرى . وقيدت التربية والأبحاث العلمية العادية بقيود جعلتها قاصرة أو موجهة تماماً إلى أهداف الحرب المباشرة ، كما أن توزيع الأخبار ونشرها قد أصيب بالعجز والفساد والتشويه بما فرض عليها من رقابة عسكرية وما داخلها من أعمال الدعاية .

ثم تحول دور التوقف عن الأعمال العسكرية بالتدريج إلى دور من الاعتداء على السكان غير المحاربين وراء الجبهة ، وذلك بتدمير موارد الطعام والغارات الجوية ، كما أنه

حدث تقدم متواصل في حجم المدافع المستعملة ومدائها . وفي مستحدثات تنطوي على البراعة من أمثال قنابل الغاز السام وتلك القلاع الصغيرة المتحركة المسماة بالدبابات ، وغيرها من وسائل تحطيم مقاومة الجنود بالحنادق . على أن الحرب الجوية قد حدث بها دون غيرها من وسائل الحرب الحديثة أعظم انقلاب . فبعد أن كان للحرب اتجاهان أصبح لها ثلاثة ، وكانت الحرب قبل هذه اللحظة من تاريخ الإنسانية لا تحدث إلا حيث تزحف الجنود وتلتقي ، فأما الآن فإنها تدور رحاها في كل مكان ، وقد حملت مناطيد زبلن أولا ثم قاذفة القنابل فيما بعد رعى الحرب فوق الجبهة ووراءها إلى منطقة متزايدة الاتساع للنشاط المدني البعيد عن الجبهة . واختفى من الدنيا التمييز القديم الذي كان يفرق حسب أصول الحرب المتمدينة بين المدنيين من السكان والمحاربين منهم ، فكل منتج للطعام ، وكل حائك للثياب ، وكل قاطع لشجرة أو مصلح لمنزل ، وكل محطة للسكك الحديدية ، وكل مخزن من المخازن ، أصبح يعد 'صيدا مباحا' للتدمير ووسائله . وكان كل شهر ينقضي من الحرب يزيد مجال الحرب الجوية ويوسع نطاق الرعب منها . ولم يبرح الحال كذلك ، حتى أصبحت مناطق عظيمة من أوروبا في حالة حصار دائم وتعرض لهجمات لا تنقطع ليلة واحدة ، فكانت المدن المكشوفة كلندن وباريس تقضى الليلة بعد الليلة ساهرة لا يغمض لها جفن - والقنابل تنفجر من فوق رأسها ، والمدافع المضادة للطائرات تحدث ضوضاء لا تطاق ، على حين تجلجل آلات المطافيء وسيارات الإسعاف مسرعة خلال الشوارع المظلمة المهجورة ، وكانت آثار ذلك في عقول المسنين وصغار الأطفال وصحتهم محزنة ومدمرة بوجه خاص .

على أن الأوبئة التي كانت من قديم تسير متتبعة دائماً خطى الحروب ، لم تظهر إلا عند ختام القتال نفسه في ١٩١٨ . فإن علم الطب ظل أربع سنوات يدفع عن البشرية كل وباء عام ؛ ثم انتشر في العالم وباء عظيم من الإنفلونزا قضى على بضعة ملايين من الناس ، وكذلك أبعث شبح المجاعة إلى حين ، ومع ذلك فإن معظم أوروبا كان عند بداية ١٩١٨ يعيش في حالة من المجاعة الخفيفة والمنظمة ، فقد هبط إنتاج الطعام في كل أرجاء العالم هبوطاً عظيماً بسبب استدعاء الفلاحين إلى ميادين القتال ، فضلاً عن أن توزيع ما أمكن إنتاجه من الأطعمة كان يحول دونه عبث الغواصات وإفسادها في البحر ، وانقطاع الطرق العادية بسبب إقفال الحدود بين الدول ، وبسبب ما اعتري نظام المواصلات العالمية من اضطراب وفساد . وعندئذ وضعت الحكومات المختلفة يدها على

موارد الطعام الضئيلة المتناقصة ، وراحت توزع الأطعمة جرايات على شعوبها . وفضلا عن الطعام أصبح العالم بأجمعه يكابد الشقاء في السنة الرابعة من قلة الثياب والمنازل ومن نقص كثير من لوازم الحياة العادية . وأصبحت الأعمال الحرة والحياة الاقتصادية بأعمق الاضطراب . وران القلق والهم على النفوس جميعاً . وأصبح معظم الناس يعيشون عيشة ضنك لم يألوها قبلاً .

توقفت الأعمال الحربية في نوفمبر ١٩١٨ . إذ إن دول أوروبا الوسطى انهارت بعد جهد هائل بذلته في ربيع ١٩١٨ ، كاد يدفع الألمان إلى باريس نفسها . ذلك أنهم استنزفوا آخر قطرة من أرواحهم ومواردهم .

الفصل السادس وستون

النظام الجديد بالروسيا

وقبل انهيار دول أوربا الوسطى بليف وسنة كاملة انهارت قيصرية الروسيا شبه الشرقية التي ادعت أنها استعمرار للإمبراطورية البيزنطية . فقد ظلت تلك القيصرية تسرى فيها مظاهر الفساد العميق قبل الحرب ببضع سنوات ، إذ كان البلاط القيصرى واقعاً تحت سيطرة دجال دينى مضحك ، هو راسبوتين ، فضلا عن أن الأداة الحكومية المدنية والعسكرية كانت فى حالة مفردة من عدم الكفاية والرشوة والفساد . ولما أعلنت الحرب انتشرت بالروسيا فورة عظيمة من الحماسة القومية . فاستدعى لحمل السلاح جيش عرمرم من المجندين ، لم يكن له عتاد عسكري كاف ولا العدد الكافى من الضباط الأكفاء ، ولم يلبث ذلك الجيش العظيم السيء الإمداد الضعيف القيادة أن قذف بالنظام إلى الحدود النمساوية والألمانية .

ولا سبيل إلى الشك فى أن مبادرة الجيوش الروسية إلى الظهور فى بروسيا فى سبتمبر ١٩١٤ صرف همم الألمان والتفاتهم عن تقدمهم السريع الأول المظفر على باريس ، فسكان آلام ووفاة عشرات الألوف من الفلاحين الروس ذوى القيادة السيئة هى التى أنقذت فرنسا من الهزيمة التامة فى تلك الحملة الأولى الخطيرة ، وجعلت أوربا الغربية بأكملها مدينة بالفضل لذلك الشعب العظيم الأسيف . وقد وقع عبء الحرب على هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف شديداً مضيقاً لم تقو على احتماله قواها . فإن الجنود الروس العاديين كانوا يرسلون إلى ميدان القتال دون مدفعية تمهد لهم وتظاهرهم ، بل حتى دون ذخيرة للبنادق ؛ لقد أوقعهم ضباطهم وقوادهم فى حالة من حالات الهذيان الجنونى المشتعل بالحماسة العسكرية ، فظلوا إلى حين يقاسون الآلام صامتين مثلاً تقاسيها العجاوات . ولكن للصبر والتحمل حدا حتى لدى أشد الناس جهلاً . فأخذ يتفشى شعور من الاشمئزاز العميق من القيصرية بين تلك الجيوش الحيشة من الرجال الذين غدر بهم كبراًؤهم وأضاعوا حياتهم هدرآ . لذا غدت الروسيا منذ نهاية ١٩١٥ ، مصدر قلق

متزايد لحلفائها الغربيين ، فإنها ظلت عام ١٩١٦ ملتزمة خطة الدفاع إلى حد كبير ، وانتشرت في الجو إشاعات تشير إلى قرب عقد الصلح المنفرد بينهما وبين ألمانيا .

وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسبوتين في أثناء وليمة عشاء أقيمت بمدينة بتروغراد ، وبذل المخلصون من الرجال جهداً متأخراً لتنظيم القيصرية . ولكن الأمور كانت تندفع في شهر مارس اندفاعاً سريعاً ؛ فإن الفتن التي شبت ببتروغراد من أجل الطعام ما لبثت أن تحولت إلى حركة عصيان ثورية ، وحاولت الحكومة إلغاء مجلس الدوما ، وهو الهيئة التمثيلية في البلاد ، كما حاولت اعتقال زعماء الأحرار ، ثم ألف الأمير لافوف حكومة مؤقتة ، وتنازل القيصر عن عرشه في ١٥ من مارس . وانقضت فترة من الوقت ظن الناس في أثناءها أن في الإمكان قيام ثورة معتدلة ذات ضوابط ، ولكن في ظل قيصر جديد . ولكن اتضح جلياً أن تدمير الثقة الشعبية بالروسيا قد تجاوز المدى ولم يعد في إمكان مثل تلك التسويات إصلاح شأنه . ذلك أن الشعب الروسي قد سئم سامة الموت كل ما في أوربا من نظم قديمة : من قياصرة ومن حروب ومن دول عظيمة ؛ لقد كان يلتمس الراحة - والراحة السريعة العاجلة مما يقاسى من تعاسات لا تطاق . ولم يكن الحلفاء يدركون ألبتة حقائق الموقف في الروسية ، فإن رجال الديبلوماسية فيهم كانوا يجهلون الشؤون الروسية جهلاً تاماً ، إذ كانوا من علية القوم الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسي أكثر منهم إلى الروسية نفسها ، فلا غرابة إذن أن يتوالى صدور الخطأ منهم باستمرار إزاء الموقف الجديد . ولم تكن نفوس هؤلاء الديبلوماسيين تنطوي على الكثير من حسن النية نحو المذاهب والنزعات الجمهورية ، لذا أظهروا ميلاً واضحاً إلى إحراج الحكومة الجمهورية الجديدة جهد مستطاعهم . وكان على رأس الحكومة الروسية الجمهورية زعيم فصيح جذاب هو كيرنسكي ، الذي وجد نفسه غرضاً لهجمات حركة ثورية أخرى أبعد غوراً ، هي « الثورة الاشتراكية » في داخل بلاده ، كما وجد حكومات الحلفاء في الخارج تعامله بفتور وقلة اهتمام . لم يسمح له حلفاؤه أن يعطى الفلاحين الروس الأرض التي يتلفهون عليها ولا أن يمنحهم السلم وراء حدودهم . وأخذت الصحافة الفرنسية والبريطانية ترهق ذلك الحليف المنهك بمطالبته بالقيام بهجوم جديد ، فلما أقدم الألمان في تلك الساعة على مهاجمة ريغا برا وبحرا ، خارت عزائم إمارة البحر البريطانية دون القيام بحملة في بحر البلطيق لإنقاذها أو تخفيف الضغط عنها ، وبذا اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة

أن تقاتل الألمان وحدها دون معاونة من أحد . وينبغي لنا أن نلاحظ هنا أن البريطانيين وحلفاءهم تركوا الألمان السيادة التامة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها فيما عدا بضعة هجمات قامت بها غواصاتهم ، وذلك على الرغم من تفوقهم البحري ومن الاعتراضات المريرة التي قدمها لورد فيشر الأميرال الإنجليزي العظيم (١٨٤١ — ١٩٢٠) .

ومع ذلك فإن الشعب الروسى كان مصمما على وضع حد للحرب ، مهما كلفه ذلك من ثمن . فقد ظهرت إلى عالم الوجود بمدينة بتروغراد هيئة تمثل العمال وأعمامة الجند ، هي هيئة السوفييت ، التي أخذت تطالب بعقد مؤتمر دولي للاشتراكيين بمدينة استوكهولم . وكانت فتن الطعام تحدث في ذلك الأوان بربلين ، وتغلغل السأم من الحرب بكل من النمسا وألمانيا إلى قرارة النفوس ، وتدلنا الأحداث التالية دلالة لا سبيل إلى الشك معها أنه لو أن ذلك المؤتمر عقد لعجل بعقد صلح معقول في ١٩١٧ يقوم على أسس ديمقراطية ولأحدث بألمانيا ثورة في ذلك الوقت نفسه . وأخذ كيرنسكى يتضرع إلى حلفائه الغربيين أن يسمحوا بانعقاد ذلك المؤتمر . ولكنهم رفضوا ذلك الطلب مخافة أن يؤدي قبوله إلى انتشار المذاهب الاشتراكية والجمهورية في أرجاء العالم قاطبة ، على الرغم من قبول أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطانى للفكرة ، وظلت الجمهورية الروسية المعتدلة التعسة تقاتل دون أن تتلقى عوناً معنوياً أو مادياً من الحلفاء ، وقامت بهجوم أخير يائس في يوليو . ولكن الهجوم أخفق بعد أن أحرز بضعة انتصارات أولية ، وللمرة الثانية ذبح الروسيون ذبحاً عظيماً .

وهنا تجاوزت الأمور حد احتمال روسيا فتتمرد الجند في الجيوش الروسية وبخاصة في الجبهة الشمالية ، ولم تلبث حكومة كيرنسكى أن خلعت في ٧ من نوفمبر ١٩١٧ ، وأن استولى على مقاليد الأمور السوفييت ، الذين يسيطرون عليهم الاشتراكيون البلاشفة برئاسة لينين ، وأن طلبوا عقد الصلح دون أدنى مراعاة للدول الغربية . وفي ٢ من مارس ١٩١٨ عقد صلح منفرد بين روسيا وألمانيا بمدينة برست ليتوفسك .

وسرعان ما اتضح أن هؤلاء الاشتراكيين البلاشفة كانوا رجالاً مختلفون في طبيعتهم تماماً عن فصحاء الدستوريين والثوريين الذين أقاموا حكومة كيرنسكى . فإنهم كانوا شيوعيين ماركسيين متعصبين . وكانوا يعتقدون أن توليهم زمام السلطان بالروسيا إن هو إلا بداية ثورة اشتراكية عالمية عامة ، فانطلقوا يغيرون النظام الاجتماعى والاقتصادى

في البلاد ويبدون في ذلك أقصى غاية الإيمان المطلق وعدم الخبرة التامة . أما دول أوروبا الغربية وأمريكا فقد بلغها من أخبار السوء عن تلك الثورة ، كما أنها كانت من العجز التام بحيث لم تستطع أن تقدم الإرشاد لتجربتها الحارقة أو تمد إليها يد العون . فضلا عن أن الصحافة هبت لتحقير هؤلاء المعتصبين والخط من كرامتهم ، كما هبت الطبقات الحاكمة لتحطيمهم مهما يكن أساس ذلك التحطيم ومهما يكن الثمن الذي يدفعونه هم أنفسهم أو الروسية في سبيل ذلك . وتواصلت عليهم في صحافة العالم حملات الدعاية الحاملة لأسوأ التخريصات المزعجة البشعة ، وراحت تلك الصحافة دون رادع يردعها تصور زعماء البلاشفة في صورة الوحوش البشعة الشنيعة الملتطخة الأيدي بالدماء والذهب والدين يتعرجون في أوحال المملذات البهيمية تمرغا يجعل فضائح البلاط القيصري في أثناء فترة تسلط راسبوتين تصبح بالنسبة لهم ناصعة البياض طاهرة الذيل . وسيرت الحملات العسكرية على تلك البلاد الخائرة القوى وشجع كل ثائر عليها وكل مغير ، وأمد بالسلاح ومنح الأموال .

ولم يترك أعداء النظام البلشفي المدعورون وسيلة من وسائل الهجوم أو الاعتداء لم يستخدموها مهما بلغت من السفالة أو البشاعة . وهكذا نجد في ١٩١٩ البلاشفة الروس الذين كانوا يحكمون بلادا قد أنهكتها تماما وأفسدت نظامها حرب شديدة استمرت خمس سنوات ، يقاتلون حملة عسكرية بريطانية نزلت عند أركانجل . وغارة لليابانيين في شرق سيبيريا ، ويقاتلون الرومانيين في الجنوب ومعهم جنود فرنسيون ويونانيون ، ويقاومون الأميرال كولتشاك الروسي بسيبيريا ، والجنرال دينيكين بالقرم يعاونه الأسطول الفرنسي .

ثم كاد جيش إستوني بقيادة الجنرال يودينيتش أن يصل إلى بطرسبرج في يولييه من تلك السنة . وفي ١٩٢٠ هاجم البولنديون روسيا بتعريض من فرنسا . كما أن مغيرا رجعيا جديداً ، هو الجنرال رانجل ، تولى العمل الذي تخلى عنه الجنرال دينيكين وراح يغزو وطنه ويعيث في أرجائه فساداً . ثم إن بحارة الأسطول الراسي عند كرونستاد تمردوا في مارس ١٩٢١ . ولكن الحكومة الروسية برئاسة لينين تحملت كل هذه الهجمات . بل لقد أبدت قوة تماسك عجيبة ، وظاهرها عامة الشعب في روسيا دون تردد في أثناء تلك الظروف المفرطة العسر . حتى إذا وافت نهاية ١٩٢١ كانت بريطانيا العظمى وإيطاليا قد اعترفتا على صورة ما بالحكم الشيوعي في روسيا .

ولكن لأن وقفت الحكومة البلشفية في مكافحتها للتدخل الأجنبي والثورات الداخلية ، فإنها كانت أقل حظاً من التوفيق في إقامة نظام اجتماعي جديد بالروسيا مؤسس على الأفكار الشيوعية . ذلك أن الفلاح الروسي مالك صغير متلهف على امتلاك الأرض ، بعيد عن الشيوعية في فكره وأساليه بعد السماء عن الأرض ؛ أجل أعطته الثورة أراضي المالك الكبير السابق ، ولكن الثورة لم تستطع أن تحمله على زراعة المواد الغذائية مقابل أى شيء إلا العملة القابلة للتداول ، كما أن الثورة دمرت قيمة النقود تقريباً . وأصيب الإنتاج الزراعي بضرر شديدة من جراء اختلال نظام السكك الحديدية وأجهزتها في أثناء الحرب ، حتى لقد انكشف فأصبح مجرد زراعة للمواد الغذائية يقوم بها الفلاحون لاستهلاكهم الخاص . أما المدن فقد شملتها المجاعات . وبذات محاولات مستعجلة سيئة التنظيم والتدبير لتعديل نظم الإنتاج الصناعي بحيث تتمشى مع النظريات الشيوعية فباعت هي الأخرى بالفشل . فلو أنك نظرت إلى الروسيا في ١٩٢٠ لشهدت فيها منظراً عجبياً لم تسبق مشاهدته هو منظر الحضارة العصرية وهي في حالة من الانهيار التام .

فإن الصدا كان يأكل السكك الحديدية ويحمله إلى خردة غير صالحة للاستعمال ، كما أن المدن ظلت تتحول إلى خرائب ، وارتفعت نسبة الوفيات في كل مكان ارتفاعاً شديداً . ومع ذلك كله ظلت البلاد تقاتل أعداءها الذين كانوا يطرقون أبوابها من كل جانب . وحل بالبلاد بين الفلاحين الزراعيين في ١٩٢١ قحط ومجاعة شديدة في المناطق الجنوبية الشرقية التي خربتها الحرب . ومات ملايين الناس جوعاً .

إزاء هذه الظروف المحزنة عزم المسؤولون على التقليل من سرعة عملية البناء والتعمير . وتبنى القوم سياسة اقتصادية جديدة ، وأباحوا قدرأ من حرية الملكية الخاصة وأعادوا نظام النشاط الشخصي والجهد الخاص ، فترتب على ذلك أن عادت إلى حد ما مياه النشاط الإنتاجي إلى مجاريها . وعندئذ أحس الناس كأنما الروسيا تنحرف عن مذاهب الاشتراكية الإنشائية وتعيد إظهار أحوال تكاد تماثل تلك التي شملت الولايات المتحدة قبل ذلك بمائة عام ، ونشأت بالبلاد طبقة من المزارعين الأثرياء هم الكولاك ، وهم النظير الذي يقابل المزارع الأمريكي الصغير ، وتكاثر عدد صغار التجار الموسرين . على أن الحزب الشيوعي لم يكن ميالاً إلى التخلي عن أهدافه على تلك الصورة ، وإلى السماح لروسيا بأن تتبع الخطوات التي اجتازتها أمريكا قبل ذلك بمائة سنة . لذا ما لبثت أن

ظهرت في ١٩٢٨ حملة قوية لإعادة البلاد إلى المنهاج الشيوعي في التطور والتنمية، فأُنشئ مشروع لخمس سنوات ، رمى إلى إحداث توسع سريع عنوة في الصناعة تحت إشراف الدولة ، وخاصة في المنتجات الأساسية الثقيلة ، وفي نفس الوقت استبدلت الزراعة الحشدية (الجماعية) ذات النطاق الواسع بإنتاج المزارعين الفرادى . وقد حرمت روسيا من قيادة لينين الحكيمة في ٢١ من يناير ١٩٢٤ ، وكانت طريقة معالجة خليفته ستالين للأمور أخشن من طريقته . وضعت تلك الخطة موضع التنفيذ على الرغم مما اعترضها من صعاب هائلة ؛ أهمها جهل العامة وأميتهم وتأخرهم العام ، وقلة عدد الأكفاء من رؤساء العمال والصناع الفنيين ، وامتناع العالم الغربى عن بذل أية مساعدة بل واتخاذ جانب الخصومة الإيجابية .

ومع ذلك فإن القوم أعلنوا أن الجانب الصناعى من الخطة أصاب قدرًا جسيمًا من النجاح . نعم أضاعوا الشيء الكثير هدرًا ، وأعوزهم إيجاد التناسب الضرورى بين الأمور ، غير أنهم أصابوا من الخير ما لا سبيل إلى إنكاره ، ومع ذلك فإن أثر هذه التغيرات الجريئة السريعة لم يكن مرضيًا تمامًا في حالة الإنتاج الزراعى ، كما أن شتاء أعوام ١٩٣٣ - ١٩٣٤ أنزل بالروسيا للمرة الثانية نقصًا عظيمًا في الأطعمة .

أما بقية أجزاء العالم التى كانت تواصل العمل بنظام أرباح رأس المال الفردى وتقيم نتائجها ، فقد كانت تنظر إلى تلك التجربة الروسية بعين اختلط فيها حب الاستطلاع بعدم الثقة والاحترام . وذلك بينما كان النظام القديم نفسه يتعثر في سيره ، فإنه كان يضيق قوة الشراء ويقصرها على جزء صغير متناقص من السكان ، كما أنه أخذ يفقد قوة اندفاعه التقدمية بسرعة كبيرة جدا . لقد أصبح قلقًا غير راض عن تصرفاته . وانتشرت لفظة « وضع المشروعات » في أرجاء العالم بسرعة البرق ، وبتزايد الضائقات الاقتصادية التى سنتحدث عنها في الفصل التالى تسكّرت تلك المشروعات . حتى إذا وافت سنة ١٩٣٣ لم يعد أى سياسى يحترم نفسه يستطيع أن يواجه العالم بغير خطة ومشروع ، وحسبك هذا على الأقل تقدير للروسيا من العالم كله .

ظلت روسيا حتى ١٩٣٤ على الرغم من رداءة المحصول في ١٩٣٣ ، يحالفها النجاح في جميع مرافقها ، فزاد الإنتاج مرة ثانية وتسكّرت الأنعام والملاشية ودخل البلاد أفواج من السياح الأوربيين والأمريكيين . وأخذوا يتناولون فيها الكافيار وشراب الفودكا .

وقامت في البلاد نهضة عظيمة في البحث العلمي ، وخاصة في المسائل التناسلية والاستكشافات القطبية ، ونفذت أشغال عامة عظيمة - منها سد الدينير وستروا وسكة حديد التركستان/سيبيريا - وأنجزت البلاد قدرا جسيما من المباني المجددة وعكفت على إعادة تجديد مرافقها وعتادها . غير أنها ظلت تعاني السكبت التام لكل نقد مما اضطر أى نوع من المعارضة إلى الاستتار . ولا يغرب عن البال أن كل معارضة مكبوتة لا بد أن تتحول في النهاية إلى معارضة إجرامية . وكانت الفرقة والانقسام تنخر في كيان النظام الجديد . إذ قد تلت وفاة لينين قبل الأوان مناضلة شديدة على السلطان بين تروتسكى الذى يرجع إلى قيادته العسكرية النابهة الفضل الأكبر في نجاح الدفاع عن الجمهورية ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، وستالين السكرتير السابق للحزب الشيوعى : ولا تزال التفاصيل المضبوطة والمعقدة لذلك النضال خافية علينا ، ولكن أحدا من الرجلين لم يوهب قوة لينين الفكرية ولا رحابة نفوذه الشخصى ، كان تروتسكى إنسانا موهوبا ولكنه كان مغرورا ؛ وأوتى ستالين صفة العناد الرهيب ؛ ومالبث تروتسكى أن نفى خارج البلاد فى يونيه ١٩٢٨ بعد أن طرد من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، فنزل تركيا أولا ثم فرنسا ثم النرويج ، واستقر به المطاف أخيرا بالمكسيك ، وهو يحمل فى كل مكان حل به لواء المعارضة الجدلية المريرة العنف ضد زملائه السابقين ، ويمزق وحدة أنصار اليسار فى العالم كله إلى حزبين متنازعين .

أما فى روسيا نفسها فالظاهر أن كفاحا خفيا أخذ ينشب بين الموظفين والمستخدمين المعارضين وبين حكم ستالين ودولته ، على أن قدرا من هذا التاريخ لا يزال يكتنفه الغموض الشديد . إذ لا مجال للشك فى أنه كانت هناك مقاومة ، كما لا شك فى أنه حدث التدمير وقلة الولاء للحكومة ومن المحتمل أيضاً أن هذا الضرب من المعارضة الذى ليس من الضرورى أن يكون منظما كان يحدث حتى فى أيام لينين نفسه ، ولكنه اتخذ بعد وفاته صورة منسقة تماما أكثر . وراحت حكومه السوفييت تسلك فى هذا الكفاح حينما من الدهر مسلك القصد والاعتدال . فإن موظفين مسئولين منهم مهندسون بريطانيون متنوعون قدموا للمحاكمة بتهمة تعمد تعطيل عملية طبع روسيا بالطابع العصرى والميكانيكى مع سبق الإصرار ، ثم ظهرت فى الأفق فى أثناء المحاكمات التالية عناصر المؤامرات والتدبيرات السياسية . على أن معظم المتهمين كان لا يحكم عليهم إلا بالسجن أو بالنفى ، حتى قتل واحد من أشد الوزراء الدين وثق فيهم ستالين واطمأن إليهم فى أول ديسمبر

١٩٣٤ . فبعد تلك الحادثة اشتدت الأمور في روسيا عصفاً وتجهماً . وقد توفيت زوجة ستالين على حين بغتة في ربيع ١٩٣٤ في ظروف لا يزال يغشاها إلى اليوم الغموض - ولقد زعم بعضهم أنها انتحرت حزناً على ما يقاسيه الفلاحون من العذاب في ظل مشروع الخمس السنوات الأول، ولا شك في أن تزايد عدواه خلطائه القدماء له قد زاد رويدارويدا من مدى عزلته وتباعده . والظاهر أنه لم يبق له صديق مخلص إلا الكاتب مكسيم جوركي الذي مات في ١٩٣٦ . وتعاقبت المحاكمات السياسية الواحدة تلو الأخرى ، وأخذت بوادر القسوة تتجلى في استخلاص أدلة الإدانة وبيناتها ، كما أصبحت عقوبة الإعدام هي القصاص العادي . فاعدم زعماء البلشفية السابقون واحد بعد آخر ، حتى لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة ، وأعدم أطباء جوركي بتهمة أنهم تسببوا في وفاته ، ولم يزل ستالين يزداد في عتوه درجة بعد أخرى حتى أصبح مستبدًا لا يقبل صلحاً ولا تراجعاً ، ولكن على الرغم من أن هذا هو حال الكرملين في أثناء كتابة هذه السطور (في ربيع ١٩٣٨) فالظاهر أن حياة روسيا المادية تسير في طريق الجد الثام مع تناقص الصعوبات بالتدريج وتضاؤل التذمر الشعبي إلى درجة لا تسكد تذكر . وليس لهذا الموقف من سابق في التاريخ ، كما أنه يكاد يكون من المحال التنبؤ باحتمال إبلال روسيا مما بها وبطبيعة ذلك الإبلال إذا حدث .

الفصل السابع وستون

عصبة الأمم

بلغ من فظاعة الحرب العظمى في تلك الوقت ومما جلبت من الكوارث والأحزان أن زعمت أخيلة الناس أنه ليس معقولا ألا تؤذن تلك الحرب بنهاية عصر ، وبداية مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني تكون أسعد حالا ، وذلك من وجهة نظر الظافرين فيها على الأقل . ومن المعلوم أن عقولنا تجنح دائماً إلى الاعتقاد بالتعويض - فإننا ندرك على مضض مفرط إغفال القدر لما نتصوره في أنفسنا من مزايا . ولم تنقش هذه الأوهام والادعاءات التي أعقبت الحرب عن أذهاننا إلا ببطء شديد . ولسكن هانحن قد شرعنا نتحقق أن ذلك الصراع على بشاعته وشدة ضخامته لم يضع حداً لشيء ، ولم يبدأ شيئاً ، ولا سوى شيئاً . نعم إنه قضى على ملايين من الأنفس ؛ وبدد قوى العالم وأشاع فيه الفقر والفساد ، فحطم الروسيا تحطياً مطلقاً . ولم يكن على كل حال إلا تذكرة حادة مخيفة بأننا نعيش عيش الحماقة والارتباك دون خطة مرسومة ولا بعد نظر مرشد في عالم خطر لا يحمل لنا عطفاً ولا وداً . فإن الأنانيات ونهوات الأطماع القومية والاستعمارية السيئة التنظيم التي جرفت البشرية إلى غمرات تلك الفاجعة - خرجت منها سليمة إلى حد جعل في الإمكان تماماً حدوث كارثة أخرى مماثلة بمجرد انتعاش العالم قليلاً مما أصابه من إنهاك وإجهاد في أثناء الحرب . أجل أزاحت الحرب عن كاهل أوربا تهديد القيصرية الألمانية ، كما حطمت القيصرية الروسية . وأزالت عدداً لا بأس به من الملكيات . ولكن أوربا لا تزال ترفرف فيها كثرة من الرايات ، ولا تزال الحدود تثير الغيظ في النفوس ، كما لا تزال جيوش جرارة تكبدس في مخازنها مقادير جديدة من العتاد الحربي .

ولم يكن مؤتمر الصلح الذي انعقد بهرساي إلا اجتماعاً سيئ التكيف وظروف الدنيا ، لم يوفق إلا إلى دفع منازعات الحرب وهزائمها إلى نتائجها المنطقية . فلم يسمح للألمان ولا النمساويين أو الأتراك أو البلغار بأى نصيب في مداولاته؛ ولم يكونوا يملكون

إلا قبول القرارات التي تملئ عليهم . كان مؤتمر يضم الظافرين الفاتحين وكان اختيار موضع انعقاد المؤتمر غير موفق بوجه خاص ، وذلك من وجهة نظر المصلحة البشرية ، فإن فرساي هي المدينة نفسها التي أعلن فيها قيام الإمبراطورية الألمانية الجديدة في ١٨٧١ بكل مظاهر الانتصار السوقي الوضع . وتسلمت على الأذهان فكرة قاهرة تدعو إلى إقامة مشهد « ميلودرامى » عنيف يعكس المسرحية الأولى في قاعة المرايا نفسها .

ومهما تكن المكارم التي ظهرت إبان المراحل الباكورة للحرب العظمى فإنها ولت من زمن بعيد . وكان سكان الدول المنتصرة شديدي التيقظ لما عانوا من خسائر وآلام ، مغضين كل الإغضاء عن أن العدو المنهزم قد شرب من نفس الكأس . كانت الحرب نتيجة طبيعية لا بد منها لتنافس القوميات بأوربا وغيبة كل تنظيم اتحادي لتلك القوى المتنافسة ؛ والحرب هي النهاية القصوى المنطقية والضرورية للقوميات المستقلة ذات السيادة التي تعيش في حيز ضيق جداً وتملك عتادا عسكريا مفرط القوة ؛ ولو لم تجيء الحرب العظمى على الصورة التي جاءت بها ، لظهرت في صورة أخرى مماثلة - كما لا شك في أنها ستعود على نطاق أفضع وأشد تدميرا في مدى عشرين أو ثلاثين سنة إن لم يسبقها اتحاد سياسى يمنع حدوثها . ولا شك في أن الدول التي تنظم شئونها ابتغاء الحرب مضطرة بالتحقيق إلى الحرب اضطرار كل دجاجة إلى وضع البيض ، ولكن عواصف هذه البلاد المحزونة التي أنهكتها الحرب أغفلت تلك الحقيقة ، لذا عوملت جميع شعوب الأقطار المنهزمة كأنها هي مسئولة خلقياً ومادياً عن كل ما حدث من أضرار ، وهي نفس الطريقة التي كانوا سيعاملون بها دون شك الشعوب المنتصرة لو كانت نتيجة الحرب في صالح أولئك المنهزمين . وزعم الفرنسيون والإنجليز أن الألمان ملومون على ما حدث ، وزعم الألمان أن الملوم هو الروس والفرنسيون والإنجليز ، ولكن أقلية ذكية أدركت أن الملوم في الموضوع هو الوضع السياسى لأوربا ، وكان المقصود من معاهدة فرساي أن تكون مثالية وانتقامية ؛ فحتمت على المغلوبين عقوبات فادحة ؛ إذ حاولت أن تمنح التعويضات للمنتصرين وشعوبهم الجريحة المتألمة بفرض ديون باهظة على أمم قد أفلست من قبل ، كما أن محاولتها إعادة تكوين العلاقات الدولية بتأسيس عصبة للأمم تسعى لمنع الحرب كانت محاولة تجلى صراحة أنها غير مخلصة وغير كافية .

ومن المشكوك فيه أن أوربا - لو تركت وشأنها - كانت تبذل أى محاولة لتنظيم العلاقات الدولية تنظماً يكفل سلاماً دائماً ، فإن فكرة عصبة الأمم قد أدخلها إلى معترك

السياسة العملية الرئيس ولسن ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت دعائها الرئيسية هي أمريكا ، ذلك أن الولايات المتحدة — تلك الدولة العصرية الجديدة — لم تنتج حتى الآن أية فكرة مميزة تتعلق بالعلاقات الدولية عدا مبدأ مونرو ، الذى وقى العالم الجديد غائلة التدخل الأوربي ، وها هي الآن تستدعى فجأة للمساهمة الفكرية فى مشكلة ذلك الزمان الهائلة ، ولكن قريحتها لم تسعفها بشيء ، وكان الشعب الأمريكى يخرج بفطرتة نحو السلام العالمى الدائم ، وذلك بغض النظر عما يرتبط بذلك الاتجاه من عدم الثقة وسوء الظن التقليدى فى سياسة العالم القديم وعما ألفه الأمريكيون من عادة التباعد عن اشتباكات العالم القديم ومشكلاته ، فكأن الأمريكيين لم يكادوا عند ذلك يبدأون فى تكوين فكرة عن إيجاد حل أمريكى لمشكلات العالم عند ما جرتهم حملة الغواصات الألمانية إلى معترك الحرب فى صف الحلفاء أعداء الألمان ، ولم يكن مشروع الرئيس ولسن لتكوين عصبة الأمم إلا محاولة مبتسرة متعجلة لإيجاد مشروع عالمى أمريكى النزعة تماما ، فأنشأ لها تصميما فجيجا وناقصا وخطرا ، ولكنه أخذ فى أوربا على أنه وجهة نظر أمريكية ناجحة ، ذلك أن البشرية عموما كانت فى ١٩١٨ — ١٩١٩ قد اشتد بها الضيق بالحرب والتلف بأى ثمن أو تضحية على إقامة كل ما من شأنه منع حدوثها ثانية ، ولكن حكومة واحدة فى العالم القديم لم تنشأ أن تنزل قيد أنملة عما تستمتع به من سيادة واستقلال فى سبيل الوصول إلى تلك الغاية ، والظاهر أن التصريحات العلنية التى فاه بها الرئيس ولسن حول مشروع عصبة الأمم العالمية ، قد وقعت موقع القبول من قلوب شعوب الأرض كلها وإن تخطت الحكومات ؛ وزعم الناس أن تلك التصريحات تعبر عن مقاصد أمريكا الحقة ، وكانت استجابتهم لها هائلة ، ومن سوء الحظ أن الرئيس ولسن كان مضطرا أن يتعامل مع الحكومات لا مع الشعوب ؛ وكان رجلا تصدر عنه ومضات هائلة من الرؤى والأحلام فإذا هو وضع موضع التجربة تبين أنه أناني محدود ، فلا غرابة إذن أن تتبدد موجة الحماسة العظيمة التى أثارها وتذهب سدى.

يقول الدكتور ديبلون فى كتابه : « مؤتمر السلام » : « كانت أوربا عند ما مس الرئيس شواطئها كقطعة من صلصال لا يعوزها إلا يد الصانع الماهر ، إذ لم يحدث قبل ذلك قط أن اشتد شوق الناس إلى اتباع زعيم كموسى يأخذهم إلى أرض الميعاد التى طال انتظارها والتى تمنع الحروب ونجمل الحصار البحرى ، وقد تصوروا أنه ذلك الزعيم وانحنى الناس أمامه فى فرنسا بدافع الرهبة والمحبة ، وأخبرنى زعماء العمال بباريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم مستعدون لخوض لجج الماء والسنة

الذيران لمعاونته على تحقيق خطته النبيلة . وكان اسمه عند الطبقات العاملة بإيطاليا بوقاً يدوى صوته في أفلاك السماوات فتتمز جنبات الأرض له وتعود جديدة مطهرة ، واعتبره الألمان هو ومذهبه وسيلة منجاتهم وملاذم الأكر ، وقال المهر مهلن الشجاع الباسل : لو أن الرئيس ولسن خاطب الألمان وحكم عليهم حكماً قاسياً ، لتقبلوه بهـدر رحب ودون أدنى تدمير ولبدأوا في تنفيذه على الفور ، فأما بلاد النمسا الألمانية فقد بلغت شهرته فيها شهرة المسيح المخلص . وكان مجرد ذكر اسمه بلسماً للمتأملين وترياقاً للمسكوبين »

تلك وأمثالها هي الآمال الجارفة التي أثارها في النفوس الرئيس ولسن ، ولكن القصة المحزنة حقاً هي أنه خيب تلك الآمال تماماً وأن العصبية جاءت ضعيفة غير ذات غناء ، فكأنه شخصياً قد زاد من وقع فاجعتنا الإنسانية المشتركة ، إذ إنه بلغ الغاية في عظم أحلامه والنهاية في عدم الكفاية في أعماله ، وقد تمردت أمريكا على تصرفات رئيسها ، وأبت أن تقبل العصبية التي تقبلتها منه أوربا . . . إذ إن الشعب أخذ يتحقق ببطء أنه دفع بسرعة في تيار تجربة لم يتهياً لها أبداً ومحقة أوربا من جهتها بأن أمريكا لم تعد تملك شيئاً تستطيع تقديمه للعالم القديم وهو يرزح في محنته . ولدت تلك العصبية قبل الأوان ، وتشوهت منذ ميلادها فأصبحت هي ودستورها التفصيلي غير العملي وتحديد سلطاتها الجلى الواضح ، عقبة كأداء في طريق أية تسوية فعالة وأى تنظيم جديد مشعر للعلاقات الدولية ، ألقت تلك العصبية على المسائل ظلاماً من الإبهام الذي ما كان يغشاها لولم تنشأ تلك العصبية ، ومع هذا فإن ذلك اللهب الحماسي الذي شمل العالم في البداية ترحيباً بالمشروع ، ذلك الاستعداد الجليل الذي أبداه الناس في كل صقع من أصقاع العالم - وأقول الناس ولا أقول الحكومات - لإقامة ضوابط عالية تتحكم في الحرب ، إنما هو شيء جديد ينبغي تسجيله في أى سفر تاريخي مع القدر اللازم من التأكيد والتشديد ، ذلك أنه تقوم في هذه الأيام وتنمو باطراد من وراء ظهور الحكومات قصيرة النظر التي تفرق كلمة البشرية وتسيء تدبير شئونها ، قوة حقيقية تطالب بالوحدة العالمية والنظام العالمي .

غير أن تلك القوة لا تزال تلتهمس التطبيق الفعال ، فإن صالح فرساي كان صلحاً سياسياً بحثاً ، كما أن العصبية نفسها كانت منظمة سياسية . كانت محاولة لترقيع أحوال البشرية في الوقت الذي قبلت فيه - على علاتها - الحكومة القائمة والأفكار السائدة المتعلقة بالدولة بوصفها شئونا لا مفر منها : وهنا يكمن الخطأ الذي أخذ يتضح بالتدريج لعين البشرية

فإن الحكومات والدول ليست إلا أمورا مؤقتة ، كما أن في الإمكان تعديلها ، بل لابد من تعديلها بحيث تتناسب وتغيرات الحاجات الإنسانية واتساع مداها ، على أن القوى الاقتصادية أساسية وجوهرية أكثر ، وهي تعتمد على الأفكار الخاصة بالملكية والسلوك ، كما أن هذه الأفكار بدورها تتولد عن التربية ، ولا شك أن تكوين الأحوال البشرية - إن هو إلا اكتشاف مجموعات من الأفكار التي رسخت في عقول الناس وتطبيقها ، كما أن العلاج الناجح للمتعاب الاجتماعية والاقتصادية إنما يقوم في إصلاح كل تأويل خاطئ وكل فهم مغلوط ، وقد دخل العالم من ١٩١٨ إلى ١٩٣٣ في عصر مؤتمرات تبذل جهودا بطيئة سمجة لإعادة تكييف مشؤنه ، ولو تأملت ما دار بها من المناقشات لوجدت فيها تقدما مطردا ، فإنها كانت تتشعق في البداية بروح قومية وسياسية بحتة ، وإذا هي تتحول أخيراً إلى إدراك أوسع وأجراً للوحدة التي تجتمع تحتها رفاهية البشرية المالية والاقتصادية ، ولا يخفى مع ذلك كله ، أن الجماهير ورجال السياسة والصحافة يتعلمون ببطء وتسكرار ، هذا إلى أن الحياة الاقتصادية أصيبت في غضون ذلك بارتباك كبير ، كما تفشت البطالة والفقر بصورة لم يشهدها العالم منذ أكثر من قرن ، إذ إن حيوية الجنس البشري أصيبت بالعطب ، كما أن الأمن العام قد تدهور ، فزاد عدد الجرائم ، وتجلت في الحياة السياسية حالة غير مألوفة من عدم الاستقرار . ولن نطيل هنا الخوض في تفاصيل تلك المحن ، فإنها قد تكون مؤذنة بانتهاء الحضارة وقد لا تكون وهي لا ترقى في الزمن الحاضر إلى التهديد بشيء يشبه الانهيار ، كما أنه لا يزال من المحال علينا أن نقدر ما إذا كان الجنس البشري قادراً على إنتاج القوة الخلقية ، أي الزعامة والإخلاص اللازمين لمواصلة ذلك التقدم المطرد الذي جعل القرن التاسع عشر صفحة حافلة بالفخار والمسرة في تاريخ البشر .

الفصل الثامن استون

إخفاق عصبة الأمم

كانت عصبة الأمم حتى منذ بدايتها الأولى عصبة محاربين منتصرين ، كما أن غرضها الصريح كان المحافظة على الحدود التي أقامتها معاهدة فرساي - وهي الحدود التي تحكمت في رسمها روح الانتقام كما ذكرنا آنفاً مع تجاهل العواقب الاقتصادية التي تنجم عنها ، وفرضت على المهزومين كما أسلفنا مبالغ فادحة يدفعونها على سبيل التعويض ، كما أن شهوة التملك التقليدية لدى وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية قد اتشجت بغشاء شفاف من العبارات الرشيقة . حقاً إنه لم تظم على الطريقة القديمة المستعمرات الألمانية وراء البحار ولا أجزاء كثيرة من الإمبراطورية التركية المحطمة ، ولكنها وضعت تحت « انتداب » المنتصرين - وهي لفظة مباركة أنجزتها قريحتهم الوقادة ١١ . . فإن عصبة الأمم أخذت تلك البلاد ثم سامتها لأصحاب الشأن ، وحتى الحلفاء أنفسهم لم يبدوا أى سماحة نفس في اقتسام الغنائم فيما بينهم . فنالت فرنسا وبريطانيا نصيب الأسد ، وأشبعت مطاعم إيطاليا واليونان واليابان على أسوأ صورة . ونكص الأحرار والاشتراكيون بريطانيا العظمى والدول الديمقراطية الأخرى عن مواجهة تلك الحقيقة بما يلزمها من صراحة ، وفكر ، فأصبحت السياسة التقدمية في العالم كله بالشلل من جراء ذلك مدة عشرين عاماً تقريباً .

وكان الأطفال يعلمون في بريطانيا العظمى مثلاً ، أن العصبة تمثل العدالة الدولية وتضمن السلام العالمى ضماناً أكيداً . وصدر عدد لا يحصى من الكتب لتثبت هذه الفكرة في الأذهان ، ولكن أطفال الأقطار التي لم تحصل على نصيب مرضى من الغنائم والطيبات التي وزعت بفرساي كانوا يتلقون غذاء عقلياً أقل تهديئة لأنفس . ولم تكف تنقضى عشر سنوات على أهل المنطقة الواقعة خارج حدود أولئك الذين نستطيع اليوم أن نسميهم باسم المنتصرين الحق ، حتى أخذ ملايين وملايين من الألمان والمجريين والإيطاليين واليابانيين بين أطفال وشبان يلقنون دروساً توحى بضرورة إجراء تعديل عنيف في تسوية جنيف . لقد شب هؤلاء الأطفال في عالم من الاضطراب الاقتصادي ،

الذى سنبحث أسبابه بحثاً أوفى في الفصل التالى . ذلك أن فيضا متدفقا من الاستياء ، يسير بكل ما يتصف به الشباب من حيوية وخفة ولين عريكة ، كان يتجمع سنة بعد أخرى ، ولم يكن يفوت أى إنسان إلا موظف وزارة الخارجية المحنك أن يتحقق أنه لا مفر من حدوث انفجار دولى جديد . ولكن وزارات الخارجية المختلفة استمسكت بعناد بالمزايا الظاهرية التى اعتصرتها من الحرب العظمى .

عقد أول اجتماع لمجلس العصبة بباريس فى ١٥ من يناير ١٩٢٠ ، ثم انعقد بعد ذلك بلندن وبروكسل ، حتى أقيم مقرها أخيراً بمدينة جنيف قبل انتهاء تلك السنة ، وهناك عقدت جميع جلساتها منذ ذلك التاريخ .

وجاءت أول إشارة تؤذن بأن تسوية ولسن العظيمة بتراء معيبة قبل أن تستقر العصبة فى مقرها الرسمى ، فإن قتالا اتصف بالخطورة فى كثير من الأحيان دارت رحاه فى أثناء السنة التالية ببلاد المجر وبولندة ولتوانيا وسيبيريا وفيومى وتركيا وآسيا الصغرى وسوريا ومراكش والبرازيل والصين ، كما شبت الحرب الأهلية بإرلندة ، ولسكن فى الإمكان اعتبار قدر كبير من هذه الأحداث عمليات تصفية بعد الحرب العظمى — إن جاز مثل هذا القول .

قام اليونانيون بهجوم منظم على الأتراك انتهى بانتهيار عسكري كبير على مقربة من أنقرة فى سبتمبر ١٩٢٢ ، فطرد اليونان من آسيا الصغرى وتراقيا على يد مصطفى كمال ، ونهبت مدينة أزمير وأحرقت وقتل فيها آلاف من الناس ، وكان الحلفاء قد وعدوا روسيا القيصرية فى أثناء الحرب العظمى بمنحها مدينة القسطنطينية ، ولسكن روسيا السوفيتية لم تكن لها رغبة خاصة فى التورط فى ذلك الأمر . ذلك أن تلك العاصمة الإمبراطورية القديمة قد احتلها الحلفاء برياسة الجنرال ملن الإنجليزى فى ١٩٢١ ، ولسكنها ردت بمقتضى معاهدة لوزان ١٩٢٣ إلى الترك عقب هزيمة اليونان بعد مفاوضات طويلة ، ودخلت تركيا بزعامه كمال فى دور سريع من أدوار الانطباع بالحضارة الأوربية ، فأزيج عن البلاد مظاهر النظام القديم ، وهى السلطان والطرش وفصل النساء عن الرجال ، وأصبحت تركيا جمهورية ، ومع أن القسطنطينية ردت إلى أصحابها السابقين ، فإن (كمال) احتفظ بعاصمته أنقرة .

كانت السنوات التى أعقبت توقيع معاهدة فرساي سنوات محنة قاسية بألمانيا ،

فإن تلك المعاهدة حكمت على المندحرين بالاعتراف على أنفسهم بمسئولية الحرب وبدفع تعويضات فادحة للظافرين . ومن الجلى أن المقصود من ذلك هو استعباد السكان اقتصاديا مدة جيل أو أكثر . فكان عليهم أن يشقوا ويكدحوا ويقدموا الثمرات ليستهلكها المنتصرون . على أن ذلك كان ينطوى على عقدة خطيرة . إذ من الواضح أنه لا سبيل إلى تسديد هذه الغرامات الباهظة إلا بالسلع المصدرة ، فلو صدر عن المهزم فيض كبير من السلع المصدرة ، لأدى ذلك إلى تعطيل الحياة الاقتصادية لدى الحلفاء المظافرين . لذلك اضطروا إلى أن يحيطوا أنفسهم بحواجز من التعريفات الجمركية لوقاية عمالهم ، بحيث إنه لو فرض أن الألمان جنحوا حقاً إلى عيشة الكدح الشديد المتواصل لسداد الالتزامات المفروضة عليهم ، لما استطاعوا التغلب على تلك الحواجز ، ولظلوا بعد ذلك مثقلين اقتصاديا بما يتكدس لديهم من منتجاتهم غير المستهلكة .

ولا تروى لك الحلقة الثالثة من القرن العشرين إلا قصة الجهود التعسة الحائقة التي بذلتها ألمانيا والنمسا المندحرة للحصول على درجة مقبولة من العيش في ظل تلك الظروف القاسية ، وإلا قصة امتناع فرنسا وبريطانيا تماماً عن النظر فيما يلقون من صعوبات لا سبيل لهم إلى التغلب عليها وعن إعانتهم على معاودة ما كان لهم من احترام الذات ومن مشاركة معقولة وشريفة في الشئون الأوربية . وفي غضون ذلك كان ذلك الجيل من الألمان يكبر سنّاً ويتجمع مرجلاً ضحفاً من الطاقة الحائقة النافرة .

انتهى حكم أسرة هوهنزولرن بفرار القيصر إلى هولندا في نوفمبر ١٩١٨ ، وأعقبته قراره سلسلة محاولات لإنشاء جمهورية ألمانية . ويضيق مجال هذا الفصل عن تفصيل الهزات الاقتصادية العنيفة التي ألمت بالدولة الألمانية والعيوب التي لم يكن مفر من ترديها فيها ، والعزم والتصميم العنيد القاسى الذى أبداه المسيو بوانسكاريه على إنزال عقوبات المعاهدة بهم إلى أقصى حد ، إذ إنه كان يرى أن لا بد لألمانيا من أن تداس بالأرجل ؛ ولعل ذلك أقصى ما يبلغه قصر النظر السياسى . وسرعان ما احتلت الأراضي الألمانية احتلالاً تآديبياً ، ورابط بواى الروهر جنود سود من السنغال — وهى إهانة لم يغتفرها الألمان بسهولة ، وبذلت أيضاً محاولة لسلخ منطقة الرين عن ألمانيا وإنشاء جمهورية بها تحت رعاية الفرنسيين ، كما حدثت بالبلاد عدة ثورات شيوعية . وظهرت إلى عالم الوجود ديكتاتورية ملكية بزعامة الجنرال لودندورف دامت أياماً قليلة بمدينة ميونيخ ، وكان الدكتور شترزمان (ومعه الرئيس إبيرت) يكافح بكل جهده فى براين فى ظل (٢٥ — تاريخ العالم)

هذه الولايات جميعاً في سبيل المحافظة على ضم شتات ألمانيا في رينج محرر .

وبينما ألمانيا غارقة في خضم هذا الارتباك المضى أخذ صوت جديد يرتفع ويملاً الأسماع ، كان صوتاً غليظاً يهز الغضب نيرانه ، ولكنه كان يقول ما كان يحس به ملايين من الألمان الذين جن جنونهم . خاصة منهم جماهير شباب ما بعد الحرب المتزايدى العدد . « لقد خدع الأعداء ألمانيا وخانوها » — تلك هى النعمة التى أخذ يضرب عليها ذلك الصوت ؛ « ولا بد من جهد فائق لإرجاعها إلى مكانة العزة التى كانت تحتلها قبل ١٩١٤ — مهما تكن التضحية التى تبذل فى سبيل ذلك » ، ثم يقول الصوت « إن ألمانيا لم تهزم قط ، لأن ذلك ضرب من الحال ، كما أنها غدر بها من الداخل . إذ خانها بوجه خاص رعاياها اليهود وأرباب الفكر فيها ورجال الشيوعية الدولية . فلا بد لها من العودة إلى تقائها العنصرى ، إلى حياة المحارب العنيفة التى كانت للتيوتونى الآرى » ، ذلك هو صوت تعاش نمسوى اسمه أدولف هتلر ، لم تسكد تستمع إليه الآذان حتى كان له صدى لاسبيل إلى رده فى قلوب طبقة الشباب الهائلة المتزايدة العدد الذين صاروا آنذاك يعيشون دون مطمع معقول لهم فى الحياة ، وتكونت على تلك الفكرة منظمة أخذت تنمو ويشتد عودها . وقام عليها حزب ميسى عسكرى هو الحزب القومى الاشتراكى (النازى) .

وكانت منافسة اليهود الاقتصادية والاجتماعية بالإضافة إلى إصرارهم المزعج على العيش كشعب منفصل يختلف فى كثير من الأوجه عن الروح القومى العام ، سبباً فى اختصاص الشعب لهم لا بالمعاملة الانتقامية فقط بل وبالهدب أيضاً ، ولا يتسع المجال هنا لتتبع حظ حركة النازية هذه من النجاح وتقلبه بين العنف المتمرد والقوة والسلطان ، ولا كفاح العناصر الأكثر اعتدالاً فى الحياة السياسية الألمانية فى سبيل إيقاف تيارها ، ولكن الذى حدث أن هتلر أصبح فى ١٩٣٣ مستشاراً للامبراطورية ، كما أنه وقف عندئذ على أبواب السلطة العليا فى البلاد .

والظاهر أن الديبلوماسيين ورجال السياسة كانوا طوال مدة ارتقائه مدارج القوة لا يقدرون قوته حق قدرها ، فلم يدرك أحد إلى أى حد أصبح ذلك الرجل ممثلاً لمشاعر الغضب والكبرياء العميق التى تنزاحم فى نفوس الألمان ، كما أن التفكير فيما يحتمل أن يحس به وأن يفعله ذلك الجيل الجديد من الألمان أبناء الحرب العظمى وما

بعدها ، كان فوق الطاقة العقلية لوزارات الخارجية ، ولا تزال السياسة الخارجية لعبة حتماء ، تدور بين الهيئات المعنية التي يطلق عليها المؤرخون أسماء جرمانيا ولافرانس وبريطانيا وهلم جرا ، مع الوثائق والمساومات السرية ، فهي لا تتناول الأجسام البشرية إلا حين تلجأ نهائيا إلى الحرب ، ولا يزال واجبا عليها أن تستكشف البيولوجيا البشرية وعلم نفس الجماهير .

وكانت تحدث في إيطاليا أيضا أحداث ظهرت فيها على الفور أوجه خلاف للحركة النازية ، (ذلك أنها لم تكن مثلا تعادى اليهود) . وكلما نمت الحركتان زاد أثر إحداهما الملحوظ في الأخرى . أجل إنها كانتا في البداية مستقلتين تماما ، وكان زعيم إيطاليا هو بليتيو موسوليني ، وكانت معلومات كل من الرجلين عن صاحبه ضئيلة جدا في مراحل حياتهما العملية الأولى ، ولكنهما مالبثا حتى اكتشفا فيما بعد أوجه التماثل بينهما في شيء من الدهشة . والرجلان هما الثمرة الطبيعية للتطور الاجتماعي للعصر — وأعني بذلك أنهما نظما طبقة الشباب المتحررة المحرومة من كل هدف التي تظهر الآن في كل قطر يتحطم اقتصاديا ، ومنحوها وسيلة للتعبير وإظهار النشاط .

بدأ موسوليني حياته اشتراكيا ثوريا ، إذ كان محررا لصحيفة اشتراكية هي الأفانتي Avanti ، واشتهر قبل الحرب بأنه زعيم جريء وقوى . فاختلف مع معظم زملائه اليساريين حول مسألة انضمام إيطاليا في تلك الحرب إلى صف الحلفاء واستقال من رئاسة تحرير صحيفة الأفانتي وأصدر صحيفة IL Popolo del, Italia ليشرح فيها آراءه . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دون أن تحظى فيها إيطاليا بأي امتياز عسكري عظيم ، حدث بالبلاد الشيء الكثير من الاضطراب الاجتماعي وبضع حركات ثورية متناثرة . وكانت الحكومة ضعيفة مترددة حتى لاح لكثير من المراقبين أن في الإمكان حدوث انقلاب شيوعي . وأحس موسوليني بنفس القلق القومي الذي أحسه هتلر ، وشرع ينظم حركة قومية من القمصان السود هي حركة الفاشيستية ، ويدعو بقوة إلى تكوين حكومة حازمة لاتقوم فقط على جماهير الشعب بل على رجال المال والأعمال أيضا ، فلقى من كبار المالكين ورجال الصناعة تأييدا جسيما ، ولذلك لأنهم كان لديهم فيما يحتمل فكرة مبالغ فيها عن قدرة الثوريين الحمر على نزع أملاكهم وأموالهم ، كما ساورهم اقتناع أحق بأن في الإمكان التحكم في ذلك المغامر متى أدى الغرض منه كمنع للاضرابات ، ومن سوء حظهم أنهم بالغوا في الخوف من الحمر وفي الاستهانة بالسود ،

على أن موسوليني لم يظهر في أية مرحلة من مراحل حياته أى ميل إلى اعتبار نفسه خادماً لرؤوس الأموال الخاصة . ذلك أن نظريته في الدولة المتكاملة الأفراد الموحدة الجهود كانت تنطوى ضمناً على تحكم صارم جداً في تصرفات المغامرين الاقتصاديين الأفراد .

تمت حركته قبل حركة هتلر ببضع سنوات ، ولعل مرد ذلك أن شباب الطبقة الوسطى بالمدن الإيطالية لم يبادوا في الحرب بنفس المدى الذى بلغه مقتل نظرائهم عند الألمان ، وهبت على البلاد حملة إرهابية قوامها الغارات والجلد والاغتيال قام بها أتباعه ذوو القمصان السود وكبحوا بها تماماً إرهاب المتحوسنين الشيوعيين المؤمنين بمبدأ حرب الطبقات ، وحدث الزحف على روما في أكتوبر ١٩٢٢ ، وهو استيلاء مطلق على زمام السلطان بيد المنظمة الفاشية ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ارتفاع شأن موسوليني سريعاً لا يعوق سبيله عائق . لقد سبق ضريبه هتلر بحوالى عشر سنوات في الوصول إلى السلطة الديكتاتورية .

وكانت الظروف والأسباب المتماثلة في كل أرجاء أوروبا وبلاد الصين واليابان تبعث على قيام نوع واحد متماثل من الكفاح وتنتج نتائج متماثلة تقريباً ، وكان اليساريون الشديدو التمسك بلا هوادة بالمبادئ النظرية يحطمون النظام الاجتماعى والسياسى القديم في كل مكان ، ويتشاجرون فيما بينهم كما كانوا يهيشون السبيل في كل مكان لقيام الزعماء العسكريين والديكتاتوريين « أى الرجال أولى القوة » ، الذين ينشئون حكومات أساسها الحكم الشخصى الفردى الشديد ويقمعون بصورة أشد وأعنف حرية الكلام وحرية التصرف السياسى ولا يبيحونها إلا لأنفسهم . فأما المبادئ التى كانوا يعتنقونها فأمر لم يكن له وزن ؛ فربما كانت هى الشيوعية أو الدولة المتكافلة ؛ وما كانت تلك المبادئ إلا حلالهم التى هم عليها وأفعالهم التى يفعلون . إذ ما الأهمية التى تعود فى النهاية من بلوغ منصب الديكتاتورية بالطرق غير المشروعة سواء أكانت يسارية أم يمينية . لاشك أن النتيجة العملية واحدة فى الحالين . وهجر الناس بكل مكان تحكمه ديكتاتورية ، كل بحث عامى خلاق وكل مثل عليا دولية وعادوا إلى نزعة الدولة القومية العسكرية ، وكانت الديكتاتورية الروسية أشد الديكتاتوريات ميلا إلى السلم ، ذلك أنها كانت قانعة بمحدودها وحاولت أن تتعاون مع عصبة الأمم ذات الكيان الهزيل ، على أن ألمانيا وإيطاليا واليابان راحت تعامل المنظمة السيئة التكوين بقدر متزايد من الاحتقار .

كانت اليابان كاملة السلاح والعدة ! وظلت كمعظم الخلفاء المنتصرين محتفظة بتسلحها بعد الحرب ؛ وكانت تعد العدة لصرف أنظار شبابها القلق بهجوم تشنه على الصين الهائلة المشبعة بالفوضى ، على حين راحت ألمانيا وإيطاليا تبذلان جهوداً جبارة في سبيل تحسين أجسام جيلها الناشئ وتعويده على النظام ، وتعملان على النهوض بقواتهما الجوية نهضة قوية عاتية ، وكان في تسليح ألمانيا مناقضة لمعاهدة فرساي ، ولكن إيطاليا كانت حرة لا يقيدوها ذلك القيد . وهكذا راحت مدارس تلك الدول الثلاث وصحافتها تبث باستمرار في الشبيبة روح العدوان الحربي .

وقد حدث في بعض نواحي أوروبا أن التخوم التي رسمتها العصبة لم تنفذ أبداً ، فإن مدينة ثلثا مثلاً التي منحت لدولة لتوانيا ، قد تقاتل عليها الروس والبولنديون واللتوانيون ، ثم ظلت في يد البولنديين ، وعلى سبيل التعويض استولت لتوانيا على المدينة في ١٩٢٣ واستولت معها على ميناء ممل من الحماية الفرنسية التي وضعتها بها العصبة ثم تركت المدينة لتوانيا في النهاية .

وتبدى الميل إلى إغفال شأن قرارات العصبة منذ وقت مبكر أيضاً عندما اغتالت عصابة يونانية جنرالاً إيطاليا يعمل في قومسيون الحدود الألبانية اليونانية ، وعند ذلك ضربت إيطاليا جزيرة كورفو بالمدافع دون انتظار لتفويض من العصبة وطالبت اليونان بالتعويض . ثم سوى الموقف باعتقاد العصبة لما عملته إيطاليا .

وهناك مصدر متاعب آخر هو مدينة فيومي ، وهي مدينة منحت لكرواتيا ، فأغارت عليها قوة من المغامرين العسكريين بقيادة الشاعر المزهو بنفسه دانونزيو في ١٩١٩ ، وبعد أن تبادلتها الأيدي عدة مرات صارت ملكاً لإيطاليا إلى الأبد منذ ١٩٢٤ ، وطبيعي أن هذه لم تكن إلا أمورا صغيرة نسبياً ، ولكنها كانت تحذيراً لا بأس به ينذر بقلّة التقدير الذي كانت تحظى به في أعين الناس قوانين العصبة .

وكان الشرق الأقصى هو الميدان الذي تجلى فيه بطلان التسوية العالمية للعصبة لأول مرة على نطاق واسع ، ولم يظهر أي واحد من رجال السياسة والتدبير الغربيين الموقرين الذين خلقوا العصبة وأداروا مقاليد شئونها آنذاك ، أنه كان يفهم فهماً جيداً المشكلات الخاصة العجيبة لمجتمع ربما بلغ عدده أربعمائة مليون إنسان ، وقد انهار هيكله السياسي

القديم والاجتماعى والاقتصادى فى مدى جيل واحد ، ذلك أن الصين لم تكن فى نظرهم إلا واحدة من تلك الكائنات الأسطورية ذات الوجود القانونى [أعنى دولة] كفرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا ، التى كانت تستمتع بوحدة تجمع شملها ، والتى تستطيع أن تقاضى الدول ويقاضونها ، وأن تقوم بالتعهدات وتحمل الديون وتتجشم الجزاءات ، وبينما الصين غارقة فى لجة هذه الفوضى الشاملة ، أخذ نفر من المتعلمين الصينيين يتمثلون للصين الجديدة صورة معنوية جديدة ، وأنشأوا منظمة هى الكومنتانج التى ظلت بضع سنوات بعد ١٩١٢ تكافح فى سبيل خلق «وطنية» ذات طابع عصرى بالصين. ولم يكن مفر من أن تحدث فى ذلك القطر الهائل خلافاً عظيمة فى رأى وفى المشاعر المحلية الإقليمية ، وأن تتولد بها الفرص العظيمة للصوعية وقطع الطرق ، ومما زاد الموقف تفاقمه أنه على الرغم من كل ما تدعيه العصبية من احترام القوميات ، سلمت لليابان مقاطعة شانتونج التى استولت عليها ألمانيا قبل الحرب ، ثم تخلت عنها اليابان ثم عادت فاحتلتها . ويضيق هذا الكتاب الموجز عن متابعة ظهور وتوارى الزعماء المختلفين ، أمثال صن يات صن ذى النزعة العصرية ، والجنرال المسيحي فنج ، والمغولى تشانج تسولن الذى كان يهدف إلى العرش الإمبراطورى ، كما يضيق عن ذكر تنقلات قصبة الحكم بين بكين ونانكين وكانتون ، وأدوار كراهية الأجانب والانتقال عليهم ، وتوالى تدخل روسيا السوفيتية واليابان فى شئون الصين المرتبكة ، ولكن ما لبث الناس أن تبينوا جلياً أن اليابان هى المعتدى الأكبر ببلاد الصين ، وأنها أخذت على عاتقها أن تواصل طبقاً للتقاليد الاستعمارية قبل الحرب العظمى الماضى قدماً حتى تسود آسيا الشرقية سيادة شاملة . لذا فصلت منشوريا عن الصين فى ١٩٣٣ واعتبرتها دولة محمية تحت هيمنة اليابان .

وفى غضون ذلك أخذ التطور المطرد للطيران وإمكانات الحرب الجوية يغير روح المتاعب الدولية بالعالم أجمع وإن غيرها إلى ما هو أسوأ . ولكن جميع وزارات الخارجية أبت أن تدرك أن هذه الأسلحة الجديدة لابد أن تعدل طرق الحرب البرية والبحرية القديمة ، وقد أصبحت الغواصة من حيث قوة التأثير أداة حربية قديمة الطراز ، وحلت محلها قاذفة القنابل السريعة ، كما أن كل الأفكار القديمة المتعلقة « بالجبهة البرية » ، « والطرق البحرية » قد صارت إلى اضمحلال وزوال ، وكانت الدول الميالة إلى الانتقام والعدوان أرهف الجميع إحساساً بهذا التغير فى الظروف ، لذا راحت تنمى

سلاحها الجوى تنمية سريعة وخفية وبالغة ، أما بريطانيا وفرنسا التى كان لها تفوق عسكرى لا ينازعها فيه منازع فى « العشرينات الحقاء من القرن » فإنهما أدركتا بغتة أنهما فقدتا تفوقهما الجوى إبان الفترة التى نسميها باسم « ثلاثينات الخوف » ، ولم يبرح روح ألمانيا الجديدة بزعامه هتلر وجورنج وإيطاليا الفاشية يزداد على الأيام جسارة . فأخذوا يواجهان دول الغرب بثقة واطمئنان متزايدين ، وأدركت الطائفة العسكرية باليابان قيمة توزع التفات أوروبا فزادت من عدوانها على الصين ، ومن ثم شرعت الجيوش اليابانية نالت تسيطر آنفاً على منشوريا فى غزو ولاية جيهول فى نهاية ١٩٣٢ ، فبلغت سور الصين الأعظم فى ١٩٣٣ .

ولم تكن أى من بريطانيا أو فرنسا أو روسيا راغبة فى الحرب . فلن تعود عليهم إذا نشبت إلا بخسران كل شئ وعدم اكتساب أى شئ . ولم تكن واحدة منها تحت إرشاد سياسيين كبار لهم آراء عميقة واسعة الأفق أو إخلاص فى إيمانهم بالعصبة كأداة من أدوات السلام ، ذلك أن الدول التى يسمونها بالديمقراطية كان يعوزها الإيمان بكفاية وسيلتها هى ، كما أن ثلاثهن كانت تمزقها - على أشكال مختلفة - عوادي المتاعب الاقتصادية والمالية الخاصة بكل ، وراحت الدول العدوانية الثلاثة فى خلط عجيب بين التهديد الحقيقى والتهويز والبلاف - تمزق معاهدة فرساي وعصبة الأمم تمزيقاً تاماً ونهائياً .

فما انتهت ١٩٣٤ حتى نشب خلاف حاد بين إيطاليا والحبشة ، ولم تلبث إيطاليا أن خاضت فى خريف ١٩٣٥ غمار حرب علنية لفتح بلاد الحبشة ، استخدمت فيها بغير رحمة ولا هوادة القنابل المحرقة والغازات السامة حتى انتهت على الحبشة فى مايو ١٩٣٦ ، على أن الإيطاليين وجدوا الحبشة قطراً يصعب عليهم استيطانه واستغلاله .

وفى صيف تلك السنة نفسها واجهت الحكومة الجمهورية بمدير أزمة عصية بعد أن أضعفها صراع مرير مع الوطنيين ومتطرفة الشيوعيين القطلونيين ؛ إذ فوجئت بعصيان عسكرى يقوده الجنرال فرانكو على رأس الجنود المراكشين وتأييده فى السر ألمانيا وإيطاليا . وقد أخفق ذلك العصيان فى القيام بثورة مضادة مفاجئة لأن الأسباب التفوا حول راية حكومة مدريد ، ودارت فى شبه الجزيرة رضى حرب ضروس ضارية مدة سنتين ، كانت ألمانيا وإيطاليا يزدادان على الدوام اشتراكاً علنياً فيها . فكان

المغبرون يضربون المدن والمدافع بكل قسوة ، حتى قتل في هذه العمليات الحربية الجديدة نسبة لم يسبق لها مثيل من النساء والأطفال . ومع ذلك فإن أحداً لم يعلن الحرب منذ البداية إلى النهاية ، وفي نفس الحين كانت ألمانيا وإيطاليا من الناحية الدولية في حالة سلم مع إسبانيا ، مثلما كانت اليابان من الناحية القانونية في سلام مع الصين .

وفي ربيع ١٩٣٨ اجتاحت جيوش هتلر فجأة بلاد النمسا وضمتها لألمانيا في تحد صريح للمنع الذي نصت عليه معاهدة فرساي في هذا الصدد ، ولم تلق الحركة أية مقاومة فعالة لا من داخل النمسا ولا من خارجها ، ومنذ ذلك الوقت صار هتلر (ومن ورائه موسوليني حليفه المتيقظ) المتسلط المتحكم بصورة ملحوظة وشعورية في شئون العالم ، كما زاد بروز ألمانيا النازية بوصفها الدولة العزيزة الجانب المسموعة الكلمة . على أن الخوف من الهجوم للجوى (ولعله كان خوفاً مبالغاً فيه) قد شل الدول الديمقراطية عن كل فكر أو حركة . وعندئذ ابتدأ سباق جنوني على التسليح يفوق في فداحة تكاليفه وإنهاكه للدول السباق الذي انتهى بنشوب الحرب العظمى ١٩١٤ — ١٩١٨ .

إن عدم اتباع سياسة رائدها العزم والبساطة في تلك اللعبة الدولية ، وتبخر كبرياء أمريكا وفرنسا وبريطانيا بل حتى ثقتهما بنفسهما ، أمور لن تتضح إلا إذا أدركنا أن كل واحدة من هذه الدول صاحبة السلطان والقوة في الماضي القريب كانت تقاسى من الاضطراب العام الناجم عن الظروف الاقتصادية المتغيرة والتي يساء فهمها وإن اختلفت صور العناء في كل منها . فإنها هي أيضاً كان يحدث بها انقلاب جوهري في طرائق الإنتاج واضطراب في التوزيع أخذاً يقضيان على الطلب المستديم للعمال الدائمين ، كما أخذاً مع مضى الزمن ونمو الصغار يضعان محل طبقة العمال المدربة القديمة طبقة أخرى من العاطلين القلقين الساخطين ، وظهر أثر ذلك التوتر بالولايات المتحدة في شكل هبوط في استهلاك السلع ، ولما كان استثمار الأموال قد انتشر انتشاراً كبيراً جداً في أثناء الحرب ، ثم في فترة الاستقرار المالي بعد الحرب ، فقد نشأ عن ذلك تهافت الناس على بيع الصكوك المالية ، ومن ثم تولدت عنه أزمة مالية ، ولم تلبث الأزمة أن مست عدداً كبيراً من المصارف الأمريكية كان حراً قبل ذلك من كل رقابة مالية ، على أن البلاد كانت حسنة الحظ في أثناء فترة الدعر المالي ١٩٣١ — ١٩٣٣ التي نجمت عن تلك الحال ، إذ وجدت على رأسها زعيماً هو فرانكلين روزفلت . فوضع البنوك تحت رقابة لم يسبق لها مثيل وحول وجهة الدول من النزعة الفردية التقليدية التي كانت تكس الثروات وتبدد موارد البلاد في عملية التكديس تلك إلى اقتصاد مرسوم الخطة مطبوع بالطابع العصري ، هو حركة

النظام الجديد The New Deal . ولكن ذلك المشروع كان يتطلب قدرا من الطابع الاشتراكي الذي يستلزم بدوره طائفة من الموظفين المدنيين يزيد عددها كثيراً عما كان لديه من الرجال المدربين والمتعلمين ، وكانت دماءة أخلاق الرئيس الجديد سبباً في تأخير أعماله منذ البداية كما عوقته انقسامات وزرائه وضيق أفقهم فضلاً عما يستشعره النظام القضائي الأمريكي من المحكمة العليا فنازلاً - من التحيز العميق للجهل والمبادأة الفردية ، وكانت أمريكا لا تزال تقاسى الآلام المبرحة من تلك التجربة الكبرى في الإنشاء والتجديد في ١٩٣٧ - ١٩٣٨ يوم بدأت تهب عليها أول بوادر احتمال نشوب الحرب في العالم القديم . فأخذت تدرك الخطر الذي قد يتهدد كلا من منطقة الساحل الشرقى والغربى لو أصيبت الإمبراطورية البريطانية بأية كارثة خطيرة ، كما أن الخطر الجوى أخذ يتراءى قريباً دانياً واضحاً للعيان أكثر فأكثر كلما زادت حجومات الطائرات وسرعتها . هذا إلى أنه لاح أن الاستعداد للحرب قد يعود على البلاد بتخفيف أزمة البطالة ، لذا فإنها وإن ظلت تتعلق بأحلامها في العزلة قد انساق بدورها في سباق التسلح الذي كانت تزعمه من قبل بريطانيا وفرنسا .

وتراكت الصعوبات الاقتصادية فوق رأس بريطانيا العظمى . فإنها سبقت أمريكا بأشواط في ثورة الشعب على الغنى الحر القوى ، حيث فرضت ضرائب باهظة جداً على الدخل ، وقررت ضريبة التركات وصرفت للعاطلين معاشات تسد الرمق أو تكاد ، وبذلك أبعدت شبح الثور الثورى وإن كانت طبقة الشباب العاطل فيها تتسكع في الطرقات ، وهم عبء على أنفسهم وعلى المجتمع أيضاً . على أن شئون الصحة والتهذيب وزيادة التعليم أو الاستفادة من هذا الشباب اليائس المبتئس لم تلق إلا عناية قليلة نسبياً ، إذ إن صاحب الثروة الفردية وصاحب الجهد الفردى والمالية الفردية كانوا من القوة السياسية ببريطانيا العظمى بحيث منعوا كل تطبيق للمذاهب الاشتراكية في الصناعة أو الموارد الطبيعية ، وتنبهت بريطانيا العظمى بدورها في ١٩٣٧ إلى أن خطر الحرب أمر واقع وأخذت تنساق كارهة مع بقية العالم في تيار العبودية للضرورات العسكرية . أدرك أذكاء الناس بأنه ما دام استقلال الدول القومية ذات السيادة قائماً ، وتعليم الأكاذيب العنصرية مستمرا بطريقة منظمة ، والتحيزات القومية والثقافية رافعة الرأس ، وكذلك ما دام نظام الامتلاك العقيم لموارد الثروة من أجل مصلحة الفرد قائماً ، وما دام التلاعب المالى فى سبيل وضع اليد على الممتلكات مستمرا ،

فلن يبرح يزداد الاضطراب وعدم الاستقرار الضارب أطنا به الآن بيننا ، كما لن تبرح الحياة والفكر البشرى تكرر إلى أقصى حد لخدمة تدريبات الحرب وعبودياتها ومخاوفها وشهواتها التي تزداد على كر الأيام هدمًا وتدميرًا والواقع أن جنسنا البشرى يتهدده نوع من الجنون العسكرى ، الذى قد ينحدر بنا خطوة بخطوة فى طريق حرب قاسية ترجع بنا القهقرى ، وتهوى بنا إلى حياة لا يلد لها شئ إلا الألم والبغضاء والشهوات البدائية ، ولا تهتم إلا بفضائل قليلة لا تتجاوز التجلد الإسبرطى .

على أن اكتشاف الاتجاهات أسهل كثيرا من الاهتداء إلى الدواء ، كما أن ما أنفقه جميع الاشتراكيين والاقتصاديين من نشاط عقلى فى سبيل تشخيص متاعبنا وتعيين سياسة تقوم على التكيف ، قد لقي بسبب حاجتنا الملحة كل احتقار . فلقد عقد عدد لا يحصى من المؤتمرات والاجتماعات وأعلن الشئ الكثير من التصريحات وظهرت ثروات عظيمة من التفاهات وأنصاف الحقائق التى لا رابط بينها ، وامتلات الآفاق بدعوة التآزر والتناسق دون أية تضحية بالذات ، وعم العالم تلهف على شئ اسمه السلام ، دون مبادرة عظيمة إلى إنشاء حياة سليمة وقوية وخلاقة . ومن العجيب أن كل دعوة للتهدئة والسلم تنطوى على عنصر جسيم من الكسل والتراخى ، وإذا قدر للناس يوما أن يجمعوا فى أيديهم من القوة ، ما يكفل قيام منظمة للسلام تتصف بالكفاية فى أرجاء العالم وصيانتها ، فلن يتم ذلك عن طريق مخوف بالورود خال من كل مقاومة . ألا ترى أن السلم الرومانى Pax Romana كان ثمرة الاستيلاء والفتح فكذلك السلم العالمى (Pax Munid) يتطلب بالتأكيد تصميما وعزمًا راسخًا ومعالجة حازمة لكل تمنع أو معاندة .

افضل الناس واثبتون

الحرب العالمية الثانية

سنقص الآن في تفصيل نبأ الأحداث المتعاقبة التي أدت إلى نشوب الحرب التي لا تزال رحاها تدور اليوم^(١).

ففي مارس ١٩٣٨ اقترح المستر لتفينوف وزير الخارجية الروسية أن تعقد حكومات بريطانيا وفرنسا وأمريكا والروسيا السوفيتية مؤتمراً للتباحث في ضرورة القيام بمجتمعين بعمل مشترك لمنع العدوان في المستقبل ، وخاصة في أواسط أوروبا . ولم تدع ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان للمشاركة في هذا التشاور ، وذلك كما قال المستر لتفينوف : « لأننا لا نريد أن نتناقش في أمر العدوان مع المعتدى نفسه » وكان ذلك اقتراحاً واضحاً بسيطاً ربما أمكن به تجنب الحرب الأوروبية تماماً أو القضاء عليها على الأقل قبل أن تستفحل ، بيد أن جنون كراهية الشيوعية لدى الأغلبية البريطانية المحافظة كان أقوى كثيراً من خوفها من الخطر الألماني . وقد ظل هذا الاقتراح الذي ردد صدامه متالين في مارس ١٩٣٩ ومولوتوف في مايو ، سياسة روسيا العلنية الدائمة إلى ما قبل إعلان الحرب على ألمانيا بوقت يسير ، حتى بعد أن ظهر أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد أبت أن تتضامن مع روسيا لحماية الولايات البلطيقية من الاعتداء الألماني .

وكانت الخطوة التالية في البرنامج الألماني هي القضاء على تشيكوسلوفاكيا . فإن ضم النمسا لألمانيا جعل ذلك البلد الصغير الهام القوى الشكيمة محوطاً بالألمان من ثلاث نواح ، وعندئذ بدأت أبواق الدعاية في بث دعوة صاخبة مججلة دفاعاً عن الألمان الذين أصر واضعو معاهدة فرساي - تمسكاً بمكر الترخوم الاستراتيجية الحربية - على ضمهم إلى بوهيميا . وتلت ذلك تهديدات بإعلان الحرب وبمض مفاوضات هزلية عجيبة ، والواقع أنها كانت هزلية وعجيبة حقاً ، فلئن اختارت ألمانيا أن تواجه العالم في شخص مجنون معتدقاس ،

(١) كتب المؤلف هذا الفصل قبل أن تنتهي الحرب كما هو واضح من السياق .

فإن بريطانيا بدورها قد وقع اختيارها على المستر تشمبرلن المعروف عديم الكفاية المعاند
الغر رئيساً للدولة . ذلك أن غدواته وروحاته إلى ألمانيا في سبتمبر ١٩٣٨ أصبحت
اليوم مصدر الأسف الشديد والمهاترات المريرة لدى كل إنجليزي ذكي ، ولكن لا يغرب
عن البال أنه عندما عاد إلى مطار هستن بعد تخليه عن الدكتور بنيش وبذاته الضرورة
الواضحة القاضية بالمبادرة إلى قمع ألمانيا قمعاً جماعياً مشتركاً بين روسيا وفرنسا
وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا ، وبعد تسليمه كل ميزة عسكرية امتازت بها تشيكوسلوفاكيا
وحصوله مقابل ذلك كله على قصاصة لا قيمة لها من الورق بتوقيع هتلر ، وذلك عندما
أعلن للجمهور المجتمع بداوننج ستريت : « إنه السلام في زمننا أيها الأصدقاء الطيبون . وإني
لأنصحكم الآن أن تعودوا إلى بيوتكم وتناموا في فراشكم قريري الأعين » . وانطلقت
ألسن الجماهير بهتاف الفرح والسرور ، وهي حقيقة ينبغي أن لا ننساها أبداً ، وذهب
الجمهور إلى بيته لينام قرير العين .

ومن البديهيات في تدبير الطبيعة ونظامها القاسي المرير أن جزاء الجماعة والضعف
يكون على الدوام شديداً صارماً كجزاء الجريمة والإجرام سواء بسواء ، وهاهي ذي بريطانيا
ومعها البشرية جمعاء تدفعان ثمن التلصص الدنيء مما قضى به الشرف والواجب . ذلك أن
ألمانيا لم تبر بعهدها لحظة واحدة ، ولا يكاد أحد يصدق اليوم أنه كان يجوز أن يبلغ
إنسان من السذاجة وسرعة التصديق مبلغاً يجعله يعتقد أنها كانت تنوى حقاً أن تبر
بكلمتها . وظلت ألمانيا ساهرة متيقظة ، على حين أن شعب إنجلترا «أصدقاء المستر تشمبرلن
الطيبين» ذهب إلى فراشه قرير العين ، وتقدمت الجيوش الألمانية إلى المناطق التشيكية المحددة
لها ثم واصلت سيرها .. فأثارت استياء المستر تشمبرلن وزالت تشيكوسلوفاكيا من الوجود
في مارس ١٩٣٩ ، وأخذت مصانع سكودا تنتج الدخائر للجيوش الألمانية التي أخذت
قوتها تتضاعف بمرور الوقت . ولم تلبث بولنده والمجر أن وثبتا بشراة على الدولة
الصريخة ، غير آبهة بما قد يصيبها هي نفسها . فالتهمت بولنده منطقة تشككن Tesclen
واستولت المجر على سلخة من منطقة أوكرانيا .

ولم تترك بولنده مدة طويلة تنهأ فيها بسلام بامتلاك أملاكها الجديدة . إذ إنها كانت
الهدف الثاني للزحف الألماني . وهنا جعلت مسألة دانزج سبباً ظاهرياً للخلاف الواضح
المعروف . وأخذ الموقف يتطور سريعاً ، ولكن تردد المستر تشمبرلن وبلاده بريطانيا
أصبح يدعوا إلى المزيد من الرثاء . ومن قبل ، جبنّت بريطانيا عن الدفاع عن

تشييكوسلوفاكيا ، وكان ذلك راجعاً إلى حد كبير إلى خشيتها من البلشفية وشكوكها فيها . وكانت لاتزال فيما يظهر تصدق قول هتler بأن غرضه الحقيقي هو تحطيم الشيوعية ، كما لاتزال تداعبها الآمال في أن تزحف ألمانيا شرقاً ، على حين أن كل ما فعله الغرب هو القيام بالدور غير الكريم — وإن يكن مربحاً — الذى يقوم به متعقبو المعسكرات . ولكن بولندة كانت بها حكومة استبدادية لاتحتمل المعارضة ، رجعية وكاثوليكية كما كانت تناصب روسيا العداء ، هذا إلى أن المستر تشمبرلن كان يكابد الآلام بسبب تزايد نفور الناس من مغامراته في ميونيخ ، فتولدت في نفسه روح انتقامية شديدة ضد هتler ؛ ومن ثم بدأت من جديد مفاوضات تهدف إلى جمع الشمل لكبح جماح ألمانيا ، ولكن تلك المفاوضات باءت بدورها بالفشل بسبب ما تبديه الطبقات البريطانية العليا من نفور من القيام بأى تعاون مخلص مع روسيا . وذلك أن الثورة الاجتماعية ، وليس ألمانيا ، هى الشبح الرهيب الذى يفرعهم .

وضمت مدينة ممل اللتوانية في مارس إلى الريخ الألمانى . وفى أبريل ١٩٣٩ . ضم الإيطاليون إليهم ألبانيا بغتة وفى تحد رصين لعصبة الأمم ، إلى غير ذلك من الاعتداءات ، فأثارت رشاش الاحتجاجات المألوف غير المجدى ، وعندئذ انسحبت من العصبة وخلا كرسى آخر من كراسيها . وفى مايو أعطى المستر لتفينوف الدول الغربية آخر إشارة تحذيرية ، بأن استقال من منصبه ، بعد أن ظل على الدوام يتخذ موقف التعاون الجلى المتواصل مع الديموقراطية الغربية ، انسحب لتفينوف إلى المقاعد الخلفية حيث أقام حصيفاً أربيا مجرباً موثقاً به ، وخلفه المستر مولوتوف الذى كان استعمارياً روسيا أكثر من سلمه وأقل منه ميلاً إلى دول الغرب . ولم تفهم وزارة الخارجية البريطانية معنى إشارة لتفينوف ، والواقع أنها لم تظهر منذ الثورة الروسية أنها لاحظت أى حدث جرى في روسيا أمكنها تجنب رؤيته . ذلك أن رغبتها في زوال روسيا من الوجود كانت رغبة واضحة جلية .

على أن بريطانيا ما لبثت أن تحركت في الساعة الثالثة والعشرين فعقدت مع بولندة في ٢٤ أغسطس حلفاً للمساعدة المتبادلة . وقد سبقت هذا الحلف معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا وروسيا . ذلك أن فون ريننتروب وزير الخارجية الألمانية ذهب إلى روسيا ، ومن الجلى أنه تمكن من إقناع ستالين ومولوتوف بأن بريطانيا تلعب على

جبلين ، وعندئذ أدت روسيا ظهرها للديموقراطيات الغربية وهى فى حال من الغضب والشك الذى له مايرره ، وتخلت ألمانيا تماما عن كل ما كانت تدعيه من العداء للكونغرس (١) ، ذلك العداء الذى كان له حق آنذاك أكبر الفضل فى وجود عطف على النازية بين الطبقات المسموعة السكينة بفرنسا وبريطانيا العظمى ، فإن هذا العداء قد أدى الغرض المطلوب منه . فإن الألمان اجتازوا حدود بولندة فى أول سبتمبر ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب فى الثالث من سبتمبر . وهكذا صبحا سكان بريطانيا الطييون قريرو الأعين من نومهم وإذا بلادهم مشتبكة فى الحرب مع أحكم وأدق الشعوب المقاتلة تنظيما ، وإذا بهم يجدون أنفسهم ناقصى العتاد وغير مستعدين للحرب ، وعلى رأسهم حكومة ظاهرة العجز عديمة الكفاية غير جديرة بالثقة ، وقد نفر منهم تماما فى ذات الحين أقوى حلفائهم شكينة . ومع ذلك فإنهم قضوا نصف السنة التالية فى حال من السبات العميق ، وذلك لسوء استعدادهم عسكريا ونفسيا ولأنهم طمئنوا تطمينا غير كريم .

وكانت الحملة الألمانية على بولندة قصيرة الأجل واسكنها تنسم بالكفاية . ولعله قد سبقها قدر عظيم من نشاط الطابور الخامس ، كما أن معظم المطارات البولندية ضربت بالقنابل وعطلت أعمالها بواسطة الهجمات الجوية الحاشدة على أن الجيوش البولندية التى قاتلت ببسالة عظيمة مالبثت أن ردت على أعقابها بسبب تسلل الدبابات الألمانية وراء ظهرها ، وبسبب تفوق الألمان الجارف فى العتاد ، كما أن القيادة الألمانية العليا أعلنت فى ١٢ من سبتمبر أن المدن المفتوحة والقرى والعزب ستضرب بقنابل المدافع والطائرات أيضا « لسحق كل مقاومة يبيديها الأهالى المدينون البولنديون » ، وذبح المدينون البولنديون فى مذابح كثيرة . ومع ذلك لم يبدل سلاحا الجوابريطانى والفرنسى أى أدنى جهد لتخفيف الضغط عن بولندة بضرب ألمانيا بقنابل الطائرات . ولم تلبث الجيوش البولندية أن أخذت تتراجع إلى لتوانيا والمجر ورومانيا ، وفرت الحكومة إلى رومانيا ، وسقطت وارسو فى ٢٧ من سبتمبر .

وفى السادس عشر من سبتمبر عبرت الجيوش الروسية الحدود البولندية دون أن تلقى إلا مقاومة ضئيلة ، وذلك بعد أن أدركت الحكومة الروسية أن بولندة قد غلبت

(١) الكونغرس : هى الهيئة الشيوعية الدولية أو الهيئة الدولية الثالثة . [الترجم]

على أمرها تماماً . وتقدمت تلك القوات إلى نفس التخوم التي كانت للروسيا بين ١٩١٨ — ١٩٢٠ بمقتضى اتفاقية كيرزون ، وقل جدا من أجزاء تلك المنطقة التي عادوا إلى امتلاكها ما كان به سكان بولنديون حقيقيون . وعند ذلك ردت إلى لتوانيا مدينة قلنا التي أخذت من قبل تحديا لعصبة الأمم ، ثم اتجهت روسيا بعد ذلك إلى عقد الاتفاقيات مع دول البلطيق الثلاث (التي رفضت فرنسا وبريطانيا كما ذكرنا قبل ذلك أن تمنحها ضماناً مشتركاً) ، وتم لها بمقتضاها التحكم الفعلي في وسائل دفاعها الجوية والساحلية بوساطة القوات الروسية . واتضح للعيان أن روسيا رأت أن تستفيد من الموقف لتقوية قبضتها وهيمنتها على سواحل بحر البلطيق . ذلك أنها كانت على الدوام في خوف من أن تهاجمها الدول الرأسمالية مجتمعة ، وكان لها ما يبرر اعتقادها في أن تعد فنلندة رأس الحربة التي يأتيها هذا الهجوم من قبلها . وربما كانت روسيا مبالغاً في هذه المخاوف . أجل إن المدافع الفنلندية كانت تتحكم في المداخل إلى بطرسبرج على صورة لم تكن أية دولة أخرى لتقبلها . ولعل من المستحيل علينا أن نتصور أن أميركا تقبل وجود تحصينات أجنبية قوية على جزيرة ستاتن في استسلام وصبر جميل

لذا بدأت بين الطرفين سلسلة من المحادثات لم تؤد إلى نتيجة ، فعمدت روسيا إلى الحرب وهاجمت طائراتها المدن الفنلندية بسلسلة من الغارات . وهي وحشية كان في إمكان روسيا أن تستغنى عنها تماماً . وكانت الحرب حرباً شاقة باهظة الثمن على السوفييت . على أن فنلندة مالبثت في النهاية أن اعترفت بالهزيمة وعقدت الصلح بعد قتال عظيم دام ثلاثة أشهر ونصف .

وفي نفس الحين كانت الحرب في الناحية الغربية من أوربا مقصورة على البحر بوجه خاص . فإن الفرنسيين والألمان كانوا يواجهون بعضهم بعضاً من وراء خطوط قوية التحصينات هي خطأ ماجينو وسجفريد . . أجل قام الفرنسيون بهجوم فائر على الجناح الشمالى من الجبهة . ثم عاد الألمان لمواصلة حرب الغواصات فباءوا بالفشل والخسران ، فإن الأسطول البريطانى عمد إلى استخدام وسائل فنية جديدة ، استطاع بها القضاء على تلك الآفة بهمة عظيمة ، ولم يلق في سبيل ذلك إلا خسارة ضئيلة لا مناص منها ، وهي بارجة أو ما إلى ذلك ، وحاملة طائرات ضخمة اسمها الكوراجيوس فضلا عن بضع سفن صغيرة ، وكانت خسارة السفن المحروسة في القوافل أقل كثيراً

من كل ما كان متوقعا ، لذا وصلت المؤن والإمدادات بوفرة إلى بريطانيا العظمى ، بل لقد استولى البريطانيون على عدد من السفن يفوق ما فقدوه ، فإن البارجة سي قد ضيق عليها الحناق وانقضت عليها ثلاث سفن أصغر منها وأضعف هي إكستر Exeter وأخيل Achilles وأجاكس Anx ، حتى اضطرت فيما بعد إلى تفضيل إغراق نفسها على معاودة القتال ، ثم انتحرت بانها .

ثم جاءت نصف سنة أخرى دامت في أثناءها حالة التحول والتوقف التي شملت الجبهة الغربية ، وزادت مهمة بريطانيا في الاستعداد للحرب ، وأخذت حشود أكثر فأكثر من الجنود ومقادير هائلة من المدافع والمعدات الحربية تعبر بحر المانش .

وتخللت فترة التحول هذه حركة قدر للفرنسيين أن يأسفوا عليها فيما بعد هي مطاردتهم واضطهادهم لزعماء الشيوعيين والعمال اليساريين . والظاهر أنها لم تكن موجهة فقط إلى الشيوعيين بل إلى زعماء اتحادات العمال أيضا ، واعتقلت السلطات أعضاء مجلس النواب الشيوعيين الذين لا يتجاوزون الخمسين نائبا أو اضطرتهم إلى الاختفاء كما أن المجالس البلدية الشيوعية قد حملت في طول البلاد وعرضها وعين مكانها موظفون خصوصيون . وأقل ما يوصف به هذا التصرف أنه كان حماقة بحتة ، وذلك لأن الآراء الاشتراكية اليسارية كانت شديدة بين الجنود وصف الضباط ، سواء أتوا من المدن أو من بين الملاحين ، وكان كثير منها لا يزالون يرون روسيا رمزا للثورة الاجتماعية فأخذوا يتساءلون : أهم يقاتلون فقط من أجل الأثرياء في فرنسا ؟ وأخذ روح التخريب يمتد إلى مصانع الذخيرة فضلا عن صفوف الجند ، وللمرة الثانية استطاع المعتدى أن يدس إسفينه بين الرجعية وبين باعث الثورة في الرجل العادي ، وذلك لأن الخيانة تكثرت أيضا في أحزاب اليمين المؤيدة للمسيو دلايديه ، ولكنها خيانة من نوع أقوى وأشد أخذت تنسرب دون أن يدركها أو يتحداها أحد .

وزاد من متاعب الجند قسوة الشقاء بدرجة غير مألوفة ، وتضعضع الأمل إلى أقصى حد في المحصول الجديد بأوربا كلها ، ثم انتقل محور الالتفات فجأة في منتصف فبراير إلى بلاد النرويج ، إذ أصبح حياد تلك البلاد موضع الشك ، ذلك أن الملك هاكون كان شديد الميل للإنجليز والولاء لهم ، كما أن عامة الشعب كانوا ديمقراطيين بروحهم ، ولكن الحلفاء شرعوا يدركون فجأة أن شقة المياه الضيقة المحاذية لشاطئ النرويج وفي

حدود الأميال الثلاثة التي تعدها القوانين مياها إقليمية ، كانت تستخدم ممرا تجلب فيه السفن الألمانية مواد كثيرة وتفسل منه إلى عرض البحر لمهاجمة البريطانيين . وتفاقم الأمر تماماً عندما حدث ما يسمى باسم حادثة آلتمارك . فإن عددا يتراوح بين الثلاثمائة والأربعمائة من بحارة السفن التي أغرقها البارجة جرافسي قبل تدميرها قد هربوا في ذلك الحجاز الساحلى بإغضاء من سلطات الموانى النرويجية . وأرسلت مدمرة بريطانية لتعقبهم ، وعلى الرغم من اعتراض زورقين نرويجيين مسلحين وإنكار موظفى الميناء النرويجيين وجود أى أسرى على ظهر السفينة ، فإن المدمرة تقدمت فى يوسنچ فيورد ، واعتلى بحارتها السفينة المعتدية ، التي شحطت على الأرض فى أثناء المعركة ، ثم أطلقوا سراح الأسرى .

تطور الموقف باسكندنافيا منذ تلك اللحظة . فعزا الألمان النرويج والدانمرك فى وقت واحد وصلت الدانمرك على الفور . وقاومت أوصلو هجوم المعتدين ، ولكن خانها الحزب الفاشستى النرويجى نفسه . وانقضت بعد ذلك بضعة أسابيع من المقاومة المضطربة . وفى تلك الأثناء كان الجمهورى بربطانيا يغذى بما لا نهاية له من الأكاذيب والفخر الأجوف . فكان كل من المستر تشمبرلن والسير إدموند أيرنسايد Ironside رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية . يتباريان فى الفخار الأجوف الكاذب . فيقول الجنرال أيرنسايد إن هتلر قد « فاته القطار » وردد المستر تشمبرلن هذه العبارة الحافلة بالإلهام ١١٩ خاصة وأن هتلر قد كشف نفسه الآن ؛ وأخرجت الترسة رأسها من بين أطباق درقتها ١١٠ وستضرب بربطانيا ضربتها الآن ١١٠ وربما كان يمكنها توجيه ضربتها فعلا ، ولكنها لم تفعل ؛ وذلك لأن قيادتها العليا وإمارة البحرية فيها لم يؤتيا الكفاية والعزم اللازمين للقيام بذلك . وقال الجنرال أيرنسايد : إن الجيش الألمانى جيش رفيع الامتياز حقاً ، ولكن ليس فيه ضابط خدم فى الحرب السابقة برتبة أعلى من رتبة اليوزباشى . غير أن البريطانيين كان لديهم أمثال أيرنسايد من القواد المحنكين ؛ وقد غزا الألمان الدانمرك والنرويج فى ٩ من أبريل . ولما حل يوم ٨ من مايو أجرى مجلس العموم البريطانى تحقيقاً حول تلك الهزيمة الشنعاء . وتجلى أن خطط وأساليب هؤلاء القادة المحنكين لم تكن إلا حماقة وبلاهة عمياء . وإليك بضع عبارات من خطبة ألقاها المستر لويد جورج :

« لقد نجح هتلر فى وضع وطنه فى مركز استراتيجى أحسن كثيراً مما بلغه أسلافه

في ١٩١٤ . فقد وقعت في أيدي الألمان اسكندنافيا والنرويج ، وهي من أعظم
الإمكانيات الاستراتيجية في الحرب . وليس ثمة فائدة تعود من لوم السويد ، والألمان
ينزلون عن يمينها ويسارها . وبأى حق نستطيع أن نلوم الدول الصغرى ؟ ونحن
قد وعدنا بإنقاذها وحمايتها . ونحن لم نرسل طائرة واحدة إلى بولندا وتأخرنا أكثر
من اللازم في بلاد النرويج . فهل يستطيع عاقل أن يشك أن هيبنتا قد انحطت ؟ لقد
ألقينا الوعود لتشيكوسلوفاكيا وبولندا وفنلندا . وأصبحت وعودنا قمامة في عرض
الطريق .

« لقد وعدونا بإعادة تسليح البلاد في ١٩٣٥ ، وعرضت على المجلس اقتراحات
فعلية في ١٩٣٦ ، وعرف السكك أن كل ما عمل قد تم بغير همّة تحدوه وبغير أثر
فعال عاد منه ودون باعث قوى أو ذكاء ، ثم جاءت الحرب . فلم تزد سرعة الأمور
شيئاً يذكر بل بقي الحال على ما كان عليه من التواني وعدم الكفاية . وعرف العالم
كله أن بلادنا وضعت في أسوأ مركز استراتيجي وقعت فيه في تاريخها .

« لقد قال المستر تشمبرلين إن ورائي أصدقاؤى ، وليست المسألة مسألة من هم
أصدقاء رئيس الوزراء . بل الأمر أعظم من ذلك كثيراً وأخطر . إذ لا بد لرئيس
الوزراء أن يتذكر أنه التقى بهذا العدو الجبار في وقتي السلم والحرب ، وأنه لقي على
يديه الهزيمة دائماً ، لقد طالبنا بالتضحية . والشعب مستعد لاشك لبذلها مادامت له
زعامة . وإني أقولها الآن باتزان تام ، إن في إمكان رئيس الوزراء أن يضرب لنا مثلاً
في التضحية ، إذ لا يستطيع شيء أن يؤدي إلى النصر في هذه الحرب أكثر من تضحيته
بمقاليد الحكم » .

وبينما بريطانيا لاتزال تحاول بكل جهد إزاحة كابوس المستر تشمبرلين الجاثم على
صدرها كرئيس لوزرائها ، ظلت ألمانيا تتجسد بلا هوادة في صورة الثالث الشرس
الرهيب جورج وجوبلز وهتلر ، واستمرت آمال البشرية تتحطم وترجع القهقري .
ولم يفكر أحد حتى في عزل السير إدموند أيرنسايد من منصبه . وما لبث أن وثب
للاشتراك في كارثة جديدة أدهى وأمر بفرنسا ، فإن الضربة التالية لفنون الحرب
الفرنسية البريطانية المتداعية قد أنزلت في العاشر من مايو ، عندما اجتاحت ألمانيا بلاد
هولندا والبلجيك والسكسبرج في وقت واحد .

ومهما بدا عجبيا لعين دارس التاريخ في السنوات التالية (إن بقي للتاريخ دارس في السنوات التالية) فالواقع أن واحدة من تلك الأقطار الثلاثة لم تفكر يوما على الرغم من هذا الخطر المحتمل البسيط ، في إعداد خطة للدفاع بالاشتراك مع فرنسا وبريطانيا . ولعبت نفس العناصر الخائنة المترددة دورها فيما أعقب ذلك من كارثة . ومن الأسف أن الفرنسيين لم يمدو خط ماجينو بعد الحدود البلجيكية ، وأن خطة الحلفاء للقيام بحرب « حركة » في الجناح الأيسر المكشوف كانت ناقصة بتراء جدآ ، وقاتل الموالون والمخلصون من الهولنديين والبلجيكيين قتال الأبطال ، ولكن قضت عليهم الخيانة وراء حدودهم ، كما غلبهم استخدام الألمان الهائل لرجال المظلات ، وهو أمر لم يكن مستعدآ له بالمرّة خيال قواد الحلفاء ، الذين لم يتح لهم إلا خمس أو ست سنوات ليدرّسوا فيها تلك الفكرة . ولقيت مساحات عظيمة من روتردام نفس المصير الذي لقيته جرنیکا ، فدفن آلاف من السكان تحت الأنقاض ، ولم تمض أربعة أيام حتى انهارت كل مقاومة بهولندية . وفرت الملكة إلى إنجلترا وأذاعت من قصر بكنجهام رسالة مليئة بعواطف البطولة .

وتواصل ضغط الألمان على خطوط الحلفاء المتقلصة . وكان في أيديهم سلاح شديد فعال هو دبابات سكودا التي أهداها المستر تشمبرلن لألمانيا في السنة السالفة . وأخذ الخط الفرنسي في الانكسار قرب سيدان . واندفع الألمان في الاتجاه الشرقي مخترقين الثغرة التي فتحوها . فتركوا باريس عن يسارهم وتقدموا نحو بحر المانش وإنجلترا . لم يستطع الحلفاء سد الثغرة ، لذا حيل بين قوة كبيرة من الإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين في الشمال وبين الاتصال بوسائل الدفاع الرئيسي بفرنسا ، ولاح أسرها وشيكا دانياً . وكانت نسبة ضخمة من هذا الجيش الشمالي بريطانية ، لذا كان فقدانها كشفًا لبريطانيا وتعريضاً لها للأخطار . وعندئذ خطر الملك ليوبولد الذي كان قد التمس المعونة من فرنسا وبريطانيا عند ما اجتاحت بلاده ، أنه قد حان الآن وقت عمل ينطوى على أعظم مظاهر الجبن والخيانة . ففتح باب المفاوضات مع الألمان وأمر جيوشه بالكف عن القتال وإيقاف إطلاق النار في ٢٨ من مايو ، دون إخطار حلفائه وفي تحط لنصيحة حكومته الإجماعية ، « ودون أن يلقى بالا إلى الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين جاءوا لمساعدة وطنه تلبية لندائهم في ساعة العسرة » .

وأوشك الجيش البريطاني على الوقوع في الأسر لولا أن أنقذته من التسليم صفات جنده وصف ضباطه الجديرة بالإعجاب . قيادة سيئة وخيانة داهمة وجناح أيسر مكشوف

للأعداء ، ومع ذلك فإنه شق طريقه قتالا حتى عاد إلى دنكرك ، وتمسك بها بضعة أيام عصبية ، كما استطاع على الرغم من تركيز الألمان لقواتهم هناك تركيزاً هائلاً ، أن يعبر بحر المانش ، إلى إنجلترا مع الجيوش الفرنسية والجنود البلجيكيين الموالين . وبلغ من إبداع سلوك الجيش ، ومما انطوى عليه نقل هذه الكتلة الضخمة من الرجال من ألوان البطولة الرائعة ، أن امتلأ الجمهور البريطاني بالسرور أكثر منه بالاستياء والكدر . وقال المستر ونستون تشرشل الذى خلف فى النهاية المستر تشمبرلن فى رئاسة الوزارة محذراً الشعب : « ليس الانسحاب الناجح نصراً » وخسر الحلفاء قدراً هائلاً من المدافع والمواد الحربية ، كما أن المقاومة الفرنسية الرئيسية أخذت تنهار .

وتفشى التقهقر بين صفوف الجند . وشرع المستر تشرشل فى التفكير فى انسحاب الإمبراطورية البريطانية إلى كندا . على أنه لم يقبل ذلك إلا ليؤكد الألمان أن الإمبراطورية ستواصل القتال إلى النهاية المرة نفسها وإن سقطت إنجلترا صريعة فى الميدان . ولكن أكثر الناس أساءوا فهم عباراته إلى أقصى حد ، وبناء على هذه الإشارة منه ، أسرعت الطبقات الثرية والنافذة السكامة تتدافع تدافعاً غير كريم للفرار بأولادهم إلى كندا وأمريكا . على أن بريطانيا ربحت الكثير بسبب هذا الجلاء . ومهما تكن نتيجة الحرب ، فإننا نشك فى أن يتحمس هؤلاء المنفيون بإرادتهم للعودة إلى بلادهم .

وعندئذ رأى موسوليني أن قد آن له أن يعلن الحرب ، فأعلنها فى ١٠ من يونيه ، وأخذ الجنود الإيطاليون يكثرون من الإشارات وتحريك الأيدي على الحدود الألبية كما أخذت صور للدوتشى على الأراضي الفرنسية . وتحول انهيار الجيوش الفرنسية إلى تشتت شامل . وغادر الناس باريس وانسحبت الحكومة الفرنسية إلى بوردو . وخطب المسيورينو فى ١٣ من يونيه خطبة نهائية يائسة التمس فيها العون من الرئيس روزفلت . وقال : إن الكفاح هو من أجل حياة فرنسا نفسها . ورد عليه الرئيس بسرعة معبراً عن أسمى أنواع العواطف ووعده بتقديم المساعدات المادية ، ولكنه ختم حديثه بهذه الألفاظ ذات المعنيين : « إنى أعرف أنك تفهم أن أقوالى هذه لا تحمل أى معنى يدل على تعهدنا بالدخول فى المسائل العسكرية . إذ لا يملك أحد القيام بمثل ذلك التعهد إلا الكونجرس وحده » .

وعند ذلك استقال الميسورينو وخلفه في رئاسة الوزارة الماريشال بيتان الشيخ الكبير الفاني وتولى معه وزارة الدفاع الجنرال فيجان الأصغر منه قليلا . وعند ذلك تقدمت الحكومة الفرنسية الجديدة لتسليم وطنها للعدو تسليما تاما ، يكاد يخالطه شيء من التعمس ! ثم عمدت الحكومة البريطانية في اللحظة الأخيرة إلى تقديم اقتراح بتوحيد بريطانيا وفرنسا معاً .

وكانت بريطانيا وفرنسا قد تعاهدتا على عدم القيام بصالح منفصل ، ولكن ذلك العهد نسي آنذاك ، وللمرة الثانية وجد البريطانيون أنفسهم يسحبون من فرنسا جنوداً يحيط بها الأعداء . وانتهالت الجيوش الألمانية المظفرة على فرنسا ، وذهل البريطانيون حين وجدوا جزائر بحر المانش ، وهي البقية الأخيرة من دوقية نورماندى التي ظلت تابعة للتاج البريطانى ١٠٦٦ - تقع في يد الألمان ، وعندئذ شعر البريطانيون بخطورة مركزهم ، ولكن قوة فعالة جديدة دبت إليهم ، ووجدت لسانها المعبر في المستر تشرشل . وكانت موانئ فرنسا الحربية وأسطولها أيضا فوق كل شيء ، مصدر تهديد لا يمكن الاستهانة به ، وانضمت بعض السفن الفرنسية إلى البريطانيين طائعة ، وأقيمت في لندن لجنة قومية فرنسية برئاسة الجنرال ديغول (de Gaulle) ، لتنظيم استرداد فرنسا من براثن الأعداء . على حين أن بقية الأسطول الفرنسى قد قبض عليه أو عطل من السلاح أو ضم إلى بريطانيا . وهاجم الأميرال سومرفيل قوة معارضة لبريطانيا عند وهران ، منها بارجتان من الدرجة الأولى هما استراسبورج ودنكرك وعطلها عن العمل .

ولما التقى البريطانيون بالأسطول الإيطالى أول لقاء بحرى خطير ، راحت ضحيته البارجة الإيطالية الممتازة بارثولوميو كولونى ، وهى من أسرع بوارج العالم ، إذ أصابتها على الرغم من ذلك قذيفة من المدمرة الاسترالية مدنى وأغرقتها . حتى إذا عاد البريطانيون فاستقروا على ظهر جزيرتهم وعلى متن الهواء وصفحة الماء ، أخذ معدنهم الحرى ينفض عنه الصدا الذى ظل يتجمع على سطحه في أثناء سنوات الانحطاط الطويلة .

ولعل شيئا من الخور قد داخل بعض النفوس المرتابة عندما عاد السير إدموند إيرنسايد إلى إنجلترا لتنظيم الدفاع الداخلى ، ولكنه سرعان ما رقى إلى رتبة الماريشالية ومنح لقب اللوردية ، وأحيل إلى الاستبداد بنصف مرتب وأبعد عن طريق الشر . ونشأ حرس وطنى أخذت كفايته تزداد ، وحل الترقب الانفعالى محل التخوف المفزوع ، وأخذ يتضح للعيان ازدياد تفوق القوات الجوية البريطانية ، التي أخذت تجتذب إليها

الشباب من كل طبقة من طبقات الشعب ، ومن أبناء الإمبراطورية وأبناء الحلفاء سواء بسواء ، وأثبتت الأيام صفاء معدنهم إلى أقصى حد ، وكان احتمال الغزو ينقص درجات عديدة كلما تأخر يوما .

وتركز الاهتمام آنئذ على إسبانيا والبحر الأبيض المتوسط ، فكأنه قد عاد أدراجه إلى الشرق ، واتضح للناس جميعا أن للروسيا رأيا خاصا بمستقبلها جعلها على الأقل لا تميل إلى العطف على الألمان كما لا تميل إلى العطف على الطبقة البريطانية الحاكمة . فعادت إلى تقوية تحوّلها المواجهة لألمانيا وتحصين مركزها على نهر الدانوب والبحر الأسود ، ثم طلبت بحزم تام إعادة منطقتي بيسارابيا وبوكوفينا الشمالية، اللتين اقتطعتهما منها رومانيا في ١٩١٨ ، ولم تلبث رومانيا أن أذعنت لذلك الطلب بعد أن لجأت إلى ألمانيا دون جدوى ، ثم استجابت الروسية بعد ذلك لحركة اشتراكية ظهرت بدول البلطيق في وقتها المناسب بشكل عجيب ، ومن ثم دخلت ثلاثتها الاتحاد السوفيتي . وأثار هذا العمل شعورا معنويا بعيد المدى لدى حكومة الولايات المتحدة ، فإنها استنكرت اختفاء تلك الدول أكثر مما استنكرت طرد فنلندا من مصب نهر النيفا ، فأدلى المستر كوردل هل وزير الدولة الأمريكي بخطاب شديد ضد ضمها ، فأجابه المستر مولوتوف قوميسير الشؤون الخارجية الروسى إجابة شديدة وبلغة المذهب الشيوعى المألوفة ، حيث قال : إن فى إمكان أمريكا أن تعنى بأمورها الخاصة ، ولم تلبث شقة الخلاف أن زادت بين هاتين الدولتين العظيمنتين المهتمتين كليهما بقضية السلام والعاجزتين إن افترقتا عن الوصول إليه ، ومع ذلك فلم تسكن هناك فى العالم حقيقة واحدة تدعو إلى اختلافهما فى رأى إلا ضالة نصيب الطرفين من سعة الخيال .

ولئن أخذ اتحاد الدول البريطانية فى صيف ١٩٤٠ فى تجميع قواته ليقا تل قتالا جديا ، فإن دعاية ذلك الاتحاد كانت مبهمة حمقاء ، وأنشئت هيئة خفية وشبه سرية هى لجنة سوينتون لمعالجة شئون جموع اللاجئين والأجانب الحاشدة المتزايدة ببريطانيا العظمى ، وكان على رأس هذه اللجنة شخص اسمه المستر لويد جريم اتخذ اسم كانليف ليستر فى ١٩٢٤ ثم منح لقب اللوردية فى ١٩٢٩ تحت اسم اللورد سوينتون ، ويلوح أنه باشر عمله بصورة تذكرنا بذوى النزعة السادية^(١) فى بغض الأجانب

(١) السادية : ضرب من الانحراف الحسى ، القسوة أبرز مظاهره ، وهناك نوع من الجنون يسمى جنون بغض الأجانب .

الجنونى أو بعميل من عملاء النازية ، وتلا ذلك إنزال أفسى وأعنف الاضطهاد بأبناء الشعوب نفسها التى كان ينبغى على بريطانيا أن تشخص إليهم طلباً للمعونة فى أثناء كفاحها فى سبيل إعادة ألوية الحرية إلى أوربا . فقد لقوا معاملة شريرة وحشية لا تنطوى على أى حكمة ، معاملة ألحقت بشرف بريطانيا ضرراً لا سبيل إلى إصلاحه . فاعتقل أعداء اللداء للنازية والفاشية ولقوا معاملة فظيعة جداً ، وحيل بينهم وبين زوجاتهم وعائلاتهم ، وأبعدوا عن البلاد ، ودفع كثير منهم إلى الانتحار . وقديماً إبان الماضى العظيم لعهد كينج وبلمرستون وملبورن الذى واجهت فيه بريطانيا المحالفة المقدسة ، جرت سياستها على مصادقة وإيواء ومساعدة رجال الحركات الثورية فى كل دولة أوروبية . وببريطانيا العظمى هى التى أوقفت تجارة الرقيق ، وكان مما يفخر به البريطانيون أنه حينما رفر ف علمهم اتشح الناس بشوب الحرية . فأما الآن فإن العالم وقف كالمصعوق يسائل نفسه أنسيت إنجلترا ذلك الماضى المجيد ؟ أكان كل ذلك الحديث عن الديمقراطية مجرد دعوى جوفاء ؟ .

ومما زاد من الواقع السيئ لهذا الاضطهاد أن الحكومة البريطانية تشبثت فى عناد بعدم إصدار أى بيان واضح عن أهدافها من الحرب ، وكانت كل قوة حرة فى العالم خارج الإمبراطورية وداخلها تتوسل مطالبة بإصدار ذلك البيان . ومع ذلك فإن الشعوب البريطانية التى أخذت تستيقظ وجدت نفسها غير قادرة على تخليص أيديها من أغلال نزعات المحافظين التورية^(١) القاسية التى أوقعتهم فيها الحرب ...

هكذا واصل البريطانيون القتال فى الوقت الذى ساد فيه بيلادهم كفاح اجتماعى مطرد النمو ، وحدث هجوم جوى عظيم ومتواصل على لندن فى سبتمبر وأكتوبر ، وأبرز للعيان تجلده عامة الشعب وصبرهم القوى كما أظهر التزايد المتواصل فى السلاح الجوى البريطانى ، وأخذت أمريكا بزعامه فرنسكلين ديلا نو روزفلت تزداد على الأيام عطفاً على ما يبذل البريطانيون من جهد فى الحرب ، وبانقضاء السنة دخلت الحرب فى مرحلة جديدة ، فإن جيوش موسوليني كانت تسير حثيثاً فى طريقها إلى مصر وقناة السويس ، وبلغ من ثقته بالنصر أنه ضم إليه ألبانيا (١٩٣٩) وهاجم بلاد اليونان (١٩٤١) . وكانت هذه مرحلة مجد أخيرة لذلك المخلوق المتنفخ الأوداج . وعند ذلك كان أمثال جور ت وأشباه أيرنسايد قد أبعدهوا

(١) التورية Torysim مذهب شديد المحافظة على القديم .

عن رئاسة القوات البريطانية ، كما أن الجيوش اليونانية قد سما بكفائتها الرئيس متكساس إلى الدرجة القصوى . وظهر قائد بريطاني من طراز جديد أكثر كفاية هو الجنرال ويفل ، فضرب الجيوش الإيطالية بشمال إفريقيا وأريتريا والحبشة ضربة قاصمة وسريعة أدهشت أبناء قومه كما أدهشت الإيطاليين أنفسهم . ولم تنقض عشرة أسابيع حتى تمزقت المثانة الفاشيستية المنتفخة . وهزمت قوات الكومونولث البريطاني الناهضة القليلة العدد والقوية العزم الجيدة العتاد - الجيوش الإيطالية المتناثرة من البحر الأحمر إلى طرابلس وأسرتها ، كما قهر اليونانيون بمؤازرة السلاح الجوى البريطاني الجيوش الإيطالية بألبانيا . ولا شك أن لو أتيح للبريطانيين قيادة كهذه تمتاز بالذكاء والعزم لأمكنهم في ١٩٤٠ تحطيم هجمة النازيين على النرويج . ولم تبرح الأكذوبة المسماة بالنازية قائمة حتى ساعة كتابة هذه السطور (مارس ١٩٤١) ، ولكن لو أن أمريكا مدت يد العون المادي فليس من شك أن البريطانيين كانوا يستطيعون أن يعالجوا شأنها على النحو الذي عالجوا به الفاشية . ولا يزال المحيط الأطلنطي معتركا لكفاح غير مضعون العاقبة . فالسفن البريطانية تغرق فيه بوفرة كما تغرق أخرى موالية لبريطانيا . وعلى الرغم من ذلك فإن الأمل في قيام عالم جديد لا يزال يملأ النفوس بالرجاء . فهل يتحقق ذلك الأمل ؟ .

الفصل السبعون

أزمة التكيف البشرى

ليس ضرباً من المبالغة أن البشرية مصابة في الوقت الحاضر بمس من الجنون، وأننا لسنا بحاجة إلى شيء كحاجتنا إلى معاودة ضبط النفس العقلى فى الجنس كله. إننا نهم الفرد بالجنون إن جانب أفعاله الغالبة جادة التوافق مع ظروفه التى فيها يعيش بجانب تجعله مصدر خطر على نفسه وعلى الآخرين. والظاهر أن هذا التعريف للجنون ينطبق فى الوقت الحاضر على الجنس البشرى بأكمله، وليس من المجاز فى شيء بل هو الحقيقة المجردة بعينها، أن يقال إن على الإنسان أن يتمالك عقله أو يتناسك أو يهلك ويذهب جفاء. أجل عليه أن يهلك أو يبدأ مرحلة جديدة يظهر فيها قوة وجهداً أنضج، وكأنى به لا يجد سبيلاً وسطاً بين هذين النقيضين. فهو مخير بين السالك الأعلى والحضيض الأوهى وهو لا يستطيع أن يظل حيث هو.

تعبنا فى هذه الخلاصة الموجزة للتاريخ البشرى خطى النمو المتصل للمجتمع البشرى، ولما كيف كان كل تحسين فى وسائل المواصلات والنقل يضطر الناس إلى تكيف أنفسهم لحياة اجتماعية موسعة الآفاق على الرغم من كل مقاومة تنبعث عن ضروب الولاء الوطنية والديانات العتيقة والتحيز ومألوف العادات، مع ما يترن بذلك غالباً من الإسراف الهائل فى النفوس والتبديد الذريع للسعادة - كما أننا فحصنا فى الفصول ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ بوجه خاص عن صنوف الارتباك والفرص التى خلقها العلم والاختراع الحرفى أثناء القرن الماضى، ووجهنا البحث خاصة نحو موضوع المشقات التى ينتجها تعقد أوضاع الملكية عندنا إزاء تلك التريبة العامة الهزيلة الموجودة لدينا اليوم، فقد أصبحت كتلة السكان العظمى متعردة. وربما كان الفصل التاسع والخمسون أهم ما فى قصتنا من فصول، وربما كان جديراً بأن يلقى عليه القارئ نظرة أخرى. وهناك ميزة خاصة اختصت بها الملكية هى صورتها السائلة كمنقود أو كوعود بدفع النقود. ومنذ الحرب العظمى أخذت شئون النقد تشغل قدراً متزايداً من عناية الناس واهتمامهم، ولكن قدراً كبيراً من الأبحاث التى جرت كان غير ذى جدوى لما جرت به عادة الناس من معالجة النقود كشيء أو نظام

في حد ذاته ، على حين أنها جزء مركب من « مجموعة معقدة » من العلاقات ، هو مركب الملكية والنقد ، الذي كلما عدل منه جزء عدل معه الكل . مثال ذلك أنه عندما تتضخم العملة وترتفع الأسعار ، يجرد الدائنون مما يملكون ، فإذا زال التضخم وانكمشت العملة حمل المدينون عبثاً ثقيلاً . والنقود تتغير طبيعتها إذا أنت غيرت ما يمكن شراؤه وبيعها ، ويصرح العليمون في شيء من التوهم أن إيجاد الائتمان على يد البنوك الخاصة يعد ضرباً من اغتصاب السلطة ، والنقود تتغير طبيعتها بتغير النواحي التي تستخدم فيها ، وليس هناك عملة واحدة ، بل عملات عديدة . وللشيوعية نوع من النقود كما أن هناك نوعاً آخر لأنصار المذهب الفردي^(١) المتطرف ونوعاً لكل نظام آخر يمكن أن يتوضع عليه في شؤون التملك والتوجيه وحرية التصرف .

فإذا أعوز جهاز العملة والائتمان القدر الكافي من القوة العقلية ومن التنظيم والقيادة ظل ميداننا يرتفع فيه المغامر والمضارب ، وظل مصدراً لإفساد لا نهاية له لنظام الحياة الاقتصادية اليومية ، ولكن أين لنا بالتعويذة التي تبدد هذا الارتباك . لا جرم أن ذلك يستلزم جهداً عقلياً هائلاً ومنظماً . ولن نبرح نقاسى حتى نبذل ذلك الجهد فضلاً عما سنلتعرض له من مخاطر ذريعة في حياتنا الدولية المتهوسة ، نقاسى قلة اطمئنان ربما لاحت في أحد الأيام شيئاً لا يصدق العقل ، في ظل ظروفنا الاقتصادية الضالة . وليس في أيامنا هذه رجل عادي في أي مكان يمكن أن يقال إنه بمأمن من الفقر والحاجة .

وقد شرعنا الآن فقط في إدراك المعيار العميق الحق لتغيرات ظروف الحياة البشرية التي تدور الآن . وفي القرن التاسع عشر كان الرجل الناشط يختطف هبات القوة والثروة التي كان العلم يهبها له ، دون أن يحس إلا بأقل قدر من الشكر ودون أن يدرك الثمن الذي ربما أصبح من الواجب دفعه مقابلها ، والآن تقدم الأيام قائمة الحساب وتطالب بسداد الثمن ، فقد بلغ من تغير معيار المسافات وبلغ من عظم القوة « المادية » التي في يد البشر ، أن أصبحت السيادة المنفصلة التي للدول الحاضرة أمراً مستحيلاً ، ومع ذلك فإننا نتعلق بتلك السيادة بعناد يجر علينا المصائب . فلا بد من أن تبدو بشكل ما ، الأوهام المتصلة بالمال ، وبشكل ما ، لابد للتحكم العالمي في الحياة السياسية والاقتصادية.

(١) مذهب الفردية : مذهب اجتماعي واقتصادي يملو بحقوق الفرد ومصالحته على حقوق الجماعة والدولة ومصالحتهما .
[المترجم]

وفي بيولوجيا النوع بصفة عامة من أن يعالج بالتنظيم .

والضرورة تحتم تغيير كثير من الأشياء الثابتة تغييرا يطمس معالمها القديمة تماما ، وينبغي للقارىء الإنجليزي أن لا يحز في نفسه كثيراً احتمال انتهاء السيادة البريطانية العالمية ، فإننا نحن الإنجليز قبضنا على تلك السيادة برهة واستخدمناها أسوأ استخدام . أجل إننا أتينا أمورا ممتازة تنطوى على السباحة والحرية ، ولكننا لم نأت منها القدر الكافي لتبرير زعامتنا العالمية ، لذا وجب علينا خلال الضيق النسبي الذي يمر بنا أن نهيب أنفسنا للاعتراف بحقيقة ما كنا لنعترف ألبتة بها في أيام دزرائيلي والغرور الذي أناره كبلنج :- وهي أن المصير المثالي للإنسان هو المتجه نحو المساواة والوحدة في أرجاء العالم قاطبة . أما العزة والسؤدد ففكرة بالية ومرفوضة ، كما أن الهيبة مثل أعلى غير جدير بالثقة . فعلينا الآن أن نوطن أنفسنا طوعا أو كرها ، على الديمقراطية العالمية حتى لا يصيبنا جميعاً ما هو أسوأ من ذلك .

والآن يتضح لدينا تماما أنه لا بد للبشرية من القيام بجهد تعميري هائل إن شاءت أن تتجيب شدة الزيادة في تلك الهزات العنيفة وتلك المذابح العالمية التي أنتجتها الحرب العظمى ؛ ولذلك فإن فكرة مرتجلة متعجلة كفكرة إنشاء عصبة الأمم ، وإن مجموعة مهلهلة مرقعة من المؤتمرات تجمع هذه الطائفة من الدول أو تلك ولا تغير في العالم شيئا مع ادعائها تسوية كل شيء ، لن تكون علاجا للحاجات السياسية المعقدة للعصر الجديد الذي ينتظرنا . ومهما تكن الأمور مستعجلة وخطيرة ، فلا بد من أن يسبق كل تنظيم عالمي جديد وفعال نهضة عقلية كبرى ، ولا بد من نشوء تطور منظم وتطبيق منظم لعلوم العلاقات البشرية ولعلم النفس الفردي وعلم النفس الجماعي ولعلم المسالية والاقتصاد والتربية ، وكلها علوم لا تزال في مهد طفولتها ، فأما الأفكار الضيقة والباطلة والميتة والمحتضرة سواء منها الخلق والسياسي فلا بد من استبدالها بفكرة أخرى أوضح وأبسط توضح اشتراك الجنس البشري كافة في الأصول والمصائر .

وإذا كانت الأخطار والارتباكات والكوارث التي تتكبد على رأس الإنسان في هذه الأيام هائلة فوق كل خبرة ماضية مرت به ، فما ذلك إلا لأن العلم جلب له من القوة ما لم يكن له من قبل إطلاقا ، كما أن المنهج العلمي القائم على الفكر غير الهباب والتعبير الواضح إلى أقصى حد ، والتخطيط الناقد والمتحرز إلى أقصى حد ، يقول إن ذلك المنهج

نفسه الذى وهبه هذه القوى التى لم يتهياً له بعد التحكم فيها ، يمنحه أيضاً الأمل فى التحكم فى تلك القوى . فالبشرية لا تزال بعد يافعة لم تتجاوز المراهقة . وليست متاعبها متاعب الشيخوخة والإنهاك ، بل متاعب القوة المتزايدة التى لم تلق بعد تنظيمها . وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ كله بوصفه عملية واحدة وركباً واحداً ، شأننا فى هذا الكتاب ، وإذا نحن شهدنا صراع الحياة المستمر المتجه إلى أعلى والمهادف إلى الإلمام والتحكم ، لشهدنا آمال هذا الزمان ومخاطره فى صورها النسبية الحقة . ونحن الآن فى أول مطالع فجر العظمة البشرية . ولكننا نلمس وميضاً بما تستطيع الحياة أن تفعله لنا ، نحسه فى جمال الزهر والغروب وفى الحركة السعيدة المتقنة لصغار الحيوانات وفى سحر آلاف الآلاف من مناظر البر والبحر ؛ كما أننا نجد إشارة إلى ما تستطيع الإرادة البشرية عمله بوساطة الإمكانيات المادية ، نجدها فيما أنتجته يد الصناع من فنون التشكيل والتصوير ومن الموسيقى الرائعة ، وفى قليل من المباني الشاحخة العظيمة والحدائق البديعة الغناء . لاجرم أن الأحلام تملأ رءوسنا ، وأن فى أيدينا فى الزمن الراهن قوة غير منظمة ولكنها لا تبرح زدداد . فهل يستطيع شك أن يداخلنا فى أن جنسنا لا بد أن يحقق تماماً أجراً تخيلاتنا وأشدّها غلواً ، وأنه سيحصل على الوحدة والسلام ، وأنه سيعيش ، أى أن أبناء أصلابنا وعمرات حيواتنا سيعيشون فى عالم سيصبح من الفخامة والجمال بحال تفوق كل قصر أو جنة نعرفها ، وأنه سينطلق من قوة إلى قوة فى دائرة من المغامرة والتحصيل لا يبرح قطرها يزداد ؟ فما صنعه الإنسان ، والانتصارات الصغيرة التى أحرزها فى حالته الراهنة ، وكل هذه القصة التى سردناها عليك ، ليست إلا مقدمة للأشياء التى بقى على الإنسان أن يتمها بعد .

الفصل الخامس والخمسون

من ١٩٤٠ إلى ١٩٤٤

العقل البشرى فى أقصى توتره^(١)

— ١ —

الأحداث بين ١٩٤١ و ١٩٤٤

أوصلت الفصول السابقة هذا السفر فى تاريخ الحياة حتى عام ١٩٤٠ - ١٩٤١ .
وليس هناك ما يستحق التغيير إلا النذر اليسير من حيث تتابع الحوادث . وقد حذفت
بعض العبارات فى بعض النسخ لدواع سياسية ولكنها أعيدت الآن إلى هذه النسخة .
وقد سجل الكتاب اليوم وحفظت حقوق نشره للمؤلف ككل متكامل ، ولن يكون
لأحد عذر ولا إذن بإجراء مثل ذلك الحذف .

ولئن ظل تتابع الحقائق فى هذا الكتاب منزها عن كل تغيير ، ويمكننا الآن إعادته
إلى سيرته الأولى الكاملة ، فلقد ألم تغير جسيم بالقيم المناطة بتتابعها . على أنه يجدر بنا قبل
الخوض فى ذلك الموضوع أن نتذكر أحداث تلك الفترة . وفى إمكاننا أن نفعل ذلك
باختصار ، وذلك لأن كثيراً من تلك الأحداث لاتزال ناضرة فى ذاكرة القارىء .
وفى ١٩٤٠ - ١٩٤١ كان جميع العالم غير المستعد يمثال التماساً للوقت ويضممر
الاسترابة بأصدقائه المحتملين . واستطاع هتلر على الرغم مما كان يصدر عنه من أكاذيب لا يكاد
يصدقها عقل أن يعقد المعاهدات ويتفاهم مع جميع ضحايا الذين قرر إيقاعهم فى شركه .
عدا اليهود الذين كانت نغمته عليهم قاطعة . ويلوح أن الأمريكين كانوا بمنأى عن دائرة
أطماعه فى تلك الآونة . فكان هدفه غزو العالم المتمركز حول أوربا . وسار مولوتوف
وبوريس ملك بلغاريا وممثل للحكومة الألعبوبة الهزيلة القائمة فى يوغوسلافيا ، فى إثر

(١) هذا الفصل أضافه المؤلف قبيل وفاته وظهر فى أحدث طبعة للكتاب [المترجم] .

خطوات المستر تشمبرلان وذهبوا للمفاوضة مع هتلر . وظلت بريطانيا تتحمل وحدها عبء الهجوم لم تبح شدته تزداد كل يوم ، على أن هتلر أحس بعد التقائه مع مولوتوف بالقلق من ناحية روسيا . وكانت روسيا تسترد قوتها من ساعة لأخرى ، لذلك كانت أقرب مصدر للخطر عليه . أجل قد تكون بريطانيا قوية في دفاعها ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين غير مستعدة للهجوم .

لذا اجتاحت هتلر بلاد الروس في ٢٢ من يونيو ١٩٤١ . وذلك لأن غزو بريطانيا كان من الميسور إرجاؤه حتى يقضى على روسيا . كانت السلطات المسئولة في أمريكا منقسمة إلى معسكرين ، ولكن الهجوم على بريطانيا لم يكن بد من أن يفرض إلى تحالف وثيق بين روزفلت والقطر العجوز . وربما سهل على الألمان إيصال الجنود إلى إنجلترا ، ولكن استرجاع الجند منها ثانية كان من أعسر الأمور على الرغم من وجود أتباع موزلى ومن إليهم ومساعدتهم لهم . وكانت قبضة الألمان ممتدة هنا وهناك وفي كل مكان ، ولكنهم كانوا متفرقين إلى أقصى حد ، على حين اكتسب الإنجليزى العادى شهرة صلابة العود ، وربما استنفذ منه فيها مليوناً من الرجال بينما ليس لديه ربع مليون يستطيع الاستغناء عنهم لنفس العمل . وربما أصبحت بريطانيا معسكراً لاعتقال أسرى الحرب ، ومن ثم ينزل النازيون إلى أرض إنجلترا ليجعلوها تقوم بذلك الدور .

ولكن لئن استبقى النظام الهتلرى رأسه خارج المصيدة البريطانية فإنه لجأ مع ذلك إلى شن هجوم عنيف على الروح المعنوية لسكان لندن الشديدي التخلط السيئ التعليم الأقوياء المراس . وعندئذ بدأت الغارات الجوية التى تسمى باسم معركة بريطانيا ، فشهدت بنمو الكفاية الجوية لدى البريطانيين ، وما وافى ١٨ سبتمبر ١٩٤٠ ، حتى كانت ١٨٦٧ طائرة معادية قد أسقطت مقابل ٦٢١ طائرة بريطانية قتل من ملاحها ٦٠٠ ونجا الباقون بالمظلات الواقعة ثم عادوا إلى معمعان القتال . ولكن سكان لندن المدنيين دفعوا ثمناً أفسح من هذا . فقد كان الفتلى حتى ٥ نوفمبر أربعة عشر ألفاً ، وكان الجرحى عشرين ألفاً ، أربع أخماسهم جميعاً فى لندن وحدها . ودمرت فى ذلك الهجوم الجوى النازى دار نقابات العمال بلندن وثمانية من الكنائس التى بناها السير كريستوفر رن ، وتسكلم تشرشل بلسان المجتمع البريطانى قائلاً لأمريكا : « اعطونا الأدوات تتم لكم المهمة » وذلك لأن أمريكا كانت لاتزال جالسة فى مقاعدها تصفق لبريطانيا تصفيقاً حاداً ، ولكن دون أن يبدو عليها أى مظهر ينبئ بمدى يد العمل

في ذلك الكفاح ، وفي أكتوبر طالب الإيطاليون بنصيب في تدمير إنجلترا وساعدوا في القيام بالهجوم .

ولكن حدث في السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، أن شيئاً أشد عمقاً وأكثر فطنة وأوسع مجالا من مؤامرة النازي على سائر البشرية ، ظهر تحت الشمس فجأة وأخذ كلا من البريطانيين والأمريكيين على غرة ، ذلك أنه قد تواصلت في آسيا الدعاية المضادة للأوروبيين سنين طويلة ، وكان مبعث تلك الدعاية خيال اليابانيين الناشط الخبيث العدواني . ولم تجد تلك الدعاية لنفسها منفذاً كبيراً في اللغة الهندو مستانية ، تلك اللغة التي تضيق الخناق على كل داعية إلى نظم الغرب وعاداته ، ولكنها وجدت من يعبر عنها باللغات الوطنية في صحافة الشرق من الهند إلى الفلبين وعمت كل أرجاء الصين . وكانت اليابان في كل مكان تتخذ صورة الزعيمة المناصرة للعالم الآسيوي الناهض ، الذي سطرت المقادير أن يتسلط في النهاية على هذا الكوكب ، والذي كان أنبأؤه قد ملأوا البقاع من الشرق إلى الغرب بطريق هونولولو وكاليفورنيا ، حيث كان يقيم عدد ضخم من السكان الآسيويين شديد الاصطباغ بالحضارة الأمريكية ، يندس بينهم الجواسيس والوكلاء السريون ؛ ومن أيسر الأمور ردهم ثانية إلى تقاليدهم القومية ، ولم يكن اليابانيون يضرعون للألمان إلا نفس القدر القليل من الاحترام الذي يضرعونه للأوروبيين كافة ، وكان رأى هتلر في البداية في ذلك الشعب الأصفر الصغير الأجسام لا يقل عن هذا انحطاطاً واحتقاراً .

ولم يلبث هذا المشروع الذي طال الأمد بإعداده ، أن قذف على العالم في ٧ من ديسمبر ١٩٤١ على حين كان الديبلوماسيون اليابانيون لا يبرحون يخفون من الشبهات ضد بلادهم بإجراء المفاوضات في واشنطن . وكان أسطول الولايات المتحدة الباسيفيكي يرقد هادئاً في مياه بيرل هاربور قاعدته البحرية عندما فاجأه اليابانيون ، وفقدت في تلك المفاجأة أو دمرت بارجتان وثلاث مدمرات وسفینتان أخريان ، وأعلنت القيادة اليابانية العليا أنها في حرب مع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، وأغرقت البارجتان البرنس أوف ويلز والريبالس (لأنهما كانتا بلا عون جوى ١١١) بطرايبد ألقيت من الطائرات اليابانية ، وهل لي أن أكرر هذه الكلمات المشحونة بالمعاني الأسيفة . . . لأنهما كانتا بلا عون جوى ؟ ! ولسنا نعرف إلى يومنا هذا من كان المسئول عن ذلك التقصير . . .

لقد صد ويفل هجوم الإيطاليين ، وتقدم إلى غزاله ، ولكن سحب جيوشه إلى البلقان أضعف حملته ، فتقدم رومل حتى أصبح على مسيرة ٧٠ ميلا من الإسكندرية ، وفاز الجنرال مونتجومري في أكتوبر ونوفمبر ١٩٤٢ بمعركة العلمين المدوية ، ومن ثم بدأ تقدم سريع على حين نزلت بمراكش والجزائر جيوش أمريكية وبريطانية بقيادة الجنرال أيزنهاور . فوقع الألمان بين نارين فسلموا في سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، ثم استوجب الحال بعد سقوط الإمبراطوية الإيطالية بشرق إفريقيا تقوية مركز الحلفاء في الشرق الأوسط ، فاحتلت العراق وسوريا بعد أن أظهرتا شيئا من العطف على المحور .

وفي أغسطس احتل الروس والبريطانيون إيران وحولوها إلى مركز إمداد وتموين عظيم .

ولم تلبث القوات المتحالفة أن اجتاحت إيطاليا بطريق صقلية من ١٩٤٣ - ١٩٤٥ . وفي يولييه سقط موسوليني ، وفي ٣ من سبتمبر وقعت الحكومة الجديدة الهدنة وأعلنت الحرب على ألمانيا في ١٣ من أكتوبر .

وعند ذلك دخلت إيطاليا قوات ألمانية عظيمة ، أخذت تحارب حربا مريرة حتى كسرت في مايو ١٩٤٤ على الخط القوطي بالقرب من بيزا ثم استسلم الألمان بعد ذلك في أبريل ١٩٤٥ .

وفشل الألمان عند ستالينجراد عشر مرات ، ثم قام الروس بهجومهم العظيم في ربيع ١٩٤٤ وحرروا جميع أوكرانيا ودخلوا رومانيا ، ثم بدى هجوم عام أخرجت به فنلندة ورومانيا وبلغاريا من الحرب ، ودخل الروس بروسيا الشرقية وبولندة ويوغوسلافيا ، ودخلت القوات البريطانية بلاد اليونان في أكتوبر ، وفي نهاية ١٩٤٤ كانت معظم البلقان قد خرجت من أيدي الألمان ، وأسدى أنصار تيتو إلى الحلفاء مساعدة ثمينة ، وثمة هجوم روسي أخير حرر بولندة ودخل تشيكوسلوفاكيا وبلغ برلين (يناير - مايو ١٩٤٥) .

ومهد الطريق للجبهة الثانية في الغرب ، بقذف ألمانيا بالطائرات بغاية الشدة ، وفتحت الجبهة بشمال فرنسا الغربية بقيادة أيزنهاور ، ثم تقدمت الجنود المتحالفة من الساحل الجنوبي بسرعة إلى الشمال ، فلما وصلت الجيوش إلى حدود ألمانيا هاجمها رونشتد

بمنطقة الأردن Ardennss فصدّها إلى حين ، ثم ما لبثت أن كسرت خط سيجفريد وعبرت الرين في مارس ، وفي ٧ من مايو سلمت ألمانيا بلا قيد ولا شرط .

وسرعان ما اجتاحت اليابانيون شبه جزيرة الملايو وبسطوا نفوذهم على معظم جزائر المحيط الهندي والهادي ، ثم أخذت الهزائم تتوالى على اليابانيين فاستردت بورما في يناير ١٩٤٥ .

ومن أكتوبر ١٩٤٤ حتى يولييه ١٩٤٥ تم استرداد الفلبين ، وكان الاستيلاء على أوجيا وأوكيناوا مقدمة للهجوم على اليابان نفسها .

وجاءت النهاية فجأة ، فإن قنبلة ذرية أسقطت على هيروشيما في ٦ من أغسطس وأخرى على نجازاكي في ٩ من أغسطس ، وأعلنت روسيا الحرب على اليابان ، وغزت منشوريا . وفي ١٤ من أغسطس أعلن هيروهييتو قبوله لشروط الحلفاء .

— ٢ —

معرفتنا الحاضرة بطبيعة الحياة

أوصل الفصل السبعون تاريخنا هذا إلى ١٩٤٠^(١) . ومنذ ذلك الحين حدثت سلسلة متعاقبة من الأحداث أرغمت المشاهد الذكي إرغاماً على أن يدرك أن قصة البشرية قد بلغت غايتها آنفاً ، وأن الإنسان العاقل Homo sapiens ، وهو الاسم الذي سره أن يطلقه على نفسه يعد في صورته الحالية شيئاً منهوكاً لا غناء فيه . ذلك أن النجوم في مسالكها قد انقلبت عليه ولا بد له من أن يخلّى مكانه لحيوان آخر أحسن تكيفاً لمواجهة المصير الذي لا يبرح يطبق على البشرية بصورة أسرع وأسرع

وربما كان ذلك الحيوان المتكيف الجديد صنفاً آخر غريباً عنا تماماً ، وربما نشأ كتعديل جديد للفصيلة البشرية Homindae بل حتى كاستمرار مباشر للأمة

(١) وأضاف المترجم نبذة عما عقب ذلك من أحداث الحرب العظمى .
(٢٧ — تاريخ العالم)

البشرية ، ولكن لا شك في أنه لن يكون بشرياً فليس أمام الإنسان إلا مخرجان أحدهما يرتفع قائماً إلى السماء وثانيهما يهوى مسحوقاً إلى الحضيض . فأمر الطبيعة الحتم الذي لا هوادة فيه في زماننا هذا وفي كل أوان هو أن يتكيف أو يهلك .

وما أكثر من لا يستسيغون منابضة هذا التخيير الفجيع بين السماء والحضيض ، فإن القوى التي أنشأتنا في نهاية تلك السلسلة المديدة من الكائنات الحية حبثنا بتشبث بفكرة الاعتماد بالنفس ثور به نفوسنا ضد مجرد التفكك في إخلاء العالم للفئران أو لوحوش بشعة طفيلية أخرى نذرة مزودة بالجراثيم الوبيلة المعدة للقضاء علينا وكم أتمنى أن أحضر الجنس البشرى وهو يجود بأنفاسه ، وأن يكون لي رأى في حلول السيد الجديد للخلقة محله في النهاية ، وإن كانت النتيجة أن يصبح أول عمل لخليفته المرتقب ذاك أن يعاملني كما عامل أوديب أباه ، فيقضى على أنا أيضاً !

قلب الطرف فيما حولك من هذا الكوكب تجد بقايا الإنسان وأعماله منتشرة في أرجائه ، ولا بد لمعظمنا من بذل جهد فكري هائل قبل أن يدركوا أن هذا التوزيع المتسع للمنتجات الإنسانية ليس إلا ثمرة مائة ألف سنة الأخيرة . ولا بد أن المواد ذات النشاط الإشعاعي وعملية محلل الراديوم قد بدأت في المجموعة الشمسية في مدة تقارب ثلاثة آلاف مليون من السنين ، وأنها توقفت فعلاً قبل أن صارت الحياة ممكنة على الأرض بزمان طويل ، يقول الدكتور ن . ه . فذر بمعمل كافندش بكمبريدج : « إن جميع الأنواع ذات النشاط الإشعاعي طبيعية بحتة ، بمعنى أنه لا بد أن أحوالاً قد حدثت في مرحلة ما من مراحل التطور الكوني ، ولعلها لا تزال تحدث في بطون النجوم الأشد حرارة ، التي حدث بها إنتاجها ولا يزال ممكن الحدوث ، على أن هذه الأحوال لم تنشأ على الأرض منذ ساعة انفصالها عن الشمس ، كما أننا كسكان للأرض قد جرت عادتنا التقليدية ألا نعد من الأمور الطبيعية إلا تلك العناصر الإشعاعية التي يظهر لنا أنها عاشت على كوكبنا تلك الفترة التي تقارب ثلاثة آلاف المليون سنة (3×10^9 سنة) منذ أن حدث الانفصال » .

وقد حدثناك في الفصول الأولى لهذا الموجز التاريخي حديث الحياة على هذا الكوكب بقدر علمنا به في ١٩٤٠ . ولم يكن حديثنا آنذاك واضحاً بأي حال عن حدود الزمان التي يذكرها الدكتور فذر بجلاء تام . فإذا نظرنا في اتجاهات أخرى وجدنا أنفسنا اليوم

نواجه أشد أنواع الكشف عن المستور من طبيعة الحياة قلباً للأوضاع . وسيعمد الكاتب في هذا الفصل الختامى الذى سيكون من الأنسب تقسيمه إلى عدد من الأقسام لكل منها عنوانه ، إلى التقاط قصة الحياة قبل دخول الإنسان إلى مسرحها وإعادة سردها على الأسماع فى نور التحقيقات الجديدة التى فرضت نفسها قسراً فى عقول المشاهدين الأذكياء ، وهى لن تكون من حيث الجوهر إلا نفس القصة التى سردها من قبل ولكنها ستصاغ صوغاً جديداً فى إطار من الآفاق الموسعة توسيعاً هائلاً . وهذا الإطار الزمنى شأنه شأن الفضاء ، إنما هو ضرب من الفكر الذى يشكل عقولنا ، فنحن نفكر فيه ونستشعر صفة خادعة فيه ، ونستطيع أن نتحدث عن الخروج على حدود الزمان وعن الأبد ، على أن هذه ليست إلا مصطلحات سلبية لا تحتوى على أى مدلول مطلقاً ، فإن أخيلتنا الإيجابية لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء الدقائق الأولى لساعة الراديو .

ثم أصبح الكوكب الأرضى فيما بعد على التدرج موطناً ممكناً لذلك الوافد العجيب : الحياة . وكان يدور حول الشمس بسرعة لا يعلمها أحد وعلى مسافة لا يديرها - ثم اكتسبت الأرض بعد ذلك قمرًا تابعاً تمكنت موجة من موجات المد أن تهبط من سرعته حتى ألزمتها فى النهاية أن يدير وجهه نحو أمه الأرض إلى أبد الآبدين ، ومن ثم يكون الشهر القمرى يوماً قمرى ، وربما يكون كوكبنا نحن قد ألم به تأخير مشابه إزاء الشمس ، بحيث إن السنوات الأولى وأعمار الحياة على الأرض كانت تندفع بسرعة تخرج عن كل تناسب مع هذه الأيام الأخيرة المتزنة ، لقد كانت الآلة تسير بفرامل أضعف . وفى زمن ما من ذلك الطور المندفع وفى ظل خيمة من كثيف السحاب البخارية بدأت سلسلة الدقات الإيقاعية التى يسميها الحياة . على أن ظلمات البحر العميق التى لا نهاية لها ، وجفاف الأرض اليابسة الذى لا هوادة فيه ، لم ينطويا على أية إمكانيات للدقات الإيقاعية . فهى شئ لم يكن ليوجد - كما قال الأستاذ ج . ب . س هولدين فى إحدى مقالاته المبسطة الجديرة بالإعجاب - إلا فى المنطقة التى يتبادلها على الساحل المد والجزر . فكان النور يعقب الظلام وتعقب الظلمة النور ، وبدأت الحياة - تلك الدقة العجيبة فى المادة الموات . فإن علماء الحفريات الذين يبحثون على الدوام عن شئ يهديهم فى ظلمات سجل الصخور ، يجدون إشارات تنبئ بوجود طور حرم من كل أثر للحياة لا يعلم أحد مداه قبل أن نفاذ اشعة الشمس فعلاً خلال ذلك الستار البخارى وافتتحت العملية المسماة بالحياة .

ولا تزال فقرات تعاقب هذه الدقات الإيقاعية البعيدة شيئاً غير محقق . فإنها كانت في درجة أولية قصوى بحيث لا يوجد أقرب نظير لها إلا في العناصر العشائية الميكروسكوبية للحياة المعاصرة أو في مياه البحر السطحية ، فكان هناك تكاثر هائل في الديايطيم^(١) وما مائلها ، وحدث في زمن مبكر جداً من القصة أن أنتجت طفرة مواتية مادة خضراء هي الكلوروفيل ، التي كانت تلتج تحت نور الشمس مزيجاً شبه دائم يستمر مادام النور موجوداً . ولذا فإن سجل الصخور يتحول فجأة من انعدام الحياة إلى أضرب كثيرة من أشكال الحياة بمنطقة المد والجزر .

وهذه الأشكال بكل ماحوت من أضرب يتجلى فيها ميل مشترك ، هو النزوع إلى فرض وجودها Leanviol وهي تظهر في أبسط الصور ذلك التنازع على البقاء الذي أصبح الموضوع الجوهرى لتاريخ الحياة ، ثم لا تلبث هذه المادة الحية أن تنقسم في لحظة باكرة جداً إلى أجزاء فردية ، يمكنها أن تواجه الظروف المتغيرة وتظل حية هنا وإن جف غيرها هناك أو هلك ، وكأني بهذه الأفراد خالية من أى دافع للصراع مع الطعام الذى تتناوله أو مع إحداها الأخرى . فإذا هى التقت تدفقت معاً ثم تباعدت ثانية وقد زادها الالتقاء قوة ظاهرة ، ويحدث تجديد الشباب والحيوية ذاك دون وجود أى علامة للتمايز الجنسى ، فهى أمر يتم بين أنداد .

— ٣ —

بزوغ فجر العائلة

من الأمور التى بدأت بداية واضحة في تاريخ الحياة تكوين فارق بين أفراد بحيث ينمرد فريق منهم للمخاطرة ويتعرض للتجارب والموت النهائى ، على حين يواصل صنف آخر بقاء النوع بلا نهاية .

والغالبية العظمى للكائنات ذوات الخلايا المتعددة على هذا الكوكب تبدأ وتنتهى كبويضات مخصبة . ومنها ما يتبرعم وينقسم ، ومنها ما ينتشر بالتقطع أو التوالد

(١) الديطوم (Diatom) : أحد أفراد فصيلة من فصائل الطحالب المجهرية ذات الخلية الواحدة ولها محارتان وتنطبقان كالصندوق وغطائه .

العذرى (كما فى الذبابة الحُضراء) وما مائل ذلك ، ولكن أمثال وسائل التوالد هذه تبقى النوع ثابتاً ، غير قابل للتكيف وبعيداً عن كل مناعة ، ولا بد أن يحدث إن عاجلاً أو آجلاً ، إن قدر للنوع البقاء - تغيير غايته القوة والتنويع فى الذكر والأنثى اللذين نجدتهما مستقرين آنفاً فى صورتهم المراهنة فى أبكر فصل من فصول الحفريات عثرنا عليه .

وهناك تقلبات بعيدة فى تمايز الجنسين حتى فى النوع نفسه تقتضيها الضرورات المتغيرة التى تفرضها الحياة . وقل من وقف ليلمعن فى جنس النمر أو النمره عندما يلتقى به صدفة ، ولكن كيف يتضح جنس قطه مارة بنا أو أرنب أو قنفذ ، أو ذئب فى سربه حين يقتفى أثرنا أو ذبابة أو سحلية ؟

وحق مياسم الجنس فى « الإنسان العاقل » أقل ظهوراً اليوم بكثير مما كانت عليه منذ مائة سنة ، ذلك أن المبالغة فى تضيق الحصر بالضغط الشديد عليه بالمشدات قد توقفت اليوم . وكذلك اختفى أيضاً قدر كبير من تدليل البنات بدليلاً لانفهم له معنى . وكان للدراجه بعض الفضل فى ذلك الانطلاق . فإن البنات النامية تنشط نفسها بالانطلاق بدراجتها بلطف وتجد المائدة تعود عليها من ذلك بينما جدتها تأخذ قسطاً من الراحة فى فراشها . وكلما ألت بنا أزمة أغمى على جداتنا ولكن من ذا الذى يسمع اليوم عن نساء يغمى عليهن ؟ فالآن يغشى على الرجال أكثر من النساء ؟

لقد حدث فى أمد وجيز لا يتجاوز عمر رجل مسن تغيير عظيم فى علاقة الجنسين ببعضهما ببعض فى المجتمع البريطانى ، وبالعلاقات المتعلقة بالعمر فى الزواج ، وبالتوافقات الاجتماعية المترتبة على تلك التغيرات . فكان رجال مسنون يتزوجون نساء صغيرات ؛ على حين يزخر العالم اليوم بالزوجين الشابين . ومن الشواذ القليلة أن تجد خريفاً هرماً متزوجاً من ربيع مزهر . وربما عاد رأى الناس أدراجه ثانية . وربما لم يكن مانشهده خروجاً على الحالة الأولى . وربما استطاع التشريع المنشأ على خطة مقصودة ونقص الطعام وما مائله من عمليات اقتصادية ، وموجات العطف على الأمومة أو النفور منها والشعور القومى أو انعدامه والميل الطبيعى إلى الوقوع فى شرك الغرام مقترنا بالرغبة فى تثبيت إحدى العلاقات بوساطة مصلحة مشتركة ومستديمة ، والفخر بالأطفال الحسنى التكوين جثمانياً وعقلياً ، ربما قدر لهذه جميعاً أن تلعب أدواراً

لا حصر لها في إنتاج إنسانية جديدة قادرة على التكيف السكافي إزاء الضرورات التي تهدد من حولنا كالمرجل وتضطرننا إلى أن نفحص قصة الحياة على الأرض حتى نهايتها .

وتدعى الهيئات الدينية عامة والكاثوليكية خاصة أنهم يقومون على حماية نظام العائلة . والواقع أنهم لا يفعلون في ذلك السبيل أى شىء . فإن العائلة موجودة منذ تناسلت الحيوانات وتزاوجت ثم افترقت لحماية صغارها وتربيتها . ولكن التدخل الكهنوتي قد حط من قدر هذه العلاقة الواضحة البسيطة حين وسم الأطفال الذين لم يولدوا لأب شرعى بأن حملهم تم في ظل الخطيئة ، جاعلا من مولدهم غير الشرعى شيئا مخزيا بطريقة لانفهم لها معنى ، ومقياسداً منيعاً بين الحقائق والإمكانات الجوهرية المتعلقة بحياة العائلة وبين الصغار حتى يفوت الأوان فلا يعودون يستفيدون من معرفتهم بها .

انتحار الجنس بالتضخم

يعيش الفرد البشرى إلى سن كبيرة جداً ، بالقياس إلى حياة المخلوقات المحيطة به . وساعة الراديو^(١) تعطينا كمعمر للحياة فترة عظمت أقل كثيراً من عشرة آلاف مليون من السنين الأرضية ، ولعلها أقل كثيراً من خمسة آلاف مليون سنة ، وفي كل هذه الفترة الزمنية كان يحدث تعاقب مستمر في أشكال الحياة التي تسود الموقف على ظهر البسيطة . أجل لقد ساد كل منها بدوره ثم عاد كل منها فأزيج من المشهد بدوره أيضاً وحل محله شكل أحسن تكيفاً . وانصاع كل منها لمجموعة معينة من القوانين لا مفر من إطاعتها ، لاح أنها كانت قطعة من طبيعة الأشياء نفسها .

وكان أول هذه القوانين هو أن العدوان أمر حتم . فالأمر الذى لا مرد له هو أن عش — أجل عش وبأ كبر ما يمكن من الوفرة الزاخرة . عش أكثر من إخوانك.

(١) المفروض أن المؤلف يشبه إشعاع الراديو المنتظم على مر العصور بدقات الساعة التي بحسب الزمن .
[المترجم]

وكن أكبر حجما منهم والتهم منهم أكثر . وفي الأيام الأولى ، كان ذلك الأمر الحتم غير مقيد بأى دافع يدعو إلى المساعدة المتبادلة ضد منافس مشترك . لذا أكل الأفراد الكبار طعام الصغار ، وإن لم يأكلوهم فعلا ، فكبرت أجسامهم أكثر وأكثر ، فسجل الصخور لا يظهر فيه دائماً فى نهاية كل فصل من فصوله إلا الأفراد الضخام .

ويدور كوكبنا ويتغير مناخه تغيرا يجعل سيد الخليقة القديم المفرط النمو غير متجانس . مع ما يحيط به من بيئة ، وإذن فلا مفر له من أن يذهب . والعادة - وإن لم يكن ذلك دائماً - أن يخلقه شكل للحياة مختلف تماما ولعله يصنع صنيع القروش فيتضاءل عدده حتى يدركه الطعام ، وعندئذ يعود إلى وفرة عدده الأولى ، وإن لم تكن الطبيعة قد أعدت بديلا منه . ومن المعلوم أن القروش وأشباهاها تعيش وتموت بعنف ولا يبقى منها شيء يصبح حفرة . ونحن نعرف أن هناك فى هذا العصر قروش هائلة تصطلى هى وأمثالها فى ضياء الشمس منذ عصور متعاقبة ، منذ أن وجد لها القدر الكافى من الأسماك تلتهمه وتغتذى به . فنحن فى ذلك كله نتخبط فى غياهب الحدس والتخمين .

النضج المبادر : إحدى وسائل البقاء

أنتجت الطبيعة فى لعبها الأبله بإمكانيات الحياة مستحدثات مباغتة فى السجل بزيادة سرعة إخصاب البويضة وإنضاجها بالنسبة للأطوار الأخرى من دورة الحياة . وينبغى ألا يذهب عن بالنا دائما فى مثل هذه المسائل أن مانرته إنما هو دورة حياة كاملة وليس شكلا ثابتا لبالغ ، وحدث المرة بعد المرة أن الطبيعة قد فصلت شكلا بالغا من السجل فصلا تاما وألقته وجعلت مرحلة اليرقة Larva الشكل الناجح تناسليا .

وجاء على السجل حين مبكر كانت سيدة الخليقة فيه الشويكيات Echinoderms والسمك النجمى وما إليها ، بما حوت من تكوين إشعاعى . ولم يكن لديها شيء من قوة التنقل الحركى فى أثناء طور بلوغها أو كان لديها منه قدر قليل ، كما كان الكثير منها كالزنبقيات Crinoids مثبتا فى الجذور وقد تحولت المزنرات Juncata هى وبعض

الأشكال الشعاعية الأخرى إلى إنتاج السليولوز، وكانت بارزة النزعة النباتية في طريقة عيشها وعاداتها . وكانت تلقى في الماء بيضها الخصب، وساعد على انتشار هذا البيض نشوء تكوينات إضافية صلب بها عود اليرقات المنقذفة على غير هدى ورهبت محركتها قوة دافعة مستقلة وسمى العمود الفقري لهذه الأشكال المنبعثة المتنقلة باسم الحبل الظهري Notochord كما أطلق اسم الحبلات على مشكلى الحياة المسميين الطبيعة الجديدة New Fore و«الطراز المتأخر Aft» الذى كان الحبل الظهري هو البشير الآذن بهما؛ سمي الحبلات Chordata كتمقيض لسلسلة الأشكال التى ليس لها حبل ظهري من أمثال السمك النجمى وقنفذ البحر وخيار البحر وهكذا دواليك . وكلها كانت سادة للخلقة في زمانها . ولا يخفى أن عالم الحيوانات الفقارية الضخم بأجمعه بما فى ذلك الإنسان يدين بوجوده لهذه النزوة التى أصابت الطبيعة ، ولم تسكن تنطوى على أى سبب عقلى بأى حال ، لقد حدثت هكذا وكفى .

يتبدى الحبل الظهري في تطور الحيوانات الفقارية جميعاً ، ولكن تغزوه وتحل محله في جميع الأشكال العليا مادة غضروفية أو عظمية ، وهو يظل في سمك الجريث Hagtsb والجلاسكيات Lampreys طول حياتها ، وهو يصل إلى موائدنا ممثلاً في هذا النوع الأخير .

الخصومة بين الهرم والشباب

ولعل هذا أنسب المواضع التى يستطيع كاتب هذه السطور أن يقول كلمة موجزة عن الصدام الذى لامفر من حدوثه والناشب الآن بينه وبين الشباب. إن المؤلف يتقبل حقائق الحياة هذه بهدوء واقتناع تام ولا يقبل لها أى شكل آخر ، ولكنه لا يعتقد أن أى شاب يصغر مثلاً عن سن الخامسة والثلاثين على أكثر تقدير سيتقبلها بنفس الروح التى يتقبلها بها . فإن كل شاب حتى قرابة ذلك السن فى حالة صراع من العالم ويبنى أن يحصل على ما يريد منه، فإن هو فعل ذلك فلا بد أن يكون شاباً ضئيل الحظ جداً من الحيوية حيث يظهر مثل ذلك الاستعداد للتسليم « وتقبل الأشياء على علاتها » .

ولكن كاتب هذه السطور يدلف في سنته التاسعة والسبعين ، بعد أن عاش عيش المرح واليسار وقد دفأ كلتا يديه على نار الحياة، وها هو الآن مستعد للرحيل عنها وقد أخذت تنحدر به في دور من العلة والوسوسة . وهكذا ينتظر خاتمة وهو يرقب البشرية وهي لا تزال متحمسة لاستخدام ما جمعه من خبرة استخداماً نافعاً يعينها في هذا الزمن زمن الاضطراب العقلي . ولكنها لا تكابد تلك القوة المتهورة التي تدفعها للوصول مع الحياة إلى نتيجة حاسمة ، وهو جزء ضروري من تكوين أى فئى سوى ذكرى كان أم أنثى .

وكل إنسان تجاوز فترة التكوين يحس نفس إحساسات المؤلف . فهو قد كون نفسه عندئذ . ومنذ تلك الساعة ظل هو وأمثاله من كبار السن يصوغون ويستكملون ويفصلون بكل بساطة صيغ الفكر التي صبوا فيها معتقداتهم ولكن مع زيادة معينة في الحدة في معظم الأحوال . وهو يميل إلى الظن بأن اهتمامه المتواصل بعلم البيولوجيا ربما كان السبب في اتصاله الوثيق بالحقائق الحية اتصالاً أوثق من اتصال السياسيين أو المضاربين الماليين أو رجال الدين أو رجال الأعمال الكثيرى المشاغل ، على أن ذلك ليس وسيلة رتق الصدع القائم بين المسنين والشباب . وسواء أكننا نحن المسنين نرقب ما حولنا بأمل أو بسوء نية ، بحسد أو بكرم خلق ، فإننا لانملك إلا أن نرقب ولانستطيع تجاوز ذلك . لقد عشنا بالضرورة أربعين تقريباً ، والشباب هم الحياة ، ولا يعقد أمل إلا عليهم .

ضوء جديد على سجل الصخور

سبق أن أشرنا (ص ٤) إلى أن دوران الأرض حول نفسها ودورتها السنوية في مدارها قد أخذت سرعتهم في الهبوط ، فكل ما اكتشفناه منذ أن كتبت مسودات تلك الفصول الأولى يؤكد الفكرة القائلة بأن امتداد العصور الباكورة لسجل الصخور (إذا هو قيس بدقة وضبط مائة الراديوم) لابد أن يلحقه تخفيض هائل يتناسب تماماً وسرعة العصر الكاينوزوى . أجل إن الأشكال هي نفسها لم يداخلها تغيير ، ولكن النسب مختلفة . وربما كان ذلك التباطؤ الدينى مستمرا وربما لم يكن كذلك ، على أن استمراره

هو الأرجح في نظر المؤلف . ولكن من يدري ؟ على أن أحوال حيوات الفرد والنوع . يلوح أنها كانت تتقلب سريعاً ومتسعيناً في تلك الأزمنة المندفعة .

ولسكننا على يقين من شيء واحد . وذلك أنه على الرغم مما اجتمع لنا من المجموعة الهائلة من الحقائق فإن حقيقة لم تستطع أن تلقى ظلاً من الشك على ما يسميه العلماء إلى الآن باسم « نظرية » النشوء والارتقاء العضوي . وعلى الرغم من عنيف الكذب والعواء الذي أذاعه المتقنون المتدينون ، فليس ثمة عقل يحكم النزعة العقلية Rational يستطيع أن يمس بأى سوء الطبيعة المنيعة لقضية النشوء والارتقاء . وهناك كتيب جدير بالإعجاب كتبه ا . م . دافيز وأسماء « النشوء والارتقاء وناقده المحدثون (١) » ولخص فيه هذه القضية تلخيصاً وافياً ومقنعاً . فإلى ذلك الكتيب ينبغي أن يلجأ القارئ الذي لا يجد مورداً جديراً بالثقة ينتهل منه .

أما الشيء الذي يظهر الآن بالفعل فهو تباطؤ هذه الحيوية الأرضية في سرعتها . ذلك أن السنوات والأيام أخذت تطول ؛ والعقل البشري لا يزال فعالاً ناشطاً يتعقب النهايات والموت ويدبر لهم الوسيلة .

وكاتب هذه السطور — مع تذكر سنه — يرى أن العالم منك خال من كل قوة تعيد إليه العافية ، وقد أبدينا في الأقسام السابقة من هذا الكتاب نزعة ترجو متلهفة أن يوفق الإنسان إلى التخلص مما يقيد من اشتباكات ويبدأ طوراً جديداً خلافاً للحياة الإنسانية . ولكن خاب الفأل في السنتين الأخيرتين إزاء ما تجلى منا من عدم كفاية عامة ، وجل محل التفاؤل ضرب من الاستخفاف الهادئ ، فكبار السن يسلكون في معظم أمرهم مسلكاً نسبياً يدعو إلى الاشمئزاز ، كما أن الشباب يتصف بالحماسة وسرعة الانفعال وسهولة الوقوع في شرك المضللين ، فلا بد للإنسان من أن يرتفع إلى السماء أو يهوى إلى الحضيض وكأنى بكل الظروف تعمل على ترديته إلى حضيض الهوة وإخراجه من مسرح الحياة فإن هو ارتفع إلى السماء كان التكيف المطلوب منه عظيماً يضطره ألا يظل إنساناً ؛ ولعلكم تذكر من العنواين الثاني لهذا الفصل أن الناس العاديين في أشد التوتر ؛ فليس فيهم من لعله يستطيع البقاء إلا أقلية قوية القابلية للتكيف ، فأما بقيتهم فهم قوم لن يهتموا بالأمر ، لأنهم يجدون أنواع المخدرات والعزاء التي يحبونها ، لذا ينبغي لنا

أن تحتتم هذا التأمل الفكرى حول الطور الأخير فى التاريخ العجيب للشىء الذى يسمونه الحياة باستعراض تعديلات النوع الإنسانى التى تحدث فى هذه الأيام .

تظهر الحيوانات الراقية كمخلوقات غابات تتصل بصلة القرى بمجموعات من أكلة الحشرات ، بدأت حياتها شجرية واكتسبت بين الأغصان حدة الأعين والتوافق العضلى ؛ كانت ميالة إلى العشرة وازدهرت ازدهارا واسعا ، حتى إذا حدث لها الازدياد المعتاد فى الحجم والوزن والقوة ، اضطرت إلى النزول إلى ظهر الأرض ، وقد بلغت آنذاك من الكبر ما يجعلها تستطيع أن تتحدى وتقال وتتفوق فى الدهاء والحيلة على آكلات اللحم الكبرى من أبناء عالم العابة ، وقد مكنتها هيئتها شبه القائمة من أن تلتصق على قدميها وتضرب أعداءها بالأحجار ، وهى سلاح جديد لم يسمع بمثله أضيف إلى الأسنان والمخالب . ولكن ميلها إلى التعاشر تناقص لأنها كانت آنذاك بحاجة إلى مساحات رحبية من المواد الغذائية . وذوى الصغار أمام الكبار ، وفقا لنمط الحياة القديم الأمد وطورت القرود العليا نظام العائلة الخاصة إلى مستوى عال . وعلى امتداد هذا الخط ساروا حتى أصبحوا مانرا حولنا فى الوقت الحاضر من غوريلا وشبانزى وأورانج يوتانج .

النار والسلاح

ولكن الوحوش الراقية تعرضت لظروف قاهرة أخرى خارج مناطق الغابات فى أثناء مرحلة تقلصت فيها تلك الغابات . فانتشرت مكانها متسعات ومساحات مليئة بالعشب والسهوب القاحلة . وتقلص مقدار الأطعمة المتخذة من الخضر ، لذا أصبحت الحيوانات الصغيرة واللحم بوجه عام جزءا متزايدا الأهمية فى الطعام . وكان أمامهم كما هو الحال دائما الاختيار بين بديلين : فإما التكيف وإلا فالهلكة ، وكان من حسن حظ سلسلة جديدة من أشكال الحيوانات الراقية أن نجت من مذبح عالمية لها . كانوا أكثر انتصابا من القرود العليا بالغلبة ؛ وكانوا يمحرون ويصطادون وأوتوا من الذكاء ما جعلهم يتعاونون فى صيدهم .

كانت هذه القردة الأرضية - هي الفصيلة البشرية Hominidae ، وهي سلسلة حيوانية جائعة وكاسرة . ولما كانت حيوانات تعيش في العراء ولها قدر كاف من الذكاء يجنبها الغرق كانت البقايا المنحصرة والدالة على ظهورها قليلة العدد متباعدة ولكن فيها الكفاية . فلئن لم يتركوا كثيراً من العظام ، لقد نثروا في العالم أدواتهم ، ذلك أن وضعها القائم حرر يديها وعينيها وأوجد بينهما تعاوناً أدق وأضبط ، كانت هذه الوحوش تتواصل بأصوات غليظة شاذة . كانت تستطيع القبض على المراتات والأحجار لتستخدمها في أغراضها . وكانت تطرق الأحجار العظيمة لتجعل لها شكلاً أكثر حدة ، فإذا تطاير الشرر بين الأوراق الجافة التي كان يحتمل بينها وظهرت النار الحمراء كالأزهار كان ظهورها هادئاً ومألوفاً بحيث في بيعث في قلبها الخوف ، ولم يكن أي كائن حي آخر قد شهد النار إلا في أثناء النكبات الباعثة الرعب في قلوب الحيوانات ، حيث كانت تتبع كل شيء دون رحمة ، وكانت الدببة - حتى دبة الكهوف - تفر من النار والدخان على حين أن الفصيلة البشرية اتخذت من النار صديقاً وخادماً . وكلما قرصها البرد أو هاجمها أعداؤها من أكلة اللحم ، قابلت ذلك بالزحف إلى داخل المغارات وأمثالها من الأماكن المستترة وتركت نيران الدار موقدة .

وهكذا سادت هذه الوحوش العظيمة الغليظة شبه الإنسانية وانتشرت في أثناء أطوار الزمهرير لعصور الجليد المتعاقبة . كانت تخرج للصيد بصيحاتها وحركاتها الغليظة الشاذة . وكانت وهي في شكلها البالغ أكثر وأثقل كثيراً من الإنسان ، فالأيدي الثقيلة التي اقتطعت من الصخر الأدوات الشليانية كانت أكبر من أية يد بشرية ، ويستطيع مهرة عمال الطران (الصوان) أن يصوغوا تلك الآلات الرفيعة نسبياً التي صنعها رجال العصر الحجري القديم المتأخر بمنتهى النجاح ، بيد أن الأداة الشليانية الزائفة لا تقل صعوبة وثقلاً عن أي آلة حجرية شبه إنسانية ، فالأداة الشليانية إنما هي قلب ظرانة عظيمة ، بينما الأداة الإنسانية التالية شطمة من قلب ظرانة بضربة .

يخرج المخلوق المسمى بالإنسان الماقل من بين الأنواع المبكرة للفصيلة البشرية خروجاً جليلاً جداً بوصفه فلتة أخرى من فلتات دورة الحياة نحو صورة طفلية ومشكل أكثر مرونة من الناحية البيولوجية ، وهي لمتات لعبت دوراً هاماً جداً في التاريخ . المتقلب للكائنات الحية ، وهو ليس المعادل للبالغ القبيح من إنسان هيدلبرج أو نياندرتال . وإنما هو وهو في أطوار الاستهلاكية الطفل التجريبي اللعوب القابل للتعليم السريع النضج .

الذى لا يزال مكلفاً بالخضوع الاجتماعي بعد أن يتجاوز حد البلوغ الجنسي ، ذلك أن أحوال الحياة الدائمة التغير يقل تسامحها آناً بعد آناً إزاء كل طور بلوغ نهائى وضخم ومستبد ولذا يتر هذا الطور من الدورة، فالإنسان البدائى البالغ الغليظ الضخم يخفى ويحل محله طراز أكثر منه شاباً ، طراز آخر مختلف تماماً كما بين السجل ذلك بجلاء تام، ولكن أطوار الانتقال وطريقته لا تزال موضع التأمل والبحث وجميع أنواع الإنسان العاقل تزواج وتتوالد ، وربما كان هناك تزواج وتوالد متواصل بين أبكر أنواع الجنس وربما عادت فترات من الانعزال بإنتاج أشكال أخرى محلية شبه نياندرتالية أو شبه زنجية أو شقراء أو قائمة أو طويلة أو قصيرة لا تزال قادرة على التزاوج والتوالد على نفس الشاكلة التى أنتج بها الكلاب عدداً لانهاية له من الأجناس التى تستطيع بسهولة أن تنهجن ، بل لا مفر لها من ذلك عندما تنهار الحواجز بينها ، وربما اقتتلت العائلات والقبائل فيما بينها وعما الظافرون مميزاتهم الفارقة بالتزاوج مع أسراهم من النساء . هذا وإن علم البشريات المقارن يحل ببطء معقدات قصة الطريقة التى ذوى بها الإنسان البدائى Homo الذى بلغ جنسه حد الكهولة والذى لم يعد لوجوده الآن ضرورة تاركاً من ورائه الإنسان العاقل الشبيه جنسه بالطفل ، الذى هو فى أحسن أحواله محب للاستطلاع قابل للتعلم ميال للتجريب من مهده إلى لحدده .

هذا وإن عبارة « فى أحسن أحواله » هى زبدة هذا القسم . أجل إن من الممكن أن تكون هناك اختلافات بعيدة فى مدى قابلية البشرية المعاصرة للتكيف العقلى ، ومن الممكن أيضاً أن كتلة البشرية المعاصرة قد لا تكون سهلة التقبل للأفكار الحديثة كعقول الأجيال الأبركر والأصغر منها والأكثر طفولة ، كما أن من المحتمل كذلك أن التفكير الخائل العميق الشديد لم يزد إلى الحد الذى يسير به امتداد الجماعات والمنظمات الإنسانية وتعقيداتها وتلك هى أحلك ظلال اليأس التى تسقط على آمال الإنسانية .

ولكن روحى ومزاجى يجعلاننى لا أشك مطلقاً كما قلت آنفاً فى أنه ستوجد تلك الأقلية الصغيرة التى ستوفق إلى تتبع الحياة حتى نهايتها .

جدول تاريخي زمني

أخذت الشعوب الآرية تستقر حوالى عام ١٠٠٠ ق. م في شبه الجزيرة الإسبانية وفي إيطاليا والبلقان ، كما أنهم كانوا مستقرين في تلك الأثناء بشمال الهند ؛ وكانت يد النديمير قد امتدت آنفا إلى كنوسوس ، كما أن عصور مصر المترامية ، عصور تحتس الثالث وأمينوفيس الثالث ورمسيس الثاني ، كانت ولت منذ ثلاثة قرون أو أربعة . وكان يحكم وادى النيل ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعاف . وكانت إسرائيل متعصدة في ذلك الأوان تحت حكم ملوكها الأوائل . وربما كان شاول أو داود أو لعله سليمان متربعا آنذاك على العرش . وفي ذلك العام كان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق. م) ملك الإمبراطورية الأكادية السومرية ذكرى مسجقة في التاريخ البابلي ؛ أبعد في عالمهم من بعد قسطنطين الأكبر من عالمنا الحاضر . وقد توفي حمورابي قبل ذلك بألف سنة . وصار الآشوريون متسلطين على البابليين الأقل صفات حرية . وكان تجلات بلسر الأول قد استولى في ١١٠ ق. م على بابل . ولكن لم يدم غزوه لها ؛ وكانت آشور وبابل لاتزالان إمبراطوريتين منفصلتين . أما الصين فكانت تزدهر فيها أسرة تشو الحديثة العهد ، وكان عمر ستون هنج بانجلتره في ذلك الأوان بضع مئات من السنين .

وشهد القرنان التاليان نهضة لمصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وتمزقت مملكة سليمان العبرانية القصيرة الأجل ، وانتشر اليونان ببلاد البلقان وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى وكانت أيام عظمة الأترسك بإيطاليا الوسطى . ونحن نبدأ قائمة التواريخ المحققة بالآنى :

قبل الميلاد	قبل الميلاد
الميدى . قورش يقهر كرويسوس	٨٠٠ بناء قرطاجنة
٥٥٠ بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان وكذلك أيضاً كونفشيوس ولاهوتسى	٧٩٠ غزو الإثيوبيين مصر (وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين)
٥٣٩ استولى قورش على بابل وأسس الإمبراطورية الفارسية	٧٧٦ إقامة أول أولمبياد ببلاد اليونان
٥٢١ حكم دارا الأول بن هستاسبس من الدردنيل إلى نهر السند . حملته على بلاد الإسكندريين (الروسية)	٧٥٣ بناء روما
٤٩٠ معركة ماراثون	٧٤٥ فتح نبلاث بلسر الثالث بابل وأسس الإمبراطورية البابلية الآشورية الجديدة
٤٨٠ معركة ثرموبيلاي وسلاميس .	٧٢٢ سلح سرجون الثانى الآشوريين بأسلحة من الحديد
٤٧٩ معركة بلاتيا وميكالى تنهيان طرد فارس	٧٢١ نقل الإسرائيليين من بلادهم
٤٩٤ الإغريق الصقليون يدمرون أسطول الأترسك	٦٨٠ أسرحدون يستولى على طيبة بمصر ويخلع الأسرة الخامسة والعشرين الإثيوبية
٤٣١ بدء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)	٦٦٤ استرجع أيسمانيك الأول حرية مصر وأسس الأسرة السادسة والعشرين (حتى ٦١٠)
٤٠١ تراجع العشرة آلاف	٦٠٨ نخاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا فى معركة مجدو
٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا	٦٠٦ استيلاء السكلدان والميديين على نينوى . تأسيس الإمبراطورية الكلدانية .
٣٣٨ معركة خايرونيا	٦٠٤ رد نخاو إلى نهر الفرات وتغلب نبوخذ نصر الثانى عليه (أرجع لبوخذ نصر اليهود إلى بابل)
٣٢٦ عبور الجند المقدونية إلى آسيا ومقتل فيليب	٥٥٠ خلف قورش الفارسى سياكسارس
٣٣٤ معركة جرانيسكوس	
٣٣٣ معركة إيسوس	
٣٣١ معركة أرييلا	
٣٣٠ مقتل دارا الثالث	
٣٢٣ وفاة الإسكندر الأكبر	

قبل الميلاد	قبل الميلاد
٢٠٢ معركة زاما	٣٢١ قيام شندرا چوبتا بالبنجاب :
١٤٦ تدمير قرطاجنة	السهنيور يهزمون الرومان تماما
١٣٣ وهب تالوس مملكة برجامة لروما	بمعركة مفارق كودين
١٠٢ صد ماريوس الألمان	Caudine Forks
١٠٠ انتصار ماريوس . (الصينيون	٢٨١ غزا بيروس إيطاليا
يفتحون وادي نهر تاريم)	٢٨٠ معركة هرقليا
أصبح الإيطاليون جميعاً مواطنين	٢٧٩ معركة أسكولم
رومانيين	٢٧٨ أغار الغالة على آسيا الصغرى
٧٣ ثورة الرقيق بقيادة سبارتا كوس .	واستوطنوا غلاطية
٧١ هزيمة سبارتا كوس ونهايته	٢٧٥ بيروس يغادر إيطاليا
٦٦ يومي يقود الجيوش الرومانية إلى	٢٦٤ الحرب البونية الأولى (بدأ حكم
بحر قزوين ونهر الفرات . ويلتقي	أسوكا بإقليم بهار حتى ٢٢٧)
بقبائل الآلاني .	٢٦٠ معركة ميلاي
٤٨ هزم يوليوس قيصر يومي عند	٢٥٦ » إكنوموس
فاراسالوس	٢٤٦ أصبح شي هوانج تي ملكا على
٤٤ مقتل يوليوس قيصر	تس ان
٢٧ تعيين أوغسطس أميرا (حتى ١٤	٢٢٠ صار شي هوانج تي إمبراطورا
ب . م .)	للصين
٤ التاريخ الحقيقي لمولد يسوع الناصري	٢١٤ بدء بناء سور الصين الأعظم
	٢١٠ وفاة شي هوانج تي

بعد الميلاد	بعد الميلاد
يقضى على الأسرة الأرشكية بفارس	بدء الحقبة المسيحية
٢٤٢ بدأ مانى تعاليمه	١٤ وفاة أوغسطس ، وتولية الإمبراطور تيرىوس
٢٤٧ عبر القوط الدانوب فى غارة كبيرة	٣٠ صلب يسوع الناصرى
٢٥١ نصر عظيم للقوط ، مقتل الإمبراطور ديكىوس	٤١ كلودىوس (أول إمبراطور تعينه السكرتائب) يوليه الحرس البريتورى العرش بعد مقتل كاليجولا
٢٦٠ سابور الأول ثانى شاه ساسانى استولى على أنطاكية ، وأسر الإمبراطور فاليريان ، ويقطع عليه الطريق أثناء عودته أوذينا سيوس ملك تدمر	٦٨ انتحار نيرون (تولى جالبا وأوتو وفتيلوس على التعاقب)
٢٧٧ صلب مانى بفارس	٦٩ الإمبراطور فسبازيان
٢٧٤ أصبح دقلديانوس إمبراطوراً	١٠٢ بان تشو على بحر قزوين
٣٠٣ اضطهد دقلديانوس المسيحيين ،	١١٧ هادريان يخلف تراچان الإمبراطورية الرومانية فى أوسع مدى بلغته
٣١١ جالوريوس يتخلى عن اضطهاد المسيحيين	١٣٨ (كان الهندو اسكيديون يقضون عندئذ على آخر آثار الحكم الهلىنى بالهند)
٣١٢ أصبح قسطنطين الأكبر إمبراطوراً	١٦١ ماركوس أوريليوس يخلف أنطونيوس بيوس
٣٢٣ قسطنطين يرأس مجلس نيقيا	١٦٤ بدأ الطاعون الكبير ، وامتداده حتى وفاة ماركوس أوريليوس
٣٣٧ تعميد قسطنطين على فراش موته	(١٨٠) ، كما أنه أفسد آسيا كلها (بدأ فى الإمبراطورية الرومانية قرن من الفوضى والحرب)
٣٦١ - ٣٦٣ حاول جوليان الكافر أن يحل المثرائية محل المسيحية	١٢٠ نهاية أسره هان ، بدأ عصر انقسام بالصين دام ٤٠ سنة
٣٩٢ ثيودسيوس الأكبر إمبراطور للشرق والغرب	٢٢٧ أردشير الأول أول شاه ساسانى
٢٩٥ وفاة ثيودسيوس الأكبر ، أعاد هنوريوس وأركاديوس تقسيم	
(٢٨ — تاريخ العالم)	

بعد الميلاد	بعد الميلاد
٥٢٧ الإمبراطور جستنيان	الإمبراطورية تحت حماية
٥٢٩ جستنيان أغلق مدارس أثينا ،	ستيليكو وآلاريك
بعد أن ازدهرت حوالى ألف	٤١٠ استيلاء القوط الغربية بقيادة
عام ، استولى قائد جستنيان على	آلاريك على روما
نابلى	٤٢٥ الوندال يستقرون فى جنوب
٥٣١ بدء حكم كسرى الأول	أسبانيا ، والهون فى پانونيا
٥٤٣ الطاعون الأعظم بالقسطنطينية	والقوط فى دالماشيا ، والقوط
٥٥٣ طرد جستنيان القوط من	الغربية والسويفى فى البرتغال
إيطاليا	وشمال أسبانيا ، والإنجليز
٥٦٥ وفاة جستنيان ، وغزا اللومبارد	يغزون بريطانيا
معظم شمال إيطاليا (تاركين	٤٣٩ الوندال استولوا على قرطاجنة
رافا وروما لبيزنطة .)	٤٥١ أغار أتيلا على بلاد الغالة وهزمه
٥٧٠ مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم	الفرنجة ، الأليمانى والرومان
٥٧٩ وفاة كسرى الأول . يسود	عند ترويس
اللومبارد فى إيطاليا	٤٥٣ وفاة أتيلا
٥٩٠ الطاعون يفتك فى روما بشدة	٤٥٥ نهب الوندال روما
بدء حكم كسرى الثانى	٤٧٦ أودواكر الملك على خليط من
٦١٠ بدء حكم هرقل	القبائل التيو تونية يبلغ
٦١٩ مصر وبيت المقدس ودمشق بيد	القسطنطينية أنه لا إمبراطور
كسرى الثانى وجيوشه تطل على	بالغرب ، نهاية الإمبراطورية
الدردنيل . بدء حكم أسرة تانج	الغربية
بالصين	٤٩٣ ثيودوريك القوطى الغربى يفتح
٦٢٢ الهجرة	إيطاليا ويصبح ملكا عليها ،
٦٢٧ هزيمة الفرس الكبرى عند نينوى	ولكنه خاضع إسمياً للقسطنطينية
على يد هرقل ، أصبح تاي تسنج	(ملوك قوط فى إيطاليا ، والقوط
إمبراطوراً للصين	ينزلون أرضاً خاصة يصادرونها
٦٢٨ قباذال الثانى يقتل أباه كسرى الثانى	بوصفهم حامية)

بعد الميلاد

- ويخلفه على العرش ، محمديكتب
الرسائل إلى كل حكام الأرض
٦٢٩ عودة محمد إلى مكة .
٦٣٢ وفاة النبي ، تولية أبوبكر الخلافة
٦٣٤ معركة اليرموك . المسلمون
يستولون على سوريا . عمر
يصبح الخليفة الثاني
٦٣٥ تاي تسنج يستقبل مبشرين من
النساطرة
٦٣٧ معركة القادسية
٦٣٨ بيت المقدس تسلم للخليفة عمر
٦٤٢ وفاة هرقل
٦٤٣ عثمان الخليفة الثالث
٦٥٥ هزيمة الأسطول البيزنطي على
يد المسلمين
٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية مدينة
القسطنطينية بحراً
٦٨٧ بيبين الهرميتالي يعيد توحيد
استرازا ونومستريا
٧١١ غزا جيش المسلمين أسبانيا من
إفريقيا
٧١٥ أملاك الخليفة الوليد الأول
تمتد من جبال البرانس إلى بلاد
الصين
٧١٧ — ٧١٨ سليمان أخو الوليد
وخليفته يفشل في الاستيلاء على
القسطنطينية
٧٣٢ هزم شارل مارتل المسلمين قرب
بواتيه

بعد الميلاد

- ٧٥١ بيبين يتوج ملكاً على فرنسا
٧٦٨ وفاة بيبين
٧٧١ شرلمان هو الملك الوحيد
٧٧٤ » يفتح لومباردى
٧٨٦ هرون الرشيد هو الخليفة العباسي
ببغداد (حتى ٨٠٩)
٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (حتى ٨١٦)
٨٠٠ ليو يتوج شرلمان إمبراطوراً
للغرب
٨٠٢ إجبرت الذي كان لاجئاً إنجلترا
ببلاط شرلمان ، يثبت نفسه على
ملكه وسكس
٨١٠ كروم البلغارى يهزم ويقتل
الإمبراطور نقفور
٨١٤ وفاة شرلمان
٨٢٨ أصبح إجبرت أول ملك لإنجلترا
٨٤٣ وفاة لويس التقي ، وتمزق
الإمبراطورية الكارلوفينجية ،
لم يكن هناك تعاقب منتظم على
عرش الدولة الرومانية المقدسة
حتى عام ٩٦٢ ، وإن ظهر اللقب
بين الفينة والأخرى
٨٥٠ وحوالي ذلك الزمن أصبح
روريك (وهو نورمانى) حاكماً
على نوجورود وكييف
٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحي لبلاغاريا
(حتى ٨٨٤)
٨٦٥ أسطول الروس (النورمان)
يهدد القسطنطينية

بعد الميلاد	بعد الميلاد
١٠٨٤ نهبروبرت جويسكاردا النورمانى مدينة روما	٩٠٤ الأسطول الروسى (النورمانى) خارج القسطنطينية
١٠٨٧-١٠٩٩ أصبح إربان الثانى بابا	٩١٢ رودلف الجانجر يؤسس مملكة بنورماندى
١٠٩٥ دعا إربان الثانى إلى الحملة الصليبية الأولى بمدينة كليرمونت	٩١٩ هنرى الصياد ينتخب ملكا على ألمانيا
١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبية الشعبية	٩٣٦ أوتو الأول يخلف أباه هنرى الصياد فى عرش ألمانيا
١٠٩٩ جودفرى البويونى يستولى على أورشليم	٩٤١ عاد الأسطول الروسى إلى تهديد القسطنطينية من جديد
١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية	٩٦٢ أوتو الأول ملك ألمانيا يتوج إمبراطورا (وهو أول إمبراطور سكسونى) بيد البابا يوحنا الثانى عشر
١١٦٩ صلاح الدين يصبح سلطانا على مصر	٩٨٧ هيو كابت أصبح ملكا على فرنسا انتهاء سلالة الكارلوفنجيين من الملوك الفرنسيين
١١٧٦ فردريك بربروسا يعترف بسيادة البابا إسكندر الثالث بالبندقية	١٠١٦ أصبح كانت ملكا على إنجلترا والدنمرك والنرويج
١١٧٧ صلاح الدين يسترد بيت المقدس	١٠٤٣ الأسطول الروسى يهدد القسطنطينية
١١٨٩ الحملة الصليبية الثالثة	١٠٦٦ وليم دوق نورماندى يفتح إنجلترا
١١٩٨ تولية البابا إنوسنت الثالث (حق ١٢١٦) . أصبح فردريك الثانى ملك صقلية تحت وصايته (وعمره أربع سنوات)	١٠٧١ انتعاش الإسلام تحت حكم الأتراك السلاجقة ، معركة ملاذجرد
١٢٠٢ الحملة الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية	١٠٧٣ أصبح هلدبراند بابا (باسم البابا جرمورى السابع حتى ١٠٨٥)
١٢٠٤ استيلاء اللاتين على القسطنطينية	
١٢١٤ سقطت بكين بيد جنكيز خان	
١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسى (مؤسس جمعية الفرنسيسكان)	
١٢٢٧ وفاة جنكيز خان بعد أن كان خانا من بحر قزوين إلى المحيط الهادى وخلفه أوجداى خان	

بعد الميلاد	بعد الميلاد
المغوليه، وتولية أسرة منج (حق) (١٦٤٤)	١٢٢٨ شرع فردريك الثانى فى الحملة الصليبية السادسة وحصل على أورشليم
١٣٧٧ عودة البابا جريجورى الحادى إلى روما	١٢٤٠ دمر المغول مدينة كيف
١٢٧٨ الصدع الأعظم بالكنيسة ، مع وجود إربان السادس بروما وكلنت السابع بأفنيون	الروسيا تصبح تابعة للمغول
١٣٩٨ هس يبشر بمذهب ويكليف فى براغ	١٢٤١ انتصار المغول عند ليجنيز بسيليزيا
١٤١٤ - ١٤١٨ مجمع كونستانس . هس (١٤١٥)	١٢٥٠ وفاة فردريك الثانى آخر إمبراطور من أسرة هوهنشتاوفن . العرش الألمانى شاغر حق ١٢٧٣
١٤١٧ انتهاء الصدع الأعظم	١٢٥١ أصبح مانجوخان هو الخان الأعظم أصبح قوبلاى خان حاكما للصين
١٤٥٣ الأتراك العثمانيون يفتحون القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثانى	١٢٥٨ هولاكو خان يستولى على بغداد ويدمرها
١٤٧٠ إيفان الثالث ، غراندوق موسكو منذ الولاء للمغول	١٢٦٠ أصبح قوبلاى خانا أعظم .
١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثانى وهو يستعد لفتح إيطاليا	١٢٦١ استولى اليونان على القسطنطينية ثانية من اللاتين
١٤٨٦ برثميودياز يدور حول رأس الرجاء الصالح	١٢٧٣ انتخب رودلف آل هابسبرج إمبراطورا . كون السويسريون حلفهم الدائم
١٤٩٢ عبر كولبس الأطلسى إلى أمريكا	١٢٨٠ أسس قوبلاى خان أسرة يوان بالصين
١٤٩٣ أصبح مكسيمليان الأول إمبراطورا	١٢٩٢ وفاة قوبلاى خان
١٤٩٨ فاسكو دى جاما يسير إلى الهند حول رأس الرجاء	١٢٩٣ وفاة روجربا كون نبي العلم التجريبي
١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية	١٣٤٨ الطاعون الأعظم : الموت الأسود
١٥٠٠ مولد شارل الخامس .	١٣٦٠ فى الصين سقوط أسرة يوان

بعد الميلاد	بعد الميلاد
١٥٦٦ وفاة سليمان القانوني .	١٥٠٩ هنري الثامن على عرش إنجلترا
١٦٠٣ جيمس الأول يصبح ملكا على إنجلترا واسكتلندا .	١٥١٤ ليو العاشر يصبح بابا
١٦٠٧ جيمس تون يسكنها الإنجليز	١٥١٥ فرنسيس الأول ملك فرنسا
١٦٢٠ بعثة السفينة ماي فلور تأسس مدينة نيوبليموث : نزول أول الزنوج بجيمس تون .	١٥١٩ يقطع ماجلان للطواف حول العالم .
١٦٢٥ شارل الأول على عرش إنجلترا	١٥٢٠ صار سليمان القانوني سلطانا (حتى ١٥٦٦) ، يحكم من بغداد إلى الحجر شارل الخامس يصبح إمبراطورا
١٦٢٦ وفاة السير فرنسيس باكون (لورد فريولام)	١٥٢٥ بابر يلتصر بمركة بانبيات ، ويستولى على دلهي ويؤسس الإمبراطورية المغولية .
١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام ٦٢ سنة بفرساي .	١٥٢٧ استولى الجنود الألمان بإيطاليا . بقيادة كونستابل بوربون على روما وعاثوا فيها فسادا
١٦٤٤ أنهى المانشو حكم أسرة منج	١٥٢٩ حاصر سليمان فيينا
١٦٤٨ معاهدة وستفاليا ، وبها اعترف بهولندا وسويسرا بجمهوريات حرة وأصبحت لبروسيا أهمية ، ولم تعط المعاهدة نصرا تاما للتاج الإمبراطوري ولا للأمرأ .	١٥٣٠ شارل الخامس يتوجه البابا بدأ هنري الثامن خلافه مع البابوية
١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك إنجلترا	١٥٣٩ تأسيس جمعية اليسوعيين
١٦٥٨ أصبح أورانجزيب المغولي الأعظم . وفاة كرومويل	١٥٤٦ وفاة مارتن لوثر
١٦٦٠ تولى شارل الثاني على إنجلترا	١٥٤٧ إيفان الرابع الرهيب يتلقب بلقب قيصر روسيا
١٦٨٤ نيو أمستردام تصبح بريطانية نهائيا بحكم معاهدات أبرمت وتسمى نيويورك	١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش . أكبر يصبح المغولي الأعظم (حتى ١٦٠٥) ، وفاة إغناطيوس ليولا
	١٥٥٨ وفاة شارل الخامس
	١٥٥٨ - ١٦٠٣ حكم الملكة إليزابيث

بعد الميلاد	بعد الميلاد
١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا الدستوري ينشئ الحكومة الاتحادية للولايات . يتضح إفلاس فرنسا	١٦٨٣ آخر هجوم للأتراك على فيينا يصده يوحنا الثاني ملك بولندا
١٧٨٨ أول كونجرس اتحادى بالولايات المتحدة يعقد في نيويورك	١٦٨٩ بطرس الاكبر قيصر روسيا (حتى ١٧٢٥)
١٧٨٩ اجتماع مجلس الطبقات الفرنسى هدم الباستيل	١٧٠١ فردريك الأول ملك ابروسيا
١٧٨٩ جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الامريكية	١٧٠٧ وفاة أورانجزيب . تمزيق إمبراطورية المغولى الاكبر
١٧٩١ فرار لويس إلى فارن	١٧١٣ مولد فردريك الاكبر البروسى
١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا معركة فالمى . أصبحت فرنسا جمهورية	١٧١٥ لويس الخامس عشر ملك فرنسا ١٧٥٥ - ١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا تتقاتلان على أمريكا والهند ، فرنسا متحالفة مع النمسا والروسيا ضد بروسيا وانجلترا (١٧٥٦)
١٧٩٣ قتل لويس السادس عشر	١٧٦٣- حرب السبع سنوات
١٧٩٤ مقتل روبسبير وانتهاء جمهورية اليعاقبة	١٧٥٩ الجنرال ولف البريطانى يستولى على كوبيك
١٧٩٥ حكومة الإدارة ، قضى بونابرت على إحدى الثورات وعين قائداً عاماً فى إيطاليا	١٧٦٠ تولى جورج الثالث عرش بريطانيا
١٧٩٨ دخل بونابرت مصر ، معركة النيل	١٧٦٣ معاهدة باريس . تسليم كندا لبريطانيا ، سيادة البريطانيين على الهند .
١٨٩٩ عودة بونابرت إلى فرنسا ، حيث أصبح قنصلاً أول يستمتع بسلطات هائلة	١٧٦٩ مولد نابليون بونابرت
١٨٠٣ شراء لويزيانا	١٧٦٩ بدء عهد لويس السادس عشر
١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطوراً ، فرنسيى الثانى يتخذ لقب إمبراطور النمسا فى ١٨٠٥ ثم	١٧٧٦ إعلان الاستقلال فى الولايات المتحدة الأمريكية
	١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية الجديدة

بعد الميلاد

أسقط لقب الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ١٨٠٦ وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية المقدسة ١٨٠٦ هزيمة بروسيا في معركة يينا ١٨٠٨ عين نابليون أخاه جوزيف على أسبانيا .

١٨١٠ استقلال جمهوريات أمريكا لاسبانية ١٨١٢ تقهر نابليون من موسكو ١٨١٢ - ١٨١٥ الحرب بين الولايات المتحدة وانجلترا .

١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش ، تولية لويس الثامن عشر

١٨٢٣ صدور مبدأ مونرو ١٨٢٤ تولية شارل العاشر ملكا على فرنسا .

١٨٢٥ تولى نيقولا الأول على روسيا إنشاء أول سكة حديد من استوكتن إلى دارلنجن

١٨٢٧ معركة نوارين

١٨٢٩ استقلال اليونان

١٨٣٠ عام اضطراب وفوضى . لويس

فيليب طرد شارل العاشر . انفصال

بلجيكا عن هولنده . أصبح

ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوتا

ملكاً على هذه المملكة الجديدة

وهي بلجيكا . القسم الروسي من

بولنده يشور ثورة فاشلة

بعد الميلاد

١٨٣٥ استعمال لفظة « الاشتراكية » لأول مرة

١٨٣٧ تولية الملكة فكتوريا

١٨٤٠ تزوجت الملكة فكتوريا ألبرت

أمير ساكس كوبرج جوتا

١٨٤٦ - ١٨٤٨ الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك

١٨٥٢ أصبح نابليون الثالث إمبراطوراً على فرنسا

١٨٥٣ اشترت جاذدن وبها تمت رقعة الولايات المتحدة بقارة أمريكا

١٨٥٤ - ١٨٥٦ حرب القرم

١٨٥٦ القيصر إسكندر الثاني الروسي

١٨٥٩ غارة جون براون على هاربرفري

١٨٦١ الملك فكتور ممانويل أول ملك

لايطاليا أصبح أبراهام لنكولن

رئيساً للولايات المتحدة . بدء

الحرب الأهلية الأمريكية

١٨٦٥ التسليم عند أبوماتوكس كوت

هاوس ، اغتيال لنكولن . فتح

أبواب اليابان للعالم

١٨٦٧ الولايات المتحدة تشتري آلاسكا

من روسيا

١٨٧٠ أعلن نابليون الثالث الحرب

على بروسيا

١٨٧١ (يناير) سلمت باريس . أصبح

ملك بروسيا إمبراطوراً لالمانيا

صلح فرانكفورت

بعد الميلاد	بعد الميلاد
الأزمة	١٧٧٨ معاهدة برلين . ابتدأت بأوروبا الغربية هدنة مسلحة دامت ٣٦ سنة
١٩٣٠ ظهور حزب هتلر بمظهر القوة بالريشستاغ الألماني	١٨٨٨ أباطرة ألمانيا فردريك الثاني (مارس) وغليوم الثاني (يونيه)
١٩٣١ الأزمة المالية ببريطانيا العظمى والتخلي عن معيار الذهب . عصبة الأمم ترفض السماح بقيام اتحاد جمركي بين ألمانيا والنمسا .	١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية
صارَت أسبانيا جمهورية	١٩١٧ الثورتان الروسيتان . تأسيس النظام البلشفي بالروسيا . دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية في صف الحلفاء
١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة مانشوكو . انتخب فرانكلين روزفلت رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية	١٩١٨ الهدنة
١٩٣٣ الإجازة العامة للبنوك بالولايات المتحدة . انتخاب روزفلت للمرة الأولى . النار بالريشستاغ ببرلين والانقلاب النازي ، أصبح هتلر ديكتاتوراً لألمانيا . المؤتمر الاقتصادي العالمي بلندن يفشل . خرجت اليابان على العصبة في أبريل وألمانيا في أكتوبر	١٩٢٠ أول اجتماع لعصبة الأمم ، التي منعت منها ألمانيا والنمسا والروسيا وتركيا ، ولم تمثل فيها الولايات المتحدة
١٩٣٤ دخلت روسيا عصبة الأمم . اغتيال كيروف	١٩٢١ تجاهل اليونان عصبة الأمم وواصلوا الحرب مع الأتراك
١٩٣٥ عودة السار إلى ألمانيا . الحبشة تلجأ إلى عصبة الأمم على إيطاليا دون جدوى . حرمان اليهود من حقوق المواطنة الألمانية وحظر زواجهم بالآريين	١٩٢٢ هزيمة اليونان الكبرى بآسيا الصغرى على يد الأتراك . زحف الفاشيين على روما
	١٩٢٤ وفاة لينين
	١٩٢٧ تفاهم الحلاف بين ستالين وتروتسكي ، ونفي تروتسكي من البلاد
	١٩٢٨ ابتداء أول مشروع الخمس سنوات بالروسيا
	١٩٢٩ الذعر في سوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة وابتداء

بعد الميلاد

١٩٣٦ وفاة الملك جورج الخامس .
فتح إيطاليا للحبشة فعلا . ثورة
فرانسكو بأسبانيا . تنازل
الملك إدوارد الثامن الإنجليزي
عن العرش

١٩٣٧ حصار مدريد وإصابة قوات
الحكومة الأسبانية بالإنهاك
تدريجيا

١٩٣٨ غزت ألمانيا بلاد النمسا وضمتها
إليها دون مقاومة مسلحة

١٩٣٩ نشوب الحرب العالمية الثانية
١٩٤٠ احتلت ألمانيا النرويج والدانمرك

وهولندة وبلجيكا . سقوط
فرنسا ، وانضمام المجر ورومانيا
وسلوفاكيا للمحور . الإيطاليون
يقشلون في غزو بلاد اليونان .
تشرشل يرأس الوزارة البريطانية
روزفلت ينتخب للمرة الثالثة
رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية
أجرت بريطانيا قواعد الأطلسي
للولايات المتحدة . اغتيال
تروتسكي بالمكسيك

١٩٤١ تقلبات الحرب بشمال أفريقيا .

تقدم البريطانيون في ليبيا ١٩٤١
ثم انسحبوا ثانية في الربيع ،
وتقدموا في نوفمبر وانسحبوا
مرة ثانية في ربيع ١٩٤٢ .

بعد الميلاد

انضمت بلغاريا إلى المحور .
احتلت ألمانيا بلاد اليونان
ويوغوسلافيا وكريت ، تحرير
الحبشة البريطانيون والفرنسيون
يحتلون سوريا . ألمانيا تغزو
الروسيا (٢٢ يونيه) . ميثاق
الأطمنطي . احتلال البريطانيون
والروس لإيران سقوط كييف
بيد الألمان . فشل هجوم الألمان
على موسكو . هاجمت اليابان
الولايات المتحدة . أعلنت
الولايات المتحدة الحرب على
ألمانيا

١٩٤٢ سقوط سنغافورة . فتوح
اليابانيين في المحيط الهادي
وبورما . معركة جزيرة مدواي
هجوم رومل في ليبيا أوصل
الألمان إلى مصر . معركة مصر
بالعلمين . نزول البريطانيون
والأمريكان بشمال أفريقيا .
ظلت تونس بأيدي الألمان
حتى ١٩٤٣ ، عندما طهر شمال
إفريقية تماماً . اغتيال الأدميرال
دارلان الفرنسي في الجزائر .
سقوط مبابتبول بيد الألمان
الذين دخلوا بلاد القوقاز
ولكنهم أوقفوا عند ستالينجراد

بعد الميلاد	بعد الميلاد
انتخاب روزفلت للمرة الرابعة. الأمريكيون ينزلون بالفلبين ١٩٤٥ تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط . وفاة روزفلت . ٦ أغسطس قنبلة هيروشيما الذرية . ٩ أغسطس قنبلة ناجازاكي الذرية. الروسيا تعلن الحرب على اليابان استسلام اليابان رسمياً ٢ سبتمبر. ميثاق سان فرانسيسكو بإنشاء هيئة الأمم المتحدة بمنظمتها : الجمعية العامة ومجلس الأمن لتحقيق السلام العالمى ١٩٤٦ إنشاء هيئة اليونسكو أى منظمة التربية والعلوم والثقافة	١٩٤٣ مؤتمر الدار البيضاء . الإصرار على التسليم بلا قيد ولا شرط . احتلال الإنجليز والامريكان لتونس . غزو صقلية . غزو إيطاليا . تقدم الأمريكيين في الباسيفيكي . يسترد الروس خركوف وسمولنسك وكييف . مؤتمر كوبيك . مؤتمر طهران . ١٩٤٤ نزول الحلفاء في فرنسا . تحرير فرنسا وبلجيكا . الحلفاء يحاربون على حدود ألمانيا . تحرير اليونان زحف الروس خلال رومانيا وبلغاريا إلى بلاد المجر ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا

إجبرت ٢١٤	(١)
أوجدای خان ٢٣٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦	أبراهام (إبراهيم) ٩٦ ، ٩٢ ، ٩٠ ،
أجزر سیدس ١١٣ ، ١٠٨ ، ١٠٧	٣٣٧ ، ٢٠١ ، ١٧٤ ، ٩٨
أجلشورب ٣٨١	أبسماتيك ٨٣
أدب شعبي (فوكلور) ٤٥	ابن رشد ٢٣٢
آدمز ٣١٨	أبو بكر ٢٠٣ ، ٢٠٢
إدواكر ١٨٩	أبولونيوس ١١٧
أدوات حجرية ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٢	الإيباني (الطريق)
إراتوستينز ١١٧	أبيس ١٦٨
الأراضي المنخفضة	الاتحاد الألماني ٢٩٥
إربان الثاني ٢٢٠	اتحاد الولايات الأمريكية الجنوبية ٣٢٩
إربان السادس (البابا) ٢٣٤	الأتراك السلجوقيون ٢٢٣ ، ٢٢٠
أردشير الأول ١٥٧ ، ١٩٤	الأتراك العثمانيون ١٢٩ ، ١٥٥ ، ١٩٥
أرستاجوراس ١٠٨	الأترسك ٧١ ، ٧٥ ، ٨١ ، ١٣٤ ،
أرسطوطاليس ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ،	١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦٣
١١٧ ، ١١٩ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ،	أنكسنون (ج . ج .) ٤٦ ، ٣١٤
٢٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،	أنكسنون (س . ف .) ٢٨٩
٢٩٩ ، ٣١٢	أتو
الأرشكية (الأسرة) ١٥٧	أتيلا ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
أرشميدس ١١٧	١٩٧
أركاديوس ١٨٤ ، ١٨٨	إثناسيوس (عقيدة) ١٧٩
آريوس ١٧٩	أثينا ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
الآريون ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ،	١١٦ ، ١٣٠ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ،
٩٥ ، ١٠٥ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ،	١٦٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣
١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٩٧ ،	الأيوبية ٧٣
الأرض ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ١٥ ،	أحاب ٩٣
٢٧	

آسيا ٣٧ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ١٥٨	الآزوى ٩
٢٠٠	الأزيلية - الأزيلون ٤٤ ، ٤٩ ، ٦١
الاشتراكية (الاشتراكيون) ٣ ٣	أساطير ٧١ ، ٥٠
٣١٦	أسبارتا كوس ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٢
أشعيا ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤	أسبانيا ٣٨ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٦٩ ، ٧١
أشور (دولة) ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٢	٩٥ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٩٢
٨٣ ، ٨٩	٢٠٦
أشقانيون (بارثيون) ١٢٠ ، ١٥٠	إسبرطة ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٨
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٩٧	١٦٢
أشور بانيبال (انظر سارداناپالوس)	أستراليا ٢٥
الإصلاح الدينى ٢٥٣	الأسر البابلى ٢٢١
إعلان الاستقلال ٢٨٤	إسرائيل (مملكة) ٩٩
أشجار ٦٥	الإسكندر الأكبر ١١١ ، ١١٢
أغناطيوس دى ليولا ١٥٣	١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٢٦
الإغريق ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٩٥	١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٥٥
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦	١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢٢٢ ، ٢٤٥
١٠٩ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٦١	الإسكندر الأول قيصر روسيا
١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٠٦ ، ٢٤٤	٢٩٢
الإغريق (فلاسفة) ٩٩ ، ١٠٣	الإسكندر الثالث (البابا) ٢٢٤
١٠٤ ، ١٣٠ ، ١٤٤	الإسكندرية ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧
الإغريقية (العلوم) ٢٠٦	١١٩ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٧١
آفبورى ٨١	١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣
الأفثاليون ١٥٨	الإسكنديون (الأشقوذيون) ٧٤
إفريقيا ٤٠ ، ٥٣ ، ٧١ ، ١٦١	٨٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ٢٣٨
أفلاطون ١١٠ ، ١١١ ، ١٣٠ ، ١٩٢	الإسلام ١٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
٢٤٨ ، ٣١٢	٢٢١ ، ٢٢٣
الإقطاع ٢١٠ ، ٢٦٦	أسوكا ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٨
إقليدس ١١٧	١٥٧

الإمبراطورية الرومانية المقدسة ٢١٥	الأكاديون ٦٦ ، ٩٥
٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣	إكبتانا ٨٤
٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٣١٨	أكبر ٢٣٩ ، ٢٧٦
الإمبراطورية العثمانية	إكسينوفون ١١٦
الإمبراطورية الميذية ٨٦	أوكتافيوس (أوغسطس) ١٥٢
أمريكا ٩ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٦	ألاريك ١٨٤ ، ١٨٦
أمريكا الشمالية (هنود) ٤٢	الألب ٢٧
الأمريكية (القبائل) ٥٦ ، ٥٧	ألفريد الأكبر ٢١٤
أمسوخ ١٦	ألمانيا ١٥٥ ، ٢٣٠
أمنحوتب ٧٣	ألمبياس (الملكة) ١١٣
أناجيني ٢٣٣	آلهة الرومان ١٦١
الأنبياء ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٣٠٠	إله الشمس الفارسي ١٦٧
أنبياء العبرانيين ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٥	الآلهة المصرية ١٦٧ ، ١٦٨
١٦٧ ، ٢٠١ ، ٢٢١	الإلياذة ١٠٠
أنتيغوناس ١١٥	إليزابيث (الملكة) ٢٦٨ ، ٢٧٦
إنجلترا ٣٢ ، ٢٢٩ ، ٢٦٨	إليوت سميت ٥٢
الإنسان البدائي ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨	الإمبراطورية الآشورية ٧٧ ، ٨٩
٥١ ، ٥٠	٩٥
الإنسان الحق ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠	الإمبراطورية الأكادية ٦ ، ٨٣
٤٤	الإمبراطورية البابلية الأولى والثانية
إنسان روديسيا ٣٦ ، ٤٠	٦٦ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٢٢٠
الإنسان القردى القائم ٣٣	الإمبراطورية البريطانية ٣٣٤
إنسان هيدلبرج ٣٣ ، ٣٥	الإمبراطورية البيزنطية ١٩٢ ، ٢٢٠
إنسان نياندرتال (انظر نياندرتال)	٢٢٣
أنطاكية ١٩٥ ، ٢٠٤	الإمبراطورية الحديثة بمصر ٧٣
أنطونيوس ١٥٢	الإمبراطورية الرومانية ١١٣ ، ١٤٤
أنطونينوس بيوس ١٥٢	١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩
أنطوخوس ١٤٠	١٧٢ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ، ٢٢١
الاتقلاب الصناعي ٣٠٧ ، ٣٠٨	٢٣٧ ، ٣٠٨
الاتقلاب الميكانيكي ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧	

إيزيس ١٦٨	٣١٧ ، ٣٠٨
إيسكيلوس ١٠٩	أنكساجوراس ١٠٩
إيطاليا ٧١ ، ٧٥ ، ١٠٥ ، ١٣٤	أنكسيمندر ١٠٣
١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٣٠	أنونيس ١٦٨
الإيطاليون (اللغة الإيطالية) ١٦١	إنوسنت الثالث ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠
إيفان الرابع ٢٧١	إنوسنت الرابع (البابا) ٢٣١
إيفان الأعظم ٢٧١	أهرام الجيزة ٥٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٦
(ب)	أهل الشمال (انظر) (النورمان)
باباوات روما ١٩١ ، ٢١٢	أوجزبرج (صلح) ٢٥٨
بابر ١٣٩ ، ٢٧٦	الأوديسيا (أوديسيوس) ١٠٠
بابل (بابلي) ٥١ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣	أورانوس ٤
٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠٥	أوربا ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٣
١٠٨ ، ١٦٧ ، ٣١٥	٦٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٠
البابلية (الإمبراطورية) ٦٤ ، ٨٣	أورشليم ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥
٨٧	٩٧ ، ١٠٥ ، ١٤٢ ، ١٧٣ ، ١٩٥
البارود ٢٣٦ ، ٢٦٦	٢١٩
باريس ٢٨٧	أورليان (الإمبراطور) ١٥٩
الباستيل ٢٨٧	أوزيريس ١٦٨ ، ١٧٩
باسك (باشكس) ٦٩ ، ٨١	أوسكولوم ٣٦
باكون (روجر) ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٩٨	أوغسطس (قيصر) ١٦٠ ، ١٧٢
باكون (السير فرانسيس) ٦٦	الأولياد ١٣٥
باليوزوى ١٤	الأولمبية (الألعاب) ١٠٢ ، ١١٢
باليوليثي (انظر العصر الحجري القديم)	١٣٤
بين ٢١١	إيبرت (الرئيس)
البحر الأحمر ٣٧ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ١٥٥	إيبيري (الجنس) ٥٤
البحر الأسود ٣٧ ، ٥٤ ، ٧١ ، ٧٥	الإيجية (الشعوب والحضارة) ٦٩
١٥٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥	٨٢ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٣٣
	١١٧
	إيزابلا (الملكة) - (انظر فرديناند)
	إيزوقراطيس ١١٢

البلاشفة (الاشتراكيون) ٣٥٩ ، ٣٦٠
 بلدوين الفلندري ٢٢٣
 البلبييان ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥
 بنارس ١٢٤
 بنش (الدكتور) ٣٨٧
 البنادقة (البندقية) ٢٩٥
 برنج (مضيق) ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٨
 بوانسكاريه
 بوث (جون) ٣٢٨
 بوذا (انظر جوتاما بوذا)
 البوذية ١٣١ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٦
 بوجوين (الجنرال) ٢٨٤
 بوغ ١٨
 بولس الرسول ١٦١ ، ١٨٧ ، ١٧٩
 ١٨٠
 بوليفاد (الجنرال) ٢٩٣
 بومبي الاكبر ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦
 بونيفاس الثامن (البابا) ٢٣٣
 بوبي الثاني ٦٣ ، ٣٠٦
 بيت المقدس ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤
 ٢٣١ ، ٢٤٦
 بيتان (المارشال)
 بيرو ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦
 بيروس ١٣٦
 بيزارو ٢٥٠
 بيزنطة-البيزنطى ١٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٥
 ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨
 بيكونزفيلد (اللورد) ٣٣٦
 (ت)
 التاوية (العقيدة) ١٣١ ، ١٧٨

بحر المانش ٣٧
 البحر المتوسط ٢٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤
 ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ١٣٤ ، ١٥٤
 ١٥٦ ، ١٨٨ ، ٢٤٠
 بخارى ٢٠٦
 بدايات الحياة ١٢٦٩
 بدرو (الاول) ٢٨٥
 البرازيل ٢٨٥
 برجامة ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٠
 البردى ١١٩
 برسيبوليس ١١٤ ، ١٢٠
 بركلييس ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤٣
 برمائيات ١٧ ، ١٨٦ ، ٢٠
 برهانية (العقيدة) ١٢٧
 بروسيا (مملكة) ٢٧٠
 برى (القومودور)
 بريطانيا العظمى ١٦١
 بساو (معاهدة) ٢٥٩
 بسممر (هنرى) ٣٢
 بعل مردوخ ٨٣
 بغداد ٢٠٦ ، ٢٤٠
 البطارقة ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥
 البطالة ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢
 بطرس الاكبر ٢٧١
 بطرس الناسك ٢٢١ ، ٢٢٢
 بطليموس الاول ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨
 ١١٩ ، ١٦٩
 بطليموس الثانى ١١٩
 بلاد العرب ٦٩

تسكيف ١٨ ، ٢٤	تأنيج (أسرة) ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٣٦
التوراة ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ،	تاي تسنج ١٩٩ ، ٢٠٢
١٤٢ ، ٩٧	التتار ١٢٩ ، ١٥٥ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ،
تيريوس قيصر ١٥٢ ، ١٧٢	٢٢٧
تيمورلنك ٢٣٩ ، ٢٧٩	تجارة ٦٨
توحيد الآلهة (انظر مزج) ١٦٧ ،	تجار الرقيق العرب ٣٣٩
٢٦٥ ، ١٦٨	تجلات بلسر الثالث ٨٢ ، ٨٣
(ث)	تحتمس ٨٣ ، ٩٩ ، ١١٤
الثدييات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ،	التحليل النفسي ٤٥
٤٦ ، ٣١	تراجان ١٥٢
ثقافة العصر الشمسي الحجري ٥٢ ،	تراقيا ١٠٦
١٣٣ ، ١٢٨ ، ٨١ ، ٥٤	تروتسكي ٣٦٠
الثورة الفرنسية ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٣١٥ ،	تريفيثيك ٢٩٩
٣٣١	التريوبيت ١٠
ثيودورا (الإمبراطورة) ١٩٢	تس ثن ١٣٢ ، ١٥٤
ثيودوريك ١٩٠	تسمانيا (التسمانيون) ٤٤
ثيودوسيوس ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،	تشانج تسولن ٤٧٤
١٨٩ ، ١٩٠	تشاو (أسرة) ١٢٩ ، ١٣٢
(ج)	تشراتا ٧٤
جالريوس (الإمبراطور) ١٨١	تشرشل (ونستون)
جالفاني ٣٠١	تشمبرلن (نيفل) ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،
جبال روكي ٢٧	٣٨٨ ، ٣٨٢
جرافيت ١١	تشوئو ١٣٢
جرانت (ي . س) ٣٤٧	التطور الفكري ٣١١
جريجوري الأول (البابا) ٢٢٤	تفكير (انظر فكر)
جريجوري السابع (البابا) ٢٢٠ ، ٢٢٤ ،	تقدم العلوم ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ إلخ
٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨	تقويم ٥١
(٢٩ — تاريخ العالم)	تكساس ٣٢٦

(ح)

الحبشة ٣٧٥ ، ٣٧٦
حتشبسوت (الملكة) ٧٥
الحرب الأسبانية
الحج ٢٠٢
حرب الاستقلال الأمريكية ٢٨٤ ،
٢٩٣
الحرب الأهلية الأمريكية ٢٢٨
حرب البليونيز ١١١ ، ١١٢
حرب الثلاثين سنة ٢٧٠
الحروب الروسية التركية ٣٣٣
الحرب العالمية ٣٦٩
الحرب البونية ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،
١٦٣ ، ١٩٠
الحروب الصليبية ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣١ ،
٢٤١ ، ٢٣٩
حروب الفرس ١٠٥ ، ١٠٨
حزازيات ١٩ ، ٢٦
الحزب الشيوعي ٣٥٧
حزب العمال البريطاني ٣٥٧
حزقيال ٩٧
حشرات ١٦ ، ٢٠ ، ٢٤
الحضارة الدارفيدية ٨١ ، ١٢٩
الحضارة الرومانية ٣٠٧ ، ٣١٠
الحضارة الكريتية الإيجية ٧٠ ، ٨٢ ،
١٨٨

جريجورى التاسع (البابا) ٢٣٠ ، ٢٣١
جريجورى الحادى عشر (البابا) ٢٣٤
الجريمالى (الشعب) ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٩
جزويت (انظر يسوعيون)
جستنيان الأول ١٨٦ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
١٩٥
جلبرت (الدكتور) ٢٦٦
جليد ١٥ ، ١٦
الجماعة البشرية ٤٥
الجمعية الفلورنسية ٢٦٦
الجمعية الملكية بلندن ٢٦٦ - ٢٩٨
الجمعية الوطنية ٢٨٧ ، ٢٨٨
الجمهورية الرومانية ١١٥ ، ١٤٨ ، ١٧٨
الجلس النوردي ٥٧ ، ٦٦
جنسريك ١٨٦
جنكيز خان ٢٣٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٥ ، ٢٧٩
جوبلز (بول) ٣٨٧
جوتاما بوذا ١٠٤ ، ١٣١ ، ١٢٢ ،
١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ،
١٣٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
جوجورثا ١٤٩
جورج الثالث ٢٦٨ ، ٢٨٢ ، ٣٠٦
جوركي (مكسيم) ١٦٣
جورنج (هرمان) ٣٧٥ ، ٣٧٦
جوستاف أدولف ٢٧٥
جون لوك ٣١٢
جييون (ادوارد) ١٨٩
جيمس الأول ٢٦٧
جيولوجيا (جيولوجيون) ٩ ، ٣٢

دقلديانوس (الإمبراطور) ١٤٥ ،
 ١٨٢ ، ١٨٠
 دمشق ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،
 دنكرك
 دنكين (الجنرال) ٣٥٧
 دوجلاس (ستيفن) ٣٢٧
 دولة مدينة ٦٤
 دولة الروم الشرقية ٢١٩
 الدولية (الشيوعية) ٣١٣ ، ٣١٨ ،
 ٣٢١
 دومينيك (القديس) ٢٣٥
 الدومينيكيون (الرهبان) ٢٢٧ ، ٢٢٤
 ديجول (الجنرال)
 ديدالوس ٧٠
 ديفو (دانيال) ٣٠٨
 ديكوس (الإمبراطور) ١٥٨
 الدين ٤٧ ، ٤٨
 ديناصور (انظر عظايا) ٢١ ، ٢٣ ،
 ٢٥
 ديونيسوس ١٣٠
 (ر)
 رب (ربة) ٤٧
 رانسبون (مجلس دايت) ٢٥٧
 راسبوتين ٢٧٤ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧
 رالف العداء ٢١٤
 رجل (انظر إنسان)
 رستم ٢٠٤
 رعاة (انظر هكسوس)

حضارة الملايا ٧٨
 حضارة ماوراء النهر ١٦٦ ، ١٦٧
 الحفريات ٩ ، ١١
 حلف شملكلد ٢٥٧
 حمورابي ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٩٠
 حورس ١٦٨
 الحياة ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٢٦
 الحيثيون ٧٣ ، ٧٤ ، ٨١
 حيرام (الملك) ٩٢ ، ٩٥
 الحيوانات ١٢
 الحيوانات العليا

(خ)

خويصات ١٦
 خياشيم ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(د)

دارا الأول ٨٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦
 دارا الثالث ١١٣ ، ١١٩
 دافيز جفرسون ٣٢٦
 دالاديه
 دانوتزيو ٣٧٢
 دانيال النبي ٨٦
 الدارفيديون ٥٤
 دستور الجنوب

ريشليو ٢٧٦	رغوية (نباتات) ١١
رينو (بول) ٣٨٩	الرق (رقيق - أرقاء) ١٠٢ ، ٧٧
(ز)	١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٥ ، ١٧١
زافيير (فرنسيس) ٣٤١	رمسيس الثاني ١١٤ ، ٧٣
زاما (معركة) ١٤٠	روبرت لي ٣٤٧
زحل ٤	روبسيير ٢٩٠ ، ٢٩١
زرادشت ١٩٤ ، ٢٠٦	روجر الأول (ملك) ٢٢٩
زراعة ٤٩ ، ١٦٢	روداف آل هابسبرج ٢٣٣
الزمن الآزوى ٢٠	روزالت (فرانكاين) ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣
الزمن الباليوزوى ١٠ ، ٢٠ ، ٢٢	الروس ٢١٤
الزمن الكاينوزوى ٢ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢	الروسيا ٥٤ ، ١٠٥ ، ١٥٥ ، ١٥٨
الزمن الميزوزوى ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣١	١٨٨ ، ٢١٥
الزواحف ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٩	روما ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥٤
زورق بخارى ٣٠٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٤	١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢٥٢
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩	الرومان ٨٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤
الزهرة ٤	١٩٢ ، ١٩٣
زينوفون (انظر اكسينوفون)	رومانيا
زيوس ١٦٩	الرومانى (القانون) ١٠٥
(س)	الرومانية (الآثار) ١٦٦
الساحر الطبيب ١٤	الرومانية (الجمهورية) ٣١٠
ساردانيا بالوس ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤	الرومانية (الحضارة) ٣٠٧ ، ٣١٠
ساسان (آل ساسان) ١٥٧ ، ١٩٢ ، ١٩٤	الرومانية (الديانة) ١٦٦ ، ١٧١
١٩٤	رومولوس أوغسطولوس ١٩٠ ، ٢١٦
سالرنو (مدرسة الطب) ٢٣٢	ريبنتروب ٣٨١
	ريش ٢٣

سلطان مصر ٢٣٢ ، ٢٤٢
 سلوقوس ١١٥ ، ١٢٦
 السلوقيون ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٤ ،
 ١٥٦ ، ١٦١
 سليمان ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥
 سليمان القانوني ٢٥٥ ، ٢٥٧
 سمث (آدم) ٣١٨
 سمث (ايليوت)
 سمر فيل (الأميرال)
 سمك ١٤ ، ١٧ ، ٢٩
 سنحاريب ٧٤
 السنسكريتية ٧٢ ، ٨١
 سوبوطاي ٢٣٨
 سوريا ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
 ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،
 ٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩
 سومر (السومريون) ٦ ، ٦١ ، ٦٢
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٥ ، ١٢٨ ،
 ١٤٤
 سوفكليس ١٠٩
 السوفييت ١١٠
 سوى (أسرة) ١٩٧ ، ١٩٨
 سوينتون (لجنة) ٣٩٠
 سوينتون (اللورد) ٣٩٠
 سياخار (أنظر كيا كسارس)
 سيرا قوزة ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٣٧ ، ١٣٨
 سيقان ورقية (أنظر خوبصات) ١٦
 ٢١ ، ٢٤
 ميلوري ١٤

الساميون (الأجناس السامية) ٦٧
 ٦٩ ، ٧١ ، ٩٥ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ،
 ١٩٧
 سبتيجوس سيفيروس ١٦١
 سبيون الأفريقي الأسن ١٤٠ ، ١٤٥
 ستالين ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
 ٣٨١ ، ٣٨٤
 سترزي مان (الدكتور) ٣٦٩
 ستون هنج (نصب) ٥٣ ، ٨١
 ستيفنتسون (جورج) ٢٩٩
 ستيليكو ١٨٤ ، ١٨٨
 سحالي (انظر عظايا)
 سجعفريد (خط) ٢٨٣
 سجل الصخور ٩ ، ١٠ ، ١٢٠ ، ١٦
 ١٩ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٨ ، ٢٩٩
 سليم ٦
 سراييس ١٦٩
 سراييس ايزيس (عقيدة) ١٦٩
 سرجون ٦٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٥
 سرجون الثاني ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣
 سرخس ١٦ ، ٢٠ ، ٢١
 السفسطائيون ١١٠
 السفن (بناء) ٦٨
 سقراط ١١٠
 السكك الحديدية ٣٠٠ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
 سكوت (ميشيل) ٢٢٢
 سلا ١٤٩ ، ١٩١
 السلاجقة (الأتراك) ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤
 السلاحف

شيشروان ١٥١	(ش)
شيشنق ٩٣	شاءول : ٩٢ ، ١٧٨
شى هوانج تى ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٥٣	شاءول الطرموسى ١٦٠
١٥٤	شارل الأول (الملك) ٢٥٢
الشيوعية ٣٢١	شارل الثانى ٢٦٩
الشيوعيون ٣١٧	شارل الخامس (الإمبراطور شرلكان)
(ص)	٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
الصخور الطباقية ٩	٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
الصدع الأعظم ٢٣٤ ، ٢٥٠	شارل العاشر ٢٩٤
صقلية ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،	شارل مارتل ٢١١
١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٨٦ ، ٢٣٢ ،	شانج (أسرة) ٧٨ ، ١٢٩
(الصقليتين ٢٥٤)	شاندرا جوبتا موريا ١٢٦
صلاح الدين ٢٢٣	شبه الإنسان ٣١ ، ٢٢ ، ٣٣٠
صنيات صن : ٣٧٤	شبه زنجى (نجرىدى) ٤٢ ، ٥٥
صنيج (امبراطورية) : ٢٣٦	شبه المغول انظر المغولى (شبه)
صور الصخور : ٤٣	شركة الهند الشرقية البريطانية ٢٨٢ ،
صيد ٤٥	٢٣٤
الصين ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ١٢١ ،	شرلمان ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،	٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ،
٢٣٦ ، ٢٤٥	٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢
الصين (تاريخ) : ٧٨	الشعر ٢٤
(ط)	الشعوب البحرية ٦٨
الطابور الخامس (نشاط)	الشعوب المترحلة ٦٤
طاليس ١٠٣ ، ١٢٥	الأشغانيون (الملوك) : ١٠٧
الطباعة ١١٩ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٦٧	الشمس ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٥
٢٦٩	شمشون ٩٠
طحلب (طحالب) ١٠ ، ١٥ ، ١٦	

العصر الحجري القديم ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ،
 ٣٠٦٤٩
 عصر الرواسب الفحمية ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ،
 عصر الزواحف ١٩ ، ٢٠ ، ٢٥٦ ،
 ٣١
 عصر الفوضى ١٢٩
 عصر المستنقعات ١٧
 العصور الوسطى ٢١٣
 عطار د ٤
 عظاما (بأنواعها) ٢١ ، ٢٢ ، ٢٥ ،
 ٢٦
 عقارب ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ،
 علماء الآثار ٣٤
 علماء السلالات البشرية ٣٦
 العلوم ٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،
 العموريون ٦٦
 العمونيات ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
 عناكب ١٦
 عيسى ٢٢١
 العهد القديم ٥١ ، ٨٠ ،
 العيلاميون ٦٦ ، ١٣٣

(غ)

الغالة ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،
 ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٦١ ،
 الغال ١٥٩
 غليوم الثاني (الإمبراطور) ٢٨٧

طروادة ١٠٠
 الطوفان ٦٨ ، ٩٠
 طيبة ١٠٧٦١

(ع)

العالم ٦ ، ١٢
 العالم الروماني واللاتيني ١٨٥ ، ٢١٠ ،
 ٢١٣
 عالم المسيحية ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ،
 عاموس ٩٧
 العبرانيون ٧٥ ، ٩٢
 العرب ٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢١٥ ،
 ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٤١ ،
 بلاد العرب ٢٠٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ،
 العربية (اللغة) ١٩٦ ، ٢٠٦ ،
 عشب ١٥ ، ١٩
 عصبة الأمم ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢ ،
 العصر الآزوي ١٦
 عصر الأسماك ١٦
 العصر الباليوزوي السفلي ١٣ ، ٢٠ ،
 عصر الثدييات ٢١ ، ٣٠ ،
 العصر الجليدي ١٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٤٦ ،
 ٤٠ ، ٢٨
 العصر الحجري الحديث ٤٤ ، ٤٩ ،
 ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٨ ،
 العصر الحجري الشمسي ١٦٩

فرنسيس الأسيسى (القديس) ٢٢٧ ،

٢٣٤

الفرنسيسكانيون (الرهبان) ٢٢٧، ٢٣٤،

فريزر . ج . ج ٥٠

الفزيو قراطيون ٣١٣

فقاريات ١٠ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢١ ،

٢٩

فكر ٤٥ ، ٤٦ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١٢١ ، ٢١٩ ، ٢٧٣

الفلسطينيون ٧٥ ، ٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ،

فلسفة - فلاسفة ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٣٢ ،

٢٤١

فلك ٦ ، ٥٦ ، ٥٩

فلك نوح ٦٨

فن (فنون) ١٧٢ ، ٢١٩ ،

فنج (الجنرال) ٣٧٤

فنلند ١٩٧

فوركلور (انظر أدب شعبي)

فولتير ٢٧٤

فيشر (لورد) ٣٥٦

فيكتوريا (الملكة) ٣١٨ ، ٢٣٥ ،

فيليب (الثانى) ٢٥٩

فيليب (دوق أورليان) ٢٩٤

فيليب المقدونى (أمير هيس) ٢٥٨

فيليب المقدونى ١١٢ ، ١٣٦ ،

الفينيقيون ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ،

١٤٢ ، ٩٦

فيومى ٢٧٤

فيينا ٢٤٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،

٢٩٨ ، ٢٣٥

(ف)

فاراداي (ميشيل) ٣٠١

فارس (فرس) ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٦ ،

١٢٨ ، ١٤٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨

فاسكودى جاما ٢٧٥ ، ٢٨٠

الفاشست ٣٧١

فالتون (روبرت) ٣٠٠

فالتز (الإمبراطور) ١٨٤

فرعون (الفراعنة) ٦٣ ، ٨٠ ، ١٠٣ ،

١٦٨

فرانكو (الجنرال) ٣٧٠

فردريك الثانى (الإمبراطور) ٢٢٤ ،

٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،

٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٠

فردريك الثالث ٢٥٤ ، ٢٧٠

فردريك بروسا ٣٢٤

فرديناند (الملك) ٢٤٠ ، ٢٤٨ ،

٢٥٤ ، ٢٥٩

فرديناند (الإمبراطور) ٢٥٩

فرساي ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦

الفرنجة (قبائل) ١٥٩

فرنسا ٣٨ ، ٤١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ،

٢٥٧

فرنسيس الأول (فرانسوا) ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٢٥٧

القوط الغربية : ١٣٣ ، ١٣٥

(ك)

الكاثوليكية (الكنيسة) ١٩١
 كارل ماركس ٢١٧
 الكارلوفنجيين (أسرة الملوك) ١١٧
 كاليجولا ١٥٢
 كامبانلا ٣١٢
 كانتوت ٢١٤ ، ٢١٥
 كاهن (السكانة) ٥١ ، ٥٢ ، ٥٩
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٦٠ ،
 ١٧٦ ، ٢٠٢
 الكاينوزوى (الزمن) : ٢٠ ، ٢٨
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
 كتابة ٦٠ ، ٦١ ، ١٠٠ ، ١٣٤
 الكتاب المقدس العبرانى ٢٤٤ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٢
 الكتابة المسارية ٦١
 الكتابة الهيروغليفية
 الكتابة بالصور ٦١
 كراسوس ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٦
 الكرملين ٣٦٠ ، ٣٦١
 الكرنك ٧٦
 الكرمانيون ٤٢ ، ٤٩
 كرويسوس ٨٦

(ق)

القاهرة ٢٠٦
 قباز ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٢
 قبلاى خان ٢٣٨ ، ٢٤٦
 القرآن ٢٠٢ ، ٢٠٦
 قربان ٥٠ ، ٥١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٢١
 ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٦٦
 ١٦٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٢
 قرطاجنة (قرطاجيون) ٦٩ ، ٧٧
 ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٣٤ ، ١٣٦
 ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
 ١٤٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠
 قسطنطين ١٤٥ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،
 ١٨٤ ، ١٩٤
 القسطنطينية ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٠
 ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣
 ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦
 قشريات ١٠
 قمبيز ١٠٥
 القمر ٤ ، ٧ ، ٨
 قورش ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٥
 القوط ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٤ ، ١٩٢
 ٢١١
 القوط الشرقية ١٣٣ ، ١٣٥

كوليس (كرستوفر) : ٢٤٧ ، ٢٤٨
 ٢٨٢
 الكومنتايج ٢٥٨
 كومينوس (الكسيوس) ٢٢
 كونستانس مجمع ٢٥٠
 كونفشيوس ١٠٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠
 ١٣١
 الكونكرد (معركة) ٢٨٤
 الكويكبات ٤
 كيا كسارس ٨٣
 كيروف ٣٦٠
 الكيمياء (علم) ٢٠٨
 الكيميائيون القدماء ٢٠٨ ، ٢٠٩
 ٢٤٢

(ل)

اللاتينية (الإمبراطورية) ٢٦٧ ، ٢٧٥
 اللاتينية (الكنيسة) ٢١٦ ، ٢٢٠
 ٢٢٣ ، ٢٤٩ (إصلاح) ٢٥٠
 اللاتينية (لغة وشعوب) ٧٢ ، ١٦١ ،
 ٢٤٦
 لانجلي (الأستاذ) ٣٠٥
 لاهوتسي (لاوتسي) ١٠٤ ، ١٢٨
 ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢
 لبيدوس ١٥٢
 لتفينوف ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢
 لتوانيا
 اللغة الإنجليزية ٧٢
 لفوف (الأمير) ٣٥٥

كرينسكي ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧
 كسرى الأول ١٩٥
 كسرى الثاني ١٩٥
 كلايف (روبرت) ٢٧٦
 الكلث (البريشونيون والجويديليون
 الخ) ٨١
 الكلدان ٨٣ ، ٨٤
 كلنت الخامس (البابا) ٢٣٤
 كلنت السابع (البابا) ٢٣٤
 كاوديوس ١٥٢
 كلوفس ٢١١
 كليوبطرة ١٥١
 كمال (مصطفى) ٢٦٨ ، ٢٦٩
 كن (إمبراطورية) ٢٣٦ ، ٢٣٧
 كندا ٢٣٤ ، ٢٧٥ ، ٣٢٥
 كنعان ٩٠ ، ٩٢
 كنج (جورج) ٣٩١
 كنوسوس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،
 ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٩
 الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية
 ١٧٨
 الكواكب ٦
 كورتيز ٢٥٩
 كورنواليس (الجنرال) ٢٨٤
 الكوشان (أسرة) ١٥٨
 الكولاك ٣٥٨
 كولتشاك (الأميرال) ٣٥٧

ماجنو (خط) ٣٨٣
 مارأتون ١٠٦ ، ١٠٧
 مارتن الخامس (البابا) ٢٣٥
 ٢٥٠
 مارشان (السكولونيل) ٢٣٩
 مارك أنطون
 ماركو أنطوان ١٥٢
 ماركو بولو ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
 ماركو أوريليوس ١٥٢
 ماريوس ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٩١
 الماركسية (كارل ماركس)
 ٣١٧
 مازارين ٢٦٨
 ماكولى (اللورد) ١٤٥
 مانجو خان ٢٣٨
 مانى ١٩٤ ، ٢٢١
 ماهافى (الأستاذ) ١١٧
 مايا ٥٦ ، ٥٩ ، ١٢٨
 متاكساس (الرئيس) ٣٩٢
 متعف الإسكندرية ١١٦ ، ١١٧
 ٢٠٨ ، ١٣٨
 مترا ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٩
 المثرائية (العقيدة) ١٦٩ ، ١٧٨
 المجر (المجرىون) ١٦١ ، ١٧٨
 محار ١١ ، ١٤
 محمد (النبي) ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١
 ٢٢١ ، ٢٠٣

لكسمبرج ٣٨٧
 لكسنجتون (معركة) ٢٧٥
 لندن ١٤٥
 لىكولن (أبراهام) ٣٢٨ ، ٣٢٩
 لوثر (مارتن) ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥
 ٢٦٧ ، ٢٥٨
 لودندرف (الجنرال) ٣٧٦
 لوزان (معاهدة) ٣٦٨
 لوكريتيوس ٢٤١
 لوكولوس ١٤٩
 لويد جورج ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
 لويس الورع ٢١٧
 لويس الرابع عشر (الملك) ٢٦٩
 ٢٧٠ ، ٢٨٩
 لويس السادس عشر ٢٨٧
 لويس الثامن عشر ٢٨٧
 لويس فيليب ٢٩٤
 ليديا ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٤٠
 لينين ٣٥٦ ، ٣٥٧
 ليو الثالث (البابا) ٢١٦
 ليو العاشر (البابا) ٢٥٥
 ليوبولد الأول ٢٩٦
 ليوبولد (ملك البلجيك) ٣٨٧
 ليوناردو دافنشى ٢٩٩
 ليونيداس ١٠٧
 (م)
 ماجلان ٢٤٨

١٣٦ ، ١٣٥
 المسكايون (الأمراء) ١٤٢
 مكتبة الإسكندرية ٢٠٤
 مكسمليان (عاهل المكسيك)
 ٣٣٢
 مكسمليان الأول (الإمبراطور)
 ٢٥٤ ، ٢٥٥
 المكسيك ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩
 ٢٦٦
 مكة ٢٠١ ، ٢٠٢
 ملبورون ١٩١
 ملتون ١٠٠
 الملوك الفرنسيين (عظمة) ٢٢٣
 ٢٣٤
 ملن (الجنرال) ٣٥٨
 ممل ٣٨١
 مملكة السموات (مذهب) ١٧٣
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨
 منتسيكو ٣١٢
 منج (أسرة) ٢٣٩ ، ٢٧٨
 مور (السير توماس) ٣١٢
 موسى ٩٠ ، ٩٢
 موسوليفي (بنيتو) ٣٧١ ، ٣٧٢
 ٣٨٨ ، ٣٩١
 مولوتوف ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠
 مونزو (الرئيس) ٢٩٣
 مونزو (مبدأ) ٢٢٩
 ميتاني ٧٤

محمد الثاني ٢٣٩
 المحظورات ٤٦
 المحيط ٨ ، ٥
 المخروطيات ١٩ ، ٢٦
 المربخ ٤
 المسيحية ١٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٣
 ٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٧٢
 المسيحية اللاتينية ٢٨٠ ، ٢٨٥
 المسلمون ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢٣٩
 مسوري ٣٢٥
 مسينا ١٣٧ ، ١٣٨
 مسيناي ٨٢
 مسينيوس ٦٣
 المشتري ٤
 مشروع السنوات الخمس بالروسيا ٢٥٩
 مصر (مصريون) ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣
 ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ١٢٨
 ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٩٢
 ١٩٣ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٣١
 معرفة ٥١ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ٢٦٥
 المغول ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ١٢٩ ، ١٣٣
 ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٧٨
 المغولي (شبه) ٥٢
 المغولية (الشعوب) (الفتوح) ١٥٥
 ١٩٧ ، ٢٣٦ (الإمبراطورية ٢٧٦)
 مقدونيا (المقدونيون) ١٠٢
 ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ ،

اليدىون ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٥ ،

١٠٥ ، ١١٤ ، ٢٠٠ ، ١٣٣

ميشيل السابع ٢٢٠

ميخائيل الثامن (الملك) ٢٣٣

مينوس ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٣

(ن)

نابولى (جامعة) ١٣٥ ، ١٣٦

نابوليون الأول ٢٦٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ ،

٢٩١ ، ٢٢٥

نابوليون الثالث ٢٣١

نابونيداس ٨٤ ، ٨٦

النازية ٣٧١

نبات ٢٣ ، ٢٧

نبتيون ٤

نبوخذ نصر ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ١٤٤ ،

نجرىدى (انظر شبه زنجى)

النجوم ٤٠٥

نخاو الثانى ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١١٤ ،

نرفانا ١٢٤

النرويج ٣٨٥ ، ٣٨٦

النشوء والارتقاء العضوى

النصرانية (انظر مسيحية)

النفاس الزائف ٥٣

نلسن (الأميرال) ٢٩٢

النمسا ٣٧٩

نوجارت (غليوم دى) ٢٣٤

نوردى ٥٥ ، ٧٩ ، ١١٩ ، ١٢٩ ،

١٣٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨

نورماندى ٢١٤ ، ٢١٨

نورمبرج (صلح دىنى) ٢٥٨

نوميديا (النوميديون) ١٤٠ ، ١٤٩ ،

نياندرتال (النياندرتاليون) ٣٥ ، ٣٦ ،

٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٧

نيرون ١٥١

نيقولا الأول ٢٩٦ ، ٣٣١

نيوى ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ١١٤ ،

١٩٥ ، ١٩٨

نيوزيلنده ٣٢٧

النيولىثى (انظر العصر الحجري الحديث)

(ه)

آل هابسبرج (أباطرة) ٢٥٥

هاتور ١٦٨

هادريان ١٥٢ ، ١٥٣

هارولد (ملك انجلترا) ٢١٨

هارولد هاردرادا (ملك النرويج)

٢١٨

هاستنجس (معركة) ٢١٨

هاستنجس (وارن) ٢٧٦

هاكون الأول (الملك) ٣٨٥

هان (أسرة) ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،

١٩٧

الهوتلتوت ٤٢
هولاكو خان ٢٣٨ ، ٢٣٩
هولنده ٣٨٦
هوميروس ١٠٠
الهون ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٥٨ ،
١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٧ ،
٢١٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨
الهونية (الشعوب) ٦٦ ، ١٥٥
هونوريوس ١٨٤ ، ١٨٨
هونوريوس الثالث (البابا) ٢٣٠
آل هوهنزولرن ٣٦٩
آل هوهنشتاوفن ٢٣٢
هياكل عظيمة ٤٣
هيبارخوس ١٢٢
هيرودوت ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٢
الهيروغليفية ٦٢ ، ٩٧
هيوفيلوس ١١٧
هيرون ١١٧ ، ١٣٩
هيستاسبس ٨٨
هيوكابت ٢١٧

(و)

واط (جيمس) (ماكينة) ٢٩٩
واترلو ٢٩٢
واشنطن (جورج) ٢٨٤ ، ٢٩٣
والدو ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٥١

هانيبال ٩٤٠
هتلر (أدولف) ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٨١ ،
٣٨٥
هرقل (الإمبراطور) ١٩٥ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤
هرقليا ١٣٦
هرقليتوس ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٢٥
هرون الرشيد (الخليفة) ٢١٩
هس (جون) ٢٥٠ ، ٢٥٢
هسيا (إمبراطورية) ٢٣٦
هكسوس ٦٧ ، ٧١ ، ٧٣
هل (كوردل) ٣٩٠
هلد براند ٢٢٨
الهليني (العالم) ١١٩ ، ٢١٠
الهاوطية
هليوليثي (هليوليثية) - (انظر الثقافة
الشمسية الحجرية)
الهمالايا (جبال) ٢٧ ، ١٢٢
الهند ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٩٧ ، ٢٠٠
الهند وإسيكيديون ١٥٨
الهندوكية (الديانة) ١٢٧
هنري الرابع (الإمبراطور) ٢٢٤
هنري السادس (الإمبراطور) ٢٢٩
هنري الثامن (ملك إنجلترا) ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨
هنري الصياد ٢١٧

يسوع ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،
 ٢١٣ ، ٢٥٢ ، ٢١٥
 اليسوعيون (الرهبان) ٢٥٣ ، ٣٠٤
 (الآباء) ٣١٣
 اليهود ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢١ ،
 ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢١٩
 يهودية (يهوذا) ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٤٢ ،
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٤١
 يوان (أسرة) ٢٣٨ ، ٢٣٩
 اليونانيا ١١٠
 يوحنا الحادى عشر (البابا) ٢٢٤
 يوحنا الثانى عشر ٢٢٤
 يوربيدس ١٠٩
 يوشع (الملك) ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠
 يوليوس الثالث ٢٦٠
 يوليوس قيصر ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 يونان (انظر إغريق)
 اليونانية (اللغة) ٢٠٦

ورق ٢٦٥ ، ٢٦٦
 وستفاليا ٢٧٠ ، ٢٩٨
 الولايات المتحدة الأمريكية ٣٢٣ ، ٣٢٥
 ولزى (الكردينال) ٢٦٨
 ولسن (الرئيس) ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦
 ولنجتون ٢٩٢
 الوندال ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٩٢
 ويجاند (الماريشال) ٣٨٩
 ويفل (الجنرال)
 ويكليف ٢٣٥ ، ٢٥٠
 ويلز ٣٢٥

(ى)

اليابان ١٢٧
 الحرب اليابانية الصينية ٣٤٤
 اليرموك (معركة) ٢٠٤

اسم هذا الكتاب بالإنجليزية

A Short History Of The World
by
H. G. Wells


ترجمة المؤلف :

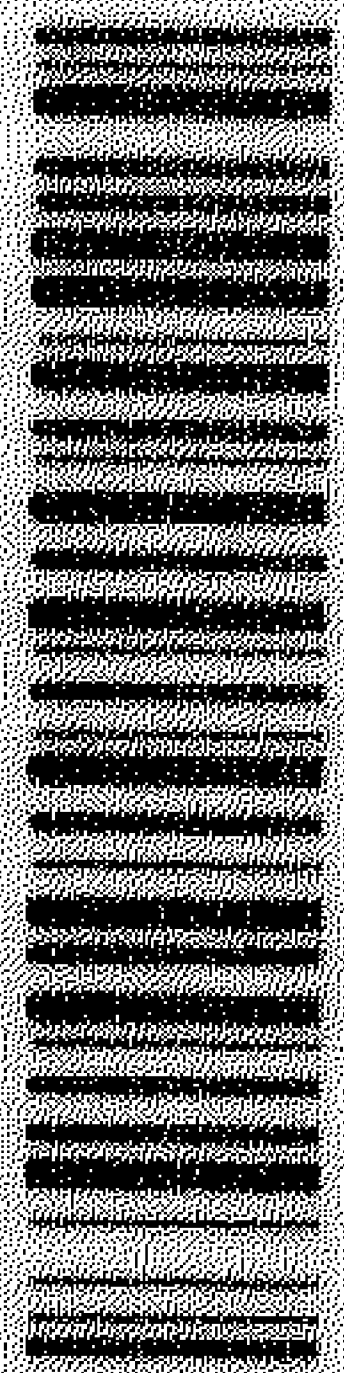
هو هـ.ر.بـ. جورج ولز ١٨٦٦ — ١٩٤٦ . الكاتب والنبي الناصح لعصر الإنسانية العلمى . ولد فى بروملى (كنت) أبوه لاعب كريكت محترف .

حصل على بكالوريوس العلوم فى ١٨٨٨ . تولى التدريس بضع سنين ثم نشر «آلة الزمان» فى ١٨٩٥ ، وهى محاولة لإنشاء القصص العلمى ، أردفها بقصص أخرى علمية أشهرها « الرجل الخفى » . ثم أخذ ينتج الروايات النفسية والاجتماعية مثل « كيبس » و « تونو بنجاي » و « تاريخ المستر پولى » و « مكيا فيللى الجديد » (١٩١١) و « الزواج » (١٩١٢) . والروايات التالية تعكس اهتمامه بالاشتراكية الفابية وهى « اليوتوبيا العصرية » (١٩٠٥) و « الأشياء الأولى والأخيرة » كما توضح أيضاً اهتمامه بعالمنا الذى جدد استخدامه وسائل العلم الحديثة . ثم أصدر أثناء الحرب العظمى « المستر بريتلينج يتلبأ بالعواقب » (١٩١٦) .

ثم التفت ولز بعد ذلك إلى التاريخ وأنتج فى ١٩٣٠ « معالم تاريخ الإنسانية » [الذى ترجمه كاتب هذه السطور] وهو سفر ضخم استعرض فيه المغامرة البشرية بأكملها وحللها تحليلًا فلسفيًا وافيًا وهذا الكتاب الذى يكمله « عمل الحياة » بالاشتراك مع جوليان هكسلى وولده ج . ب . ولز (١٩٢٩) كما يكمله « علم الإنسانية وثروتها وسعادتها » (١٩٣٢) يكون ثالوثاً ضخماً كان الهدف منه تزويد إنسان القرن العشرين بمذهب حديد هو الإيمان بالأخوة البشرية وبوحدة العالم . وظل ولز ماعقب ذلك من السنين منشغل البال « بما يخبئه القدر » للبشر . وأنتج كتاب « مصير الإنسان الحق » وأخذ يدعو جميع الطبقة المفكرة فى العالم إلى القيام « بمؤامرة علمية » . وكان آخر كتاب أصدره هو « العقل فى أقصى توتراته » (١٩٤٤) . فأما الرجل نفسه فيصوره كيتابه « تجربة فى كتابة السيرة الذاتية » .

مطبعة العنادة بمصر
١٩٦٧

 Bibliotheca Alexandrina



0356326